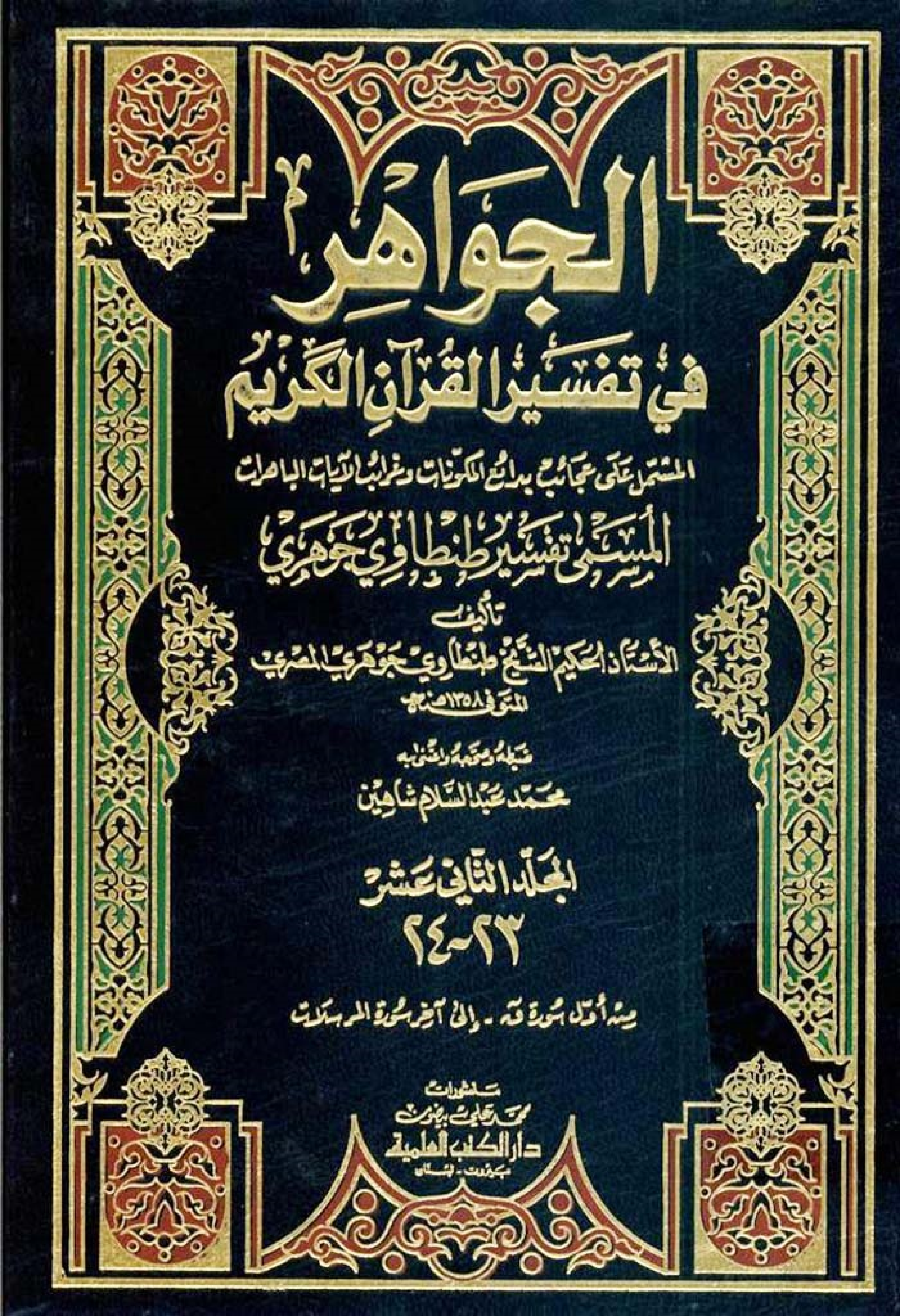

الجواهر
في تفسير القرآن الكريم
المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات
المسمى تفسير طنطاوي جوهري
تأليف
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري
المتوفى في ١٣٥٨ هـ
ضبطه وصححه واعتنى به
محمد عبد السلام شاهين
المجلد الثاني عشر
٢٣-٢٤
من أول سورة ق - إلى آخر سورة المرسلات
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الجواهر

في

تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري

المتوفى ١٣٥٨هـ

ضبطه وصححه واعتنى به

محمد عبد السلام شاهين

الجزء الرابع والعشرون

المحتوى:

من أول سورة الرحمن - إلى آخر سورة المرسلات

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾
[النحل: ٤٤]

تفسير سورة الرحمن

هي مدنية

آياتها ٧٨، نزلت بعد الرعد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَىِّ

ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾

هذه السورة ثلاثة أقسام:

القسم الأول: في تفسير البسملة.

القسم الثاني: في عجائب عالم الدنيا، من أول السورة إلى قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ ﴾.

القسم الثالث: في عجائب عالم الآخرة، من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ ﴾ إلى آخر السورة.

القسم الأول: في تفسير البسملة

هذه السورة فصلت كثيراً من رحمات الله عز وجل لمخلوقاته، فكأنها تفسير للرحمة في البسملة المكررة في كل سورة، فمن رحماته:

(١) إنزال الديانات ونشرها بين الأمم، وآخرها دين الإسلام وكتابه القرآن.

(٢) وخلق الأجسام والعقول الإنسانية . (٣) وإلهامها العلم والفهم والنطق والحكم .

(٤) فيدرس هذا الإنسان الذي قرأ الدين المنزل نظام الشمس والقمر والكواكب والمجرات والسدم وحسابهن وأقدارهن وأبعادهن .

(٥) ثم ينظر نظرة أخرى في نتائج هذه العوالم فيجد نوعي النبات من التي لا ساق لها وهي المسماة بالنجم ، والتي لها ساق وهي المسماة بالشجر .

(٦) ثم إذا فرغ من هذين ونظر تبصرة وتذكرة اعتراه الدهش من الحساب المتقن فيهما كما تقدم في هذا التفسير ، فماذا يرى ؟ يرى ميزاناً منصوباً ، وحساباً معقولاً ، ويفهم كيف انتظم هذا العالم من علوي وسفلي في الفلك بالرياضيات ، وفي النبات بعلم الطبيعة ، والمواليد الثلاثة ، والكيمياء العضوية ، ومتى درس ذلك ارتسمت تلك المزايا في نفسه ، وامتزجت بعقله وعواطفه ، وشعر في نفسه بأن النظام صفة من صفاته لكثرة ممارسته النظام الذي به تتربى الملكات الإنسانية ، فيحكم بالعدل ويعاشر بالإنصاف ، وتكون حياته كلها موزونة لما شاهده من الكمال والميزان ، وذلك يصبح كالغريزة له ، ومن ذلك كيله وميزانه للناس بيعاً وشراء وأخذاً وعطاء ، وهذه نعم لا حصر لها .

(٧) ثم ينظر فيرى أن العوالم الأرضية المذكورة وما فيها من الفاكهة والريحان الخ ؛ وما تقدمها من الكواكب ؛ جميعها منتجات ظهور الحيوان والإنسان المخلوق من طين فنطفة فعلقة إلى أن يصير بشراً سوياً ، فتزيد النعم في قلبه ظهوراً ويزداد شكراً وحباً ، وإذا كان نفس الإنسان لن يراها أحد فهذا دليل على جواز وجود عوالم عاقلة لا نراها جاء بها الدين ، وهذه العوالم هي الجان .

(٨) وبعد أن يدرس ما تقدم إجمالاً يأخذ في التفصيل كالمشرق والمغرب اللذين أمرهما يرجع إلى علم الفلك المتقدم ، وكالبحر الملح والعذب اللذين يرجعان للعالم الأرضي المتقدم ذكره . ولما كان البحر يحوي لؤلؤاً ومرجاناً خصصهما بالذكر تبياناً للمسلمين النائمين نوماً عميقاً ، كأن ربنا يقول لكم أيها المسلمون : يا عبادي ، ألم يكف في هذه السورة أن أذكر لكم الشمس وحسابها استغناء بها عن المشرقين وعن المغربين ؟ أولم يكف ذكر الأرض وأني وضعتها للأنام عن ذكر ما عليها من الريحان وما فيها من البحار ؟ أولم يكف ذكر البحار عما فيها من الدر والمرجان ، وما عليها من الجوار المنشآت في البحر كالأعلام ؟ .

إذن الله عز وجل يقول لنا : لا تكتفوا أيها المسلمون بالمعرفة العامة ، فلتقرؤوا الأجزاء بعد الإجمال ، ولتقرؤوا الجزئيات بعد الكليات ، أليس من العجب أن يبتدئ السورة باسمه « الرحمن » ويسند إليه التعليم ؟ إن هذه السورة جاءت لتبين طريقة التعليم التي يتبعها المسلمون في المستقبل ، وهذه الطريقة أشبه بالتي قالها ابن خلدون في المقدمة ، وذلك أنه رأى المسلمين في زمانه قد نضب معين العلم عندهم ، فأخذ يفند آراءهم ولكنه أيس من إصلاحهم في ذلك ، واعتقد أن الداء عضال وقد صدق ، ولكن هذا الداء قد أخذ يزول اليوم ، والمسلمون استيقظوا استيقاظاً لا سبيل لرده ، ولا رادّ لارتقائه وبلوغه أوج الكمال ، فقد ندد على طريقة التعليم ، وعلى الكتب الصعبة ، وعلى مضايقة التلميذ وحشو رأسه بأقوال متناقضة واختلاف كثير .

ثم قال : إن التعليم يكون على ثلاث درجات : فأولاً يؤتى بالقواعد العامة إجمالاً ، ثم يعاد مرة أخرى بطريقة أوسع ، ثم يعاد مرة ثالثة ، وهناك تتربى الملكات ، والذي في الآية هو هذا فلم يذكر الله الأرض مكتفياً بها ، ولا بذكر ما فيها من الأشجار والبحار ، ثم انتقل الكلام من الشجر والنجم العامين إلى أفرادهما المفصلات كالفاكهة ، وزاد الأمر تفصيلاً بذكر النخل والحب والعصف والريحان .

هاهنا استكمل النظام الذي يتبع في التعليم الأولي في العالم الإنساني ، وهو أولاً دراسة العوالم العلوية والسفلية في المدارس الابتدائية والثانوية ، فلا بد أن تدرس هذه العوالم إجمالاً ثم تفصيلاً ، فالإجمال هو العلم الذي يسمونه علم الأشياء ، وهذا العلم يشار له بالجمل في أول السورة ، ثم تدرس في نفس المدارس الثانوية نفس تلك العلوم ، وهذا هو التفصيل بعد الإجمال المتقدم . ثم إن الذين يختصون بهذه العلوم أي أولئك الذين يدخلون القسم العلمي في المدارس العالية الذين يخصصون أنفسهم لدراسة هذه العلوم ؛ يدرسون هذه العلوم بطريقة أوسع .

إلى هنا تمت دراسة الحياة الدنيا ، وما هذه الدنيا إلا لوح كتبت فيه هذه الأرقام . وإذا تعلم الأطفال ما كتب يجب محوه لكتابة غيره ، هاهنا أخذ يذكر بناء هذه العوالم وأنها مظاهر جماله وجلاله ، وهي الحجب المسدولة بيننا وبينه ، ومتى فهمنا الدرس الذي أعطاه لنا عرفنا كيف نقابله ونرى وجهه الكريم ، وهاهنا يذكر بعد الشقة بين هذا الإنسان الضعيف وبين صانع العالم جلّ جلاله ، فلن يمتع بلقائه والسعادة بجواره إلا بعد أن يسأل عما قرأه في اللوح الذي نشر له في الدنيا ، والدين الذي أنزله ، فكما أنعم عليه بالسماوات والأرض في الحياة الدنيا يحاسبه على تلك النعم يوم القيامة ، كما أن التلميذ بعد الدراسة يمتحن فيما تعلمه . فكما أن العبد كأن يسأله ربه في الدنيا المعونة وقد آتى الناس من كل ما سألوه ، هكذا يسألهم هو يوم القيامة عما عملوه ، فالسؤال مختلف باختلاف السائل والمسؤول .

ثم أخذ هاهنا يصف النعيم والعذاب في الجنات والنيران مما يبهر العقول لذة وجمالاً ، ويفتت الأكباد شقاء ونكالاً . ذلك خلاصة ما انتظم في هذه السورة من معان وما جاء فيها من حكم ، ورحمات مفصلات ، وآيات مبينات ، ورقائق ساحرات ، وحور مقصورات ، وجواهر مكنونات ، وعلوم مخزونات ، وقضايا عجيبات .

نهج المسلمون المنهج الحسن في الأعصر الأولى ، ثم تدلى التعليم في العصور المتأخرة شيئاً فشيئاً . فأخذوا يذمون علوم الحكمة في بلاد الشرق بالدولة العباسية وفي بلاد المغرب الأقصى والبلاد الأندلسية .

وأخذ الملوك يتزلفون إلى العامة بمقاطعة العلماء ، كما فعل بعض ملوك المغرب في أواخر القرن السادس الهجري في دولة الموحدين ، إذ نفى ابن رشد ، وكما فعل بعض ملوك العباسيين كذلك في بغداد فيما يقرب من ذلك التاريخ ، فانزوى العلم في بلاد الإسلام ففر هارباً إلى أوروبا مع تلاميذ ابن رشد المسلمين واليهود ، كما مر مفصلاً في هذا التفسير . وهؤلاء دخلوا في حمى بعض ملوك ألمانيا . وتغلغل العلم في بلاد أوروبا فقامت قومتها ثم رجعت إلينا عقاباً من الله على ما فرطنا .

يا رباه يا رباه . لبيك لبيك يا رباه . نحن أذنبنا وإليك تبنا ، كنا نجهل طريقة التعليم والآن أخذنا نرجع إلى سواء الصراط فيها بتعليمك . وقد عرفنا أن رحمتك التي وسعت كل شيء لم تخل المسلمين المتأخرين قبلنا مما يحفظ عليهم دينهم .

رباه ، عرفنا أن المسلمين لما غم عليهم الأمر وذهبت الحكمة من بلادهم تستر العقلاء فيهم بالتصوف وحجبوا عن العلوم التي جعلت أساً لعلم التصوف ، فرأينا الإمام محيي الدين ابن عربي ذا العلم الواسع يؤلف في التصوف وهو متضلع من علم الحكمة ، ولكنه لا ينطق باسم الفلسفة بل يسمي ذلك تصوفاً . ثم رأينا المسلمين بعد ذلك يتدلى التعليم عندهم شيئاً فشيئاً ، إلى أن تجاوز سننك المعروف في هذه السورة .

فأنت يا رباه ذكرت لنا العوالم التي نعيش فيها ، ولكن رجال التصوف والأسرار لما نشروا آراءهم جعلوها عويصة مع أنك أنت أريتنا الجمال الذي يراه الخاص والعام ، وأن ما ذكره العارف بالله الأستاذ « عبد الكريم الجيلي » المتوفى سنة ٨٩٩ هجرية في رسالته « الكهف والرقيم في شرح فوائد بسم الله الرحمن الرحيم » تبيان لطرق التعليم عند متأخري الصوفية لأمم الإسلام المسكينة . إنه رحمه الله ابتدأ هذه الرسالة بخطبة يصف بها الله عز وجل بنعوت الجمال والجلال ، وأخذ يذكر أنه استخار الله تعالى في إملاء كتابه هذا لمن طلبه ، وهو عماد الدين التونسي . ثم أخذ يطلب من القراء أن يفهموا العبارات والإشارات ، والتصريحات والكنايات ، والتقديم والتأخير في رسالته . ثم أخذ يذكر أن سر الكتب المنزلة كلها في القرآن ، وما في القرآن في « الفاتحة » ، وما في « الفاتحة » في البسملة ، ومعاني البسملة في الباء ، وكل ما في الباء في النقطة التي تحت الباء ، ولا جرم أن هذا القول يجري اليوم على كل لسان في بلاد الإسلام يشيعه رجال الصوفية كابراً عن كابر .

ثم أخذ يبين أن البسملة يتكلم فيها قوم من جهة علوم النحو والصرف واللغة ، وقوم من حيث منافعها وأسرارها ، ولكن هو يتكلم عما فيها من المعاني التي تليق بجانب الحق . وهذه المعاني التي سيقولها في الرسالة ألقيت على قلبه . وهاهنا بيت القصيد . وهو أن النقطة التي تحت الباء فيها السر كله ، منها تشتق الأسرار والعوالم ، وأخذ يذكر أن من الحروف ما لا يعرف إلا بالنقط . هكذا العوالم لم يعرفها لنا إلا الله .

فالله الذي فصل العوالم به عرفت العوالم كما عرفت الحروف بالنقط . وهاهنا أخذ يتوسع في هذه المعاني ، وأخذ يبين أن النقطة في الحروف المهملة متحدة بالحرف كالألف والدال مثلاً ، فلذلك لم تكن للألف نقطة والألف أقلها نقطتان . وهذا القول مأخوذ في علم الهندسة ، يعرفه من قرأ مبادئها .

ولما وصل إلى هذا أخذ يذكر أنها ظاهرة في جميع الحروف . فالجيم ألف معوجة الطرفين ، والدال منحنية الوسط ، وانتقل منها إلى أن الحقيقة المحمدية خلق العالم بأسره منها ، معتمداً في ذلك على حديث جابر ، وهو ليس من الصحاح ، فهو أولاً يقول : إن النقطة في الحروف سواء أكانت منفصلة كما في الحروف المعجمة أو متصلة كما في الحروف المهملة كالحق سبحانه وتعالى ، فهو مع كل أحد بكماله كما أن النقطة مع كل حرف بكمالها ، ولما كانت الألف مركبة من نقطتين كانت الحقيقة المحمدية التي

ورد فيها ذلك الحديث المتقدم، وأن الله خلق العالم كله من النور المحمدي، ولذلك قدم الألف على جميع الحروف كما قدم صلى الله عليه وسلم على جميع الأنبياء.

ثم أخذ يجعل هذه النقط إشارات إلى الأحاديث مثل: «ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله أو بعده أو معه» روايات، ورجع ذلك إلى حال النقط المختلفة، ومن النقط ما تكون بيضاء كالنقطة البيضاء في قلب الميم والواو وأمثالها، وهذا نص عبارته، فإنه محل ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله فيه ولهذا تجوف، لأنه ظهر في جوفه شيء غيره، فدائرة رأس الميم محل ما رأيت شيئاً، ونقطته البيضاء محل إلا ورأيت الله فيه، والألف محل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾[الفتح: ١٠] الخ.

وأخذ يفصل الكلام في الحروف على هذا النحو وجعله فصولاً، ففصل مثلاً لتطويل «الباء» بعد إسقاط «الألف»، ثم آخر للصق «الباء» بـ«السين» في البسملة، وآخر يقول فيه: إن «السين» عبارة عن سر الله وهو الإنسان. ثم أخذ يفسر الآيات من أول «يس» وآية آخر «التوبة»، ثم رجع إلى «الألف»، ثم إلى «الميم»، ورجع إلى عددها بالجمل وهو ٤٠، وقال: إن هذا العدد هو عين كمال الاعتدال في كل شيء، وهو الموافق لعدد مراتب الوجود وهي:

ذات ساذج (١) العماء (٢) الأحدية (٣) الواحدية (٤) الألوهية (٥) الرحمانية (٦) الربوبية (٧) العرش: وهو الجسم الكلي (٨) القلم الأعلى: وهو العقل الأول (٩) اللوح المحفوظ: النفس الكلية (١٠) الكرسي: وهو العقل الكلي، وقال: هو القلب (١١) الهيولى (١٢) الهباء (١٣) فلك العناصر (١٤) الفلك الأطلسي (١٥) فلك البروج (١٦) فلك زحل (١٧) فلك المشتري (١٨) فلك المريخ (١٩) فلك الشمس (٢٠) فلك الزهرة (٢١) فلك عطارد (٢٢) فلك القمر (٢٣) فلك الأثير (٢٤) فلك النار (٢٥) فلك الهواء (٢٦) فلك الماء (٢٧) فلك التراب (٢٨) فلك المولدات (٢٩) فلك الجوهر البسيط (٣٠) فلك العرض اللازم (٣١) المركبات: وهي المعدن (٣٢) النباتات (٣٣) الجمادات (٣٤) الحيوانات (٣٥) الإنسان (٣٦) عالم الصور: منه ما يلحق بالدنيا (٣٧) عالم المعاني: منه ما يلحق بها البرزخ (٣٨) عالم الحقائق، ويلحق بها القيامة (٣٩) الجنة والنار (٤٠) الكثيب الأبيض الذي يخرج إليه أهل الجنة.

هذه زبد الكتاب، فلينظر شبان المسلمين في زماننا الذين يدرسون أمثال هذا التفسير حال الأمم الإسلامية المسكينة، كيف حجبوا عن العلوم، واضطر رجال الصوفية والصالحون أن ينتقلوا بهم من الجوهر إلى العرض، ومن الحقيقة إلى المجاز، ومن الأصل إلى الفرع، ما هو الأصل؟ هو هذا العالم، هو المذكور في سورة «الرحمن»، وهذا العالم تدل عليه الحروف، والحروف لا حصر لأشكالها من اللاتينية والعربية والصينية والهيروغليفية وغيرها، ولما كانت الحروف عندنا نحن المسلمين هي العربية قالوا: هذه محل السر، مع أن الشجر والحجر والقمر كلها جمال وأسرار، وهذه جعلت لتدل عليها، ثم انتقلوا من الحروف إلى الذات العلية وأخذوا يتفننون، ومن أعجب هذا التفنن أن حرف «الميم» يشير من حيث شكله إلى حديث: «ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله فيه»، ومن حيث عده إلى أن مراتب الموجودات (٤٠) وهذا أمر أعجب، وهاهنا عمدوا إلى العلوم التي نقلت عندهم عن علماء اليونان،

والمعروف عندهم الكواكب السبعة وفلك البروج والفلك الأطلسي، فأتى بها كلها وزاد عليها أشياء كالذات الساذج والواحدية والأحدية ونحوها، ثم كرر في بعضها فذكر المولدات وهي نفس المعادن والنبات والحيوان، ومن العجب أن يجعل للعرض اللازم فلكاً، ويجعل المركبات هي المعادن، مع أن هذا عند القدماء خطأ، بل المركبات تشملها وتشمل الحيوان والإنسان، ومن أعجب العجب أن يجعل الجمادات قسماً وحدها، وهذه كلها خطأ محض في التقسيم والتعليم، وهذا دليل على أن القوم رحمهم الله كانوا يجتهدون ولو بطريق التقريب في أن يجعلوا هناك معارف مبنية على هذه الحروف من حيث عددها مثلاً، لأن المراتب إذا كانت أربعين وعدد « الميم » أربعون أحدثت عند الجهال إيماناً وتصديقاً، ويقولون: هذا من الأسرار، ثم إذا ثبت في ذهنه ذلك أصبح يرى أن كل العلوم قشور لا قيمة لها، ويحتقر ما سوى ذلك، ويعيش ويموت مؤمناً موحداً، ولكنه يجهل مقاصد دين الإسلام ومقاصد الأنبياء وإن كان هو صالحاً، ثم يرى الأمة كلها دون مرتبته، لأنه فهم حقائق الوجود والناس دونه، وأن علماء الدين وشيوخ الإسلام محجوبون، أما هو وأمثاله فإنهم الواصلون أو شبه واصلين.

أنا أقول: إن القوم كانوا يكتبون ذلك وهم يتقربون إلى الله به، وقد فعلوا ما قدروا عليه في زمانهم، وقد قلنا: إن العلم هرب من الشرق إلى الغرب قبل ذلك بزمان، فإذا كان موت الشيخ الجيلي رحمه الله في أواخر القرن التاسع فذلك في إبان سقوط دول الإسلام، وقد فارق بلادهم قبل ذلك لأن ابن رشد كان قبل ذلك بثلاثة قرون، فإذا رحل العلم إلى أوروبا قبل هذا الكتاب بثلاثة قرون فأهل الصلاح معذورون إذا تفننوا في بقايا العلم وألصقوها بالحروف الهجائية، متبعين في ذلك الباطنية الذين جعلوا الأسرار في الحروف قبل ظهور حسن بن الصباح في « قلعة الموت » في أواخر القرن الخامس الهجري كما قدمناه في غير هذا المكان، فكانوا يحسبون جملها ويجعلونها أسراراً مع أنها تقبل الضدين ولكنهم جعلوها آلة في أيديهم يتصرفون فيها كما يشاؤون. انظر هذا المقام في سورة « الكهف » عند آية: ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾[الكهف: ٥١]، ففي غضون الكلام هناك إشارة لبعض ذلك.

الله أكبر، ظهر الحق واستبان السبيل، نحمدك يا ربنا، نحمدك على التعليم، وعلى تنوير أمة الإسلام في زماننا. الله أكبر، سيقوم الشبان بعدنا ويقرؤون جميع كتب القدماء، وينقدونها، ويعرفون غثها من سمينها.

الله أكبر، إن هذا النوع من التعليم يربط القلوب ويقفلها فلا تقبل إلا ما كان من قبيل هذه الأحوال وما بعد ذلك وهم باطل، بذلك ضاعت أمم الإسلام وذلت قروناً وقروناً، وما أشبه هذا التعليم من حيث تحكمه في العقول بما قدمناه في سورة « سبأ » عند ذكر المهدي محمد بن تومرت، ذلك العالم الذي أداه اجتهاده إلى أن المسلمين في زمانه لا يحكمون إلا بطريق الاعتقاد، وأنه المهدي المنتظر وجعل له دولة وقال: إن هذه الدولة ستبقى إلى آخر الزمان، ولكن هذه الدولة دالت بعد نيف وقرن من الزمان، انظر قصته هناك في سورة « سبأ » كما قدمناه، ولكن هناك نقطة لم تتضح، فسأذكرها هنا ليظهر للمسلمين في زماننا كيف كان يحكم آباءهم، وكيف كان الشيوخ لا يجدون طريقاً لحكمهم إلا إيهامهم، وهذا الإيهام يتناقله الحكام بطرق مختلفة، ويتناقله كثير من الصوفية إلى الآن اعتقاداً منهم

أن هذا الأمر لا بد منه، فإذا رأينا المهدي محمد بن تومرت بقتل سبعين ألف مسلم لأنهم على خلاف رأيه بالحيلة والخداع، فهكذا نرى الأساتذة المحترمين في الأمة بعد ذلك يعمدون إلى ألفاظ من العلوم ويجعلونها في كتاب ويربطونها بالبسملة، وينشرونها باسم أنها أسرار فيربطون القلوب ويقرؤها الجهال من أيام تأليفها إلى الآن، أي: في مدة ٤ قرون ونصف قرن، وهم يظنون أنها علوم ولا علم فيها، وإنّما هي أخلاط وضعت معاً إيهاماً للطلاب أنها أسرار، وإذا نجح المهدي محمد بن تومرت في أنه نظم دولته والدولة نفعت الناس ثم انتهت، وإذا نجح الجيلي رحمه الله في كتابه، وأن الناس قرؤوه وآمنوا بالله، وناموا على ذلك وهم جهال بكل علم وفن، فليس معنى هذا أن ذلك ينفع في زماننا. كلا والله. فلا الحاكم الذي يغشنا بالوهم اليوم بمغن فتيلاً كملوك بني عثمان في أواخر أيامهم، ولا ذلك الذي يدعي أنه واصل لله تعالى وهو خال من علوم الحكمة بصالح أن يقود أمم الإسلام الآن.

لا ظلم اليوم يا أمم الإسلام. أيها المسلمون، أنا في هذا المقام قرنت إيهام المهدي محمد بن تومرت بإيهام الملوك العثمانيين في أواخر الدولة، وإيهام شيوخ الصوفية كالجيلي رحمه الله، لأن العلم والحكم من واد واحد، فالحاكم لا يقدر على إيقاع الوهم على العلماء وإنّما الوهم يقع على الجهال، ولقد جمع الأمرين معاً المهدي محمد بن تومرت الذي اجتهد فأخطأ، وهاك بعض حديثه الذي أشرت إليه من كتاب «زحلان» تحت عنوان «ذكر قيام محمد بن تومرت أنه المهدي المنتظر»، إذ ذكر أنه من جبل السوس، وادعى أنه شريف علوي حسني. قرأ علوماً بالمغرب وارتحل إلى المشرق، وقابل الإمام الغزالي رحمه الله، ورأى مرتين أنه شرب ماء البحر، فقام في نفسه أنه المهدي، فأخذ في الزهد وفي الذكر والعبادة، وكان يقتصر على رغيف كل يوم وعلى الزيت، ومن أتباعه عبد الله الونشريسي، وكان هذا عالماً متضلعاً في العلوم، فأمره أن يكتم ما عنده من العلوم، وأن يجعل نفسه أصم أبكم كالمجاذيب حتى يأتي الوقت الذي تظهر فيه علومه كمعجزة لتتميم ما يريده، فبقي أبكم بين الناس أبله، ولعابه يجري على صدره، ولا يتكلم إلا مع الشيخ في خلوته، ثم إنهم دخلوا مراكش وأثاروا ثائرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وجعلوا ذلك ذريعة لقلب الدولة، وحضر بين يدي أمير المسلمين في مراكش، وكان وزيره مالك بن وهب رجلاً حازماً، فأشار على أمير المسلمين بقتله لأنه لا يريد بالوعظ إلا الملك، ولكن الملك عفا عنه، وذهب هو ومن معه إلى السوس، و ذلك سنة أربع عشر وخمسمائة، وكان من أمره ما كان، وتقدم ذكره في سورة «سبأ»، وقد بقيت دولتهم نحو مائة سنة، وكانوا يزعمون أن هذه الدولة ستبقى حتى ينزل عيسى ابن مريم، وأنه هو المهدي المنتظر، إلى آخر ما هناك.

ولقد كان من أصحاب المهدي عمر بن يحيى الهتاني، قيل إنه ينتهي نسبه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، صار بعد المهدي من وزراء عبد المؤمن، وأعطى بنو عبد المؤمن أولاد عمر المذكور ولاية تونس، فكانوا يسمون الحفصيين، استمر ملك تونس فيهم إلى سنة تسعمائة وإحدى وثمانين، فانتزع الملك منهم الدولة العثمانية، وكانوا يلقبون بالحفصيين، وكانت مدة ملكهم تونس ثلاثمائة وثمانية وسبعين سنة، وهم من فروع دولة محمد بن تومرت، واختلف الناس في أمر ابن تومرت، فقال

بعض العلماء: إنه أراد إظهار الحق فاجتهد وأخطأ، وقال بعضهم: إنه كان على الأمة شراً من الحجاج ويزيد، والله أعلم بحقيقة الحال. اهـ.

ملخص هذا المقام: إن الرحمة التي ذكرت في بسملة سورة « الرحمن » يدخل فيها عجائب السماوات والأرض وما بينهما المذكورات في السورة، وفيها كيفية تعليم الإنسان، لأن السورة مبدوءة به، وأنه يكون بالتدريج الأعم فالأخص، وأن هذه الطريقة ذكرها ابن خلدون، وأقول الآن: إن إخواننا رجال « دار العلوم » قد اتبعوها في تعليم اللغة العربية ونجحوا، وقلبوا تعليم الأمم الإسلامية في ذلك، وإذا كانت رحمة الله عز وجل قد انتشرت في زماننا في طريقة التعليم؛ فقد ذكرتنا بما كان عليه التعليم في القرون المظلمة الإسلامية أيام أن طردوا العلم فقلّ من بينهم، فأتينا بكتاب « الكهف والرقيم في شرح فوائد بسم الله الرحمن الرحيم » للجيلي رحمة الله عليه، فرأيناه رجع المعارف كلها إلى باء البسملة، ثم إلى نقطتها، والنقطة في مقابلة الذات العلية إلى آخر ما قال، وانتهى أمره إلى الميم من البسملة، فأدخل في عددها وهو ٤٠ ٤٠ مرتبة، وهذه المراتب عبارة عن الكواكب المعروفة في زمانهم ونظام طبقات العوالم على حسب ذلك الزمن مع تحريف وتكرار واختلاط، فذكرنا نظام هذا العلم بنظام الملك فوجدناهما فرسي رهان، فالملوك العثمانيون في أواخر أيامهم يوهمون الشعوب بعظمتهم الجوفاء في قصورهم، وبعض رجال الصوفية والمهديين يستحلون الأكاذيب مجتهدين خطأ أن هذا هو الباب الموصل لحفظ الأمة في زمانهم، ولكن الأمة الآن قد أخرجها الله من هذه الجهالات والظلمات، ومتى استنارت بالعلم طردت كل دجال فلا يعلمها ولا يحكمها، لأن الحق أحق أن يتبع.

لقد كان أمثال المهدي محمد بن تومرت ومن ماثله ـ من المذكورين في سورة « الشعراء » عند ذكر السحر وهم المشعوذون الذين اتخذوا الشعوذة سبباً في الملك ـ أشبه بالطبيب يستعمل كي المريض فترى ابن تومرت يردم البئر على الثلاثة الذين شهدوا للونشريسي، وأعدم سبعين ألف قتلاً ظلماً ليكون أتباعه كالغنم تتبع راعيها، وهكذا فعل حسن بن الصباح في قلعة الموت بجهات أصبهان، فكان يحرم على أصحابه العلم ليبقوا جهلاء، والله يقول: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾[الرحمن: ١-٤]، وهكذا فعل ملوك العثمانيين إذ منعوا العلم عن المسلمين وقد أخبرني شاب حجازي منذ أيام في هذه السنة ١٩٣١م الموافقة سنة ١٣٥٠ هـ أنهم ما عرفوا شيئاً من العلم، ولا من أخبار العالم، ولا من اللغة العربية التي هي لغتهم، إلا بعد ذهاب دولة السلطان « حسين الهاشمي »، لأنه كان أولاً تابعاً لتركيا، وهي أوجبت أن لا يقرأ النحو إلا باللغة التركية، وبعد أن خلع طاعتها حرم الجرائد، ولما زالت تلك الدولة تعلم الناس وقرؤوا الجرائد، هكذا أخبرني، فالإنسانية في مثل هذه الحال تتنزل إلى درجة تحت درجة الحيوان في النظام، لأننا قرأنا نظام جمهوريات النمل والنحل مثلاً فلم نعثر على هذه الضلالات والأكاذيب والخداع، إذن الإنسان أمكنه أن يعيش وهو أدنى من الحيوان منزلة مع بقاء عقله محفوظاً ولكنه مغمور في الجهالة، وهذه الحال التي عاش بها المسلمون قروناً بعد العصور الأولى جعلها الله درساً للمسلمين الذين يأتون بعدنا، وهذا التفسير قد جعله الله مملوءاً من العبر والمبتدأ والخبر ليكون تذكرة لهم، فلن يقعوا فيما وقع فيه آباؤهم، ولن

يضحك عليهم أحد بعد اليوم، وسيتعلم الرجال والنساء، ويدرسون علوم الأمم ولغاتهم كل بحسب طاقته، فالرحمة هنا من وجهين:

الوجه الأول: أن الأمة مع جهلها أمكنها أن تعيش وإن كانت في نظامها أنزل من نظام الحيوان.

الوجه الثاني: أن هذه الشقاوة التي حلت بالآباء بسبب الجهل تكون مهمازاً يسوق الأبناء إلى العلم الصحيح، والحكم الصحيح، والتباعد عن الدجل والكذب والبهتان.

إن الأمة تعتبر كلها أولها وآخرها كنفس واحدة شاء الناس أم أبوا، فخطأ الآباء يحترس منه الأبناء، وعلم الآباء نافع للأبناء، الأمة الواحدة في نفس هذه الحياة نفس واحدة، فنراها في الحرب والنصر، وفي العز وفي الذل مشتركة، ويظهر لي أن هذا النوع الإنساني يربى في هذا العالم وفي عوالم أخرى في البرزخ ليصل إلى درجة أن تكون الأنفس كلها نفساً واحدة، وأهل الأرض اليوم جهال في هذه القضية متشاكسون. والله هو الولي الحميد، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وهذه من أسرار التعليم في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[الرحمن: ١-٤]. كتب ليلة الجمعة ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٥١ هجرية وفرغت منها بعد منتصف الليل.

بهجة العلم في هذا المقال
وهو تفسير البسملة في سورة الرحمن

لقد لخصت الكتاب الذي ألفه «الجيلي» رحمة الله عليه منذ ٤٥٠ سنة تقريباً، فظهر منه أن العلم إذ ذاك عبارة عن بقايا علوم وآثار منها وأشتات، فإنه ذكر رؤوس المسائل الفلسفية القديمة مثل الأفلاك التسعة المعروفة عنهم، وترتيب العالم السفلي، وهذا ملخص الفلسفة القديمة مع انضمام المعدن والنبات والحيوان، فضم ذلك كله بالاسم لا بالشرح، وزاد عليه ألفاظاً مبهمة وجعلها مراتب الوجود، والأمم الإسلامية في هذه القرون تجهل علم الفلسفة القديم لأنها معتاصة وفائدتها ضعيفة، ولأن الترك إذ ذاك تحت إمرة بني عثمان قد قتلوا الأمم الإسلامية تقتيلاً، وأناموهم فناموا نوماً عميقاً، لذلك أخذ المتعلمون منهم ذلك باعتباره سراً مصوناً، وما هو بالسر المصون، وإنّما هي كلمات من شظايا العلوم أضيف إليها شظايا من آراء الباطنية، وهي الحروف وأسرارها، وضم هذا إلى ذلك، ووصل به آيات قرآنية، وأضاف إليه معرفة الله بواسطة الألف وما بعدها من الحروف، وجعل ذلك أشبه برموز، كل ذلك إبعاد للمسلمين عن معرفة الله بالعلم والحكمة، وزحزحتهم عن الطبيعة الجميلة إلى حروف صنعها الإنسان، وما هي الحروف؟ إن هي إلا رسوم دونها قدماء المصريين وتبعهم اليونانيون فالأمم كلها كاللاتينيين والعرب، ألم تر إلى «الميم» فإنها عند قدماء المصريين على صورة البومة، وإلى «التاء» فإنها مأخوذة من حية سامة، وترى حرف «الميم» في العربية وفي اللغات الفرنجية له نوع شبه بالبومة وكذا «التاء» بالحية، فهل في شرعة الإنصاف أن ينحاز المسلمون إلى رسوم اخترعها الإنسان ويبتعدوا عن صنع ربهم! ويجهلوا مواطن حياتهم ومعرفة ربهم، ألا ساء مثلاً القوم المتأخرون.

رباه، رباه، فهمنا والله ما حاق بنا من الجهل، أنت رحمن وأنت رحيم، علمتنا العلوم ومنها القرآن، إننا معشر المسلمين في جهلنا العلوم في القرون المتأخرة أشبه بالأمم كلها بجهلها المركب في أمر المآكل. الناس يأكلون الطعام مطبوخاً، وهذا كأنه إجماع النوع الإنساني، وهو خطأ فاحش أظهره الأطباء في زماننا، إذ يقولون: إن النار تضيع منه قوة الحياة، إذن كل ما طبخ من الطعام، أو قلي أو شوي، صار في ذهاب قوة الحياة منه على رأي الأطباء في زماننا أشبه بكل ما هو متعفن، أو أصبح نبيذاً أو خمراً، فإن الأطباء اليوم بالإجماع يقولون بضرر ذلك كله، إذن كل ما غير الطعام غالباً ضار بالإنسان، بل الفاكهة والخضر التي ليس طازجة تقلّ منفعتها.

هذا ملخص كلام الأطباء في زماننا، ولقد شرحته عشرات المرات في هذا التفسير، فهكذا أمور دين الإسلام، إن المسلمين في القرون المتأخرة جهلوا العلوم ومقصودها، فراحوا ينبذون ما هو النافع منها، ويكتفون بالحثالات والقمامات والفضلات والرجيع والفتات، فتركوها للناس فعاشوا بها زماناً ونسوا عهد آبائهم، حتى إذا أراد الله ظهور المجد الإسلامي أظهر العلم كرة أخرى، وعلمنا تلك العلوم وبحثنا فألفيناها على ما ذكرناه فبيناها في هذا الكتاب.

واعلم أن من رحمة الله الواسعة ما تقدم في أول سورة «القتال» من صور الحشرات المرسومات هناك التي تعيش على العفونات، فإن كان الله واسع الفضل حليماً فإنه لا يذر العفونات ولا الرطوبات بلا فائدة، بل خلق لها خلقاً يلائمها ويناسبها بها يعيش، كما خلق عقولاً في الإنسان نسبتها إلى العقول العالية فيه كنسبة الحشرات إلى أعلى الحيوان تعيش بالغيبة والنميمة والآراء الجزئية، فهكذا في الأمم الإسلامية المتأخرة لما حرمت العلوم والمعارف سخر الله لها من جمعوا لها قمامات العلم فعاشوا عليها عيش الحشرات على العفونات، وعيش صغار العقول من الناس على الأحوال الجزئية والأخبار العادية، سنة الله في خلقه، وهو الرؤوف الرحيم.

واعلم أيدك الله أيها الذكي أن الشيخ الجيلي وأمثاله قوم صلحاء يريدون الخير بالأمة، وقد كتبوا ما رأوا أنه خير في زمانهم، وبكتابتهم صلح قوم وصاروا أتقياء، ولكن ليس ذلك يمنعنا من أن نظهر الحقيقة، ونقول: هذه ليست والله بأسرار هي نتف من العلوم، وهاهي ذه العلوم، فلتدرس نفس العلوم لا بقاياها ورجيعها وقمامتها، فمن ذا الذي يكتفي من الفاكهة بقشرتها، أو من الكتاب بعنوانه، أو من الجوهر بالعرض، فرحم الله الجيلي.

ورحم الله علماء الإسلام والصوفية أجمعين، ولكن الاحترام لهم شيء والرجوع إلى الحقيقة شيء آخر، وحسن النية ليس كل شيء، فلا بد من العمل كما لا بد من النية، وهم لم يكن لديهم من العلم إلا ما رأيته من رموز وإشارات ترجع إلى علم الفلسفة القديم، وقد جاء في هذا الكتاب قديم الفلسفة وحديثها، فالحمد لله إذ وفقني لهذا الكتاب، أتركه للمسلمين بعدي، وقد فك فعلاً عقالهم وانطلقوا يقرؤون علوم الأمم.

وإلى هنا تم الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة، والحمد لله رب العالمين. كتب يوم الأحد ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٣٠م.

مقدمة في مناسبة هذه السورة لما قبلها

اعلم أن السور المتقدمة من سورة « ق » إلى سورة « القمر » قد مرّ فيها الكلام على العالم العلوي والسفلي، فهو في سورة « ق » حثّ على النظر في السماوات والأرض، وبناء الأولى وتزيينها وأنها لا فروج فيها، وفي الثانية لفت النظر إلى مدها، وخلق الجبال فيها، وإنبات النبات فيها، وجعلها بصائر لذوي العقول، وذكر المطر وما يترتب عليه من الجنات والحب والنخل، وعجيب الثمر وعموم نفع هذه المخلوقات لنوع الإنسان. وفي سورة « الذاريات » خصص المطر المذكور في « ق » والرياح بالذكر، ليحث الناس على دراسة الآثار العلوية من رياح ومطر وكيف تهب، وما سبب هبوبها، وما آثاره، وجعلها في صورة القسم تعظيماً لعلمها، وتفخيماً لقدر العالمين بها. وفي سورة « الطور » عمم القسم بما في السماء وما تحت الأرضين، من بيت معمور، وسقف مرفوع، وبحر مسجور، وبما بينهما من علم منشور، وحكمة مأثورة، وآيات مقروءة، ودروس معلومة، ومدنية مشكورة، فأصبح بهذا العلم بكل شيء مطلوباً، والنظر في الحقائق كلها مرغوباً. وفي سورة « النجم » ذكر إبداع الوحي، وعجائب الخلق، إذ لم يبق بعد ذكر العوالم كلها علويها وسفليها، وإعظام قدرها وقدر العلم بها والعالم بها لما أن الله أقسم بها إلا أن يذكر أول نفس عالمة بها، قارئة لنظامها، مطلعة على بدائعها، تشويقاً للنفوس، وتعليماً للأمم، فأبان أن نبينا صلى الله عليه وسلم اطلع بطريق الوحي لا بطريق التعليم على آيات ربه الكبرى، وقد رأى ما لم يره أهل الأرض قاطبة من عجائب الله، فأول سورة « النجم » أشبه بضرب مثل لمن علم ذلك من أهل الأرض، كأن الله عز وجل يقول: أضرب لكم مثلاً بنبي آخر الزمان، فقد اطلع على ما يمكن أن يصل إليه أعلى إنسان في الأرض، وانتهى إلى سدرة المنتهى.

فأما ما وراء ذلك فإنه خاص بي، ولما أن ضرب هذا المثل وضحت مسألة العلوم والتمثيل، فلم يبق إلا الإنذار لمن هو غافل عنها، فجاءت سورة « القمر » التي أعقبت سورة « النجم » للمناسبة اللفظية والإشراقية على سبيل الترقي، فأبان فيها أن الغافلين من أهل الأرض يجب أن ينذروا باقتراب يوم الحساب، فيقال لهم: أيها الناس، إذا غفلتم عما أوضحناه، وعن العلم الذي ذكرناه، وإعظام العالمين به، فإني أنذركم يوم الحساب وقربه، والدليل على ذلك ما ترونه من انشقاق القمر من الأرض كما قاله علماء العصر الحاضر، ويمثل لذلك بانشقاقه على جبل حراء واطلاعكم عليه، فإن هذا كمقدمة ليوم الحساب، يوم تنشق السماء فتكون وردة كالدهان.

ولا ريب أن ذكر الساعة لا يراد منه إلا تخويفهم وزجرهم بقرب تلك الحقائق وبمقدماتها، فهم يزجرون بالقيامة وعذابها وبعذاب الدنيا، فإن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً، والجاهل في الدنيا جاهل في الآخرة، والأمم الجاهلة في الدنيا جاهلة يوم القيامة، فاقتراب القيامة يتقدمه انشقاق القمر قديماً، أو زمن النبوة، فهاهنا أمران: ساعة تقترب، ومقدمات تسبقها، ولذلك جاءت أحاديث قوم نوح وعاد وثمود، وقوم لوط وآل فرعون، متفقات على أن العذاب في الدنيا يتبعه العذاب في الآخرة، على وفاق ما في أول السورة من اقتراب الساعة ومقدمتها انشقاق القمر.

وبعبارة أخرى : إن العذاب مبدؤه في الحياة ونهايته في الآخرة التي لا نهاية لها ، فإذا ذكر الله اقتراب الساعة وتقدم انشقاق القمر عليها كالمقدمة لها فهذا ذكر الأولين وكيف أتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ، ثم أتى بما هو كالنتيجة لذلك من أن كفار مكة سيهزم جمعهم ويلون الدبر ، وأن الساعة موعدهم . والساعة أدهى وأمر ، ثم جعل ذلك كله في قاعدة وهي : ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾[القمر : ٣] ، وأخرى وهي : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[القمر : ٤٩] أي : إنا خلقنا كل شيء مرتباً مقدراً على مقتضى الحكمة ، وجعل تلك القصص بينهما مصوغة من الحكمة البالغة ، ومن الأمور المرتبة ، ومن استقرار كل أمر ، فإذن تكون نتيجة هذا كله وأوله وآخره أن هناك قانوناً عاماً . وهو أن كل أمر يسير إلى غاية لا يتعداها ، فمن كان في هذه أعمى بالجهالة فهو في الآخرة أعمى بالندامة والعذاب الأليم ، وهذه هي الحكمة التامة والنظام الأعلى بحيث يشمل العالم كله أوله وآخره ، فإذا كان الجاهل هذا شأنه أتبعه بالعالم فقال : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[القمر : ٥٤-٥٥] ، فوصف المتقين بأنهم منعمون في الجنات والأنهار ، ثم أخذ يرتقي بهم في المعارف والعلوم رجوعاً إلى ما ذكر في السور السابقة ، فقال : هم أهل أن يكونوا في مقاعد صدق مقربين عند ملك تعالى أمره في ملكوته ، وعظم اقتداره في خلقه ، ومعلوم أن ملوك الأرض الضعاف لا يحظى بالقرب منهم غالباً إلا الذين نالوا حظاً عظيماً من الأخلاق ومن العلوم ، فكيف تكون حال من يحظى بالقرب من ملك الملوك ، إن ذلك يكون في أعلى درجات العلم والحكمة والأخلاق ، وكلما كان أعلى منزلة علمية كان أقرب إلى رب البرية .

وهاهنا آن الأوان أن نبحث في سورة « الرحمن » ومناسبتها لما قبلها من سور القرآن ، هاهنا أخذ يبين الصفات التي تؤهل المتقين ليكونوا في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، لذلك أخذ يشرح ما صنعه ذلك المليك المقتدر وما أفاده برحمته لأهل الأرض . فأفاد أنه :

أولاً : علم القرآن ، إذ أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم وهو بلغه لأمته ، ولا جرم أن ما أوحي به إلى النبي صلى الله عليه وسلم أصبح يرثه الخلف عن السلف جيلاً بعد جيل ، وهذا من رحمته .

وثانياً : ذكر خلقه للإنسان ، وعجائب إتقانه .

وثالثاً : أبان أنه علمه النطق وإفهام غيره ، وهذا لا يتم إلا بنفس وعقل وعجائب تقدم كثير منها في التفسير .

ورابعاً : أبان تسخير الشمس والقمر ونحوهما له .

وخامساً : أبان تسخير الزرع والشجر له .

وسادساً : أبان أنه رفع السماء وأقام الخلق بالحكمة والنظام .

وسابعاً : ذكر الأرض وما فيها من النخل والفاكهة ، وما يشم منه رائحة طيبة .

وثامناً : خلق الإنسان من طين مطبوخ .

وتاسعاً : خلق الجان من نار .

وعاشراً: كونه رب مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما.

وحادي عشر: أنه أرسل البحر الملح والحلو متجاورين لا يختلطان.

وثاني عشر: أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من البحر الملح والحلو.

وثالث عشر: السفن الجاريات في البحار.

ورابع عشر: أن كل هذا سيفنى ويبقى وجه الله.

وخامس عشر: أن كل أهل السماوات وأهل الأرض مفتقرون إليه فيسألونه.

فهذه النعم التي ذكرها الله لنا وتوابعها ولوازمها، ولكنه لم يذكرها بدون أن يقدم في أولها أنه علم القرآن، وأنه علم الإنسان البيان، وهذا الإنسان المتصف بذلك قد ذكر عقب قوله: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[القمر: ٥٥]، فكأنه يقول: إن المليك المقتدر الذي يكون لكم مقعد صدق عنده هو نفسه كثير الرحمة، وأهم شيء من الرحمة أن تقرؤوا العلوم التي رمز لجملتها بالقرآن، فهذا الملك المقتدر الذي أنتم ستكونون في حضرته وتقربون من مقامه كثير الرحمة للعباد، أنزل لهم الكتب السماوية وأهمها هذا القرآن ليقرأه الناس، وإنّما أنزله لهم لأنهم مخلوقون على هيئة تقبل علومه، ألم تر أنه قد ألهم لغات يبين بها مراده، وأعطى علوماً عقلية وغيرها ليبرزها ببيانه، ويقرأها بلسانه، ويحفظها بجنانه، فإذا كان هذا شأن الإنسان الذي يرجى أن يكون له مقعد صدق عند مليكه المقتدر، فمن حقه أن يقرأ علوم هذه الكائنات فيدرس الفلك ونظامه، والتشريح وأحكامه، والشجر وأكمامه، والأرض وعجائبها، والمزارع وغرائبها، وأصول الإنسان وغرائب عالم الأرواح، والبحار وماءها، وما جرى فوقها من سفن، وما نبت تحتها من المرجان أو الدرر الحسان، وأن يبحث هذا العالم بحثاً مدققاً حتى يعلم أنه كله ذو افتقار إلى من يعينه ويحفظه ويبقيه.

إن الإنسان إذا كان مقعده صدقاً عند مليكه فعليه أن يتخلق بأخلاق الله، وأخلاق الله الكمال المطلق، فليكن كاملاً على قدر إمكانه، ألا ترى أنه وضع الميزان والنظام العام لأجل أن لا نطغى في ميزاننا، وزن كل شيء وقدره تقديراً من حركات الأفلاك ونظام النبات والأشجار والأزهار والأوراق ونظام الأثمار وهيئاتها وطعومها لأجل أن نقدر الأشياء وزناً وكيلاً ومساحة وشهادة بالأقوال الصادقة والشهادات الحقة والموازين المنتظمة والمكاييل التامة، فيفعل كما فعل، فإذا رأيناه نظم حركات الأفلاك فلننظم حركاتنا، وإذا رأيناه هندس وزوق الأشكال فلنحسن ظواهرنا، وإذا رأيناه جعل كل نبات وكل حيوان بمساحة خاصة ووزن خاص وقدر معلوم؛ فلنعامل في بيعنا وشرائنا بالمكاييل والموازين والمقاييس الحقة، فهذا هو الصدق الذي نتصف به حتى نستعد أن نكون في مقعد الصدق، ومن جلس في مجالس الملوك وهو غير أهل لها نبذوه وطردوه.

تفيد سورة «الرحمن» أن العلوم كلها من خصائص الإنسان من كواكب محسوبة. وشموس منتظمة المسير، وأقمار بديعة، وكواكب مضيئة، فالحساب فيها لا يعرف إلا بالحساب والهندسة والجبر. وذكر الشجر والنجم والنخل والفاكهة والرياحين المشمومة يرجع لعلم النبات. وذكر خلق الإنسان يرجع لعلم النفس والتشريح. وذكر الأرض يتضمن المعادن.

وأما علم الحيوان فهو مفهوم من المقام، إذ الحيوان بين النبات والإنسان، والحيوان خادم الإنسان مخدوم بالنبات فكأنه ذكر بذكر الطرفين. ولم يبق من العلوم الفلسفية في سورة « الرحمن » إلا علوم الطب والبيطرة والكيمياء وخواص المادة وما أشبه ذلك. وكل هذا يرجع إلى ما هو مذكور، فعلم الزراعة وعلم الطب وعلم البيطرة للنبات والإنسان والحيوان. فالعلوم كلها تضمنتها هذه الآيات. وقد صرح فيها بالسفن وبالمرجان وباللؤلؤ.

وبالاختصار: إن الله أبان أن هذه العلوم كلها من رحمة الله. وأنه هو الذي غرس في قلب الإنسان حبها، والغرام بها، وهيأه لمعرفتها، ولا جرم أن ذلك يؤهل الإنسان لمقعد الصدق عند مليكه المقتدر، وليس معنى هذا أن كل واحد في الأمة يعرفها بل يكون لها شيوع في الأمة، ويكون لكل طائفة اختصاص بعلم من العلوم ودراسة طائفة من تلك العلوم باعتبار أنها فرض كفاية، وكل علم من العلوم له نفع، وكل صناعة لها فائدة في كل جيل من أجيال الإنسان يحرم على المسلمين أن يهملوه بحيث يأثم الجميع إذا لم يكن فيهم من يقوم به ويكفيهم أمره، وهذه هي مصيبة أمة الإسلام الآن، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾[الرحمن: ٣-٤]، فالمقصد المجموع لا كل فرد، فإن هذا مستحيل، ولتتعلم الطائفة الخاصة الراقية من كل فن طرفاً، وليختص كل بفن بعد ذلك، ذلك هو الصراط المستقيم في سعادات الأمم. انتهى الكلام على المقدمة.

القسم الثاني في عجائب عالم الدنيا

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ أي: علم محمداً القرآن ومحمد علم أمته، خلق جنس الإنسان وميزه عن سائر الحيوان بالبيان، وهو التعبير عما في الضمير وإفهام الغير لما أدركه، وهذه الجمل الثلاث خلت من العاطف وجعلت أخباراً مترادفة للرحمن على نهج تعداد النعم، كما تقول: : زيد أغناك بعد فقر، أعزك بعد ذل، كثرك بعد قلة، فعل بك ما لم يفعله أحد بأحد، فما تنكر من إحسانه، كأن كل واحد من هذه المعدودات يصح أم يكون كافياً في حفظ الجميل، وإنكاره وحده كاف في نعت المنكر بكفران النعمة. ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ يجريان ﴿ بِحُسْبَانٍ ﴾ بحساب معلوم مقدر في بروجهما ومنازلهما، وعلى مقتضى هذا النسق تنتظم أمور المخلوقات السفلية والفصول والسنون وجداول الحساب، ولما كان النبات الذي ينجم من الأرض المسمى بالنجم، وهو ما لا ساق له، والشجر وهو الذي له ساق؛ فالأول كالحنطة، والثاني كالنخل؛ من جملة العوالم المرتبة على سير الشمس والقمر وحسابهما، وبذلك الحساب انتظم أمر سائر النبات بحيث يزرع في فصل مخصوص، ويحصد ويؤخذ ثمره في فصل مخصوص، وينمو على مقتضى حركات الشمس والقمر والنجوم؛ أردفه الله تعالى بذكر ذلك فقال: ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ ينقادان لله فيما يريد منهما طبعاً، كما ينقاد المكلفون اختياراً، وهذا الانقياد ظاهر، ألا ترى أن الشجر والزرع لا يخرجان عن نظام سير الكواكب، ولا يفتران عن نهج الشمس في مسيرها، ثم

انظر أيضاً كيف كان الشكل والهيئة واللون والمقدار والطعوم والروائح جارية بقدر، سائرة لغاية، كل هذا سجود وطاعة للمسخر الذي نظمها.

واعلم أن ظاهر النظم يقتضي أن يقال: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾، أجرى الشمس والقمر بحسبان، أسجد النجم والشجر، ورفع السماء ووضع الميزان الخ، ولكنه عدل عنه ليمتاز البيان عن المبين ـ بالفتح ـ وإيضاحه أن النوع الإنساني عرف اللغات والفهم والإفهام، وأودع في غريزته الاستعداد لكل العلوم، فاللغات المختلفة في الأرض التي أبلغها بعضهم إلى أربعة آلاف لغة كلها علمها الله للإنسان للبيان والفهم والإفهام، فكل قوم لهم لغة، ولكل قوم كتابة، فماذا يكتبون، وماذا يقرؤون، وما الذي عنه يعبرون؟ فلذلك ذكر الشمس والقمر وما بعدهما تبياناً للمعبر عنه والمبين بعد أن ذكر البيان، وهذا هو السبب في تغيير نظم العبارة، وإنّما بدأ بالشمس لأنها مبدأ الحياة على وجه الأرض وبدونها لا حياة فيها كما تقدم شرحه، ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ خلقها مرفوعة محلًا ومرتبة، ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ العدل والنظام الذي مرّ شرحه في أغلب سور القرآن بحيث كان حساب سير الكواكب، وحساب أجزاء النبات الداخلة في تركيبه، وحساب الأحجار الساقطة المحسوبة بالتربيع كما تقدم في سورة «آل عمران»، وحساب الجسمين المتجاذبين كالفلينتين على سطح الماء المتقاربتين بحساب التربيع أيضاً، وحساب البندولين المختلفين طولاً بحيث يكون الأقصر أسرع اضطراباً من الأطول على نسبة عكسية تربيعية، وهكذا مما شرحناه لك في هذا التفسير، وهكذا نظريات «نيوتن» و«كلبير» التي أبانت المثلثات المساحية عند جري الكواكب؛ بحيث تكون متكافئة في الأزمان المتساوية مع اختلاف الأقواس المقطوعة صيفاً وشتاءً، فيكون القوس الذي تقطعه الشمس في الشتاء وهي مسرعة أكبر من القوس الذي تقطعه في الصيف وهي في الرأس مبطئة مع أنهما متساويتان مساحة، كما تقدم فيها أيضاً موضحاً مرسوماً فارجع إليه، كل هذا وكل علم الفلك، وكل علوم الطبيعة، وكل نظام الموسيقى الذي تقدم في سورة «يوسف»، وكل قواعد العلوم، وكل قواعد الشعر التي تجري على نسق واحد موسيقي في بحر الطويل إذا لم تدخله العلل ولا الزحافات يكون ١٢ سبباً و٨ أوتاد، والمجموع ٤٨ حرفاً، والسواكن بالنسبة للمتحركات هكذا ٥ ـ ٧ ـ ١٠ ـ ١٤ ـ ٢٠ ـ ٢٨، فتكون المتحركات ٢٨ والسواكن ٢٠، ومعلوم أن حاصل ضرب الوسطين يساوي حاصل ضرب الطرفين، كل ذلك داخل في الميزان، إن الميزان هنا لا يفهمه إلا من درس جميع العلوم، ومن قرأ هذا التفسير كله فقد عرف الميزان، وإذن يكون في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وقوله: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ أي: لئلا تطغوا فيه ولا تعتدوا ولا تجاوزوا الإنصاف، فإذا نظمنا ملكنا بحيث جرى على تلك النسبة المنظمة؛ فإن ذلك يدعوكم لنظام أعمالكم اقتداء بسنتنا، وسعياً في رقي نظامكم، وتحسين أعمالكم وأخلاقكم، ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ ولا تنقصوه فإن من حقه أن يسوى، لأنه المقصود من وضعه، وإنّما كرره مبالغة في التوصية، ولأن كل واحد من العدل في الميزان ومن النقص ومن الزيادة مرغوب ذكره للقيام به في الأول وللتناهي عنه في الأخيرين، ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ خفضها مدحوة ﴿لِلْأَنَامِ﴾ للخلق ﴿فِيهَا فَـٰكِهَةٌ﴾ ضروب مما يتفكه به، ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ أوعية الثمر التي

يكون فيها الثمر، لأن ثمر النخل يكون في غلافه، وهو الطلع ما لم ينشق، وكل شيء ستر شيئاً فهو كم ولذلك قال بعضهم: الأكمام ما يكم، أي: يغطي من ليف وسعف وكفرى، فكل ما يغطى وكل مغطى به ينتفع الناس به كالجذع والجمار والثمرة، ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ الحب كالحنطة والشعير والذرة والأرز، والعصف: ورق النبات إذا يبس والتبن، ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ هو إما الذي يشم، وإما الرزق، من قولهم: خرجت أطلب ريحان الله، أي: الرزق، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أيها الثقلان الإنس والجن، الآلاء: جمع ألى وهو النعمة، وإنّما خاطب الثقلين لدلالة الأنام عليهما، والأنام: الخلق، وكل ذي روح. أي فبأي نعم من هذه النعم المذكورة تكذبان أيها الثقلان؟ وهذه الآية كررت في إحدى وثلاثين موضعاً من السورة تقريراً للنعمة وتأكيداً للتذكير بها، فتراه عدد نعمه على الخلق، وفصل بين كل نعمتين بما يذكرهم بها ويقررها، فإذا قال الرجل لمن أحسن إليه بنعمة وهو يكفر بها: ألم تكن فقيراً فأغنيتك، أفتنكر هذا؟ ألم تكن عرياناً فكسوتك، أفتنكر هذا؟ ألم تكن خاملاً فعززتك، أفتنكر هذا؟ وهذا كثير في كلام العرب شائع، هكذا يقول الله هنا: ألم أخلق الإنسان وأعلمه البيان؟ وأنظم الشمس والقمر بحسبان، وأنوع الشجر وأبدع الثمر، وأعمهما في البدو والحضر، لمن آمن ومن كفر، وأسقيها تارة بالمطر، وآونة بالجداول والنهر؟ أفتنكرون أيها الناس والجان هذه النعم. فبأيها أنتم مكذبون؟.

ولما كانت النعم المذكورة بعضها يحتاج لزيادة شرح وإيضاح كخلق الإنسان، وكحساب الشمس والقمر، وكأسباب نمو الزرع والشجر، وهذه الثلاثة مجامع ما تقدم؛ أعقبه سبحانه بما يبينها على اللف والنشر المرتب، فقال في الأول: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ﴾ من طين يابس له صلصلة بحيث يصوت إذا نقر ﴿كَٱلْفَخَّارِ﴾ أي: الخزف، وهو الطين المطبوخ، وهذا إيضاح لخلق الإنسان، وبيانه أنه كما أن الطين المطبوخ مركب من مادة أرضية وحرارة سوته وأنضجته لتحفظ كيانه؛ هكذا هذا الإنسان له شهوة الطعام والشراب والتزاوج لتبقى بنيته وتدوم حياته بالمادة الأرضية التي اجتذبتها النباتات من الأرض، وله قوة غضبية تورثه الشجاعة والقوة ليحافظ على بقائه وحياته، ويمنع عن نفسه عاديات الكواسر، ومهاجمات الجيوش والأعداء المحيطة به من كل جانب، وهذه في الإنسان تقابل طبخ الطين ليصير فخاراً، إذ لا بقاء للطين بغير طبخ بالنار لتستمسك أجزاؤه ويبقى بناؤه، هكذا لولا القوة الغضبية، ومحافظة الإنسان على هيكله المنصوب، وجسمه المحبوب، من عاديات الكواسر، وأهل القسوة من بني الإنسان؛ لهلك جسمه وأصبح قتيلاً في الفلوات تأكله الطير، أو تهوي بأجزائه الريح بعد تفرقها في مكان سحيق، كما نرى الطين إذا لم يطبخ يتفتت وتذروه الرياح، أو يذوب في أجزاء الأرض. هذا هو معنى الآية، وقد تضمن علوم الشهوة وعلوم الغضب المذكورات في سورة «آل عمران». ثم إنه من حيث ترتيب خلقه، خلَقَه من تراب فصار التراب طيناً لازباً، أي: يلصق باليد لما اختلط بالماء، ثم صار حمأ مسنون وهو الطين الأسود المنتن، فلما يبس صار صلصالاً، فاختلاف العبارات في القرآن على مقتضى هذه المراتب، ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾ الجن ﴿مِن مَّارِجٍ﴾ من صاف من الدخان، ثم بينه فقال: ﴿مِّن نَّارٍ﴾ يقول: خلق الله الجان من النار الصافية، والمارج المختلط

ببعضه فيكون اللهب الأحمر والأصفر والأخضر مختلطات. وكما أن الإنسان من عناصر مختلفات؛ هكذا الجان من أنواع من اللهب مختلطات، ولقد ظهر في الكشف الحديث أن الضوء مركب من ألوان سبعة غير ما لم يعلموه، فلفظ المارج يشير إلى تركيب الأضواء من ألوانها السبعة، وإلى أن اللهب مضطرب دائماً، وإنّما خلق الجن من ذلك المارج المضطرب إشارة إلى أن نفوس الجان لا تزال في حاجة إلى التهذيب والتكميل، تأمل في مقال علماء الأرواح الذين استحضروها، إذ أفادتهم أن الروح الكاملة تكون عند استحضارها ساكنة هادئة. أما الروح الناقصة فإنها تكون قلقة مضطربة.

وانظر إلى ما قاله سقراط: اعلم أن الظالمين من نوع بني آدم يعذبون في هذه الحياة، لأنهم إذا عتوا وظلموا الناس أحسوا من نفوسهم بآلام تقلقهم، فالظلم سيف ذو حدين يقتل المظلوم والظالم، فإذا استغاث المظلومون وتألموا هكذا الظالمون، لأن نفوسهم من عالم شريف، فإذا أحست بالظلم اضطربت وأقلقتهم. وهذا أيضاً من سر قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾[النساء: ١٠٤].

أقول: إذا مات هؤلاء بقيت نفوسهم في قلق، فالظالمون قلقون في الحياة وبعد الممات، فلفظ «مارج» أفادتنا علمين: علم ألوان الطيف من علم الطبيعة، وعلم أخلاق الجن من علم الأرواح، أليس هذا من بدائع القرآن وعجائب العلم، وانظر كيف جمع خصائص النفس الإنسانية من حيث شهوة الطعام ونظامه، وقوة الغضب وعجائبه، وحفظ الثغور، ونظام الجيوش، والدفاع عن الديار، انظر كيف جمع ذلك كله في الصلصال. وكيف أبان عذاب الروح الناقصة من الجن، ومثلها الروح الناقصة الإنسية بعد موتها، لأنهم يكونون أشبه بالجان في أخلاقهم، كل ذلك من لفظ «مارج»، ومن هنا فلتعلم حكم القرآن وعجائبه. وقوله: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ظاهر.

ولما فرغ من إيضاح خلق الإنسان شرع بوضوح ما بعده وهو الشمس والقمر بحسبان، فذكر أنه رب مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما، وهذه التربية يترتب عليها الفصول الأربعة، ويتبع ذلك تقلب الهواء وتنوعه، وما يلي ذلك من الأمطار والشجر والنبات، وما يتخلل ذلك من الأنهار الجاريات، ولما كان النبات وهو المذكور بعد الشمس والقمر لا يكون إلا بماء عذب ناجم من السحاب المستمد من البحار الملحة، وهذه البحار فيها نعمتان: نعمة في باطنها وهي الدر والمرجان، ونعمة فوقها وهي السفن الجاريات كأنها الجبال الطوال؛ أخذ يشرح ذلك كله على سبيل الترتيب فقال: ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ أرسلهما، يقال: مرجت الدابة: أرسلتها، أي: أرسل البحر الملح والبحر العذب متجاورين متلاقيين، فترى العذب يخرج من الجبال كنيل مصر يجري من جبال القمر وراء خط الاستواء فيمر شمالاً حتى يصب في البحر الأبيض المتوسط، فلا الملح يطغى على العذب فيجعله ملحاً، ولا العذب يجعل البحر الملح مثله، ﴿ يَلْتَقِيَانِ ﴾ ومع هذا الالتقاء منعهما الله عما في طبعهما بالبرزخ، وهو ما يحجزهما ويصدهما عن الاختلاط والامتزاج، وهو قوله: ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ﴾ حاجز إلهي ﴿ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ لا يختلطان ولا يتغيران، أو لا يغرقان الناس بطغيانهما عليهم ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ

وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ اللؤلؤ: هو الدر المخلوق في الصدف، والمرجان: الخرز الأحمر، وهما يخرجان من الملح وحده، وإنّما عبر بقوله: ﴿ مِنْهُمَا ﴾ لأن العذب والملح بحر واحد لا ينفصل أحدهما عن الآخر، لأن الأنهار والجداول إنّما تكون من ماء الأمطار، وماء الأمطار من البخار، والبخار من البحار، والبحار إليها يرجع ماء الأنهار في جريه، فإذن الملح والبخار والسحاب والأنهار كرة واحدة تحيط بالأرض، وهذه الكرة منها ما يبلغ سبعة من عشرة من محيط الكرة الأرضية وهي البحار، كبحر الروم والبحر الأحمر وبحر فارس وبحر الهند وبحر الصين والمحيط الهادي والمحيط الباسيفيكي وبحر البلطيق، فهذه هي الأصل، فإذا نظرت فوقها رأيت كرة الهواء تحيط بالأرض وبالماء، وهي دائماً مشبعة بالبخار المستمد من البحار، ومن هذا البخار تكون السحب فالأمطار فالأنهار الجارية على اليابسة كالنيل ودجلة والفرات ونهر النيجر وزمبيزا وما أشبهها، وكل هذه الأنهار أصبحت كفروع تتصل بالبحر الملح من جهة مصبها، وبالجبال من جهة منبعها، وتستمد ماءها من السحاب، وهو من بخار الهواء المستمد من البحار الملحة، فما البحر الملح إلا كشجرة جداولها الأنهار فوق اليابسة، وكان كل نهر غصن، وكل جدول ورقة، وكل حقل من الحقول قطعة من الورقة.

إذا ثبت هذا علمت معنى قوله تعالى: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾، فإنه جعلهما بحراً واحداً. فمن جهة العذوبة والملوحة يقال لهما بحران، ومن جهة خروج الدر والمرجان جعلا كأنهما بحر واحد. وقيل: خرج منهما. يقال: خرجت من بيوت هذه البلدة، وهو لم يخرج إلا من بيت واحد، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾ أي: وله السفن الكبار، أي: المصنوعات التي رفع خشبها بعضه على بعض، أو هي التي رفعت شرعها في الهواء. وقوله: ﴿ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾ أي: كالجبال، جمع علم، وهو الجبل الطويل، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

وانظر في الجبال التي شبهت بها السفن فوق الماء كيف كانت هي التي جرى منها الماء في الأنهار وكأن الله لما خلق الجبال فوق الأرض وهي يابسة تحمل الجبل أراد أن يجعل في البحر ما يشبه الجبال في البر. كأنه يقول: انظروا إلى النواميس الطبيعية كيف خرقتها، فإن ناموس المادة لا يحمل الثقيل إلا الكثيف. أما اللطيف كالماء فلا يحمل الثقيل، فهاأنا ذا أريتكم العجب. ووضعت الجبل فوق ظهر الماء بآيات اخترتها، وعجائب اخترعتها، وألقيت عليكم دروساً من النواميس تفهمكم أن الجسم إذا كان يزن بما يماثله حجماً من الماء وزناً طفا فوقه، وإن كان أثقل من وزنه من الماء غرق فيه. هذا هو القانون الذي وضعته، والصراط المستقيم الذي اخترته. والسمكة عرفت ذلك بغريزتها، فإذا أرادت أن تنزل في أسفل الماء قبضت عوامة في بطنها مملوءة هواء. وإذا أرادت أن تطفو على وجه الماء نفختها فعظم حجمها فخفت وطفت، وإن أرادت أن تساوي سطح الماء توسطت في نفخها. وكل سفينة عائمة في بحر ملح أو عذب على هذه الطريقة. فإنك إذا وزنتها كلها ألفيت جميع وزنها يساوي الماء الذي أزاحته من مستقرها في البحر، ولو أن الماء المزاح بحجمها كان أخف لغرقت. وجسم الإنسان أثقل من

مقدار حجمه من الماء، ولذلك يغرق في الماء، وهذه هي نظرية «أرشميدس» الذي أحس بأن جسمه وهو في الماء قد خف فاعتقد أن الأشياء وزنها في الماء أخف من وزنها في الهواء، وظهر بعد ذلك أن الذي ينقص من وزن الأشياء هو مقدار وزن الماء المساوي لها في الحجم، فخرج من الماء وهو لا يعي ويقول: عرفتها عرفتها، وذلك بعد أن تحير ثلاثة أيام في معرفة الذهب المغشوش. وكيف يعرف غشه، فأنتج له عقله، ودله فهمه على هذه الطريقة، وأخذ يزن الذهب والمواد الأخرى التي كان الذهب بها مغشوشاً حتى عرف الحقيقة، وسر ملكه بذلك وأظهر له حقيقة الغش. فهذه النعم التي ذكرها الله في هذه السورة هي مجامع ما أنعم به على أهل الأرض، وكأنه تعالى بتكراره التذكير بها وقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يقول: أي عبادي، هل ظننتم أن مجرد الإيمان يكفيكم؟ فهل خلقت الشمس والقمر والنجم، والشجر والزرع والحب، والأنهار والبحار، والدر والمرجان، لقوم لا يعقلون، أم خلقتها لقوم يقبلون مني النعمة؟ وكيف يقبلونها إلا إذا عرفوها.

أيها الناس، اشكروا نعمتي، ولا شكر عليها إلا إذا عرفتموها، ولا معرفة إلا بالدراسة، حتى تكونوا عندي في مقعد صدق، أليست هذه النعم من رحمتي؟ ألم أنزل عليكم القرآن؟ ألم ألهمكم النطق والبيان؟ ألم أجعل حاجتكم في الحياة موقوفة على هذه النعم. فهل خلقتها لمن لا يعلمون؟ أم نظمتها لمن لا يقبلون؟ وهذه الآيات وتكرار الآلاء فيها ٣١ مرة في هذه السورة أشبه بالإنذار لأمة الإسلام أنهم إن تركوا هذه النعم فكأنهم أنكروها ودخلوا في الأمم التي ذكرت في سورة «القمر» يقول الله فيها: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾[الآية: ١٦]، وهذا وإن لم يذكره القرآن صريحاً لوح له تلويحاً. وإلا فكيف يشكر النعمة جاهلاً بها. والجاهل بالنعمة كالمكذب. ثم أردف ذلك كله بأنه فان، فقال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ أي: كل من على الأرض من الحيوانات والمركبات من الثقلين وغيرهما فان، ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ ذاته، بل كل مخلوق الآن من حيث هو فان، ومن حيث ربه موجود، فهو فان من وجه موجود من وجه، ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ ذو الاستغناء المطلق والفضل العام، فهو ذو العظمة والكبرياء، وهو مع علوه يعطي جميع خلقه من النعم والإكرام ما يليق بحالهم جميعاً، وهو لطيف بهم، يراعي العالم ويكلأ الجاهل، ويتلطف بأدنى الحيوان وأصغره، ولا يحجب فضله عن مخلوق خلقه، ولا يحجبه عظم الفيل عن التلطف بالبقة، بل أعطاها أجنحة وحرمه منها وسلطها عليه. وكرم بني آدم. ومع ذلك أغرى الحيوانات الذرية الصغيرة فتوغلت في جسمه وأوردته الحمام بالحمى والوباء والجدري وما أشبه ذلك، ثم أرسل له الأطباء ليداووه، فهو لطيف بتلك الحيوانات الدقيقة حيث مكنها من جسم الإنسان، ولطيف بالإنسان من حيث إنه سخر له الأطباء، وعلمه علم الطب، وإذا مات نقله من حال الجسمية إلى حال الروحية وهي أرقى من هذه الحال. ففناؤه من أنواع اللطف، ومرضه من الفضل.

ينظر الإنسان هذه النجوم الثواقب في ظلمات الليالي فيراها مشرقة بهجة بهية ساطعة باهرة تتلألأ نوراً وبهجة وتشرح الصدور، وبهذا تتجلى العظمة والكبرياء، ويراه يميت الأحياء وتلك النجوم باقية. والأرض باقية والأحوال لم تتغير بحسب ما يظهر للناس، فهذا مظهر الجلال والعظمة، جمال

في النجوم، بهجة في الإشراق، مناظر باهرة، أنوار ساطعة، أجسام عظيمة، وأحجام كبيرة، وأحوال تتقلب، وأهوال تتعاقب، والناس من بينها يخرون صعقين، فهذا لعمرك هو الجلال والعظمة. ثم تراه من جهة أخرى يتلطف بالمريض ويواسيه بالطبيب، وإذا مات أرسله إلى عالم روحي بهيج لطيف، فهذا بعض الإكرام، ويقرب من هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٢-١٣]، هذا مما يقرب من الجلال، ثم أتبعه بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾[البروج: ١٤-١٥]، وهذا يقرب من معنى الإكرام، فبينما نراه متكبراً محدثاً للأمور الهائلة إذا هو يتلطف ويود عباده، ويواسيهم في مرضهم في حال نزعهم، وبعد موتهم وفي حياتهم، فانظر لكبريائه ولطفه وعظمته وتحننه وارتفاعه ودنوه، وهذا قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[الحديد: ٤]، وأيضاً: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾[يوسف: ١٠٠]. وبهذا فهمت قوله تعالى: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فالنعم واضحة في تحليل المركبات، ولولا تحليل أجسامنا وموتنا لجمدت هذه الأرض، ولتعطلت الحياة، والمادة الأرضية إذا بقيت على حال واحدة كانت القدرة محدودة، ولكن انبعاث الصور الكثيرة وتلاحقها جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن هو عين العدل، إن من العدل أن تلبس المادة جميع الأشكال، وجميع الأشكال لا تكون دفعة واحدة، فإذن يجب أن تلبس شكلاً وتخلع شكلاً آخر، وهذا هو الحاصل فيها، هكذا بنو آدم إذا بقي جيلنا الآن وأخذ هذا الجيل يتوالد قروناً وقروناً، فلا يمضي قرون معدودة حتى ويكون على القدم ألف قدم، وتمتلئ الأرض بالآدميين فلا يكفيهم حيوان أرضي ولا نبات مأكول، وإذن يأكل الناس بعضهم بعضاً وتمتلئ الأرض بالرمم.

فإذن الفناء فيه نعمتان: نعمة الرحمة بتلاحق الأجيال. ونعمة الخروج من سجن المادة إلى فسيح الرحمة بعد الموت. لذلك قال تعالى: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ومن الآلاء الجليلة الفناء الذي هو نعمة بتلاحق الأجيال وبخروجنا من سجن هذه الحياة طوعاً أو كرهاً. ولما كان ما ذكرته لك يتضمن الافتقار المتجدد أوضحه، فقال: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ۝ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، قد علمت أن المادة كلها تلبس جديداً وتخلق قديماً، وأجسامنا وأجسام الحيوان على هذا المنوال، فالحيوان والإنسان كل في حاجة إلى بقاء جسمه، وإلى التغذية والمداواة. وإذا انحل جسم من الأجسام أخذ يفتقر إلى حال جديدة، فالتغيرات المستمرة في المادة افتقار، والافتقار المذكور دائم في كل لحظة، فالسؤال المذكور سببه الافتقار، والسؤال إما بنطق، وإما بتوجه النفس، وإما بلسان الحال، فالمادة الجامدة مفتقرة لبقاء حال يناسبها، أو تغيرها بما هو أنسب لها، والنبات في كل لحظة مفتقر إلى ما يبقي ذاته من ماء وهواء ومواد، والحيوان جميعه يطلب بهمته ما يحتاج إليه، والإنسان يسأل بنفسه داخلاً وبلسانه نطقاً، فمعنى الآية أن من في السماوات والأرض مفتقرون إليه في ذواتهم وصفاتهم، وسائر ما يهمهم ويعن لهم، كل وقت يحدث أشخاصاً، ويجدد أحوالاً على ما سبق به قضاؤه، واقتضاه مراده، فليس كما قالت اليهود: إن الله لا يقضي يوم السبت شيئاً. إذا فهمت هذه عرفت قوله: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. فكم من سؤال أجبته، وكم من جديد أحدثته، وكم من ضعيف في الحياة أرحته، إما بصحة تسعده أو بموت من سجن المادة يخرجه،

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ أي: سنتجرد لحسابكم وجزائكم، وذلك يوم القيامة. واعلم أن هذا على سبيل التمثيل بدليل قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ أي: هو في كل وقت يحدث أموراً، ويجدد أحوالاً، ومع ذلك لا يشغله شأن عن شأن، فإنك تقول لمن تهدده: لأتفرغن لك، أي: سأتجرد للإيقاع بك من كل ما يشغلني، والمراد التوفر على إحداث النكاية به والانتقام منه، ولا جرم أن شأن الآخرة ما هو إلا شأن من الشؤون، فلا يشغله عن شيء آخر، وهو القائل: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[يس: ٨٢]، والقائل: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾[القمر: ٥٠]، ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾، والثقلان: الإنس والجن لثقلهما في الأرض، ولأنهما مثقلان بالتكاليف، ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ﴾ أي: إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السماوات والأرض هاربين من الله، فارين من قضائه، إذ أعطاكم النعم السابغة وعددها عليكم، ونبهكم إليها، ثم إنه يفنيكم ويميتكم، وبعد الموت يقصد حسابكم، وهذا هو أولكم وآخركم، فأنتم في الدنيا في قبضته، وبعد الموت في قبضته، وأنتم ما دمتم ناقصين غير كاملين فإن أرواحكم مضطربة معذبة في قبضته تعالى، وهو يريد رحمتكم بإكمالكم، والإكمال لا يكون إلا بالإيقاظ بالعلوم، وبالنوازل، وتقلب الأحوال عليكم، كل هذا من الرحمة المذكورة أول السورة، ولكنكم بحسب ما يعن لكم وأنتم في حال نقص تشعرون أنكم معذبون كما يحس التلميذ بقسوة المعلم الذي يريد إبلاغه الكمال، فإن استطعتم أن تهربوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا، أي: فاخرجوا، ﴿ لَا تَنفُذُونَ ﴾ لا تقدرون على النفوذ ﴿ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ إلا بقوة وقهر ولا قدرة لكم على ذلك، وأولى من هذا الوجه أن يقال: أيها الثقلان، إن قدرتم أن تنفذوا في أقطار السماوات والأرض لتنظروا صنعنا فانفذوا ولكنكم لا تنفذون إلا بقوة علمية وبمقدمات نصبتها لكم وهي العلوم والمعارف والتهذيب، وأهم ذلك حب العلم وحب الخالق، واجتماعهما يعطي المرء قوة بها يطلع على العلوم والعجائب ليخرج من سجن هذه المادة، ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من التنبيه والتحذير والعفو وكمال المقدرة، أو المعارج العقلية التي نصبها الله لارتقاء العقول الإنسانية في العلوم العقلية فينفذون بها إلى العوالم العجيبة فوق السماوات العلى.

إن النفوس الإنسانية لا يقر لها قرار إلا بالاطلاع على عجائب هذه العوالم التي ظهر لنا نورها، وبدت لنا أنوار كواكبها، بحيث نرى ضوءها من بعد لا يتخيله الوهم، بحيث يصل لنا الضوء، الذي يقطع في الثانية ثلاثمائة ألف كيلومتراً في ألف سنة، أو مائة ألف سنة أو ألف ألف سنة بل أكثر من ذلك، فهذا مما يشوق نفوسنا إلى الاطلاع على هذه العوالم المدهشة، وكيف ننفذ لها ونحن محبوسون في هذه الأرض؟ بل كيف تخترق أرواحنا هذه المسافات الشاسعة لو أرادت الصعود لهذه العوالم بعد الموت، أو عقولنا معرفتها ونحن في الأرض ممنوعون من ذلك بعوائق، فإن لكل عالم من العوالم التي فوقنا جواً خاصاً وأحوالاً ليست تليق إلا لمن استعد لها، ونحن لا يتسنى لنا اختراق أي جو من الأجواء إلا إذا كانت أرواحنا صافية مستعدة لاختراقه، ومهيأة له، والنفوس الإنسانية في الدنيا

لا قبل لها بمعرفة علوم تلك العوالم أيضاً معرفة علمية إلا باستعداد خاص عقلي وخلقي، فالناس في الدنيا محجوبون إلا من لهم استعداد وعلم وعمل فيعرفون قليلاً، وبعد الموت كذلك، إلا النفوس الصافية المستعدة، ولا يهيئ للناس السفر في تلك الأقطار إلا الاستعداد لها في هذه الحياة الدنيا بالأخلاق والعلوم والإخلاص، فقوله: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ ﴾ لهب خالص ﴿ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ ﴾ وهو الدخان ﴿ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ فلا تمنعان من الله، ولا يكون لكم ناصر منه، يقول الله: إذا عجزتم الآن عن أن تنفذوا من الأقطار فأنتم عن النفوذ والهرب يوم القيامة أعجز، فإنكم هناك إن هربتم يرسل عليكما لهب ودخان فلا تقدران على الهرب، إن هذا كله ليفهم الله الناس أنهم في قبضته، لا يخرجون من حكمه وقضائه.

واعلم أن هذا الذي في الآية له نظير في نفوس الناس اليوم، فكل امرئ في عاداته ودياناته ومعارفه وأخلاقه وشهواته ووطنه محبوس، حتى إن من يعيش في خط الاستواء، ومن يعيش في الجزائر الخضراء قرب القطبين؛ إذا نقل كل منهما من مكانه تألم لذلك بل ربما مات، وهكذا حيوان البر لا يعيش في البحر وبالعكس، فحيوان البحر إذا نفذ من أقطاره أرسل عليه نيران الشمس وعنصر الهواء الجاف فأذاقه كأس الحمام، وترى الناس فوق الأرض يكرهون الموت، لأنهم لم يعرفوه، ولم يروا هناك حياة غير هذه، وترى القلوب كلها مستعدة للعلوم، ولكن الشهوات، وأنواع الغضب، والعادات المستحكمة تمنعهم من المعرفة والحكمة وتصدهم، كما روي: «لولا أن الشياطين يحومون حول قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات والأرض»، فالشهوات والوسوسة والعوارض في حياتنا تمنعنا من إدراك العوالم، فهي تشبه الدخان والنار، فالنار كالشهوات، والدخان كالعادات والعقائد المرتبكة المانعة من العلم، ونحن إذا متنا لا نكون هناك إلا في المكان اللائق بنا في الجنة أو فيما هو أعلى منها، ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ [الأنعام: ١٣٢] بحيث لا يتجاوز أحد ما رسم له، لأنه يحجب عنه كما يمنع حيوان البحر أن يعيش في البر، وإياك أن ترى قولي ما هو أعلى من الجنة خارجاً عن أقوال العلماء، فارجع إليه في سورة «البقرة» عن الإمام الغزالي فتفكر، فإرسال اللهب والدخان على أهل المحشر وحبسهم فيه له نظير في كل شيء في الدنيا والآخرة، وفي معارج الأرواح، والاستعداد هو الذي يعين منازل الناس في الدنيا والآخرة، والاستعداد لا يكون إلا بمقدمات، إنك أيها الذكي لو بحثت اليوم في الناس لوجدتهم جميعاً وأنا وأنت في حال مخصوصة، بحيث لو تركناها لرأينا العوائق دوننا كما صد اللهب والدخان أهل المحشر عن الخروج من القضاء والقدر. فترى كل امرئ لا يعدو ما استعد له وما اعتاده، هذا تراه في نفسك وفي أهلك وفي جارك وفي أمتك، وفي أمم الغرب والشرق، كل حكم عليه بما هو بسبيله أشبه بحيوان البر وحيوان البحر، وبعد الموت يسيرون جميعاً فيما استعدوا له، ولا ينفكون عنه جزاء وفاقاً وقانوناً مطرداً، فالعادات أحاطتنا بسياج من لهب ودخان لا يجاوزه، ولو قلت لنصراني: صلّ صلاة المسلمين؛ لرآه في عذاب، وهكذا المجوس وبالعكس، وتفصيل هذا لا نهاية له، ولعلنا بعد الموت نطلع على عالم الكواكب بنفس أجسامها، وليس ينال ذلك منا إلا من استعدت أرواحهم لذلك فخفت فارتقت.

فأما الأرواح الضعيفة فإنها لا تنال ذلك لعدم استعدادها، ولا تظن أن هذا يغاير ما قاله علماؤنا، فلتعلم أن العلم هو أعظم نعيم في الجنة، بل كل نعيم الجنة بالنسبة له أمر ضعيف. وبالعلم تستأهل النفس للنظر إلى وجه الله الكريم، وما سوى ذلك فهو متاع لا يهم النفوس الشريفة، والله لا معنى لهذه الحياة إلا بتلك النتيجة العالية الشريفة:

على نفسه فليبك من ضاع عمره　　　وليس له منها نصيب ولا سهم

هذا هو نهاية تفسير القسم الثاني إجمالاً مع بعض التفصيل. وفي هذا القسم لطيفتان:

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ ﴾.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ ﴾.

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ ﴾

قد علمت مما ذكرناه في هذا المقام وغيره أن الميزان لا يعرفه إلا من درس العلوم كلها. ولكن الميزان الأرضي من كل ما يقدر به الأجرام الأرضية بمساحة أو بكيل أو بوزن يحتاج إلى بحث مستفيض ليعرف الناس أن هذه مشتقات مقتبسات من النظام السماوي والميزان الإلهي. وكيف يعرف الناس أن الذراع الذي يقيسون به الثياب، والمقياس الذي يمسحون به الأرض، والرطل الذي يزنون به المأكولات وما أشبهها؛ كيف يعرفون أن ذلك كله مأخوذ من نفس سير الشمس فعلاً لا مجرد قول. ولعمري إن من يقرأ ما سأقوله الآن في هذا الموضوع ليرين العجب العجاب. وليسمعن في هذه المقالة ما يدهشه، حيث يرى أن الأردب والقنطار والدرهم ومساحة الفدان ترجع فعلاً إلى ميزان السماوات. وبعبارة أخرى: إلى مدار الأرض حول الشمس، أو مدار الشمس حول الأرض بحسب الظاهر، وأن هذه كلها مرتبطات بذلك.

الحق والحق أقول: إن من يفهم ما سأوضحه سيعجب غاية العجب! ويقول: حقاً إن هذه معجزة للقرآن مدهشة أكبر من كل معجزة. وكيف لا تكون معجزة والله يقول: ﴿ وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴾ [الرحمن: ٧-٨] أي: وضعنا نظامنا لأجل ألا تطغوا في ميزانكم، أي أن ميزانكم مبني على ميزاننا. وهاك ما قلته من رسالة صغيرة سميتها «التربية العملية في الإسلام» لم تطبع إلى الآن، وقد وضعتها على هيئة محاورة. فهاك ما يناسب المقام هنا منها:

(س) قد فهمت ذلك، ولكن من أين لنا أن نوقن بأن علوم الرياضيات التي أوجبها أفلاطون مما ينبغي أن تطلبه الأمة الإسلامية لأجل دينها، وأين ذكر الله هذا في القرآن؟.

(جـ) لقد ذكر الله ذلك في القرآن في مواضع كثيرة كقوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [يس: ٣٨-٣٩] الآية.

(س) أنا أريد أبين من هذا.

(جـ) اقرأ كتبنا: جواهر العلوم. وميزان الجواهر. والنظام والإسلام، ونظام العالم والأمم. تجد فيه آيات كثيرة وحساباً رياضياً جبرياً وفلكياً حقيقياً. وتقف إذ ذاك على ما أودع في القرآن في نحو

٧٥٠ آية، أبانت أنه ينبغي لأذكياء المسلمين تعلم الرياضيات والطبيعيات، لا كما فعل أفلاطون وسقراط، إذ خصصا التعليم بالرياضيات فإنها مناط الحق والصدق. ولكنا نقول: لن يكون المرء حاكماً صالحاً إلا بالقوة البدنية والنبوغ في الرياضيات والطبيعيات. ولقد كذب الذين قالوا: إن العلم يصد عن ضبط مصالح الناس، فإنّما ذلك خاص بالعلم الذي لا يصحب بتهذيب ولا تقويم، ولا تمرين عضلي ولا عشق للحكمة والبحث. فأما ذلك الذي استوفى تلك الشرائط؛ فما أجدره أن يرفع ذوي النفوس الشريفة إلى مستوى الحكم، والحكم والعدل في القضية والتسوية بين الرعية. وسآتي لك في هذه الرسالة بفائدة عجيبة خلت منها كتبنا السابقة، وهي من أعاجيب الدهر وعجائب الحكمة، بل هي درة بهية، وآية سنية، وحكمة جوهرية، وشمس إشراقية، وبديعة نورانية، تلك آية «الرحمن» إذ قال الله تعالى: ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾[الآيات: ٥-٩].

(س) وأي عجب في هذه الآية وأي إبداع؟.

(جـ) فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب المتكبرين، ألا ترى أنه تعالى يقول: رفعت سمائي وحركتها بالحركات العجيبات، وقدرتها ووزنتها بالميزان العجيب، فلا شمس تشرق إلا بنظام، ولا قمر يطلع إلا بحساب، ولقد وزنت حركاتها وزناً، وضبطت سيرها ضبطاً، فلا تأخير ولا تقديم، ولا نجم ولا شمس ولا قمر يتحرك إلا بحساب وميزان ظهر لكم في تقويمكم السنوي، وعرفتموه في نتائجكم المعروفة. فهل رأيتم في عملي من خلل؟ أو اطلعتم على تفاوت؟ هل نجمَ النجم قبل إبانه، أو بدرَ البدر قبل أوانه، أو غربت الشمس بعد وقتها، أم أخطأ الليل والنهار؟ كلا. إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار، لتكون أعمالهم موزونة بهذا الميزان. فكما نظمت سماواتي، وقدرت كواكبي، وأدرتها بحساب؛ فهكذا يا عبادي نظموا أعمالكم كما نظمنا، وإياكم أن تحجموا عما رسمنا، فلا تستأخرون دقيقة أو ثانية ولا تستقدمون.

(س) قد فهمت إنشاءك، وعرفت منهاجك، وعقلت طريقك، فما أتيت في هذه الآية أكثر مما في غيرها.

(جـ) على رسلك صبراً، ولا ترهقني من أمري عسراً، فسأكمل المقال لتطلع على ما يجهله الأكثرون. انظر إلى قدماء المصريين، ألم تر أنهم جعلوا الفدان والأردب والقنطار مشتقات من دائرة الشمس السنوية؟.

(س) وكيف كان ذلك؟.

(جـ) إن الأرض ليس يضبط محيطها كلها كما يضبط محيط مدار الشمس. فلما كان العالم العلوي أضبط وأبقى جعله أولئك الفلاسفة مقياساً لنا، أي: جعلوا منه الرطل المصري والكيلة والفدان والقيراط وما أشبه ذلك، تصديقاً لقوله تعالى: ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴾[الرحمن: ٨] أي: إنا وزنا السماء وقدرناها وحسبناها وضبطناها في حركاتها، لئلا تزيدوا في موازينكم كالقناطير والأرطال ومكاييلكم كالأردب والكيلة، ومقاييسكم كالفدان والقيراط، إن هذه كلها مبنية على نظام شمسنا،

ولو اختل نظام مدارها لم يضبط لكم كيل ولا ميزان، كما لا تضبط أعمالكم إذا تقدم كوكب عن أوانه، أو طلعت الشمس أو القمر قبل إبانهما.

(س) هذا قول عجيب لا أفهمه أوضحه لي، فإذا عجبت من جهل الناس فلا تعجب إذا عجب الناس من غموض قولك.

(جـ) حياك الله، مهلاً. إن الفرنسيين الذين جعلوا وحدة المقاييس ترجع إلى محيط الأرض، إذ جعلوا المتر جزءاً من ٤٠ مليوناً من محيط الدائرة الأرضية قد وقع الخطأ في عملهم، فإنهم رأوا بعد ذلك أن محيط الأرض ليس ٤٠ مليوناً بل يختلف اختلافاً بيناً، فإذا اختلف الناس في المتر فيما بعد فإلامَ يرجعون. أما قدماء المصريين فإنهم قاسوا مدار الشمس السنوي بالحساب العالي فبنوا الهرم الأكبر على أن محيطه جزء من مليار جزء من محيط مدار الشمس السنوي، أي: جزء من ألف ألف ألف جزء من ذلك المحيط، وارتفاعه جزء من ألف ألف ألف جزء من البعد بين الشمس والأرض، أي: مليار وضعف الارتفاع المذكور يساوي قطر محيط دائرة مساوية لمحيط الهرم. فالارتفاع نفسه كما تقدم يساوي جزءاً من مليار من البعد بين الشمس والأرض، ومحيط الهرم يساوي جزءاً من مليار من الدائرة التي تدور عليها الشمس التي ذلك البعد نصف قطرها.

وعليه يكون ضلع الهرم مساوياً لجزء من ربع مليار من محيط الدائرة الشمسية. ومعلوم أن الضلع المذكور يساوي ٤٠٠ ذراع بلدي، أو ٣٦٠ هنداسة، فيكون الذراع البلدي واحداً من مائة مليار من محيط الدائرة الشمسية، أي: جزء من مائة ألف ألف ألف جزء من ذلك المحيط، ثم إن ربع الذراع البلدي المكعب يسع ألف درهم من الماء المقطر، وكل اثني عشر درهماً أوقية، وكل ١٢ أوقية رطل، فالرطل ١٤٤ درهماً، والقنطار مائة رطل، وعليه تكون المقاييس منها عشري ومنها ذو الاثني عشر، والأردب ذراع بلدي مكعب، فتعجب كيف كان الأردب ذراعاً مكعباً منسوباً إلى ضلع الهرم، فهو جزء من ٤٠٠ منه، أو واحد من مائة ألف ألف ألف جزء من محيط الدائرة الشمسية، ألا ترى كيف قسنا ووزنا وكلنا على نسبة محيط الشمس.

إن الفدان عبارة عن ١٠٠×١٠٠=١٠٠٠٠ عشرة آلاف هنداسة، فطوله ١٠٠ وعرضه ١٠٠، وهو نسبة عشرية، والهنداسة جزء من ٣٦٠ جزءاً من ضلع الهرم المنسوب لربع محيط الدائرة الشمسية فأصبح الفدان منسوباً مقياسه للدائرة الشمسية. أليس هذا بعينه قوله تعالى: ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾[الرحمن: ٨-٩]، فأمر بالاعتدال، وألا ننقص ولا نزيد في وزننا ولا في كيلنا ومساحتنا، كل ذلك على حساب مدار الشمس.

واعلم أن الذراع النيلي $\frac{٥}{٦}$ من الهنداسة، فيكون ضلع الفدان ١٢٠ ذراعاً نيلياً، والفدان ١٤٤٠٠ ذراعاً نيلياً، ويكون القيراط ٦٠٠ والسهم ٢٥ والدانق ١٠٠، فالذراع النيلي والهنداسة كلاهما يمسحان الفدان ١٠٠×١٤٤=١٤٤٠٠.

هل يدري ذلك الفلاح الذي يبيع قطنه بالقنطار أن للقنطار نسبة إلى مدار الشمس في السماء؟ هل يعلم أن القنطار المنقسم إلى أرطال إلى دراهم، أن تلك الدراهم منسوبة إلى الذراع البلدي الذي

إذا كعب ربعه وسع ألف درهم، وإذا كعب هو وسع ٦٤ ألف درهم، وأن هذا الذراع البلدي جزء من أربعمائة من ضلع قاعدة الهرم، وأن ضلع قاعدة الهرم جزء من ألف ألف ألف جزء من ربع محيط دائرة الشمس حول الأرض، وأن هذا المحيط أحد المحيطات التي للشموس العظيمة لا يعلم عددها إلا الله، وهل درى الفلاح الذي يقيس أرضه بالقصبة أن هذا الفدان يساوي عشرة آلاف هنداسة، وأن الهنداسة جزء من ثلاثمائة وستين جزءاً من ذلك الضلع المنسوب لمحيط الشمس.

وهل علم من يبيع أردب قمح أنه منسوب إلى الذراع البلدي الراجع إلى ضلع الهرم، المستمد من مدار الشمس، سبحان الله، وأن الشمس وما فوقها ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴾[النازعات: ٤٤]، هل علم الناس أن الذراع البلدي اشتق كما اشتق الكيل والوزن وهما من الحساب الاثني عشر، وأن المساحة من الهنداسة والذراع النيلي أولهما عشري والثاني فيه ذو الاثني عشر، وأن هذا كله راجع إلى مدار الشمس، الناس في بلدنا لاهون لاعبون جهلوا الدين وجهلوا نظام المدن، وعاشوا عالة على الذين حلوا من قبل في ديارنا، وعلى الأمم حولنا، جهلوا أن هذا الأردب، وهذا القنطار، وهذا الفدان، كل ذلك مقادير موزونة محسوبة منظومة راجعة لإبداع الشمس ونظام سيرها، كأن القدماء لما رأوا أن الناس غافلون ذكروهم بهذه الموازين العجيبة البديعة في غدوهم ورواحهم وحسابهم وليلهم ونهارهم لئلا يغفلوا عن ذكر ربهم، وعن ذكر نظام مدنهم، وعن نظام الفلك، أليس هذا عجيباً! إي وربي إنه لحق، إي وربي إنه لحق، لقد وضع وقصة بن داهر الحكيم الهندي الشطرنج، ووضع غيره النرد، وكان لتلك الأوضاع بهجة تذكر اللاعبين بسير الشمس والقمر والأيام وأعدادها والشهور وأدوارها، ولكن أعجب من هذا نظام قدماء المصريين الذين أبرزوا مكنون العلم في الأعمال اليومية لا الألعاب الصبيانية، فتأمل وتعجب! وانظر كيف تعلم اليونانيون علم المصريين، ودرسوا هرمهم وحكمتهم وميزانهم ورطلهم وقنطارهم وأردبهم، وعرفوا أن ذلك منسوب لضلع الهرم المنسوب لدائرة الشمس، وأن ذلك كله لم يتم إلا بعلم الحساب والهندسة والجبر العالي، وأمثال ذلك، أوضحه أفلاطون في جمهوريته وقال: لن يكون الإنسان عدلاً مطيعاً لله قائماً بأمره صادقاً في حكمه حتى يبرع في الرياضيات ويتخلق بأخلاق الله. ثم قرأنا ذلك ونظرنا في القرآن فرأيناها أنزلت على النبي العربي بلا تعليم: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴾[الرحمن: ٧-٨].

أفليس هذا يكفيك أن توقن أن أمة الإسلام اليوم نائمة نوماً عميقاً، جاهلة بما بين يديها وما خلفها، وأن الله عز وجل أيقظ فريقاً منها ليوقظها من نوم الغفلة والجهالة والغرور، وأن الحكمة الأفلاطونية الفيثاغورية كانت مصرية، كانت بضاعتنا فردت إلينا، وقد أوحي إلى نبينا بمضمونها، فهلا أعددنا للأمر عدته، ونهجنا منهج نبينا صلى الله عليه وسلم. وقد وافق شرعه شرع النبي إدريس عليه السلام الذي علم قدماء المصريين، وجاء وفاقاً له في سورة «الرحمن»: ﴿ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾[الآية: ٢]. انتهى ما أردته من رسالتي المسماة «التربية العملية». كتب الساعة ٦ بعد عصر يوم السبت ١٠ أغسطس سنة ١٩١٨م، بالبغالة: مصر العامرة. وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى في قوله تعالى: ﴿ وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾[الرحمن: ٧]، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ ﴾

قد تقدم الكلام على اللؤلؤ في سورة « الفاتحة »، وعلى المرجان في سور أخرى مفصلاً، ولكن لا بد من فصل قصير تزين به جيد تفسير هذه السورة فنقول:

من ذا الذي كان يظن أن تلك المرجانة التي تتزين بها النساء فوق براقعهن ببلادنا المصرية في القرى بحيث تراها صفاً واحداً منظماً على برقعها، منظماً من أعلى إلى أسفل، ويتبعه قطع من الذهب فيكون المرجان في الأعلى والذهب في الأسفل.

أقول: من ذا الذي كان يظن أن تلك المرجانة كانت صنع حيوان صغير جداً، وأن تلك الحيوانات باجتماعها آلافاً وآلافاً كونت مساكن، وتلك المساكن أشبه بأغصان الأشجار، ثم تتكامل اجتماعاً، وتتلاحق اتساعاً، وتمتد ذراعاً وباعاً، وتتسع انفراجاً حتى تكون منها جزائر، وتلك الجزائر أيضاً تتكاثر وتتكاثر وعلى مدى الزمان تراها في المحيط الهندي والمحيط الهادي « الباسفيكي »، وكيف تراها على شكل الخاتم، ووسطها فيه ماء لونه يخالف لون المحيط الذي هو أزرق، وإذا اجتمعت جزائر كونت حلقة أيضاً، وتعيش الحيوانات في مائها ساكنة مطمئنة، آمنة عاديات الدهر وهيجان المحيط، وترى شجر « الشكولاتة » يكسوها وهو جميل بهيج، ولو رأيت شجر المرجان لرأيته له فروع غبراء كظباء الصحراء، أو صفراء برتقالية، أو حمراء قرنفلية، أو زرقاء تتلاعب بها الأمواج، والريح تعبث بأغصانها، فانظر كيف تصبح هي أنفسها الصخرات المكونات للجزائر المرجانية، وتكون منها جزيرة حجرية، وقد تزيد إلى عشرة إلى مائة إلى ألف إلى عشرة آلاف إلى مائة ألف جزيرة، كالجزائر المعروفة باسم « بلكاديف »، فهي مائة ألف جزيرة. وكالجزائر المعروفة باسم « ملاديف » فهي ألف جزيرة كلها صخرية حجرية أصلها شجرات نابتات، وليست بشجرات، إنّما هي مساكن بناها الحيوان المرجاني الدقيق الذي سخره الله مع ضعفه ليبني الجزائر في البحر ويختطها لتكون مسكن الحيوانات بعد ذلك، وموطن الأشجار النافعة للإنسان والحيوان، والجزيرة الواحدة من تلك الجزائر يبلغ محيطها فراسخ عديدة تتكسر أمواج المحيط على جوانبها الناصعة البياض ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[المؤمنون: ١٤]

فصل في اللؤلؤ

وهل أتاك نبأ ما عرفته أنا بعد ما رأيته فيما تقدم؟ رأيت عجباً. ذلك أن عادة علماء التفسير أن يقولوا: إن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلا من البحر الملح، مع أن الله يقول: ﴿ مِنْهُمَا ﴾[الرحمن: ٢٢] وقد أولوه بما علمت وتابعتهم عليه. فانظر كيف جاء العلم الحديث جارياً على نفس ظواهر القرآن، إذ كشفوا أن اللؤلؤ يكون من الماء العذب، فانظر ما يقوله الناس اليوم، فقد جاء في مجلة « السياسة الأسبوعية » بتاريخ يوم السبت ٢٧ رمضان سنة ١٣٤٤ هجرية، ١٠ إبريل سنة ١٩٢٦م تحت العنوان الآتي ما نصه:

تكوين اللؤلؤ

يتكون اللؤلؤ في أنواع كثيرة من الحيوانات الصدفية أو المحارية التي تعيش في الماء العذب أو في الماء الملح، وكانت لآلئ الماء العذب شهيرة عند الرومانيين، وهي تستخرج حتى الآن من بعض جهات

في أمريكا والصين وغيرها، وأجمل نوع من اللؤلؤ هو ما يتكون في الحيوانات الرخوة الصدفية التي تعيش في البحار الحارة، والحيوان موجود داخل محارتين منطبقتين على بعضهما، ويوجد منها نحو الثلاثين نوعاً.

وأهم هذه الأنواع ثلاثة:

أولاً: مليجرينا مرجريتيفرا: وهو الاسم العلمي، وهو حيوان صدفي كبير، يصل قطره إلى قدر ثلاثين سنتيمتراً، ويصل ثقله إلى نحو عشرة الكيلوغرامات، ويعيش في المحيط الهندي والبحر الأحمر وفي بحار الهند وسيلان، وفي الأوقيانوسية، ويوجد اللؤلؤ فيه بنسبة لؤلؤة في كل أربعة حيوانات.

ثانياً: مليجرينا وديانا: وهو حيوان صدفي أصغر حجماً من الأول، لأن قطره يصل إلى اثني عشر سنتيمتراً، وثقله لا يزيد عن مائتي غرام، وهو يعيش في أغلب البحار الحارة، وخصوصاً في البحر الأحمر والخليج الفارسي.

ثالثاً: مليجرينا أمبريكاتا: وهو حيوان صدفي صغير يعيش في البحار الغربية لشواطئ أستراليا، وهو يخالف النوعين السابقين في أنه يعيش في مكانه ملتصقاً على الصخور بعضو خاص، لهذا النوع من الأصداف عضو اسمه «البسوس»، توجد هذه الأصناف على شكل جماعات عديدة الأفراد.

واللؤلؤ اللطيف الشكل الجميل الماء ـ كما يقولون ـ هو ما يسمى باللؤلؤ الحر أو الصافي، وهو ذو القيمة التجارية الهائلة، وهو ما يطلق عليه عادة اسم اللؤلؤ، ولا يستخرج أغلبه الآن إلا من الحيوانات البحرية التي سبق ذكرها، وأغلاه ما كان جميل الماء كروي الشكل، أو مماثلاً للكمثرى في شكلها، وتختلف ألوانه فمنه الأبيض، وهو أكثر شيوعاً بين الناس، ومنه الرمادي والوردي، والأخضر والأحمر والأصفر والأسود والأزرق، واللؤلؤ الأسود نادر جداً وقيمته التجارية كبيرة.

وهناك نوع من اللؤلؤ الحر ذو لمعان ذهبي جميل، يفضله بعض الغاوين على غيره، وما يجعل للؤلؤ هذه القيمة الاقتصادية المعروفة هو لمعانه وماؤه ولونه، وبمرور الزمن وكثرة الاحتكاك في استعماله وتأثير العرق ـ وهو سبب غير أكيد ـ يذهب اللمعان والماء، إذ يبخر كمية من الماء الذي يكون ضمن المواد المكونة لهذا اللؤلؤ، فيقول إذ ذاك العارفون: إن اللؤلؤ مات. وهناك أنواع من اللؤلؤ تموت قبل غيرها بمدة طويلة أو قصيرة رغماً من وجودها بنفس الظروف المفروض أنها هي سبب الموت، وهذا الاختلاف يرجع إلى ما سماه الأستاذ «دوبوا» ضعف اللؤلؤ أو قوته، ففي نظر هذا العالم هنالك أمزجة مختلفة في اللؤلؤ تجعل بعضه يتحمل المؤثرات الخارجية، والبعض الآخر لا يتحملها فيموت البعض قبل الآخر.

وموت اللؤلؤ هو السبب في أن أغلب لآلئ المصاغ المحفوظ في المتحف ذهب ماؤها، واندثر لمعانها. واللؤلؤ الكروي أو القريب منه هو أغلاه. وهنالك أنواع من اللؤلؤ نصف كروية تسمى بأنصاف اللآلئ وهي أقل قيمة من الأولى، وتستعمل في أنواع المصانع الذي لا يرى فيه إلا أنصاف اللآلئ كرؤوس الدبابيس وما شابه ذلك. انتهى ما جاء في المجلة المذكورة، وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثانية، والحمد لله رب العالمين.

جوهرة في قوله تعالى: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ ﴾

تأمل في هذه الآية من وجهين: الأول: أنه عبر عنها بشواظ من نار، وفيما تقدم بقوله: ﴿ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾[الرحمن: ١٥]، والشواظ والمارج كلاهما اللهب الخالص، فلماذا جعل الجان مخلوقاً من مارج ولم يقل من شواظ؟ فاعلم أن المارج فيه معنى الاضطراب كما تقدم، وقد أبنت ذلك هناك، وهذا الاضطراب يفيد اضطراب الروح كما تقدم في علم الأرواح. وأيضاً اختلاط الألوان الآن معروف في التحليل فهو من هذا القبيل، فإنّما أعدت الكلام فيه لورود هذا اللفظ هناك ولم يرد هنا، فإن ذكره هناك لهذا الغرض، وهذه الفكرة لم تعلم قط إلا في زماننا هذا، فإن تحليل الضوء والعلم بأنه مختلط والاطلاع على عالم الأرواح الناقصة وأنها مضطربة لم يكن إلا في زماننا، وهذا من أعاجيب القرآن التي لا تدرك إلا بقراءة العلوم، وليس يعقلها الناس بفن البلاغة المعروف، فلا أصحاب المعلقات يدركونها، ولا الذين بعدهم يعلمونها، فهل لمثل امرئ القيس، أو لأبي العلاء أو المتنبي أن يتناولوا هذه المعاني في أقوالهم؟ كلا. فهذه بلاغة لا تخطر ببالهم، وأنى لهم علم الروح حتى يخصصوها بلفظ مارج، وعند إنزال العذاب يذكرون الشواظ. الوجه الثاني: أن الشواظ والنحاس الواردين في الآية لهما نظائر في أحوالنا الإنسانية اليوم كما تقدم، ولكني أريد أن أزيدها أيضاً:

(١) الناس محبوسون في شهواتهم كشرب الدخان، والخمر، والكوكايين. (٢) في أنواع من الطعام. (٣) في أنواع من اللباس. (٤) في أنواع من الزينة. (٥) في أنواع من العادة. (٦) في أوطانهم. (٧) في دياناتهم. (٨) في أرضهم لا يخرجون عنها إلى المريخ. (٩) وكل محبوب عند نفوسنا إذا فارقناه أحسسنا بآلام للفراق، فنحن للأوطان ولمن نعشقهم، ونحزن لفراق المألوفات من مال وولد وملك وجاه وما أشبه ذلك، ولا فراق إلا يصحبه حزن، والحزن يعبر عنه الناس بالنار، يحسون بها في باطنهم، وقد يتعدى الباطن فيورث الحمى والسهر، فيقول شاعرهم متحسراً:

يا ليل ما لك آخر ... يرجى ولا للشوق آخر

يهنيك بدرك حاضر ... يا ليت بدري كان حاضر

حتى يبين لناظري ... من منهما زاه وزاهر

والأشعار كثيرة نبغ فيها أسلافنا، وكلها تصف الأشجان والفراق ونار البعد والحسرة والتوجع فهذه الآية وإن كانت في أمر الآخرة، فهي من جوامع الكلم شملت أحوال الناس من حيث طباعهم في الدنيا والآخرة، لأن ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[الإسراء: ٧٢]، ومثل هذه المعاني لن يتصوروها الشعراء قديماً وحديثاً. انتهى القسم الثاني من السورة.

القسم الثالث: في عجائب عالم الآخرة

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً ﴾ أي: حمراء، فهي كلون الورد الأحمر ﴿ كَٱلدِّهَانِ ﴾ أي: مذابة كالدهان، وهو اسم لما يدهن به، بوزن الحزام أو جمع دهن ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ أي: فيوم تنشق السماء ﴿ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ لأنهم يعرفون بسيماهم، وذلك حين يخرجون من قبورهم ويحشرون إلى الموقف وبعد ذلك يسألون

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ ﴾ هناك ، ولقد عثر النوع الإنساني مع قلة علمه على قليل من ذلك فانتفع به في حصر المجرمين وإذلالهم ، فهاهي ذه حكومتنا المصرية قد جعلت إدارة خاصة لعلامات المشتبه فيهم ، وذلك أن لكل امرئ خطوطاً خاصة في إبهامه لا تشابه غيره ، ولا يحصل التباس ، فمتى أخذوا صورتها على الورقة لم يفلت ذلك المجرم ، إذ يعرفونه بتلك العلامة التي لا يشاركه فيها سواه لا في الشرق ولا في الغرب ، وهذا أيضاً في أوروبا وجميع العالم الإنساني .

وهناك بعض العرب في البادية يعرفون الإنسان بأثره ويرثها الابن وراثة طبيعية ، وذلك مشهور في طوائف قليلة من الناس وهو من خاصيتهم . وإذا كان هذا في الدنيا فما بالك بيوم القيامة عند من يعلم الغيب .

والحاصل أن لكل امرئ أحوالاً تخصه في جسمه وفي عقله وأخلاقه ، يعرف الناس قليله الآن وبقية علمه عند الله يعلمه للملائكة ، وهم يعرفونهم بسيماهم ، ﴿ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾ مجموعاً أو يؤخذون بالنواصي تارة والأقدام أخرى ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا ﴾ بين النار يحرقون بها ﴿ وَبَيْنَ حَمِيمٍ ﴾ ماء حار ﴿ ءَانٍ ﴾ ماء حار قد انتهى حره . فهم يسعون بين الجحيم وبين الحميم ، فإذا استغاثوا من النار جعل عذابهم الحميم الآني الذي صار كالمهل ، والمهل : هو دردي الزيت ، أي : عكره ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ والنعم في هذا نجاة الناجي منه بفضله ورحمته ، وأن في الإنذار به تنبيهاً وإيقاظاً ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ أي : قيام ربه عليه يعني اطلاعه عليه ، فإذا همّ بمعصية ذكر الله وأنه مطلع عليه فتركها من مخافة الله ، فمثل هذا يراقب الله في السر والعلانية ، فيفعل الخير للناس في جوارحه ويحب لهم الخير في قلبه ، ويزداد علماً يملأ قلبه ، فمثل هذا ينال جنتين : جنة روحانية لقلبه ، وجنة جسمانية على شاكلة ما عمل في الدنيا ، فهو في جنات ونعيم ، وقلبه مطلع على جمال الملكوت ناظر لربه ، أو يكون أولاً في الجنات الحسية ، ثم تلطف روحه شيئاً فشيئاً ، وكلما خلعت عاداتها الغليظة لطفت ولا تزال تلطف وهي في الجنات الحسية ، ونور علمها يزداد بالجنة الروحية . وهكذا يستمر ازدياد المعنويات ونقص الحسيات حتى تخلص الروح من العوالم كلها وتكون إلى ربها ناظرة . وهذا هو غاية المراد .

وهذا التقرير قد رأيت بعض ما يشير إليه في كلام محيي الدين ابن عربي ، إذ قال : إن الروحية يكون لها سلطان على الجسمانية . وهذا بعض ما قلناه ونقلته أيضاً عن علماء الأرواح في العصر الحاضر ، وقوله : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾ أي : أغصان ، جمع فنن ، وهو الغصنة التي تتشعب من فروع الشجر ، ولا جرم أن الفنن هو الذي يورق ويثمر ويمد الظل ، لذلك خصه بالذكر ، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ حيث يشاؤون في العلالي وفي الأسافل ، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ أي : صنفان ونوعان .

وروي أن فاكهة الدنيا كلها لها نظير في الجنة، وهذا المقام له تحقيق مرّ في سورة «البقرة» في أولها. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٣ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ الفرش جمع فراش، والبطائن جمع بطانة، والإستبرق ديباج ثخين، و«متكئين» حال من الخائفين، لأن من خاف في معنى الجمع ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ﴾ ثمرها ﴿دَانٍ﴾ يناله القائم والقاعد والمضطجع ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٥ فِيهِنَّ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي: في الجنان المدلول عليها بالجنتين لكل خائف، ويتعدد الخائف يتكاثر عدد الجنان، نساء قصرن أبصارهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ الطمث: الجماع بالتدمية، أي: لا يمس الإنسيات إنسي ولا يمس الجنيات جني ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٧ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ﴾ صفاء ﴿وَٱلْمَرْجَانُ﴾ في حمرة الوجنة، أو أن ألوانهن بياض مشرب بحمرة، فالبياض كاللؤلؤ، والحمرة كالمرجان، فتعاشق اللونين يحدث منظراً جميلاً، وهو أحسن الألوان، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٩ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ في العمل ﴿إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ في الثواب وهو الجنة ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦١ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ أي: ومن تينك الجنتين الموعودتين للخائفين جنتان لمن دونهم من أصحاب اليمين ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٣ مُدْهَآمَّتَانِ﴾ خضراوان تضربان إلى السواد من شدة الخضرة، فينبت في هاتين الجنتين النبات والرياحين القريبة من وجه الأرض أو المنبسطة عليها، وأما أولئك فلهم أشجار فيها فواكه وفرق بين المقامين، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٥ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ فوارتان بالماء، ووصف الأوليين أجمل، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٧ فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ من عطف الخاص على العام ففصلهما لفضلهما، وأيضاً الرمان فاكهة ودواء، وثمر النخل فاكهة وطعام فليسا خالصين للتفكه. ولذلك قال أبو حنيفة رضي الله عنه: إذا حلف لا يأكل الفاكهة فأكل رطباً أو رماناً لم يحنث، وخالفه صاحباه، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

واعلم أن الفاكهة إما عطرية كالتفاح، وإما مائية كالبطيخ، وإما حمضية كالليمون، وإما زيتية كالزيتون، وإما سكرية كالتمر، وإما غير ذلك كثمر التوت، وقوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ أي: خيّرات ـ بتشديد الياء ـ فهن أقل من السابقات لأن هؤلاء لسن أخير، لأن خير بمعنى أخير لا يجمع، وحسنهن في الخَلق والخُلُق ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧١ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ أي: قصرهن في خدورهن، والمرأة القصيرة والقصورة والمقصورة: المخدرة ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٣ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٧٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٥ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ الرفرف الخضر الوسائد جمع رفرفة ﴿وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ﴾ العبقري منسوب إلى عبقر تزعم العرب أنه اسم بلد الجن فينسبون إليه كل شيء عجيب، وهو جنس يدخل فيه كل أمر غريب كالديباج الجميل والطنافس وغيرها.

ثم اعلم أن العبقري أيضاً كل جليل نفيس فاخر من الرجال وغيرهم فهو أعم مما هنا. قال صلى الله عليه وسلم في عمر: «فلم أرى عبقرياً يفري فريه». ووصف العبقري بالحسان لحمله على المعنى، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٧ تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ تعالى اسمه، وإذا كان الاسم يتعالى

فما بالك بذاته تعالى! ﴿ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ ذي العظمة والإنعام لأوليائه ولغيرهم فيعطي كلًّا ما هو أهله.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سلم من الصلاة لم يقعد إلا مقدار ما يقول: اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام» أخرجه أبو داود والنسائي غير قولها: «لم يقعد إلا مقدار ما يقول».

وروى مسلم عن ثوبان قال: «كان صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً، وقال: اللهم أنت السلام، إلى: يا ذا الجلال والإكرام».

لطيفة في قوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ وقوله: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾

لما ذكر الله نعم الدنيا ختمها بفنائها، وأن الباقي هو الله، ولما ذكر نعم الآخرة ختمها بأن الله ذو العظمة والإنعام على العباد وجميع المخلوقات، وتكون نتيجة السورة هكذا: الدنيا كلها نعم ولا يبقى سوى المنعم، والآخرة كلها نعم للخائفين ومن دونهم، والله هو المستحق للتسبيح والتنزيه، فهو ذو الجلال، ومستحق للحمد على النعم لأنه ذو الإكرام، فتكون النتيجة أن هذه الدنيا وما بعدها نتيجتهما العلم، لأن الحمد لا يكون إلا على العلم بالمحمود عليه.

وبالاختصار أعظم نعيم في الجنة العلم، وقد رمز له بالإكرام، إذ لا أعرف إكرام الله إلا إذا درست نعمه، ومن أعطى إنساناً نعمة فوجده يجهل قيمتها لا يعاود إنعامه عليه ثانياً، ولسنا نعرف نعم ربنا لنشكرها إلا إذا درسناها في هذه الدنيا، فانظر إلى أول السورة كيف بدئت بالرحمة وبالعلم والتعليم، وختمت بما يشير إلى الحمد، وما بينهما راجع لهما، فالشمس والقمر والشجر والميزان العام في السماوات والأرض، وبقية النعم المتقدمة؛ لا تعرف قيمتها إلا بدراستها، وبهذه الدراسة يمكننا أن نشكر الله بالقلب بحيث نخلص لله وللناس، وباللسان بالثناء على الله بالحمد، وبالأفعال بحيث نحسن ونتصرف بالخير بأيدينا.

إن سورة «الرحمن» نزلت إيقاظاً للمسلمين أن يكونوا مفكرين حتى يدرسوا العلم وإذن يكونون حامدين لربهم الذي أكرمهم، والسورة فيها تعريض بأن من جهل النعمة كأنه كذبها، وفي هذا ما هو كالإنذار لمن جهلوا هذه النعم.

والمسلمون اليوم أقل علماً بعلوم الكائنات. وقد آن أن يرجع لهم مجدهم ويعرفوا نعم ربهم، ويسابقوا لنيل الخيرات، والحمد لله رب العالمين. اهـ.

اللطائف العامة في هذه السورة:

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ ﴾ مع قوله: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ ﴾ الخ.

اللطيفة الثانية: في عجائب الحسبان في سورة «الرحمن».

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ ﴾.

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى:

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ ﴾

مع قوله:

﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ ﴾

لك الحمد للهم على نعمة العلم وبهجة الحكمة، أنت معلم المعلمين، وملهم الصالحين، ومرسل الأنبياء والمرسلين، تباركت وتعاليت، قد هديتنا وعلمتنا وأعنتنا على إبراز ما وقر في النفس من نعمة العلم والحكمة، أنت الرحمن الرحيم، وبرحمتك أذعت العلم بين الأمم، وأنزلت القرآن، وأبدعت في خلق الإنسان، وربيته وعلمته البيان، فعلم خواصه علماً يقيناً أن الكواكب كلها بحساب، ودرسوا أنواع النبات فألفوها ذات بهجة ونظام، ودرسوا العلويات فألفوها حسنة القوام، جميلة الإبداع، رفيعة المقام، مشرقة مبهجة منعشة مسعدة للأنام، ورأوا كل مخلوق متزناً بميزان لا نقص فيه ولا خلل ولا زيادة في الميزان، وبهذا الميزان حفظت الكواكب في مداراتها، والسيارات في أبراجها، والحيوانات في مسارحها، وأزهر النبات وأثمر الشجر وسعد بالحياة نوع الإنسان.

هذه هي الآلاء والنعم الكبريات، ولما أفضت علي من نعمك العلمية وأردت أن أشرح الميزان ألفيت المقام متسعاً، والمجال فسيحاً، بل هو بحر لجي لا يعرف مداه، ولا يدرى منتهاه، ولقد تذكرت اليوم ما اتفق لي في زمان الشباب، إذ كنت أفكر في نظام السماوات والأرض، فقرأت للإمام الغزالي جملة هذا معناها: لا يعرف الميزان إلا من درس جميع العلوم، فطار إذ ذاك لبي وحار فكري، وأخذت أنشد المعارف، وأبحث في كل تليد وطارف، وأسأل كل عارف وغير عارف، ودرست ما قدر لي، ثم ألفت كتاب «جواهر العلوم» وأتبعته بكتاب «ميزان الجواهر» تذكرة بما قاله الإمام الغزالي رحمه الله تعالى، وهل كان يدور بخلدي أو يخطر ببالي أن أعيش حتى هذا الزمان، وأن أؤيد بروح منك فأفسر القرآن، وأصل إلى سورة «الرحمن» كما هي الحال الآن، فأفسر آية: ﴿ وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾[الآيتان: ٧-٨]. هذا لم يكن يخطر لي ببال، ولم تكن نفسي تشرئب إلى ذلك المقام وفي هذا المقام أنشد قول القائل:

وإذا العناية ساعدتك عيونها	نم فالمخاوف كلهن أمان
واصطد بها العنقاء فهي حبائل	واقتد بها الجوزاء فهي عنان

فإذا كنت موقناً أن العناية ساعدتني في التفسير عامة، فبالعناية الإلهية أبتدئ في تفسير هذه الآية التي يشمل معناها جميع ما تضمنه الوجود من النظام، وأجتزئ بأن أذكر طرفاً يسيراً من ذلك النظام:

(١) فأبتدئ بذكر حقائق الجماد بوصف بعض الأحجار الثمينة.

(٢) ثم أقفي الإشارة إلى نظام النبات.

(٣) ثم أذكر بعض الحيوان الذي يعيش في البحر.

(٤) ثم أقفي على آثاره بعجائب خلق الحيوان الذي يعيش في البحر صغيراً، وفي البر كبيراً، وهو الضفادع التي يرى العاقل في نموها وتدرجها من العجائب ما تخر له العقلاء سجداً من تلك المادة

الهلامية التي تحيط بالبيض وتأخذ في رفعه كلما زاد نموه حتى تصل به إلى سطح الماء فيكون إذ ذاك قد فقس البيض، فأما المادة فإنها تنحل بتدبير آخر وإبداع عجيب.

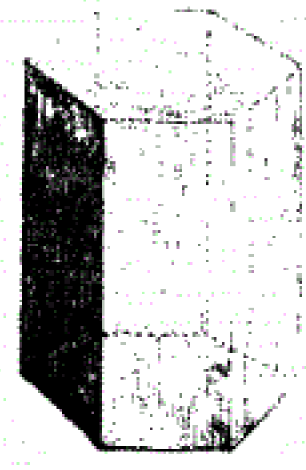
(٥) ثم أقفي بذكر بعض حيوان البر وأبتدئ بالعنكبوت، وأبين كيف يبتدئ في نسجه وهيئة سيره فيه مما لم يتقدم له نظير، حتى تعلم أيها الصديق أن تلك العناية التي أحاطت بأجسام الحيوان نفذت إلى إدراكه وغرائزه فأخذ ينظم أعماله كما نظمت هيئة جسمه وكأنه تلميذ تربى في معهد جسمه المنظم فأخذ ينسج على منواله.

(٦) ثم أتبعه بذكر عجائب النحل وإبداعه في عمله مما لم يسبق له نظير فيما مضى، وكيف كان منه بناؤون ونساجون ونجارون وغيرهم.

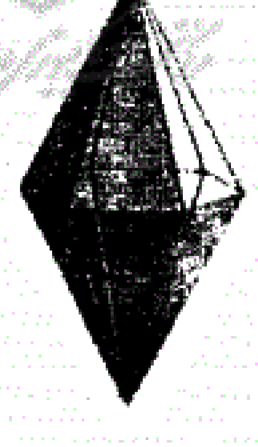
(٧) ثم أذكر ما يقرب منه وهو الزنبور، وكيف يغلف عشه بما يشبه الورق، فيكون ذلك الغلاف سبباً لدفء صغاره داخل خلاياه التي بناها ونظمها.

(٨) ثم أختم المقام بذكر النمل وعجائبه التي لم يسبق لها نظير، مثل النجارين منه والبنائين الذين يبنون أبراجاً سترى بعضها قريباً، وإليك تفصيل ما أجملناه.

فأولاً: لا أقف عند ما في الجماد من إبداع وإتقان ونظام مثل «الزمرد». انظر (شكل ١). ومثل الياقوت الأزرق البلوري. انظر (شكل ٢). ومثل الزمرد البلوري المركب. انظر (شكل ٣). ومثل أحد الأحجار الكريمة المخضر لونه المسمى بالفرنجة «برل». انظر (شكل ٤). ومثل الحجر المسمى «كوارتز» انظر (شكل ٥). وهاك أشكالها.



(شكل ١)
الزمرد البلوري

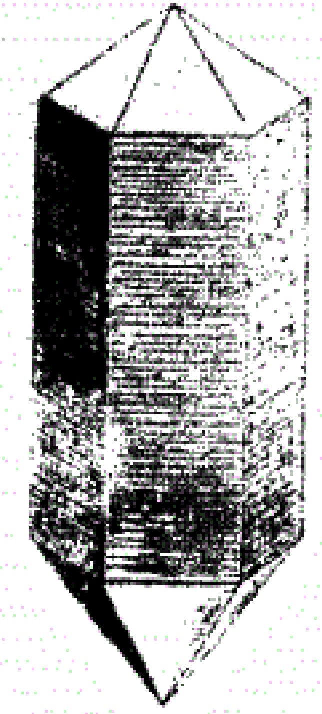


(شكل ٢)



(شكل ٣)
زمرد بلوري مركب

(شكل ٤)
برل بلوري ذي الخطوط الطويلة



(شكل ٥)
كوارتز البلوري ذي الخطوط العرضية المقاطعة

فهذه الأنواع الخمسة من الأحجار الثمينة نراها ونرى غيرها في الطبيعة على هيئة البلور مسدسة الأشكال منظمة الإبداع، بهجة الألوان، زينة للدنيا ونوراً للعلماء المفكرين، فهل أقف عند هذه وحدها نموذجاً للميزان المنصوب في الأرض والسماء؟ كلا. بل أقفي بذكر الميزان في النبات، فأقول:

ثانياً: نرى الحكمة كما سرت في الجماد ونظمته وأحكمته سرت فيما هو أرقى منه وأبدع وهو النبات، كما تقدم في قوله تعالى في سورة «الحجر»: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾[الآية: ١٩]، وفي هذا التفسير من وزن ما يذهل الألباب، فبأي مقام أذكرك أيها الذكي؟

(أ) أبالمذكور في سورة «ق».

(ب) أم بالمذكور في سورة «حم فصلت».

(جـ) أم بما قبل ذلك في سورة «يس».

(د) أم بالمذكور قبلها في سورة «فاطر» و«السجدة» من تلك الصور البديعة، والأشجار المونقة البهجة الجميلة وأشكالها، وتشريح سوق الأشجار وانتظام حلقاتها بعدد سنيها من بدائع الحكم المودعة في النبات، وكيف كان للأشجار طبقة فوق قشرتها تمنع الماء في داخلها أن يبخر، وتحتها طبقة أخرى تمتد منها شعرات تمنع شدة ضوء الشمس من طغيانها على النبات، وربما ملئت بسائل حريف أو مر أو نحو ذلك مما يمنع الحيوان عن تعاطي ذلك النبات، وهناك عجائب الطبقات الخشبية التي جعلت ناقلة الغذاء من الساق إلى فروعه وأوراقه. وعجائب اللحاء التي توصل العصارات التي اكتمل نضجها في بقية الأوراق إلى بقية الأجزاء في النبات. فلقد تقدم هذا هناك موضحاً بصوره العجيبة، ودروسه المنتظمة، فاقرأه على مكث.

(هـ) أم بما ذكرناه في سورة «الحجر عند الآية ١٩»: ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾، وهناك ترى شجرات مرسومات منتظمات الدوائر الحاصلات من منابت الأوراق. وفيها بدائع تذهل العقل وتبهج النفس. فبينما نحن نأكل التفاح. ونتفكه به ونظن أن هذا هو المقصود منه في حياتنا ونفرح به ونقول الحمد لله؛ إذا نحن نرى حياة جديدة. نرى الأوراق التي لا نأبه لها قد جعلت كل خمس منها مشكلات لدائرة تامة، بحيث يكون بين كل ورقتين ٧٢ درجة من ٣٦٠ درجة من الدائرة، وفي كل دائرة تامة شكلان حلزونيان. ومن عجب أن الورقة الأولى من الدائرة الأولى على خط مستقيم مع الورقة الأولى من الدائرة التي فوقها. وهكذا الورقة الثانية، فيكون هناك فوق نظام الدوائر التامة والأشكال الحلزونية أمر آخر وهو الخطوط المستقيمة المنتظمة فيما بين النظائر في الدوائر. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أصبحت هناك نسبة بين تلك الأشكال الحلزونية ودوائرها مع كل الدوائر الأخرى في نباتات كثيرة وأشكالها الحلزونية، حتى إنك ترى هناك سلسلة حسابية منتظمة تسري في كل نبات.

ولما كان هذا قد تقدم فلا حاجة لإعادته هنا، وكفى ما ذكرناه تشويقاً لمراجعته، هذا هو الميزان في النبات وهو المقام الثاني.

الكلام على السمك

ثالثاً : فلأخط خطوة فوق ما تقدم إلى حيوان البحر لأنه مقدم على حيوان البر ، مكتفياً بذكر سمكة تسمى « بلاس » أو « بليس » بإمالة اللام ، فأقول : إن هذا السمك الذي يشبه ما يسمى في بلادي المصرية « القنومة » والواحدة منه تضع نحو نصف مليون بيضة ، وكل بيضة يبلغ قطرها جزءاً من ١٢ من البوصة ، وهذا البيض يكون عائماً قرب سطح الماء . ونمو الجنين في البيض يمكن ملاحظة درجاته المختلفة في داخل البيض . انظر (شكل ٦) و(شكل ٧) .



(شكل ٦ ـ نمو سمك بلاس)

(١) إن الصورة العليا اليسرى ترينا جنين السمكة في اليوم التاسع بعد الإلقاح ، والنقط الصغيرة عبارة عن حواصل ملونة والحجم الطبيعي أقل من جزء من ١٢ من البوصة .

(٢) إن الصورة العليا اليمنى ترينا الجنين مستعداً للخروج من البيض بعد ١٧ يوماً بعد الإلقاح الخلايا الملونة بالسواد أخذت الآن تظهر .

(شكل ٧) نمو السمك بلاس

(٣) والصورة السفلى ترينا السمكة الصغيرة نحو ثلاثة أخماس البوصة ، وهاهي ذه الآن أخذت تأكل المح « صفار البيض » وقد التهمته جميعه .

ثم انظر (شكل ٨)

(شكل ٨)

(١) هاهي السمكة الصغيرة تامة مع التوازن المعهود في السمك.

(٢) ترينا تغيراً واضحاً بنجاح، فالجسم أصبح الآن مسطحاً من ناحية إلى الأخرى، والعين اليسرى صارت مدورة للجهة اليمنى مائلة نحو الجنب، وطولها إلى الآن لا يصل إلى نصف البوصة.

(٣) سمكة شابة ـ وهو تعبير مجازي ـ وصلت الآن قاع النهر، هي تستريح تارة وتعوم أخرى على جنبها الأيسر، وقد صار طولها بوصة.

(٤) سمكة شابة في قاع البحر وحويصلاتها الملونة قد أخذت تنحو نحو الجانب الأيمن وهي لا تظهر من الجهة اليسرى نحو الجانب الذي هو فضي اللون، أما العينان فإنهما جنباً لجنب متجهان إلى أعلى نحو الجانب. انتهى المقام الثالث في السمك.

رابعاً: هل أقف عند السمك في الميزان؟ كلا. بل هناك ما هو أجلّ منه، وهو عالم الحيوان الذي هو أرقى منه، ولقد مرّ في سورة كثيرة مثل «البقرة» و«الأنعام» وسورة «المؤمنون» وسورة «النور» وسورة «السجدة» و«فاطر» وسورة «حم فصلت» وغيرها، وكنت أود أن أذكر هنا الحيوان الذي يعيش في البر وفي البحر كعالم الضفادع تتميماً للأقسام، ولكن يمنعني من ذلك أنه قد تقدم مفصلاً موضحاً بالصور في سورة «البقرة» في الطبعة الثانية فإنه هناك أوضح وأجمل وأبدع مما كتب عنها في سورة «طه».

ألا ترى رعاك الله أن فيه نوعي الضفادع وكيفية نمو أجنتها، وحسن إبداعها، وإتقان صنعها، وكيف يرى بيضها في الماء على هيئة الخطوط المتوازية، ولقد فاتني هناك أن أذكر أن الذي حببني في شرحها أنني حينما نظرت ذلك الرسم خطر لي خاطر كان يسنح لي وأنا تلميذ بدار العلوم، ذلك أننا كنا نتعلم فن الرسم وكنا نرسم خطوطاً منتظمة، فكنت أثناء الرسم أتفكر في أمرين: أولهما: أنني في هذا العمل أعتبر نفسي في طاعة الله تعالى، وهكذا شأني في جميع الأعمال. ثانيهما: أني كنت أثناء الرسم أحس كأني في عالم السماوات الذي هو عالم منظم، ورسم هذه الخطوط يذكرني به.

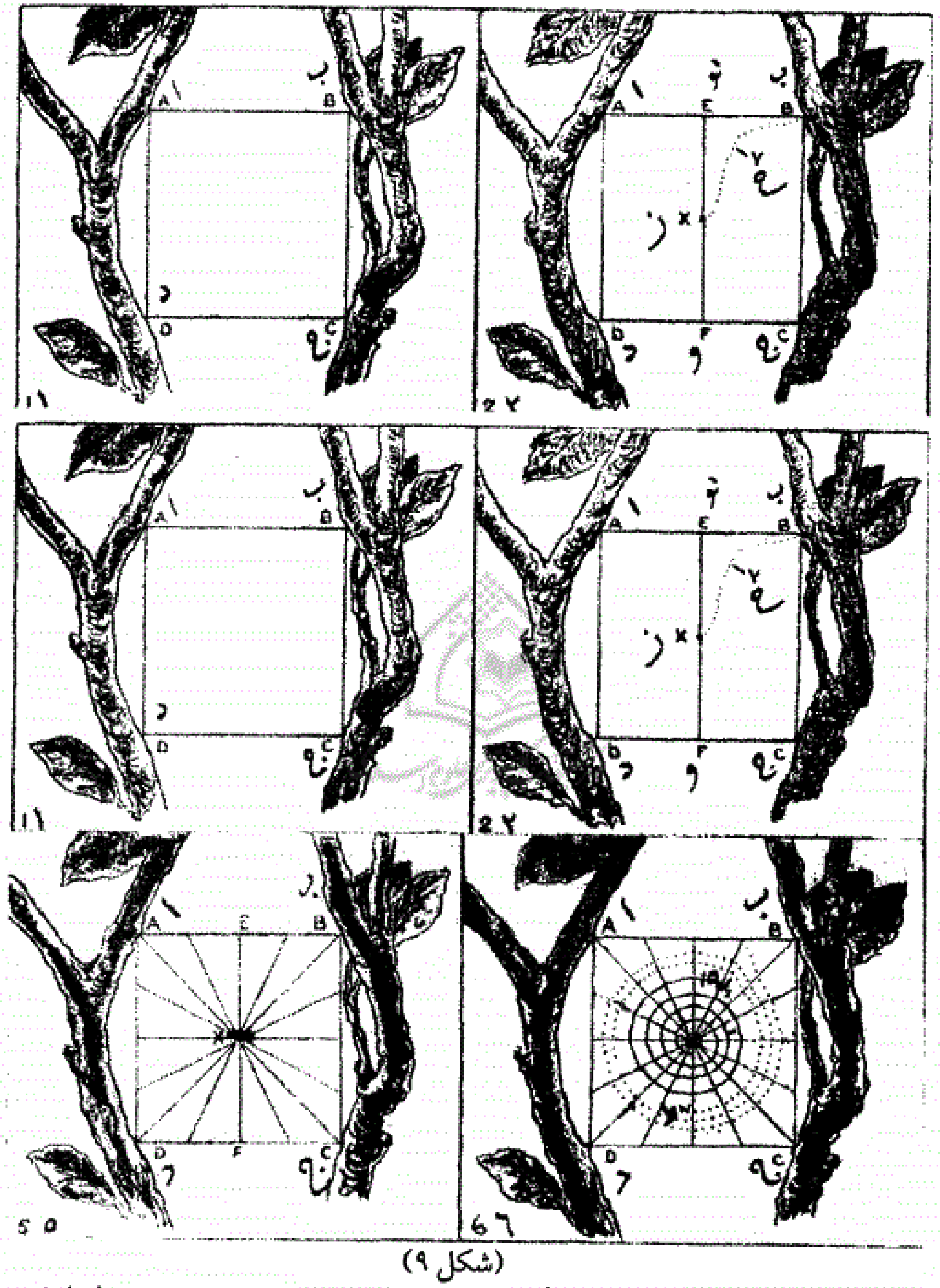
هذا هو الذي كان يدور بخلدي أيام الدراسة، فلما رأيت رسوم الخطوط لبيض الضفادع المتوازية أذكرني ذلك فرسمتها وشرحتها، والحمد لله رب العالمين.

ولكنني لا أقف في الميزان عند حد الحيوانات البرية والبحرية. كلا. فلأنتقل للكلام على العنكبوت وهي من الحيوانات التي لا تعيش في غمرة الماء، وبهذا نبدأ الكلام على عجائب جديدة لم تكن من قبل، وبيان أن ما تقدم في الأحجار الثمينة والنبات والسمك والضفادع؛ إن كل ذلك إلا صنعة لم نر صانعها، فأما هذه الصنائع التي نريد دراستها المبدوءة بصناعة العنكبوت ـ التي لم يسبق إيضاحها في سورته كما هنا ـ فإن أمرها عجب! نعم عجب للحكيم، أما الجهال فهم فريقان: فريق هم السواد الأعظم لا يعرفون من العنكبوت ولا من النحل ولا من الزنابير ولا من النمل إلا ما يمس عواطفهم كراهة وحباً، فيتبرمون من العنكبوت، ويفرحون بالنحل، ويخشون الزنابير والنمل.

هذه آراء أغلب نوع الإنسان في أرضنا، ويلحق بهم أكثر أولئك الذين يتعلمون في مدارس الشرق والغرب علم التاريخ الطبيعي، فهؤلاء يقرؤون هذه العلوم وأكثرهم لا يدرسه إلا كما يدرس علم النحو أو علم الزراعة، كأن أرواحهم لا تعرف إلا الأمور المحسوسة، أما التفكر والتذكر بل السعادة الحقيقية فإنها هاربة منهم، بعيدة عنهم، رحلت من عقولهم، فهم لا يعقلون ولا يسعدون، وفريق آخر وهم أقل هذا النوع الإنساني إذا درسوا أمثال ما سنذكره هنا فإنهم سيدهشون ويقولون نعم رأينا الإبداع في الأحجار الثمينة البلورية وفي النبات وفي السمك وفي الضفادع، لأن الذي صنع هذا هو صانع العالم له فلا غرابة في ذلك، إنّما الأمر المدهش أن صانع نسيج العنكبوت هو نفس العنكبوت، وصانع خلايا العسل إنّما هو النحل، ويقرب منه الزنبور، ونرى في النمل والنحل بنائين ونجارين، وضباطاً وجيوشاً ومربين. فما هذا الحادث الجديد؟ فهؤلاء يرون أن هذه العوالم ما هي إلا كتلاميذ تربوا في بيت الحكيم وتحت رعايته فقلدوه ونحوا نحو عمله، وهل عمله إلا النظام المحكم؟.

الكلام على العنكبوت

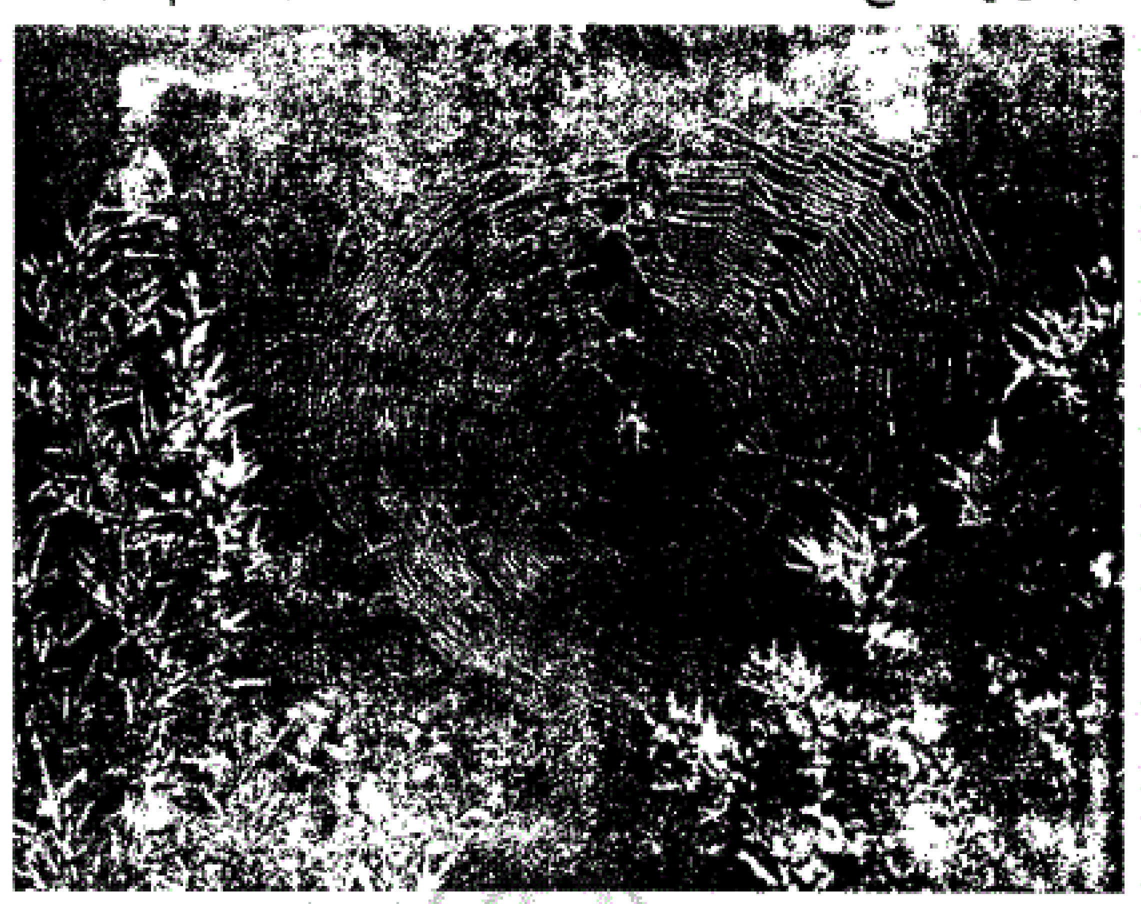
مثلاً شكل ٩ وهو رسم بياني لنسيج العنكبوت. انظر الرسم الآتي.



(شكل ٩)

(١) أربع خطوط أصلية. (٢) أول خط رأسي (هـ و)، (ز) مركز، (ح) كيفية صنع الخط الشعاعي. (٣) (ز ب) خط شعاعي. (٤) (ز د) خط شعاعي آخر. (٥) خطوط شعاعية صنعت أولاً في جانب ثم صنعت بعد ذلك في جانب آخر، وليست هذه الخطوط كلها متساوية، فهاهنا أخذت العنكبوت تتم نسيجها بإتقان. (٦) الخط الأسود الحلزوني الأول الملتف بعضه فوق بعض ينتهي عند (حَ)، وأما الخط الحلزوني المنقط ـ أعني الخط الثانوي الحلزوني ـ فإنه ينتهي عند (ط).

هذه صورة شمسية لنسيج عنكبوت الحدائق، ترينا الخط الأعلى الأساسي للنسيج، وهو لزج، وهذا النساج جالس في الوسط، وربما غادرت العنكبوت ذلك المركز وحينئذ يحمل معه خيطاً بسيطاً به يقدر أن يميز أي ذبذبة تعرض في النسيج، فكأنها أشبه بآلة التلغراف البرق. انتهى الكلام على القسم الخامس.



(شكل ١٠ـ نسيج عنكبوت الحدائق)

الكلام على النحل

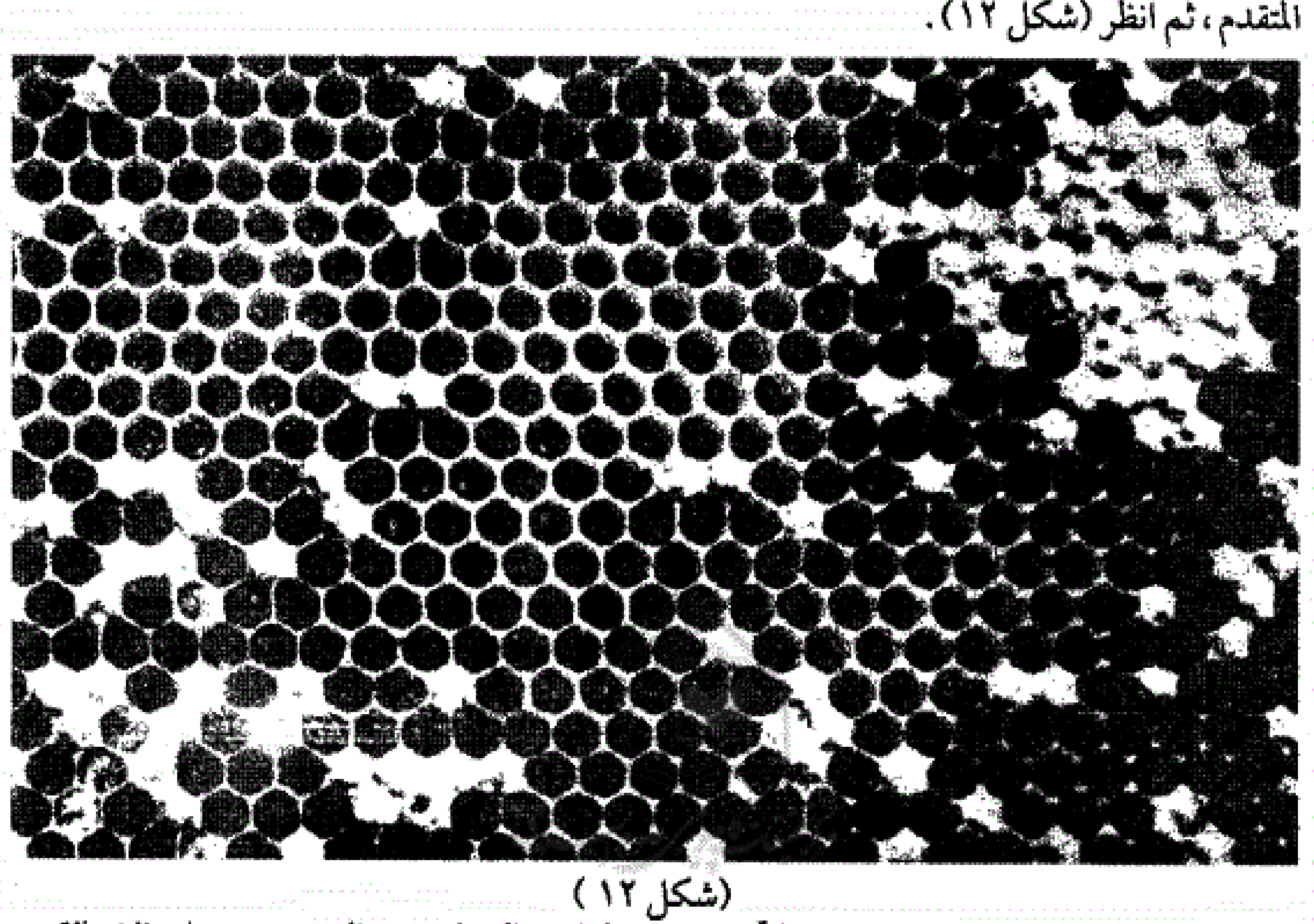
وهذا القسم ليس كافياً لمعرفة الميزان، فهاهنا نبدأ في الكلام على النحل فنقول: نبتدئ بذكر نبات يسمى سم النمر يشتار منه النحل العسل وهذه صورته. انظر (شكل ١١).



(شكل ١١) نحل العسل حاملاً كرات الطلع الصفراء من هذا النبات المسمى سم النمر

هاهو ذا نحل العسل حاملاً كرات الطلع الصفراء من هذا النبات المسمى سم النمر بالفرنجية ، وهو بالعربية عابد الشمس .

إن بعض الأزهار يجمع منها النحل ما يصير في باطنه عسلاً ، وبعضها يجمع منه ما يصير غذاء للذرية الصغيرة ، وهي الدود في الخلايا ، وهناك أزهار تصلح للحالين معاً ، ويوضح ذلك (شكل ١١) المتقدم ، ثم انظر (شكل ١٢) .



(شكل ١٢)

قرص عريض قرص النحل مع خلايا تحوي دود عاملات النحل وهي التي تسمى عادة الشغالة



(شكل ١٣ ـ قرص عسل النحل يشتمل على ذكور النحل وعاملاته والخلايا التي فيها العسل)

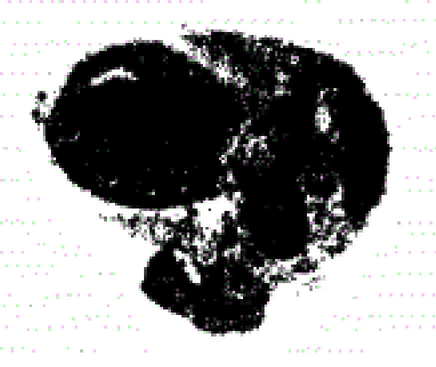
إن الخلايا التي تربى فيها العاملات من النحل هي الصغريات، أما التي ينمو فيها الذكور فإنها أوسع، وأما التي فيها الملكات فإنها أكثر اتساعاً، وليس في قفير النحل ما يزيد على ست ملكات. إن الخلايا الخازنات العسل تساوي في حجمها الخلايا التي تربى فيها ذكور النحل.



(شكل ١٤ ـ عش النحل الحجري)

في هذا العش قد نزع الغطاء الرقيق من فوقه ليظهر القرص وخلاياه، وقد كسرت خليتان من أعلاهما الدودات الصغيرات السمينة البيضاء وهي ذرية النحل، إن هذه النحل تعرف بنقطة حمراء في انتهاء ذيل جسمها الأسود، وهي لا تصنع عشها أبداً إلا تحت الحجر، ثم انظر (شكل ١٥) وهذه صورته :







(شكل ١٥ ـ هذا عش للنحلة المنفردة وحدها في هيكل قوقعة الحدائق)

ترى في الشكل المتقدم (شكل ١٥) نوع النحل الذي يعيش في عزلة منفرداً عن غيره، ولن يعيش إلا في مكان مجوف، والقوقعة الوسطى تريك نحلة حديثة الولادة قد خرجت حالاً من شرنقتها، والصورة اليمنى عبارة عن قوقعة قد كسرت فظهرت فيها الدودة الصغيرة التي تنقلب فيما بعد ذلك شرنقة، وفي كل قوقعة دودتان دائماً إحداهما ذكر والثانية أنثى.



العليا : النحل المستقل بنفسه قطاع الورق الذي حجمه بقدر حجم نحل القفير يقطع الورقة ليتخذ منها بهذا القطع خلية ، انظر النحلة تعمل ، وترى في الجزء الأعلى الأيمن من الورقة فجوتين مقوستين مرتبتين منظمتين وقد قطع منهما أجزاء من الورقة ، والنحلة نراها في إحدى الفجوتين وقد خفيت تحت جسمها .



الوسطى : هاهنا النحلة تحمل قطعة من ورقة الورد للخلية ، ثم الخلايا مركبات من قطع الورق مقوسة على بعضها والأغطية مصنوعة من القطع الصغيرة .



السفلى : الأعشــــاش مصنوعة من التجاويف والخلايا مرتبة منظمة . آخر كل خلية متصل بآخر الأخرى يظهر من الشكل . إنها لمغتبطة بما صنعت ، إن كل خلية مملوءة إلى نصفها باللقاح ، وتحتوي على بيضة مفردة .

(شكل ١٦) الخلايا تامة



ثم انظر (شكل ١٧).

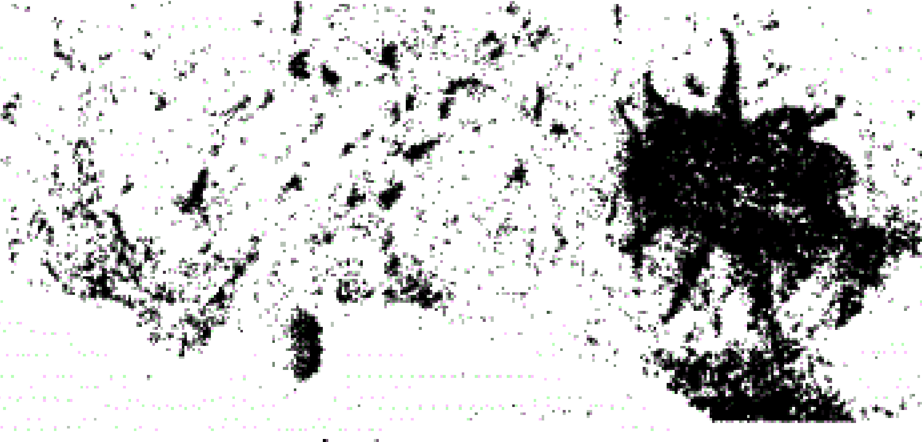
هذا النحل ثاقب الخشب أو النحل النجار، يمضي فصل الشتاء في حالة حياة موقوفة لا عمل له، اللهم إلا إنه عادة يبحث عن زاوية ليتخذها مأوى.

(شكل ١٧)
النحل الثاقب للخشب
متعلقاً بفكيه في حالة سكون



(شكل ١٨)
خلايا النحل ثاقب الخشب

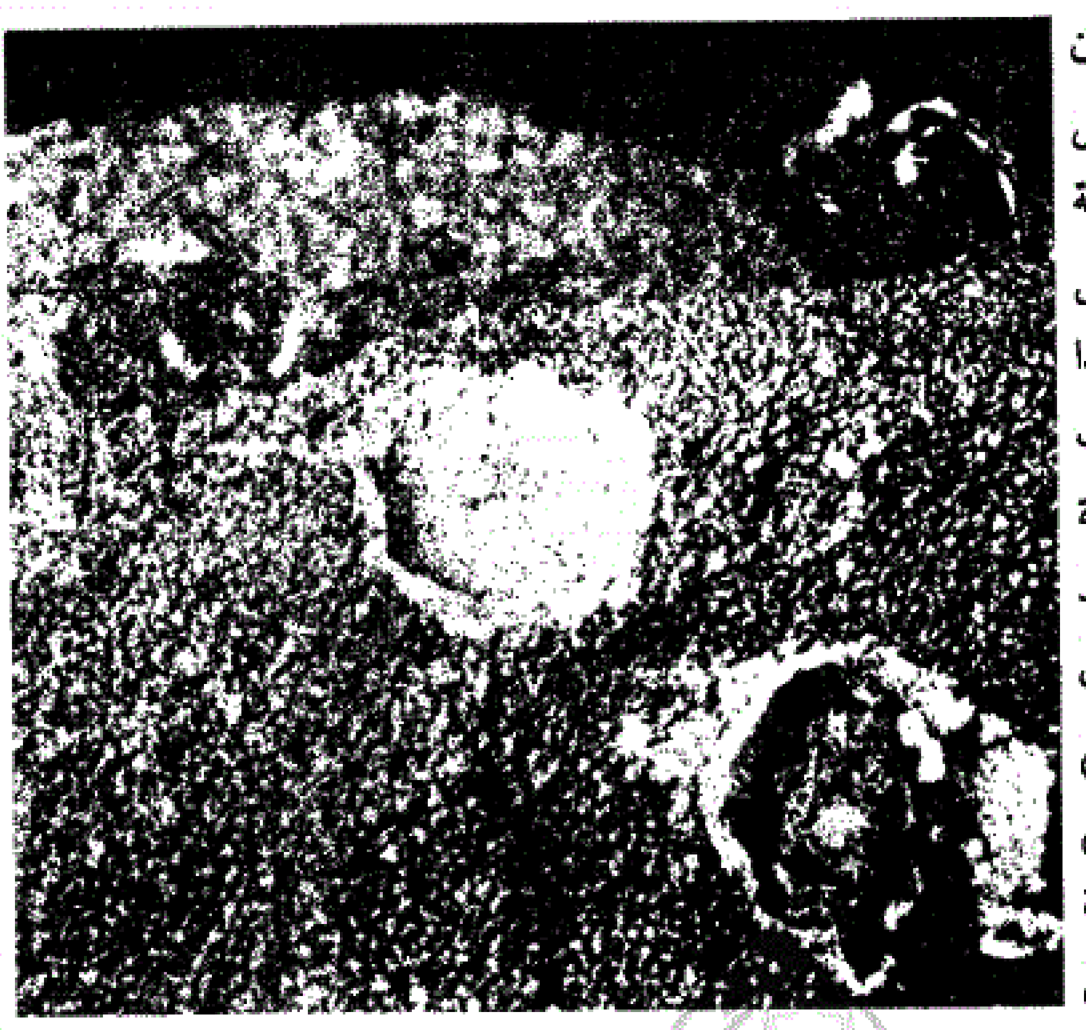
هذه الخلايا العريضة التي صنعتها النحلة القوية المتينة مصنوعة من قطع خشبية قد اتسقت وانتظمت بواسطة اللعاب الذي يفعل فعل الغراء. ثم انظر (شكل ١٩) الآتي.



(شكل ١٩ ـ النحل الثاقب للخشب وهو خارج من خليته)

هذه الخلايا التي ينمو فيها جنين النحلة تكون عادة في أروقة مستطيلة بعريش أساسي مثقوب في الخشب، وهذه التي ترى في أسفل الصورة مفصولة من مركزها الطبيعي، والنحل النجار ـ كما يسمى عادة ـ أدكن اللون ذو شعر، وهو معتزل مستقل له قوة عضلية، وهو بها قوي متين.

ثم انظر (شكل ٢٠) وهذه صورته .



هذا الشكل أبان خليتين ونحلتين ، النحل البناء المستقل المنفرد قد صنع عشاً في غاية المتانة والقوة من الأرض مخلوطاً بسائل من ريقه ، وهذا الريق يستعمل للصق الحصيات المصطفيات بحذق ومهارة تامتين ، إن الخلايا حينئذ مملوءات إلى أنصافهن بنوعين مما جنته النحلة وهما الطلع والعسل ، وبعد أن توضع البيضة تقفل الخلية بمادة الأسمنت . انتهى الكلام على النحل .

(شكل ٢٠ ـ النحل البناء)

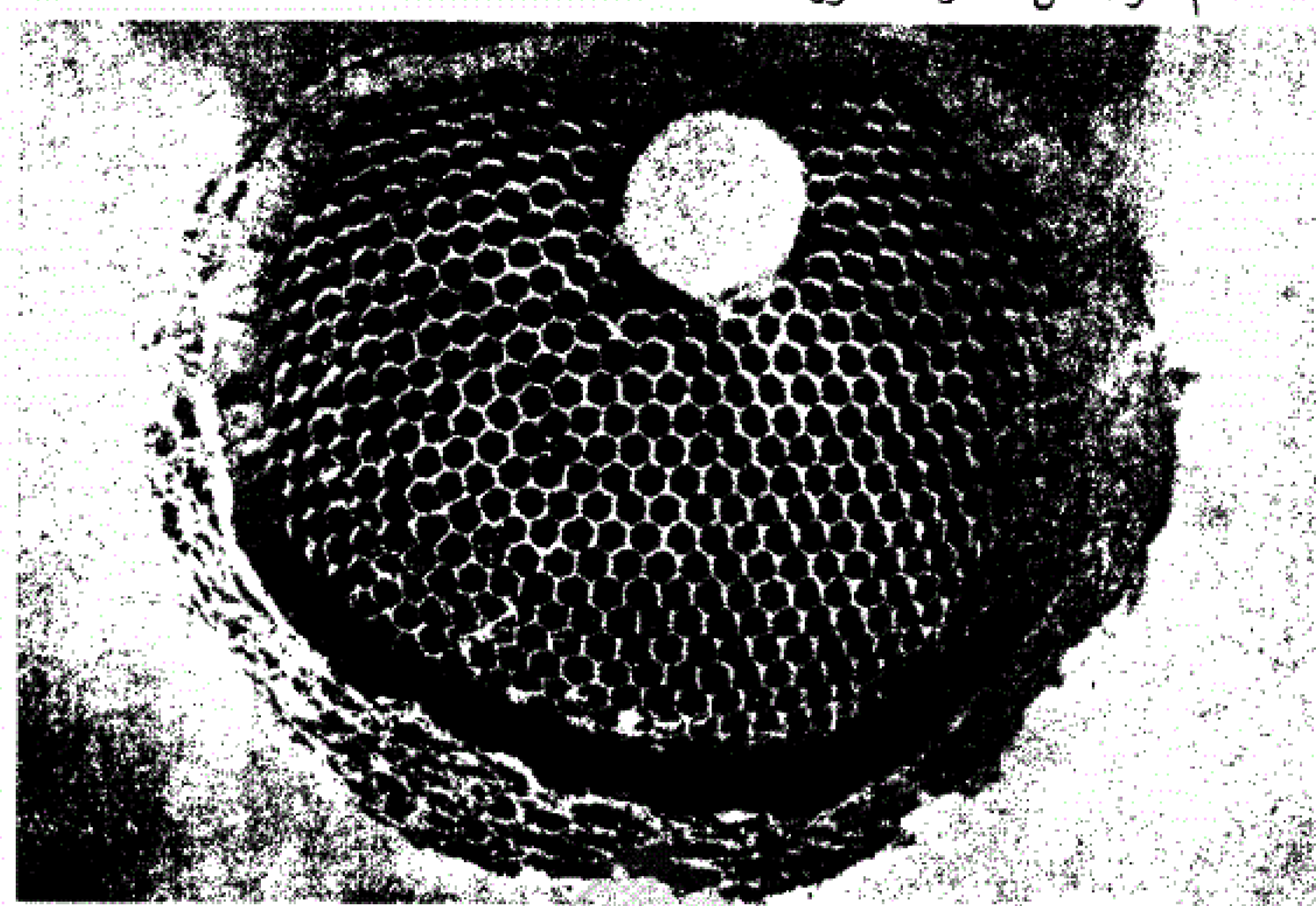
الكلام على الزنابير



إن عش هذا الزنبور المعتاد يبنى من أغصان الأشجار ، أو من الأخشاب وهذا قرص معلق على آخر بواسطة حامل عمودي ، والخلايا مغطاة بأغطية مصنوعة أشبه بورق الكتابة عند الإنسان وقد تقدم في سورة « طه » أن الزنبور صنع الورق قبل الإنسان ، وهذه الأغطية تمنع المطر أن يدخل الخلايا وتحفظ الحرارة في داخلها فتبقى دافئة ودرجة الحرارة في داخل الخلايا قد تكون أعلى منها في خارجها ٢٥ درجة بميزان فهرنهايت . الخلايا تكون مفتوحة لأجل إدخال الطعام للدود الصغير وهو ذرية الزنابير ، فإذا كبر الدود أخذ ينسج شرنقة ويقفل باب الخلية إقفالاً من أعلاها إلى أسفلها .

(شكل ٢١ ـ عش زنبار الخشب)

ثم انظر (شكل ٢٢) وهذه صورته :



(شكل ٢٢ ـ قطعة من العش، أو قرص الزنابير من بلاد البرازيل متصلة بغصن من الشجرة)

إن الصورة الشمسية « الفوتوغرافية » ترينا طبقات بالعش فتحفظه من الماء والهواء، وفي داخل خلاياه المسدسة الأشكال ينمو البيض فينقلب ما في داخله إلى دود، والدود ينقلب شرانق « فيالج »، والفيالج تصير زنابير كبيرة، والدائرة البيضاء التي تراها عند أسفل العش عبارة عن غصن مقطوع.

ثم انظر (شكل ٢٣) الآتي.

الزنبور البناء يصنع عشه من الطين في شقوق الحيطان، ويكون العش غالباً بهيئة طينية خشنة، بحيث ترى على وجهه لطخ من رشاش الطين غير منتظمة، وهذه تكون سبباً لنجاة الزنبور من أن يراه أعداؤه، ومع ذلك نرى العش مبنياً بمهارة فائقة، حافظاً لعناصر بنائه مثبتاً لها، وترى دود الفراش ـ الذي لسعه الزنبور فلقحه بسمه قد أصبح مشلولاً عديم الحركة ـ مخزوناً في الخلايا ليكون قوتاً للذرية فيها ومتى خزن ذلك الدود المشلول في الخلايا سدها الزنبور، وهذه الصورة تظهر اثنتين مقفلتين على الذرية وعلى قوتها، فأما غيرهما فلم يكمل. وإلى هنا تم الكلام على الزنابير، والحمد لله رب العالمين.



(شكل ٢٣ ـ عش الزنبور البناء)

الكلام على النمل

لقد تقدم الكلام على النحل والنمل والعنكبوت في سورهن، ولكن ما رسمناه هنا أو كتبناه لم يتقدم نظيره وهو هنا تفسيراً للميزان العام.



(شكل ٢٤ ـ عش نمل الخشب وهو ثلاثة أقدام ارتفاعا)

إن هذا العش النملي المعتاد المصنوع من الخشب مبني من إبر الصنوبر وقطع من العصي، وهو غالباً فوق القدمين ارتفاعاً، والمحيط الدائري أربعون قدماً، وترى حجر لا حصر لعددها وطرقاً شتى في القبة نفسها وفي الأرض من تحتها، وطبعاً هناك الآلاف من السكان والمداخل الكثيرة إلى القبة تقفل عند غروب الشمس، ولعل ذلك لتدفع الأعداء الصغيرة من الدخول فيها.



(شكل ٢٥ ـ نمل تسوم ماشيتها، وهي طائر صغير أخضر على غصن من عشب، وهناك أنواع من النمل تستعمل هذا الطائر الأخضر المسمى «افيد» كأنه قطعان ترعى تحت نظرها في هذا الشجر المسمى جوز بري).

النملة التي في جهة اليسار الواقفة في مدخل العش المتخذ في الخشب هاهي ذه تسلم قطعة من الخشب للعامل «العتال» جهة اليمين الذي شرع يحملها ليلقيها بعيداً.



(شكل ٢٦ ـ النمل النجار في عمله)

(شكل٢٧)

هذا البرج الموحش الغريب الخلقة قد شيده النمل الأبيض في شرق أفريقيا، إن النمل الأبيض ليس من أنواع النمل الحقيقي. كلا، ولكنه يشبهه في أطواره، فترى فيه أخلاق الملكة والذكور، والنمل القائم بالعمل والعسكر، إن البرج في هذه الصورة الشمسية صنعها النمل من مواد الأرض بعد أن مضغها بفكيه وعجنها بريقه. انتهى ما أردت ذكره في آية: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾[الرحمن: ٧]، والحمد لله رب العالمين.

هذه صفحة من مناظر هذا العالم الذي نعيش فيه، هذه صفحة جميلة بهجة. يا الله ما أجمل صنعك. وأبدع إتقانك، نظمت الأحجار الثمينة الجامدة فجعلتها أشبه بالبلور في تسديس أشكالها وإتقان نظامها وجمال هيئاتها. أريتنا في هذا الزمان بواطن السمك، فدرسنا أعضاءه الباطنة مفصلة عضواً عضوا بما أعطيتنا من نعمة التصوير الشمسي، وفاء بوعدك: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣]، وذلك لنعرف معنى الميزان.

ومن أعجب العجب وأبدع الخلق ما زادني حيرة، وأحدث في نفسي نار الشوق العلمي وهو أمر ذرية الضفادع التي تقدم صورها و الكلام عليها في الجزء الأول من الطبعة الثانية من هذا التفسير. ألا ترى رعاك الله النوع الأول الذي يتربى بيضه في كرات هلامية تلازمه في قاع البرك والمستنقعات، وهناك يكون الميزان، فكلما ازداد الماء ثقلاً ازدادت الكرات الهلامية انتفاخاً حتى تقاوم ذلك الثقل فترتفع، أليس من عجب أننا نرى رحماً موضوعة في الماء خارج الحيوان، وهذه الرحم فيها قوة تجعلها مناسبة لما يحيط بها فترفعه بقانون مسنون.

وأعجب من هذا أن نفس هذه الكرات الهلامية إن هي إلا سجن سجنت فيه تلك الذرية، فهي من جهة رحم لها وحفاظ، ومن جهة أخرى إذا طال عليها الأمد وفقس الحيوان كانت شراً ووبيلاً عليه وعذاباً أليماً وهلاكاً حاضراً. فماذا فعلت تلك الحكمة بموازينها؟ فعلت معها ما فعلته في دول أوروبا بالنسبة لبلاد الإسلام. ذلك أن أوروبا في هذه السنين أرادت أن تستحوذ على بلاد الشرق وخصوصاً بلاد الإسلام. وهل كان أعدى عدو لهذه الأمم إلا دولة الروس التي بمناوأتها لبلاد الصين من جهة وبلاد الترك العثمانيين من جهة أخرى؛ فتحت الباب لفرنسا وإنكلترا فأوغلتا في بلاد الإسلام إهلاكاً وتدميراً وإذلالاً، فماذا فعل الله بأوروبا؟ أخرج لها أناساً من بلادها، فأحدثوا الرأي الاشتراكي ثم البلشفي، وهذه البلشفية اليوم أخذت حقها في بلاد الروسيا، وهذه الدولة الآن هي التي منعت عن بلاد الشرق والإسلام شرها، وساعدت على استقلال بعض الأمم، فصارت أوروبا أشبه بجسد قوي أخذ الداء يفتك فيه من نفسه في داخله، وهذا هو نفس ما حصل في بيض الضفادع، ذلك الذي أحاطت به كرات هلامية فرقته بمقدار، ولما انتهى عملها مزقت كل ممزق كما تمزق المشيمة عند ولادة الطفل، وما الذي يمزقها؟ هي تلك الحشائش الدقيقة التي لا نراها، وما يلازمها من حيوانات ذرية، فهذه كلها تفتك بتلك الكرات فيخرج الجنين سليماً معافى من كل شيء يؤذيه.

الميزان واحد، فهو في سياسة الأمم نظيره في سياسة الأفراد، مزقت كرات أجنة الضفادع بمخلوقات نبتت في باطنها، هكذا الأمم الظالمة يكون هلاكها بتفريق كلمتها، ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[الأنفال: ٨].

مسامرة

هاهنا حضر صاحبي العلامة وقرأ هذا الموضوع فسر أيما سرور، وأعجب بالصور الشمسية والتعليق عليها وقال: هذه صفحة جميلة أبانت لنا الضار كالزنبور، والنافع كالنحل، والأحجار الثمينة والحيوانات الجميلة، وأدركنا كيف تنسج العنكبوت مسكنها وهو نفس شبكتها، وكيف تكون لزجة

جميلة، وهذه الصورة الشمسية الأولى من صوره ترينا أن عمله في بناء بيته يشبه أعمال النساجين، إذ يبتدئون بالسدى ويقفون باللحام، ثم كيف رأينا الزنابير يعوزها دود يكون بجانب ذريتها، على شريطة أن يكون في حال شلل، فأحضر له الأبوان دوداً على هذه الشريطة، ويبقى حتى فقس البيض وخرجت الذرية وعندها غذاؤها، ولا علم للأبوين بها، أليس هذا هو الميزان والعجب العجاب! وكيف كان من تلك الحشرات بناء ونساج وثاقب خشب، وقاطع ورق، ومتخذ من نحو الجبال بيوتاً، ومن القواقع، وكيف رأينا منه ما يعيش وحده كالعرب في البادية، ومنه ما يعيش جماعات، هذا عجب عجاب! فقلت: نعم لله درك، إن الميزان يجمعها، وبالميزان كان الضر في الزنبور، والنفع في النحل، واجتماعهما في الأرض عندنا واجتماع كل ضدين من خير وشر يكون استخراجاً لقوانا وملكاتنا، وتذكرة للعقلاء، وتبصرة للحكماء. إن غرائز الحيوان وعجائبه جعلت في الأرض تبصرة وتذكيراً، إن الجسم الإنساني يعوزه ملبس ومسكن وغذاء ودواء وهواء وماء، فهذه كلها قوام لجسمه هكذا قوام عقله يكون بدراسة هذه المخلوقات، فظواهرها لجثمانه وبواطنها لروحه، فإذا قصر في أحدهما فهو المسؤول.

تربية الأمم الإسلامية في مستقبل الزمان

ثم قلت: أيها الأخ الذكي، إن بناء جسم الإنسان تابع لما يتغذى به، فإذا أكل مآكل رديئة ضارة فالضرر لاحق بجسمه.

** وبضدها تتميز الأشياء **

هكذا غذاء العقل إن كان صالحاً صلح وإلا فلا، والغذاء الصالح لعقول أمم الإسلام في تربيتهم هو هذه العجائب، فإنهم إذا درسوها صارت تلك الدراسة مهيعاً لعقولهم، فبتكرار تلك المباحث وتواردها على العقل شيئاً فشيئاً يجمل العقل ويصلح، ويكون أشبه بتلميذ عاشر حكيماً فقلده، وأي حكيم في العالم يضارع صانعه، فمن راض عقله من الصغر على هذه المشاهدات أصبح عقله مرتاضاً على الحقائق، مفيداً لغيره، نافعاً لنوع الإنسان، إن كتاب الله المجسم دلّ عليه كتابه المنزل فقال: ﴿ وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٧].

درجات الحيوان في الإدراك ودرجات الإنسان

إن هذا الذي يشاهد هذه العجائب وقد مرن عليها؛ ينظر فيجد غرائز الحيوان ترتقي من أدناها إلى أعلاها، ثم يرى من الحيوان ما يقبل التعليم كالكلب وبعض الأنعام وبعض الطيور، ثم ينظر فيرى منها ما يقلد الإنسان بدون أن يعلمه، فهذا أرقى مما قبله وأعظم وهو القرد، ثم ينظر فيجد نوع الإنسان يرتقي من أدناه، وهم الذين يقربون من القردة، إلى أعلاه، وهم الذين يقلدون صانع هذا العالم في إتقانه البديع.

إن الإنسان اليوم بلغ في العلم حد المراهقين، لأنه أخذ يتلمس الحقائق، ويدرس الحيوان، ويقتفي أثر صانع العالم اقتفاء ما، فهاهو ذا أخذ يطير في الجو، ويقطع المسافات سريعاً، واخترع وأبدع أيما إبداع، ولكنه لا يزال في مبدأ الميدان، نظر هذا الإنسان فلم يكن نظره قاصراً على بناء بيته كالعنكبوت

ولا على ملء خزانته بالغذاء كالنحل والنمل ، بل فكر في هذا العالم كله ، لأن روحه من عالم فوق هذه المادة . فماذا فعل؟ فكر فرأى الصور حوله ثلاثة أقسام ، لأنها إما صور مركبة من مادة محسوسة تحيط به . وإما من صور حملها الضوء فوصلها إلى العيون ، وإما صور في الهواء بهيئة حروف شكلتها الأصوات فوصلت إلى الآذان . هذه صور العالم كله الذي نعيش فيه ، نظر الإنسان فرآه محوطاً بهذه الصور . فألطفها الصور الضوئية وأغلظها الصور المادية ، وأوسطها الحروف والكلمات في الهواء . درس الإنسان الجماد والحيوان والنبات والسماء والأرض فكانت علوم وعلوم تقدمت في هذا التفسير كالتي في سورة « الروم » عند آية : ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[الآية : ٣٠] ، وكالتي في سورة « ألم السجدة » وكالتي في سورة « لقمان » عند آية : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾[الآية : ١٢] .

أوَليس من العجب أن الحروف والكلمات التي يحملها الهواء صور تعبر عما فوقها من الصور النورية الواصلة إلى العيون ، وعما تحتها من صور النبات والحيوان . درس الإنسان علوم التاريخ الطبيعي وعلم طبقات الأرض ونحوها ، وهذه هي الصور الغليظة ، واستخرج لها موازين من الميزان الذي وضعه الله العالم ، ودرس الصور في الهواء وهي جميع اللغات ، واستخرج لها موازين ، كما رفع الفاعل ونصب المفعول في النحو في اللغة العربية ، وكالأبواب الستة في الفعل الثلاثي ، وهي : باب نصر وضرب وفتح وعلم وشرف وحسب ، وكموازين اسم الفاعل واسم المفعول ، وهكذا في الصرف ، وكالمسند والمسند إليه ، والتقديم والتأخير ، وأحوال متعلقات الفعل ، والذكر والحذف والحصر ، والفصل والوصل ، والإيجاز والإطناب والمساواة في علم المعاني ، وكالتشبيه وأقسامه ، والمجاز وأنواعه ، والكناية وفروعها في علم البيان ، وكالجناس والطباق في علم البديع ، وكما وضع موازين للصور الحرفية الهوائية أخذ يضع موازين للصور العقلية ، وابتدأ بالمنطق كما تراه موضحاً في سورة « الروم » بهيئة عامة تسر الناظرين ، ولعلم النفس كما في كتابنا « نظام العالم والأمم » ، ولعلم السياسة العامة ، ولكل شأن من شؤون الحياة جلّ أو دقّ ، ومن ذلك أنه حسب الأجرام الفلكية بما انبعث منها من صور ضوئية ، فوصلت إلى شبكية العين ، فأدركها العقل ، فكان علم التقويم ، وعلم النجوم والمجرات والسدم العظيمات ، كل ذلك تعبر عنه الحروف .

الله أكبر ، إن للإنسان سبع قوى مدركات : ثلاث عليا ، وثلاث سفلى ، وواحدة هي واسطة العقد النظيم .

أما الثلاثة العليا فهي : البصر والعقل والقوة القدسية التي اختص بها الأنبياء والملهمون ، وأما الثلاثة السفلى فهي : اللمس والذوق والشم ، وأما الوسطى فهي حاسة السمع ، وهي التي اختصت بإدراك صور الحروف المعبرات عن الأقسام الست أعلاها وأدناها .

هذا ملخص نظام هذا الإنسان ، وهو الذي أدرك أدق الأشياء من الكهرباء والمغناطيس والراديو وخواص أخرى لا يزال يترقى فيها ، وهو الآن في مبدأ الرقي ، وهناك هناك معال ومدارج هو فيها سائر إلى الأمام ، فيا ليت شعري أي مناسبة بين ما رأيناه في صناعة العنكبوت والنحل والنمل وبين ما عرفناه من صناعة الإنسان؟ .

الله أكبر، إن الإنسان لم ينل هذه النعم العظمى إلا بدراسته غرائز أصغر الحيوان، لأن من لم يفهم الأدنى لا سبيل له أن يدرك الأعلى، ومن جهل المقدمات حرم النتائج، فهذه الأمم التي ارتقت في مدارج الحياة العلمية هم هم الذين درسوا أصغر المخلوقات الذرية التي هي بعض قوله تعالى: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾[الرحمن: ٧-٨].

فانظر إلى أي حد بلغ الإنسان في أمانيه وهو مسرع إلى الأمام، طار في الجو وفاق الطيور، وهاهو ذا يسارع إلى المعالي، يقول في نفسه: لماذا لا أصل إلى القمر؟ لماذا لا أصل للمريخ؟ فهل هناك ما يمنعني؟ وأي عائق يقف في طريقي ذلك إلى المصاعب؟ وفتحت لي المعاقل، فغصت في قاع البحر وطرت في الجو. كل ذلك بمعرفة الميزان، إن الطيارات التي أطير بها لم تكن في أول الأمر إلا لعبات للصبيان، إن غريزتي التي غرست فِيّ قد كمن فيها كل شيء، أنا من عالم أعلى، أوحى الله إليّ غريزتي وأنا طفل أن أطيّر في الجو طيارات لعباً ولهواً، لأن نفسي من عالم أعلى، فلعبها يشير إلى ما كمن فيها، فأخذت أدرس الطيور، فاستنتجت منها علم الطيارات، ثم أرى الناس يطلقون السهام النارية للهو واللعب، فلماذا أقف في الارتقاء على الطيارات؟ ولماذا لا أرتقي أعلى وأعلى؟ ولماذا لا أجعل هذه الصواريخ حاملة لجسمي ولأمتعتي، ألست أنا الذي كنت أسير في الأرض على قدمي فرأيت الخيل والبغال والحمير فخطر لي أنها تحملني فحملتني، ثم رأيت الورق وخفيف الخشب يعوم في البحر فصنعت المراكب وسافرت عليها، ثم رأيت القدر على النار يرتفع فيها البخار فإذا كانت القدر مغطاة رأيتها تضطرب وترتفع، فاستنتجت من ذلك أنها تساعد على الانتقال في البر، ثم كانت الطيارات كما تقدم، فلماذا لا أجعل الصاروخ مركبي وحامل أمتعتي أنا فوق الجميع.

الموازين أمامي فلأدرسها، أنا هنا في الأرض خليفة الله استخلفني، وركب فِيّ العقل وقال لي: فكر واعمل، وهذا هو الذي يجد فيه العلماء اليوم، فانظر ما جاء في جريدة الأهرام يوم ١١ أكتوبر سنة ١٩٣١م، وأعجب كيف يكون هذا في وقت كتابة هذا المقال، لأجعله بهجة لجماله، وحلية بهية في نظامه، وهذا نصه:

عصر الاختراع والاكتشاف

السهم أو الصاروخ. معجزة هذا القرآن

الصاروخ أحدث استنباط لا يزال رهن التجربة، قد يزيل الوقت ويلاشي الأبعاد وينقل البريد بسرعة عشرة أميال في الثانية، وقد يوصل الناس إلى المريخ، ويستأصل الحروب أو يزيدها هولاً وويلاً، فيدك معالم الحضارة دكاً، فمتى بلغ حد الكمال يعدل الناس عن التراسل بالبريد أو البرق، وعن التخاطب بالتلفون، ويعتمدون على الصاروخ فينقل رسائلهم من أمريكا إلى أوروبا في نحو خمس دقائق.

فلا تتعجب أيها القارئ الكريم، ولا تقل إن زمان العجائب قد مضى، فإن عصر عجائب العلم لا يزال في أول عهده، وقد أرانا في الأعوام القليلة الماضية العجب العجاب، ولكن الصاروخ هذا سيكون أعجوبة القرن العشرين بدليل التجارب السرية التي أجريت في ألمانيا وروسيا وأمريكا.

إن هذا الصاروخ الذي كان فيما مضى من السهام النارية التي يطلقها الناس في الفضاء احتفالاً بعيد، أو تكريماً لبطل فاتح؛ قد أصبح بعد أن تناولته يد العلم، وأتقنته الهندسة، وأحكم تركيبه الدماغ المبتدع من أعجب ما استنبطه العقل الإنساني، فالراديو والطيارة، ونقل الصور بالراديو، والمدهشات الأخرى التي أتحفنا بها هذا الجيل سوف تصبح من التوافه بالنسبة إلى الصاروخ، فهو سيحدث انقلاباً هائلاً في وسائل النقل والطيران والحرب، وما بدا منه حتى الآن يرسم لنا صوراً للمستقبل كالسفر إلى القمر والمريخ، والدوران حول الكرة الأرضية في أقل من ساعة، فإذا خامر القارئ الشك فيما تقدم بيانه ـ وهو سيشك في إنكاره دون ريب ـ فإني أنقل له ما قرأته عن ذلك ليزول ما به من الارتياب، فإن أعظم الأدمغة في العالم قد برهنت مؤخراً بما لا يقبل الريب على أن تحقيق ما ذكرته ليس بالحادث البعيد، فإن مشاكل هذا الاختراع الأساسية قد انحلت، وأهمها مشكل الجاذبية لاختراق الفسحة الكائنة بين عالمنا والعوالم الأخرى.

فمن مضي أشهر معدودة أطلق سهم هائل في الجو على مقربة من برلين فبلغ الطبقات العليا وعاد بعدئذ إلى الأرض. وكان ارتفاعه عظيماً جداً، مع أنه لم يكن فيه من الوقود سوى جزء من أربعين جزءاً مما يسعه، وقد وافقت الحكومة الألمانية مبتدع هذا السهم على القول إنه لو جهز بكمية وافية من الوقود لاجتاز مسافة ألف ميل في أعماق الجو، وقد قال الأستاذ «هرمان أوبرت» الألماني أنه أطلق واحداً منها مؤخراً وركب فيه آلة تدفعه من ذاتها، فبقي محلقاً في الفضاء أكثر من ساعة، ولصاروخ الأستاذ أوبرت قوة دافعة تضاهي قوة دفع القطار الحديدي الكبير تولدها فيه آلة تماثل زجاجة اللبن الصغيرة، وهذا يدلنا على القوة الهائلة الممكن توليدها في الصاروخ متى تم للقائمين بإتقانه أمر وضع مولد كبير للقوة فيه.

ومن التجاريب التي أجريت في أمريكا التجربة التي قام بها المستر «روبرت جودارد»، فقد أطلق واحداً من هذه السهام التي تحاكي الأنابيب فعلت على الأرض ستين ميلاً، وقال بعد ذلك إنه قد اكتشف السر العظيم الذي يمكنه من إرسال صاروخ إلى القمر، وجرت مثل هذه التجاريب قبل ذلك في روسيا ومبتدعها الأستاذ «فيودورف»، وهو الآن يعمل لإتقانها تحت رعاية حكومة السوفيات في إدارتها الخاصة بالمواصلات الجوية، ومثله فعل الأستاذ الروسي «زيولوسكي»، وهو الآن يجهد الفكر في تحسين الصاروخ التوربيدي على حساب الحكومة الروسية، وكان الغرض الأول من ابتداع هذه الصواريخ أن تحشى بالبريد وتنقله بسرعة بين أوروبا وأمريكا، فيكون تحليقها فوق الأوقيانوس أعلى كثيراً من سكان الأرض حيث لا تلاقي أقل مقاومة من الهواء، فتسير عندئذ بسرعة تتراوح بين الخمسة والعشرة أميال في الثانية.

والصواريخ تدار بالراديو بحيث إنه إذا حدث خطأ يمكن إصلاحه والصاروخ طائرة، ويدير الصاروخ بواسطة الأجهزة اللاسلكية رجل يبقى على الأرض محدقاً على الدوام في لوح أمامه يريه طريق الصاروخ والمكان الذي وصل إليه من حيث المسافة والعلو، فإذا أراد المدير تخفيض سرعة الصاروخ أو مضاعفتها وضع يده على مفتاح معلوم، فتنطبع بذلك على مولد القوة في الصاروخ

إرشادات المدير الذي على الأرض وتنجم عن ضغطها عليه ما يراد من سرعة أو بطء، أو تحول عن خطة السير، وهذا من الأمور التي يصعب تصديقها، إلا أن مبتدعي الصواريخ يقولون إنها في منتهى السهولة، وقد جربوها مراراً في ألمانيا من بضعة أشهر، فعندما يتدانى الصاروخ من المكان الذي يقصده، فإذا كان ذلك المكان « نيويورك » مثلاً فإن مديره في لندن يضغط زراً فيؤثر بالراديو على لوحة الصاروخ فيفلت كيساً من البريد يهبط إلى الأرض في شبه مظلة، ومثل ذلك يفعل إذا أراد إنزال الصاروخ، فلا تمر أعوام معدودة حتى تضع على الكتاب الذي ترسله عبر الأوقيانوس طابعاً خاصاً ببريد الصاروخ، فيصل بعد ساعة إلى صديقك في أوروبا.

ولا يبعد أن تبلغ هذه الصواريخ حداً من الإتقان تصير معه صالحة لشحن البضائع، وتكون نفقات إرسالها تافهة للغاية، ذلك لأن نفقة تسييرها معدومة تقريباً، غير أن التجاريب المحفوفة بالغموض التي تجري اليوم في روسيا وغيرها من البلدان تشير إلى وجه آخر يبعث على القلق ألا وهو استخدامها في الحروب، فلا ريب في أن صاروخ « التوربيد » سيكون من أعظم مدمرات العمران هولاً، فإذا عول البشر على استخدام هذه الآلة الجهنمية في الحرب فلا يبقى لإنسان مهرب ولا ملجأ، بل يهلك الناس بالألوف، فهو يضرب بلا إنذار، ويحول أعظم العواصم إلى آكام من رماد في بضع دقائق.

وفي أوروبا اليوم أناس يستطيعون إذا شاؤوا توجيه واحد من هذه الصواريخ التوربيدية عبر الأوقيانوس إلى الولايات المتحدة، فيحدث فيها من التدمير وإهلاك النفوس ما لا تحدثه الحرب الطاحنة في خلال أشهر كاملة، ومن المعلوم أن الطيارات الحربية مهما كثر عديدها لا تقوى على صد الصواريخ، فهو يخترقها بسهولة وبدون أن يصاب بأذى، وإذا وجه إلى الأساطيل الحربية فإنه يفنيها قبل أن يتيسر لها الوقت للفرار، ولكن الوجه الآخر لهذا الابتداع الجهنمي هو أنه قد يعمل على إبطال الحروب، لأنه عندما تبلغ حد الكمال تقتني كل دولة منه غداً، فإذا أرادت دولة بدولة أخرى شراً يكون إقدامها على ذلك من قبيل الانتحار، وأين هي الدولة التي تسول لها النفس خوض غمرات عراك تكون نهايته خرابها المحتم؟ ومن أجل هذا نقول: إن المساعي الكثيرة التي يبذلها دعاة السلام اليوم لإنهاء الحروب سوف يكللها الصاروخ بالنجاح، ولكن استخدام الصاروخ في الحروب وفي نقل البريد ليس بالشيء الذي يذكر في جنب ما يتوقعه منه مبتدعوه وهو القيام باكتشافات مهمة في القبة السماوية كالذهاب إلى المريخ، وهذا كان يعد حديث خرافة.

إلا أن ما أتمه العلم للآن وما قام به رجاله من التجارب بالصاروخ قد أدناه من الحقائق، فالصاروخ الذي يوجه إلى المريخ يكون بشكل قنبلة كبيرة الحجم، ويكون فيها من الخمسين إلى الستين مولداً للقوة يذهب فيها جماعة صغيرة من الرجال الشجعان محصورين في مكان لا يدخله الهواء، ومعهم من ضروريات الحياة ما يستطيعون معه اصطناعياً مدة ١٥٠ يوماً وهي المدة اللازمة للوصول إلى المريخ والرجوع منه حسب تعديل الفلكيين، ومن الطبيعي أن يزور الإنسان المريخ قبل غيره من السيارات، وذلك لوجود دلائل عديدة على أنه مأهول بجنس من المخلوقات التي تحاكي

سكان الأرض، ويعتقد العلماء أن ألمانيا ستكون السابقة إلى إتقان هذا السهم العجيب كما أنها ستكون السابقة في كثير غيره، فقد قرأت لمراسل جريدة أميركان في برلين أن كبار علمائها منهمكون في درس القوى الكامنة في الجواهر الفردة للاستفادة منها، وهزني الطرب عندما قرأت أن عالماً مصرياً اسمه الدكتور عدنان يساعدهم في ذلك. اهـ.

مكاتب الأهرام بنيويورك

وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى في قوله تعالى: ﴿ وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾[الرحمن: ٧] مع قوله: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾[الرحمن: ١٩] الخ، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثانية: عجائب الحسبان في سورة الرحمن

ابتدأ الله بذكر أنه رحمن، وأخذ بعد الرحمة مبتدئاً بما هو أشرف وهو العلم، وأتبعها بخلق من يحمله وهو الإنسان، ثم أعقبهما بما يجمعهما معاً وهو التعليم، لأنه لا تعليم إلا حيث يكون متعلم وعلم، وهاهنا قص علينا مبدأ العلوم في سياق حديث الشمس والقمر وأنهما بحساب، وبنى على ذلك بناء شامخاً ومجداً رفيعاً من حيث انتظام أنواع النبات والشجر، فلولا الحساب في العلويات لم تنتظم السفليات، وهنا أتى بما يجمع النظم في السماوات والأرض وهو الميزان السائد في كل دقيق وجليل وعظيم وحقير، ولكن مبدأ ذلك كله الحساب، فلنبين في هذه العجالة ما فتح الله به في ليالي الأحد والاثنين والثلاثاء في أواخر شهر مارس سنة ١٩٣١م.

ذلك أن هذا الموضوع أخذ يهتاج قلبي، ويثير شعوري، ويحرك وجداني، اللهم إن أمر الحساب لعجب: فمنه: الشفع والوتر، وبهما أقسم الله فقال: ﴿ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴾[الفجر: ٣].

أفليس من الغريب أن يقسم الله بأمور مكشوفة للعام والخاص والناس لا يهتمون بها، ولا يولون وجوههم شطرها، الشفع والوتر عند الجهلاء كأجسامهم، وكالهواء والماء، فهم غالباً لا يذكرون نعمة الله فيهن، الأعداد حاضرة عند نفوسنا تشاهدها عقولنا كما تشاهد عيوننا الضوء، ولكن غلب على عقول بني آدم أن الأعداد معدومة لا وجود لها، فأما الضوء والشمس والقمر، والجبل والجمل، والبحر والبر، فهن موجودات، ذلك لما وقر في نفوسنا أن ما تشاهده الحواس موجود، وما لا تشاهده الحواس وجوده عدم.

لما وصلت إلى هذا المقام حضر صاحبي الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير، فقال: الشفع والوتر والوجود والعدم مادة الفلسفة، القرآن واضح والتفسير قد طال، فماذا تريد بهذه الكلمات؟ فقلت له: التفسير لم يطل، ولقد استبان لك الآن أن القرآن إلى الآن لم يفسر حق تفسيره، فأين تفسيره أيها الصديق؟ فقال: الحمد لله قد فسره المفسرون رحمهم الله وفسرته أنت. فقلت: أما من جهتي أنا فإني أقول لك: إن ما خطر لي بحق وصدق في تفسير هذه الخمسة الحروف حسبان يعوزه مجلد أو مجلدان، فقال: تريد بذلك علم الحساب؟ قلت: كلا. فعلم الحساب شيء والحكمة المستنتجة منه شيء آخر، وتلك الحكمة هي التي بها يعرف بعض سر القرآن، فحياك الله يا أخي، قل لي: أيبتدئ الله بالحساب في أول النعم في السورة التي وسمها بسورة الرحمة مصادفة، أفلا تتذكر ما

جاء في خطبة الصديق رضي الله عنه، إذ استدل بتقديم المهاجرين على الأنصار في القرآن على أن يكون الأمراء من المهاجرين والوزراء من الأنصار، قال: بلى. قلت: أفلم تقم بذلك دولة بني أمية ودولة بني العباس اللتان لم تكونا إلا من المهاجرين. قال: بلى. قلت: فإذا كان عشرات الملوك والممالك قامت على مجرد أمر اعتباري وهو التقديم والتأخير في كلمتين اثنتين، فما الذي تفهمه الآن من تقديم الحساب على جمل كثيرة في سور هي عنوان الرحمة، ولقد أعظم الله أمر الحساب فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[آل عمران: ١٩٩]، وقال: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾[الجن: ٢٨] الخ. فقال: حقاً إن الأمر لعظيم، ولكن أمر الحساب دقيق، فأرجو أن تلخص حكماً منه لتكون نبراساً ونوراً بين قراء التفسير. فقلت:

(١) إن الواحد ليس قبله عدد.

(٢) وهو يعد جميع الأعداد بخلاف الاثنين فإنه يعد نصفها وهكذا.

(٣) إذا زال الواحد زالت جميع الأعداد، ولقد تزول الأعداد ولا يزول الواحد فهكذا.

(١) الله ليس قبله شيء.

(٢) وهو متصرف في كل موجود.

(٣) ولولا الله لم تكن هذه الموجودات، وإذا زالت الموجودات لم يزل الله.

فلما سمع ذلك صاحبي قال: هذا حسن ولكنه من باب التشبيه، أي: إنك الآن ضربت لنا مثلاً من العوالم المعقولة في نفوسنا، وهذه المعقولات نظمها الله فصارت ضرب مثل لنا.

ثم ماذا؟ قلت: إن هذه الأعداد وحضورها في أذهاننا أمر عجيب. فقال: حضورها في أذهاننا عجيب وأي عجب في ذلك الحضور؟ فقلت: إن وجودها حقيقي وثابت بخلاف ما نراه من الشمس والقمر والأرض والإنسان. فقال: إذن أنت تعتبر العدد في نفوسنا الذي وجوده ذهني ثابت وحق، فأما المحسوسات التي عشنا بها وملأ الله بها القرآن والحكمة ليست ثابتة. فقلت: نعم. فقال: إن عقلي لا يحتمل فهم هذا. فقلت له: بم ثبتت عندك الأرض والسماء وما بينهما؟ قال: بالحواس فنحن نراها ونلمسها الخ. وهي باقية. فالشمس والأرض والجبال بقيت ألوف السنين، أو ألوف الألوف، والآباء والأجداد يرون ذلك، فأما الأعداد فإنّما هي أمر ذهني لا غير فوجودها عدم. فقلت: أفلا تعتبر العقل له إدراك كالحواس؟ فقال: له إدراك أقوى من الحواس. فقلت: العقل هو الذي يحفظ الأعداد ويتصورها كما ترى العين الضوء، وتلمس اليد الحجر. فقال: ولكن الحجر ثابت. فقلت: العدد أثبت من ثلاثة وجوه. ألم تر أن حاسة البصر قد تخطئ فترى الصغير كبيراً كالنار من بعد ليلاً، وبالعكس كالشمس لبعدها، قال: بلى. قلت: حاسة الذوق في المرضى تحس بالحلو مراً، قال: بلى. قلت: والناس يختلفون في الجمال، فكل له فيه ذوق خاص. قال: حقاً. قلت: ونفس الجبال والبحار تتبدل بعد مئات الألوف من السنين، لأن الماء يفتت الصخور، ويحمل الرمال ويقذفها في البحر، والجبال تتربى هناك في عصور وعصور، ثم تأتي زلزلة فتظهر تلك الجبال التي كانت أجنة في أرحام البحار. فقال: حقاً والله. فقلت: إذن المحسوسات يعتريها التغير من طريق نقص في الحاسة، أو من طريق اختلاف الأشخاص، أو

من طريق تغير المحسوس، إذن هذه السماوات وهذه الأرضون تختلف مناظرها من ثلاثة وجوه، فهي إذن ليست ثابتة فوجودها أشبه بالعدم.

ثم قلت: ونضيف إلى ذلك أمراً رابعاً، وهو أن هذه العوالم المشاهدة ليست شيئاً سوى نتائج حركات ظهرت لحواسنا فأدركتها بحسب ما ظهر لها من عدد الحركات في الثانية الواحدة، فإن كانت الحركات في الأثير في الثانية الواحدة نحو ٦ آلاف مليون مليون مرة فذلك هو أمثال الحديد والنحاس، وإن كان عدد الحركات أقل من ذلك بحيث يكون في الثانية الواحدة ٤٠٠ مليون مليون مرة إلى ٧٠٠ مليون مليون مرة في الثانية الواحدة، فذلك هو النور بألوانه السبعة، فالأحمر أدناه والبنفسجي أعلاه، ولا جرم أن هذا الأمر الرابع يفيدنا أن هذه المحسوسات في نفسها غير موجودة، وإنّما هي تظهر لحواسنا بحسب عدد حركاتها في الثانية، منوعة المظاهر بتنوع حركاتها لا غير، فأين الوجود الحقيقي إذن لهذه الظواهر؟ اقرأ هذا المقال واضحاً في سورة «النور» عند آية: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الآية: ٣٥] إذن ما يظنه الناس والحيوان موجوداً وهو المشاهد ليس له حقيقة، وما جهلته الحواس وأدركه العقل أحق باسم الوجود، كالأعداد وجميع الحقائق الثابتة.

فالأعداد لا تتغير في العقول والشمس ستزول، ولكن العدد هو هو، فكل عقل وجد تبدو له الأعداد كما بدت لنا، وإذا اعترض على ذلك بأنه لم يوجد إلا في ذهننا، قلت: وهل المحسوسات ظهرت إلا لحواسنا؟ وهل هي شيء غير حركات خفية ظهرت لحواسنا على هذه الأنماط، فالاعتراض واحد على المحسوس والمعقول، ولكن يمتاز المعقول بأنه لا يعتريه تغير في نفسه، ولا تغير باختلاف الأشخاص، ولا باختلاف الأزمان، إذن الحساب من الحقائق الثابتة، فهو موجود ثابت دائم علمه الله في الأزل، وجعل العالم على منواله، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥]، فهذا من الحق الذي بنيت عليه السماوات والأرض، الأعداد عوالم لا تحتاج إلى مادة في وجودها، هكذا الأرواح عوالم مجردة مثلها، فكلاهما كالأثير أصل لغيره، وهو مخلوق ابتداء بلا مادة اشتق منها، وهذا من بعض أسرار القرآن، لأن الرحمة بـ«الألف» و«اللام»، أي: كمالها، لا تتحقق إلا بالدوام، والدوام للحقائق الثابتة ومنها الحساب، ولذلك قال: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥] وقال في آية أخرى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[الدخان: ٣٨-٣٩] وهل الحق إلا ما كان ثابتاً؟ والحساب ثابت، فبنى الله العالم عليه وعلى غيره من الحقائق الثابتة في علمه القديم. فقال: إن هذا القول إجمالي فأريد تفصيله، فقلت: لأفصله في أربعة فصول:

(١) أولاً: إن العدد منه ما يقبل القسمة مثل ٤ و٦، ومنه ما لا يقبلهما مثل ٥ و ٧، فإن ٤ مضاريبها ٢ و٢ و١، و٦ مضاريبها ٢ و٣ و١، وأما ٥ و٧ فلا مضاريب لهما، وإنّما يقسمان على نفسيهما وعلى الواحد لا غير، فهذا عدد أولي أصم.

(٢) ثانياً: إن العدد فيه الكامل والناقص والزائد، وفيه الأعداد المتحابة وغيرها من عجائب الحساب.

(٣) ثالثاً: العدد فيه المتوالية العددية مثل ٢ ـ ٤ ـ ٦ وهكذا، والمتوالية الهندسية مثل ٢ ـ ٤ ـ ٨ ـ ١٦ ـ ٣٢ وهكذا، ومثل ٣ ـ ٦ ـ ١٢ ـ ١٤ وهكذا.

(٤) رابعاً: العدد فيه الكسر الدائر البسيط مثل $\frac{1}{3}$ فإنه يساوي ٠,٣٣٣٣ فهذا كسر لا ينتهي. والكسر الدائر المركب مثل $\frac{1}{7}$ فإنه يساوي ٠,١٤٢٨٥٩ ١٤٢٨٥٩ ١٤٢٨٥٩ فهذا الكسر لا ينتهي وهو مركب من ٦ أرقام، وكسر $\frac{1}{3}$ بسيط لأنه عدد واحد مكرر.

الفصل الأول: الأعداد الصماء وغير الصماء

وهذه الصفات الأربع نراها جلية في المعدودات المشاهدات. أولاً: العدد الأصم وغير الأصم لهما نظير في العوالم المشاهدة، فإنك ترى الماء والهواء كالعدد القابل للقسمة الصحيحة، أما الحجر والحديد فهو كالعدد الذي لا يقبل القسمة الصحيحة، فقسمة ٤ على ٢ ليست كقسمة ١١ على أي عدد ما عدا نفسها والواحد. فقال صاحبي: أريد أن أعرف الأعداد الأولية معرفة إجمالية لأبني عليها ذلك. فقلت: إنها في الآحاد ٢ ـ ٣ ـ ٥ ـ ٧، وفي العشرات ١١ ـ ١٣ ـ ١٧ ـ ١٩ ـ ٢٣ ـ ٢٩ ـ ٣١ ـ ٣٧ ـ ٤١ ـ ٤٣ ـ ٤٧ ـ ٥٣ ـ ٥٩ ـ ٦١ ـ ٦٧ ـ ٧١ ـ ٧٣ ـ ٧٩ ـ ٨٣ ـ ٨٩ ـ ٩٧، فهي في المائة الأولى (٢٥) عدداً، وفي المائة الثانية ٢١ أولها ١٠١ وآخرها ١٩٩.

	الأعداد الصماء فيها	أولها	آخرها
المائة الثالثة	١٦	٢١١	٢٩٣
المائة الرابعة	١٦	٣٠٧	٣٩٧
المائة الخامسة	١٧	٤٠١	٤٩٩
المائة السادسة	١٤	٥٠٣	٥٩٩
المائة السابعة	١٦	٦٠١	٦٩١
المائة الثامنة	١٤	٧٠١	٧٩٧
المائة التاسعة	١٤	٨١١	٨٨٧
المائة العاشرة	١٤	٩٠٧	٩٩٧

وهكذا إلى ٩٩٠١ الذي ينتهي إلى ٩٩٧٣، وفي هذه المائة الأخيرة ٩ أعداد لا غير، وفي المائة قبلها ١٢ عدداً، وهكذا لا تجد مائة في هذه المئات خالية من الأعداد الأولية:

(١) ولا جرم أن العوالم المشاهدة أكثرها أشبه بالأعداد التي تقبل القسمة، وأقلها أشبه بالأعداد الأولية، فضوء الشمس والقمر وعالم الأثير والهواء والماء أكثر جداً من الأرض، كما أن الأعداد التي تقبل القسمة أكثر من الأعداد الأولية.

(٢) إن كل مائة فيها أعداد أولية كما تقدم قد تكون ٩ وقد تكون ٢٥ وقد تكون عدداً بينهما مثل ١٤ و١٥، وهكذا في كل قرن أناس يظهرون في الأمم لهم مبادئ وحكم جديدة لم تكن من قبل، ونابغون في الحرف والصناعات، نسج الناس على منوالهم ولكن الأكثرون مقلدون، فهم أشبه

بأعداد ٤ و٨ و٩ و١٢ وغيرها من كل عدد له مضاريب ترجع إلى أعداد أولية. فقال: أنا لم أفهم هذا، فقلت:

(١) اعلم أننا نعد هكذا ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ الخ. أو ٢ ـ ٤ ـ ٦ ـ ٨ ـ ١٠ ـ ١٢ وهكذا أو نقول: ٣-٦-٩-١٢-١٥ وهكذا أو نقول: ٥ ـ ١٠ ـ ١٥ ـ ٢٠ وهكذا: أي أننا نعد إما بالواحد وإما بالاثنين وإما بالثلاثة وهكذا، فإذا وصلنا إلى عدد أولي من الأعداد الكبرى مثل: ١٠٠٩ و١٠١٣ و١٠١٩ و١٠٢١ و١٠٣١ وهكذا وأردنا أن نعد به فلا بد أن نكرره مرة ومرتين وثلاثاً وهكذا، كما نقول ١١ ـ ٢٢ ـ ٣٣، فهاهنا لا بد لنا أن نعد في تكراره ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ وهكذا، أي أننا مع كل عدد أولي بعد الألف أو مائة ألف أو غيرها لا بد أن نعد من أول واحد ونسير كطريقتنا الأولى، ولا جرم أن هذا معناه أن النابغين في كل قرن لا بد أنهم يعرفون ما في التاريخ، ويبنون مجدهم على مقتضاه بطريقتهم هم، كما أن العدد الأصم يعد من الواحد وما بعده.

(٢) ثم إننا كما نحلل المركبات في المعامل الكيميائية إلى عناصرها كتحليل الماء إلى أكسوجين وأودروجين هكذا نحلل الأعداد إلى عواملها الأولية، فتحليل الأعداد في نفوسنا له نظير في الخارج، وذلك في المركبات مثل تحليل عدد ٤٧٢٥ فإنا نقسمه على ٣ فيكون الخارج ١٥٧٥، هذا نقسمه على ٣ فالخارج ٥٢٥، وهذا نقسمه على ٣ فالخارج ١٧٥، وهذا نقسمه على ٥ فالخارج ٣٥، وهذا نقسمه على ٥ فالخارج ٧، وهذا نقسمه على ٧ فالخارج ١، فيكون ٤٧٢٥ يساوي ٢٧×٢٥×٧=٤٧٢٥، وهذا كما نقول الماء حلل إلى ١٦ جزءاً من الأكسوجين، وجزأين من الأودروجين وزناً أيضاً، فالتحليل في المادة أظهر حقائقها فتصرفنا فيه، كما أظهر تحليل الحساب عوامله فتصرفنا فيها وانتفعنا بها، هذا هو الفصل الأول من الفصول الأربعة.

الفصل الثاني

في عجائب العدد الكامل والأعداد المتحابة وحساب الجذر والتربيع ونحوها

وفي هذا الفصل مسائل:

المسألة الأولى: العدد إما كامل وهو ما يساوي جميع مضاريبه مثل عدد ٦ فإن مضاريبه هي ١ ـ ٢ ـ ٣، ومجموعها ٦، وكذلك ٢٨ فإن مضاريبه وهي ١ ـ ٢ ـ ٤ ـ ٧ ـ ١٤ يساوي ٢٨ فهو عدد كامل، وإن كانت المضاريب أقل منه فهو ناقص، مثل ١٠ فإن عواملها ١ و٢و٥، فهي ٨، فهذا عدد ناقص لنقص مجموع مضاريبه عنه، وعدد ١٢ مضاريبه هي ٢ و٦ و٣ و٤ و١ المجموع ١٦ فهو عدد زائد، وأكثر الأعداد ناقصة أو زائدة، كما أن أكثر هذا النوع الإنساني غير معتدل، والكامل قليل، كما أن الكامل في الإنسان قليل، فهو هكذا:

٦
٢٨
٤٩٦
٨١٢٨
١٣٠٨١٦
٢٠٩٦١٢٨
٣٣٥٥٠٣٣٦

وهكذا، فترى أنه من عدد (١) إلى (١٠) لا عدد كامل إلا واحداً، وكذلك من ١٠ إلى ١٠٠ ومن ١٠٠ إلى ١٠٠٠ ومن ١٠٠٠ إلى ١٠,٠٠٠، ولكنك في هذا الجدول لا تجد في الأعداد من

١٠,٠٠٠ إلى ١٠٠,٠٠٠ عدداً واحداً كاملاً، وهكذا لا تجد فيه من مائة ألف إلى مليون إلا عدداً واحداً كاملاً، أليس هذا يشابه العالم الخارجي، فإننا نجد الراديوم قليلاً، والذهب والبلاتين وغيرهما كثيرة، ونجد الأنبياء والحكماء قليلاً.

موازنة بين العدد الكامل والأصم

العدد الأصم يكثر لأنه نظير ذوي الاختراع في الصناعات والنبوغ في مختلف الحرف، أما العدد الكامل فهو أقرب في ندرته إلى ندرة الأنبياء والحكماء والراديوم وهكذا.

المسألة الثانية: قد وجد العلماء أن عدد ١٢٠ يساوي نصف مجموع مضاريبه، فهذا أشبه بكونه نصف الكامل، والمضاريب هي: ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٥ ـ ٦ ـ ٨ ـ ١٠ ـ ١٢ ـ ١٥ ـ ٢٠ ـ ٢٤ ـ ٣٠ ـ ٤٠ ـ ٦٠، ومجموعهما ٢٤٠ ونصفه ١٢٠، ومثله في ذلك عدد ٦٧٢ فإنه يساوي نصف مجموع الأعداد المتدخلة فيه وهو ١٣٤٤ ونصفهُ ٦٧٢.

المسألة الثالثة: الأعداد المتحابة مثل عدد ٢٢٠ وعدد ٢٨٤، وسموهما متحابين لأنهم وجدوا أن كلًّا منهما مؤلف من مضاريب الآخر، فإن (٢٢٠) يساوي مضاريب (٢٨٤) وهي: ١ ـ ٢ ـ ٤ ـ ٧١ ـ ١٤٢، و٢٨٤ يساوي مضاريب (٢٢٠) وهي ١ ـ ٢ ـ ٤ ـ ٥ ـ ١٠ ـ ١١ ـ ٢٠ ـ ٢٢ ـ ٤٤ ـ ٥٥ ـ ١١٠، إذن عندنا عدد لا مضاريب له وهي الأعداد الأولية، وعدد مضاريبه أكثر منه وهو العدد الزائد، وعدد مضاريبه أقل منه وهو العدد الناقص، وعدد يساوي هو نصف مضاريبه وقد تقدم، وعدد يساوي مضاريبه وهو الكامل، وعدد يساوي مضاريب غيره وغيره يساوي مضاريبه وهما العددان المتحابان، فهذه ستة أنواع.

فلما سمع ذلك صاحبي قال: ما أجمل هذا العلم، وما أبدع قوله تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾[الرحمن: ٥]. والله إن شأن الحساب لعجب! فقلت: أيها الصديق إذا سرك هذا فلأسمعك ما هو أعجب وأبهج وأبدع. قال: أحب ذلك. فقلت: إن هذه الأعداد المتحابة أمكن العلماء البحث عنها واستخراجها. فقال: وكيف ذلك؟ فقلت: يجعلون عدد ٢ هو الأس. فقال: ثم ماذا؟ فقلت: ثم يأخذون ثلاثة أمثاله وستة أمثاله و٩ أمثاله في مربع العدد وهو ٤ فيحصل عندهم هذه الأعداد بالتوالي ٦ ـ ١٢ ـ ٧٢، لأن ٢ في ٩ يساوي ١٨ و١٨ بضربها في ٤ يكون ٧٢. فقال: هذا واضح، ثم ماذا؟ فقلت: ينقصون من هذه الأعداد واحداً فتكون هكذا: ٥ ـ ١١ ـ ٧١، فإذا ضربنا ٥ في ١١ وضربنا الناتج وهو ٥٥ في ضعف عدد ٢ وهو ٤ كان الحاصل ٢٢٠، وهو أحد العددين المتحابين، فأما العدد الآخر فكيفية إيجاده أن نضرب عدد ٧١ وهو العدد الثالث في ضعف ٢ عدد وهو ٤ كما فعلنا في العددين السابقين فيكون عندنا عدد ٢٨٤.

فملخص ذلك أن عددين ضربا في ضعف ٢ وعدد ٤ ضرب فيه أيضاً، وصار الأمر واضحاً، وأيضاً أمكنهم استخراج الأعداد المتحابة من مكعب ٢ بالطريقة المتقدمة، فيضربون مكعب ٢ وهو ٨ في ٣ ثم في ٦ ثم في ٦٤، وهذا الأخير هو مربع ذلك المكعب الذي هو ٨، فيكون الحاصل بالتوالي ٢٤ و٤٨ و١١٥٢، فإذا نقصنا من كل واحد منها عدد ١ كان الباقي هكذا بالتوالي ٢٣ ـ ٤٧ ـ ١١٥١،

فإذا ضربنا ٢٣ في ٤٧ وهما العددان الأولان، ثم ضربنا حاصل الضرب في ضعف المكعب المذكور وهو ٨ وهذا الضعف هو ١٦ فإن حاصل الضرب يكون ١٧,٢٥٦ فهذا عدد متحاب أول، والعدد المتحاب الثاني نفعل فيه ما فعلنا هناك، فنضرب ١١٥١ في ١٦ أيضاً فيكون الحاصل ذلك العدد ١٨,٤١٦ .

وهذه القاعدة التي رأيتها أيها الذكي هنا يمكنك بها إيجاد أعداد متحابة لا نهاية لها بجعلك قوة عدد ٢ هي الأس، فالعدد المتقدم بقوتها الثالثة أي بضربها في نفسها ٣ مرات، فقوتها الرابعة، وقوتها الخامسة وقوتها السادسة، أي: ضربها في نفسها ٤ مرات، وضربها في نفسها ٥ مرات، وضربها في نفسها ٦ مرات وهكذا يمكنك بها أن تستخرج أعداد متحابة إلى ما لا يتناهى على شريطة أن تحافظ على هذا النظام.

ثم قلت: ومن أبدع الحكم وأعجب العلم ما استنبطه العلماء غير ما تقدم لإيجاد قاعدة الأعداد المتحابة، ذلك أنهم وضعوا صفاً أفقياً مركباً من متوالية هندسية تصاعدية أسها ٢ وحدها الأول ٢ أيضاً هكذا: ٢ ـ ٤ ـ ٨ ـ ١٦ ـ ٣٢ ـ ٦٤، ثم يضعون تحت هذا الصف صفاً آخر مركباً من هذا الصف مضروباً في ثلاثة، فيكون هكذا: ٦ ـ ١٢ ـ ٢٤ ـ ٤٨ ـ ٩٦ ـ ١٩٢، ويضعون فوق الصف الأول صفاً تكون أعداده هي عين أعداده بشرط أن تنقص ١ فهي هكذا: ٥ ـ ١١ ـ ٢٣ ـ ٤٧ ـ ٩٥ ـ ١٩١، إذن تكون الصفوف هكذا:

٥	١١	٢٣	٤٧	٩٥	١٩١
٢	٤	٨	١٦	٣٢	٦٤
٦	١٢	٢٤	٤٨	٩٦	١٩٢
٠	٧١	٢٨٧	١١٥١	٤٦٠٧	١٨٤٣١

وهذا الصف الرابع إنّما حدث بضرب ١٢ من الصف الثالث في ٦ قبله فالحاصل ٧٢، وينقص ١ فيكون ٧١، وهكذا يصنعون في الحد الثاني فيضربون الحد الثالث من الصف الثالث في الحد الثاني منه، أعني ٢٤ في ١٢ ويطرح من حاصل الضرب ١، وعلى هذه الكيفية يحصل الحد الثالث والرابع وهكذا.

وهذا الجدول تؤخذ منه الأعداد المتحابة، أفلا تعجب أنك إذا أخذت ٧١ وهو الحد الأول من الصف الرابع وضربته في ١١ وهو الحد المقابل له من الصف الأول فإنك تحصل على عدد ٢٨٤، ولو ضربت عدد ١١ في العدد الذي تحته وهو عدد ٤ لحصل عندك عدد ٤٤ فبضربه في ٥ الذي على يمين ١١ يكون عندنا ٢٢٠، وهذان العددان هما العددان المتحابان المتقدمان، وبهذه الطريقة يمكن استخراج أعداد متحابة كما تريد بشرط أن تكون الأعداد المختارة بهذه الطريقة أعداداً أولية لا غير.

فلما سمع ذلك صاحبي قال: إن هذا الموضوع طال، وكان الأولى أن تقف بنا عند القاعدة المتقدمة قبل هذا الجدول. أما هذا الجدول فإن أعماله كثيرة، وشروطه كثيرة، وهو صعب عليّ فهو على قراء هذا التفسير أصعب جداً، فما كان يليق ذكره في تفسير آية: ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن: ٥]. فقلت: أما هذه الصعوبة فأنا أعلمها وأنا أكتب هذا قاصداً. فقال: لماذا؟ قلت: لأن هنا عجباً عجاباً. فقال: وما هو؟ قلت: لسر مصون وجوهر مكنون.

ومن خطب الحسناء لم يغلها مهر

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله لا تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

أيها الأخ الذكي، إن أمة الإسلام اليوم يجب أن نلقي إليها العلم لتفكر في أمرها، وتبحث في الأرض وفي السماء، أذكرك أيها الذكي بما مرّ في سورة «الحجر» عند قوله تعالى: ﴿ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴾[الآية: ١٩]. فقال: أتذكر ذلك؟ فقلت: ماذا رأيت هناك؟ فقال: رأيت هناك نظام النبات وهو مرسوم. وهناك مناسبة عجيبة بين أوراق الأشجار. اقرأ هذا المقام وانظر صوره البديعة إن شئت.

ثم قلت له: إن بين أوراق النباتات المختلفة مناسبات عددية، ولكل صف علاقة مع بعض الصفوف الأخرى، أليس هذا هو نفس الوزن، وهذا الوزن اشتق منه الميزان المذكور في هذه السورة. فإذا سمعنا الله يقول هنا: ﴿ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ﴾[الرحمن: ٦-١٢]؛ فذلك كله بحساب موزون كوزن النبات، قال: نعم. قلت: فجلّ الله وجلّ العلم، فإذا أنا أيها الأخ الذكي أتيت بالأعداد المتحابة ووضعت الجدول المذكور وهو الصعب فلم أضعه جزافاً. كلا. إن المضطر يركب الصعب من الأمور وهو عالم بركوبه، فأنا الآن أريد أن أبين أن الحساب الذي فطرنا عليه وهو حقائق ثابتة لا تحويل لها ولا تغيير، بل يستحيل تغييره قد قام عليه نظام العالم، فكما وجدنا الأعداد المخبوءة في نفوسنا ذات نظام ثابت، هكذا وجدنا الأوراق في الأشجار لها ذلك النظام الثابت، ووجدنا لها جدول ذات ارتباط وانتظام كالانتظام الذي رأيناه في نفوسنا عند دراسة الأعداد المتحابة.

فوا حسرتاه على المسلمين أولاً، وعلى نوع الإنسان ثانياً، جهل هذا الإنسان نفسه، وجهل ربه يدرسون الحساب وأكثرهم يعيشون ويموتون وهم لا يفكرون، ﴿ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴾[عبس: ١٧].

فيا ليت شعري أيها الأخ الذكي كيف نرى نفوسنا مفطورة على الحساب والنظام البديع، ثم نجد نفس ذلك النظام أو ما يشبهه في نظام الكواكب، ونظام النبات ونظام الحيوان.

الله أكبر، إن دراسة هذه العجائب هي السعادة، أليست هذه هي الباب والسلّم لمعرفة عجائب نفوسنا؟ إن نفوسنا مفطورة على الحساب، والحساب كامن فيها، والحساب جميل بديع مشوق لما فيه من البدائع والعجائب.

وهذا الحساب الذي عرفنا طرفاً منه ثابت في علم الله عز وجل، وقد بنى نظام الدنيا عليه، وبهذا نفهم معنى: ﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴾[الرحمن: ٥]، ونعرف مئات الآيات من القرآن، إذ يقول: ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ ﴾[يونس: ٤٩] ويقول: ﴿ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾[الأعراف: ٣٤] ويقول: ﴿ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴾[الرعد: ٨]، ويقول: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾[الحج: ٧٠]. ومن هنا نشعر بمعنى القضاء والقدر، ومن هنا نعرف كيف يكون تهذيب الأخلاق.

فقال: تهذيب الأخلاق! لعل هذا خروج عن الموضوع؟ فقلت: هو في نفس الموضوع، بل هو تتميم له. فقال: إن الموضوع هو أن عجائب الحساب تعطينا نموذجاً ضئيلاً يعرفنا نظام الله وقدره وعجائب صنعه، وإن هذه العوالم منشآت على حساب فطرت عليه نفوسنا، وهذه حقائق ثابتة، والله يقول: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩] وهكذا، فبهذا عرفنا أن هذه العوالم بنيت على حقائق ونفوسنا تشعر بطرف من هذه الحقائق، فأما الأخلاق فهي شيء آخر. فقلت: إن تمرين الطلاب في مدارس العالم قاطبة على مقدار تمرنهم في العلوم الطبيعية والعلوم الرياضية بحيث تصقل نفوسهم بحميد الصفات وجميل الأفعال، لأن تلك النفوس تشعر بجمال ونظام ثابت في هذه العوالم، فيكسبها صفة الجمال والبهاء والعدل والنظام، فيظهر ذلك في أفعالها، فقال: هذا مقبول عقلاً وتؤيده أفعال الإنسان، لأني رأيت الحلاق حينما يأتي له صبي ليعلمه يأمره أن يقف زمناً وهو يشاهد مزاولة الحلاق، فيكون ذلك أول باعث له على التقليد وسهولة العمل، وللمشاهدة أثر فعال، فهكذا مزاولة العلوم الطبيعية والرياضية، ولكن أنا أريد نصاً من القرآن على ما تقول، لأننا الآن في تفسيره، ولن يعتقد المسلمون هذا القول إلا بنص من القرآن بشرط أن يكون في هذه السورة. فقلت: إن النص فيها. ألم يقل الله تعالى: ﴿ وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴾ [الرحمن: ٧-٨]، يقول: نصبت الموازين في سماواتي وفي أرضي، وخلقتكم فيها لتشاهدوا أفعالي بالبحث والتنقيب، فتربى ملكاتكم على النظام، ومن أحب عملاً أحب تقليده طبعاً، فيكون ذلك داعياً لكم أن تزنوا أعمالكم، فلا إفراط ولا تقصير، فقال: الحمد لله الذي علم الحكمة وهدى، وسيكون لهذا القول ما بعده، وستكون في الإسلام أمة لم يحلم بها التاريخ، فإن تفسير الآية اللفظي من غير تدقيق لا يعطي كمال هذه المعاني التي تقلب عقول النوع الإنساني وتغيره من حال إلى حال.

انحطاط تعاليم الحساب في بلاد الإسلام وهل له نظير في المشاهدات الحسية

وكيف عرف الأوروبيون أن الأخلاق تصقلها هذه العلوم، وإذا كانت أخلاق المتعلمين منهم شريفة فلماذا نراهم يتعلمون في الشرق؟

ولكني أريد أن أسألك إذا أذنت لي في بعض أمور مرتبة على هذا النظام الحسابي. فقلت: حباً وكرامة. فقال: أولاً: إني وأنا مجاور بالجامع الأزهر كنت أطلع على بعض كتب نحو «شمس المعارف الكبرى» للبوني فأجده يذكر هذه الأعداد المتحابة، ويقول: تمزج أعداد اسم الرجل بأعداد اسم المرأة الخ، وله هناك دعوات وبخور وهكذا، إن المطلع على هذه الكتب يظن أن هذا من الدين. فقلت: اعلم أن هذا الموضوع لا يتم فهمه إلا بمثل وهو نهر النيل. إن نهر النيل يستمد ماءه من المطر النازل من السماء، وهذا المطر ينزل بعضه فيكون ثلجاً فوق الجبال العالية هناك، وإن كان ذلك في خط الاستواء لشدة الارتفاع، وبقية المطر ينزل بعضه في باطن الأرض، وبعضه يجري على ظاهرها، والذي يجري على ظاهرها هو الذي ينزل في البحيرات هناك، ومنه يكون نهر النيل، والثلج فوق الجبال يمد

النهر طول السنة بما ينحل من مائه بحرارة الشمس ، فإذا مرّ الماء في بلادنا إلى البحر الأبيض المتوسط سقى الزرع وأدر الضرع ، ولكن بعض الماء ينفرد ولا يتصل بالنهر فيكون في برك ومستنقعات ، فهو منفصل من النيل المتصل بالبحيرات والمطر والجبل ، وهذا الماء المنقطع هو من أفعال الله عز وجل ، ومعلوم أن الله هو الرحمن ، فرحمته تسري في كل شيء ، فهذه البرك والمستنقعات لا يصلح ماؤها للشرب . بل تكون ضارة للإنسان والحيوان ، فيخلق الله عز وجل فيها الناموس والذباب والحشرات ، ويعطيها من رحمته قوة وسلاحاً ، ويحفظ نسلها مهما حاربها الإنسان وآذاها ، لأنه أولاً : يريد بقاء هذه الحيوانات وتكاثرها لأنها مخلوقاته . وثانياً : يجعلها مطهرات للجو . وثالثاً : ليجعلها جنوداً تقتل هذا الإنسان الجاهل النظام حتى يرجع عن جهله .

إذا فهمت هذا أيها الأخ الذكي فاعلم أن الأمم جميعها في أول أمرها تكون نشطة مفكرة ذكية فإذا حلّ بها الضعف وانتابها الخور ؛ فكت أوصال علومها ، وانحلت عراها ، واستعملت العلوم في غير ما وضعت له ، وأصبحت تلك العلوم فيها أشبه بالناموس والذباب وبقية الحشرات فلا تزال تؤذي .

والحشرات مؤذيات ، ولله فيها أيضاً رحمة ، فهو كما خلق الحشرات وجعل حياتها جارية على قوانين ؛ هكذا إذا جهلت الأمم أصول علومها تبعثرت تلك العلوم وتناثرت بعد أن كانت قلادة واحدة فترى علم الأعداد مستعملاً في غير ما وضع له ، بحيث نرى الأعداد المتحابة المتقدمة قد جعلت لأمور صبيانية بعد أن كانت دراستها لمعرفة الحكمة ، ونظام الخليقة ، وحب صانع العالم ، والتمكن من العلوم لسعادة الحياة وارتقاء الإنسانية ، ونرى علم النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع لا تتجاوز معرفة ألفاظ القرآن ، فيضيع العمر فيها ويقف العقل عندها ، بعد أن كانت مقدمات لمعرفة أمثال هذه الأسرار ونرى علم الفقه وأصوله لا يقصد إلا لمعرفة آراء الشافعي وأبي حنيفة أو نحوهما مع بقاء عقل الطالب في قيد ذلك الإمام لا يتجاوزه ، مع أن الأصول ما وضعت إلا للاجتهاد لا للاستعباد . ثم إن القاضي يتولى القضاء لغرض التبسط في الحياة ، وحوز الدرهم والدينار ، مع أن هذا ترف ، والترف أصل الشقاء في هذه الحياة نفسها ، والقضاة في زماننا هم الذين يطلبون القضاء لأجل المال ، ولأجل الترف والتنعم في الحياة ، كل ذلك لأن هذه العلوم تقرأ والطالب ذاهل عن أصل وضع الدين ، لأن أصل الدين جاء ليجعل في الناس طبقة تكون سياجاً للأمة وقواداً لها ، والقواد يكونون أقرب إلى الزهد ، وهكذا الملوك والأمراء كلهم يحرصون على المال لأنفسهم لا للدولة ، وكل ذلك ناشئ من الجهل بأصول الحياة وأصول الدين ، فإن صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم لم يحز المال لنفسه بل للأمة ، وعمر رضي الله عنه كذلك وبقية الخلفاء ، فخلف من بعدهم خلف جعلوا الإمارة مغنماً ، فهؤلاء وهؤلاء أشبه بالحشرات العائشات في البرك والمستنقعات ، والتشبيه صحيح ، لأن الذين يقرؤون سورة « يس » لأجل جلب الرزق ؛ أو الذين يكتبون وفقاً محسوباً بهيئة خاصة لأجل ذلك ؛ أو الذين يتولون القضاء أو الإمارة وهم غافلون عن حقائق ما هم بصدده ؛ أو الذين يتولون الزعامة لإعطاء العهود ولكن قصدهم جمع المال فقط ؛ فهؤلاء وهؤلاء لا فرق بينهم وبين الحشرات في البرك وفي المستنقعات ، ومثلهم في ذلك الذين يحسبون بـ « الزايرجة » ، فهؤلاء لهم حساب منظم نظاماً بديعاً ، وقد يكون وراء

هذا الحساب أخبار ببعض الحقائق، والأكثر منهم يتخلف كما حققته أنا معهم ودرسته دراسة تامة، وهكذا الذين يعرفون علم الرمل وأمثالهم، ومثلهم من يحضر الأرواح لقصد المنافع الدنيوية، فكل هؤلاء يجب الاستيقاظ لهم.

على قادة الأمة ـ وهل القادة إلا المفكرون الذين قرؤوا علوماً شتى ومنهم قراء هذا التفسير ـ أن يحذفوا من البلاد الإسلامية تلك الكتب التي فيها الزايرجة والرمل، وأمثال كتب البوني، فهذه مضعفات للعزائم، فإن الإنسان يترك العمل ويتكل على الأمل، وجميع ذلك يضر الأمم ضرراً بليغاً، لأن الساحر وأمثاله يريدون أن يعيشوا على حساب الأمة، وهذا هو الوبال والضلال، بل يجب أن تحصى الأمة ولا يترك أحد بغير صناعة، فهذا هو الواجب الآن.

فقال صاحبي: لقد شفيت صدري في هذا السؤال فأرجو الإجابة على السؤال الثاني. فقلت: سل ما تشاء.

السؤال الثاني: إن هذا القول أحدث عندي إشكالاً وإشكالاً وحيرة، إنك أثبت من القرآن في هذه السورة أن العلوم الرياضية والطبيعية تصقل العقول وتهذب الأخلاق، أي: تساعد على ذلك، ولكن يقتضي هذا أمرين:

الأمر الأول: أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما وبقية الخلفاء الراشدين كانوا على سداد في آرائهم وفضل عظيم، وقد أجمع الناقدون من الأمم المعاصرة لنا أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كانا أذكى وأعدل من قيصر وكسرى في زمانهما مع أن المدارس في الفرس والرومان كانت مكتظة بالطلاب وهؤلاء الملوك تعلموا فيها، فكيف وجدنا من لم يقرأ رياضيات ولا طبيعيات أعدل وأتم أخلاقاً من القارئين المتعلمين.

الأمر الثاني: أن بعض الأوروبيين الحاليين الذين يقرؤون الرياضيات والطبيعيات هم شر خلق الله على الناس وعلى أنفسهم. ثم أخذ يقول: وأي دليل أتم وبرهان أعظم على نقض هذه النظرية مما نراه من الموازنة بين أخلاق الأوروبيين الذين هم في زماننا وهم بلا مراء دارسون هذه العلوم، وبين أخلاق الصحابة الذين لم يدرسوها أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وسرد ما جاء في الجزء الثاني من كتاب «حاضر العالم الإسلامي» من أن الأمم الأوروبية في هذه الحرب الكبرى عاهدوا المسلمين ونقضوا العهود، فهذه أمم ناكثة للعهد لا يوثق بها. ثم قال: أليس من أقبح الأخلاق نقض العهد! أوَلم يقرأ هؤلاء هذه العلوم؟ ثم لننظر ما جاء في سيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في كتاب «أشهر مشاهير الإسلام»، فقد جاء فيه في صفحة ٣٣١ تحت العنوان الآتي ما نصه:

خبر جندي سابور، وأمان عبد أمضاه جيش المسلمين

روى الطبري أن أبا سبرة لما فرغ من السوس خرج في جنده حتى نزل على جندي سابور، وزرّ ابن عبد الله بن كليب محاصرهم، فأقاموا عليها يغادونهم ويراوحونهم القتال، فلم يفجأهم يوماً إلا وأبواب البلد تفتح، ثم خرج الناس وخرج الأسواق وانبث أهلها، فحار المسلمون من ذلك، وأرسلوا فسألوهم أن ما لكم؟ قالوا: رميتم إلينا بالأمان فقبلناه وأقررنا لكم بالجزية على أن تمنعونا، فقال

المسلمون: ما فعلنا. فقال أهل جندي سابور: ونحن ما كذبنا. فسأل المسلمون فيما بينهم، فإذا عبد يدعى «مكنفاً» كان أصله منها هو الذي كتب لهم، فقالوا: إنّما هو عبد. فقالوا: إنا لا نعرف حرّكم من عبدكم، قد جاءنا أمان فنحن عليه قد قبلناه ولم نبدل، فإن شئتم فاغدروا. فأمسكوا عنهم وكتبوا بذلك إلى عمر، فكتب إليهم يقول: إن الله عظم الوفاء فلا تكونون أوفياء حتى تفوا، ما دمتم في شك أجيزوهم وفوا لهم، فوفوا لهم وانصرفوا عنهم. اهـ.

ولما أتم هذا المقال حدق ببصره إليّ وأخذ يقول: إن النظرية لا حظ لها من الحقيقة، فهاهم أولاء القياصرة والأكاسرة قديماً، وهكذا ساسة أهل أوروبا حديثاً سقطوا في الميدان الأخلاقي وهم الدارسون لهذه العلوم، والصحابة وعمر لم يخونوا العهد وصدقوا ما عاهدوا، وأهل أوروبا اليوم ناكثو العهود.

جواب هذين الاعتراضين

فقلت: أيها الأخ الذكي، إن الأمم لها دوران: دور البداوة، ودور الحضارة، فهي في دور البداوة تكون أقرب إلى الخير، لأنها لا تزال على الفطرة، ولا يعوزها إلا أمران: إزالة الخرافات في العقائد، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم في الأخلاق. ومتى زال هذان العائقان انبعثت الفطرة إلى الأعمال الصالحة لأنه لا غشاوة تحجبها، ولا غطاء، ولا ران عليها، وهذا جوابي على اعتراضك الأول، فإذا رأيت أبا بكر وعمر وبقية الخلفاء أفضل من ملوك زمانهم؛ فذلك أن هؤلاء الملوك قد حجبت عنهم فطرهم بالحضارة وغشاوات الزلات المنكرة الفاشية في الأمم التي طال عليها العهد، وقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون.

فأما الأمم في دور الحضارة فإن الشرور والشهوات والطمع والبغي تكون حجاباً على القلوب فلا بد من دراسة العلوم الرياضية والطبيعية لتصقل النفس فتقرب من فطرتها، وتحب الحق الذي درسته لأنه مخبوء في النفس وظاهر في الطبيعة، فمتى شهدته أخذت ترجع إلى فطرتها شيئاً فشيئاً، وذلك من غير جدال شأن جميع الطبقة المتعلمة في الأمم الراقية، وهم بلا جدال حافظون لكيان دولهم وعندهم عدل بقدر إمكانهم. فقال: ما دليلك على هذا؟ قلت: دليلي أننا نرسل أبناءنا يتعلمون القوانين في مدارسهم، وأيضاً أن الأمم التي نغير على بلادنا بقضها وقضيضها وتغلبنا؛ لن يتم ذلك لها إلا بحفظ بلادها أولاً، لأن الأمم أشبه بالآلات التي تستخرج الماء من الأرض، فكل صناعة وعلم جزء من تلك الآلة، ومتى فسدت قطعة منها وقفت حركتها، فإذا كنا نراهم على هذا النمط؛ فمن المستحيل أن يكون القضاة مجبولين على الظلم، وإلا لاختل النظام، وبقوا في بلادهم جائمين.

فقال: هذا حق، ولكني أقول إنهم يظلموننا نحن، وقد وازنت بين إخلافهم وعدنا وبين وفاء الصحابة. فقلت: حقاً إن هؤلاء القوم أخلفوا عهودهم معنا، ولم تنفعهم ثقافتهم بالعلوم، والصحابة كانوا أقرب إلى العدل مع الأمم منهم، ذلك لأن هؤلاء أشبه برجل اتبع رأي الأطباء في الطعام والشراب فأكل الفاكهة والخضر ولكنه ابتلي بشرب الخمر واتبع الشهوات، فهؤلاء وإن غذيت عقولهم بالعلوم الطبيعية والرياضية وصلحت كما تصلح الأجسام بالأغذية الصحية انتابتهم أمراض

اجتماعية أفسدت فطرهم بالنسبة لأمم الشرق كما يفسد الجسم المعتدل بالأغذية الطبيعية إذا شرب الخمر أو أكثر من التبغ والقهوة والشاي والمخدرات الأخرى.

إن هذه الأمم يعطون تلاميذهم في جامعاتهم وكلياتهم درساً خاصاً بأمم الشرق فيقولون: إياكم أن تعاملوا هذه الشعوب معاملة الأوروبيين، لأننا نريد أن نبقيهم على حال أدنى ليكونوا تحت طاعتنا خاضعين. وهذا جوابي على اعتراضك الثاني.

ولا فرق بين هؤلاء الأوروبيين الذين يذلون الأمم الشرقية وبين كثير من أسلافنا بعد عصر الخلافة الذين ظلموا الأمم وخربوا البلاد. اقرأه في مقدمة ابن خلدون، وارجع إليه في سورة «النمل» عند آية: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾[الآية: ٣٤] الخ. فقال: شرحت صدري شرح الله صدرك، وبهذا تم الكلام على الإجابة على السؤال الثاني، والحمد لله رب العالمين.

ملخص ما تقدم

هنالك أخذ صديقي العالم يحدثني في هذا الموضوع قائلاً: إني أخاف أن يكون هذا القول خارجاً عن الموضوع، نحن في آية: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾[الرحمن: ٥]، وإني لما سمعت منك أن دراسة هذه العلوم تعلم العدل خرجت عن الموضوع بذكر السياسة بين الشرق والغرب، وأردت بذلك اختبار طريقك، هل ما يقوله كثير من الناس حق بالنسبة لك من حيث إنك دائماً تخرج عن دائرة التفسير؟ فقلت: إن ما تقوله كنت ألاحظه أثناء كلامك، واعلم أنك تريد إخراجي من الموضوع استدراجاً، ولكني أنا أعلم أن الكلام لم يخرج عن الموضوع، فما رأيته أنت نقصاً للأسلوب أراه أنا كمالاً. فقال: وكيف ذلك؟.

فقلت: إننا قلنا: إن العوالم كلها مبنية على الحساب، والحساب ثابت في النفس، والعالم على مقتضاه، وقلنا: إن الأعداد الأولية أقل من الأعداد التي تقبل القسمة، وإن الأولية يعوزها بعض البحث، والأعداد الكاملة تحتاج إلى بحث أتم، والأعداد المتحابة العجيبة يعوزها تنقيب أكثر لجمالها ولقلتها وإبداعها وعجائبها، وإن هناك المتوالية الهندسية والعددية، والجذر والتربيع، والكسر الدائر وغير الدائر، وأثبت أن هذه العلوم تصقل العقول ولها دخل في تهذيب الأخلاق، فلما اعترضت أنت على ذلك بأعمال الأكاسرة والقياصرة وبأعمال أهل أوروبا أجبتك بما أقنعك. وبعد هذا وذاك أرى أن هذا كله في تفسير الآية، ألم تر رعاك الله أن الشمس والقمر مبنيان على الحساب، قال: بلى.

قلت: والزروع بأقسامها كلها مبنيات على حساب الشمس والقمر. فقال: بلى. قلت: أليست هذه هي العلوم الطبيعية والرياضية؟ قال: بلى.

قلت: أوليس قوله تعالى: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾[الرحمن: ٧-٨] راجع لعلم الأخلاق والسياسة معاً، لأن السياسة أخلاق أيضاً في ساحات أعم من الأخلاق الفردية. قال: بلى وربي. قلت: إذن ما أردته أنت لم يخرج عن الموضوع بل هو إتمام له وأنت في ذلك من المصلحين. قال: الحمد لله والشكر له. وبهذا تم الكلام على الفصل الثاني من العدد الزائد والناقص والأعداد المتحابة، فلنبتدئ في:

الفصل الثالث: في الجذر والتربيع والمتوالية العددية والمتوالية الهندسية

ولا أريد أن أطيل الكلام على بقية المواضيع هنا، فمن أراد فليراجع ما تقدم في سورة «الذاريات» عند آية: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[الآية: ٢١] في المجلد الثالث والعشرين من هذا التفسير. وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الثانية في عجائب الحسبان في سورة «الرحمن»، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثالثة: زيادة إيضاح قوله تعالى:
﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٢٢﴾﴾

اعلم أن اللآلئ على ثلاثة أنواع: طبيعية، ومولدة، وصناعية، وهذه سنتكلم عليها من طريقين:

الطريق الأول: تمييز كل منهما، وبيان نفعها المادي في التجارة.

الطريق الثاني: بيان جمالها العلمي في الحكمة.

الكلام على الطريق الأول: وهو تمييز أنواع اللآلئ الثلاثة

اللؤلؤ الطبيعي

لقد تقدم الكلام عليه في سورة «الفاتحة»، وهناك بيان أنه يخلق في المحار الذي يعيش في البحار، ويتكون في باطنه، وهناك إيضاح كاف لحياة وأوصاف هذا المحار، ونزيد عليه هنا أن نقول:

لقد اختلف العلماء في سبب تكون اللؤلؤ في جوف المحار، فمن قائل: إن اللؤلؤ يتكون بسبب حيوان حلمي صغير يدخل جسم المحار فتجتمع حوله المادة اللؤلؤية لتقتله، وقد بحث «هردمان» و«هورتل» في لؤلؤ سيلان فقالا: إن في قلب كل لؤلؤة بحثنا فيها نواة هي بزرة دودة من نوع الدود القرعي، ووافقهما غيرهما على ذلك. فهذان العالمان ومن وافقهما عينا نوع ذلك الداخل الغريب في جوف المحار الذي اجتمعت حوله مادة اللؤلؤ.

وقال الدكتور «جايموس» قولاً لا يخالف ما تقدم بل يوضحه فقط، ذلك أنه امتحن نوعاً مخصوصاً من محار اللؤلؤ فوجد أنه تحل فيه الدودة الحلمية المعروفة بلفظ «جمنوفالس»، وهذه الدودة يحيط بها كيس من نسيج بشرة المحار الذي يفرز المادة الصدفية، فإذا ماتت أو خرجت من الكيس أخذ الكيس يفرز المادة اللؤلؤية طبقات بعضها فوق بعض فيكون لؤلؤة، ولا يتكون هذا الكيس حول جسم آخر إذا دخل أنسجة الحيوان سواء أكان هذا الجسم جماداً أو حيواناً حلمياً غير «الجمنوفالس»، إذن هذه الدودة المخصوصة هي سبب تكون اللؤلؤ في هذا النوع من المحار، أما غيره فإنه يتكون بأي جسم غريب دخل المحار بدليل ما سيأتي في اللؤلؤ الصناعي، وإنه يتكون بإدخال أي جسم.

اللؤلؤ المولد

لما عرف الناس ما سبب تكون اللؤلؤ في جوف المحار قالوا: لماذا لا نربيه كما نربي الدجاج والسمك وسائر الحيوان؟ فعمدوا إلى المحار، وأدخلوا في جوف كل واحدة منه هنة صغيرة كالهنة التي

تدخل في الهيئة الطبيعية فتكون اللؤلؤ، ولكنه يحتاج إلى زمان طويل كالذي يقضيه في اللؤلؤ الطبيعي فأخذوا يدخلون في جوف المحار هنة كبيرة، فهذه يتكون حولها اللؤلؤ سريعاً على مقدار كبر حجمها، وقد كسب القوم بهذا في التجارة مالاً كثيراً بسبب العلم، لولا العلم بسبب تكون اللؤلؤ ما أمكنهم تربيته ولا تقصير زمنه ولا إكثاره، ولا يعرف اللؤلؤ الطبيعي من المولد إلا بأشعة «إكس».

اللؤلؤ الصناعي أو المقلد

جاء في تاريخ اللؤلؤ أن رجلاً فرنسياً سنة ١٦٥م يسمى «جاكون» كان يغسل نوعاً من السمك في ماء عذب، فرأى في غسالته لمعاناً كلمعان اللؤلؤ حين يجف، فخطر له أن يطلي به خرزاً من الزجاج بعد مزجه بشيء من الشمع حتى يلصق بالزجاج، فعل وصنع أول لؤلؤة صناعية في التاريخ، فاشتهرت لآلئه وأقبلت عليها الغواني في ذلك العصر، وصارت الغانية لا تحسب جواهرها كاملة إن لم يكن بينها عقد من هذا الخرز اللماع، وقد أصبحت هذه صناعة فرنسية أشار لها العالم «زويمر» سنة ١٧١٦، ومصدر هذه المادة نوع من السمك يسمى «البينوس لوسيدوس». وفي إنكلترا يستخرجونه من قشر سمك «الرنكة» الهرنغ. فهذه الأسماك تغسل بالماء العذب غسلاً لطيفاً حتى تنظف من الملح والقذر ثم تحك الحراشف التي على بطنها بقفا سكين فترسب المادة اللؤلؤية في الماء، وإذا أريد حفظها في الماء أضيف له شيء من «الامونيا» حتى لا يتطرق الفساد إليها سريعاً، وكيفية صنع الخرز الذي يطلى بهذه المادة اللؤلؤية هو ما يأتي:

(١) أن يؤتى بخرز فارغ من الداخل يستحضر بنفخ زجاج عادي غير ملون في قوالب صغيرة بحسب الحجم المطلوب.

(٢) أن يؤتى بكتل صلدة من الزجاج، فلينوع الأول من الخرز الزجاجي يطلى من الداخل، ثم يحشى بنوع من الشمع ملون أو غير ملون. أما النوع الثاني فيطلى من الخارج إذ لا جوف له يطلى، وهذا يفوق الأول في مشاكلته للؤلؤ الحقيقي، ولكن طلاؤه معرض للدثور بخلاف الأول، وثمن العقد الواحد من هذا النوع من ريال إلى جنيه فقط. انتهى الكلام على الطريق الأول وهو تمييز أنواع اللؤلؤ، والحمد لله رب العالمين.

الطريق الثاني: بيان جمالها العلمي في الحكمة

هذا الطريق الثاني لا يتسنى معرفته إلا بعد فهم الطريق الأول لذلك قدمناه. إن الله عز وجل جعل هذه الدنيا ونظامها مرقاة للعقول الإنسانية ترتقي بها إلى معارج الحكمة، فانظر إلى نظام اللؤلؤ، وما اللؤلؤ إلا طبقات دقيقة مبلورة، أي: مشكلة بأشكال منتظمة من كربونات الجير، ثم إن هذا الذي نشاهده من الألوان الزاهية على سطحها لم يكن شيئاً سوى تكسر أشعة النور على هذه الطبقات الدقيقة، هذا هو اللؤلؤ وهذا هو السبب في جماله، وهنا يبتدئ العجب في العلم فنقول:

اللؤلؤ إذن جير مع كربون، أي: جير مع فحم، مادتان اتحدت إحداهما بالأخرى اتحاداً خاصاً بأجزاء محدودات، امتصهما المحار من ماء البحر، فالمحار هو الذي يتغذى بهذه المواد الجيرية والمواد الفحمية وغيرها. وهذا الغذاء يصطفى منه هاتان المادتان: الجير والفحم، ثم يصيران جسماً متحداً

واحداً، وهذا الجسم يلمع، لماذا يكون هذا الجمال؟ ذلك الجمال بسبب ضوء الشمس وغيره، فضوء الشمس الآتي لنا من طبقات بعيدة يقع على هذا الجسم الجيري الفحمي، فيجد هناك ذرات منظمة تحيط بهذا الجرم، صالحة لأن تعكس عنها ذلك النور، فيحصل تموج باهر وجميل، فهذا هو جمال اللؤلؤ، هو ناشئ من تدبير في باطن المحار، وتدبير في ضوء الشمس، وتدبير في هيئة خلق اللؤلؤة، فهناك مادة من جير وفحم، وهناك نظام الذرات المنظم، وهناك شعاع الأنوار كالشمس، وهذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ﴾[يوسف: ١٠٠]، فظهر هنا في هذا كما في غيره لطفه في صنع اللؤلؤ، إذ استخرجه من مواد معروفة عندنا لا بريق فيها ولا لمعان، فما هو الفحم؟ إن هو إلا مادة مظلمة نحرقها فنستدفئ بها، وبها تجري القاطرات والسفن في البحار، وبها ندير آلاتنا، ونصنع خبزنا وما نريد من الأعمال، ومنه اشتقت مئات الألوان في الصباغة، وهكذا كان الغاز الذي تضاء به شوارع المدن الكبار كالقاهرة والإسكندرية وغيرهما، إن الفحم أو الكربون هو نفس الماس على شرط أن يكون نقياً، وهو اللؤلؤ على شرط اتحاده مع الجير، إن الله اشتق من هذه المادة لؤلؤاً وماساً كما اشتق العقل في الإنسان من المادة الجامدة، إن الفحم المظلم قد اشتقت منه الأنوار، واشتق منه الجمال، فالأنوار معروفة مشاهدة، وهكذا أنواع ألوان الصباغة، وأما الجمال فهو ما نحن بصدده من اللآلئ الجميلة، جعل الله الجمال هنا من مادتين منبوذتين: الفحم والجير، ليبين للناس أن كل ما حولكم فيه أسرار لا نهاية لها، بل كمن في كل مخلوق جمال لا يدركه الناس إلا بالعلم، وأكثر هذا الإنسان مغرورون محجوبون، والعلم هو الذي يوقظهم لأمرين: رقي دنيوي، ورقي نفسي، أما الرقي الدنيوي فمثل ما ظهر في هذا المقام من توليد اللؤلؤ وعدم الاكتفاء بما يكون من المحار بحسب طبعه، كما قال الله تعالى: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[الرحمن: ٢٢-٢٣]، فجعل ذلك من الآلاء، أي: النعم، وذكر لفظ «رب» وأضافه للمخاطبين، فقال: ربكما أيها الإنسان ويا أيها الجان، وذلك ليدلنا على أمرين: تربيته هو سبحانه لهذا اللؤلؤ، وتربيتنا نحن له، وهو اللؤلؤ المولد، فإن الناس يربونه الآن، ولعمرك ما ذكره الله هنا وعبر بما فيه معنى التربية إلا ليوقظ المسلمين إلى أن في ذلك علماً تجب دراسته وجوباً كفائياً لرقي العقول ولرقي الصناعات بالتربية العلمية من نوع الإنسان لهذا اللؤلؤ وكرر الله لفظ «رب» وراء كل نعمة من النعم في هذه السورة إيقاظاً لنا أن نفكر في تربية هذه العوالم كلها ونقف على الحقائق، وهذا هو سر «الفاتحة» التي يقرؤها المسلم صباحاً ومساء فيقول: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

فسورة «الرحمن» التي جمعت ذكر المخلوقات في الدنيا والمخلوقات في الآخرة قد ناطت ذلك كله بالتربية، وأفادت إيضاح سورة «الفاتحة»، وبينت التربية وأنواعها إجمالاً، فلم تذر شمساً ولا قمراً ولا نجماً ولا شجراً ولا سماء ولا أرضاً ولا فاكهة ولا نخلاً ولا حباً ولا عصفاً ولا إنساً ولا جاناً ولا شرقاً ولا غرباً ولا بحراً ولا برزخاً ولا لؤلؤاً ولا مرجاناً ولا ناراً ولا نحاساً ولا سفينة في بحر ولا جنة ولا حوراً عيناً ولا غيرها؛ إلا ذكر بها معبراً عنه بالنعمة وبالتربية، ذكرى للمسلمين بعدنا، فسيقرؤون هذا القول وأمثاله، ويدخلون في بحر لجي من العلم والحكمة وهم مجدون.

من عجائب هذا المقام أنك ترى أن أنواع اللؤلؤ لم تفارق البحر سواء أكان طبيعياً أم مولداً أم كان صناعياً، ألم تر أن الصناعي إنّما هو عبارة عما يكون من مواد عالقة بحراشف السمك، وهذه المادة اللامعة يطلى بها الزجاج، فالطبيعي من المحار، والصناعي مما يرى على حراشف السمك، وهذا يطلى به الزجاج إما من داخل وإما من خارج.

وما هو الزجاج؟ إن هو إلا رمل متحد مع مغنيسيا وجير، فرجع الأمر إلى أن الجمال من فحم وجير ورمل، فأما المادة التي تلمع على حراشف السمك فإنّما خلقت فيه لمنفعة نفسه، ذلك أنه ينعكس بسبب تلك المادة بريق فضي وهاج عن بطنها، فبذلك تختفي عن أعين أعدائها لما تلقي على أعين أولئك الأعداء من النور الذي يبهر أبصارها فلا تتمكن من رؤيتها فلا تقتنصها.

فتعجب من مادة جاءت للسمكة وقاية من الأعداء، وللغادات الحسان جذباً للأحباب والأصدقاء ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[المؤمنون: ١٤]، ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾[الذاريات: ٢٠].

وإلى هنا تم الكلام على قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾[الرحمن: ٢٢].

وبهذا تم تفسير سورة «الرحمن»، والحمد لله رب العالمين.

كتب صباح يوم الأربعاء ١٧ من شهر أغسطس سنة ١٩٢٧م.

تفسير سورة الواقعة

هي مكية إلا قوله تعالى:

﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

فمدنية

آياتها ٩٦، نزلت بعد « طه »

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا

وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾

هذه السورة ثلاثة أقسام:

القسم الأول: في تفسير البسملة.

القسم الثاني: في ذكر السابقين وأصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة وجزائهم، من أول السورة إلى قوله تعالى: ﴿ هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾.

القسم الثالث: في ذكر العجائب الكونية والاستدلال بها على وجود الخالق سبحانه وتعالى وقدرته، واختتام ذلك بملخص القسم الأول.

القسم الأول: في تفسير البسملة

أكتب هذا في صباح يوم السبت ٢٠ أغسطس سنة ١٩٣٢م ذاكراً ما شاهدته في مساء يوم الثلاثاء الفائت ١٦ من هذا الشهر، ذلك أني توجهت إلى مزرعتنا بجهة المرج بالقرب من القاهرة سيراً على قدمي كما ذكرت نظيره سابقاً في هذا التفسير، لأن ذلك أقرب للصحة وأروح للبدن، وكل مؤلف لا يسير كل يوم أميالاً على قدميه لا حظ له غالباً في انتفاع الناس بمؤلفه، لضعف النشاط في روحه واعتلال صحته، وبينما أنا سائر إذ رأيت امرأة أعرابية ترعى غنمات وشاباً معها يساعدها في ذلك، والمرأة لابسة أهداماً قالصة تحمل مخلاة على ظهرها، فخطر لي ما يأتي:

هذه المرأة في نظر الشاب أجمل امرأة وأشرف، لأنهم يرون الفلاحين وأهل المدينة أدنى منهم منزلة وأقل سعادة، ثم وازنت بين هذه المرأة وأختها التي تعيش في القصور بمصر وهي جارتها، وهذه الأخيرة لا ترى لها سعادة إلا في أن تكون مرفهة البال، محجوبة في القصر، قد حرمت من الشمس وضحاها، والقمر إذا تلاها، وتمتعت بأنواع اللذات في قصرها، ولا عمل لها غالباً إلا أن تتزين صباحاً ومساء، وإذا ذكرت لها هذه الأعرابية حقرتها وعدتها من سقط المتاع، إذن السعادة في هذه الحياة تابعة للعقيدة، فالبدوية سعيدة بعقيدتها، والحضرية سعيدة بعقيدتها، وإن كانت الأولى أقرب للحقيقة لصحة بدنها وارتياضها في الهواء وضوء الشمس، وهاهنا ظهرت لي هذه القاعدة: السعادة تتبع العقيدة، فأهل كل دين في الأرض يرون سعادتهم بدينهم سواء أعبدوا صنماً أم فيلاً أم شجراً أم حجراً، وفي الآية: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، فالناس جميعاً يتبعون ما ألقي إليهم من العقائد والآراء، فأرباب كل حرفة سعداء بحرفتهم، بل اللصوص يظنون أنفسهم في بحبوحة السعادة والهناء.

اللهم إن رحمة كل حي في الأرض رحمة جزئية، وهذه الرحمات الجزئية بعالمنا تحيط بها الشموس والأقمار والكواكب، تلك العوالم التي تدوم قروناً وقروناً، وعشرات آلاف آلاف السنين، إذن هذه الرحمات الجزئية فوقها رحمة كلية كأنها دائمة، تشرق الشمس وتغرب وهكذا القمر والنجوم جلّ الله، جلّ الله، عجب وعجب! شروق وغروب للكواكب، وحياة وموت لمن على الأرض، وهم يسعدون سعادات جزئية سواء أكانت تلك السعادات ضالة خاطئة، أم مهدية صالحة، عبد الناس الشمس والقمر، لماذا عبدوهما؟ لدوامهما، وما لا دوام له لا سعادة فيه، السعادة الوقتية كلا سعادة، فليعش الناس في الأرض، وليموتوا وليتمتعوا وليأكلوا ولتأكل أنعامهم ثم ليموتوا، فهذه سعادات جزئية، بل الشمس والقمر والنجوم أيضاً لا دوام لهن فقد ثبت أنهن متغيرات، وسيأتي يوم تبدل فيه الأرض غير الأرض والسماوات كما أثبت ذلك العلم الحديث.

الله أكبر، إذن سعادة نفوسنا بعقائدها، والعقائد المعرضة للتغير لا سعادة بها، وأهل الأرض غير باقين، والشموس والأقمار والكواكب ذاهبات من الوجود كأهل الأرضين، إذن هذه أيضاً رحمات جزئيات والرحمة الكلية مصدر تلك الرحمات.

إذن الرحمة على ثلاثة أقسام: رحمة جزئية سريعة التغير، ورحمة جزئية بطيئة التغير، ورحمة كلية هي مصدر الرحمتين السابقتين ولا تتغير.

ولقد أثبتنا أن السعادة تتبع العقيدة، بل لا دوام لحي من العقلاء إلا بفكر يجتذبه ورأي يتبعه، إن الآراء غذاء العقول كما أن الحبوب وأنواع النبات غذاء للأجسام، وأكبر العقول من تتغذى بأكبر العلوم وأبهاها وأدومها، وهو ذلك المصدر الذي منه استمد ذلك الجمال والبهاء، وأنواع الرحمات شموس وأقمار وأغذية وفواكه وأنواع الحيوان والإنسان، يعبد الناس ربهم، ويظن جهالهم أن ذلك أشبه بما يفعله العبيد مع ساداتهم وهو خطأ فاضح، إن الناس يغرمون بإعظام الناس لهم، ولكن الله هو الذي خلق الناس فلا وزن لهم عنده من هذا القبيل، لأنهم لا عمل لهم إلا بإعانته هو، أما السيد والملك فعمل الناس ليس مستمداً منه، فلذلك يفرح بإعظامهم، إذن قول الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذاريات: ٥٦]؛ ليس يقصد منه إلا منفعة العابدين وارتقاؤهم، وقد قدمنا أن السعادة على مقتضى العقائد والآراء، فكلما ازداد الإنسان عبادة أو علماً بهذه الدنيا وجمالها ازدادت النفس اطمئناناً وارتقاء وحكمة بمن هو باق، ويتبع بقاءه بقاء الشمس والقمر وكل من على الأرض، وعلى ذلك تبقى هذه النفوس إلى الأبد حية سعيدة لأنها تحيا وتبقى بحياة وبقاء من تفكر فيه بعبادة وبعلم، إذن بقاء الناس بعد الموت سعداء لن يكون ولن يتم إلا بأن نفوسهم تمتلئ علماً بمن هو أجمل وأدوم وأرحم الأحياء، وهو الذي أبدع هذا الجمال والبهاء والحسن والإشراق، وهذا معنى: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ في أول سورة «الواقعة» هنا.

في سورة «الواقعة» قوم أشقياء بالنار وقوم سعداء بالجنة، وأعقب ذلك بعجب وأي عجب! ذكر الماء والنار والنبات والإنسان والمشرقات في السماوات، فما على الأرض ليس له إلا السعادة الجزئية لقلة دوامه، والمشرقات في السماوات أدوم وأبقى، وقد ذكرت بعد ذلك في السورة: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾[الواقعة: ٧٥-٧٦]، إذن عظمة النجوم لا تعقل إلا بالعلم، ذلك أنها أدوم من الماء والنار والحيوان والنبات المتقدم في السورة، وختم السورة بالسعادة العليا وهو القسم الثالث من أقسام الرحمة، وهي السعادة الدائمة فقال: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾[الواقعة: ٧٤]، فذكر التسبيح، وذكر الرب، وذكر العظمة، التسبيح تنزيه عن كل ما لا يليق لمقام القدس، فإذا خلق الموت والحياة في أهل الأرض، وإذا غير الشموس والأقمار في السماوات؛ فذلك لأن العوالم لا يتم نظامها إلا بهذه الدرجات، فكل ألم وكل شر جزئي لم يكن إلا مقدمة للرحمة، والرحمة الحقيقية امتلاء النفس بمعرفة الربوبية والعظمة الباقيتين، ولولا ذلك لم تخلق هذه النفوس في الأرضين.

نفحة الرحمات

لما وصلت إلى الضيعة أخذت أطوف بين الحقول، وأجلس تحت الأشجار، فخيل إلي أن نغمات الأشجار الباسقات، وحفيف الأوراق، وغوير الأعشاب، وتغريد الطيور، وطنين الحشرات، وهبوب النسمات في البطاح، وأن ضياء الشمس ونور القمر وتلألؤ الكواكب نهاراً وليلاً لم يخلقن إلا

ليكن أعراساً لهذه الأرواح التي تزف الآن من عالم الحسرات إلى عالم الكمال والجمال، فالنغمات المذكورات قائمات مقام الدفوف والمزامير في الأعراس الأرضية، والمشرقات في السماوات قائمات مقام المشاعل في الأعراس، بل أنا حينما جلست في الحقل تخيلت أن نفسي هي التي تزف إلى ذلك العالم الجميل، والمشرقات في السماء تزين الموكب، وكأن الرحمات العليا تحدثني بهذه النغمات، وتؤنسني بحفيف الأشجار، وبدائع الأزهار، وتقول لي: هيا إلى العلا، قم فبشر أهل الأرض بهذه البشارات، إن في الأرض نفوساً امتلأت بهذه المعاني وفهمت هذه الرحمات، وهذه هي التي تزف إلى العوالم الجميلة، وهذه الأرواح هي الخلائف في الأرض، وهي التي تفهم آية: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾[الأنعام: ١٦٥]. وإلى هنا تم الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة. كتب صباح يوم السبت في التاريخ المذكور، والحمد لله رب العالمين.

القسم الثاني

في ذكر السابقين وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة وجزائهم

مقدمة في مناسبة السورة لما قبلها

اعلم أن هذه السورة بينها وبين سورة «الرحمن» مشابهة، ففي هذه ذكر النعم في القسم الثالث وهو خلق الإنسان وخلق الزرع والماء والنار، وفيه الإقسام بمواقع النجوم على عظمة القرآن، وهذه كلها من آلاء الله كالمذكورة في سورة «الرحمن»، وفي القسم الثاني وصف الجنة والنار، وذلك في سورة «الرحمن»، فبين السورتين تشابه، وإنما قدم ذكر القيامة وأصحاب الجنة وأصحاب النار ووصف المقامين ليناسب آخر سورة «الرحمن»، فإن القسم الثالث منها في وصف أهل النار وأهل الجنة والعذاب والنعيم، وقد وصف أهل الجنة لمناسبة ذكره في آخر السورة، فكأن سورة «الواقعة» من حيث ترتيبها بعكس سورة «الرحمن» ابتداء وانتهاء.

ولنشرع في التفسير اللفظي للقسم الثاني من السورة، فنقول ومن الله التوفيق:

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ إذا قامت القيامة، سميت واقعة لتحقق وقوعها ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي: نفس كاذبة، فهي حين تقع لا تكون نفس تكذب على الله فتنكره، ولا على القيامة فتنكرها، لأنها تحققتها بالوقوع والظهور والمعاينة والعذاب، فأما في الدنيا فما أكثر النفوس الكاذبة على الله بإنكاره وإنكارها لأنهم لم يعاينوا العذاب كما عاينه المعذبون، هي ﴿خَافِضَةٌ﴾ لقوم ﴿رَّافِعَةٌ﴾ لآخرين، وأيضاً تزيل الأجرام من أماكنها فتنخفض وترتفع، فإن الوقائع العظام هذا شأنها ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ يقول تعالى: هي خافضة رافعة وقت تحريك الأرض حركة شديدة وزلزلتها بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبل، وقوله: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ أي: صارت كثيباً مهيلاً وسيرت الجبال على وجه الأرض حتى ذهب بها، يقال: بسّ الغنم، إذا ساقها، ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ منتشراً ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أصنافاً ﴿ثَلَٰثَةً﴾ ومعلوم أن كل صنف يذكر أو يوجد مع صنف آخر يسمى زوجاً، كالعينين

والرجلين واليدين والنعلين، فكل منهما يسمى زوجاً، وهما معاً زوجان، فهاهنا أزواج ثلاثة لا زوجان ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾ أي: فأصحاب المنزلة السنية وأصحاب المنزلة الدنية، لأن العرب كانوا يتيمنون بالميامن ويتشاءمون بالشمائل ويصح أن يقال: أصحاب اليمن والشؤم، وقوله: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ﴾ الخ، أي: أيّ شيء هم! وهو تعجيب من حالهم في المقامين ارتفاعاً وانحطاطاً، وهو مبتدأ وخبر أخبر بهما عن المبتدأ الأول في المقامين، ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ مبتدأ، أي: السابقون إلى الخيرات في الدنيا خبره ﴿ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ إلى الجنات في الآخرة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أي: هم في جنات النعيم ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي: هم ثلة، والثلة: الأمة الكثيرة، أي: هم كثير من الأولين، يعني الأمم السالفة من آدم عليه السلام إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ أي: أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ولا ينافي هذا ما ورد: « إن أمتي يكثرون سائر الأمم »، فعسى أن يكون سابقو سائر الأمم أكثر من سابقي هذه الأمة، ويكون أتباع هذه الأمة أكثر، ويقول بعضهم: من الأولين متقدمي هذه الأمة، ومن الآخرين متأخريها، لما روي مرفوعاً أنهما من هذه الأمة، يقول الله: هم ثلة من الأولين وقليل من الآخرين كائنون ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ منسوجة بالذهب مشبكة بالدر والياقوت ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا ﴾ على السرر ﴿ مُتَقَٰبِلِينَ ﴾ لا ينظر بعضهم في قفا بعض، فهم حسنو العشرة في المجالسة، لا سيما إذا صاروا أرواحاً صافية، فهناك صفاء العيش، وذهاب الأخلاق المادية من كل ما يوجب الافتراق، أو غلبت الروحانية على الجسمانية ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ للخدمة ﴿ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ مبقون أبداً على هيئة الولدان وطراوتهم ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ ﴾ الأكواب: جمع كوب، وهي الأقداح المستديرة الأفواه لا آذان لها ولا عرى، والأباريق: جمع إبريق، وهي ذوات الخراطيم والعرى ﴿ وَكَأْسٍ ﴾ وقدح فيه شراب، فإن لم يكن فيه شراب فليس بكأس، ﴿ مِّن مَّعِينٍ ﴾ من خمر تجري من العيون ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ﴾ لا يفرقون بسببها كما يحصل في أهل الدنيا، أو لا يصدر صداعهم بسببها كما في خمر الدنيا فإنها تصدع وتحدث الافتراق حال السكر والعربدة ﴿ وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ ولا يسكرون، يقال: نزف الرجل ذهب عقله بالسكر، وقرئ بكسر الزاي، أي: لا ينفد شرابهم، يقال: أنزف القوم، إذا فني شرابهم، ﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ يأخذون خيره وأفضله ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ يتمنون ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ جمع حوراء عيناء، أي: ولهم حور عين، أي: بيض ضخام العيون، أو معطوف على « ولدان » أي: يطوف عليهم ولدان وحور ﴿ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾ المصون عما يضر به في الصفاء والنقاء، يفعل ذلك كله بهم ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي: بأعمالهم ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ﴾ باطلاً ﴿ وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ ولا نسبة إلى الإثم. أي: لا يقال لهم: أثمتم، ﴿ إِلَّا قِيلًا ﴾ أي: إلا قولاً، ثم أبدل منه: ﴿ سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ أي: إلا قولاً ذا سلامة، وهذا استثناء منقطع، أو سلاماً مفعول بـ« قيلاً »، أي: لا يسمعون فيها إلا أن يقولوا: سلاماً سلاماً، أي: يفشون السلام بينهم فيسلمون سلاماً بعد سلام، ويسلم الله عليهم، والملائكة، فهم آمنون من المكروه أبد، بخلاف أهل الدنيا إذ لا سلام في الأرض، فالأمم في حرب ومكر دائماً، والأفراد يتعادون، والله من فوقهم يرسل عليهم صواعق

وأنواعاً من المكروه، أما في الجنة فهذا كله لا وجود له، فهم متحابون، والله لا يرسل عليهم من المكروه ما نراه الآن في الدنيا. ﴿ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ السدر: شجر النبق، والمخضود: الذي لا شوك له كأنما خضد شوكه ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ الطلح: شجر الموز، والمنضود الذي نضد بالحمل من أسفله إلى أعلاه، فليست له ساق بارزة ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ منبسط ممتد لا يتقلص ولا يتفاوت، فهو أشبه بظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس، ﴿ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ مصبوب يسكب لهم كما يشاؤون بلا تعب ولا نصب، فهاهنا أصحاب اليمين ونعيمهم التام هو أكمل ما يتصور لأهل البوادي، ونعيم السابقين في تمامه أشبه بأكمل ما يتصور لأهل المدن، وذلك ليظهر التفاوت بين المقامين بما نراه نحن الآن في أهل الدنيا. قال تعالى: ﴿ وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾ كثيرة الأجناس ﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ ﴾ لا تنقطع في وقت ﴿ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ ولا تمنع ممن يتناولها، ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ أي: نساء مرتفعة على الأرائك ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً ﴾ أي: ابتدأناهن ابتداء جديداً من غير ولادة، وورد في الحديث: «هن اللواتي قبضن في دار الدنيا عجائز شمطاً رمصاً جعلهن الله بعد الكبر أتراباً على ميلاد واحد كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً»، ﴿ فَجَعَلْنَـٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴾ عذارى ﴿ عُرُبًا ﴾ جمع عروب، وهي المتحببة إلى زوجها الحسنة التبعل ﴿ أَتْرَابًا ﴾ مستويات في السن بنات ثلاث وثلاثين سنة وأزواجهن كذلك، فهؤلاء أنشأناهن ﴿ لِّأَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴾ أي: هم ثلة من المؤمنين الذين هم قبل هذه الأمة، وثلة من الآخرين. وهم مؤمنو هذه الأمة.

﴿ وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴾ في حر نار ينفذ في المسام، وماء متناه في الحرارة، ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ من دخان أسود في جهنم ﴿ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ أي: لا بارد الهواء ولا كريم المنظر، فإن فائدة الظل أمران: دفع الحر وحسن المنظر، وهذا الظل من دخان حار أسود، فلا يأوي من أذى الحر ولا يسر النظر، ثم بين سبب ذلك فقال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ ﴾ في الدنيا ﴿ مُتْرَفِينَ ﴾ منعمين فشغلهم ذلك التنعم عن الاعتبار والادكار، كما في آية أخرى: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾[الأحقاف: ٢٠]، وهذه قاعدة عامة في المتنعمين من المؤمنين والكافرين، فالتنعم يصد الإنسان عن تهذيب نفسه، بل إن عاقبة التنعم في هذه الدنيا الفقر والذلة كما يفعل بعض المسلمين، إذ يتقربون من الفرنجة ويحاربون إخوانهم المسلمين طلباً لحطام الدنيا، كما نسمع اليوم في بعض بلاد الإسلام ذلك لأجل التنعم، فهؤلاء جزاؤهم يبتدئ في هذه الدنيا فيصيرون أذلاء هم وأعقابهم، وهكذا المسرفون لأجل النعمة يصبحون أذلاء، ثم قال تعالى: ﴿ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي: الذنب العظيم، وهو الشرك، ومن هذا القبيل بلغ الغلام الحنث، أي: الحلم، وهو وقت المؤاخذة بالذنب، ﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ كررت الهمزة للدلالة على أن البعث يكون إنكاره أشد إذا كنا تراباً وعظاماً، ويكون أكثر شدة إذا تعلق بالآباء الأولين لتقادم عهدهم، ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ أي: إنهم يجتمعون ويحشرون ليوم الحساب ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴾ بالبعث، والخطاب لأهل مكة ومن نحا نحوهم،

﴿ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴾ « من » الثانية للبيان، والأولى للابتداء، ﴿ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴾ لشدة الجوع، وشجرة الزقوم تنبت في أصل الجحيم، ﴿ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴾ لغلبة العطش ﴿ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴾ أي: الإبل التي أصابها الهيام، وهو داء يشبه الاستسقاء، جمع أهيم وهيماء كأحمر وحمراء، ﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ أي: ما ذكر من الزقوم والحميم ما أعد لإكرامهم، وهذا قول عمرو بن كلثوم:

قريناكم فجعلنا قراكم قبيل الصبح مرداة طحونا

يكون ثفالها شرقي نجد ولهوتها قضاة أجمعينا

يقول: قريناكم وقت الفجر بصخرة تطحنكم، أي: حاربناكم فغلبناكم، وهذا هو إكرامكم باعتباركم جئتم ضيوفاً في ديارنا، هكذا هنا أكرم الله هؤلاء بالزقوم والحميم. انتهى التفسير اللفظي للقسم الثاني من السورة، والحمد لله رب العالمين.

القسم الثالث: في ذكر العجائب الكونية والاستدلال بها على وجود الخالق سبحانه وتعالى وقدرته

قال تعالى: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ أي: فهلا تصدقون بالبعث؟ ومن قدر على الابتداء يقدر على الإعادة، ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴾ ما تصبون في الأرحام من النطف ﴿ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ ﴾ تقدرونه وتصورونه وتجعلونه بشراً سوياً، ﴿ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ ﴾ أي: جعلناكم في الموت سواء شريفكم ووضيعكم، ويكون « قدر » بمعنى قضى، أو قسمناه عليكم قسمة الأرزاق على اختلاف وتفاوت، فاختلفت أعماركم من يوم إلى سنة إلى مائة أو أكثر أو أقل، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ ﴾ وما نحن بعاجزين عن أن نأتي بخلق مثلكم بدلاً منكم في أسرع حين، ﴿ وَنُنشِئَكُمْ ﴾ ونخلقكم ﴿ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي: ننشئكم النشأة الثانية في وقت لا تعلمونه ولا تعلمون كيفيته كما علمتم النشأة الأولى من جهة التناسل. والقصد التحريض على العمل الصالح، فإن التبديل والإنشاء أولهما بالموت، وثانيهما بالبعث، وكلاهما لا يعلم وقته، فلا الموت معلوم ولا البعث وقته محدد، فليتخذ الإنسان عدته قبل الفوت، ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ الخلقة الأولى ولم تكونوا شيئاً مذكوراً ﴿ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أن من قدر عليها قدر على النشأة الأخرى، ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ أي: ما تثيرون من الأرض وتلقون فيه البذر ﴿ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ ﴾ تنبتونه ﴿ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ المنبتون ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا ﴾ هشيماً ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ تتعجبون مما نزل في زرعكم، أو تندمون على اجتهادكم فيه، وقرئ « فظللتم » على الأصل وتقولون: ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ والغرم: ذهاب المال بغير عوض ﴿ بَلْ نَحْنُ ﴾ قوم ﴿ مَحْرُومُونَ ﴾ حرمنا رزقنا، إذ حرمنا الذي كنا نطلبه من الريع في الزرع، ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ ﴾ المزن: السحاب، واحده مزنة، أو المزن: السحاب الأبيض وماؤه أعذب، ﴿ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴾ بقدرتنا، والرؤية هي بمعنى العلم قد علقت عن العمل بالاستفهام، ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا ﴾ ملحاً أو مراً لا يقدر على شربه ﴿ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ فهلا تشكرون أمثال هذه

النعم ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴾ تقدحون من الزند، يعني التي تقدح منها النار، كما تقدم في سورة «يس» وهما شجرتان رطبتان: المرخ والعفار، فأحدهما يعتبر زنداً، والثاني يعتبر زندة، والماء يقطر منهما، والنار عند القدح تخرج بينهما، وليست النار خاصة بهما بل هما ممتازتان، فقد قالوا: في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار. ﴿ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴾ الشجرة التي منها الزناد، أو نار الدنيا فإنها تذكره بنار جهنم. عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم»، وقد مضى أن هذا يوافق الكشف الحديث في سورة «آل عمران» محققاً هناك. ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا ﴾ جعلنا نار الزناد ﴿ تَذْكِرَةً ﴾ تبصرة في أمر البعث وفي الظلام ونموذجاً لنار جهنم ﴿ وَمَتَـٰعًا ﴾ ومنفعة ﴿ لِّلْمُقْوِينَ ﴾ الذين ينزلون القواء وهو القفر، أو للذين خلت بطونهم أو مزاودهم من الطعام، يقال: أقوت الدار، إذا خلت من ساكنها، فهؤلاء المقوون جعلت النار لهم لإنضاج طعامهم فيصلح لأكلهم، ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي: قل سبحان ربي العظيم، ولما نزل قال صلى الله عليه وسلم: «اجعلوها في ركوعكم» ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ ﴾ يقول تعالى: أنا لا أقسم لأن الأمر واضح فلا حاجة للقسم، أو فأقسم و«لا» مزيدة للتأكيد، وكلا الوجهين دال على شرف النجوم ومواقع النجوم، وأن الناس ينبغي أن يفكروا فيها ويعتبروا بها، وقوله: ﴿ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ أي: بمساقطها في مغاربها أو منازلها. ولما كان أمر النجوم في مواقعها عظيماً شأنه أعقب ما تقدم بجملة معترضة بين القسم والمقسم به إشعاراً بعظمتها وآثارها النافعة، فقال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾، وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ حسن مرضي نفاع جم المنافع، ﴿ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ الكتاب: اللوح المحفوظ، والمكنون: المصون فلا يطلع عليه إلا المقربون، فقوله: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ بيان لكونه مكنوناً فلا يطلع على اللوح المحفوظ إلا المطهرون من المادة التي تعوق عن إدراك الحقائق، ولا يكون ذلك إلا في الملائكة، وإن جعل الكتاب هو القرآن كانت صيانته ألا يأتيه الباطل ولا يطلبه إلا المطهرون من الكفر، وقوله: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أي: منزل منه وهو صفة رابعة للقرآن ﴿ أَفَبِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ ﴾ القرآن ﴿ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴾ متهاونون، يقال: أدهن في الأمر، ألان جانبه فيه ولم يتصلب تهاوناً به ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ أي: شكر رزقكم ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ بمن منحه، فتنسبون الرزق للأنواء فتقولوا: مطرنا بنوء كذا، أو تجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون، ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ لولا: للتحضيض في الآيتين، والفعل الذي يستلزمه للتحضيض هو «ترجعونها»، و«لولا» الثانية مكررة للأولى للتأكيد، ومدينين: مجزيين يوم القيامة، أو مملوكين مقهورين، يقال: دانه، إذا أذله واستعبده، يقول الله لأهل الميت: هلا ترجعون نفس ميتكم إذا بلغت الحلقوم وهو يعالج سكرات الموت إن كنتم غير مملوكين؟ والحال أننا نحن أقرب إليه منكم بقدرتنا وعلمنا وبملائكتنا، وأنتم تنظرون إلى المحتضر ولكن لا تعلمون ذلك، أو لا تبصرون الذين حضروه من الملائكة، والمعنى أنكم أيها الناس شأنكم عجب! جحدتم آيات الله، وكذبتم رسله، وكتابه، وقلتم: هو سحر وافتراء،

وجعلتم رزقكم من الأنواء، فملخص حالكم أنه خالق ولا رازق، وإذا كان الفعل لا بد له من فاعل؛ وقد نفيتم الله وكذبتم رسله؛ فإذن الفاعل لهذا كله أنتم، لأن الخالق إما الله وإما أنتم، فإذا نفيتم الله فأنتم الخالقون، إذن فلمَ لا ترجعون الروح لميتكم وهو يعالج سكرات الموت؟ فإن كنتم صادقين فارجعوها! الحق أنكم لا تعقلون بالبرهان، فلما لم تروا الفاعل كذبتم به، وهذه صفة الحيوان والجهال، إذ للدليل علوم، فليس عدم رؤية الشيء دليلاً على عدمه.

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ المتوفى ﴿مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوۡحٞ﴾ فله استراحة وفرح ورحمة ﴿وَرَيۡحَانٞ﴾ ورزق طيب ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٖ﴾ ذات تنعم، ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٞ لَّكَ﴾ يا صاحب اليمين ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي: من إخوانك يسلمون عليك، أي: فيقال له ذلك، أو: فسلام لك يا محمد، أي: سلامة منهم، أي: فلا تهتم لهم، فإنهم سلموا من عذاب الله.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ بالبعث ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ عن الهدى وهم أصحاب الشمال ﴿فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ۝٩٣ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ إذ يجد في القبر سموم النار ودخانها، وهو الذي جعل نزلاً لمقدمه كما يجعل للضيف، كما تقدم على سبيل الإهانة، والتصلية: الإدخال. ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي ذكر في السورة ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ أي: حق الخبر اليقين الذي لا شك فيه ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي: فنزه ربك العظيم عن كل ما لا يليق به، أو فصل بذكر ربك العظيم وبأمره، وكان صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه: سبحان ربي العظيم، وفي سجوده: سبحان ربي الأعلى. انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة، والحمد لله رب العالمين.

لطائف هذه السورة: في هذه السورة لطيفتان:

اللطيفة الأولى: في آية: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ۝٤٥﴾، وهي رسالة أرسلتها إلى بلاد المغرب الأقصى يوم الأربعاء ٢٣ مارس سنة ١٩٣٢م ثم نشرت هناك.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾.

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى:

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ۝٤٥﴾

تحذير المسلمين من الخطر فيما يشربون

أيها المسلمون، أحذركم من كل ما يعطيكم لذة وقتية، ويعقبه انحلال في القوى وضرر عظيم. أيها المسلمون، أنا لا أقول لكم: دعوا الخمر فإنها محرمة، فإنكم بذلك عالمون، ولكني أقول لكم فوق ذلك: إنها جعلت فخاً لاصطياد أمم الإسلام وإهلاكهم وإذلالهم وإنهاك قواهم، فيصبحون صرعى الأوهام في ديارهم خامدين.

أنا لا أقول لكم: إن أمريكا المسيحية حرمت الخمر حفظاً لأهل بلادها من عاديات الدهر ومصائب المرض وخلل العقول وضعف الأجسام. أنا لا أقول ذلك لكم لأنكم به عالمون، فإذا كنتم تعلمون ذلك فاعلموا أنكم أولى بذلك المنع، لأنكم أولاً مسلمون، ولأن كثيراً منكم تحت دول مستعمرة تنتهز الفرص لإذلال المحكومين.

وهل أتاكم نبأ أهل الأندلس قديماً؟ وقد يئس بابا روما ودوق فينيزيا وبارونات أوروبا من إخضاع الأمة العربية إذ ذاك، وكيف أشار عليهم «براق بن عمار» بأن يعقدوا معاهدة لحرية التجارة والتعليم والدين حتى يتاح لشبانهم شرب الخمر والتمتع بلذات الحياة، فتقل الحمية والنخوة والمروءة، وبذلك يخضعون ثم يطردون، وما وصلت تلك المعاهدة إلى مالك بن عباد بقرطبة وقد فرغ من تحصين مدائنه وقلاعه حتى أرسلها للأمراء فأقروها ولم يكد يجف مدادها حتى أسسوا أربع مدارس كبرى على نفقة دوق فينيزيا وصار عدد المبشرين بالأندلس ألفاً، وعدد المعلمين بالمدارس التي أنفق عليها البابا ٤٥ وأنفق البابا من خزائنه لترويج الخمر خمسمائة ألف «فلورين»، راجع كتاب «غادة الأندلس»:

(١) هنالك شرب الشبان الخمر جهاراً نهاراً.

(٢) وخلعوا رداء الحياء والحشمة.

(٣) وحقروا عوائد آبائهم ودولهم.

(٤) ولبسوا الحرير ونبذوا الصوف والشعر.

(٥) وأهملت تعاليم البلاد.

وكانت نتيجة ذلك ما تعرفون أيها الشبان مما فعله فرديناند وزوجته إيزابيلا، وهو طرد العرب من تلك البلاد أجمعين أكتعين أبصعين.

أيها المسلمون، حذار أن تظنوا أن الرواية تمت فصولها، إن للرواية فصولاً، أتحبون أن أحدثكم بشأنها؟ اصغوا إلي واسمعوا، تعلمون في بعض الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم أنذر المسلمين وحذرهم من المسيح الدجال، وجاء فيها أن معه جنة ومعه ناراً، وأن من اغتر بجنته دخل النار، ومن اصطلى بناره دخل الجنة، وأنا أقول رافعاً صوتي لكم: أيها المسلمون الفضلاء، إن هذه الروايات لها آثار في زماننا وأسرار في أحوالنا الحاضرة، وذلك أن كل أمة فعلت في المسلمين ما فعله بابا روما ودوق فينيزيا وبارونات أوروبا من بث الفجور والفسق والخلاعة بين المسلمين لإذلالهم وإضعافهم، فهو من أنصار ومن أصحاب ومن أشباه المسيح الدجال، فهو يعطينا الخمر ليسكرنا ثم يدخلنا تحت سيطرته فنصطلي ناره، نعم. هذه الأمم ليست هي نفس المسيح الدجال، ولكن الفعل هو نفس الفعل، فكل من أظهر لنا المودة وأراد إذلالنا فهو لا يشبه المسيح الصادق، بل هو المسيح الكذاب الدجال.

فلتحترسوا أيها المسلمون من كل مطعم أو مشرب أو ملبس يغركم ببهجته ولذته تكون عاقبته الدمار والهلاك والعار والبوار.

ليس مما يؤلم النفوس أن تقرأ في التاريخ المتقدم أن قسيساً اشترى عنب قرطبة كله وعصره عنباً وقال: لا أعطيه إلا لأحبائي الشبان المسلمين، فخدع الأمة، وأهل البلاد غافلون نائمون لا يعقلون ولا يفهمون، فطاحوا أجمعين.

أوَليس من العجب أن تقرأ في كتاب «الكونت هنري دي كاستري» الضابط العظيم الفرنسي في بلاد الجزائر المسمى «خواطر وسوانح في الإسلام» ما نصه بالحرف الواحد في النسخة المترجمة صفحة ١١١: أما انقراض الأهالي شيئاً فشيئاً كلما دخل التمدن الأوروبي بلادهم «الجزائر» فنحن

لا نصدقه إلا قليلاً، لأن احتكاكهم بالمتمدنين ربما قلل من وسائل العيش لديهم، ولكنه لا يؤثر في وجودهم، بل هم لا يزالون يتناسلون أكثر من الأوروبيين، ونضيف على ذلك أن المسكرات التي استعملها الأوروبيون للتعجيل على وجود بعض الأمم المغايرة لهم لا تؤثر على أهالي الجزائر لكونهم يمقتونها مقتاً شديداً. انتهى بالحرف الواحد.

أيعجبكم هذا أيها المسلمون؟ أيعجبكم أن تكون الدروس بالأندلس لا تزال تتلى إلى اليوم، وأن الخمر ونشرها في البلاد يراد بها القضاء على أبنائكم وخراب البلاد، أفليس هذا كلام رجل من أعاظم الفرنسيين يقول لقومه: الخمر والنعيم لم يقللا نسل المسلمين فلننتظر طريقاً آخر للعيش معهم. أليس الدرس مستمراً ورواية الأندلس تمثل والمسلمون نائمون هائمون، أتدرون ماذا حصل بعد ذلك أيها المسلمون؟ لعبت الدول المستعمرة دور آخر في إبادة المسلمين، وعرفوا أن الخمرة إذا نجحت في بلاد لا تبالي بالعقل ولا بالدين فإنها لا تؤثر في الأمم التي لا تزال ذات مجد أثيل، وشرف وفضل مبين كالمراكشيين.

ماذا دهى إخواننا المراكشيين؟ انتشر الشاي بينهم، والشاي لا بد معه من السكر، والسكر يباع بأغلى الأثمان.

رحماك اللهم. رحماك اللهم. إن أمر الشاي أشد خطراً، وأبعد أثراً، لأن الشاي لا تظن فيه الظنون ولم تذمه الديانات ولا الشرائع ولا القوانين.

أيها المسلمون، هل تسمعون ما أقول لكم، وا حسرتاه قد قرأت في كتاب اسمه «كتاب اليد في الصحة والعلاج» للأستاذ «كيلوج» الأمريكي الذي نشره قبل تحريم الخمر بعشرين سنة، فرأيته رتب المضار أربع رتب: الخمر، ثم الدخان والشاي. ثم القهوة، ثم الكاكاو، فجعل الخمر أشد ضرراً، ويليها الدخان والشاي وأتى ببراهين كثيرة. وأتذكر منها أنهم أتوا بورق الشاي فأكله حصان فمات، فعدوه إذن سماً بطيئاً، وهناك تجارب لا محل لذكرها الآن، وإنّما الذي أريد أن أقوله الآن: إن السكر الذي يشرب مع الشاي قد عدوه من الأغذية المميتة، إن أكل الفواكه وما فيها من السكر الطبيعي نافع وجيد للصحة، ولكن السكر الصناعي مفسد للأجسام ومنهكها، وإن كان في أول الأمر يعطي قوة، وتظهر الصحة على وجوه الشيوخ والشبان والأطفال، أنا لست طبيباً فعليّ أن أنقل لكم من كلام أطباء أوروبا ما به تقتنعون.

جاء في كتاب «دستور التغذية» لصديقنا الأستاذ محمد فريد وجدي صفحة ٢٦ ما نصه: قال الدكتور «جاستون دورفيل»: إذا كان الإفراط في الأكل من الأخطار الكبيرة فإن تناول الأغذية المركزة كالسكر واللحم بقصد التقوي، أو تحسين التغذي؛ أشد خطراً على الصحة.

نعم إن تلك الأغذية القوية توجد لنا قوة فنحس بسعادة جسمية ولكنها سعادة وقتية، إذ تنقلب إلى ضعف وانحطاط، فهذه الأغذية التي يخيل للناس أنها مقوية هي كضربة سوط تنزل على الحصان المعيي فتجعله يجري قليلاً ثم ينحط انحطاطاً لا قيام له منه، فمن من الناس ضحايا هذا القرن الذي يقال إنه قرن النور لم يتناول الأغذية المركزة، وهاهنا عدد أصنافاً وذكر منها السكريات والشوكولاتات

والحلاوات المشبعة بالسكر والكحول، فإن هذه المواد مهما كان مقدارها صغيراً فإنها تتجه إلى خلايانا مجتمعة فتحدث اضطراباً، وهذا الاضطراب نتوهم أنه قوة بدنية، ولكنه ليس في الحقيقة إلا خطوة نحو الصدمة الأبدية. انتهى ملخصاً.

وجاء فيه بعد ذلك ما نصه: وقال الدكتور «جاستون دورفيل» أيضاً: السكر أحد الأغذية المهلكة لأجسادنا، فالتناول منه كعادة معاصرينا من أربع قطع إلى ست قطع فوق الغذاء المفرط ينتج أمراضاً مميتة. لقد كان آباؤنا يجهلون السكر الصناعي، وكانوا أبطأ منا انحطاطاً في قواهم، والأرق الذي يكثر فينا الآن إنّما هو من السكر المعروف، إن السكر إنّما ينفع بهيئة علاج، فهو دواء، والدواء إذا استعمل شراباً أو غذاء عادياً كان من المهلكات، فهو نافع إذا وصف للدواء، ضار إذا تعاطيناه في أكثر الأوقات كالطعام والشراب، ومن أراد السكر فليأكل الفاكهة ففيها سكر طبيعي وهو غذاء نافع، إن السكر الصناعي مهلك الأبدان. انتهى باختصار.

الشاي الذي مع السكر: فلننظر في هذا الشاي الذي يشربه الناس مع السكر، قد قدمنا أنه من المواد التي تلي الخمر في إهلاك الأمم، وأزيد عليه الآن أن الشاي يضاف إليه ماء مشبع بالأفيون، ومتى شرب الإنسان منه فإنه يتعود عليه فلا يأتي موعده إلا وقد انحطت القوى فلا يفيق إلا بشربه. إذن في الشاي الذي يشرب في أكثر بلاد الإسلام ثلاث مضار: نفس الشاي بنص علماء الطب، والأفيون المضاف إليه، والسكر الصناعي الذي صاحبه:

ولو كان سهماً واحداً لاتقيته ... ولكنه سهم وثان وثالث

أيها المسلمون عموماً، وأهل شمال أفريقيا خصوصاً، ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾[عبس: ١٧] ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[إبراهيم: ٣٤]، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[الأحزاب: ٧٢].

الإنسان اليوم كثير الدهاء، كثير المكر، عرفت أوروبا أن الخمرة لا يتعاطاها الصالحون من المسلمين فماذا تصنع أوروبا؟ تجلب الشاي، وهل جلبه إلا التجار، هذا أمر سهل، ولكن السم في الدسم والسكر بحسب الظاهر لا ضرر فيه، فانظروا كيف أصبح الناس مستعبدين بسبب الشاي والسكر أشد من استعبادهم بالخمر. يؤلف العلماء في أوروبا كتباً في ضرر أغذية ثلاثة مميتة ويعدون منها السكر وأهل الإسلام نائمون. لا، لا أيها المسلمون، من تمكنت عادة الشاي ومعه السكر منه فليعلم أن الأفيون معهما، وأنه أصبح فريسة، فيا أيها الشاربون للشاي في مراكش، يا من حكم عليكم أن تكونوا شاربين صباحاً ومساء اتقوا الله في أبنائكم وبناتكم، حذروهم، بل اشربوا سراً ولا تعطوهم جرعة واحدة، ولست أقول لكم اتركوه لأن الذي يتركه منكم أصحاب النفوس الكبيرة أهل العزائم والهمم والمجاهدات. هذه نصيحتي لأهل مراكش خاصة، والمسلمين عامة، أحذركم فتنة أصابت البلاد والعباد، الله أكبر، استقلال الأمم يكون بعد الامتحان، والله قد امتحنكم أيها المسلمون بالملابس الفرنجية، والخمور والشاي والسكر، وجعلكم لهذين مستعبدين، فإذا قلتم الاستقلال الشخصي بلبس الملابس الوطنية ونبذ المهيجات من الخمر والشاي المثلث المضار؛ فأنتم إذن أهل للاستقلال السياسي، لا استقلال لأمة إلا باستقلال أفرادها من الملاذ الفردية.

يا من تشربون الخمور وتكرعون الشاي والسكر معها، أنتم مقيدون بقيود من حديد أذلاء، فتخلصوا من هذه القيود الفردية تنحل عنكم الروابط الاجتماعية، وتصبحوا سادة في بلادكم، أحراراً في دياركم، سعداء في أوطانكم ويخرج إذ ذاك المستعمرون.

أين عزائمكم؟ أين مجدكم القديم؟ أين نخوتكم العربية؟ أين ملككم العظيم؟ أعدكم بهذا كله بعد أن تذروا ما حذرتكم، فقد حذرت وأنذرت وبرهنت لكم وأنتم أهل لما أقول، وستعملون به وأنتم به موقنون. وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الأولى في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾[الواقعة: ٤٥]، وهي الرسالة التي أرسلتها إلى بلاد مراكش في التاريخ المذكور ونشرت هناك، والحمد لله رب العالمين. كتب في صباح الأربعاء ٢٣ مارس سنة ١٩٣٢م بحي السيدة زينب.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾

نذكر في هذه اللطيفة ما جاء في جريدة الأهرام مناسباً لهذه الآية بتاريخ ٣ ديسمبر سنة ١٩٣٠م تحت العنوان الآتي، وهذا نصه:

الخلود وطول العمر

حوادث مدهشة عن طول الأعمار

يفكر الفلاسفة قديماً وحديثاً في حياة الإنسان من جهة إمكان إطالة العمر عن المتوسط المعروف أو إلى أن يكون المتوسط مائة أو مائة وخمسين أو مائتين، ومن جهة ما إذا كان ممكناً أن يعمر الإنسان إلى الخلود.

ظهر مؤلف حديث للمسيو جورج لاكورسكي بعنوان «العلم والسعادة»، وله قبل ذلك مؤلفان أحدهما باسم «أصل الحياة» والثاني باسم «سر الحياة».

في كتاب «العلم والسعادة» يعرض مسيو لاكورسكي لمسألة طول العمر والخلود. أشار المؤلف إلى كتاب لمسيو خان فينو الفيلسوف باسم «فلسفة طول العمر»، وقال: إن هذا الفيلسوف يطلعنا على أن الأمثلة النادرة جداً التي يعرفها الناس بشأن طوال الأعمار ليست ندرتها بالدرجة التي يتصورونها، فمن الأسف أن الإحصاءات الصحيحة الدقيقة لم تكن إلا قريبة العهد، ومن المستحيل علينا مثلاً أن نعتمد على سجل المواليد عن ٩٦٩ سنة عاشها «ماتوسالم» أو الـ ٨٠٢ التي زعم أن ملك جزيرة «لوكمبانز» قد عاشها، والتي تكلم عنها «بلين» و«فلير ماكسيم» وقد ذكر «استرابون» أن بين سكان بنجاب أفراد قد عاشوا ٢٠٠ سنة.

وقال «بلين»: إنه في عهد فيسباسيان عمل إحصاء ظهر فيه أن عدد سكان بلاد المغول سيرالبين ٣ ملايين نفس كان فيه ١٧٠ شخصاً يبلغ عمر كل منهم أكثر من ١٠٠ سنة، أي: بنسبة واحد من ذوي الأكثر من المائة إلى كل ٢٠ ألف من السكان.

ويقول «بلين»: إن ماركوس أبونيوس عاش أكثر من ١٥٠ سنة، ويقول لوسيان: إن تريسياس عاش ستة قرون، وإن سكان جبل آتوس كان يعيش الواحد منهم ١٣٠ سنة.

وقال السكندر كورنيليوس: إن أحد الالليريين عاش ٥٠٠ سنة واسمه دودون.

وقال انكربون : إن « سنجرين » ملك قبرص عاش ١٦٠ سنة . وفي حياة القديسين عاش القديس سيمون ١٠٧ سنوات ، والقديس تاكريس ١٦٥ سنة ، والقديس انطوان ١٠٥ سنوات ، والبوما مطران الحبشة ١٥٠ سنة .

ويقول « هالار » في كتابه « العناصر الطبيعية » : إن الإنسان من الحيوانات التي تعيش زماناً طويلاً . ويظهر أن الحد الطبيعي لوجوده حياً هو ٢٠٠ سنة ، ويقول بأن اثنين من المعمرين مات كل منهما بحادثة : الأول : توماس بار وعمره ١٥٢ سنة ، وقد مات أثر عسر هضم بعد غذاء حفلة أقامها ملك إنكلترا تكريماً له ، وأن الثاني توفي متأثراً ببرودة شديدة ، وكان للأول عند وفاته ابن عمره ١٠٢ سنة ، وللثاني ولد عمره ١٤٠ سنة .

وظهر من إحصاء ١٨٩٧ في بونس إيرس أن عبداً اسمه برنو كوتريم جاوز عمره ١٥٠ سنة . وفي سربيا بلغ عمر ثلاثة من المعمرين ما يأتي : الأول : ١٣٥ سنة ، والثاني : ١٢٥سنة ، والثالث : ٢٩٠ سنة .

وبلغ في الولايات المتحدة عدد المعمرين الذين جاوزوا المائة سنة في سنة ١٨٩٠م ٣٨٩١ ، وفي لندن ٢١ شخصاً . وفي روسيا يبلغ عدد المعمرين الذين جاوزوا المائة سنة كثيراً ، ويدل إحصاء ليفونيا على أن معمراً يبلغ عمره ١٦٨ سنة ، ومات في سنة ١٣٤٦ رجل في لوسرن يبلغ عمره ١٨٦سنة ، ومات زارع إيقاسي عندما بلغ عمره ١٨٥ سنة .

وما زال يعيش في مصر معمر عمره ١٥٤ سنة ، وما زال يذكر عمله القنصلي في عهد نابليون ، وفي تركيا كان يوجد رجل عمره ١٥٦ سنة اسمه زارو ، وقد أرسل إلى أمريكا ليكون مثالاً على فوائد منع المسكرات وقد مات أخيراً ، وقد شوهدت صورته في الأفلام السينماتوغرافية وصوره الشمسية ، وقد أعجبت بها ، إذ الناظر إليه لا يقدر للرجل من العمر أكثر من سبعين سنة إذا نظر إلى مشيته .

لكثرة المعمرين في الدنيا وضع بعض العلماء قوانين عامة ، ومنذ القرن التاسع عشر عملت إحصاءات كثيرة بواسطة الذين يشتغلون لمصلحة شركات التأمين ، إذ هي تبين العمر والسنة وعدد المعمرين في جهات مختلفة من أوروبا أو الولايات المتحدة .

ومما يلفت النظر أنه في الإحصاءات الصادرة ببيان المعمرين الذين وصلوا أو جاوزوا المائة سنة لا تظهر السيدات ، ذلك لأنهن يضعفن بالأمراض المختلفة ، وأن جميع القوى العقلية والحسية تضعف مرة واحدة عندهن .

فقد ظهر أن الرجال المعمرين إلى ما فوق المائة سنة عندما مروا بسن الشيخوخة فقدوا بعض خاصياتهم ، ولكن بعد ذلك تجددت لهم قوى شباب جديدة .

ويقول « هالار وبلادين » وأطباء آخرون : إنهم لاحظوا ظهور أسنان جديدة ابتداء من ٨٠ سنة ، ويذكر الدكتور جراف أنه شاهد أن امرأة عجوزاً صار شعرها أبيض اللون من المشيب عندما كان عمرها ١١٠ سنين ، ولكن بعد هذا التاريخ عاد إليها لونها الأول ، وآخرون تجددت أسنانهم عند سن ٩٠ و١٠٧ سنين ، ومما يذكر أن القوى العقلية والبدنية عند المعمرين سليمة جداً .

لقد اختلفت في تعليل طول العمر عند المعمرين، ويمكن القول إجمالاً بأن الحياة الهادئة التي يعيشها المعمر؛ وفراغ قلبه من الحسد والبغض والهموم واللؤم والغيرة والطمع؛ من أسباب إطالة العمر، والمعمرون هم الذين يحفظون النسبة بين قواهم العقلية وقواهم البدنية طول حياتهم.

وعند الباحثين في أمر إطالة العمر يبحث الوسائل التي تؤدي إليها من رياضة وامتناع عن المسكرات، وحياة هادئة، لا تغمرها المطامع، ولا تحفها الشهوات والأحقاد، ولا يخالجها اليأس، إن الوصول إلى إطالة العمر، أو رفع نسبة أعمار الأحياء هو خطوة أولى ولازمة في سبيل تحقيق الخلود، فهل الخلود ممكن للإنسان؟.

هذا ما جاء في جريدة الأهرام في التاريخ المذكور.

وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثانية في قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ ﴾[الواقعة: ٦٠] والحمد لله رب العالمين.

انتهى تفسير سورة «الواقعة».



تفسير سورة « الحديد »

هي مدنية

آياتها ٢٩، نزلت بعد « الزلزلة »

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ

مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ
ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ
قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ
ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ
لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ
رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾
ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ
كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ
شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن
رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ
يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ
إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا
تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ
بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ
ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ
ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى
ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم
بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً
وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ
فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ
بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

هذه السورة أربعة أقسام:

القسم الأول: في تفسير البسملة.

القسم الثاني: في صفات الله، وأسمائه الحسنى، وظهور آثاره في بدائع مخلوقاته، من أول السورة إلى قوله: ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦ ﴾.

القسم الثالث: في الحض على الإنفاق، من قوله تعالى: ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١١ ﴾.

القسم الرابع: في عشر جواهر: (١) بشرى المؤمنين بالنور يوم القيامة. (٢) وحث لهم على الجد وذكر الله. (٣) وثواب المنفقين. (٤) وذم الدنيا. (٥) والترغيب في الآخرة. (٦) والتسلية على المصائب. (٧) وذم البخل. (٨) والحث على العدل. (٩) والاعتبار بالأمم السابقة. (١٠) والأعمال التي توجب النور المتقدم ذكره، وذلك من قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٢ ﴾ إلى آخر السورة.

القسم الأول: في تفسير البسملة

تجلت رحمة الله في عالمنا هذا، وما عالمنا هذا المادي، أليس عالمنا عدمياً؟ وكيف لا يكون عدمياً وما هو إلا حركات في عالم سموه الأثير، وما الأثير إلا عالم أشبه بخيالنا نحن، عالمنا حركات في خيال الفضاء، وهذه الحركات المذكورات هي التي أجمع عليها علماء زماننا شرقاً وغرباً في مدارسهم وشرحناها في سور كثيرة في هذا التفسير لا سيما في سورة «النور عند الآية ٣٥»: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾، وأثبتنا هناك أن الحديد والصلب والهواء والماء والضوء جميعها حركات، والاختلاف بينها لن يكون إلا بعدد الحركات، فإن كان عددها نحو ٦ آلاف مليون مليون في الثانية فهي المواد التي نحس بها بحاسة اللمس والشم والذوق من طعام وشراب وفاكهة وما حولها، وإن كانت أقل من ذلك فنقصت عن هذا العدد فكانت من نحو ٤٠٠ مليون مليون في الثانية إلى نحو ٧٠٠ مليون في الثانية فهي الأضواء كضوء الشمس، فالأحمر ذو العدد الأقل، والبنفسجي ذو العدد الأكبر، وبقية الألوان بينهما كالأخضر والأصفر والبرتقالي والنيلي والأزرق.

هذا القول وأمثاله مشروح في هذا التفسير كثيراً، ولكن المقصود الآن التعجب من هذا العالم، فما هو إلا مشبه عدم، هو خيال، وهذا الخيال فيه حركات، وهذه الحركات أشبه بحركات أفكارنا في خيالنا، فلا نعجب نحن من ذلك لأن الله يقول: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[الذاريات: ٢١]، فلما أبصرنا أنفسنا ألفينا فيها أمراً موجوداً لا نشك في وجوده وهو الخيال، وهذا الخيال نحس بأننا مجبولون على أن نجندره ونصفيه ونهذبه، ونصنع فيه حركات فكرية تنتج لنا علوماً ومعارف، فلا نعجب إذن إذا رأينا خيال الفضاء فيه حركات أحدثت آثار أبصرتها عيوننا كما أحدثت حركات الأفكار في الخيال آراء شهدتها عقولنا.

إن نفوسنا نبراس علومنا، ومهيع تفكيرنا، إن نفوسنا في صفائها وجمالها واتساعها لحوز العلوم أشبه بما نشاهد في المادة المحسوسة من أنها كما تعطينا غذاء ودواء وفاكهة هي نفسها تكون مجال أفكارنا ومناط علومنا، كما أن نفوسنا كما تكون سبباً في حياتنا وأعمالنا في الحياة تكون هي مدرسة لنا وكتاباً نقرؤه، فكما نفكر في أعراضها المختلفة ومواهبها العجيبة نفكر في هيئتها فنجعلها لنا مجال دراسة، فنحل المشكلات بقراءتها ودراستها ونقول: لقد رأينا فيها خيالاً قامت به حركات أفكارنا، وهذان عالمان موجودان حيث لا مظنة للوجود، هكذا هذا الفضاء فيه خيال نسميه أثيراً ليس مظنة الوجود، وفيه حركات لا ندري ما هي، رتبت فصارت عالماً نحس به حواسنا.

الله أكبر، لقد أجمع علماء الطبيعة أن البعد بين الذرة والذرة في المادة كالبعد ما بين الشمس والأرض، إن دقائق الماء والهواء والسحاب والأرض والحجر والمدر كلها متباعدات تباعداً يقف العقل دونه، فالمادة فضلاً عن أنها مجرد حركات؛ وتلك الحركات تنقلب أنواراً كهربائية، وهذه الأنوار يجري سالبها حول موجبها فتكون الأشكال المختلفات عند حواسنا باختلاف أعداد حركاتها وهيئاتها؛ هي متباعدات تباعداً مدهشاً عجيباً، ويا ليت أمرها وقف عند كونها أشبه بالأمور الوهمية من كونها حركات فيما يشبه الخيال، بل أمرها تعدى ذلك فصار هذا الأمر الشبيه بالوهمي هو نفسه قليل أيضاً يشبه المعدوم، وماذا نقول في عالمنا هذا الذي نعيش فيه، وقد أثبت ذلك علم الطبيعة الذي يقرؤه أصغر تلميذ في مدارس العالم الإنساني، فقد قيل فيه: إن المسام الصغيرة وإن تكن لشدة صغرها لا ترى إلا بالمكرسكوب فهي أكبر من الجواهر بما لا يقاس، فلو تصورنا أن في المسام حيواناً صغيراً جداً بحيث يعيش على جوهر من الجواهر كما يعيش إنسان منا على الأرض؛ وفرضنا أن ذلك الجوهر واقع في وسط حجر؛ لكان الحيوان المشار إليه يرى أقرب الجواهر إليه بعيدة جداً عنه كما نرى نحن الشمس والقمر والنجوم، وربما كان يحتاج لمعرفة تلك الجواهر إلى نظارات كبيرة كما نحتاج نحن إليها لمعرفة الأجرام السماوية، فيظهر من ذلك اتساع المسام بالنسبة إلى الجواهر.

هذا ما جاء في كتب الطبيعة في عصرنا الحاضر ودرس للتلاميذ، إذا كانت هذه صفات المادة ونفس جسمي والفكر الذي أكتب به هذه المقالة والحبر والقرطاس، وكلها إن هي إلا فضاء واسع كالفضاء بين السماء والأرض والنجوم تتخلا حركات تكون أنواراً كهربائية، وما تلك الحركات وأنوارها إلا ذرات أشبه بالمعدوم وسط هذا الخلاء، فهي أمور أشبه بالخيالية نادرة جداً في وسط جو فسيح تائهات فيه، ومع ذلك نرى جسماً وقلماً وقرطاساً ونقول: نحن موجودون ومادتنا ملتئمة مسدودة الأبواب مقفلة، إذن هذا العالم الذي نعيش فيه حركات وأنوار لا غير، وهي مع كونها كذلك نادرة جداً، فأجسامنا هذه أشبه بفضاء واسع لا مخلوق فيه، فلو ركبنا قطاراً في ذلك الفضاء صادفنا في كل بضعة أيام نباتاً تراه أبصارنا ثم يختفي بسبب سرعة القطار، إذن عالمنا مبني على العدد.

يا عجباً! وهل امتاز الحديد والرصاص والماء والهواء والضياء إلا بالعدد، حركات وأضواء امتازت بأعدادها، إذن العدد كأنه أصل الوجود، وكيف لا يكون أصل الوجود وبه انتظام الأجسام، وهل الأجسام إلا حركات في أثير نتجت عنها أضواء، والحركات لا امتياز لبعضها عن بعض ولا

تفريق إلا لعدد الحركات، فإن قلت كانت لطيفة كالأضواء، وإن كثرت كانت كثيفة كالأجرام الثقيلة والصلبة.

سبحان الله، إذن العدد به تباينت الأجسام، والعدد قرأناه في نفوسنا، هل أحد منا يجهل الأعداد؟ الأعداد مرتبة ثابتات في نفوسنا، فهذه الأعداد بها نظمت النفوس العالية أمر الأجسام فباعدت ما بينها بمراتب الأعداد، إذن مراتب الأعداد في نفوسنا كانت سبباً في مراتب ما نصنعه في أرضنا، هكذا هناك نفوس كبيرة نسبتها إلينا كنسبة العوالم المحيطة بنا إلى أعمالنا الضئيلة اليومية، إذن الأعداد كأنها أصل الوجود، لأن الأعداد ثوابت والحركات غير ثوابت، وما كان غير ثابت لا يصلح أصلاً، إن الأعداد ثابتات في نفوسنا، وفيها أنواع الواجب والجائز والمستحيل، فإن ٦ في ٦ يساوي ٣٦ وهذا واجب، ومستحيل أن يكون أقل أو أكثر، و٣٦ كما يكون من ضرب ٦ في ٦ يكون من ضرب ٣ في ١٢ و٢ في ١٨ و٤ في ٩ ومن واحد ونصف في ٢٤، ففيه الواجب والجائز والمستحيل، والعلم كله لم يخرج عن هذه الأقسام المرتبات في عقولنا، العالم الذي نعيش فيه لا يخرج كله عن عالمين اثنين: رياضي وطبيعي، فالعالم الرياضي راجع للعدد، لأن العدد سار في الحساب والهندسة والفلك والموسيقى، كل العالم الطبيعي موزون محسوب بحساب مهندس بهندسة، نظامي بشكله، راجع للوحدات، تلك الوحدات المرتبات في نفوسنا، فالعالم من عرشه لفرشه مقدر موزون محسوب، والحساب مبدؤه ثابت في نفوسنا.

من هذا البيان يفهم الناس في زماننا قول «فيثاغورس»: إن العدد أصل العالم، وذلك لأنه لا عالم، إن هو إلا حركات في أمر يشبه المعدوم، والحركات وجودها ضعيف، وهذا معنى قول علماء عصرنا: إن المادة لا وجود لها، وإن هي إلا حركات، وللحركات أضواء، وإن كانت معدومة فنظامها العدد، والعدد مرتب في نفوسنا، لذلك نسمع الله يقول: ﴿ وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ۝٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ﴾[الفجر: ١-٣]، وما الشفع والوتر إلا جميع الأعداد، وهذا أيضاً يوضح لما قول القدماء: إن المادة لم يظهر وجودها إلا بالصورة، وهل هذه الصورة المادية إلا ما حددت بالعدد؟ أي: عدد الحركات.

نتيجة هذا المقام

إن نتيجة هذا المقال أن الأمر كل الأمر أن عالمنا ثبت أنه أشبه بالذي ليس بموجود، وأن ما يشبه الموجود منه ما هو إلا حركات مع كثرتها في نفسها هي معدومة في جانب الخلاء الذي تقع فيه وتضيء في مواضع نادرة منه، وهذه المظاهر الباهرة كلها أشبه بالوهم، والوهم أخو العدم، أليس هذا به نفهم: ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[الحديد: ١]، فإذا كان العالم أشبه بالمعدوم ومع ذلك نراه ونسمعه ونتمتع به، ولم يمتز بعضه عن بعض إلا بالعدد، إذن الأمر فوق ذلك، إن هو إلا تجليات ومظاهر للمحيط علماً بالعوالم كلها، لأن هذه العوالم لا ظهور لها إلا بامتياز أعدادها وأقدارها، والأعداد أمور معقولة لا محسوسة، وهذا العالم محسوس مشاهد، إذن الوجود الحق الذي لا وهم يلحقه هو الموجود الذي يستحق اسم الوجود، وما هذه

الصور والأشكال إلا مظاهر أعماله هو أو آثار معلوماته، طبعت في هذا الجو الفسيح طبعاً ظهرت لنا أصوله بهيئة حركات وأضواء، وتجلى لعيوننا بهيئة نبات وحيوان وشمس الخ. فهذا معنى قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[الحديد: ٣]. فأما هذه التي ذكرناها فما هي إلا مظاهر رحماته وآثارها.

ضرب مثل

اعلم أيها الذكي المطلع على هذا المقال، أن هذا المقام خطر، فإن عقولنا لا تقدر أن تجمع بين وجود ولا وجود، أي: لا تجمع بين الوجود والعدم، هما نقيضان، والنقيضان مستحيل جمعهما، فنحن الآن موجودون، فكيف ساغ لنا أن نقول إن هذا كله وهم كما يقوله علماء الطبيعة أجمعون، وكيف يقول الله: إن الله ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾[الحديد: ٣] الخ. فالعلم والقرآن اتحدا على أمر واحد وهو أن هذا العالم وجود ولا وجود، فماذا نقول إذن؟ لا سبيل لنا إلا ضرب الأمثال، هذه الشمس مشرقة، وذرات النور مسافرة في الجو الفسيح، أي: في العدم، باعتبار النظر الظاهري، أو فيما يشبه العدم وهو الأثير، وهذه الذرات الضوئية لا يظهر ضوؤها في الجو، إذ لا تظهر إلا على جسم، ولا جسم في جو السماء إلا ما طار فيه، فالله ضرب مثلاً للشمس، وأرواح المخلوقات ضرب مثل للذرات الضوئية، وهي تسافر في العدم المحض بحسب الظاهر أو فيما يشبه العدم، وهو عالم الأجسام الذي هو رتبة في مراتب عالم الأثير، إن الذرات الضوئية مختفية في أثناء سفرها من الشمس إلى الأرض، أي: في ثمان دقائق و١٨ ثانية، وإنّما يكون ظهورها إذا وصلت إلى أرضنا لا غير، فحياة أرواحنا في أجسامنا أشبه بظهور ضوء الشمس على الأرض التي أشبهتها أجسامنا في أن كلًّا منهما مظهر، فأحدهما مظهر للنور، وثانيهما مظهر للروح، فإذا نظرنا لضوء الشمس على الأرض فإنا لا نجده شيئاً سوى حركات مبدؤها الشمس ظهرت لنا بهيئة نور، وإذا نظرنا للشمس ونحن في الجو لم نجد إلا ظلمات متراكمة تنتهي بموجود مضيء عظيم هي الشمس، ولا نرى للذرات الضوئية أثراً في تلك الظلمات التي لا حد لها، نعم لها وجود مستعار من الشمس يظهر لنا إذا ظهرت على جسم معتم كالأرض، فمن وقف في جو السماء فإنه لا يرى إلا الشمس المشرقة بنورها فيقول: عجباً! هي الأول وهي الآخر وهي الظاهر وهي الباطن، لأن هذه كلها ظلمات، وغاية الأمر أن لها آثاراً مستعارة منها على الأرضين، وهذا ضرب مثل لا غير، ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[النحل: ٦٠]، والله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[الشورى: ١١]، ولكن مرادنا هنا الإيضاح لا غير، فالله منزه عن المادة وعن التشبيه والنظير، وإياك أن تظن أن ضوء الشمس جزء منها. كلا. بل هو حركات في الأثير لا غير، وهذه الحركات غير الشمس كما أن الأرواح غير ذات الله، فالمخلوق غير الخالق.

بهذا تفهم: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾[الحديد: ٣-٤] أي: بعلمه، ولولا أنه معنا ما علمنا بوجود أنفسنا، كما أنه لولا الشمس مع أضوائها المنبعثات منها ما ظهرت تلك الأضواء على وجه

الأرض، هذا ما فتح الله به في تفسير البسملة في سورة «الحديد»، والحمد لله رب العالمين. كتب يوم الثلاثاء ٨ مارس سنة ١٩٣٢م.

مقدمة في اتصال هذه السورة بما قبلها

(١) إن السورة المتقدمة والسور قبلها سور ترجع إلى العلم، وهذه السورة أكثرها للأعمال.

(٢) إن آخر السورة السابقة قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾[الواقعة: ٩٦] الذي هو مرتب على ما قبله من جزاء كل فريق من أصحاب اليمين وأصحاب الشمال والسابقين كل بما هو أهل له، وهاهنا يبين صفات الذي أمر بتسبيحه، وأن تسبيحه ليس خاصاً بأهل الأرض بل هو عام، وهذا كقوله: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾[فصلت: ٣٨] من بعض الوجوه. انتهت المقدمة.

القسم الثاني

في صفات الله تعالى، وأسمائه الحسنى، وظهور آثاره في بدائع مخلوقاته

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ﴾ ذكر التسبيح بالماضي هنا وبالأمر في السورة قبلها، وذكر بالماضي أيضاً في «الحشر» و«الصف»، وذكر بصيغة المضارع في «الجمعة» و«التغابن» للإشارة إلى أنه يسبح في جميع الأوقات، بل هو مأمور به، ويقال: سبحته وسبحت له، كما تقول: نصحت له ونصحته، وتنزيه الله وتسبيحه من العقلاء هو القول الدال على تنزيهه كما هو معروف، فأما غير بني آدم والملائكة، فالتسبيح منها الدلالة على العظمة والتنزيه، أو الانقياد والتسخير لله تعالى، فإشارتك لصاحبك بيدك على هيئة مخصوصة يفهم منها: تأنَّ واصبر، وإشارتك بها على هيئة أخرى خاصة يفهم منها: لا تفعل، وهكذا، فهذه الدلالة في الحالين أفهمت صاحبك إفهاماً كإفهام الكلام بل أشد تفهيماً وأبلغ أثراً، وكم للإنسان في حركاته معاني يفهمها الآخرون، فإذا كان هذا الإنسان المحدود العلم؛ فما بالك بما أطلعنا الله عليه من بدائع العلم والحكمة معاشر بني آدم، وفهمنا منه ما لا نفهم بالقول، ولو أنك وقفت في الخلوات، وراقبت المزارع والجنات، والشجر مترنحات، والحشائش متحركات، والأوراق تغني بموزون الأصوات وقد أرخى الليل سدوله، وأرسل من الخافقين جحافل جنوده، وتخللها بريق الكواكب تلمع في السباسب، هناك تتجلى لك العبر، وتقرأ علوم المبتدأ والخبر، وتغني لك النسمات، على أعواد الغابات، بما يشنف سمعك، ويقرب أنسك، ويشرق شمسك. وهناك هناك تناجيك اللذات، وتسارك الآيات، وتحيط بك الإشارات، وتقصر عنها العبارات، وترى فيها ما لا تراه العيون، والناس حولك ساهون لاهون، هنالك الأنس والنور، وهنالك الجنات والحور، وهنالك السعادة والحبور، وهنالك تفهم قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ المنتقم ممن يعيش ويموت وهو لا يعقل ذلك التسبيح الذي نطقت به الذرات، وشهدت به الآيات. فضلاً عن تركه التسبيح هو. فإذا أمر المسلم أن يسبح في آخر السورة السابقة فإن الله يعاقبه إذا تمكن من إدراك بعض أسرار الكائنات التي

يعبر بها عنها التسبيح وأقفل عنها عينيه، وأصم عن سماعها أذنيه، وقوله: ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أي: في مجازاة من عقل ذلك وسبح لله، فيكون عالماً عاملاً، ويعم نوره بقية المسلمين من حيث العلم والاقتداء به، ﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ لأنه الخالق المتصرف حال كونه ﴿ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي: يحيي الأموات ويميت الأحياء، وهو على كل شيء من الإحياء والإماتة وغيرهما قدير، ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ ﴾ السابق على سائر الموجودات، لأنه أوجدها، ﴿ وَٱلْءَاخِرُ ﴾ الباقي بعد فنائها، وأيضاً منه ابتدأت الأسباب. وإليه انتهت المسببات، ﴿ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ فقد ظهرت دلائل وجوده وتكاثرت، وبطنت ذاته فلم ترها العيون، واحتجبت عن الظنون، فهو ظاهر بآثاره وأفعاله. باطن بذاته ومشرق جماله وكماله. قد ظهرت غلبته على المخلوقات وعلم حقائقها. ولم يخف عليه بواطنها، فهو ظاهر بغلبته عليها، باطن لعلمه بما بطن منها، ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ من الظاهر والباطن والجلي والخفي، ﴿ عَلِيمٌ ۝ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ تقدمت الحكمة في أنها ستة في سورة « الفرقان » ولماذا اختيرت الستة؟ ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ تقدم الكلام عليه في سورة « يونس » وفي سورة « هود ». ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ما يدخل فيها من الكنوز والبذور والموتى والمعادن. ومن أهمها الحديد الآتي ذكره. الذي فيه بأس شديد ومنافع للناس. فلم يدخل البذر في الأرض إلا للقوت ومنفعة الناس والدواب. ولم يدخل الناس في الأرض إلا لإخراج أرواحهم من عالم المادة وإسعادهم، أو تربيتهم إذا كانوا عاصين الخ. ولم يدخل الكنوز في الأرض إلا ليبحث الناس عنها ويستخرجوها. فهو لم يولج المعادن إلا بعلم يعلم منافعها، فلذلك دفنها لمن هم مستعدون لإخراجها ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ كالمعادن المذكورة والزرع والموتى إذ يخرجون من القبور ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ من الملائكة والمطر ونحوهما ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ كالأبخرة والأعمال والدعوات ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ لا ينفك علمه وقدرته عنكم بحال ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ في أمور دينكم ودنياكم ﴿ بَصِيرٌ ﴾ فيعطي كل ذي فضل فضله، ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[الكهف: ٤٩]. ثم قال: ﴿ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ وإنما كرره ليرتب عليه ما بعده، ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾ تقدم شرح ذلك في سورة « البقرة » وغيرها. ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أي: بمكنوناتها، انتهى التفسير اللفظي للقسم الثاني من السورة، والحمد لله رب العالمين.

لطيفة في قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾

اعلم أن الكلام على هذه الآية قد تقدم في سورة « سبأ » وشرحت لك هناك ما تشير له الآية من الكنوز والآثار والعلوم المدفونة في خرائب بلاد اليمن، وكيف سخر الله الفرنجة فقاموا بالحفر والتنقيب، والمسلمون هم النائمون لا يدرون ما حولهم، كأن البلاد ليست بلادهم. وكأن هذه الآية ليست من دينهم. أو كأنها نزلت لمن لا يتفكرون فيها. لماذا يذكر الله الإيلاج في الأرض في أول سورة ذكر فيها قصة سبأ. فهكذا هنا بدأ الله هذه السورة بما يفيد أنه يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها. ثم رأيناه بعد ذلك يقول: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾[الحديد: ٢٥]، فعلمنا أنه

يرمز إلى نعمة المعادن التي هي من قبيل الحديد والتي هي الآن في قبضة الفرنجة. وكيف نام المسلمون عنها، والله يقول: إنه يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، فيعلم منفعتها، ويعلم الذين ينتفعون بها، ويعلم متى ينتفعون بها، ويعلم متى يستخرجونها، ويعلم من الذي يحرم منها فتكون الدائرة عليه لجهله.

فلم يذكر الله ذلك لمجرد معرفة الله مجردة من كمال العباد ومنافعهم، وإلا لم يقل في سورة «ق»: ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾[ق: ١٠-١١]، فهذه المخلوقات بها الاستدلال تارة وبها الرزق أخرى، فليستخرج المسلمون الحديد والذهب والنحاس وجميع المعادن، ولا يكونوا عالة على أوروبا. ومما يستخرج من الأرض آثار الأولين كما تقدم في سورة «سبأ» أيضاً. ولن يكون هذا إلا إذا ملكت الدولة رشدها، وكمل نظامها، وعظم عمرانها.

فهل أنبئك بأمر عجب قرأته في إحدى جرائدنا المصرية يوم الأحد الخامس من شهر مايو سنة ١٩٢٥ عند تفسير هذه الآية: ذلك أن الغواصين الذين يغوصون على «الإسفنج» ليستخرجوه في البحر الأبيض أمام تونس. كان أحدهم قد غاص ونزل في البحر على عمق ثلاثين قدماً. وبينما هو يعالج الإسفنج إذ لمح من بعيد امرأة جميلة لم ير الراؤون مثلها، معتدلة القوام، باهرة المحاسن، باسمة المحيا، والحشائش نابتة حول جسمها، والسمك يغدو ويروح حولها، فلما رأى هذا المنظر دهش وظن أن عقله ليس في حاله العادية، فأشار إلى رفاقه في البر إشارة الخطر، فرفعوه فأخبرهم الخبر، فنزل رفاقه فوجدوا الأمر كما قال، وأن هناك مدينة ذات شوارع ومنازل والسمك ذاهب آيب فيها. فأخبروا الحاكم الفرنسي بتلك الأقطار بالجزائر، فطير الخبر إلى بلاده، فأرسلوا إلى عالم كبير بالآثار من أمريكا، فلما سمع درس الموضوع. قال: إن هذه المرأة هي صورة آلهة الجمال في قديم الزمان. وإنه يظن أن تلك المدينة ومدناً أخرى قد ابتلعها البحر منذ ثلاثة آلاف سنة، وإنه يريد أن ينظر في أمرها هل يبني سوراً حولها إن كان ميسوراً أم يرفع الأشياء الثمينة منها ويتركها إن لم يتيسر الأول؟.

هذا ملخص الخبر في جريدة البلاغ المصرية، فهذه الحادثة مما يلج البحر وما يخرج منه والله يعلمها. وذلك أن الله أولجها في البحر الذي هو بمثابة الأرض لعلمه أن قوماً سينتفعون بها بعد خروجها. فإن المتأخر إذا اطلع على صناعة المتقدم أدهشه الحسن والجمال والدقة في الصنع فيستمسك بما ليس عنده، ويجد في الوصول إلى الكمال، فإن العلم منشؤه التعجب. ومتى تعجب الناس من جمال صنعة المتقدمين زادهم ذلك نشاطاً وجداً. ولي أن أقول لأمة الإسلام: هذا كلام ربنا وهذه آثاره في الأرض. وهناك آثار سبأ المتقدمة في سورة «سبأ» وهي في أرض المسلمين الآن. وآثار هذه المدينة المجهولة التي أغرقها الله في البحر أمام تونس، تونس التي هي بلاد إسلامية والمسلمون هم الآن نائمون. ملكت فرنسا تونس، فأصبح أهلها وأهل الجزائر وطرابلس وغيرها من شمال أفريقيا لا يعلمون شيئاً في بلادهم، ولكن الله يقول: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[الحديد: ٤]، نعم يعلمه ويخبر عباده به، فانظر لأمة الإسلام التي تركت الدنيا تنعي من بناها، وتقول لا أهتم بشيء فلا علم ولا مال ولا دولة، وقد آن أوان أن تشرق أيامهم، وتزدان مدنهم، ويكون منهم في كل جيل طوافون في الأرض

وعلماء في كل فن، كما هو أوامر شرعنا أن يكون في المسلمين طوائف لكل فن طائفة تكفي المسلمين الحاجة، وهذا هو المسمى فرض كفاية، بحيث لو ترك لأثم المسلمون جميعاً، فسيعلم المسلمون ذلك وسيتولون نظام الأرض كما تولتها أوروبا التي ضيقت الحصار على المسلمين، وأرغمتهم وهم في كل واد يهيمون، وسيأخذ المسلمون حظهم الموعود، ويومهم المقبل، ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾ [ص:٨٨]. انتهى الكلام على القسم الثاني من السورة، والحمد لله رب العالمين.

القسم الثالث: في الحض على الإنفاق

قال تعالى: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ من الأموال التي هي ملكه في الحقيقة وما أنتم إلا خلفاؤه في التصرف فيها، ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بالله ورسله ﴿ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ أي: وأي عذر لكم في ترك الإيمان بالله والرسول يدعوكم إليه ويتلو عليكم كتابه الناطق بالبرهان؟ وهذا قوله: ﴿ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ ﴾ الجملة حالية ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ ﴾ بالإيمان قبل ذلك بنصب الدلائل والتمكين من النظر ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي إيمان كان لموجب ما، فإن الإيمان لهذا الموجب أعظم وهو أخذ الميثاق ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ القرآن ﴿ لِّيُخْرِجَكُم ﴾ الله تعالى أو نبيه بدعوته ﴿ مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ من الكفر إلى الإيمان ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ إذ أنزل عليكم الكتاب ولم يقتصر على نصب الدلائل العقلية ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: وأي غرض عرض لكم في ترك الإنفاق في سبيل الله والجهاد مع رسوله مع أنكم ستموتون وتتركون أموالكم لغيركم، فالأولى لكم أن تنفقوها فيما يقربكم إلى الله تعالى وتستحقون به الثواب. ثم أخذ يبين درجات المنفقين، فقال: ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ الفتح: فتح مكة، فمن قاتل وأنفق قبله فأجره أعظم ممن أنفق وقاتل بعده، مع أن كلًّا منهما وعده الله المثوبة الحسنى وهي الجنة، كما تقدم في سورة «الواقعة» من الفرق بين السابقين وأصحاب اليمين، والله يعلم بظاهر أعمالكم وباطنها فيجازي كلًّا بما فعل. وأعظم من قاتل وأنفق قبل الفتح أبو بكر الصديق رضي الله عنه. وأكثر المفسرين يرون أن الآية نزلت فيه، ولكنها بحسب حكمها أعم، ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ أي: من ذا الذي ينفق ماله في سبيله رجاء ثوابه، ففيه استعارة لفظ القرض ليفيد لزوم الجزاء ﴿ فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ ﴾ أي: يعطيه أجره أضعافاً ﴿ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ أي: إن هذا الأجر في نفسه كريم حسن، فكيف وقد ضوعف أضعافاً. انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة، والحمد لله رب العالمين.

القسم الرابع

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم ﴾ وهو ما يوجب نجاتهم وهدايتهم إلى الجنة من العلم والعمل والعبادات والحكمة، ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم ﴾ لا من شمائلهم ولا من وراء ظهورهم كالكافرين، فاختصاص النور بالأمام وبجهة اليمين للإشعار بأنهم هم الذين بحسناتهم

سعدوا، وبصحائفهم البيض أفلحوا، فإذا مروا على الصراط يسعون؛ يسعى بسعيهم ذلك النور وتقول لهم الملائكة: ﴿ بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ ﴾ أي: دخول جنات ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ ثم أبدل من ﴿ يَوْمَ تَرَى ﴾ قوله: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا ﴾ أي: انتظرونا، وذلك إذا رأوهم قد أسرعوا كالبرق الخاطف إلى الجنة، أو انظروا إلينا فإنهم إذا أقبلوا عليهم بوجوههم استضاؤوا بنورهم، إن تنظرونا ﴿ نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ نستضيء من نوركم ﴿ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ﴾ وهذا تهكم بهم وتخييب لآمالهم من المؤمنين والملائكة، أو قيل: ارجعوا وراءكم إلى الدنيا فالتمسوا نوراً بتحصيل العلوم والمعارف الإلهية والأخلاق الفاضلة فلا نور إلا منها، وأما هنا فلا سبيل لكم أن تنالوا نوراً، إذ لا ينفع المرء إلا عمله، ومن لم تستعد نفسه للهداية فلا ينفعه آخر ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم ﴾ أي: بين المؤمنين والمنافقين ﴿ بِسُورٍ ﴾ بحائط ﴿ لَّهُۥ بَابٌۢ ﴾ يدخل فيه المؤمنون ﴿ بَاطِنُهُۥ ﴾ باطن السور أو الباب ﴿ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ ﴾ لأنه يلي الجنة ﴿ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ من جهته لأنه يلي النار ﴿ يُنَادُونَهُمْ ﴾ أي: ينادي المنافقون المؤمنين من وراء ذلك السور حين حجز بينهم وبقوا في الظلمة: ﴿ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ في الدنيا نصلي ونصوم ونزكي ونحج؟ ﴿ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أهلكتموها بالنفاق والمعاصي والشهوات، فهذه كلها فتنة، ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ بالمؤمنين وبالنبي صلى الله عليه وسلم الدوائر ﴿ وَٱرْتَبْتُمْ ﴾ وشككتم في الدين ﴿ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ ﴾ الأباطيل وما تمنونه كامتداد أعماركم ﴿ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ وهو الموت ﴿ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ أي: الشيطان أو الدنيا ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ ﴾ فداء ﴿ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ ظاهراً وباطناً ﴿ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ﴾ أي: مصيركم النار هي أولى بكم لما أسلفتم من الذنوب، وهي مكانكم الذي يقال فيه: هو أولى بكم ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ النار. اعلم أن المؤمنين لما قدموا المدينة أصابوا من لين العيش ورفاهيته، ففتروا عن بعض ما كانوا عليه فعوقبوا، ونزل في ذلك: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾[الحديد: ١٦] الآية. وقال ابن مسعود: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين. وقال ابن عباس: إن الله تعالى استبطأ قلوب المؤمنين فعاقبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ ﴾ أي: ترق وتلين وتخضع ﴿ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ لمواعظ الله ﴿ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ أي: القرآن، وقوله: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ ﴾ أي: ألم يأت وقته، يقال: أنى الأمر يأنى، إذا جاء أناه، أي: وقته، ﴿ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ ﴾ معطوف على «تخشع»، ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ أي: فطال عليهم الزمان بينهم وبين أنبيائهم وكثير منهم خارجون عن دينهم رافضون لما في كتابهم، من فرط قسوة قلوبهم، والمقصود أن الله نهى المسلمين أن يكونوا في صحبة القرآن كاليهود والنصارى الذين قست قلوبهم لما طال عليهم الدهر.

ويروى عن أبي موسى الأشعري أنه بعث إلى قراء البصرة، فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرؤوا القرآن، فقال: أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم فاتلوه، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم.

أقول: ولما كانت الأمة الإسلامية اليوم قد أصابها الوهن بطول المدة التي ليست ثلاث عشرة سنة كما قال ابن عباس بل مضاعفة مائة مرة، فقد انتهينا الآن من القرن الثالث عشر، كانت هذه الآية أقرب إلى التعبير عن حالها. وإذا كان الله قد وعظ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم قد ضعفت عزائمهم؛ فالمسلمون بعد ذلك بثلاثة عشر قرناً ظهر الوهن في عزائمهم ظهوراً فاضحاً أكثر مائة مرة، وأفرط الإفرنج في إذلالهم، وإذا كان الله يقول لآبائنا الأولين أيام النبوة: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أي: يحيي القلوب القاسية بالذكر والتلاوة والنشاط في العلم والعمل.

أقول: إذا كان الله يبشرهم بذلك ونبينا صلى الله عليه وسلم بينهم؛ فالبشارة لعمر الله اليوم لنا أكثر تحقيقاً وأقرب رحمة، ألا ترى أن الأرض إذا نزل المطر عليها بعد طول الفترة كانت قد استراحت فتعطي ثمراً أعظم بشروط خاصة؟ وكلما كان الليل أشد ظلاماً كان النهار أبهر إشراقاً، وطول المشقات يعقبه الفوز، والضد يتبعه ضده، ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١٤٠]. وإني أنا أبشر المسلمين اليوم بهذه الآية وبأشياء أخرى لا محل لذكرها، أبشر المسلمين وأقول لهم: قد جاء يومهم الموعود، وأقبل إسعادهم المأمول، وسترثون العلم والحكمة، وستكونون أمة لها شأن وأي شأن، وسيكون قراء هذا التفسير من أول العاملين لرفعة شأن هذه الأمة، وليقومن في شمال أفريقيا وفي الحجاز والشام وبلاد العراق واليمن وباقي بلاد الإسلام علماء قريباً، وحكماء يجددون الأمر، ويقتفون أثر أجدادهم، ويجددون ما اندرس من العلم، وستكون الأمة الإسلامية بعد هذا الزمان أمة مفكرة، بحاثة نافعة لنوع الإنسان، رحمة للعالمين، قال تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: كي تكمل عقولكم ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ ﴾ أي: المتصدقين والمتصدقات، وقرئ بتشديد الدال وحده، من: التصديق، ﴿ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ عطف على «المصدقين»، ﴿ يُضَٰعَفُ لَهُمْ ﴾ يضعف لهم ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ هي الجنة ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي: إن المؤمنين عند الله بمنزلة الصديقين والشهداء، وهم الذين سبقوا إلى التصديق واستشهدوا في سبيل الله ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ أي: لهم مثل أجر الصديقين والشهداء ومثل نورهم، والفرق بين هؤلاء وهؤلاء أن نورهم من غير تضعيف، فأما الآخرون فثوابهم مضاعف. ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ وإلى هنا تم الكلام على بشارة المؤمنين بنورهم يوم القيامة، وعلى حضهم وحثهم على بذل الجهد وترك الغفلة، وعلى ثواب المتصدقين والمتصدقات، ثم أخذ يشرح وصف سرعة زوال الدنيا فقال: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ ﴾ كلعب الصبيان في الملاعب من غير فائدة، ﴿ وَلَهْوٌ ﴾ يلهون به أنفسهم عما يهمهم كلهو الفتيان، ﴿ وَزِينَةٌ ﴾ كالملابس الحسنة، والمراكب البهية، والمنازل الرفيعة، وكزينة النساء، ﴿ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ ﴾ كتفاخر الأقران بالأنساب ﴿ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ مباهاة بكثرة الأموال والأولاد، ثم قرر ذلك فقال: ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾ الكفار: الزراع لكفرهم، أي: سترهم الأرض بالبذر، والنبات ما نبت بذلك الغيث، ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ ييبس ﴿ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ﴾ بعد خضرته ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ﴾ يتحطم ويتكسر بعد يبسه ويفنى، ﴿ وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ لمن كانت حياته

بهذه الصفة، فمن انهمك في الدنيا كانت عاقبته شدة العذاب، وقوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ أي: لمن جعلها سبيلاً للآخرة، ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ لمن عمل لها ولم يعمل للآخرة. ثم شرع في ترغيب العباد في العمل للجنة فقال: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: عرضها كعرضيهما، فإذا كان ذلك عرضها فماذا يكون طولها؟ ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ فهي مهيأة الآن مخلوقة، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الموعود ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ يتفضل به على من يشاء من غير إيجاب ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فالتفضل منه ممكن وإن عظم قدره. ثم أعقبه بتهوين المصائب على المؤمنين تعجيلاً للسعادة، لأن هذه المسألة أهم المسائل في الحياة الدنيا، وعليها تكون السعادة، وبخلافها يكون الشقاء. ألم تر إلى ما نقلته لك عن الحكيم قابس اليوناني، وكيف شرح جميع أنواع النعم من مال وولد وعلم وصيت، وانتهى في آخر الأمر إلى أنه لا سعادة إلا من حيث الصبر ووصول النفس إلى نهاية كمالها الأخلاقي، بحيث يمر المال والولد والقوة والعلم عليها فتصيبها تارة وتخطئها أخرى، وهي بحالها مطمئنة، لا يزدهيها الاتصاف بما تقدم، ولا يحزنها الفوت.

هذا آخر آراء المتقدمين من الفلاسفة في سعادة الأنفس البشرية في هذه الحياة الدنيا، فكأن الله يقول: أيها المؤمنون، الحياة الدنيا غرور فسابقوا إلى الجنات، واعلموا أنكم في هذه الحياة التي سميناها غروراً واقعون في خيرها وشرها، فلنجعل لكم السعادة قبل الموت حتى تشموا رائحة الجنة وأنتم أحياء، وذلك بما نصفه فنقول: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كالجدب والفاقة واحتلال الأجانب من الظالمين، واستيلاء الحكام الفاسقين من المسلمين، ﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ كمرض وفاقة ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ إلا مكتوبة في اللوح المحفوظ، مثبتة في علم الله ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ نخلقها، أي: المصيبة ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: إثباته في كتاب ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لاستغنائه تعالى عن العدد والمدد، إني أثبت ذلك وكتبته وأخبرتكم ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ﴾ تحزنوا ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من نعيم الدنيا ﴿وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ بما أعطاكم الله منها، فانظر كيف يقول قابس اليوناني: إن الصبر مخرج من الشقاء، ويجيء القرآن بما هو أقرب فيقول: إن كل شيء قدر في الكتاب فكيف تفرح أو تحزن! قال عكرمة: ليس أحد إلا وهو يحزن ويفرح، ولكن اجعلوا الفرح شكراً، والحزن صبراً. وقال صاحب الكشاف: المراد بالحزن المخرج إلى ما يذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله ورجاء الثواب، وبالفرح المطغي الملهي عن الشكر. ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ متكبر بما أعطاه الله في الدنيا ﴿فَخُورٍ﴾ بذلك الذي أوتي على الناس.

ذم البخل

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ والخبر محذوف مثل: فإن الله غني عنهم محمود وإن لم يحمدوه، وهذا الخبر مأخوذ من قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: يعرض عن الإنفاق، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي: الغني عنه وعن إنفاقه، محمود في ذاته، لا يضره الإعراض عن شكره.

التحريض على العدل

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا ﴾ الملائكة إلى الأنبياء، والأنبياء إلى الأمم ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ بالحجج والمعجزات ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ المتضمن للأحكام وشرائع الدين ﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ أي: العدل، أي: وأمرنا بالعدل ﴿ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ ليتعاملوا بينهم بالعدل ولا يظلم بعضهم بعضاً ولما كان ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن؛ وكان الناس فريقين: فريقاً يقوده العلم والحكمة، وفريقاً يقوده السيف والعصا؛ وكان العدل والقانون لا بد له من حام يحميه وهو الدولة والملك وجنوده وأعوانه؛ وهؤلاء لا بد لهم من عدة يحمون بها القانون والعدل في داخل البلاد وخارجها؛ أعقبه بأنه أنزل الحديد لتكون منه السيوف والرماح والسفن البحرية وما أشبه ذلك، وهذا قوله: ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ ﴾ قبل أن نخلق الإنسان والحيوان على الأرض حينما كانت آخذة في التبرد شيئاً فشيئاً، فإنه كان هو وبقية المعادن سائلاً تارة وبخاراً أخرى، يرتفع كالسحب في الجو، ويمطر على اليابسة، وينزل في شقوق الأرض عاماً بعد عام هو والذهب والفضة، وباقي المعادن فإنها كلها في تلك الدهور القديمة كانت مرتفعة الحرارة جداً، وكلما بردت الحرارة نوعاً ما أخذت تلك المواد تبرد بالتدريج، ومنها الحديد في دوره الخاص به كما تقدم إيضاحه بالتفصيل في الأجزاء السابقة من هذا التفسير، مع بيان الدرجة التي يصير فيها سائلاً، والدرجة التي يصير فيها جامداً صلباً فلا نعيده، فصح أن الحديد أنزل من السماء كما ينزل المطر، وهذا من عجائب القرآن التي أظهرها علم طبقات الأرض الآن في المعادن والحديد الذي قال الله فيه: ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ قوة شديدة، فبه يقاتلون، ومنه يصنعون السفن في هذا العصر للقتال والدروع ﴿ وَ ﴾ منه ﴿ مَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ في جميع الصناعات، فهو في قطارات السكك الحديدية في سائر أقطار الأرض، كما هو في الإبرة وما بينهما، لا فرق بين صنع الكرسي وصنع القصر العظيم، كلاهما داخل فيه الحديد، وإنّما فعلنا ذلك لتجاهدوا في سبيلي، ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ باستعماله الأسلحة في مجاهدة الكفار والمحافظة على سلامة الأوطان، التي هي من أهم الجهاد، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، ومعنى ﴿ لِيَعْلَمَ اللَّهُ ﴾ ليرى الله، ﴿ مَن يَنصُرُهُ ﴾ أي: من ينصر دينه ﴿ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ أي: حال كونه غائباً عنهم، أي: ينصرونه ولا يبصرونه، ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ ﴾ يدفع بقوته بأس من يعرض عن ملته ﴿ عَزِيزٌ ﴾ يربط بعزته جأش من يتعرض لنصرته، واعلم أن كتاب الله المنزل من السماء، والعدل الذي أمر الله به والحديد الذي يجعل في المدافعة عنهما مرتبطات كما شرحته لك.

ذكر بعض الأمم السالفة التي أنزل عليها الكتاب والميزان وأن منهم من اهتدى، ومنهم من فسق ليرتب عليه ما بعده

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ فجعلناهم أنبياء وأوحينا إليهم الكتب ﴿ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ﴾ أي: فمن المرسل إليهم مهتد ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ خارجون عادلون عن الطريق المستقيم، ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾

وذلك بأن أرسلنا رسولاً بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ الرأفة: المودة واللين، والرحمة: التعطف على الإخوان، ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ وهي أنهم يترهبون في الجبال، فارين من الفتنة في الدين، مخلصين أنفسهم للعبادة، والرهبانية: هي الفعلة المنسوبة للرهبان، كخشيان، من: خشي، والرهبان: المبالغ في الخوف، ومعنى ابتدعوها: أخرجوها من عند أنفسهم، وذلك بعد المسيح بقرون، أيام اضطهاد النصرانية بمصر، فإن بعض العلماء ترك البلاد وخرج إلى الجبال، كما جاء في كتاب «الخريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة» الذي ألفه أحد الرهبان بمصر وطبع سنة ١٨٨٤م. ﴿ مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾ ما فرضناها عليهم ولكنهم ابتدعوها ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ أي: الذين جاؤوا بعدهم، ﴿ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ أي: الذين ابتدعوها ابتغاء رضوان الله، ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ وهم الذين جاؤوا بعدهم، فلما أرسل النبي صلى الله عليه وسلم انحط رجل من صومعته وجاء سائح من سياحته وصاحب دير من ديره، فآمنوا به وصدقوه، فقال الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ بالرسل المتقدمة ومنهم عيسى ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ فيما نهاكم عنه ﴿ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ ﴾ نصيبين ﴿ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ لإيمانكم بمحمد وبمن قبله ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ وهو المذكور في قوله: ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم ﴾ [الحديد: ١٢]، ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ الكفر والمعاصي، ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، وإنما فعلنا ما ذكر ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أي: فعلنا ذلك ليعلم أهل الكتاب أنهم لا ينالون شيئاً مما ذكر من فضله، ولا يتمكنون من الكفلين من رحمته، ولا من النور والمغفرة، إذا لم يؤمنوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فليس ينفعهم إيمانهم بمن قبله وحده، ولا يكسبهم فضلاً، فتكون إذن «لا» زائدة، وقوله: ﴿ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ ﴾ عطف على ﴿ أَلَّا يَقْدِرُونَ ﴾ أي: ليعلموا عدم قدرتهم على ما ذكر، ويعلموا أن الفضل المذكور في ملك الله وتصرفه يؤتيه من يشاء من عباده، وإذا جعلت «لا» غير مزيدة يكون المعنى: لأجل ألا يعتقد أهل الكتاب أنه لا يقدر النبي والمؤمنون به على شيء من فضل الله ولا ينالونه أن الفضل بيد الله، فلذلك أعطاه للنبي والمؤمنين.

انتهى التفسير اللفظي للقسم الرابع من السورة، والحمد لله رب العالمين.

لطائف هذه السورة:

(١) في قوله تعالى: ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ ﴾ [الحديد: ١٣] أي: بحائط الخ.

(٢) وفي قوله: ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الحديد: ٢١].

(٣) وفي قوله: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ [الحديد: ٢٧] الخ.

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ ﴾

اعلم أن هذه الآية تفيد أن بين الجنة والنار حائطاً له باب، ومن دخله دخل الجنة، ومن هو خارجه فهو في النار، والمنافقون واقفون خارج هذا السور يقولون لمن كانوا معهم من المؤمنين: ﴿ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ [الحديد: ١٣]، وأولئك لا يجيبونهم إلا بالتقريع والتوبيخ.

واعلم أن هذا الوصف له نظير في الدنيا، بل إن مراتب الناس في الدنيا على هذا المنوال، بل جميع العوالم النامية من حيوان وإنسان، ولأضرب لك ثلاثة أمثال:

المثال الأول: كل فاكهة من الفواكه، أو حب من المأكول، أو زهرة في شجرة، تجدها ذات قشر غليظ من أعلى يليه ما هو ألطف منه، ولا يكون في داخل الجميع إلا الفاكهة المطلوبة، ولا يكون في المركز إلا ما هو أهم وهو المقصود، فترى الزهرة يحجبها أولاً الورقات المسماة بالكأس، ولا جرم أنها أغلظ مما بعدها وهي الوريقات الملونات المسميات بالتويج، وفي داخل هذين تجد أعضاء الذكور وأعضاء الإناث في داخل الزهرة، إذن ظاهر الزهرة أقرب إلى العالم الخشن، وباطنها أقرب إلى العالم اللطيف، وهو المقصود بالذات. انظر إلى البندق وإلى الجوز كيف كان القشر الأعلى غليظاً وما تحته لطيف، وفي داخله المادة المأكولة المحافظ عليها، وهكذا البطيخ والرمان وجميع الفواكه، وترى التمرة وجميع النخلة كأنها خوادم لنواة التمر لتكون أصلاً لشجرة أخرى، وهكذا كل نواة فهي محافظ عليها بمثل ذلك.

المثال الثاني: إن جراثيم الأجنة في أرحام الأمهات من كل حيوان بري أو بحري تمر في أدوار من الخلق، ثم إنها إذا وصلت إلى ما هي أهل له من الخلق وقفت ولم تجاوز ما استعدت له، فترى الحيوانات النقاعية التي هي في آخر مراتب الحيوانية تبقى على حالها لا ترتقي وهي في دور التربية، وترى أنواع العنكبوت والنمل والنحل إذا خرجت من البيض لا تعدو مرتبة أصلها، أما الحيوانات الفقرية فإنها تجاوز تلك المراتب ولا تتجاوز مرتبتها هي، والإنسان يجاوز المراتب كلها ويرتقي إلى مرتبة الإنسانية، فكأن كل درجة من درجات الحيوانية غلاف يحفظ ما تحته، وآخرها ارتقاء هو الإنسان الذي أحاط الجميع به محافظة عليه، كما يحافظ القشر على لب الثمار، وكما يحافظ الكأس والتويج في الزهرة على أعضاء الإلقاح.

المثال الثالث: دراسة العلوم في اللغة العربية، مثلاً الخط، الإملاء، النحو، الصرف، البلاغة، القرآن: حكمه وعلومه، إشراق النفس به. وانظر إلى نوع الإنسان كيف كان كل لا يتعدى حده الذي حده له استعداده والبيئة التي هو فيها.

يكتب الإنسان ويقرأ ثم يقف بعد ذلك لا يتعدى القراءة البسيطة، وهو قد امتاز عمن لم يقرأ ومن لم يكتب، ثم يتجاوز ذلك طائفة علماء النحو ويجاوزهم علماء البلاغة، ويظن هؤلاء أنهم وصلوا إلى قمة العلم، فيرتقي عنهم قوم إلى قراءة أشعار العرب ونثرها وخطبها في الجاهلية والإسلام ويظن هؤلاء أنهم أعلى الجميع، ويزيد عليهم آخرون فيقرؤون تاريخ العرب وأنسابهم ولا يتعدون ذلك، ويتجاوزهم آخرون فيعرفون معاني القرآن وبلاغته ويظنون أنهم أرقى، ويتجاوزهم آخرون فيدركون مقاصده من الأخلاق والعلوم ويقفون، ويتجاوزهم آخرون فيعملون بذلك ويدرسون هذه الدنيا ونظامها، ويتخلقون بجميل الأخلاق، ويقفون عند هذا الحد، ويتجاوزهم آخرون فيكونون مخلصين لربهم، نافعين لأمتهم، وهؤلاء هم الصديقون والحكماء، فكل طائفة متقدمة كالقشر لما بعدها، وكأن كل واحدة تقول لمن تقدم عليها وتجاوزها: ألم نكن معكم؟ قالوا: بلى ولكنكم ظلمتم

أنفسكم، واغتررتم بعلمكم، ووقفتم عند حد مخصوص، ولكن نحن عرفنا الحقيقة ووصلنا، فلا تلوموا إلا أنفسكم، إنك ترى هذه الحقائق مجسمة أمامك في كل آن، وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الأولى، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾

تقدم هذا في سورة «آل عمران» فارجع إليه هناك إن شئت.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ﴾

لنشرح هذا المقام من كتاب «الخريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة» فنقول: جاء في الكتاب المذكور الذي ألفه أحد رهبان دير السيدة برموس في برية أنبا مقاريوس الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية ببولاق مصر القاهرة سنة ١٨٨٣ هدية للأب الكلي الوقار «أنبايوانس» مطران البحيرة ووكيل الكرازه المرقسية صفحة ١٦٢ وما بعدها ما نصه:

في أنباء القرن الثالث للمسيح أي: في أواخره، أن «بولس السائح» قد انفرد للوحدة وانقطع للعبادة منذ صغره، فكان قدوة بفضائله للأولين والآخرين، وقد ارتشد منه القديس «أنطونيوس» مقتفياً أثره ومنتهجاً منهجه الصارم لما كشفه وهو مختف في مغارة، وبيان ذلك أن القديس أنطونيوس اختلجه فكر العظمة ظاناً أنه هو أول من سلك طريق الرهبنة منفرداً للعبادة والنسك في البرية، فتداركته نعمة الله بإعلان إلهي بأن في البرية رجلاً أقدم منه زمناً، وأفضل قداسة، فأخذ عكازه وخرج يطوف في البرية قاصداً مكان عبده، وبعدما سار يوماً بتمامه ولم يجد أثراً يدل عليه قام مصلياً الليل أجمع مستمداً الإرشاد من الباري. ثم أخذ يطوف في اليوم الثاني، فرأى غروباً ذئبة صاعدة إلى جبل، فتعقب أثرها ولم يدعها حتى خيم الظلام، فتركها ومال إلى مغارة يريد أن يبيت فيها، وبينما هو سائر في الظلام دنا من النور فشعر به القديس بولس، فأسرع وأغلق دونه الباب، فلما وصل إليه جثا على الأرض باكياً وصارخاً: إني لواثق بأنك تعلم من أنا، ومن أين جئت، ولماذا أتيت؟ ولا يخفى عليك أني لا أخرج من هنا أو أبصرك، فهل يمكنك يا ذا الذي يقبل الحيوانات أن تطرد الإنسان، إني طلبتك وقد وجدتك وقد قرعت بابك لتفتح لي، فإن لم تقبل فإني أموت هنا، فأقل ما يكون أنك تجدني بعد موتي، ففتح له الباب، وعانق كل صاحبه مسلماً عليه بفمه، فقال له القديس بولس: أبصر الآن من فتشت عنه بعناية عظيمة، فترى أعضائي قد وهنت من الشيخوخة، وقد ابيضت لحيتي كلها، وجف جلدي، فانظر إنساناً يرتد إلى الرماد سريعاً قد تكبدت كثيراً بالاستقصاء عني، فأخبرني عن حال العالم من بعدي، وهل يوجد من يعبد الشيطان فيه؟ فأجاب أنطونيوس على ذلك بالتفصيل. ثم سأله عن السبب الذي أحضره إلى ذلك المكان، فأجابه القديس بولس قائلاً: إنه بينما كان الملك «ديسيوس» يفتك بنصارى مصر والصعيد حيث ولدت مات والدي إذ كان عمري ١٢ سنة، فدخلت مدارس الفلاسفة، وحرزت علوماً وافرة، فلما اشتدت المصائب على المؤمنين انفردت في منزل كان لي بين مزارعي، فعرض لي خطر عظيم، وذلك أن زوج أختي قام عليّ ورام أن يختلس أموال أو يشكوني إلى الوالي بأني مسيحي، وكنت سمعت بأن هذا الوالي أرسل إلى كل مكان رسلاً يفحصون عن المسيحيين ليعذبهم

أو ينكروا المسيحية، فهربت إلى هذه البرية وتخلصت من خبث خصمي، وبينما كنا نتفاوض طار إلينا غراب حاملاً في منقاره رغيفاً وتركه بين أيدينا وطار، فقال القديس بولس: مبارك الرب الذي أرسل إلينا مأكلاً، فاعلم يا أخي أن منذ ستين سنة يأتيني هذا الغراب كل يوم بنصف رغيف واليوم أتى برغيف كامل من أجلك، فشكراً لله الذي يهتم بقديسه، ثم صرفنا الليل كله في الصلاة، وفي الغد استدعاني وقال لي: أنا عرفت منذ زمان أنك مستوطن هذه البرية، وقد وعدني الله بأنك مزمع أن تزورني وتواريني التراب، وقد وافى الوقت الذي أفارق فيه هذا الجسد البالي، وأنطلق إلى الرب، فأطلب إليك أن تعود إلى ديرك وتأتيني بالرداء الذي أعطاه لك أثناسيوس لتكفنني به، فبدأت أذرف الدموع متأسفاً، وطلبت أن لا يفارقني قبل أن يلتمس من المسيح أن أنطلق معه، فقال لي: يجب أن تمكث مدة من أجل خير إخوانك، ثم أخبرني عن مستقبل مجد الرهبنة وفضلها، فودعته وعدت مسرعاً إلى ديري. ولما صادفت اثنين من الرهبان وسألاني عن سبب غيابي لم أجبهما بكلمة، بل قلت لهما: إنني رجل خاطئ لا أستحق أن أسمى راهباً، للكلام وقت، وللصمت وقت، ثم أخذت ذلك الرداء ورجعت إلى حيث القديس راجياً أن أعاينه وهو حي، فلما لم يبق إلا مسافة قليلة أبصرت جوقاً من الملائكة يرتلون، وبينهم نفس البار «القديس بولس»، فحزنت وبكيت بكاء مراً، ولما دخلت المغارة وجدت جسده جالساً جاثياً على ركبتيه، ورأسه مستقيماً، ويديه مرتفعتين، فظننت أنه حي، فجثوت أصلي بقربه، ولما نظرت أنه لم يتنهد كعادته في الصلاة، تفرست فيه جيداً فتأكدت أنه توفي، فوثبت على جسده أقبله ذارفاً الدموع، ثم كفنته بذلك الرداء، وفيما أنا مفكر في كيف أنا أدفنه إذ لم يكن معي آلة أحفر بها حفرة؛ ساق الله لي أسدين وبدأا يحفران في الأرض حتى أكملا قبراً، وجثيا أمامي كأنهما يطلبان إذناً للانصراف، فأشرت لهما بيدي، ثم واريت الجسد في التراب، وأخذت ثوبه المنسوج من الخوص، وعدت به إلى ديري، وكنت ألبسه في الأعياد الإلهية. انتهى.

هذا هو الذي نقلته من ذلك الكتاب، أنا أكتب هذا وأنا في غاية العجب، هذا كتاب لم يظهر إلا في هذه الأيام، والمسيحيون في مصر لم يعلموا به إلا في هذه الأيام، والسبب في نقلي هذه الرواية على علاتها أني كنت اطلعت في بعض الجرائد على مقالة لمسيحي مصري يقول: الرهبانية مبتدعة وليست من أصل الدين. وما كنا نعلم ذلك من قبل ظهور قصة القديس بولس الذي عثر عليه أنطونيوس في كتاب «الخريدة» المذكور، فقلت في نفسي: عجب! يقول الله: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ [الحديد: ٢٧] وجميع المسيحيين لم يعلموا أنها مبتدعة إلا في هذه السنة لما عثروا على تاريخ «القديس بولس» الذي ظلمه الملك بمصر، وقلت في نفسي: لا بد من البحث على هذا الكتاب، فاهتديت إليه، ونقلت منه العبارة بنصها وهاأنا ذا قرأتها وعرفتها.

أقول: أفي يقظة أنا أم في منام. هذه معجزة تفوق المعجزات النبوية الإسلامية، هذا الابتداع للرهبانية لا يعلمه المسلمون إلا إيماناً بالقرآن، أما اليقين فهو محتاج إلى العلم ولا علم عندنا، وإذا كان المسيحيون أنفسهم لا يعلمون فمن ذا الذي يعلم منا إلا بالسماع من القرآن. إني أحمد الله إذ وفقت لهذه النعمة وهي المعجزة الكبرى للإسلام والقرآن، وهل لك أن أسمعك ما جاء في الآثار؟ فقد

ورد عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر أن طائفة لم يستطيعوا القيام مع الملوك الذين ظلموهم لأجل إقامتهم على دين المسيح، فساحوا في البلاد، وترهبنوا، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾[الحديد: ٢٧]. وقال أيضاً: كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمار وذكر نحو هذا، ومنه: فتفرقوا في غيران الجبال وأحدثوا الرهبانية، ثم قال صلى الله عليه وسلم: «رهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله». وقال ابن عباس: كانت ملوك بعد عيسى عليه السلام بدلوا التوراة والإنجيل، وأطال في ذلك إلى أن قال: فجعل الرجل يقول: نكون في مكان كذا نتعبد كما تعبد فلان، ونسيح كما ساح فلان، ونتخذ دوراً كما اتخذ فلان، إلى أن قال: فذلك قول الله: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾[الحديد: ٢٧]، أي: ابتدعها الصالحون منهم، والذين جاؤوا بعد الصالحين ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾[الحديد: ٢٧] وهم الصالحون المبتدعون ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾[الحديد: ٢٧] أي: الذين جاؤوا بعدهم. انتهى ملخصاً.

وإني ليأخذني العجب كل مأخذ أن أجد ابن عباس والآثار والأحاديث كلها تنحو منحى قصة بولس وأنطونيوس ونحوهما، فذكر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه اضطهاد الملك والسياحة في البرية والمغاور والخوف من الملوك والضلالة من اتباعهم في عدم الرعاية أمر عظيم، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وهذا من أعظم توفيق في هذا التفسير من الله عز وجل. وإلى هنا تم الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾[الحديد: ٢٧]، والحمد لله رب العالمين.

اللطائف العامة في هذه السورة:

(١) في قوله تعالى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ ﴾[الحديد: ١].

(٢) في قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾[الحديد: ٤].

(٣) في قوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾[الحديد: ٢٠].

(٤) في قوله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ ﴾[الحديد: ٢٢].

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى:

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١) لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢) ﴾ الآيات

حضر صديقي العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير فقال: نحن نسبح الله ويسبحه ما في السماوات والأرض، فهو منزه في ذاته وصفاته وأفعاله، فأذكرك الآن بسؤال وجهته لك في سورة «النجم» تحت عنوان: لطيفة في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ (٤٧) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ (٤٨) وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ (٤٩) وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ (٥٢) وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾[الآيات: ٤٣-٥٥]، فقد قلت لك ما نصه:

الله أضحك وأبكى، الله أمات وأحيا، الله أهلك عاداً، الله أهلك ثموداً، وقوم نوح، وأهوى المؤتفكة، وانتهت الآية. إن هذه آلاء الله. الآلاء: النعم. أمن النعم أن يبكي العيون ويهلك الأمم؟ نعم هذا السؤال ورد كثيراً في هذا التفسير. وكثرت الإجابة عليه، ولكن النفس لا تزال تطلب المزيد فحدثني. أليس الله أرحم الراحمين؟ أليس الله قدوة لنا في أفعاله؟ الله أهلك أمماً وأبكى عيوناً. وإذا قتل أحدنا إنساناً عمداً دخل جهنم. الله يهلك أمماً. الله يسلط الميكروب على الأمم فيهلكها. ويسلط الأمم القوية على الضعيفة فتذلها. الله يسلط الوحوش على آكلات الحشائش فتأكلها، كل هذا فعل الله، لأن هذا نظامه، ثم تشريعه لنا على خلاف ذلك، فنحن بقتلنا إنساناً عمداً نعذب في جهنم يوم القيامة، وتحكم شريعتنا علينا بالقتل. وإذا كان الله أرحم الراحمين هذا فعله فكيف بنا نحن الضعاف في الأرض؟ هذه المعاني تتردد في نفسي صباحاً ومساء. وكل ما جاء في هذا التفسير من الأجوبة فيما مضى فإنّما هي أجوبة جزئية، والجزئيات لا تغني عن الكليات. فأنا الساعة يوم الأربعاء ١٢ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية، ٣٠ يناير سنة ١٩٣٢م أريد إجابة شاملة حتى لا أحتاج إلى سؤال بعدها في هذا الشأن. فقلت: ماذا تقول في آية: ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾[الأنبياء: ٢٣]. فقال: وماذا تقول في آية: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾[آل عمران: ١٨]. فنحن الآن في مقام السير في طريق أولي العلم الذين يشهدون ببصائرهم أن صانع العالم قائم في عمله بالقسط والعدل، نريد أن نشهد ونحن في الأرض كيف كان الله قائماً بالقسط في تدبير الخلق؟ وفوق ذلك نريد أن نفهم كيف يمكن الجمع بين هذا الإهلاك والإبكاء والتدمير وإبادة الأمم وإذلالها وبين اسمه «الودود»؟ ألم يقل الله: ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج: ١٤-١٦]. ولا جرم أن الودود يفعل ما يريد. ولكن هل يلقي وده إليهم، ويكون فعله محبوباً لأنه أتى على سبيل المحبة، وهو إهلاك المدن وإزالة الدول، وإبكاء العيون، أيكون ذلك وداً؟ وأيضاً جاء في القرآن آيات في سور كثيرة كلها دالة على تنزيهه في ذاته وصفاته وأفعاله، وذلك بصفة التسبيح والتسبيح تنزيه، وهذا المعنى جاء مصدراً وفعلاً ماضياً وفعلاً مضارعاً وأمراً مثل: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾[الإسراء: ١]، و﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾[الروم: ١٧]، وفي سورة «النجم»، وفي آخر السورة قبلها: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾[الطور: ٤٩]، وكذلك في سورة «الحديد»: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[الآية: ١]، ذكر الإحياء والإماتة، وفي آخر سورة «الحشر»: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[الآية: ٢٤]، وفي آخر سورة «المجادلة»: ﴿ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾[الآية: ٢٢].

إن رضا العبد عن ربه، وتنزيهه وحبه ووده يعوزه الاطلاع على جمال الأفعال، والأفعال الإلهية المذكورة مشكلة مع أوصاف الحب والود والرضا الخ. فأرجو الإجابة على هذا حتى لا أعود إلى السؤال كرة أخرى. فقلت: سأوضح الكلام في هذه اللطيفة إن شاء الله تعالى في هذه المعاني، وهنالك تتجلى المعاني التي تريدها وإن كان أكثر ما سأقصه عليك قد مضى كثير منه متفرقاً فيما مضى من التفسير، وسأشرح:

(١) النظام التكويني.

(٢) والنظام التشريعي وأنهما متفقان.

(٣) وأبين درجات التربية الست.

(٤) تربية الأم لولدها.

(٥) وتربية الأب له.

(٦) وتربية المعلم.

(٧) وتربية الحكومة للأفراد مع ما يتبع ذلك من نظام الجندية.

(٨) والتربية الإلهية وأنواع الزلازل والحوادث العظيمة.

(٩) وأن الأم حين تمنع ولدها ما يضره وهو يبكي لم يمنع ذلك حبها له، وقد ضربت مثلاً لدرجات التربية على بعدها، وبمقدار ازدياد العلم تعرف حقائق تلك التربية ويزداد الحب للمربي.

(١٠) وبيان أن العلم إما بهيئة سطحية كعلم الشعراء والأدباء. وإما بهيئة حكمية فلسفية عالية كعلم الحكماء، وإيضاح ذلك وتفصيله من كلام «كونفوشيوس» فيلسوف الصين الذي توفي في القرن الرابع قبل الميلاد.

(١١) ثم بيان أن الحب على مقدار العلم.

(١٢) بيان أن الله توارى عنا بحجبه. ولكنه قذف لنا كرات جميلة لا حصر لعددها وهي الشموس والكواكب، وهو يقربها ويبعدها ليجذبنا إلى حضرته، وجعل الشطرنج والنرد عند اللاعبين مثلاً لذلك، كما جعل الجمال والحب الأدنيين مثلين لجماله وحبه الأعليين، وصنع للناس في الأرض عجائب لولا حوادث الموت والحياة ومزعجات الليالي لذهلت عقولهم، فمن سرج تجري في سقف مرفوع تدور حولهم، ومن حدائق وحقول حولهم ومناظر بهجات، وتارة يرسل لهم شهباً تقترب من أرضهم ليوقظهم إلى العلا، ونسبة هذه الأعاجيب إلى صانعها كنسبة صفات الكرة والصولجان والنرد والشطرنج إلى مخترعيها، والتعجب يكون على مقدار إتقان الصنعة.

هذا ما سأذكره هنا قريباً إن شاء الله مع شذرات في الآيات التي ذكرتها أيها الأخ الذكي. فلما سمع ذلك قال: إن هذا لعجب! وإني في غاية الشوق لما وصفت، وهانحن أولاء وصلنا بعناية الله في التفسير إلى المقام الذي وعدتني أن تجيبني فيه. فقلت: هاأنا ذا أفي بعهدي الآن والله هو الموفق.

أيها الأخ الذكي، مدار سؤالك على أن حب الله ووده وتنزيهه وعدله متوقفات كلها على إدراك مقاصد أفعاله، فلأجعل هذا المقام في اثني عشر فصلاً مرتبات على مقتضى السؤال:

الفصل الأول: في النظام التكويني

اعلم أيها الأخ الذكي أن نظام التكوين مهما قلبنا طرفنا فيه لا نجد فيه إلا مقاصد الإصلاح والبقاء، وكل هدم وتخريب وإهلاك فإنه موجه إلى الإصلاح، خذ لك مثلاً: هذه العوالم حولنا، نراها في تغير مستمر، وهذا التغير منشؤه كله أن المادة لن تقبل إلا صورة وراء صورة، فليست كعقولنا التي هي أشرف منها وأرقى، إن عقولنا تسع ما لا حد له من الصور والعلوم في آن واحد، ولكن هذه

المادة التي جعلت لخدمة عقولنا لن تقبل إلا صوراً وراء صور، وصانع العالم يعلم صوراً من الوجود لا حد لها، وهذه الصور بحسب الرحمة العامة لا بد من وجودها، ولكن وجودها يستحيل أن يكون في آن واحد، فلا محيص إذن من شتاء وصيف وموت وحياة، وهكذا جميع المتناقضات، ولا مفر إذن من زلازل وبراكين لإحداث تربة جديدة، ولا محيص من موت الأحياء لتلبس أجسامهم صوراً جديدة لأرواح حديثة ترسل إلى الأرض، وهكذا كل حيوان وكل نبات، فالعقل بهذا البرهان يقضي أن تتعاقب الصور على هذه المادة، وأن هذا عدل وخلافه ظلم، وأيضاً الحياة في هذه المادة فيها شقاء، فلا بد من عروج هذه النفوس إلى عالم الأرواح لتستريح من هذا الشقاء.

فلئن رأينا موتاً وحياةً فذلك عدل وسواه ظلم بهذا البرهان، وكل ما تفرع على هذه القاعدة تابع لها، فمن فروعها عوالم الحيوانات الذرية التي تسمى بالميكروبات، تلك العوالم التي أعدت لإبادة أمم وأمم من الحيوان والإنسان. ومن فروعها عوالم الطيور الكواسر في الجو، والوحوش والسباع في الخلاء، والحر والبرد المفرطان المهلكان لبعض الحيوان، وعوالم الأمراض القاتلات، وعوامل الجيوش الإنسانية الفاتكة بجيوش أخرى من بني آدم فوق الأرض كما في الحرب الكبرى المبتدئة سنة ١٩١٤م المنتهية سنة ١٩١٨م، فهذه كلها من النظام التكويني، وصانع العالم كما ألهم الحيوانات الذرية أن تفتك بالإنسان والحيوان ألهم الجيوش الإنسانية في الأمم التي تسمي نفسها «متمدينة» بإهلاك جيوش أخرى، وعلمهم اختراع المهلكات والمدمرات لإبادة إخوانهم، كل هذه أفعال صادرات عن نفوس، تلك النفوس مخلوقة لصانع هذا العالم الذي صنعها وصنع نفوس الوحوش والأسود، فهذه الفروع كلها ترجع للأصل الذي قررناه وهو أن المادة لا تسع إلا صورة وراء صورة، فلا بد من تلاحق هذه الصور، وكل ما رأيناه من هذه الأعمال تنوعات ترجع لذلك الأصل، إذن أيها الصديق نظام التكوين معقول ومقبول. انتهى الفصل الأول.

الفصل الثاني: في النظام التشريعي

ولا جرم أننا إذا قررنا النظام التكويني السابق فليس معناه أن نجعل النظام التشريعي على مقتضاه. كلا. بل التشريع شيء والتكوين شيء آخر. فقال صاحبي: أليس الأمران من صانع واحد؟ فقلت: نعم. ولكن الصانع ميز عالم الإنسان عن هذه العوالم التي حوله كلها من شموس وكواكب وحيوان، أعطاه قوة عقلية، وقال له: أنا وضعتك هنا بين المتناقضات، ووهبتك قوة فاستعملها، وإياك ثم إياك أن تحتج بأني خلقتك، فلك قوة تمييز فاعمل بها. فإذا قتل الإنسان إنساناً عمداً وقال لصانع العالم: إنك تقتل الألوف والألوف، وتهدم المدن، وأنا يا رب ما قتلت إلا واحداً أو مائة، فأنا أفعل ما تفعله السباع في البرية، وما تصنعه الكواسر في الجو، وما تصنعه الحيوانات الذرية من إهلاك الناس، فهبني يا رب ميكروبات، أو فهبني يا رب من كواسر الطيور، أو من أسد البرية، أو هبني جندياً من جنود أمة من الأمم تغزو أمة أخرى، فإنك سلطتها على غيرها فتبيد منها جنوداً وجنوداً، وقد قضى نظام تكوينك أن تلبس المادة صورة وتخلع أخرى، وأنا من الذين ساعدوا في ذلك، فهل علي من سبيل؟.

إذا قال الإنسان ذلك لصانع العالم يقول له مجيباً: أيها الإنسان، هذه الكواسر والسباع وحيوان الميكروب القاتلات كلها مسخرات بأمري، لها غرائز قضت عليها بذلك، ولا حياة لها إلا به، فلم يكن مقصدها الإهلاك والتدمير، وإنّما غرائزها موجهات لما خلقت له، فهي أشبه بالحر والبرد والزلازل، فلا مقاصد شريرة هنا، فالحر والبرد لا إدراك لهما، وكذا الزلازل، وهذه الحيوانات مرغمات على ذلك، أما أنت وإن كنت مثلها في أنك مساعد على أن تلبس المادة صورة غير الصورة التي تلبسها، فتخلع قديماً وتلبس حديثاً، فإن عملك موجه لفكرة جزئية وهي فكرة الانتقام، وإما كراهة في المقتول، وإما أن تفعل ذلك لتأكل ثمرات كسبه، والأمور بمقاصدها، فإذا فعلنا الإهلاك والتدمير في أرضنا فذلك قام عليه البرهان السابق الذي لا مناقض ولا مناهض له، لأننا نريد الإصلاح العام، فأما أنت فلم ترد بعملك الإصلاح العام، وإنّما أنت أردت شهوة خاصة، وهو إشباع قوتك الغضبية انتقاماً، أو إشباع شهوتك البهيمية اغتناماً لمال المقتول، وفرق بين عملنا وعملك، فلوجود هذه القوة فيك أصبحت بها مسؤولاً أمامنا، نعم. أنت بقتلك إنساناً فعلت ما نفعله نحن بحسب الظاهر، ولكن ليس المدار على الفعل بل على الباعث عليه، وباعثك شهوتك وغضبك، وباعث فعلنا رحمة عامة موجهة للمجموع، وقد تفرع عن هذه الرحمة كل ما حولكم مما اشتبه عليكم، ولعلك بهذا تفهم قولنا في الكتاب الكريم: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾[الأنعام: ١٤٩]، فهذه من حججنا البالغة التي ادخرناها في عوالمنا لتظهر للعقول الكبيرة في أرضكم. انتهى.

أقول: هذا هو الجواب الذي خطر لي اليوم، الموجه من جناب صانع العالم إلى عبد من عباده يسأله السؤال المتقدم، كتبته اليوم صباح الجمعة ١٦ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية، ٢٢ يناير سنة ١٩٣٢م، وعلى هذا يتفرع أن قتل الخطأ لا قتل فيه، وإنّما فيه الدية، وبه يظهر معنى: ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾[النساء: ٩٣] في الآية. وإلى هنا تم الكلام على الفصل الثاني، والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثالث
في ذكر الآلام التي تحيق بالإنسان

فقال صاحبي: هذا جواب جميل وبهيج وحسن، ولكني أريد أن أتبين وجوه تلك الآلام التي تعترينا وما وجه الحكمة فيها؟ فقلت: لقد شرحت هذا في التفسير في مواضع كثيرة جداً، لا سيما في تفسير البسملة التي تكررت هي وتفسيرها في كل سورة. فقال: ولكننا نريد أن نعرف هنا معرفة عامة. فقلت:

الفصل الرابع
أول مثل ضربه الله لفعله في خلقه هو فعل الأم في طفلها

معلوم مما تقدم أن الأم أكثر الناس عطفاً على ولدها، ولكنها قد تجرعه الدواء، وتلبسه اللباس وتغسل جسمه، وهو كاره وكثير البكاء، ولكن الأم لا تبالي بذلك كله، بل تفعل المصلحة ولا تبالي بآلامه، ولما كانت الأم أقل من المربين لولدها إدراكاً، تلقفه بعدها من هو أولى بتدريبه وتعليمه وتهذيبه منها، وهو الأب المذكور في:

الفصل الخامس

ذلك أن الأب يأخذه إلى الحقل، أو إلى المعمل، أو إلى المدرسة، ويحكم عليه بأن يعمل ويجد والأم غالباً تشفق عليه في ذلك كله، ولكن الأب لا يبالي بما يقاسيه ولده، وهناك من هو أوسع علماً من الأب، وهو المذكور في:

الفصل السادس

ألا وهو المعلم، فيزيد في تثقيفه وتعليمه وتدريبه، وهذا يسلمه إلى الأمة وإلى الحكومة في:

الفصل السابع

ذلك أن هناك ما هو أوسع مدى من الأم ومن عطف عليها حتى المعلم، ذلك أن في الأمة حكومة وقضاء، والقضاء قد يحكم عليه بالتغريب، أو الأشغال الشاقة، لجرم ارتكبه، فهاهنا رحمة أوسع من رحمة من تقدم، ذلك أن الرحمة هنا شاملة لمجموع الأمة، وهذا فرد منها، وحياة الفرد لا قيمة لها إلا بحياة المجموع، فإذا ظهر من الفرد ما يخل بحياة المجموع مرض المجتمع، ويتبعه الأفراد، وهذا واحد منهم، فهذه رحمة أوسع، وقد تجمع الأمة الجموع لحرب غيرها، دفاعاً عنها، أو اغتيالاً وظلماً لها، فالفرد هنا مسير بقوة المجموع، ونيته هنا ـ وإن كانت تابعة للمجموع في حال الاغتيال والظلم ـ موجهة لعموم أمته لا له وحده، والقاتل لغيره عمداً أكثر إجراماً من هذا وإن كان كلاهما مجرماً، وهل هناك تربية فوق هذه إلا الآتية في:

الفصل الثامن

في التربية الإلهية التي لا تقف عند ما تقدمها، فهناك المصلحة العامة، فلتكن الزلزال، ولتكن البراكين، ولتزل بلاد، وليمت أهلها، وليكن وباء عام، ولتخسف أرضون، بل لتزل شمس، وأرض من لوح الوجود، فهل هذه كلها إلا كموت زيد وولادة عمرو، القاعدة مطردة والفعل في غاية النظام، والمثل لهذا كله ما في:

الفصل التاسع

وهو ما نشاهده من رحمة الأم بولدها مع صبرها على بكائه عند إعطائه الدواء الذي أمرها به الطبيب، وهل بعد ما بيناه من درجات التربية من أدناها إلى أعلاها إلا أن نذكر في:

الفصل العاشر:

التربية العامة في مدارس العالم الإنساني قديماً وحديثاً

وإلى أي حد وصل هذا الإنسان؟

وهل الأولون والآخرون يرمون لغرض واحد؟ وما هو ذلك الغرض؟

فاعلم أيها الذكي أن التعليم إما ظاهري سطحي، وإما بهيئة حكمية عالية، فالأول كعلم الشعراء والأدباء والخطباء والوعاظ، ورجال الديانات في الأرض، والثاني كعلم الحكماء والفلاسفة، وهاهنا وصلنا إلى أبواب المحبة والجمال والسعادة، لا جمال ولا سعادة إلا بالحكمة، نعم. الأم تربي، والأب والمعلم، والمدن تنظم، ولكن المقصود من وجود هذه الأرواح الأرضية استنارتها وحبها

ومعرفتها الجمال، ثم عروجها إلى أعلى، وذلك لم يكن، ولا يكون ولن يكون إلا بجد الإنسان نفسه ومحبته هو، إن مباحث الإنسان كلها موجهات إلى إدراك حقائق جميع الأشياء إجمالاً، وذلك من الحب والشغف الموجه للمعرفة، فلنذكر أولاً أوصاف هذا الحب إجمالاً، ثم نقفي على آثاره بوصف الشعراء له، ثم نتبعه بالآثار العالية للحب وهي الفلسفة، فهاهنا ثلاث جواهر:

الجوهرة الأولى:في وصف الحب

ولقد أعجبني الموضوع الآتي في وصفه

قال بعض الأدباء: إن الإنسان الذي يبتغي أن يعيش بالسلام والهناء لا بد له من معرفة قواعد الحب كما يعرف قواعد الكيمياء مثلاً، أو أنظمة البلاد التي يقيم فيها، وهي مسألة حياة أو موت، فليس الحب أعمى كما يزعم بعضهم، بل هو بعكس ذلك يعرف دون سواه أن يبصر الحقيقة، ولا يقتصر في ذلك على العلاقات بين البشر، بل يتناول غير ذلك أيضاً، فلماذا يعد «أديسن» في مصاف الدهاة حينما يدور الكلام على اختراعاته على اختلاف أنواعها؟ فقد يجاوب بعضهم على هذا السؤال بقوله: لأنه أوتي دهاء وعلماً. لا ننفي ما للدهاء والعلم من المقدرة، ولكن الأمر الجوهري الذي مهد له سبيل الوصول إلى أغراضه هو حبه للعمل في مختبره ووقف نفسه عليه.

إن الذي لا يحب الخيل لا يستطيع أبداً قيادة الخيل. إن الطاهي البارع هو الذي يسر في مزاولة الطبخ. إن القصصي القدير هو الذي يحب الأشخاص الذين يختلقهم محبة شديدة. إن الممثل الممتاز هو الشديد الولوع بفنه. والخطيب المصقع هو الذي يميل ميلاً شديداً إلى الفصاحة. وليس في العالم قوة أعظم من قوة الحب، وليس فيه رؤيا جلية أجلى من الحب، وليس فيه حكمة أسمى من الحب، وليس فيه فضيلة دينية أفضل من الحب، ولا يستطيع المعلم أن يعلم التلاميذ شيئاً إذا لم يكن يحبهم، ولا ينشأ عن المال خير دائم، ولكن القلب المحب ينشأ عنه خير حقيقي أكبر مما ينشأ عن جميع هبات «كارنجي» و«روكفلر».

الحب يرى الأشياء واضحة، أما عدم الاكتراث فيراها قاتمة، وليس في العلم سوى مأساة واحدة وهي فقد الحب، والحب دون سواه مبدع أما البرودة فعقيمة، ويزعم «غوتي» أن «مفيستوفيليس» روح الشر هو تخيل محض وأنه لم يحب أحداً، وقد جاء في الإنجيل: إن الله محبة، ولم تصنع الأرض إلا للذين يحبون، أما الذين لا يحبون فمعدودون في جملة الأموات وإن كانوا أحياء يرزقون، وكانوا على سطحها يمرحون. انتهى ما أردته من جريدة الأهرام، وبهذا تم الكلام على الجوهرة الأولى، والحمد لله رب العالمين.

الجوهرة الثانية:وهي طبقة الشعراء

فهل لك أن تسمع قصيدة بديعة لشاعر صيني يرثي نفسه قبل موته، عاش سنة ٢٣٥٠ ق.م.

جاء في جريدة «الجهاد» يوم الاثنين ١٨ يناير سنة ١٩٣٢، ١٠ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية ما نصه بالحرف الواحد: نشرت «البرلنرتاجيلاط» ترجمة قصيدة بديعة عثر عليها المنقبون حديثاً، وقد كتبها يرثي بها نفسه الشاعر الصيني «تاوياممنج» الذي ولد في سنة ٤٢٧ قبل الميلاد وتوفي في سنة ٣٦٥

ق. م، والقصيدة تدل على خيال بديع، وزهد في الحياة، واحتقار لمتاع الدنيا، وإليك ترجمتها: نحن في الشهر الأخير من سنة «تنجماو» والبرد شديد، والليل طويل، كأنّما لا آخر له، والريح تعصف بقوة، وطيور الليل تضرب بأجنحتها، وترسل صراخها الثاقب. أما الأشجار فقد رأيتها في النهار وقد ذبلت أوراقها، وجفت غصونها، ودب فيها الجفاف كما يدب الموت في الحياة، وهاأنا ذا أتأهب لمغادرة دار الضيافة «الدنيا» التي عشت فيها غريباً وحيداً، لكي أعود إلى الأبدية التي لا نهاية لها، والتي هي موطني الحقيقي. سيبكي الذين عرفوني، وسيتصدق أهلي بالنبيذ النقي، والفاكهة الناضجة، وسترقرق الدموع في عيونهم، فما أتعس الحياة.

أنتم يا من ستقرؤون مرثيتي لنفسي، إنكم وفرتم لأبدانكم كل أسباب النعمة، أما أنا فولدت فقيراً. وعشت فقيراً، وكنت دائماً في حاجة إلى الطعام، وكانت شراييني تنقصها الدماء. كنت في الشتاء أرتدي ملابس الصيف، ولكني عشت سعيداً وأموت الآن سعيداً. ولطالما انحدرت إلى الغدير أملأ من مائه آنيتي وأعود منه مسروراً أغني قصائدي وأردد مقطوعاتي.

كنت أختبئ تحت كومة من الأوراق الذابلة، وأواصل الليل بالنهار في نظم القصائد، ومتى فرغت من قصيدة أخذت أغنيها كالبلبل الغرد، أغنيها وأشتغل في حديقتي، والربيع يقبل وينقضي، والخريف يأتي تلو الخريف وأنا أزرع وأحصد، وأنظم القصائد. كنت أجد في القراءة والعزف على القيثار سروراً ليس بعده سرور، وكنت في الشتاء أبحث عن الشمس، وفي الصبح أسبح في ماء الغدير، وكانت حياتي مجموعة من العمل الشاق، ولكني كنت سعيداً مرتاح البال، أقابل إرادة السماء بنفس طائعة مطمئنة، وهاأنا ذا أوشك أن أغادر الحياة كما دخلتها.

الناس يحبون الحياة، ولديهم دائماً أعمال، يشفقون أن يخترمهم الموت قبل أن يفرغوا منها، فهم عبيد الأيام والساعات، وهم محبوبون طالما هم يعيشون، ومتى طواهم الموت فقل أن يذكرهم أحد، وإن ذكروا فبطيبة أو خبيثة، أما أنا فأغادر الحياة وحيداً، ولم أخلف فيها ما يشرفني أو يوصمني وليس لي فيها ما أحرص عليه، فأنا سعيد في الحياة، سعيد في الممات، وسيان عندي البقاء والعدم. انتهى ما جاء في الجريدة المذكورة.

أقول: إنّما اخترت هذا الشاعر لأنه من الأمور الغريبة لتوغله في القدم، فلتجتز هذه الدرجة إلى ما هو أعلى منها وهي الآتية في:

الجوهرة الثالثة: آثار الحب العالية وهي الفلسفة

فاعجب لحكمة الأمم المتوغلة في القدم وهي التي سأذكرها لك الآن كيف اصطلحت واتفقت مع الحكم التي عرفتها أمم بعدها، ولا مواصلة بين الأولين والآخرين، فاعجب هنا من قصائد «المهاباراتا» السنسكريتية، ومعلوم أن «المهاباراتا» مجموعة علواءات، أو قصائد حماسية، تحوي أكثر من مائتي ألف بيت في وصف الحروب القديمة، ويقدرون أنها وضعت في القرن الخامس عشر أو السادس عشر قبل المسيح، فأصبحت وكأنها دائرة معارف لعلوم الحكمة البرهمانية وتعاليمها ومنبع آداب وجمال لا ينضب.

ومن المجموعة الشعرية الأخرى التي تضارعها شهرة وأهمية هي « الرامايانا » ، فهذان الكتابان في الهند بمثابة « الإلياذة » و« الأوديسا » في بلاد اليونان ، ولئن نسب كتابا الإغريق إلى شاعر فرد هو « هوميروس » رغم قول القائلين اليوم بأن هذا الشاعر لم يوجد أصلاً ؛ فإن شاعر « الرامايانا » يدعى « فلميكي » أما علواءات « المهاباراتا » فتعرف باسم « فياسا » جامعها فقط ، إن « المهاباراتا » المذكورة تشمل قسماً عظيماً منها يختص باسم « البهجاوات جيتا » ، وهذه خاصة ترجمتها إلى الإنجليزية السيدة « أني بيزانت » ، فاطلع عليها قراء اللغة الإنجليزية في زماننا ، ولقد وصفت « مسز بيزانت » المذكورة هذه القصيدة التي ترجمتها إلى الإنجليزية قائلة ما ملخصه :

بين التعاليم الثمينة المودعة في « المهاباراتا » الكتاب الهندي العظيم ، ليس من تعليم أندر وأثمن من « البهجاوات جيتا » ومعناه نشيد السيد ، فمنذ أن أرسلت هذا النشيد الفخم شفا « كريشنا » الإلهتان في ميدان الوغى ليهدئ انفعالات تلميذه وصديقه « أرجونا » : كم من قلب هو طمأن وشدد ، وكم من روح معذبة قد اقتاد إليه ، إنّما الغرض منه رفع طالب الرفعة من أدنى دركات التضحية السطحية إلى أعلى المراتب حيث تتضاءل الرغبات ، وحيث يمكث الحكيم الصميم في تأمل هادئ ، بينما جسده وعقله يقومان في نشاط بالواجبات المنوطة به في الحياة ، فالحكمة الحكيمة حقاً لا تعني انعزال الجانب الروحي من الإنسان ، بل توجب تحقيق اختباراته في الأعمال الزمنية اليومية ، كائنة حقارتها ما كانت ، على أن يفكر المرء في رقيه الخلقي والروحي . وعلى أن يعلم أن الحواجز القائمة دون ذلك الرقي ليست متأتية من الخارج ، بل هي منبثقة من داخل النفس ، ولبلوغ الرفعة الروحية لا بد من الحصول على كمية خاصة من التوازن والانسجام النفسي ، بحيث يصبح المرء غير متأثر بالمسرات والآلام ، بالشوق والنفور وغيره من الانفعالات المتناقضة المتعاقبة ، فليتعلم القارئ إذن فن ترويض نفسه على أن لا تجذبه الجواذب . ولا تزجره الزواجر ، بل يستخلص من هذه وتلك دروساً تقوده وتهديه إلى أعلى المبادئ في وسط المحن والغموم ، فيقوم بواجبه كله على أتم وجه ممكن ، لا لأنه ينتظر نتائج عمله بل لأن القيام بالواجب مفروض عليه . يعمل لأن في العمل شرفاً وترويضاً وفائدة ، يعمل ليعمل ويزرع البذور دون أن ينتظر لنفسه جني الثمار . اهـ .

أنا اخترت نقل هذه القطعة من كلام هذه الكاتبة المترجمة معجباً بتعاليم صدرت قبل الميلاد بنحو ١٦ قرناً ، ونار انبعثت من الوجدان الإنساني العميق ، ثم ظهرت الآن حديثاً . فأدهشنا والله هذا القول ، أدهشنا لأننا نرى روح الإنسان الوثابة لم تفتأ تجدّ ، ولن تفتأ حتى تقرب من الحقيقة ، وهل الحقيقة التامة إلا أن أعمل حباً في نفس العمل؟ نعم هو ذلك . فهاهنا يقول الله : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ [الحديد : ١-٢] . إن عمل الله موجه للمصالح الهامة كما قدمناه ، وكل من كان أقرب إلى نفس المصالح العامة فهو إلى الحكمة العليا أقرب ، ولن يبلغ هذه المرتبة أحد بمجرد القراءة . بل لا بد من شعور يفيض من النفس بعد الاطلاع والتعمق . أما ظواهر العلم فلا تعطي هذا الشعور والإدراك الجميل ، وقد آن أن أحدثك عن مصير علم الحكمة في العالم بعد ذلك التاريخ ، وقد تقدم في سورة

« الحجرات » عند آية : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ ﴾[الآية : ٩] حكمة « كونفوشيوس » حكيم الصين المتوفى سنة ٣٧٨ ق . م وأنه جعل نظامها هكذا :

(١) أولاً : مشاهدة الأشياء والأفعال المحيطة بنا .

(٢) ثانياً : متى كملت المعرفة خلصت الأفكار وتنزهت الأغراض .

(٣) ومتى تنزهت الأغراض تهذبت الأخلاق وتنقت النفوس .

(٤) ومتى تنقت النفوس انتظمت الأسر .

(٥) ومتى انتظمت الأسر انتظمت الدول .

(٦) ومتى انتظمت الدول أصبحت الأرض كلها تمرح في السعادة والحبور .

هذا ملخص ما تقدم هناك وهو هنا أكثر وضوحاً مع الاختصار . اللهم إنك أنت العزيز الحكيم ، سبحت لك الأفلاك . سبح لك ما في السماوات والأرض ، لأن كل ما فيهما يرى لك عزة بها قهرت كل مادة فصارت مصوغة كما تريد ، وهذه الصياغة محكمة ، فأنت عزيز وأنت حكيم .

ينظر العقلاء في سماواتك وأرضك فيرون مادة بلا نهاية يرونها . وحكمة في تلك الصور لا حد لها ، ثم يرجعون إلى الحقائق والعقول ، فماذا يرون؟ يرونك جعلت العقول المنقطعة التواصل ؛ المتباعدة المناهج ؛ المنفصلة المساكن ؛ المتطاولة الأزمنة ؛ ترمي لغرض واحد . وما هو هذا الغرض؟ هو تسبيحك وتقديسك بحب وشوق وغرام لك وولوع .

يا رباه ، هاهي ذه « المهاباراتا » باللغة السنسكريتية قبل ٣٥ قرناً وهي مائتا ألف بيت . هذه « الرامايانا » هاتان موسوعتان لعلوم أمم وأمم قبلنا . وهاهي ذه خلاصة من أولى المجموعتين . فكانت النتيجة نظرة عامة في الوجود ، وحب لخالقه ، وصبر على السراء والضراء ، وذلك كله تابع للحب ، وهاهو ذا الشاعر الصيني منذ ٢٤ قرناً نراه يحوم حول هذا المعنى بدون تعمق . وهاهو ذا في نفس ذلك القرن الفيلسوف كونفوشيوس الصيني يلقي لنا درساً في عدة أسطر ، فنرى علم الفلسفة كلها ملخصة فيها ، فقد ذكر ظواهر الطبيعة التي تشمل الرياضيات والطبيعيات ، وانتقل إلى تهذيب النفس وآداب الأسرة ونظام الدولة .

هذا ملخص فلسفة الأمم الحديثة قد ظهرت عند الصين قبل الميلاد ، والترتيب هو نفس الترتيب . ولما كانت فلسفة اليونان قد نقلت إلى علماء الإسكندرية ، وإلى الفرع الشامي والفرع الأثيني بعد الميلاد وأيام حكم الرومان قرؤوا نفس هذه الفلسفة على هذا الأسلوب نفسه ، وانتقلت إلى المسلمين بنفس هذا الترتيب : ظواهر الأشياء ، ثم معرفة الله ، تهذيب النفس ، ثم الأسرة الخ . وهو نفس ما قاله كونفوشيوس الصيني . ولما وصلت هذه الفلسفة إلى أوروبا وقرأها « بيكون » الإنجليزي غير النظام ، ولكن الجوهر واحد ، فقال : أولاً : إن جميع العلوم نسميها تواريخ ، والتواريخ ترجع لقوة الذاكرة ، فالذاكرة تذكرنا بالتاريخ البشري والتاريخ الأثري الذي جاء في الديانات وبالتاريخ العلمي ، فنقول : التاريخ الطبيعي والتاريخ الرياضي الخ . وهاهنا يختص أناس بعد هذه العلوم بالبحث في نظام الطبيعة ومعرفة الله ومعرفة النفس ، فهاهنا نظام عام في مقابلة نظام أجسامنا الخاص ، وهاهنا مدبر عام لهذا

النظام في مقابلة المدبر الخاص لأجسامنا وهي نفوسنا، فكان علم النفس التي بها يعرف المنطق فعلم الجمال فنظام الأمة والأسرة والقوانين العامة، إذن نظام الفلسفة الذي صوره « بيكون » هو نفس النظام القديم المنقول عن اليونان، وهو هو ذلك الذي أجمله « كونفوشيوس ».

الله أكبر، علم واحد ونظام واحد تهتدي به العقول قديماً وحديثاً. ونسمعك في كتابك تقول: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الحديد: ١]، فكان جميع المسلمين على نمط واحد، وكيف لا يكونون على نمط واحد والمنبع واحد، وكيف لا يكونون على نمط واحد ونحن نرى كونفوشيوس الصيني الذي بهر الصين بحكمته مغرماً بك غرام كتاب « المهابارتا » وما فيه من « البهجاوات جيتا » الذي اتضح فيه معنى آية هي في نفس سورة « الحديد ». كتاب « البهجاوات جيتا » الذي ترجم إلى الإنجليزية حديثاً، وقد ترجمته فتاة، هذا الكتاب نتيجته قد ظهرت في آية في نفس هذه السورة، أي: سورة « الحديد »، يقول الله: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[الحديد: ٢٠-٢٣].

أفلا تعجب معي أيها الذكي المطلع على هذا التفسير، فهل كان يدور بخلدي حينما ابتدأت في كتابة تفسير سورة « الحديد » وأنا أرتب هذا الموضوع أن خلاصة ما في كتاب « البهجاوات جيتا » هي نفسها في آية من هذه السورة، إذ يقول تعالى: إن ما يصيبكم أيها الناس قد كان عندي في كتاب، وإنما أقص عليكم ذلك لأجل ألا تفرحوا ولا تحزنوا، فإذا كان كل شيء مرتباً منظماً عندي فما شأنكم أنتم؟ وكيف تفرحون بشيء لا عمل لكم فيه، أم كيف تحزنون على شيء فاتكم وأنا الذي قضيت بفواته لكم، فلتكن حياتكم حياة تسليم في كل وقت، وقد ضربت لكم المثل المحسوس، وهي الأم تستعذب العذاب في سبيل مرضاة ابنها لأنها تحبه، فالحب يجعل الصعب سهلاً، أحبت الأم ابنها فهي لا يهنأ لها طعام ولا شراب ولا حياة إلا بإرضائه وإسعاده.

هذا مثل مشاهد لآثار الحب، وليست الفلسفة الملخصة من تاريخ علوم الأمم قديماً وحديثاً المعبر عن نتائجها بقوله تعالى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الحديد: ١] الخ إلا نبراساً للحب أي: حب صانع العالم، وحب نفس العالم من حيث نظامه، وحب الناس وإسعادهم، وهذا الحب نتائجه استعذاب العذاب في سبيل انتهاج الخطة المثلى التي اختطها مبدع العالم من حيث المعرفة العامة وسعادة المجموع.

فإذا كانت الأم مغرمة بابنها وهذا الغرام أنساها الآلام؛ فهكذا كان حكماء الأمم قديماً، وهكذا سيكون حكماء هذه الأمة الإسلامية في مستقبل الزمان.

يا الله، تقطعت قلوبنا أسى وحسرة على أمم الإسلام، فأنلنا ما نريد فوق ما أنلتنا، يا الله، أنا لا أدري وأنا أكتب هذا الموضوع بأي فكر أكتب، أكاد أكون منفذاً لفكر ليس لي.

تحدثنا بنعمة الله، جلست حين أردت الابتداء في هذا الموضوع، فرأيته موضوعاً مشتت غير منتظم. وكل ما ليس منتظماً فليس بمشوق لقراءته، لأن الجمال يتبع النظام، وما ليس بمنتظماً ليس بجميل، هنالك ودعت القلم والقرطاس وقلت: إلى الملتقى، ثم رأيت الشمس أمامي ضحى، وقد تقدم في هذا التفسير في أول سورة «يونس» عند الكلام على الشمس وضيائها؛ كيف نصح الأطباء بأن يجلس الإنسان في الشمس عارياً ما عدا العورة شرعاً، وما عدا الرأس طباً، ففعلت ذلك وبقيت فيها أتلقى أشعتها، وأحمد خالقها الذي علمنا علماً يجهله أكثر هذا النوع المتمدين الإنساني، الذي حرمت عاداته عليه أن تباشر أشعة الشمس جسمه، وهي أكبر نعمة حظي بها النبات والحيوان، وحرمها الإنسان لجهالته، وبذر وأسرف في الملابس جهلاً وغروراً، ورثها عن الآباء تقليداً، وما أقبح التقليد، فجلست نحو ساعتين، وفي أثناء ذلك كنت أحس بسعادة، لأني تلقيت أشعة الشمس ولو قليلاً من ساعات النهار، وما كدت أقوم من مجلسي حتى رأيت في نفسي عجباً، رأيت هذا الموضوع المتشعب قد رتب اثني عشر فصلاً منظمة مرتبة، فلم يسعني إلا أن قمت من فوري وقيدت الفصول التي أسمعتها لك قريباً، وأخذت أشرحها، وهذا تمام الفصل العاشر منها.

الفصل الحادي عشر: في بيان أن الحب على مقدور العلم

إن هذا المقام ظاهر في كثير من مواضيع هذا التفسير، ولكن نذكرها هنا جملة وجيزة تناسب هذا المقام، الأمم تسبح ربها، وما في السماوات والأرض يسبح لله، وفلاسفة الصين واليونان والعوالم كلها تسبح له. والتسبيح ذكر، والذكر يتبعه الفكر، ألم تر إلى قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[آل عمران: ١٩١] الخ. والتفكر يوجب المعرفة، والمعرفة يتبعها الحب.

الأعمى لا يحب الصورة الجميلة لأجل جمالها، لأنه لم يعرف. هكذا عمي القلوب لا يعرفون جمال هذه الدنيا. لأن عيون قلوبهم لم تشاهدها، وهذا باب واسع لا آخر له، وانظر آخر حديث في البخاري قال: حدثني أحمد بن إشكاب حدثنا محمد بن فضيل عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم» اهـ.

فهاتان الكلمتان الخفيفتان على اللسان هما التسبيح المقرون بالحمد تارة وبعظمة الله أخرى. الله أكبر. نطق اللسان بها وهي سهلة عليه، ولكن الميزان بها ثقيل، وهل يثقل الميزان إلا بما أودع في التسبيح من العلوم التي يعقلها الإنسان، وهل لعلوم التسبيح آخر؟ أليس له ملك السماوات والأرض أليس يحيي ويميت، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن الخ. كل هذه مقرونة بالتربية، وهذه يعوزها علوم وعلوم، وعلى مقدار الغرام بالعلم والوصول للحقائق يثقل الميزان، وإذا لم نحس في أنفسنا في الحياة الدنيا ببهجة العلم وارتقاء النفس به والابتهاج بآثاره؛ فلا وزن في الآخرة، إن الميزان في الآخرة

على مقدار ما حصلنا في الدنيا، فإن كنا من العباد؛ فالميزان على مقدار إحساسنا بآثارها، وإن كنا من المفكرين؛ فعلى مقدار علومنا وتأثرنا بها يزداد ميزاننا رجحاناً، ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]. انتهى الكلام على الفصل الحادي عشر، والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثاني عشر: في أن الله عز وجل توارى عنا بحجبه

ولكنه قذف لنا كرات لا حصر لعددها، وهي الشموس و الكواكب

وهو يقربها ويبعدها ليجذبنا إلى حضرته العلية

وجعل الشطرنج والنرد عند اللاعبين مثلاً لذلك

كما جعل الجمال والحب الأدنيين مثلين لجماله وحبه الأعليين

وضع الله للناس في الأرض عجائب لولا حوادث الموت والحياة ومزعجات الليالي لذهلت عقولهم، فمن سرج تجري في سقف مرفوع تدور حولهم، ومن حدائق وحقول تحيط بهم، ومناظر بهجات، ولم يكتف بتلك الكرات البعيدة الجميلة، بل أرسل لهم شهباً تقترب من أرضهم ليوقظهم إلى العلا، كأنه يقول: هذه نموذج للشموس والكواكب، ونسبة هذه إلى صانعها كنسبة صفات الكرة والصولجان والنرد والشطرنج إلى مخترعيها، أو كنسبة آلات النور وآلات الصوت إلى مخترعها، وهو «أديسون» في زماننا.

الله أكبر، صنع العبد بالنسبة لصنع صانعه أقل بما لا حد له من عمل الأطفال وهم يركبون العيدان ويجرون في الطرقات بالنسبة لآبائهم وهم يركبون الجمال والخيل. جلّ الله، أين نحن من عجائب مدهشات أشار لها الله تبارك وتعالى هنا في هذه الآيات، فقال: إنه له ملك السماوات والأرض وإنه يحيي ويميت وإنه على كل شيء قدير الخ. فما هو هذا الملك؟ هذا الملك منه شمسنا، منه مجرتنا، مجرتنا التي يقول «سيزر» وهو أحد علماء مرصد جبل «ولسن»: إن فيها ٣٠ ألف مليون نجم. ويقول «تاييلي» وهو أحد أساتذة الفلك في «هارفرد»: إنها مائة ألف مليون نجم، ويبلغ قطر المجرة الأطول ٢٢٠,٠٠٠ سنة ضوئية، وهي المسافة التي يقطعها الضوء في ٢٢٠,٠٠٠ سنة بسرعة ١٨٦٠٠٠ ميل في الثانية الواحد، هذه مجرة واحدة، أو هذه جزيرة واحدة من الجزائر التي خلقها الله في هذا البحر الواسع، ذلك البحر الذي امتلأ بمادة ليست ماء ولكنها أمر أشبه بخيالنا سموه الأثير، تبارك الله رب العالمين.

فهذه الجزيرة التي سميناها مجرة فيها شموس كشمسنا أو أعظم بما لا حد له، وعدد الشموس من ٣٠ ألف مليون شمس إلى مائة ألف مليون شمس، فهذه الجزيرة الواحدة لها أخوات فما عدد هذه الأخوات يا ترى؟ عدد ما يمكن معرفته منها مليونان ـ كما يقوله هبل أحد علماء مرصد جبل ولسن ـ على اعتبار أن تلسكوب المرصد المذكور في الوقت الحاضر ١٠٠ بوصة، وكل واحد من هذه الجزائر التي سميناها مجرات يبعد عن الآخر مليوني سنة ضوئية، وأبعدها عنا يبعد ١٤٠ مليون سنة ضوئية، ومتى تم بناء التلسكوب الجديد الذي سيكون قطر مرآته ٢٠٠ بوصة يتمكن الراصدون من الوصول به إلى ١٦ مليون مجرة من هذه المجرات بدل من مليونين، والمجرة الواحدة من هذه الستة عشر

مليون فيها مادة تكفي أن يكون منها نحو ألفي مليون نجم. هذه آراء علماء الفلك في معرفة ملك الله. وبعبارة أخرى: هذا آخر ما يفهمه النوع الإنساني في تفسير قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الحديد: ٢]. فيقال:

أولاً: ما الذي عرف الناس من ملك السماوات

وثانياً: ماذا عرفوا من ملك الأرض

والإجابة على الأول: أن الناس يظنون اليوم أن هذا الملك يصل إلى ١٦ مليون مجرة تضرب في ألفي مليون شمس كشمسنا، ما هذه العظمة؟ ما هذا الملك العظيم؟ ما هذا الإبداع؟ هذا هو قول المصلي: الله أكبر. وهذا قوله في صلاته: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾. وهذا قوله: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾. وهذا هو التسبيح: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الحديد: ١]. يقرأ المسلم: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾[الآية: ٤٩] في آخر سورة «الطور»، ثم يقرأ بعدها: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾[النجم: ١] أقسم الله بالنجم وهذا بيت القصيد، أقسم بالنجم ليلفتنا إليه لنعرف سعة ملكه الذي ظهر بعضه في زماننا، ولذلك يقول في سورة «الواقعة»: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾[الآيتان: ٧٥-٧٦].

عجب! يقول: ﴿ لَّوْ تَعْلَمُونَ ﴾[الواقعة: ٧٦] ولقد علمنا اليوم بعض تلك العظمة التي بها نفهم أمرنا بالتسبيح في آخر نفس سورة «الواقعة»، ونفهم الأخبار بأنه: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الآية: ١] في أول «الحديد».

أيها المسلمون، القرآن لهذا نزل. أيها المسلمون، أنتم مأمورون أن تسبحوا، وهذا هو التسبيح، وهل يكفينا في هذا المقام، أي: في الإجابة عن السؤال الأول؛ وهو ملك الله المذكور في آية: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[الحديد: ١] أن نؤلف صفحات أو كتباً، إن الإجابة يعوزها آلاف آلاف من العلماء في آلاف الآلاف من السيارات والأرضين، وهم يدونون فلا يستطيعون سبيلاً لنهاية الإجابة، هاهو ذا علم الفلك أرانا شذرة من العلم فأدهشنا، هاهو ذا علم الفلك يحدثنا:

فيا سعد حدثنا بأخبار من مضى فأنت خبير بالأحاديث يا سعد

وقال ابن الفارض:

وعلى تفنن واصفيه بحسنه يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

يقول علم الفلك ولو على سبيل الظن إذا هو الممكن لنا ونحن على هذه الأرض: إن ١٦ مليون من المجرات التي قدرها علماء الفلك بحسب المرصد الذي يبنى الآن وقطره ٢٠٠ بوصة بضربها في ٢ مليون كوكب يبلغ الحاصل من ذلك كله ٣٢ ألف مليون مليون كوكب.

وبعبارة أخرى: إن الشموس التي يقدر وجودها الناس اليوم في ملك الله الذي نسبحه ونعظمه في هذه الآيات؛ هي هذه الأعداد التي يذهل العقل في تقديرها، بعد أن كان هذا النوع الإنساني لا يعرف من عظمة الله إلا شمساً واحدة، وهي شمسنا هذه التي يذهل العقل حين يرى أن ذوات الأذناب الدائرات حولها كسمك البحر عداً، وهكذا النيازك والشهب، فالمجموعة الشمسية تذهلنا

عظمتها، والمجرة التي تشمل المجموعة أشد إذهالاً لنا، وعدد المجرات أعظم وأعظم، هذا هو الذي نفهم بـه قولـه تعـالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى ﴾ [الكهف: ١٠٩]، وهذا مبدأ تفسيره، إن تفسير كتاب الله كل علم ظهر، وكل علم يظهر، وإذا كان الإجمال هكذا مدهشاً لا حد له فالتفصيل من باب أولى، فليقل علماء الفلك اليوم: إننا نظن أن الشمس الآن قد مضى من عمرها خمسة ملايين مليون سنة، وأن الأرض قد مضى لها نحو ألفي مليون سنة، وأن عمر الحياة عليها نحو ٣٠٠ مليون سنة، وعمر الإنسان عليها ٣٠٠ ألف سنة. وليقولوا كذلك: إن الشمس ستبقى مدة تتراوح بين ٥٠ مليون مليون سنة و٥٠٠ مليون مليون سنة، فليقولوا ذلك. وسيقول غيرهم كلام غير هذا. وهكذا ليقولوا: إن هناك شموساً أكبر من شمسنا ٢٥ مليون مرة كشمس من شموس الجوزاء، وضوء شمسنا بالنسبة لضوء ذلك الكوكب كضوء الحباحب بالنسبة لضوء الشمس. ثم ليقولوا: إن هناك شموساً لا تبلغ سوى جزء من عشرة آلاف جزء من تألق شمسنا فليقولوا ذلك وليقولوا فالأمر عظيم ومدهش، فليقولوا فإنهم إنّما يفسرون قوله تعالى هنا: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ﴾ [الحديد: ١-٢]، فهذا هو ملك السماوات، وهذه هي الإجابة على السؤال الأول.

الإجابة على السؤال الثاني: وهو ملك الأرض

فما هو ملك الأرض يا ترى، الأرض سيار يتبع الشمس، إذن هو عدم صرف، وكيف لا يكون عدماً وهذا الملك الذي اطلعت عليه بحسب ما وصل إليه العقل الإنساني لو أن الأرض صغرت فصارت جوهراً فرداً يكون كله ألف مليون أرض كأرضنا بحجمها الحالي، أي أن الملك يصغر بنسبة صغرها هي، فهي صغرت حتى صارت جوهراً فرداً، فيكون الملك كله ألف مليون أرض، كهذا الحجم الحالي، إذن الأرض عدم والسكان عليها لا معنى لذكرهم أيضاً، لأنها هي أشبه بالعدم، فهي إذن عدم، ولكن عند البحث نجد ما فوقها من العوالم يدهشنا أيضاً، فهو يفعل في عقولنا ما فعلته أعداد المجرات اللاتي يظن أنها ربما تبلغ ١٦ مليون مجرة، وهي الآن مليونان اثنان، أي: ما علم منها.

ثم هذه الأعداد بالنسبة لما عرفناه وما لم نعرفه أعظم وأعظم، والمجرة الواحدة تحوي مادة لا تقل على أن يصاغ منها نحو ألفي مليون شمس، وهكذا إلى آخر ما تقدم.

فنفس هذه الحيرة قد أذهلتنا في العوالم التي على أرضنا التي تشبه العدم، حيوان أنواعه تعد بمئات الألوف، ونبات كذلك ومعادن وغرائب لا حصر لها. والذي قلناه في تلك العوالم نقوله في هذا العالم الذي يشبه العدم.

عجب حياتنا كلها. عجب هذا الوجود! سعادة تنتظر نفوسنا بعد مفارقة هذه الدار. نور، بهجة، جمال.

لك الحمد يا الله على العلم وعلى الحكمة. فلنقتصر في هذا المقام الذي لا حصر له على زهرات من العلم. ونذكر بعض جمال النبات وجمال الحيوان مما تقدم شرحه في هذا التفسير. ولنذكر بعض جمال النبات المذكور في المجلد التاسع عشر:

(١) فمنها أن هناك شجرة تسمى « شجرة البقرة » من كراكاس : وهي تعطي لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ، وأهل كراكاس يتغذون منه . ومن العجب أن صفات هذا اللبن هي نفس صفات لبن البقر ويفضل عليه بأن الأحماض لا تؤثر فيه . ومن عجب أيضاً أنه يستخرج منه عطر .

(٢) وشجرة « ذات اليد » : يستعمل ورقها لعلاج الصرع وهي تنبت في البرازيل .

(٣) وشجرة الحرير : وهي شجرة باسقة جداً ، والمسيو « برتران بوكانديه » يقول : إن في كازاما منسي مراكب طولها ١٥ متراً في عرض مترين ونصف ، تصنع الواحدة من ساق إحدى هذه الأشجار ، وتزرع الشجر عند ميلاد الغلام ، فإذا كبر وعقل واستقل أخذ كل ما يلزمه من هذه الشجرة . فلها فاكهة ولها وبر قطني حريري كثير جداً تقذفه على الأرض إلى مسافات بعيدة . تراها كأن السماء أمطرت لؤلؤاً وثلجاً . وهذا الوبر يجعل في الوسادات والفرش الوثير .

(٤) وشجرة الدهن : تزرع في الصين ، يصنع منها شمع كشمع العسل فيضيء ، وهكذا يستخرج منه دهن ونوع من الزيت .

(٥) وشجرة الثعابين : تزرع في البرازيل ، وجذرها يستعمل في الشفاء من لسع الثعابين .

(٦) وشجرة الكمثرى الياباني : ولها لبن وقشدة .

هذا ملخص ما تقدم هناك ، أنا لست الآن إلا في مقام ذكر ملك الأرض ، وملك الأرض اكتفينا منه ببعض زهرات العلم ، وهذا التفسير فيه كثير من علم النبات في مواضع مختلفة تكفي اللبيب ، فلنقف عند هذا الحد . إننا ذكرنا ستة أشجار فقط ، فألفينا حريراً وفاكهة ، وشفاء من الصرع ، وشفاء من لدغ الحيات ، ولبناً ودهناً وعطراً ، ومراكب كبيرة ، وعجائب كثيرة ، فأصبحنا أمام هذه الشجرات الست وما يماثلها مما يعد بمئات الألوف من النبات كأننا في حيرة المجرات والشموس والسيارات والأرضين العظيمة عظمة لا حد لها فيما قلّ وفيما كثر ، إذن فلنفض في الكلام على شذرات من علم الحيوان فنقول :

شذرات من علم الحيوان

أنا الآن في مقام التسبيح ، والذي نسبحه هو صانع العالم له ملك السماوات والأرض ، ومن ملك الأرض الحيوان ، وقد قلنا إن في هذا التفسير ما يكفي للثقافة العامة في أمم الإسلام ، ولكن لا بد من ذكر نبذ من أجمل ما تقدم ، فأذكرك أيها الذكي بما تقدم في سورة « طه » عند قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[الآية : ٥٠] ، فانظر هناك تجد :

(١) الثعالب ونحوها تعلم منها الإنسان حرفة الصيد .

(٢) ومن الفيران تعلم سكنى الكهوف .

(٣) ومن نحو الظباء تعلم أن يعيش في الآجام .

(٤) ومن النمل اتخذ البيوت .

(٥) ومن حيوان يسمى « الكستور » بنى الجسور المتينة ليمنع السيل .

(٦) ومن الدب في الأقطار الشمالية تعلم صناعة السفن .

(٧) ومن العنكبوت تعلم الصيد بالشبكة.

(٨) ومن بعض السمك تعلم صناعة النجارة باستعمال البلطة والمنشار.

(٩) ومن السرطان في البحر تعلم صناعة الدروع التي تقي جسمه النبال.

(١٠) ومن أم الخلول تعلم أحقاق النشوق.

(١١) ومن الخنزير تعلم حراثة الأرض.

(١٢) ومن الهرة تعلم الاحتراس من الروائح المتصاعدة من الفحم.

وهكذا من الصناعات التي تبلغ ٣١ صناعة مذكورة، وهذه قلّ من جلّ من تلك الصناعات الحيوانية التي عرفها الحيوان وقلده الإنسان فيها، فمملكة الحيوان مملوءة من العجائب كمملكة النبات فيما تقدم، فاقرأ بقية ما ذكر في سورة «طه».

ثم اعجب مما حفظ به الحيوان من الهلاك، فهو كما كمل بالصناعات العجيبة النافعة فعاش قرير العين أسبغت عليه نعم أخرى بها حفظ من الهلاك، فانظر ما تقدم في سورة «المؤمنون» عند آية: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴾[المؤمنون: ١٧]، وتأمل الفيران مثلاً كيف كان لونها السواد، ذلك لأنها مضطهدة من جميع الناس لأنها مسلطات على زروعهم بأكلها، وعلى أجسامهم بما تنقل لهم من العدوى، ولكن الصانع الحكيم الذي برأها هو الذي يدافع عنها، بماذا يكون ذلك الدفاع؟ يكون الدفاع بأمر عدمي، ما هو ذلك العدمي؟ هو عدم اللون وهو السواد، فإنه إذا حرم من الخروج نهاراً، فلا بد له من السعي ليلاً، ولو كان لونه غير السواد لظهر، فبهذا حفظ.

أيها المسلمون، لهذا يقول الله: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾[الحديد: ١] عز، أي: غلب وقهر هذه المواد ولم يبال بالأهواء، كأن يقال: لماذا لا يكون الفأر كالطاووس جمالاً وبهجة، فلا يكون هناك جواب غير نفس العلم ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾[الحديد: ١] فهو حكيم في صنعه، وبحكمته سود الفيران لتحيا محاربة للإنسان، لأنه يريد حياة الخصمين معاً لا أحدهما، وبهذه المخاصمة تتم الحياة ولو عاش الإنسان بغير مضاد له لكان أقرب إلى البله، ولضعف تفكيره، ومثل ما قلنا في الفيران نقول في عشرات الحيوانات المذكورات هناك من الأسود والنمور اللاتي تشبه آجامها ما حولها في الصحاري والقفار، ولو أن ألوانها لم تكن كذلك وكانت واضحة لرأتها فرائسها ففرت منها فهلكت تلك الحيوانات المفترسة في يوم أو بعض يوم، وهكذا نقول في نحو الجمال «الإبل» إنّما كان لونها كلون ما حولها في الجبال والوهاد، لأنها لو لم تكن كذلك لافترستها السباع لظهور ألوانها. الله أكبر، ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الحديد: ١-٢].

وهكذا يقال في طائر ليلي بأمريكا مذكور هناك، فهو ذو ذيل طويل أبيض يقق، ولكن هذا البياض ليلاً لا يضره لأن له سلاحاً يقيه العطب، وهي الرائحة الكريهة كرائحة الظربان، كما أن الزنابير الملونة ألواناً براقة بالنهار لا تخشى العطب من هجوم أعدائها، لأن هؤلاء الأعداء يعلمون ما عندها من السلاح والكراع.

وقس على هذا بقية الحيوانات المذكورة هناك فراجعه.

ومثل ذلك يقال في أنواع الحشرات من أبي دقيق المذكورات في سورة «الروم» المرسوم صورها هناك كما رسمت صور كثيرة للحيوانات المتقدمة في سورة «المؤمنون»، ففي هذه التي في سورة «الروم» ترى نوعاً من حشرات أبي دقيق لها لون جميل شديد اللمعان، وهذه الحشرات إذا أمسكتها بيدك لوثت جسمك وثيابك بمادة قذرة، عرفت ذلك كل الحيوانات فتحامتها، ولكن المدهش أن هناك حيوانات أخرى لا سلاح لها تعيش مع هذه في مكان واحد، وتلون كلونها حذو القذة بالقذة فتتحاماها أعداؤها فيكثر نسلها. ارجع إلى هذا المقام هناك تجد تفنناً في أساليب الدفاع بالمشابهة في الألوان اختصاراً في صور الطبيعة البديعة.

نعم هذا هو الملك، وهذا هو الإبداع، وحسن الصنع والتزويق، وإظهار الجمال تفنن في المجرات. تفنن في الشموس، تفنن في السيارات، تفنن في النبات، كل هذا أفانين وأفانين لا حد لها ولا انتهاء.

جمهوريات الحيوانات

ضرب مثل يذكرنا باجتماع الأرواح بعد مفارقة الأجسام

يظهر لنا أن كل ما نتصف به جعل ضرب مثل لنا، ومن الأمثال المضروبة لنا جمال الصور في كل ما نراه، فإننا نفرح به ثم يزول، كأنه يقال: هناك جمال لا يزول وهذا جمال زائل، فابحث عما لا يزول من الجمال الذي هو السبب فيما يزول، ألا وهو جمال الله، نفرح بملك وبسلطان ثم يزولان، فيقال هناك ملك وسلطان دائمان فابحثوا عنهما، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾[الإنسان: ٢٠].

ننظر النحل والنمل وغيرها تفرح بالملكات التي تحكمها، وتكون لها أشبه بالأستاذ للتلميذ والأم لولدها والأب الرؤوف لأبنائه، ونرى السيارات تدور حول الشمس، والأقمار تدور حول الأرض، والأبناء ترجع لأمهاتها رجوع مودة وحب وألفة وانعطاف، والجيوش ترجع للقواد في أمورها وهذا درس لنا نحن في الحياة كأنه قيل لنا: إن الله شمس والأرواح تستمد منه استمداد السيارات من الشمس. إن أرواحكم جاءت من عند الله. وإذا رجعت إليه وتركت هذه الأجسام فقد نالت بغيتها كما يرجع الماء إلى البحر. والحجر المرمى به إلى الأرض، والزق المنفوخ في الماء إلى أصله وهو الهواء، ولكن الفرق بين الممثل به والممثل له عظيم، لأن الله ليس كمثله شيء، فهو يجلّ عن الأفهام. فهذا ضرب مثل. والأمثال يكفي فيها التقريب. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[الإسراء: ٤٤]. كتب فجر يوم الخميس ٢٠ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية الموافق ٢٩ يناير سنة ١٩٣٢م.

مذاكرة

حضر اليوم صديقي العلامة الذي اعتاد مناقشتي في هذا التفسير فقال: إن هذا القول حسن في ذاته من حيث إنه تفسير لآية: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[الحديد: ١-٢]. نعم هاهنا ظهرت قدرة الله فرأينا النوع الإنساني المستمر المدهش، ولكن هنا نقطة أحب أن أعرفها. لقد ذكرت أن جمهوريات

الحيوانات أمثال مضروبات لنا من حيث إن اجتماع أرواحنا بعد الموت يكون مثل اجتماع جمهورية النحل مثلاً على يعسوبها وهي الملكة، وهذا القول مبهم أحب إيضاحه. فقلت: قد طال المقال. فقال: ولكن لا بد من تفصيل هذه المسألة لئلا تذهب فيها الآراء كل مذهب. فقلت:

النحل حول اليعسوب ضرب مثل لرجوع الناس لربهم

ومقدمة ذلك الصلاة إلى القبلة توجهاً إلى الله حول الكرة الأرضية

أيها العزيز، إن هذا الخاطر مكث في نفسي أياماً فجاء سؤالك على مقياسه. وبيانه أن التسبيح والتقديس والتكبير هيام بصانع العالم. وهذا الهيام يزداد بازدياد العلم الذي ما هو إلا شرح هذه الممالك المذكورة في أول سورة «الحديد»، وهي ملك السماوات والأرض والإحياء والإماتة فيهن إلى آخر ما تقدم. وهذا الهيام يتمثل في الصلاة. وهيئة الصلاة حول الكرة الأرضية كهيئة اجتماع النحل حول يعسوبها، فالكعبة في المركز كما أن ملكة النحل في وسط النحلات. وأهل آسيا وإفريقيا والمسلمون من أمريكا وأستراليا صوبها، فإذا تأملت ببصيرتك المصلين وجدتهم قد ولوا وجوههم صوبها. وهي في وسطهم، فتوجه المصلين جميعاً نحو مركز واحد وهو القبلة كاجتماع النحل حول اليعسوب. فهؤلاء يحيطون بكرة وهؤلاء يمثلون كرة.

وهذه الأرواح الإسلامية الحية العائشة في أجسامها هي التي سترجع إلى ربها بعد الموت ويجمعهم عليه وأنا أعرف من سؤالك أنك تخاف أن يظن ظان أنه اجتماع مادي فيجعلها مغمزاً من المغامز في التفسير. فقال: نعم هذا هو الذي خطر لي مع إرادة تبيان أتم، فقلت: أيها الأخ الذكي، أنا أوضح المقام بأتم من هذا فأقول:

إن سر الصلاة والتسبيح كما قدمنا الحب لصانع العالم، والحض على الصلاة في كل دين حق نزل من السماء، فتح باب لذلك الحب، فالمصلي الجاهل يصلي أولاً للخوف من عقاب ربه، وللطمع في جنته، ولكن ليس هذا كل شيء، بل المهم الوصول لحال الحب، والحب يحصل بتكرار العبادات ونحوها، ثم الدراسة ومعرفة جمال هذه الدنيا كالمذكور هنا في سورة «الحديد» إذ تفصله العقول، الصلاة في الإسلام كلمتان اثنتان: تكبير وسلام، ومما أدهشني أن هاتين الكلمتين هما سر كل السر، فالتكبير يرجع لجميع المعارف في الأرض والسماوات، وحكمة الحكماء المستخرجة فيهما، والسلام يرجع لاجتماع الأرواح كلها، وإذا كانت الآية فيها: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ [الحديد: ٣] فهي إذن تشير إلى أنه لا مادة كما تقدم في سورة «النور» عند آية النور، إذ قد اتضح هناك بما جاء في العلم الحديث أن العوالم كلها حركات في الأثير إلى آخر ما تقدم هناك، فالله هو الأول والآخر، وهذه شؤون من شؤونه صدرت عن حضرته وتجلت لعيوننا ولعيون الحيوان، كما هو نظرية «أينشتين»، إذن الموجود هو الله و الأرواح الطيبة والخبيثة، وما أول «الفاتحة» إلا صفات الله من رحمة وملك، وأنه محمود الخ. وكل ذلك راجع لأول الأمرين وهو الله، وما آخرها إلا المنعم عليهم والمغضوب عليهم، وهذه هي عوالم الأرواح الصالحة وغيرها في الأبدان أو في البرازخ، والسلام راجع إلى الأرواح الطيبة، فأول «الفاتحة» يرجع للتكبير وآخرها يرجع للتسليم، ثم التحيات في التشهد راجعات

لله، ويليها السلام على الأنبياء والمرسلين وجميع الصالحين، وعلى النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله وإبراهيم وآله، وهذا راجع للكلمة الثانية وهي السلام. وبعبارة أخرى: الصلاة في الإسلام مختصرة في تكبير وتسليم، تكبير لصانع العالم، وتسليم على الصالحين من الأرواح و الملائكة، فلننظر إلى المسألة التي نحن فيها نجد أن المسلمين حول الكرة الأرضية يصلون متوجهين إلى القبلة، وهذا رمز إلى اجتماعهم على ربهم بعد الموت، ويرمز لهذا كما قلناه اجتماع النحل على يعسوبها، وتكورها حولها، فهاهنا أمران: حب النحل وإعظامها ليعسوبها، وثانيهما اتحادها ونزع الغلّ من قلوبها فكونت مملكة واحدة، فالأول في مقابلة التكبير في الصلاة، والثاني في مقابلة السلام، فهاهنا عظمت النحلات وأحبت ملكتها، ثم هي مع بعضها متحابات متحدات، فأول الأمرين كتكبير الصلاة، وثانيهما كالسلام في الصلاة، إذن وصلنا إلى مطلوبكم من السؤال، فتوجه المصلي للقبلة مرموز له بتوجيه النحل للملكة وتسليم المسلم على صالحي الملائكة، وكل روح صالحة كالسلام والتعاطف والمودة الحاصلة بين أفراد النحل الملتف حول ملكة النحل.

إذن جمهوريات الحيوانات التي نراها في الأرض كالنمل وكالنحل وكالأرضة وكالغربان وككلاب البحر ضربت مثلاً كصلاة المسلم التي ترجع لأمرين اثنين: حب الله بالعلوم والمعارف، ويشير لها التكبير والمودة والتعاطف والسلام والأمانة الحاصلات بين جميع الأرواح، المسلمين منهم وغير المسلمين، من كل من كانوا على دين صحيح غير منسوخ قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم.

فقال صاحبي: أنت كنت ترمي بعيداً، إذ جعلت المنظور لنا في بعض السنين من نحل يمر فوق رؤوسنا كأنه كرة قد التف حول ملكته في حقول بلادنا المصرية مثلاً لصلاة المسلم الراجعة إلى كلمتين ولاجتماع الأرواح بربها، ولكن أريد إيضاحاً أتم. فقلت: نعم. هناك فرقان: الأول: أن اجتماع النحل على اليعسوب اجتماع جسمي، واجتماع الأرواح على ربها اجتماع روحي قلبي. الفرق الثاني: أن يعسوب النحل محسوس مادي، والله عز وجل منزه عن المادة، ولذلك احتاج الناس إلى القبلة ليتوجهوا إليها، ولذلك سميت بيت الله، ففي المثل المادي توجه لمادي، والممثل به أرواح توجهت إلى من ليس كمثله شيء يتعالى عن الأرواح و الملائكة والعقول.

فقال: الحمد لله على نعمة العلم. الآن تجلت لنا بهيئة جميلة الآيات في أول «الحديد»، فإذا رأينا السيارات تجري حول الشمس، ورأينا كل ولد يرجع لأمه، ورأينا كل حجر يرجع إلى الأرض بعد قذفه، ورأينا أفراد كل مملكة من ممالك الأرض يتجهون إلى رؤسائهم، ورأينا الحشرات وسائر الحيوانات ترجع لرؤسائها. فمرجع ذلك كله أمران: حب وإعظام من جهة، واتحاد والتئام من جهة أخرى، وهذه كلها ضرب مثل محسوس لأمر معقول وهو حب الله إعظاماً، واتحاد النفوس أدباً ونظاماً، وهذا المعقول عبر عنه بالتكبير والسلام، وهاتان الكلمتان وزعت عليهما أقوال الصلاة كلها، فهاهنا أمور معقولة وأمور محسوسة بحاسة البصر، وأمور مسموعة بالأذن، فالمشاهد بحاسة البصر نظام الحيوان، والمسموع بالأذن الصلوات مختصرة بالتكبير والسلام ومطولة بتفصيلها، والمعروف بالعقل الأرواح وصانعها، فالمحسوس بالبصر ضرب مثل للمسموع بالأذن مختصراً،

والمسموع بالأذن مختصراً ضرب مثل للصلاة مطولة، والصلاة فحواها توجه الأرواح إلى خالقها، إذن العوالم كلها متشابهات. فقلت: لقد أحسنت تلخيصاً. فقال: كفى هذا البيان في تفسير الآيات في أول سورة «الحديد». كتب قبل غروب يوم الجمعة ٢١ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية.

بهجة هذا المقام في التسبيح وجماله

يوم الأربعاء ٢٦ من شهر رمضان المعظم سنة ١٣٥٠ هجرية، الثالث من شهر فبراير سنة ١٩٣٢م حضر صديقي العالم الذي اعتاد مناقشتي في هذا التفسير، فأخذ يحادثني في المقالة السابقة التي تختص بآية: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[الحديد: ١-٢]، وقال: لقد تجلت معاني هذه الآيات واضحة بحيث يرى المسبح كأنه في روضات الجنات، وكيف لا يكون في روضات الجنات وهو عند النطق بالتسبيح مستحضراً تلك المعاني، يشعر كأنه منضم إلى أرواح أخرى تعطف عليه ويعطف عليها وهم يتسابقون معاً إلى الزلفى إلى صانع العالم، فتتجدد في نفوسهم السعادة وروح الحياة والبهجة.

سبحان الله، أهذا هو التسبيح وما في معناه من التحميد وأمثالها، وهذه المعاني كلها مخبوءة فيه؟ أهذا هو جمالها؟ إذن التسبيح الذي يخطر لأغلب المصلين والمسبحين تسبيح جاف لا يطفئ غلة ولا يشفي من علة. فقلت: نعم. إن التسبيح مرتبط بحياة النفس وسعادتها وبهجتها، وهو التغلغل في العلوم والجمال. هذا سر الآيات في آخر سورة «الحشر». فقال: وما سرها؟ فقلت: من سرها الذي ستقرؤه هناك قوله تعالى: ﴿ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الحشر: ٢٤]. إن حسن أسماء الله راجع إلى المدلول، ومن آثار ذلك المدلول هذا الجمال المشاهد في هذا العالم الذي عبر عنه بقوله: ﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الحديد: ٢]، فوصف الأسماء بذلك فتح باب يلج منه الحكماء العاشقون المتلئون حياة وحكمة المرموز لهم بآية: ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾[مريم: ١٢]. إن هذه الأرض خلق فيها أناس لهم طبائع خالفت أهل عصرهم، إذ يحسون بدافع قوي في أنفسهم، ذلك هو الحياة الحقيقية، فيكونون بذلك نوراً لأمتهم، ذلك النور هو سر خفي في أنفسهم التي أحست بجمال العالم المرموز له بأن أسماء الله حسنة، فهذه النفوس هي التي بها ترتقي أمم وأمم في معراج الحياة بحسب درجتها الحسية والمعنوية، ولقد تجلى في نفسي معنى أحب أن أبديه الآن وهو أن في هذه الأرض أناساً يشعرون من الآن بأنهم في حضرة ربهم مجذوبين بعواطف هو مجبولون عليها، فينطبق عليهم المثل الذي ضربناه في المثل السابق من حيث إنهم مع أممهم مسوقون إلى ربهم، فهؤلاء يرون في نفوسهم عطفاً على أممهم وحباً لربهم، فنفوسهم من الآن تشعر كأنها في حضرة ربها، وهؤلاء يستوي عندهم الموت والحياة، والأحوال العارضة لهم، فلا الفرح يستخفهم، ولا الحزن يقعدهم، وهذا هو الكمال الحقيقي.

ومن أعجب العجب أن هذه المعاني التي تجلت في نفسي من إشراق أنوار التسبيح في آيات أول «الحديد» يكاد ينطق ببعض نتائجها عالم أمريكي يسمى« ستانلي هول»، وهو أكبر علماء النفس في أمريكا ورئيس إحدى جامعاتها الكبرى، وقد بلغ ٧٧ سنة من عمره، هذا العالم لما اطلعت على آرائه

دهشت، فإنها أشبه بأثر من آثار الآية، والله يقول في القرآن: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتُۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩] وقد قررنا مراراً في هذا التفسير أن نتائج مباحثات العقلاء كلها وحكمتهم التي أدركتها عقولهم يتضمنها القرآن، وهذا من عجائب، بل من معجزاته، فقال صديقي: لقد شوقتني لمقاله، فأريد أن أسمعه ملخصاً. فقلت: قرأت في بعض الكتب ما نصه:

كتب «مستر ولز» الكاتب الإنجليزي المعروف مقالاً عن النجاح قال فيه: إن «مستر لويد جورج» ليس من الناجحين بينها، وهو يعد «أينشتين» صاحب نظرية النسبية منهم، وقد ختم مقاله بهذه العبارة: ليست الثروة، أو الشهرة، أو المقام دليلاً على النجاح، فإنّما يقاس النجاح الحقيقي بنسبة ما عملنا إلى ما كان يمكننا عمله.

أما «ستانلي هول» وهو أكبر علماء النفس في أمريكا، ورئيس إحدى جامعاتها الكبرى، وقد بلغ السابعة والسبعين من عمره، فحاز بذلك الشيخوخة الهنية، والسمعة الطيبة، وخدم أمته بجملة تآليف قيمة، فإنه يرى شروطاً أخرى للنجاح، فقد وضع هذا العالم كتاباً حديثاً عن تاريخ حياته، وعقد فصلاً عن شروط النجاح الإنساني قال فيه:

إن أول شرط لذلك هو: الصحة، فإن الأعمال العظيمة التي قام بها عظماء الناس في هذا العالم إنّما أدوها وهم في أحسن أيام صحتهم، وليس من يشك في أن المرضى قد أتوا أحياناً بالعجائب، ولكن هذا من الشذوذ فإنّما القاعدة هي أن الصحة شرط للنجاح، حتى ليصح أن يقول: لكي تنجح يجب أن تكون حيواناً صحيحاً.

والشرط الثاني: هو معرفة القوى الكامنة في أنفسنا، ففي كل منا قوى كامنة يعرفها الصوفيون عندما يشعرون بأن فيضاً من الذات القدسية اتصل بهم، وكأن حياة جديدة قد لابست بشرتهم، فالمؤلف يشعر بها عندما تتملكه الفكرة، وتندفع في ذهنه تريد أن تتكشف وتتوضح.

والشرط الثالث: هو كيفية ضبط عواطفنا، فنحن في أغلب أيامنا نتراوح بين التفاؤل والتشاؤم فإن تعلمنا كيف نضبط عواطفنا، فلا يستخفنا النجاح، ولا يثبط عزيمتنا الفشل الطارئ، وإذا وقفنا عند حد الاعتدال دون غلو في السرور والاغتمام كان النجاح أقرب إلى أعمالنا.

والشرط الرابع: هو غرس العطف في أخلاقنا، فإن الذين لا يعطفون يفقدون صلتهم بالطفولة بل بطفوليتهم، ولا نجاح للأديب، أو الشاعر، أو السياسي، إلا بغرس العطف في نفسه وتنشئتها عليه.

والشرط الخامس: هو حب الطبيعة، فيجب على الناس أن يكثروا من المشي في الحقول، لرؤية أحسن المناظر وأسراها، ويحسن أن يمشي الإنسان صحبة آخرين، وخير الوطنية ما كانت أصولها نابتة من الحقول.

والشرط السادس: هو رقي فن العواطف، فعاطفة الغضب، أو الخوف، أو الطمع، إذا تركت في حالها الأولى نتج عنها أضرار كبرى، فإذا هذبت عادت بالفائدة، وخير مثال لذلك هو العاطفة الجنسية، فهي إذا لم تهذب صارت غلمة حيوانية، وإذا لم تضبط أدت إلى خراب العائلات، وهدم

البيوت، بينما هي عند رفعها تصير حباً جميلاً يعمل على ارتقاء الإنسان، وهي في هذه الحال أصل للأدب، وخير ما يحرك القرائح للشعر وسائر الفنون.

الشرط السابع: هو إيجاد توازن بين المزاج العملي والمزاج الذهني، فمن الناس من يكون مزاجهم ذهنياً يحبون البقاء، وادعين، يتأملون ويفكرون، كما هو شأن أكثر التجار ورجال الأعمال، وكلاهما لا يمكن أن يعتبر ناجحاً راقياً، لأن الترقي والنجاح إيجاد توازن بين هذين الخلقين.

أما الشرط الثامن: فهو الولاء، وهو يريد بذلك ولاءنا لأصدقائنا، ولعائلاتنا، ولأمتنا، وولاءنا أيضاً للعلم والنوع الإنساني. انتهى.

هذا هو نهاية الكلام على اللطيفة الأولى في قوله تعالى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ ﴾، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى:

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾[الحديد: ٤].

مع قوله: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾[الحديد: ٧] الخ.

ولا جرم أن ماء البحر الميت له بخار يرتفع إلى السماء، وهنا ماء يصب فيه، فهذا يلج في الأرض وهذا يخرج منها، فأين الإنفاق من هذا البحر إذا لم يعلمه المسلمون؟ فقد جاء في إحدى جرائدنا المصرية يوم ١٦ شوال سنة ١٣٤٩ هجرية، ٦ مارس سنة ١٩٣١م تحت العنوان الآتي ما نصه:

ثروة البحر الميت
كنوز لا يستفيد منها أحد

في أوائل عام ١٩٣٠م جرى اتفاق بين الدولة البريطانية وشركة دولية على استثمار البحر الميت المشهور، وقد تكفلت الحكومة البريطانية أن تمنح تلك الشركات الحقوق التامة لاستثمار هذا البحر الذي لا يثمن، على شرط واحد وهو أنه بعد عشر سنوات يجب على الشركة أن تستخرج لا أقل من ١٠,٠٠٠ طن من البوتاس النقي، ومن السنة الحادية عشر أيضاً يجب أن تستخرج من كل عام لا أقل من ٥٠,٠٠٠ طن، ومن المحسنات التي تزيد قيمة المواد المستخرجة من هناك كون البحر الميت قريباً من قناة السويس الباب لكل أسواق العالم المهمة، أربعة وسبعون ميلاً في الطول وعشرة أميال في العرض تبلغ مساحة ذلك البحر، وفي كل يوم يبخر ما يقدر بـ ٦ مليون طن من المياه، وهذه الكمية المدهشة تزيد بكثير عما يفرغه نهر الأردن يومياً في ذلك البحر، ولولا مجار صغيرة عديدة تكسر مياهها فيه لأصبح قطعة يابسة من الأرض منذ قرون عدة.

واليوم نرى أن البحر الميت يرتفع مستوى سطحه بين كل مدة وأخرى بالرغم من الكمية الهائلة التي تتبخر يومياً، ومنذ سنة ١٨٨٣ حتى سنة ١٩٣٠ ارتفع مستواه ٣٨٠ قدماً، أما عمقه فيبلغ ١١١٠ أقدام، وهكذا يكون عمق سطح البحر الميت أوطأ من سطح البحر المتوسط بألفين وستمائة وقدمين.

ولقد كان من أعظم أماني الإنجليز في زمن الحرب الكبرى أن يضعوا أيديهم على هذا البحر، لكي يستثمروا كنوزه التي طالما حلموا بوجودها، وهاهو الآن اكتسح «الجنرال اللنبي» فلسطين وامتلك البحر الميت بجيوشه الجرارة، حتى أمر فئة من الكيميائيين أن تحلل مياهه، ولقد كانت نتيجة التحليل أن تلك المياه هي بوتاس أو ما يقدر بـ ٢٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ طناً من هذا المعدن، و ٩٨٠,٠٠٠,٠٠٠ طناً من المغنزيا، و ١١,٩٠٠,٠٠٠,٠٠٠ طناً من كلورات الصودا، و ٢٢,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ طناً من كلورات المغنزيا، و ٦,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ طناً من كلورات الكلس، وهذه الكميات الهائلة تثبت أن البحر الميت الصغير هو أغنى بحر بين كل البحار في العالم.

ولقد كانت دهشة «الجنرال اللنبي» عظيمة عندما اطلع على النتيجة لدرجة أنه قال جملته المأثورة: حقاً هذه هي مروج الذهب. أما قيمة المواد التي ذكرناها تقدر بـ ١,٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولاراً، أو ما يعدل ٣٠٠ مرة من قيمة مجموع ديون بريطانيا العظمى كلها في الحرب للولايات المتحدة ومن الغريب أن تكون هذه الثروة الطائلة مدفونة بين مد الأمواج وجزرها في مساحة صغيرة هي أوطأ من سطح البحر بـ ١٢٩٢ قدماً.

وعلاوة على المعادن الطبيعية يمكن لفلسطين أن تستفيد من البحر الميت استفادة مهمة ثانية، فقد قدم المهندسون الألمان تقريراً بكيفية إيصال البحر المتوسط بنهر الأردن الأعلى بواسطة نفق، وهذه الطريقة لا تحفظ المياه الموجودة في البحر الميت فحسب، بل تستخرج منها قوة كهربائية تعادل مليون حصان يمكن توزيعها لإدارة دولاب الأعمال في كل فلسطين وسوريا حتى تركيا.

أما الأتراك فقد كانوا يعيشون في بلدان تدر عليهم الذهب أنهاراً، ولكنهم كانوا غافلين لا يعرفون كيف يستثمرونها، ولم تكن الحياة يوماً إلا فريسة النشط المجتهد وكفى. اهـ.

ومما يناسب هذه الآية أيضا ما جاء في جريدة الأهرام بتاريخ يوم الاثنين ٢٣ مارس سنة ١٩٣١م الموافق ٤ ذي القعدة سنة ١٣٩٤ هجرية، فقد جاء فيها تحت العنوان التالي ما نصه:

كهربة القطر المصري ومشروع القطارة

خلاصة خطبة حسين بك سري في المجمع العلمي

قال: لقد آن لمصر أن تفكر جدياً في تحويل جهود بنيها نحو الصناعات حتى تتمكن من الزيادة المطردة في عدد سكانها من إيجاد موارد رزق جديدة لهم بجانب الزراعة، وحتى يمكنها مواجهة الصعوبات الاقتصادية بجعبة متنوعة الموارد، وهي لن تصبح بلداً صناعياً حقاً حتى يتمكن رجالها الفنيون من إيجاد حل موفق لتوليد القوى المحركة من موارد داخل حدود المملكة وبأسعار قليلة تمكن المصنوعات المحلية من منافسة مثيلاتها الأجنبية.

ثم ذكر أن هذه الموارد هي مساقط المياه التي يمكن بواسطتها توليد الكهرباء لإدارة مختلف الآلات مبيناً أفضلية هذا النوع من التوليد على غيره، ثم استعرض الموجود حالياً من القوى في القطر المصري، وحلل ما يحتاج إليه القطر من القوى الكهربائية في مدى قرن يبدأ من سنة ١٩٤٥، قاصراً الحساب التفصيلي على الوجه البحري، وذاكراً في النهاية حساباً إجمالياً للوجه القبلي.

وقال إنه يؤمن كل الإيمان بأن الصناعات التي يجب أن تزدهر في هذا القطر هي تلك الصناعات التي تكون مواردها الأولية من ناتج الزراعة كالنسيج القطني والسكر والورق والكتان، والتي تستخرج مواردها الأولية من تربة مصر كالزجاج والأسمدة، أو لتحويل ناتج الزراعة إلى مواد غذائية كالدقيق وعمل حساباً للقوى اللازمة لكل ذلك في خلال القرن من ١٩٤٥ ـ ٢٠٤٥، وعلى حسابه تحتاج مصر سنة ٢٠٤٥ إلى نحو ٣٥٠ ألف كيلو واط.

ثم بين أن هناك موردين للقوة الكهربائية: الأول منخفض القطارة للوجه البحري، وخزان أسوان للوجه القبلي. ثم أخذ يشرح مشروع منخفض القطارة موضحاً ذلك بخرائط مساحية ورسومات هندسية، مشيراً إلى أن الفضل في اكتشاف ذلك المنخفض العظيم يعود إلى الدكتور «بول» مدير مساحة الصحاري، وقد أشاد به سري بك لما يقوم به من المباحث الجليلة في مشروع الانتفاع بالمنخفض لتوليد القوى المحركة.

ثم وصف المنخفض وصفاً جغرافياً وجيولوجياً، وهو كائن في الجزء الشمالي من صحراء ليبيا في منتصف المسافة بين وادي النيل والحدود الغربية، ويبلغ متوسط عمقه ٦٠ متراً، وأوطأ نقطة فيه منخفضة عن سطح البحر ١٣٤ متراً، وهي أوطأ نقطة اكتشفت حتى الآن في قارة أفريقيا، ثم أشار المحاضر إلى تبليغه الحكومة خبر هذا الاكتشاف في سنة ١٩٢٧، وبيانه الفائدة العلمية التي تعود على البلاد من استغلال سقوط المياه فيه، ولخص الأسس التي وضعها لهذا المشروع وأهمها:

(١) حفر نفق تمر فيه المياه من البحر إلى هذا المنخفض.

(٢) حفظ منسوب المياه ثابتاً، وذلك يقتضي أن الوارد من مياه البحر، وما يسقط من المطر يساوي ما يتبخر من سطح البحيرة التي تكون فيه أولاً وما يتسرب إلى الأرض.

(٣) تقدير منسوب سطح المياه فيه، وبالتبعية مقدار سقوط المياه ما بين النفق والتربينات.

ثم فصل هذه الأركان وما تم من البحث حتى الآن، وخصوصاً التجارب التي جربت في «بحيرة قارون» لمعرفة مقدار التبخر، ومقدار ما يتسرب من الماء إلى الصحراء، لحفظ النسبة بين الوارد من المياه من البحر أو من الأمطار، والفاقد تبخراً في الجو وتسرباً في الأرض.

ثم ذكر النقطة الجوهرية في المشروع، وهي القوة التي يمكن توليدها من سقوط المياه مفضلاً جعل منسوب سطح البحيرة خمسين تحت الصفر، وهكذا تتولد لدينا قوة مقدارها ١٨٠ ألف كيلو واط عند مخرج المحطة، ولا يؤثر ذلك على عملية الصرف في مديرية الفيوم التي تتسرب مياهها الآن من بحيرة قارون إلى القطارة.

ثم عرض لبناء القناة التي توصل المياه من البحر إلى المنخفض، مفضلاً أن تكون في العشرين كيلومتراً الأولى المجاورة للشاطئ ترعة عادية تحفر في الأرض الجيرية، ثم تدخل المياه في نفق طوله ٤٥ كيلومتراً وقطره ١٧ متراً حتى تصل إلى المنخفض.

واقترح تنفيذ هذا المشروع على ثلاث درجات، لأن الوجه البحري لا يستطيع أن يستعمل ١٨٠ ألف كيلو واط رأساً، لذلك يقترح جعل النفق ثلاثة أنفاق حقيقية، فيولد أولاً نحو ٦٠ ألف كيلو

واط، فإذا تحققت آماله في كهربة القطر المصري فيبدأ سنة ١٩٧٠ ببناء نفق ثان لتوليد نحو ٦٠ ألف كيلو واط أخرى، وفي بداية القرن الحادي والعشرين يبنى الثالث ويتم المشروع.

ثم رد على الأسئلة التي وجهت إليه فيما يتعلق بنفقات المشروع، فقال: إن الجواب تقريبي لا يتحمل مسؤوليته لكثرة المباحث الاختيارية التي يجب إجراؤها في أرض لم تدرس درساً جيولوجياً وافياً، وإنّما يقدر النفقات اللازمة لتتميم الثلث الأول من المشروع وتوليد نحو ٦٧ ألف كيلو واط بنحو ١٠ مليوناً ونصف مليون من الجنيهات.

ثم وازن في الختام بين هذا المشروع ومشروع مماثل لتوليد القوى الكهربائية بإقامة محطة تربينات بخارية على النيل، وبرهن على أن مشروع القطارة من الوجهة المالية وبصرف النظر عن مميزاته الوطنية وفوائده الاقتصادية الأخرى أفضل من المشروع البخاري. انتهى ما جاء في الجريدة المذكورة.

هذا هو نهاية الكلام على اللطيفة الثانية في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾[الحديد: ٤]، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى:

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ الخ

دخلت أحد المساجد الذي يقرب من منزلنا بشارع زين العابدين يوم الجمعة ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٣٢ فسمعت القارئ يتلو في سورة «الكهف عند الآية ٤٥»: ﴿مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، فما أسرع أن سنح لي ما يأتي: وهو أن تمثيل الحياة بالماء النازل من السماء ظهر بعض سره الآن، ذلك أنه تقدم في هذا التفسير أن علماء عصرنا يقولون: إن الحياة ليست من هذه الأرض، بل هي من عالم آخر.

وأقول إذن كما أن الماء والضوء والحرارة تنزل من السماء هكذا الحياة وهي منزلة من عالم روحي يمثل له بالماء، ومن أراد فهم هذا الموضوع حق فهمه فليقرأ رسالتي المسماة «مرآة الفلسفة» المذكورة في سورة «محمد» صلى الله عليه وسلم عند آية: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[الآية: ١٩].

انتهت اللطيفة الثالثة. كتب ليلة أول أكتوبر سنة ١٩٣٢م.

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾

خطر لي في صلاة العشاء قبيل فجر يوم الثلاثاء ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣٢م وأنا أقول: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين؛ ما يأتي:

السلام على قسمين: سلام أدنى، وسلام أعلى.

فالسلام الأدنى: هو السلام العام الذي تنشده أمم الإسلام في الأرض الآن، وهذا الذي جاء الإسلام مقدمة له.

أما السلام الأعلى فهو الذي يعم الأمم والأفراد، وهو الذي إليه تشد الرحال، وتعقد الآمال، وهو أن يدرس هذه الدنيا دراسة صادقة، ويعرف ما دب وطار، ولا يغادر حكمة إلا قرأها، ولا علماً إلا اطلع على عجائبه، لا فرق بين العلويات والسفليات، حتى تقتنع النفس اقتناعاً تاماً بحسن النظام وجمال الوضع.

ومتى وصل الإنسان إلى هذا المقام أصبح في عيشة راضية وهو لم يزل في الدنيا، ودخل فيمن قال الله فيهم: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ﴾[المائدة: ١١٩]، وذلك لأنه يرى كل دقيق وجليل قد وضع بحكمة، ويرى أن كل مصيبة في الحياة أو الموت لا محيص منها لرقينا، وأنه لولا ذلك لم يكن ارتقاء، وذلك على سبيل العلم والبحث والاستقراء، وهاهنا يفهم العاقل آية: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ ﴾[الحديد: ٢٢-٢٣]، وهذه الطائفة في النوع الإنساني قليلة جداً، بل نادرة، وإن كانوا يقرؤون هذه الآية ويؤمنون بها، لأن الإيمان غير الإيقان وإن كان مقدمة له، وهذا هو السر في كون أمة الإسلام هم الحمادون، وفي أن ذكر أهل الجنة: سبحان الله وبحمده؛ كل ذلك يرجع إلى وصول أقوام إلى ذلك يقيناً لا تقليداً. انتهت اللطيفة الرابعة.

وبهذا تم تفسير سورة «الحديد»، والحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة « المجادلة »

هي مدنية

آياتها ٢٢، نزلت بعد « المنافقون »

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ

تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

هذه السورة ثلاثة أقسام:

القسم الأول: في تفسير بسملة سورة «المجادلة» وما بعدها إلى سورة «تبارك».

القسم الثاني: في أحكام المظاهرة، من أول السورة إلى قوله: ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾.

القسم الثالث: في أحكام المجالس من النجوى والتفسح فيها، ومناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن ذم المنافقين وما يتبعه، من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾[الآية: ٥] إلى آخر السورة.

القسم الأول:في تفسير بسملة سورة «المجادلة» وما بعدها إلى سورة «تبارك»

(١) ملخص السورة

اللهم إنا نحمدك ونشكرك على نعمة العلم وبهجة الحكمة، لقد أنرت بصائرنا وأسعدتنا بالعرفان، هذه الرحمات المترادفات في أول هذه السور: «المجادلة»، و«الحشر»، و«الممتحنة»، و«الصف»، و«الجمعة»، وسورة «المنافقون»، و«التغابن»، و«الطلاق»، و«التحريم»، وسورة «الملك».

هي عشر سور ذكرت الرحمات في أوائلها عشرين مرة، إن هذه الرحمة موجهة في هذه السور العشر غالباً لمنهج خاص، وطريق معبد، ومهيع طريف بديع، ذلك أن الأمم يعوزها علم وعمل، والعمل هنا في هذه السور العشر راجع إلى نظام الأسرة ونظام الدولة، فلئن رأينا التي تجادل الرسول صلى الله عليه وسلم في زوجها، وتشتكي إلى الله، والله يسمع تحاورهما، وقد رحم المرأة وجعلها قريرة العين مع زوجها؛ فهذا كله من الرحمة الإلهية العامة التي يراد بها حفظ الأسرة، وبقاء الألفة بين الزوجين، وثبات الأحوال وزوال الشقاق، فهذه الرحمة وجهت لنظام الأسرة، وحفظ العشرة، ودوام الألفة، فعلى الولاة أن يستيقظوا للم شعث الأسرات والأمم أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم، فهذا إنّما مثل ضربه الله لذلك وليس خاصاً بهذه المرأة، نعم هي حادثة وقعت أيام النبوة ولكنها مضرب أمثال للولاة والحكام أن يستنبطوا الطرق للم الشعث وجمع الكلمة، ويتبع ذلك آداب المعاشرة من ترك النجوى التي بها يحزن الإخوان في المجلس ويسوؤهم فعل المتناجين، وهكذا التفسح في المجالس، ثم ترك مضايقة الرسول صلى الله عليه وسلم لأن وقته لا يتسع لذلك، فليقدم الذي يريد مناجاته صدقة، ثم التخفيف بترك تلك الصدقة، ثم النهي عن موالاة الأعداء بخيانة الأمة وتفريق الكلمة. إذن سورة «المجادلة» راجعة في جملتها إلى:

(١) ألفة الأزواج في المنازل.

(٢) وألفة الأصحاب في المجالس.

(٣) والأدب مع الحكام بترك مضايقتهم لكثرة أعمالهم.

(٤) ورفق الحكام بالمحكومين إذا رأوا أمراً يثقلهم.

(٥) ومجانبة خيانة الأمة بموالاة أعدائها، وبالنفاق والشقاق، فإن ذلك يضعفها ويفرق جمعها ويذلها، إذن الرحمة في سورة «المجادلة» موجهة بنوع أخص إلى حفظ الأسرة وحفظ الدولة.

(٢) تفسير البسملة وتلخيص سورة «الحشر»

أما في سورة «الحشر» وهي السورة الثانية فإن الرحمة فيها موجهة إلى حفظ الدولة كالشق الأخير من سورة «المجادلة»، فكأن السورتين سورة واحدة، فحفظ الأسرة وحفظ نظام المجالس وحفظ الدولة في المجادلة تبعها في «الحشر» ما يفيد ذلك. وبيانه أن اليهود هنا تخاذلوا وتباغضوا، والتخاذل يتبعه انبعاث الرعب في القلوب، ومتى انبعث الرعب في القلوب زال الأمن، ولم تنفع

الحصون، وقطعت الأشجار، وكان الجلاء عن الوطن، أو الاستعباد فيه. يقول الله في الموالين لهؤلاء: ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ﴾[الحشر: ١٣]، ويقول: ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾[الحشر: ١٤]، فهؤلاء اليهود المذكورون في هذه السور تقدم في بعضهم ما يقرب من هذا في سورة «آل عمران» عند آية: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[الآية: ٢٣]، فإنهم هنالك اتكلوا على شفاعة أبنائهم وهم مذنبون، فنبذوا كتاب الله وهو التوراة في الأحكام الشرعية، فأصابهم التخاذل فتفرقوا شذر مذر، وأخذ المسلمون ديارهم، وذلك مشروح هناك شرحاً ضافياً، وهناك سر «ا ل م» في أول السورة فارجع إليه إن شئت.

فما هنا وما هناك ضرب مثل للأمم كلها ومنهم المسلمون، فإذا سمعت الله يقول: ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾[الحشر: ١٤] فمعناه أن كل أمة على هذه الشاكلة فإنها لا تعقل، فآباؤنا العرب في الجاهلية يصح أن نقول فيهم ذلك، لأنهم كانوا فريقين: فريق يتبعون الأكاسرة في جهة بلاد الفرس، وفريق يتبعون القياصرة من جهة بلاد الشام وما والاها. وإذا رأينا الأمم الإسلامية العربية بعد العصر الأول قد تفرقوا، وذاق بعضهم بأس بعض، فلنا الحق أن نحترس مما وقعوا فيه، وأن نقول: تجب المحبة العامة وإلا حقت علينا كلمة الله إذ يقول: ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾[الحشر: ١٤].

وإذا رأينا بلاد العراق قد دخلت في عصبة الأمم في هذه الأيام وأنا أكتب هذا صباح يوم الجمعة ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٣٢، الموافق ٢٨ جمادى الثاني سنة ١٣٥١ هجرية، وزال عنها احتلال الإنجليز وأعلن ذلك في الجرائد شرقاً وغرباً؛ وإذا رأينا أمة الترك استقلت من قبلها؛ وأمة الأفغان كذلك؛ وأمة الفرس أيضاً؛ فمعنى هذا أن هذه الأمم الإسلامية التي استقلت بعد الحرب الكبرى المنتهية سنة ١٩١٨م قد نبذت الشقاق، وخلصت من النفاق، ولم يصبها ما أصاب الأمم الجاهلة المتخاذلة التي قال الله فيها: ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾[الحشر: ١٤] أي: أن هؤلاء قوم لا يعقلون. هذه الشنشنة وهي الاتحاد طارئة على هذه الأمم بسبب ما أنعم الله عليهم من رحمة التواصي بالحق، فأصبحوا على نمط الذين ذكروا هنا في سورة «الحشر»، إذ جاء فيها أن الأنصار يحبون المهاجرين ويؤثرونهم على أنفسهم، وهؤلاء المتحدون على الضد من الذين نافقوا.

(٣) تفسير البسملة وتلخيص سورة «الممتحنة»

ثم أليس من العجب العجاب أن نرى سورة «الممتحنة» تجري على نفس هذا الأسلوب إذا ابتدئت بالنهي عن اتخاذ الأعداء أولياء كما في سورة «الحشر» قبلها، وكما في آخر سورة «المجادلة» من حيث المعنى، إذن هذه السور أشبه بسورة واحدة فصل بينهما بذكر الرحمة لتذكير الناس بنعمة العلم وإيقاظهم للاتحاد ولم الشمل وحفظ الجمع.

ومن أجمل الحكم أن يذكر فيها امتحان المهاجرات، وهل هن مؤمنات حقاً، وربما كن منافقات ومعنى هذا ألا نذر أحداً من الأمم التي تناوئنا يدخل معنا إلا بعد امتحانه، سواء أكان ذكراً أم أنثى،

وإن كان الامتحان في السورة خاصاً بالإناث، وإذا احترسنا من المرأة فالاحتراس من الرجل من باب أولى.

(٤) تفسير بسملة سورة «الصف»

والرحمة في سورة «الصف» واضحة متممة لما تقدم، فإننا إذا حفظنا الأسرات والمجالس والدولة، ونبذنا المنافقين، فتمام ذلك أننا إذا حاربنا الأعداء لا نكون متخاذلين، بل نكون صفاً واحداً كأننا بنيان مرصوص، ومستحيل أن يكون الناس كالبنيان المرصوص في الحرب، وقتال العدو، وحفظ الدولة والتعاون في الأعمال العامة إلا بعد نبذ ذوي النفاق بعد امتحانهم وإخراجهم من صفوف الأمة حتى لا يكونوا سبباً في تفريق الصفوف، ومتى اجتمعت الصفوف كان النصر المذكور في آخر سورة «الصف»: ﴿ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ ﴾[الصف: ١٣].

(٥) تفسير بسملة سورة «الجمعة»

ومن أعجب العجب أن يتبع اتحاد الصفوف في الحرب باتحاد النفوس في صلاة الجمعة، فليس الاتحاد على العدو بمغن عن الاتحاد في العبادات الموجب لتقارب القلوب وانتظام الألفة، بل لا انتظام لصفوف القتال إلا بعد الانتظام في الأعمال العامة والعبادات كصلاة الجمعة، ومن عجب أن يذكر فيها أن الذين آتاهم الله كتابه ثم لم يصلوا إلى أمثال هذه النتائج فأولئك مثلهم ﴿ كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ ﴾[الجمعة: ٥]. وبعبارة واضحة: إن أمم الإسلام الحالية، وأخص بالذكر الأمة العربية التي أنا واحد منها إذا لم يصلوا لهذه الدرجة من المنعة والقوة بترك التخاذل والعمل بكتاب الله في الأعمال العامة فإنهم يمسهم نصيب من آية: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ﴾[الجمعة: ٥]، ومن آية: ﴿ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴾[الحشر: ١٤]، لأنهم اجتمعوا في اللغة والدين والعادات والنسب وتجاور الأوطان، واختلفوا في أمور فرعية في الدين فجعلوها أصلاً وتخاذلوا.

وأنا أحمد الله إذ رأيت في هذه الأمم من سعدوا بالألفة، وهن الأمم الأربعة المتقدمة، وإحداهن عربية والأخريات منها تركية، ومنها أفغانية، ومنها فارسية، ولقد رأيت من اهتمام بقية أبناء العرب ما يشرح الصدر في زماننا، فهذه اليمن، وهذه نجد، وهذه الحجاز، كل هذه الأمم مستقلة، ولكن بقيت مصر وبقيت بلاد سوريا وفلسطين، وبلاد شمال أفريقيا: طرابلس وتونس والجزائر ومراكش.

أيتها الأمة العربية المستقلة وغير المستقلة، عار عليكم أن يكون هذا كتاب ربكم وأنتم تتلونه، والحوادث قد أيقظتكم، ومع ذلك لا تتحدون.

يجب أن يكون السوداني المسلم العربي وغير العربي مع المصري، وسكان شمال أفريقيا وأهل فلسطين وسوريا والحجاز ونجد واليمن والعراق كلهن أمة واحدة، إن لم يفعلوا ذلك فإن مثلهم كمثل آبائنا العرب في الجاهلية، وكمثل اليهود إذ قال الله فيهم: ﴿ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴾[الحشر: ١٤].

أيها المسلمون، أيها العرب، هذا هو المقصود الأعظم من هذه السور، ولهذا أنزل القرآن، وإذا ظنت هذه الأمم أن اختلاف أوطانها أو ملوكها أو مذاهبها كالشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية

والزيدية والوهابية والشيعية يوجب تخاذلها وعدم اتحادها؛ فإن ذلك يدل على عدم تبصرها وعلى جهلها.

فيا عجباً لأمة الإسلام! تلك الأمة التي جاء الدين لها، وهو يجمع الأمم كلها في دولة واحدة يضم تحت رايتها كل نحلة وملة، ويحافظ على عباد الله، كيف تجعل ما به الاتفاق عين ما به الشقاق، ويقول كل أصحاب مذهب: نفسي نفسي، وبقية العرب وبقية المسلمين كفار أو فساق، وربما استحلوا دماءهم وأموالهم وقتلوهم تقتيلاً. والحق الصراح أن هذا إذا ظهر في هذه الأمم فإنه ينطبق عليها قوله تعالى: ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾[الحشر: ١٤]. وإني أرى أن أمم الإسلام عربية وغير عربية اليوم تسعى جهدها للكمال والاتحاد.

(٦) تفسير بسملة سورة «المنافقون»

ولما كانت السور الخمس السابقة مدارها على نظام الألفة المنزلية تارة، ونظام الأمة بنبذ النفاق ثانياً؛ أكد الشق الثاني في سورة «المنافقون» أن هذه السورة وتناسقها يدعو للبحث والتفكير فيها، كررت السور التي تدعو إلى الوفاق وترك الشقاق، وهذه السورة سادستها، وذلك دلالة على أن هذا الدين يسع أمماً وأمماً، وليس ديننا ضيق الصدر، وسع ديننا منافقي المدينة، ووسع صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبي ابن سلول، وسعه وهو القائل في إحدى الغزوات كما سيأتي: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. وسعه ولم يكدر صفو ابنه المسلم بقتله لهذا القول، خيفة أن يقال: إن محمداً يقتل أصحابه، دين واسع، ولكن بعض الفرق الإسلامية تبيح قتل المسلمين تديناً لأنهم كفار في نظرهم، نظريات خاطئة، ونفوس ضائعة، وعقول نائمة بالتقليد الأعمى، وسع ديننا المنافقين فيه، ووسع جميع الديانات أن تعيش تحت كنف دولة الإسلام، ولكن الأمم الإسلامية العربية لم تقدر في القرون المتأخرة أن تعيش في دولة واحدة تباعداً عن الحق وجهلاً بالدين.

(٧) تفسير بسملة سورة «التغابن»

ولما كان مقام حفظ الدولة من النفاق قد جاء فيه ما يكفي لذوي الألباب أتبعه بسورة «التغابن» يراد بها استراحة القلوب وشرح الصدور بتذكير الناس بعوالم السماوات والأرض المسبحات لربها فيها، وتذكير الناس بالأمم الخالية، والقرون الماضية، وإنذار بعضهم بالنار، وتبشير آخرين بالجنات، ثم إراحة الأفئدة بأن المصائب مقدرة في الأزل، فعلى الناس أن يرحموا نفوسهم، ولا يحملوها ما فوق طاقتها من الغم على ما فات، لأنهم لا يد لهم في وقوعه، فعلى الإنسان إذن أن يصفح عن ذنوب أهله وذريته لأنهم مسجرون، وقد جعلوا اختباراً له لينظر أيصبر، فكما صبر رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنافقين في المدينة؛ يجب على رب الأسرة أن يتحمل ما يصيبه في سبيل حفظ أسرته اقتداء بنبيه صلى الله عليه وسلم، وليعف وليصفح.

(٨) تفسير بسملة سورة «الطلاق»

وإذا طلق المسلمون أزواجهم، فعلى المطلق، وعلى القاضي، وعلى سائر الحكام أن يكونوا عادلين في المعاملة، وليلاحظوا النفقة والعدة، وذلك رجوع إلى نظام الأسرة اقتداء بالرسول صلى الله

عليه وسلم إذ عامل أزواجه أمهات المؤمنين بالرفق واللين والشفقة، فكما أن الله سمع قول المرأة التي تجادل في زوجها وتشتكي إلى الله.

(٩) تفسير بسملة سورة «التحريم»

هكذا هو سبحانه ألهم رسوله أن يكون قدوة في حفظ الزوجات والمعاشرة، فأعرض عن إذاعة بعض الأسرار التي أذاعتها إحدى أمهات المؤمنين، وضرب الله الأمثال لحسن المعاشرة في الدنيا والصبر على مضض المعاملة فيها بامرأة نوح إذ صبر عليها، وكذا امرأة لوط، فهذان مثلان ضربا لرسول الله صلى الله عليه وسلم اطمئناناً لقلبه فيصبر على الزوجات كما صبر نوح ولوط، وهكذا مريم ابنة عمران وآسية امرأة فرعون صبرتا فدخلتا الجنة. فهذه الأمثال الأربعة المضروبة مثلاً لدوام المعاشرة والصبر على المعاشرين وإن كانوا كافرين أو منافقين رجالاً ونساء، وهكذا صبره صلى الله عليه وسلم وحفظه لأهل بيته، كل ذلك ليثبت به فؤاد المسلمين في معاشرة الأهل المذكورة في سورة «التغابن»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾[الآية: ١٤]. هذا نموذج لأهم المقصود بهذه السور التسع المتتابعات.

(١٠) تفسير بسملة سورة «تبارك»

ثم أتبعتها بعاشرتها وهي سورة: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾[الملك: ١]، وأشار إلى ما قلناه كله في هذا المقام، فقال في أولها: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾[الملك: ٢]. فكأنه يقول: إن جميع ما تقدم من أحوال الأمم، ونفاق بعض رجالها، وشقاق نسائها، وما يتبع ذلك، كل هذا إنّما جعلته اختباراً لكم وامتحاناً، وهنا أخذ يخرج بعقل المسلم من ساحات الأرض الضيقة إلى ساحات السماوات الواسعة، ويشرح عالم السماوات والأرضين، والليل والنهار والجبال والجنات الواسعات في الدنيا وفي الآخرة، وكذلك جهنم ترويحاً لنفوس الناس، وإرشاداً إلى أن هذا هو المقصود الأتم من الحياة، وما تقدم إنّما هو مقدمات، وقد تقدم نظير هذا في سورة «البقرة» عند آيات الطلاق والخلع ونحوها. وإلى هنا تم الكلام على القسم الأول من تفسير بسملة سورة «المجادلة» وما بعدها إلى سورة «تبارك»، وإنّما فعلنا ذلك لأن الرحمة تقدم الكلام عليها كثيراً في هذا التفسير، فاكتفينا هنا بذكر ملخص السور العشر مخافة التطويل.

كتب صباح يوم الجمعة ٢٨ جمادى الثانية سنة ١٣٥١ هجرية، الموافق ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٣٢م. والحمد لله رب العالمين.

القسم الثاني: في أحكام المظاهرة

التفسير اللفظي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

روي أن خولة بنت ثعلبة ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت، فاستفتت رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قالت: يا رسول الله، إن زوجي أوس بن الصامت تزوجني وأنا شابة غنية ذات أهل ومال، حتى إذا أكل مالي وأفنى شبابي، وتفرق أهلي، وكبر سني ظاهر مني وقد ندم، فهل من شيء

تجمعني وإياه وتفتيني به؟ فقال صلى الله عليه وسلم: حرمت عليه. فأعادت الكرة وهو يعاود الجواب حتى قالت: أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي، قد طالت له صحبتي، ونثرت له بطني، وإن لي صبية صغاراً، إن ضممتهم إلي جاعوا، وإن ضممتهم إليه ضاعوا، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتستغيث وتشكو إلى الله، فنزلت هذه الآيات الأربع، فقال لها صلى الله عليه وسلم: ادعي لي زوجك، فتلا عليه صلى الله عليه وسلم: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ تجادلك: أي تخاصمك وتكلمك في شأن زوجها ﴿وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تظهر ما بها من المكروه ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ مراجعتكما الكلام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ يسمع شكوى المضطر ﴿بَصِيرٌ﴾ بحاله، ﴿ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ الظهار: أن يقول الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي، وألحق بالظهر الفقهاء كل جزء من أنثى محرم، وهذا كان من أيمان الجاهلية ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ﴾ أي: ما اللاتي يجعلونهن من زوجاتهم كالأمهات بأمهات، أي: لسن بأمهاتهم ﴿إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ﴾ فلا تشبه بهن في الحرمة إلا من حكم الله بإلحاقهن كالمرضعات وأزواج الرسول صلى الله عليه وسلم، ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ لا يعرف في الشرع ﴿وَزُورًا﴾ كذباً ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ لما سلف إذا تاب الإنسان منه ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾ أي: يعودون لتحليل ما حرموا، أو يعودوا لنقض ما قالوا أو لتداركه، والعود للنقض أو للتدارك أو للتحليل نتيجتها متقاربة، وذلك إما بالسكوت عن الطلاق بعد الظهار زماناً يمكنه أن يطلقها فيه وإما بالندم، فيرجع إلى الألفة بعد الظهار، أو استباحة الوطء والملامسة والنظر بشهوة، أو مجرد العزم على وطئها أو نفس الوطء. والأول: قول الشافعي. والثاني: قول ابن عباس. والثالث: قول أبي حنيفة. والرابع: قول مالك. والخامس: للحسن وقتادة وطاوس والزهري. وهناك وجه سادس: أن الظهار كان في الجاهلية، فالتلفظ به نفسه رجوع إلى حال الجاهلية. ووجه سابع: أنه لا يقع الظهار إلا إذا كرر لفظ الظهار، وإلا لم يكن عود، فإن لم يكرر اللفظ فلا كفارة، وهذا الأخير قول أهل الظاهر.

هذا ملخص الأقوال: فإذا عاد المظاهر بعدم التلفظ بالطلاق أو بالندم، أو بالعزم على الوطء أو بنفس الوطء إلى آخر ما تقدم ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: فالواجب عليهم إعتاق رقبة ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ أي: أن يستمتع كل من المظاهر والمظاهر منها بالآخر، فيحرم عليه الاستمتاع قبل التكفير، فلا جماع ولا لمس بشهوة ونحو ذلك، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: ذلكم الحكم بالكفارة ﴿تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ أي: إن غلظ الكفارة وعظ لكم حتى تتركوا الظهار ولا تعاودوه ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من التكفير وتركه، ﴿خَبِيرٌ﴾. ثم أخذ يذكر حكم من لم يقدر على الرقبة فقال: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الرقبة ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ فإن أفطر بغير عذر فليستأنف، وإن أفطر بعذر ففيه خلاف، وإن جامع ليلاً عصى الله. ولا ينقطع التتابع عند الشافعي، وعند أبي حنيفة ومالك ينقطع التتابع، ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾ الصوم لهرم، أو مرض مزمن، أو شبق مفرط ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ ستين مداً، وهو رطل وثلث مما يخرج في زكاة الفطر، ويقول أبو حنيفة: يعطي كل مسكين نصف صاع من بر أو صاعاً من غيره، ولم يذكر التماس مع الطعام اكتفاء بذكره مع الآخرين ﴿ذَٰلِكَ﴾ البيان

والتعليم للأحكام فرض، ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي: لتصدقوا بالله ورسوله في قبول شرائعه ورفض ما كنتم عليه في جاهليتكم، ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ لا يجوز تعديها ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ ﴾ الذين لا يقبلونها ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في نار جهنم.

مسائل

(١) من ظاهر من امرأته مراراً، فالشافعي وأبو حنيفة يوجبان لكل مظاهرة كفارة، ما لم يكن في مجلس واحد وأراد التأكيد فتكون كفارة واحدة، وأما مالك فجعل المظاهر في مجالس متفرقة ليس عليه إلا كفارة واحدة.

(٢) يقول مالك رحمه الله: إن أراد التكفير بالإطعام يجوز له الوطء قبله، وعند غيره يحمل الإطعام على غيره.

(٣) إذا جامع قبل أن يكفر فعليه كفارة واحدة عند مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وسفيان، وبعضهم يقول: عليه كفارتان. انتهى القسم الثاني من السورة، والحمد لله رب العالمين.

القسم الثالث: في أحكام المجالس من النجوى والتفسح فيها ومناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم ومن ذم المنافقين وما يتبعه

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ يعادونهما، أو يختارون حدوداً غير حدودهما ﴿ كُبِتُوا ﴾ أخزوا أو أهلكوا ﴿ كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من كفار الأمم الماضية ﴿ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ تدل على صدق الرسول وما جاء به ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ يذهب تكبرهم وعزهم ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ﴾ الظرف متعلق بـ «مهين» ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ ﴾ حفظ الله ما عملوا وأحاط به عدداً لم يغب منه شيء ﴿ وَنَسُوهُ ﴾ لأنه كثير، وهم به متهاونون ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ لا يغيب عنه شيء.

الكلام على النجوى وأحكامها

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ الكليات والجزئيات ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ ﴾ ما يقع من أسرار ثلاثة، أي: مسارة ومشاورة، أي: ما من شيء يناجي به ثلاثة بعضهم بعضاً ﴿ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ بالعلم يعلم نجواهم كأنه حاضر معهم ومشاهدهم ﴿ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ وإنما خص هذه الأعداد لأن الله وتر يحب الوتر ﴿ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ ﴾ ولا أقل كالواحد والاثنين ﴿ وَلَا أَكْثَرَ ﴾ كالستة فما فوقها ﴿ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾ يعلم ما يجري بينهم ﴿ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ بالعلم والقدرة ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ إظهاراً لذنوبهم ليفتضحوا ويجازوا ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾. ثم إن اليهود والمنافقين كانوا يتناجون ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين فيظن المؤمنون أنهم يتناجون بما يسوؤهم كأن يكون بلغهم خبر عن سرية هزمت أو كثر فيها القتل، فيحزنون لذلك، فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم عادوا لمثل ما نهوا عنه، فهذا قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ وهو

ذلك السر الذي كان بينهم لأنه يكون إما مكراً وإما كيداً بالمسلمين أو شيئاً يسوؤهم، وهذان إثم وعدوان. وقوله: ﴿ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ أي: يوصي بعضهم بعضاً بمعصيته صلى الله عليه وسلم، ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ فقد كان اليهود يدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون: السام عليك يا محمد، والسام: الموت، والله يقول: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾[النمل: ٥٩]، و﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴾[المائدة: ٤١]، و﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ﴾[الأنفال: ٦٤]، ﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ ﴾ أي: يقولون فيما بينهم: لو كان نبياً لعاقبنا الله ﴿ بِمَا نَقُولُ ﴾ من الاستخفاف به ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ﴾ أي: حال كونهم يدخلونها ﴿ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ المرجع جهنم.

ورد في حديث البخاري: أن رهطاً من اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: السام عليك. فقال: وعليكم. فقالت عائشة: السام عليكم ولعنكم الله وغضب عليكم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: يا عائشة عليك بالرفق، وإياك والعنف والفحش. اهـ.

ثم خاطب الله المؤمنين فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ كما يفعل المنافقون ﴿ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ كخير المسلمين وعدم معصية الرسول ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ فيما تأتون وتذرون ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ أي: إنما النجوى بالإثم والعدوان منه، فإنه المزين لها والمحرض عليها ﴿ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي: إنما يزين الشيطان ذلك ليحزن المؤمنين. وفي البخاري ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا كانوا ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث، فإن ذلك يحزنه»، وهذه الجملة الأخيرة لأبي داود. ﴿ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا ﴾ الضمير في «ليس» إما للتناجي وإما للشيطان ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ إلا ما أراد الله تعالى ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ فليكل المؤمنون أمرهم لله.

الكلام على التفسح في المجالس

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ ﴾ أي: إذا قيل لكم توسعوا فيها وليفسح بعضكم عن بعض، فوسعوا وتنحوا، وقد كانوا يتنافسون في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحبون القرب منه، فكانوا إذا رأوا رجلاً مقبلاً تضاموا في مجلسهم فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض بقوله: ﴿ فَٱفْسَحُواْ ﴾، ﴿ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ فيما تريدون التفسح فيه من المكان والرزق والصدر في الجنة. واعلم أنه لا فرق في هذا بين أن يكون المجلس في صلاة الجمعة أو في صف القتال، أو في حلقة العلم، أو الذكر، وفي بعضها وردت أحاديث أسندت السبب إليها، والآية أعم، ﴿ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ ﴾ أي: ارتفعوا عن مواضعكم حتى توسعوا لإخوانكم فارتفعوا ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ ﴾ بامتثال أوامره ﴿ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ والعالمين منكم خاصة ﴿ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ وهذه الدرجات في الدنيا بالرتبة والشرف وفي الآخرة في الجنة، فكان ابن مسعود إذا قرأها يقول: يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولترغبكم في العلم. وقال صلى الله عليه وسلم: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب».

وعنه صلى الله عليه وسلم: «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء». وورد أن سليمان خير بين العلم والمال والملك، فاختار العلم، فأعطي المال والملك معه. وورد أيضاً: أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام: يا إبراهيم إني عليم أحب كل عليم. ثم إن في قوله: ﴿ٱنشُزُواْ﴾ تفسيراً آخر، أي: إذا قيل لكم انهضوا إلى الصلاة، وإلى الجهاد، وإلى كل خير، فانهضوا ولا تقصروا عنه. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ تهديد لمن لم يمتثل الأمر.

حكم مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ أي: فتصدقوا قدامها، شبهت النجوى بمن له يدان على سبيل الاستعارة المكنية، وذلك فيه أمران: الأول: إعظام مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم، فإن الإنسان إذا وجد الشيء بمشقة استعظمه، وإذا ناله عفواً وبسهولة احتقره. والثاني: نفع الفقراء، وذلك أن أهل الميسرة منهم كانوا يكثرون المناجاة معه صلى الله عليه وسلم دون الفقراء، حتى تأذى بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم بالصدقة قبل أن يتناجوا مع النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الصدقة ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ من الإمساك ﴿وَأَطۡهَرُۚ﴾ لقلوبكم من الذنوب، أو أطهر لقلوب الفقراء، ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ﴾ الصدقة يا أهل الفقر، فتكلموا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بما شئتم بغير التصدق، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ متجاوز لذنوبكم ﴿رَّحِيمٌ﴾ لمن تاب منكم، وهذه تفيد طلب الصدقة من الأغنياء دون الفقراء قبل المناجاة، قيل: إنهم يتصدقون لكل كلمة بدرهم، ومع الاختلاف فيها أهي للندب أو الوجوب نسخت بآية: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ﴾ الآتية. وعن علي رضي الله عنه: إن في كتاب الله آية ما عمل بها أحد غيري، كان لي دينار فصرفته فكنت إذا ناجيته تصدقت بدرهم. وقوله: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ﴾ أي: أبخلتم وخفتم العيلة والفاقة إن قدمتم، وهذا هو قوله: ﴿أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ﴾ ما أمرتم به ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ تجاوز عنكم ونسخ الصدقة قبل المناجاة بعد عشر ليال، و«إذ» بمعنى «إن»، ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ فيما أمر ونهى ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فهو محيط بأعمالكم ونياتكم.

الكلام في المنافقين

قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ﴾ والوا ﴿قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ وهم اليهود ﴿مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ﴾ لأنهم منافقون مذبذبون بين ذلك، ولولا النفاق لم يوالوا اليهود المغضوب عليهم ﴿وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ﴾ وهو ادعاء الإسلام ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون. روي أنه صلى الله عليه وسلم كان في حجرة من حجراته فقال: يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار، وينظر بعين شيطان، فدخل عبد الله بن نبتل المنافق، وكان أزرق، فقال صلى الله عليه وسلم: علامَ تشتمني أنت وأصحابك؟ فحلف بالله ما فعل، ثم أمر أصحابه فحلفوا فنزلت. ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ فتمرنوا على سوء العمل وأصروا عليه ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾ وقاية دون دمائهم وأموالهم ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فصدوا الناس عن الإيقان بدين الله بتثبيطهم وتحريشهم

﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ ذكر العذابين: الأول للقبر، والثاني عذاب الآخرة، ﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ تفسيره واضح مما سبق في التفسير. ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ الظرف متعلق بقوله: ﴿ لَّن تُغْنِيَ ﴾، ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ لأن الأخلاق تلازم الإنسان في الآخرة كما كانت ملازمة له في الدنيا، ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ في حلفهم الكاذب، ذلك أنهم لاعتيادهم الأيمان الكاذبة في الدنيا وخدعهم يظنون أن الله كذلك تروج عنده الأيمان الكاذبة ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ البالغون غاية الكذب ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ ﴾ استولى عليهم، يقال: حذت الإبل وأحذتها، إذا استوليت عليها ﴿ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۚ ﴾ لا يذكرونه بقلوبهم ولا بألسنتهم ﴿ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ ﴾ جنوده وأتباعه ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ وأي خسر أعظم من أن يفوت عليهم النعيم الأبدي. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴾ أي: في جملة من يلحقهم الذل في الدنيا والآخرة، فإذا كانت عزة الله لا نهاية لها فذل أعدائه عظيم، ﴿ كَتَبَ اللَّهُ ﴾ في اللوح المحفوظ وأبرز آثاره في نظام العالم أن يغلب هو ورسله، وهذا قوله تعالى: ﴿ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ ﴾ فمنه من ألقنه الحجة فيغلب بها، ومنهم من أعطيه القوة فيغلب بالسيف، لأنه لا يبقى في الوجود إلا ما هو أصلح له وأنفع ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ ﴾ فهو ينصر أنبياءه ﴿ عَزِيزٌ ﴾ غالب أعداءه ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فإذن إيمان المؤمنين يفسد بموادة الكافرين، ومن كان مؤمناً حقاً لا يوالي كافراً، لأن من أحب أحداً امتنع أن يوالي عدوه. واعلم أنه ليس في مخالطتهم ومعاشرتهم محظور، إنّما المحظور مناصحتهم وإرادة الخير لهم ديناً ودنيا مع كفرهم، قال تعالى مبالغاً في زجر موادتهم: ﴿ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ ﴾ فهؤلاء وإن كان الميل لهم أمراً طبيعياً يجب أن يقاوم هذا الميل لكفرهم. ومن ذلك أن حاطب بن أبي بلتعة كتب إلى أهل مكة كما سيأتي في سورة « الممتحنة » بالمناصحة، فنهي عن ذلك بهذه الآية هو وأمثاله، ﴿ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴾ أثبته فيها ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ ﴾ من عند الله، وهو نور القلب والنصر والإيمان والقرآن، ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ﴾ ولا جرم أن رضوان الله بعد دخول الجنة أعظم من الجنة، ﴿ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أي: الفائزون. انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة، والحمد لله رب العالمين.

لطائف هذه السورة:

(١) في قوله تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۚ ﴾[الآية: ١].

(٢) في قوله تعالى: ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ۚ ﴾[الآية: ١٣].

(٣) في قوله تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ ﴾[الآية: ٢١].

(٤) في قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾[الآية: ٢٢].

اللطيفة الأولى والثانية

اعلم أن هذه السورة كالمتممة لسورة «الحديد»، وكالمفصلة لبعض ما فيها، ذلك أن الله قال في أواخر سورة «الحديد»: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾[الحديد: ٢٥]، وقد تقدم أن الآية تفيد أن الله تعالى أعطى أنبياءه العدل، وأعانهم بالقوة المادية، فيستعملون القهر بالسيف والرمح عند الاقتضاء.

فهاهنا أمران: قانون ونظام تام في الدولة، وجيش وسلاح يحافظ على ذلك النظام، فإذن لا بد من شريعة وقضاة وحكام، ثم لا بد من جند ودفاع وشرطة يحملون السيوف ليحافظوا على الأمن في الداخل، ويصدوا العدو من الخارج، وهذا كل النظام، ولا ريب أن من يعطي هذه القوة فليس هناك من قوة فوق قوته، ولا راد لقضائه، وعلى الناس أن يسمعوا ويطيعوا وليس ذلك للأنبياء وحدهم، بل إذا ولي عليهم عبد حبشي وخاطبهم بالقانون ورفع السيف فوق رؤوسهم وجب عليهم أن يطيعوه، فلما كان ذلك مقتضى القانون وقوة السيف جعل الله سورة «قد سمع» بعد ذلك ليبين أن من الحوادث ما يقبل الأخذ والرد، ومراعاة الجمهور، وحفظ القلوب، ألا ترى أن الله سمع قول امرأة شكت إلى الله ضياع عيالها عند أبيهم وجوعهم عندها فما أسرع أن نزل الوحي بما سر قلبها، هكذا لما نزلت آية المناجاة وظهر أن ذلك فيه صعوبة عليهم نزلت الآية بعدها لنسخ ذلك الأمر، والمقصود من هذا أن الله عز وجل يعلم الحكام كيف ينظرون في أمر رعاياهم، فإذا أصدروا أمراً فليبحثوا في أمر الرعية، فإن وجدوه قد أحرجهم وشق عليهم فلا عار عليهم إذا رجعوا عنه، فإن في ذلك المصلحة العامة للحكام والمحكومين. جاء في آخر سورة «الحديد»: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾[الآية: ٢٧]، فأراد أن يعلم حكام المسلمين هذه الرأفة والرحمة، ويقول: إذا أمرتم بأمر ترون فيه مصلحة الجمهور، ثم تعسر تنفيذه على الرعية فلا ترهقوهم من أمرهم عسراً، ولا تجعلوا القوة التي خولتكموها من السيف والجيش الحافظين للقانون عسفاً بالناس وظلماً لهم، بل كونوا ذوي رأفة ورحمة، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[آل عمران: ١٥٩] فهذا من العفو عنهم جاء من طريق الوحي. إن القرآن إنّما نزل ليعلم الناس، وهذا من أعظم التعاليم، ولذلك تجد الأمة العظيمة تراعي مصالح الجمهور، بل إنهم زادوا على ذلك أنهم جعلوا البلاد تحت أمر نوابهم المنتخبين من تلك البلاد، فكأن الله يقول: أيها الحكام المسلمون، إذا كنت أنا الذي نسخت آية الصدقة بآية أخرى وليس بينهما إلا عشر ليال؛ وأنا العليم بكل شيء؛ وأعلم أني سأنزل الآية؛ وأنها ستشق عليهم؛ وأني سأنسخها؛ وأنكم ستقولون: إثبات الإنفاق ونفيه معناه أنه لا فائدة في هذه الآيات التي شغلت بها هذه السورة؛ وإذا كان الله يعلم كل شيء فما أجدره أن لا يأمر ولا ينهى توفيراً للزمن، وهو بكل شيء عليم كأنه تعالى يقول: أنا أعلم أنكم تقولون ذلك، ولكني فعلت ذلك وأثبت الآيتين تعليماً لكم حتى تنهجوا منهج الكمال وحفظ قلوب الرعية، ولا تكونوا كالفرنجة الذين يضربون المسلمين بالمدافع في شمال أفريقيا وفي الهند إذا عصوا لهم أمراً، إن ذلك مما يزيل ملكهم سريعاً، فلذلك علمتكم بهذه الآيات

كيف تحفظون القلوب وتحافظون على الدولة. هذا هو السر في جعل هذه السورة بعد سورة «الحديد»

انتهى الكلام على اللطيفتين الأولى والثانية، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى:

﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾

اعلم أن القانون المسنون في هذه الدنيا وفي نظام البرية أن من عمل عملاً لمصلحة عامة وكان جديراً بها فإن الله يساعده ويحفظه، ويخلصه من المصائب، وإذا أصابه مكروه فذلك لرفعة شأنه وزيادة معونته لتقوى روحه على ذلك الأمر العظيم، فلتجرب ذلك أيها الذكي، بل ليكن استدلالك على صحة الدين بمثل هذا، فذلك هو البرهان على صدق النبوة، ففكر فيما أقول وقم بنصيبك من منفعة الإنسانية، بشرط أن تكون قادراً عليه، وثابر بجد على ما تقدر عليه من نفع المسلمين أو بقية النوع الإنساني، فإنك تجد الله معك في كل حركة وكلمة، لا يفوتك ولا يتركك، فإن وجدت الأمر كما ذكرت لك بان لك صدق قوله تعالى: ﴿ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ﴾[المجادلة: ٢١]، وكلما كان العمل أعم كان نظر الله للعامل أتم، وكلما كان العمل أضعف كانت المساعدة على مقتضاه.

وكم من مسلم يتصدق على من يقدر على العمل ويظن أنه يفعل حسناً. وكم من مؤمن يكب على عمل مبرور كالحج، أو الصلاة، أو الصيام، ويظن أن المبالغة في ذلك العمل هي كل شيء، والحق أن الإسلام أمر أعم مما يظن هؤلاء، الإسلام يوجب أن يقوم الناس بالآداب النفسية، والأعمال الجسمية، ومساعدة الناس ما استطاعوا لذلك سبيلاً، ومن قصر أو اقتصر على بعض ذلك فهو مذنب متى كان له قدرة على ما هو أعظم وهي المنافع العامة للمسلمين، أو للعالمين، لأن الله رب كل شيء، وأقرب الناس إليه من كان خيره أعم.

هذا معنى: ﴿ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ﴾، فبهذا فليعرف الناس صدق الأنبياء عملاً لا سماعاً، على شريطة أن يلاحظوا ما كتبناه. وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثالثة، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى:

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ الخ

اعلم أن الله كرر هذه الآيات في سور كثيرة، وجعل الوعيد شديداً على من والى الأعداء، وذلك هو مصيبة الإسلام اليوم. إن الأمة الإسلامية اليوم أصبحت في أخريات الأمم، وأبناؤها في شمال أفريقيا وفي مصر وغيرها يوالون الفرنجة وينصرونهم على أبناء جنسهم، ذلك داء عضال قد استحكم، وقد كررنا أن هذه الأمة سيزول منها هذا الشر المستطير، وتأخذ حظها بين الأمم في زمن قريب. انتهت اللطيفة الرابعة.

وإلى هنا تم الكلام على سورة «المجادلة»، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة «الحشر»
هي مدنية
آياتها ٢٤، نزلت بعد «البينة»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا

يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾

هذه السورة ثلاثة أقسام:

(١) في ذكر غلبة الله ورسوله لأعدائه في قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[الآية: ٢]، إذ أخرجوا من ديارهم وأخذ منهم الفيء وما يتبع ذلك، من أول السورة إلى قوله: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

(٢) في ذكر أخلاق المنافقين، وأنهم هم وأهل الكتاب الذين نافقوا لهم مغلوبون على أمرهم، كمثل أهل بدر، أو بني قينقاع، وكمثل الشيطان الذي يغر الإنسان ثم يتبرأ منه، من قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

(٣) في ذكر نصائح للمؤمنين، وإعظام أمر القرآن، ووصف الله بأوصاف الجلال والجمال، لأن هذا هو المقصود من هذه الحياة، من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ إلى آخر السورة.

القسم الأول من السورة

التفسير اللفظي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اعلم أن الله لما ذكر سورة « المجادلة » وكانت ترجع إلى أحكام شرعية وتقريع للمنافقين ونحو ذلك، وأعقبها الله بهذه السورة، وكانت في جملتها تشبه سابقتها، ولم يكن في ذلك ذكر الله الذي هو المقصود الأعظم؛ ابتدأ هذه السورة وختمها بالتسبيح، ويذكر أوصافه تعالى، حتى يكون القارئ متذكراً أوصافه العالية سبحانه، وهذا قوله: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ باللسان وبالقلب من غفلاتهم، فأما غيرهم فبلسان الحال بحيث يدل كل مخلوق على أن صانعه منزه عن المادة ولواحقها، أو أن كل مخلوق منقاد له، يتصرف فيه، وينفذ فيه أمره كيف يشاء، فجميع أجزاء السماوات والأرض فيها هاتان الدلالتان: ترفع فاعلها وتنزهه، وانقيادها له وخضوعها، ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ القاهر لكل مخلوق، الغالب من حاد عن الجادة ﴿ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ فيما يصنعه.

روي أن هذه السورة نزلت بأسرها في بني النضير، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة صالح بنو النضير رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يكونوا عليه ولا له، فلما ظهر يوم بدر قالوا: هذا النبي الذي جاء نعته في التوراة، فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا، فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكة، فحالف أبا سفيان عند الكعبة، فأمر صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة الأنصاري فقتل كعباً غيلة، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الجيش إليهم فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة، وأمر بقطع نخيلهم، فلما قذف الله الرعب في قلوبهم طلبوا الصلح، فأبى عليهم إلا الجلاء، على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ما شاؤوا من متاعهم، فجلوا إلى الشام إلى أريحا وأذرعات، ثم إن عبد الله بن أبي ابن سلول قبل ذلك قال لهم هو وأصحابه: لا تخرجوا من حصنكم، فإن قاتلوكم فنحن معكم ولا نخذلكم ولننصركم، ولئن أخرجتم لنخرجن معكم، فحصنوا الأزقة، وبعد ذلك أرادوا مكيدة فكشف أمرها، فخرج إليهم صلى الله عليه وسلم مع الجيش وحاصرهم كما تقدم، وهذا قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ ﴾ أي: في أول حشرهم، أي: جمعهم من جزيرة العرب ونفيهم إلى الشام، وآخر ذلك الحشر إجلاء عمر إياهم من خيبر إلى الشام، وكان هؤلاء من سبط لم يصبهم جلاء قط، وهم أول من خرج من أهل الكتاب من جزيرة العرب، والحشر: إخراج جمع من مكان إلى آخر، ﴿ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ ﴾ لشدة بأسهم ومنعتهم ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي أن حصونهم تمنعهم من بأس الله ﴿ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ﴾ عذابه وهو الرعب والاضطرار إلى الجلاء ﴿ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ ﴾ وهو أن الله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بقتالهم وإجلائهم، وكانوا لا يظنون ذلك، ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ ﴾ الخوف الشديد بقتل سيدهم كعب بن الأشرف، ﴿ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فإنهم كانوا ينظرون إلى الخشب في منازلهم فيهدمونها، وينزعون ما استحسنوه منها فيحملونه على إبلهم، ويخرب المؤمنون باقيها، ويقلعون العمد، وينقضون السقوف، وينقبون الجدران

لئلا يسكنها المؤمنون حسداً منهم وبغضاً، ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ أي: فاتعظوا بحالهم فلا تغدروا، ولا تعتمدوا على غير الله، وهذه الآية استدل بها على ربع الدين الإسلامي، وهو القياس، وأنه حجة من حيث إنه أمر بالمجاوزة من حال إلى حال، وحملها عليها في حكم لما بينهما من المشاركة المقتضية له، ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ الخروج من أوطانهم ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتل والسبي كما فعل ببني قريظة ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ سواء أجلوا أم قتلوا، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، ولما نزل صلى الله عليه وسلم ببني النضير وأمر بقطع النخيل؛ قالوا: قد كنت يا محمد تنهى عن الفساد في الأرض، فما بال قطع النخل وتحريقها؟ فوجد المسلمون في أنفسهم من قولهم، وخشوا أن يكون ذلك فساداً في الأرض، فقطع بعضهم، وقال بعضهم: لا تقطعوا فإنه مما أفاء الله عليكم، وقال الآخرون: بل نغيظهم، فنزلت هذه الآية بتصديق من نهى، وبتحليل ما انقطع، وهي: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ أي: أي شيء قطعتم من لينة، واللينة: النخلة الكريمة، والجمع أليان، ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فبأمره، أي: فقطعها وتركها بإذن الله، وإنّما أذنا في ذلك وقطعتم بإذننا النخل لتطهر البلاد منهم ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ على فسقهم بما غاظهم ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ أي: ما أعاده عليه، وصيره إليه، أو رده إليه، لأنه أولى به، لأن المصلحين في الأرض أولى الناس بما فيها، ﴿مِنْهُمْ﴾ من بني النضير ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ﴾ أي: فما أجريتم على تحصيله، والوجيف: سرعة السير ﴿عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ والركاب: ما يركب من الإبل، غلب فيه كما غلب الراكب على راكبه، وذلك أن قرى بني النضير كانت على ميلين من المدينة، فمشوا إليها رجالاً إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه ركب جملاً، أو حماراً، ولم يكن ليجري معهم عظيم قتال، ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ بقذف الرعب في قلوبهم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو يسلط ظواهر الأسباب تارة وبواطنها أخرى.

ولما تم الكلام على جلاء بني النضير وعلى فيئهم أعقبه بالكلام على مصرف هذا الفيء، فقال سبحانه: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: من أموال كفار أهل القرى، كقريظة والنضير وفدك وخيبر ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وهم بنو هاشم وبنو المطلب ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ أي: إنّما حكمنا بذلك وجعلناه لهؤلاء المذكورين لئلا يكون الفيء الذي حقه أن يعطى للمذكورين ليعيشوا به متداولاً بين الأغنياء دائراً بينهم كما كان في الجاهلية يتكاثرون به، والدولة: ما يدول للإنسان، أي: يدور من الجد والحظ ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ أي: ما أعطاكم من قسمة غنيمة، أو فيء، فاقبلوه ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ أي: ما نهاكم عن أخذه فانتهوا عنه ولا تطلبوه ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أن تخالفوه وتتهاونوا في أمره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليست الآية خاصة بالفيء فنحن مأمورون أن نتبعه في كل شيء أمراً ونهياً، ثم أبدل من ﴿لِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وما بعده قوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ فإن كفار مكة أخرجوهم وأخذوا أموالهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ بأنفسهم وأموالهم ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ الذين

ظهر صدقهم، ثم عطف عليهم على المهاجرين قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ وهم الأنصار، فهم لزموا المدينة والإيمان، وتمكنوا فيهما من قبل هجرة المهاجرين ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ ولا يثقل عليهم ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ ﴾ في أنفسهم ﴿ حَاجَةً ﴾ ما تحمل عليه الحاجة من الطلب والحسد والحزازة والغيظ ﴿ مِّمَّآ أُوتُوا۟ ﴾ مما أعطي المهاجرون من الفيء وغيره ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي: ويقدمون المهاجرين على أنفسهم، حتى إن من كان عنده امرأتان نزل عن واحدة وزوجها من أحدهم، ﴿ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ أي: فاقة ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ الفائزون بالثناء العاجل، والثواب العاجل.

روي أن عمر رضي الله عنه قرأ: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ ﴾[الحشر: ٧] حتى بلغ: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ﴾[الحشر: ٨] إلى قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[الحشر: ١٠] وهي الآية الآتية، ثم قال: هذه قد استوعبت المسلمين عامة، قال: وما على وجه الأرض مسلم إلا وله في هذا الفيء حق إلا ما ملكت أيمانكم.

وللشافعي قولان: أحدهما أن الفيء للمقاتلة، والثاني وهو الأنسب بالآية لمصالح المسلمين، ويبدأ بالمقاتلة ثم بالأهم فالأهم من مصالح المسلمين، وأكثر العلماء أنه يصرف جميعه لجميع المسلمين كما هو قول عمر، وأحد القولين عند الشافعي. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ عطف على «المهاجرين»، ودخل في هذا الفيء كل من هو مولود إلى يوم القيامة في الإسلام، أي: وذلك من العطف المذكور على «المهاجرين» كما تقدم عن عمر، ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾ أي: لإخواننا في الدين السابقين، وهم المهاجرون والأنصار، وهذا خبر بمعنى الأمر، أمر الذين جاؤوا بعد الصدر الأول أن يستغفروا لهم، قالت عائشة رضي الله عنها: أمروا أن يستغفروا لهم فسبوهم، ﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي: حقداً لهم ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ فحقيق بنا أن تجيب دعاءنا. انتهى الكلام على القسم الأول من السورة، والحمد لله رب العالمين.

القسم الثاني: في ذكر أخلاق المنافقين
وأنهم هم وأهل الكتاب الذين نافقوا لهم مغلوبون على أمرهم
كمثل أهل بدر أو بني قينقاع
أو كمثل الشيطان الذي يغر الإنسان ثم يتبرأ منه

ولما أتم الكلام على بني النضير وعلى تقسيم الفيء أعقبه بإتمام الكلام على ما حصل من المنافقين قبل الجلاء كما تقدم في التفسير قريباً من مناصحة عبد الله بن أبي ابن سلول لليهود هو ومن معه، وقوله لهم: ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ﴾[الحشر: ١١] الخ، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ أي: الذين بينهم وبينهم أخوة الكفر والصداقة والموالاة ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ ﴾ من دياركم ﴿ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ ﴾ في قتالكم

وخذلانكم ﴿ أَحَدًا أَبَدًا ﴾ أي: من رسول الله والمؤمنين ﴿ وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ لنعاونكم ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ لعلمه بأنهم لا يفعلون ذلك، وهو قوله: ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ ﴾ وهذا هو الذي كان، فإنهم أخرجوا من ديارهم وما خرجوا معهم وتوجه المسلمون لقتالهم فلم يدافعوا عنهم ﴿ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ ﴾ على الفرض والتقدير ﴿ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ﴾ منهزمين ﴿ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ أي: ينهزم اليهود ثم لا تنفعهم نصرة المنافقين ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً ﴾ أي: أشد مرهوبية ﴿ فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ فلذلك يظهرون لكم في العلانية خوف الله وأنتم أهيب في صدورهم منه ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ لا يعلمون الله وعظمته حتى يخشوه حق خشيته ﴿ لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ ﴾ أي: اليهود والمنافقون ﴿ جَمِيعًا ﴾ مجتمعين ﴿ إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ ﴾ بالدروب والخنادق ﴿ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ﴾ لفرط رهبتهم ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ أي: إن البأس الشديد الذي يوجفون به إنّما هو إذا حارب بعضهم بعضاً، ولو قاتلوكم لم يبق ذلك البأس والشدة، لأن من حارب الله ورسوله يجبن، ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا ﴾ مجتمعين متفقين ﴿ وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ متفرقة لا ألفة بينهم لافتراق عقائدهم، واختلاف مقاصدهم، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ ما فيه صلاحهم، ولا يعلمون أن تشتت القلوب يوهن القوى ويضعفها. ثم قال: مثل اليهود ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي: كمثل أهل بدر، أو كمثل بني قينقاع، ﴿ قَرِيبًا ﴾ أي: في زمان قريب. ثم بين ذلك فقال: ﴿ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ أي: سوء عاقبة كفرهم في الدنيا ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الآخرة، ومثل المنافقين مع بني قريظة حيث خذلوهم ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ﴾ مع الإنسان ﴿ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَـٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ فهؤلاء المنافقون فعلوا مع اليهود كما فعل الشيطان مع الإنسان، إذ يستغويه بكيده ثم يتبرأ منه، ومن هذا الاستغواء أنه استغوى قريشاً يوم بدر وقال: ﴿ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٨] الخ، ﴿ فَكَانَ عَـٰقِبَتَهُمَآ ﴾ أي: عاقبة الإنسان الكافر والشيطان ﴿ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَـٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ وهذا القول يدخل فيه ما ذكر من استغواء الشيطان للكفار يوم بدر، وما روي عن برصيصا الراهب الذي حكي أنه كان كثير العبادة، ثم أغواه الشيطان أن يتعلم الاسم الأعظم الذي تجاب به الدعوات، ثم تكاثرت عليه الناس، وأخيراً أتوا له بأجمل فتاة ليقوم بأمرها، فأبى أولاً، ثم أخذ يدعو الله لها وهي تشفى كلما مرضت بدعائه، ثم إن الشيطان سول له فواقعها، فحملت منه، ثم أغواه أن يقتلها ويدفنها ثم جاء إلى إخوتها في المنام فأخبرهم، فوجدوها مدفونة، فهدوا صومعة برصيصا وقتل الملك ذلك الراهب، وانتهى الأمر، وهذه الحكاية وإن كانت من أقاصيص بني إسرائيل فهي ذات مغزى يناسب ما نحن فيه وإن لم تكن حقيقية.

فانظر كيف فعل المنافقون بالمدينة مع اليهود ما نشاهده كل يوم من أعمال الناس يضل بعضهم بعضاً ويغوونهم ثم يتركونهم، وهذا العمل بعينه هو الذي تفعله أمم أوروبا الآن، ألم تر أنهم فتحوا مدارس في بلاد سوريا وأظهروا أنهم خلقوا لرقي الأمم وإسعادها وأن الله خلقهم لذلك، وأذاعوا العلوم والمعارف واشتاق الشبان والشيوخ لذلك الشعب الفرنسي النافع للإنسانية، وكانت نساءهم

تتمنى أن يشاهدوا هؤلاء الرافعين للإنسانية، فلما كانت الحرب الكبرى أخذوا تلك البلاد، وأخذوا يذيقونهم سوء العذاب، ويوقعون بهم النكال.

اللهم إن فعل المنافقين مع اليهود، وفعل الشيطان مع برصيصا العابد هو الذي نشاهده كل يوم من أوروبا، إن الله أنزل هذا القرآن ليبين للمسلمين وجوه النفع، يقرأ بعض المسلمين هذه الآيات فيقولون في أنفسهم: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾[البقرة: ١٣٤]، وأي شيء المنافقون ويهود بني النضير؟ لقد ماتوا، ومن هو برصيصا الراهب وشيطانه الذي هو من أقاصيص بني إسرائيل؟ نقول لهم: هذا هو الذي ترونه كل يوم، إن الشيطان الذي ظهر لبرصيصا في تلك الحكاية كان يتظاهر بالصلاة، فلا يزال يصلي أربعين يوماً ولا ينفلت من صلاته، فظن برصيصا أنه أحسن منه، فلما لقنه الدعوات قبلها، وكان قبوله للدعوات سبب وقوع الفتاة عنده.

إن هذه حال أوروبا الآن حرفاً بحرف، يتظاهرون بالمدنية، ويفتحون المدارس، ويقولون: نمدن الشعوب، ونرقي الجنس البشري، ثم هم في الوقت نفسه يمتصون دماء الشعوب، ويقتلون الأمم، ويبتزون المال، ويجعلون الناس طعمة لهم، وفاكهة وأباً، متاعاً لهم وتقوية لشهواتهم وفسوقهم.

ومن هذا القبيل ما قاله «غاندي» الحكيم الهندي في زماننا ما معناه: إن الشيطان يفلح في إضلال الناس إذا ظهر وفي فمه ذكر الله.

فهذا كمثل قصة برصيصا الكاهن، فهذه الآيات يجب على المسلمين أن يتذكروها، ويؤلفوا رسائل سياسية تناسبها بألفاظ وأمثال يفهمها الناس، وفي كتاب «كليلة ودمنة» من الأمثال ما فيه مقنع، لأنه كتاب كله سياسة، فانظره إن شئت. وإلى هنا تم الكلام على القسم الثاني من السورة، والحمد لله رب العالمين.

القسم الثالث: في ذكر نصائح للمؤمنين، وإعظام أمر القرآن ووصف الله تعالى بأوصاف الجلال والجمال لأن هذا هو المقصود من هذه الحياة

ولما أتم الكلام على أخلاق المضلين من المنافقين والضالين، وحذر من أفعالهم؛ شرع ينصح المسلمين بلزوم التقوى، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ ليوم القيامة، وإنّما سماه غداً لدنوه وقربه، أو لقرب ما يدل عليه من عذاب الدنيا وعذاب القبر، ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ تكريره للتأكيد ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ وهذا وعيد، ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ نسوا حقه ﴿ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي: أنساهم حظوظ أنفسهم فلم يقدموا لها خيراً ينفعها، ولم يدرسوها ويعرفوا العالم حولها حتى يفطنوا لها ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ الكاملون في فسوقهم ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ وهم الذين كملت نفوسهم فدخلوا الجنة، والذين استمهنوها فاستحقوا النار ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ بالنعيم المقيم.

إن الآيات المتقدمة فيها عبر وأمثال، ومنها قوله: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾[الحشر: ١٦]، وقوله: ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾[الحشر: ١٥]، فإن ذلك رمز إلى ما ذكرناه من انخداع النفوس الإنسانية بشياطين الإنس تارة وشياطين الجن تارة أخرى، ألا ترى أن وعد المنافقين

بالمدينة لليهود، ووعد الشيطان لأهل مكة يوم بدر مثالان ينطبقان على كل ما ابتلي به الناس في هذه الدنيا، إن الناس لا عذاب عليهم ولا شقاوة إلا من جهة الجهل، فالجهل هو الباب الواسع الذي فتح لهذا الإنسان فأوقعه في الشقاء، والضلال والإغواء لا يخرجان عن أمرين: إما أن يكون بلسان الأحياء من بني آدم، وإما أن يكون بهواجس في نفوسنا، وآراء داخل قلوبنا، وهذا منسوب لشياطين الجن:

(١) فالشره في الطعام الذي يعقبه المرض.

(٢) والبخل بالمال الذي يعقبه كراهة الناس.

(٣) والخوف من الموت الذي يورث الجبن فيتبعه قهر الأعداء.

(٤) والإسراف في المال الذي يتبعه الفقر.

كل ذلك من آراء من داخل النفس، فهي شيطانية من شياطين الجن أو الهوى أو النفس، وأما من خارجها فهي من شياطين الإنس، وأعم الأمور وأهمها في أيامنا الحاضرة ما ابتلي به المسلمون من ضحك الفرنجة عليهم، وابتلائهم إياهم بالأنسجة المزخرفة، والصناعات الجميلة، والنساء البهيات الطلعة، واستغوائهم إياهم تارة بالماديات، وتارة بالمعنويات، كأن يعلموهم في مدارسهم، ويغشون على عقولهم، ويقولون لهم: نحن ننشر المدنية والحرية، حتى إذا ما أناموا العقول، وابتزوا الأموال، وأصبح الشرقي كأنه منوم ـ بالفتح ـ تنويماً مغناطيسياً؛ انقضوا على البلاد فأورثوها النكال والبوار، وجروا عليها الخراب، وورثوا أرض المسلمين وديارهم.

فهذا من الأمثال المضروبة في هذه السورة: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الحشر: ١٦].

إن الأوروبي لا يقول للشرقي: اكفر، ولكنه يقول له: دع الأمور القديمة، واعلم أن الديانات أصبحت لا قيمة لها، ويبغضونه في عادات آبائه وأجداده، ويحقرون ذلك في عينيه، وهكذا ينقضون عزائمه حلقةً حلقة، حتى يتخلع من وطنه ودينه وهو لا يشعر، فإذا جاء دور الاحتلال وأخذ البلاد أصبح ذلك المفتون بهم فيمن شملهم الذل، ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾[ص: ٣].

ذلك هو الذي صنعه الأسبانيون في بلاد الأندلس، وهو الذي استمر بعد ذلك في مصر وسوريا وشمال أفريقيا، دخل الفرنجة بلادنا، وكان دخولهم أشبه بالحكاية المنقولة عن بني إسرائيل التي ابتدعوها، كضرب الأمثال من باب الاستعارة التمثيلية، وقد أشرنا إليها فيما تقدم، فإن الشيطان المسمى بالأبيض الذي أرسله إبليس لإضلال برصيصا الراهب فيما يزعمون؛ هم العلماء في الكليات في أوروبا ورجال الدين.

ثم إن حضور الأبيض في صومعة برصيصا وإظهاره العبادة والصلاة والصيام حتى صار لا يأكل كل أربعين يوماً مرة؛ أشبه بما يقوله أولئك العلماء الأوروبيون ورجال الدين في المدارس من أنهم جاؤوا لترقية أبناء الشرق، ثم إن قول ذلك الشيطان لبرصيصا: سأعلمك كلمات تدعو بها الله فيستجيب لك؛ كقول الأوروبي لأحد الخديويين في مصر سابقاً: قل للعسكر يتركوا الدعوات والعبادات، لأن المتدين ضعيف الإرادة، أما حر العقيدة فإنه شجاع.

وما دعاء برصيصا بتلك الدعوات واستجابتها وحب الناس له والتفافهم حوله، ثم وقوعه أخيراً في الذنب الذي نصبه له الشيطان إذ أوقع بنت الملك في مرض أشبه بالجنون، ودلهم على برصيصا فحضرت عنده وأغراه بالفسق بها فحملت، ثم أمره بقتلها، ثم أخبر أهلها في المنام، وعرفهم محلها الذي دفنت فيه في الجبل، فهو بعينه ما تفعله أوروبا الآن، يتدخلون في كل شيء بصفة الإصلاح ويكتبون إلى دولهم، حتى إذا حان وقت ابتلاع البلاد أحاطوا بها من كل جانب بسبب ما لديهم من الرسوم ومعرفة الأماكن والعورات، فيسهل فتح البلاد وتصبح ملكاً لهم، وهذا قتل للأمة، كما قتل الملك برصيصا الراهب لوقوعه في جريمتين: الزنا والقتل، وهؤلاء الشرقيون وقعوا في جريمتين: الانخلاع من الفضائل، وهذا بالزنا أشبه، وترك حبل الأمور على غاربها، وهذا قتل للأمة، فإذن يستحقون القتل، وقتلهم استعبادهم.

ألا ترى أن هذا كله في ضمن الآية، أفلا ترى معي أن جميع ما نخطئ فيه في صحتنا ومالنا وسياستنا وتجارتنا إنّما هو من آراء تكون في أفئدتنا من داخلها أو من الخارج، أفلا ترى أن قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ بعد ما تقدم للإشارة أنه يجب الحرص على ما في هذه السورة ونحوها من المعاني، أفلا ترى أن قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الحشر: ٢١] إنّما جيء به بعد هذه التشبيهات للإشارة إلى عظم خطرها وأهميتها بالنسبة للمسلمين، وإلا فلماذا لم يذكر هذا القول إلا في هذا المقام؟ ولماذا يمثل الجبل برجل ذي عقل، وقد قرئ عليه القرآن فيكون خاشعاً مشفقاً من باب التخيل، ثم يعقبه بقوله: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الحشر: ٢١] وذلك كله لأجل تعليم المسلمين التفكر، وطريق التفكر يكون بمثل ما كتبناه، فإن القرآن لم ينزل إلا ليتفكر فيه، وفي هذه السورة فتح أعظم باب للفكر، ولذلك أعظم أمر القرآن وأمر الأمثال، وقال: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

إن جميع بني آدم مسحورون إما بفكر داخلي، وإما بشيطان إنسي. إن شياطين الإنس هم كثير من أهل أوروبا يختصون بأموال الشرقيين لا سيما المسلمين، ويجدون في بقائهم جاهلين، ليكونوا لهم خولاً وعبيداً خاضعين. لعمري لقد أعطيت الآية من العناية ما يليق بهذا التفسير، فلأتمم الكلام على بقية السورة: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ﴾ ما غاب عن الحس من عوالم الملائكة، وما حضر من الأجرام المادية، والسر والعلانية، والآخرة و الدنيا، والمعدوم والموجود، ﴿ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ﴾ المنزه عن القبائح، وعن كل ما يلابس المادة وما فيه نقص، ﴿ ٱلسَّلَـٰمُ ﴾ الذي سلم الخلق من ظلمه، إذ جعلهم على نظام يكفل رقيهم، ولا تعرف هذا حق المعرفة إلا إذا رجعت إلى تفسير قوله تعالى: ﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ﴾[الآية: ٢٦] في سورة «آل عمران»، وأيضاً هو الذي سلم من النقائص، وكل آفة تلحق الخلق، فيكون «السلام» أعم من «القدوس»، ﴿ ٱلْمُؤْمِنُ ﴾ واهب الأمن، ولذلك نرى كل مخلوق في الأرض يعيش وهو في أمن نسبي، فالطائر في جوه، والحية في وكرها، والسمك في البحر، و الإنسان في القرية، ولا يعيش قوم

على الأرض ما لم يكن هناك حراس يحرسون قراهم وإلا هلكوا، فهذا من معاني «المؤمن»، ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ الشهيد على عباده بأعمالهم الذي لا يغيب عنه شيء، أو الرقيب الحافظ لكل شيء، فهو على الأول راجع للعلم، وعلى الثاني للقدرة، ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ﴾ أي: الغالب الذي جبر خلقه على ما أراده، أو جبر حالهم، أي: أصلحه، وربما دخل المعنى الثاني في عموم الأول، لأنه يسوقهم إلى ما يريد، ومن ذلك إصلاح حالهم، ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ البليغ الكبرياء والعظمة ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ نزه ذاته عما يصفه به المشركون. ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ﴾ المقدر للأشياء على مقتضى الحكمة ﴿ٱلْبَارِئُ﴾ الموجد لكل شيء بريئاً من التفاوت ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ الموجد لصورها وكيفياتها كما أراد، ولا جرم أن هذه المعاني يمكن معرفتها من تتبع أجزاء هذا التفسير، فإن آثار ذلك فيما كتبناه من جمال هذه الدنيا ونظامها وعجائبها، ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ لدلالتها على محاسن المعاني، ومحاسن المعاني تظهر في مظاهر هذا الوجود، فمن جهل نظام هذه الدنيا التي نحن فيها فقد جهل آثار صفات الله، ومن جهل أثر الصفة جهل نفس الصفة، والله لا يعرف بذاته وإنّما يعرف بصفاته، فهذا كله حث على العلوم التي أنزلها الله على قلوب عباده في الشرق والغرب، والحكمة في هذا الوجود من الفلك وعلوم الطبيعة. ومن ظن أن تلاوة أسماء الله، أو معرفة معانيها وشرحها كافية، فهو جاهل، وإنّما تعرف الأسماء بالآثار، فمن جهل الآثار فقد بار.

ولعمري ما أوقع أمة الإسلام في الخبال، وأضاعها فيما مضى من القرون والأجيال؛ إلا ما اعتراها من الجهالة، وما أحاط بها من الجهال الذين اكتفوا بالقشور وتركوا العلوم، فعميت الأبصار.

فيا ليت شعري، كيف نعرف المصور إلا بآثاره، أي: في الصور التي صورها في المعادن والنبات والحيوان، وكيف نعرف أنه رحمن رحيم إلا إذا درسنا نظام الحيوان، فندرك لطفه ورحمته به؟ وكيف ندرك حفظه لكل شيء؛ إلا إذا تتبعنا الأشياء بقدر طاقتنا البشرية؟ وكيف نفهم قوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ وأنه منزه عن النقائص كلها؛ إلا إذا شاهدنا كمال صنعه بالدراسة، فنهتدي بالكمال في الأثر إلى الكمال في المؤثر، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الغالب ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الجامع للكمالات بأسرها، فإن الحكمة ترجع للكمال في القدرة والعلم. وإلى هنا تم الكلام على القسم الثالث من السورة، والحمد لله رب العالمين.

بهجة الحكمة ونور العلم في قوله تعالى:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢٤)﴾

إن أول هذه الآيات ضرب مثل وتخييل، وهذا التمثيل مثل ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ

ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[الأحزاب: ٧٢]. والمراد من ذلك توبيخ الإنسان على عدم تخشعه عند تلاوة القرآن، لقساوة قلبه، وقلة تدبره، والتصدع التشقق. إن الجبل مع صلابته ورزانته لو أعطي تمييزاً لأشفق من خشية الله، وحذر من ألا يؤدى حق الله تعالى في تعظيم القرآن، والكافر مستخف بحقه، معرض عما فيه من العبر والأحكام، كأنه لم يسمعها، وصفه بقساوة القلب، فهو غافل عما يتضمنه القرآن من المواعظ والأمثال، والوعد والوعيد، وتمييز الحق من الباطل، والواجب مما لا يجب، بأحسن بيان، وأوضح برهان، ومن وقف على هذا وفهمه أوجب له الخشوع، ولقد دل على أن ذلك تمثيل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الحشر: ٢١]. ثم شرع في المقصود الأعظم والمهم الأتم من هذه المقدمة العظيمة، وهو تبيان أسماء الله الحسنى.

وبعبارة أخرى: إن الله عز وجل ابتدأ سورة «الحشر» بقوله: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[الآية: ١]، فهو منزه عن كل ما لا يليق بالربوبية في ذاته وصفاته وأفعاله، وذلك كله مقتضى التسبيح، فلا يكون من أفعاله ما يشعر بالنقص أو الشر، وكل ما في العالم من الشرور والنقائص إن هي إلا مقدمات للخير والكمال، وهو الذي عز في سلطانه، وقهر كل مخلوق أن يسير على مقتضى أمره، وهو حكيم فيما يدبره من النظم العجيبة، والأفعال البديعة. وختم السورة بوصف القرآن بأن الجبال تصدع من خشيته، وجعل هذا مقدمة لما بعدها، وهو الإشارة إلى أسمائه الحسنى، تلك الأسماء التي تبلغ ٩٩ اسماً، وقد دخل في معانيها هذا الوجود كله من سماوات وأرضين، ودخل فيها أيضاً أفعال المكلفين، ففيها العلم وفيها العمل، وهذا عجب والله وألف عجب! أن يصف القرآن بأن الجبال تخشع من خشية الله لو أنها سمعته، ثم يتبع ذلك بأسمائه التي وصفها بأنها حسنى، وهذه الأسماء تتضمن الوجود كله، والقرآن كله، لأن معاني القرآن كلها وجميع هذه المخلوقات لا تخرج عن معاني هذه الأسماء.

(١) ألم تر أن الرحمة التي تضمنها اسما ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ تدل على إرادته الخير والنعمة والإحسان إلى خلقه جميعهم، وأن كل نقمة وكل نازلة وكل خطب أسود يلم بهم، لم تخرج عن كونها ممهدات ومعدات لرحمات واسعة تشمل هؤلاء المنكوبين الأذلاء، ولن يعرف هذا حق المعرفة إلا أناس صفت نفوسهم، ودرسوا علوم هذه الدنيا دراسة كاملة، أو قوم قرؤوا هذا التفسير بإمعان أو أكثره، فإنهم لا جرم يوقنون بأن كل نقمة في هذه العوالم نعمة عظيمة لأنها مقدمة لها، بل لا تتم تلك النعم العظيمة إلا بتلك النقائص والآلام التي جعلت أساطين لها ودعائم ومقومات.

(٢) ولما كانت الرحمة بدون حكمة في الفعل تدعو إلى عدم النظام والخطل في الأحكام، أعقبه بما يدل على نظام الأمور وحفظ التوازن في العوالم كلها، ولو آلم ذلك الأحياء من هذه المخلوقات، فقال: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ﴾[الحشر: ٢٣]، فوصف نفسه أولاً بالرحمة حتى يعلم نوع الإنسان أن انفراده في الحكم في هذه العوالم وسياسته في نظامها لا يقتضي ظلماً، فهو منفرد بالملك، متصرف بالأمر والنهي في جميع خلقه، وهم تحت ملكه وقهره وإرادته، ولكن ذلك كله مسبوق بالرحمة، فليس انفراده بالملك كانفراد ملوك الأرض بملكهم، لأنهم يظلمون الناس ويسخرونهم

لشهواتهم، وتلك الشهوات تطمس وتغطي تلك الرحمة الكامنة في النفوس، ذلك أن المستبدين بالملك يرون أنهم إن لم يكن لهم في ذلك الملك منافع فلا فائدة فيه، والمنافع عندهم خاصة بالشهوات واللذات التي تعرفها البهائم، وهم في قلوبهم رحمة، ولكن تلك اللذات تغطي هذه الرحمة وتطمسها كما تطمس تلك اللذات رحمات الناس بالحيوان عند ذبحه، فهو يعلم أن الحيوان متألم عند ذبحه، وفي قلبه رحمة له، ولكن تلك الرحمة قد نامت تحت ذلك الغطاء لا سيما أن الشرائع المنزلة أيدت ذلك، هكذا هؤلاء الملوك والأمم المستبدون قد أنامت الرحمات التي كمنت في قلوبهم تلك اللذات العاجلة فلم يحسوا بآلام تلك الأمم المظلومة، لا سيما إذا أيد ذلك كتّابهم ـ بتشديد التاء ـ ورجال سياستهم الذين يثيرون الجشع في أفئدتهم، ويبيحون لهم الفتك والظلم، وهذه الإباحة من مخلوق لا تدفع إثماً ولا تمنع ذنباً، بخلاف الإباحة الدينية فهي مقدسة، هذا كله في أفعال العباد، فهم إذا ملكوا بطشوا بطش الجبارين ونامت الرحمات، وليسوا عند الظلم والبطش بمريدين الخير من المبطوش بهم، كلا، بل هم إنّما يريدون منافع نفوسهم لا غير. أما الله عز وجل فإنه منفرد بالملك والتصرف، ولكنه ليس كالملوك والأمم المستبدة، بل رحمته كاملة تامة شاملة. هذه هي الحكمة في أنه ذكر انفراده بالألوهية والملك بعد وصفه بالرحمة.

(٣) ويشير إلى ما قررناه في هذا المقام أنه ذكر بعد ذلك أنه ﴿ ٱلْقُدُّوسُ ﴾ أي: البليغ في النزاهة عما يوجب نقصاناً في ذاته وصفاته وأفعاله. ولذلك يقول الملائكة: «سبوح قدوس رب الملائكة والروح». ألا تعجب معي أيها الأخ كيف يكون ذكر انفراده بالألوهية والملك بعد وصفه بالرحمة قد اقتضى أن يخالف من انفردوا بالملك من الخلق في أن هذا الانفراد وسيلة لسلب الرحمة من قلوبهم، فهم إذن غير منزهين ولا طاهرين والله مخالف لهم، فهو منزه عن كل ما لا يليق له، ثم كيف يصرح بما فهم ضمناً مما تقدم بقوله: ﴿ ٱلْقُدُّوسُ ﴾.

(٤) و(٥) ثم أكد ذلك المعنى بقوله بعده: ﴿ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ﴾ وهو ذو السلامة من كل نقص وآفة، وهذا مصدر وصف به للمبالغة، وزاده تأكيداً بوصفه بأنه واهب الأمن، فقد أمن الخلائق من ظلمه، وقد أمن من آمن به من عذابه إذا كان مطيعاً بخلاف المنفردين بالملك من الناس، فهم ليسوا منزهين عن الظلم، ولا سالمين من النقص، ولا آمنة رعاياهم بوائقهم، كما نرى ذلك في الأمم الأوروبية التي تحكم بعض بلاد الإسلام، فهؤلاء المحكومين أبداً في فزع وجزع من ظلم هؤلاء ومقتهم وشرهم، ولكن هذه الأمم الإسلامية يجب أن تطمئن، لأن الله رحمن رحيم، ملك قدوس، سلام مؤمن، وإذا كان هو المتصرف في الخلق بالرحمة فهو لم يسلط هؤلاء على المسلمين تشفياً وانتقاماً، كلا، ثم كلا، فجلّ الله، ولكنه سلطهم على المسلمين حتى يستيقظوا من غفلتهم، ويقوموا من رقدتهم وهنالك يخرج تلك الأمم من ديار الإسلام، لأنه قدوس، ولأنه سلام، ولأنه مؤمن، فالناس في أمان، وربهم منزه عن الظلم، ولكنه يلهم بعض عباده أن يؤذوا آخرين ليوقظهم هو بذلك الإيذاء، كما أنه سبحانه يلهم الآساد والنمور والوحوش أن تهاجم قطعان الماشية وتقتنص منها ما يكون به قوتها، فتستفيد الآساد قوتها، وتستفيد القطعان الاتحاد والوئام والمحبة، لأن القطيع كله يجري حثيثاً عند

مهاجمة الآساد والذئبان له، وهناك لا يقتنص إلا واحدة من مائة أو ألف، وهذه الواحدة تكون ضعيفة، ولكن بقية أفراد القطيع يحتمي بعضها ببعض، ويتدخل بعضها في بعض، وهذا هو الاتحاد الذي لا يتم إلا بالمحبة، وبهذه المحبة يعيش القطيع بالسعادة والسلام، فهذه الأمم الهاجمة على ديار الإسلام لن تبقى فيها إلا ريثما تستيقظ تلك الأمم، ولن تأخذ منها إلا ما تأخذه الآساد من قطعان الماشية، فحظها شبع بطونها، ولكن حظ الأمم المقهورة الإسلامية الاتحاد والوئام وانتشار العلم الذي يوجبه توالي الضغط المنصب على هذه الأمم، إن الله قدوس وسلام ومؤمن.

(٦) وهو الرقيب الحافظ لكل شيء، الشهيد على عباده بأعمالهم فلا يغيب عنه شيء، والقائم على خلقه برزقهم، وذلك معنى اسمه ﴿ ٱلْمُهَيْمِنُ ﴾، ويقال: إنه مأخوذ من الأمن فهو مؤمن قلبت الهمزة هاء.

(٧) و(٨) و(٩) ثم أتبع ذلك بصفات العزة والغلبة، فهو ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الغالب على المغلوب، ﴿ ٱلْجَبَّارُ ﴾ الذي جبر خلقه على ما أراده، ﴿ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾ الذي تكبر على كل ما يوجب حاجة أو نقصاً. وهو البليغ الكبرياء والعظمة. وهذه الصفات المسبوقات بالرحمة وبالأمن وبالسلامة متممات لها، وكيف تكون رحمة وأمناً وسلامة إلا بالاحتياط لها والأخذ بأسبابها؟ وكيف يداوي الطبيب المريض إذا لم يقطع عضوه الفاسد حفظاً لسلامة جسمه؟ فلا يبالي بألم المريض وأنينه، لأن رحمته بهذا المريض رحمة صادقة، بخلاف رحمة الأم المشفقة على ولدها أن يلاقي المصاعب، فهي رحمة جاهلة. فذكر الملك أولاً والعزة والجبروت والكبرياء ثانياً، وذكر القدس والسلام والأمن والهيمنة فيما بين ذلك لإفادة أن الرحمة ليست كرحمة الأمهات، بل يضرب لها المثل برحمة الأب ورحمة الحكومات العادلة التي لا تبالي بالآلام القليلة بجانب المنافع الكثيرة، ولذلك يقتلون القاتل، لأن الألم الناجم من قتله يختص بعشيرته، ولكن المنافع تعم الأمة كلها لأنها تكون في أمان من الظلم، ويصبحون في سلام واطمئنان، فالآلام القليلة إذا أدت إلى منافع كثيرة تكون خيراً لا شراً، فإذلال الغرب للشرق الآن من الله عز وجل، فهو سبوح قدوس، منزه عن العبث في أفعاله، أي: إنه لم يسلط هؤلاء على هؤلاء للإذلال أو الانتقام، كلا والله، وإنّما هو سبحانه يريد اليسر ولا يريد العسر، وإنّما فعل ذلك كما يفعل الطبيب بالمريض، يؤلمه ساعة ويريحه عشرات السنين، وليس هناك سبيل للطبيب في نفع المريض غير ذلك، هكذا الله عز وجل قد علم سبحانه أن هذه الأمم لا يرفعها إلا هذا الإذلال والإحراج، وتسليط الظالمين عليها، وتكون فائدة الظالمين مادية حقيرة، وفائدة المظلومين معنوية دائمة، ثم هو بعد ذلك قد يخفض هذه الأمم الظالمة ويرفع المظلومة، ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١٤٠]. ثم رجع إلى التنزيه ثانياً يؤكد هذه المعاني فقال: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[الحشر: ٢٣].

واعلم أن معاني الرحمة وما معها، والكبرياء وما شاكلها، تجتمع كلها في نظام هذه المخلوقات. أليس من العجب أن نرى العناصر التي تبلغ فوق الثمانين متضادة متنافرة، فمنها محرق كالأكسوجين والصودا والبوتاسا، ومنها ما ليس كذلك كالأدروجين فهو غاز لا يورث احتراقاً ولكنه هو قهرها

وأذلها وصورها، فخلق الماء من الأكسوجين والأدروجين، وجعل القطن من مواد محرقة، وأخرى غير محرقة، كما تراه موضحاً في سورة «البقرة» عند آية الطير وإبراهيم، أليس هذا معنى قوله بعد ذلك:

(١٠) و(١١) و(١٢): ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ﴾ المقدر للأشياء على مقتضى الحكمة، ﴿ٱلْبَارِئُ﴾ الموجد لها بريئاً من التفاوت، ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ الموجد لصورها وكيفياتها كما أراد، فهذه الصفات أفادت الأمرين معاً: قهر هذه العناصر وإذلالها، وقد خلع عنها ما لبست من صفاتها وألبسها لباساً آخر، كما ترى أن الصودا والبوتاسا في القطن قد عريت عن إحراق وأصبحت ملبساً، فهاهنا اجتمعت الكبرياء والعظمة والقهر مع الملك والسلامة والأمان والهيمنة والرحمة. ومن أعجب العجب أن تصبح هذه المادة المتشاكسة المتنافرة متوادة متحابة، ولم يكن ذلك إلا برحمة وأمان وسلام أولاً، وكبرياء وقهر ثانياً، وهذا معنى قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الحشر: ٢٣]، ومعنى قوله في أول السورة: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[الحشر: ١]، وهذا هو قوله بعد ذلك: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[الحشر: ٢٤] لأنها دالة على محاسن المعاني. وختم ذلك بمجمل ما تقدم كله، بل بمجمل هذا الوجود، فذكر أنه يسبح له ما في السماوات والأرض، وأنه عزيز حكيم، فالتسبيح راجع للتنزه عن قصد الشر، والعزة راجعة لصفات القهر المتقدمة، وباجتماعهما معاً اتصف بأنه «حكيم» وحكمته ظاهرة واضحة عند الحكماء وحدهم، أولئك الذين يشهدون في صور الموجودات كالفواكه والأقوات والملابس عناصر متنافرات، قهرها وذللها لتسلب صفات الشر عنها وتلبس خلع الخير، فأما سلبها صفات الشر فذلك بصفات السلام والقهر والكبرياء والبطش والعلو والملك، وأما إلباسها لباس النفع فذلك بصفات الرحمة والسلامة والأمان والهيمنة والقدس والتنزه.

واعلم أيها الذكي أن هذه المعاني جميعها ظاهرة واضحة لذوي البصائر في هذه الدنيا وهم أحياء يرونها بأعينهم في ملابسهم ومآكلهم ومشاربهم، فكأن الماء وهم يشربونه يخاطبهم قائلاً: هاأنا ذا مصور مبروء مخلوق من عنصرين متنافرين، فبالكبرياء والملك كان اجتماعي، وبالرحمة والرأفة والسلامة والأمان كانت هذه المنافع المزجاة إليكم بشربي، وهكذا يقول القطن للابسه لو كان يعقل ما يلبس، أو يفهم لغة الجمادات الناطقات المتكلمات لذوي البصائر لا الجاهلين الغافلين، إذ يقول:

أيها الإنسان، أنت تلبسني ولا تعلم أني مكون من عناصر بعضها نيران محرقة، ولكن هذه النار أصبحت برداً وسلاماً عليك وعلى الناس أجمعين كما كانت النار برداً وسلاماً على إبراهيم.

أيها الإنسان، إنك لجهلك وقلة عقلك وغفلتك وقف عقلك عند إبراهيم وناره، وظننت أن آيات الله خاصة بخوارق العادات.

كلا، ثم كلا، إن آيات الله تحيط بك من كل جانب، وهاأنا ذا أحيط بجسمك، وأقيك حر الشمس، وأنا نفسي مركب من مواد محرقة ولم أحترق أنا ولم أحرقك، فالعجائب تحيط بك أيها الإنسان وأنت لا تشعر بما هو ظاهر واضح لك، ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾[عبس: ١٧]، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[الأحزاب: ٧٢].

هذه لغة الماء ولغة القطن، ومثلها لغة الذرة والقمح، وكل ما تراه يحيط بك، تذهب إلى حقل الذرة فيعجبك رونقه، ولكن ذلك بالنظر الظاهري، أما هو فإنه يخاطبك بلسان حاله الذي هو أفصح من لسان المقال، ويذكرك بما فيه من العناصر المذكورة في سورة «البقرة» فارجع إليها، ويريك أن الكبريت الذي يستوقد الناس النار به هو نفسه داخل في ضمن الذرة، ويقول لك:

أيها الإنسان، أنت تأكل المحرق لجسمك وهو الكبريت الداخل ضمن أجزائي، ولكنك لا تحترق وأنا لا أحترق به، فأنا معجزة ماثلة أمامك، الجاهل لا يعرف من آيات الله في هذا المقام إلا نار إبراهيم، والحكيم العالم يشاهد إبداع الله في المشاهدات أمامه، والله يقول لكم يا بني آدم: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾[الإسراء: ٥٩]، فالجاهلون لا يعرفون إلا خوارق العادات، والحكماء يرون هذه المعاني تحيط بهم فلا يعوزهم خوارق العادات.

محاورات بيني وبين أحد الأصدقاء

اطلع على هذا بعض الأصدقاء الأعزاء العلماء، فقال: إن ما تقدم كله حسن، ولكني الآن أريد أن أفهم معنى كون أسماء الله حسنى، وأفهم هذا الحسن بالمشاهدة والعيان تفصيلاً، وأما هذا فما هو إلا إجمال، وأريد أن أقص عليك ما ذكره الغزالي في كتابه الذي جعله شرحاً لأسماء الله الحسنى، وبعد أن أتم مقاله أود أن تريني هذا الحسن عياناً، لأن الله يقول: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣]، وأنت طالما قلت لنا: إن هذا هو الزمان الذي يري الله الناس فيه الآيات.

فقلت: أنا لا أمنع أن تذكر ما قاله الإمام الغزالي في هذا المقام، وأنا إن شاء الله أريك هذه المعاني عياناً ومشاهدة لتنال اليقين والسعادة في الحياة الدنيا قبل الموت، وأسأل الله أن يلهمنا جميعاً الخير، فذلك إذن فصلان: الفصل الأول: ما قاله الإمام الغزالي في معنى هذه الأسماء. الفصل الثاني: في عجائب ومحاسن أسماء الله الحسنى في العوالم المشاهدات.

الفصل الأول: في معاني هذه الأسماء

من كلام الغزالي رحمه الله تعالى

فقلت: أسمعني ما قاله الغزالي رحمه الله في معاني هذه الأسماء. فقال: ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ هما اسمان مشتقان من الرحمة، وملخص المعنى الذي قاله: إن الرحمة لا تكون تامة إلا إذا شملت المستحق وغيره، وشملت الضروريات والحاجيات والكماليات والدنيا والآخرة، والرحيم من الناس عادة يحس بألم في نفسه من رقته على المرحوم، وهذا الألم مستحيل في جانب الله، فتكون الرحمة أتم لأن رحمتنا فيها إزالة الألم عن أنفسنا، وليست كذلك رحمة الله، والرحمن أخص من الرحيم، ولذلك لا يسمى به غير الله، فهو جار مجرى العلم، فالرحمن للسعادة الأخروية، وهذه الرحمة خاصة بالله:

(١) هو عطوف على العباد بالإيجاد.

(٢) والهداية إلى الإيمان وأسباب السعادة.

(٣) والإسعاد في الآخرة.

(٤) الإنعام بالنظر إلى وجهه الكريم.

وحظ العبد من اسم ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ أن يرحم العبد الغافل فيعظه باللطف، وأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة، وأن تكون معاصي الناس كأنها معاصيه، فيسعى في إزالتها.

وحظ العبد من اسم ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أن يسعى في إزالة فاقة كل محتاج، فإن عجز فبالدعاء وإظهار الحزن. اهـ.

﴿ ٱلْمَلِكُ ﴾: هو الذي يستغني في ذاته وصفاته وأفعاله وبقائه عن كل ما سواه، ويستمد سواه الوجود وسائر الصفات منه، والعبد لا يتصور أن يكون ملكاً مطلقاً بهذا المعنى، فهو لا يستغني عن كل شيء، بل هو مفتقر أبداً، ولما كان يملك شيئاً ويفتقر إلى شيء كان له شوب في الملك، وأعظم ملك في العباد هو المستغني عن كل ما سوى الله، وقد أطاعته رعيته الخاصة به: قلبه ولسانه وقالبه وجنده وشهوته وغضبه وهواه وسائر أعضائه وقواه، فإذا ملكها ولم تملكه واستغنى عن الناس واحتاج الناس إليه في حياتهم العاجلة والآجلة فهو الملك في العالم الأرضي، وهذه رتبة الأنبياء، ويليهم العلماء وملكهم على قدر إرشادهم واستغنائهم عن الاسترشاد، وبهذه الصفات يقرب العبد من الملائكة، وهذا الملك عطية من الحق.

أوصى بعض العارفين تلميذه فقال: كن ملكاً في الدنيا تكن ملكاً في الآخرة. ومعناه اقطع طمعك وشهوتك عن الدنيا فإن الملك في الحرية والاستغناء.

﴿ ٱلْقُدُّوسُ ﴾: الله قدوس، أي: منزه عن كل صفة من صفات العباد الكاملة كالقدرة والعلم الخ. فضلاً عن نواقصها، وقدرته وجميع صفات الكمال فيه ما كان ينبغي أن يعبر عنها بالألفاظ التي تدل على ما يظنه الخلق كمالاً فيهم، ولولا أن الرخصة وردت في الشرع بإطلاق ذلك لم يجز، إن الناس نظروا في أنفسهم فوجدوا نقصاً وكمالاً، فنفوا عنه النقص وأثبتوا الكمال، ولكن الله فوق كمالهم فضلاً عن نقصهم.

تنبيه: حظ العبد من هذا الاسم أن يكون علمه متعلقاً بما هو دائم، فيكون منزهاً عن كل ما يشارك فيه البهائم من كل محسوس ومتخيل وكل متغير، بحيث لو سلب آلة العلم بقي العلم في نفسه، وهكذا تكون إرادته قدسية، أي: إنه لا يلحظ في نفسه إلا لقاء الله والفرح بقربه ولا يكتفي بالجنة ونعيمها، وبالجملة جميع الإدراكات الحسية والخيالية يشارك الإنسان فيها البهائم فيتعالى عنها في الدنيا والآخرة، ومن لم تكن همته إلا في الله فدرجته على قدر همته، وبالجملة من رقى علمه عن درجة المحسوسات والتخيلات وقدس إرادته عن مقتضى الشهوات فقد نزل بحبوحة حظيرة القدس، هذا ملخص كلامه رحمه الله.

أقول: وإياك أن تظن أيها الذكي أن هذا ينافي ما كتبناه في هذا التفسير، بل هو عينه. وحب الله وحب لقائه لن يتم لامرئ في هذه الحياة الدنيا إلا بأمر واحد، وهو عشق العلم والغرام بالطبيعة ودرسها درساً مدققاً، وكتابنا هذا كاف لنيل هذه الدرجة وفتح باب للمزيد منها.

﴿ ٱلسَّلَٰمُ ﴾: هو الذي تسلم ذاته عن العيب، وصفاته عن النقص، وأفعاله عن الشر. أقول: وقد تقدم في هذا التفسير براهين كثيرة على أنه لا شر في هذا العالم إلا وقد جعل مقدمة للخير، حتى

إن الموت مقدمة لصفاء الروح وخروجها من سجنها، وحظ العبد من هذا الاسم أن يسلم قلبه من الحقد والغش وإرادة الشر، وأن تسلم جوارحه من الآثام والمحظورات، ومثل هذا العبد يأتي الله بقلب سليم، فهذا العبد سلام قريب من السلام المطلق الحق، ولا سلام لمن أصبح عقله أسير شهواته.

﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾: هو الذي يعزى إليه الأمن والأمان بإفادته أسبابه، وسده طرق المخاوف، والمؤمن المطلق هو الذي يستمد منه كل أمن وأمان، وجميع حواس الإنسان تعطيه من الأمن ما يلائمها، كالعين تبصر العدو فتتحاشاه، واليد تبطش به فيكون الأمان من شره، فالمؤمن هو الذي خلقها، ولا جرم أن الإنسان في أصل فطرته ضعيف، وهذه الجنود من العقل والجوارح قوة له بها يتعاطى الطعام والشراب، ويدافع الأعداء، فذلك كله من صنع المؤمن، ومن جنود الأمن والأمان والدين والعقائد، والآراء الشريفة التي تجعل الإنسان في أمان في الدنيا والآخرة، وحظ العبد من هذا الاسم أن يأمن الناس شره، وأن يكون عضداً لكل خائف، وأحق الناس بشرف هذا الوصف من يكون سبباً في أمان من عذاب الآخرة بتعليمهم وتقويمهم، وأفضل الناس في ذلك الأنبياء، وليس وصف الله بأنه مؤمن بمانع بأن يكون الله مخوفاً، فإنه منه الأمن وأسبابه، ومنه الخوف وأسبابه، كما أنه معز ومذل، وخافض ورافع، ولا يمنع أحد الوصفين الآخر، وقد ورد التوقيف بالمؤمن ولم يرد بأنه مخوف.

﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾: أي: القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم، فهو مطلع ومستول عليهم وحافظ، وكل من هو مشرف على كنه الأمر مستول عليه حافظ له، فهو مهيمن عليه، والإشراف يرجع إلى العلم، والاستيلاء إلى كمال القدرة. والحفظ إلى الفعل، فالجامع لهذه المعاني اسمه المهيمن، وهل يجمعها على سبيل الإطلاق إلا الله، وحظ العبد من هذا الاسم أن يهيمن أو يشرف على أغوار أسراره، ويستولي على تقويم أحواله وأوصافه، ويحفظها على الدوام، فذلك مهيمن على قلبه، فإن أشرف على عباد الله بتعرف بواطنهم بالاستدلال بظواهرهم والتفرس فيها؛ كان نصيبه من هذا المعنى أوفر وحظه أتم.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: هو الخطير الذي يقل وجود مثله، وتشتد الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه، فهذه أربعة معان إن لم تجتمع بالموصوف لا يسمى عزيزاً، فالأرض والشمس نفعها عظيم ولا نظير لهما ـ بحسب الظاهر عند أهل الأرض وإلا فكم من شموس وأرضين كما تقدم ـ والحاجة مشتدة إليهما، ولكن نحن نشاهدهما فلم يصعب الوصول إليهما، فأين العزة إذن؟ وحظ العبد من هذا الاسم أن يحتاج إليه العباد في أهم أمورهم في الحياة الدنيا والآخرة، والأنبياء أولى بهذه الصفة، ويقرب منهم الخلفاء الراشدون والعلماء الخ.

﴿ٱلْجَبَّارُ﴾: هو من تنفذ مشيئته في كل أحد على سبيل الإجبار، ولا يخرج عن قبضته أحد، وتقصر الأيدي دون حمى حضرته، والجبار من العباد من ارتفع عن الأتباع ونال درجة الاستتباع، بحيث يجبر الخلق بهيئته وصورته على الاقتداء به ومتابعته في سمعته وسيرته، فيفيد الخلق ولا يستفيد ولا يشاهده أحد إلا ويغنى عن ملاحظة نفسه ويصير متشوقاً إليه غير ملتفت إلى ذاته ولا يطمع أحد في استدراجه، وهذه صفة الأنبياء لا سيما خاتمهم صلى الله عليه وسلم.

﴿ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾: هو الذي يرى الكل بالنسبة له حقيراً بالإضافة إلى ذاته، ولا يرى العظمة والكبرياء إلا لنفسه وذلك هو الله، والمتكبر من العباد على هذا المنوال تكبره باطل، والمتكبر من العباد هو الزاهد العارف فينزه سره عما يشغله من الخلق، ويتكبر على كل شيء سوى الحق، فيحقر الدنيا والآخرة جميعاً بحيث لا يشغلانه عن الحق تعالى.

أقول: وأنت أيها الذكي خبير أن عجائب العوالم تجعل في النفس قرباً لمبدعها، وإرشاد الخلق وإنقاذ الأمم من ضعفها، كل هذا لم يخرج عن كونه مقرباً لله تعالى.

﴿ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾: فالأول راجع للتقدير، والثاني للإيجاد، والثالث للتصوير. إن المهندس يفكر في نظام المنزل، فهو له مقدر، يقدر ما لا بد منه من الخشب واللبن والمساحة الخ. ثم يكون البناء، ثم يكون الذي ينقش ظاهره، وهذا بالترتيب: ﴿ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾، ولكن الله هو الذي يتولى هذه الأفعال الثلاثة بنفسه.

أقول: ومن نعم الله عز وجل أن هذا التفسير من قرأ أكثر ما فيه أو مقداراً كبيراً منه أدرك بحق وصدق ويقين عجائب اسمه تعالى المصور، فإنه يرى الإتقان في كل صغير وكبير، كالعين والأذن وتركيبهما وبدائع النظم في أعالي العوالم وأسافلها، ولقد أطال في ذلك الإمام الغزالي، ولكن زماننا والحمد لله زمان هذه العلوم، فبذلك فليفرح المسلمون، فبشرى لهم بنابغين سيظهرون في بلاد الإسلام يزرعون ما بذرنا في الأفئدة، وسيكونون حقاً خير أمة أخرجت للناس. وحظ العبد من هذا اسمه تعالى المصور أن يحصل في نفسه صورة الوجود كله على هيئته حتى يحيط بالعالم علويه وسفليه من المجرات والشموس والسدم.

أقول: ومن قرأ أكثر هذا التفسير فقد نال هذه الأمنية إن كان من الأذكياء العاشقين للعلم، وهكذا يشرف على صورة الإنسان من حيث بدنه وأعضاؤه الجسمانية، فيعلم مفصلها بالتشريح وترتيب أجزائها، وعددها والحكمة في خلقها، ثم يشرف على صفات الإنسان ومعانيه الشريفة التي بها إدراكاته وإراداته، وكذلك يعرف صور الحيوانات والنباتات ظاهراً وباطناً بقدر وسعه، حتى يحصل نفس الجميع وصورته في قلبه، ومعرفة الأمور الجسمانية صورة مصغرة للأمور الروحية، وهاهنا يدخل في عالم الملائكة وهم المتصرفون في عالم السماوات والأرضين، وهم الملهمون بأمر الله لكل إنسان وحيوان.

فحظ العبد من هذا الاسم اكتساب الصور العلمية المطابقة للصورة الوجودية، فإن العلم صورة في النفس مطابقة لصورة المعلوم، وهذا في الحادث، أما علم الله بالصور فهو سبب في وجود الصور في الأعيان، هذا كله في الاسم ﴿ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾.

أما ﴿ ٱلْخَٰلِقُ ﴾ و﴿ ٱلْبَارِئُ ﴾ فليس للعبد حظ فيهما إلا بطريق المجاز، إن للعبد علماً وقدرة، وهذان لا ارتباط لهما بالتأثير في عوالم السماوات والأرضين، نعم للإنسان أعمال كالصناعات والسياسات والعبادات والمجاهدات، فإذا هذب العبد نفسه وساسها وانفرد بأمور لم يسبق لها نظير كصنع الطيارات والراديو في زماننا؛ فإن المخترع يطلق عليه هذا الاسم مجازاً، فيقال: خالق وبارئ،

فهذا في حق الله حقيقة وفي حق العبد مجاز، بخلاف الصبور الشكور، فهما في حق العبد حقيقة، وفي حق الله مجاز. وينبغي أن تلاحظ أيها الذكي مع المشاركة في الاسم التفاوت بين المقامين.

هذا ملخص ما كتبه الإمام الغزالي مع تغيير يسير كضرب الأمثلة، فهو قد مثل للمخترعين بالشطرنج وأنا أمثل الآن بما لا حصر له من الأمثلة. ومن عجب العجب أن يكون دين الإسلام هذا مقامه وأن يكون المسلم باختراعه قريباً من ربه، والمسلمون نيام كأنهم لم يقرؤوا كلام علمائهم فناموا، ففر العلم والاختراع إلى بلاد أوروبا، وانتقل إلى أمريكا والشرق الأقصى، أما بلاد الإسلام فلا، وأنا أنذر أمم الإسلام قاطبة صاعقة العذاب الهون بما كانوا يجهلون.

اللهم لك المشتكى، أمة تكون أسماؤك أنفسها أعينها نبراساً لهدايتهم للاختراع، والاختراع يقربهم من حضرتك العلية وهم لا يعلمون، ولا يدرسون إلا القشور.

اللهم إني أبرأ إليك من الكتمان، وهاأنا ذا أنشر لهم ما فتحت به عليّ وألهمتنيه حتى ألقاك، وقد فعلت ما قدرت عليه، ولا تؤاخذني بتقصيري، فإني وعزتك قد نشرت مع إعانتك لي بقدر إمكاني، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وهو أرحم الراحمين. انتهى الكلام على الفصل الأول، والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثاني: في تبيان محاسن أسماء الله الحسنى بالمعاينة والمشاهدة مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾[النمل: ٩٣]

وقوله: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾[الليل: ١٢]

وقوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[فصلت: ٥٣]

هنالك ابتدأ صاحبي يسألني قائلاً: ما معنى كون أسماء الله حسنى؟ أمحاسنها في ألفاظها أم في معانيها؟ أم في الآثار المنطبقة على معانيها؟ وأنا أذكر أنه ورد في بعض الآثار أن من أحصى أسماء الله الحسنى عدداً دخل الجنة، ورأيت للعلماء أقوالاً في ذلك، فمن قائل: من حفظها، ومن قائل: من فهم معناها، ومن قائل: من تخلف بها، وأنا لا أدري ما هو الحق في ذلك، وأيضاً هاهو ذا الإمام الغزالي يضرب أمثالاً في تفسيره لهذه الأسماء بذكر أعضاء النملة وتركيبها، وتركيب العين وعجائب طبقاتها وهكذا مما تقدم شرحه، فهاأنا ذا أريد أن أرى بعين البصر بعض هذه العجائب على شريطة أن تكون داخلة تحت أسماء الله الحسنى دخولاً حقيقياً. فقلت: يا صاح، أنا أجيبك بعون الله في المقامين: المقام الأول: في تبيان ما هو الحق من هذه الأقوال. المقام الثاني: في تبيان محاسن الأسماء الحسنى بالعيان والمشاهدة.

المقام الأول: في تبيان ما هو الحق من هذه الأقوال

اعلم أيها الأخ الذكي أن هذه الأقوال لم تكن في أمم الإسلام سدى، فالقول الأول يناسب الأطفال ليحفظوا هذه الأسماء، وهذا يناسب عقولهم لأنهم لا يعقلون المعاني، والقول الثاني يلقى إلى الطفل متى عقل، فيقال له: إن الجنة ودخولها لن تكون بمجرد اللفظ، لأن اللفظ يراد به المعنى،

ومتى زاد تعقلاً يقال له: أيها الفتى، أنت فهمت المعنى، وعرفت أن الله رحيم وقدوس الخ، فاقرأ القرآن وادرس العلوم تجد في الأول محرمات فاجتنبها، وواجبات فقم بها، لتبرأ من العيوب الإنسانية وتتحلى بالصفات الملكية، فلا بد لك من علم وعمل. ثم إذا ازداد تعقلاً يقال له: أيها الإنسان، لا سعادة في هذه الحياة إلا بالوقوف على الحقائق، ولن يقف الإنسان على الحقائق وقلبه مفعم بالرذائل، فإذا صفت نفسه قبلت الحكمة والعلم، وظهرت له نفس هذه الدنيا بصورة بهجة جميلة، وكأنها جنات يحس بها والناس لا يعلمون، ويكون ذلك مقدمات للجنات الحقيقية والسعادة الأبدية، بمشاهدة صانع هذه العوالم بعد الموت، ولن يطمع امرؤ عدم عشق هذه العجائب في الدنيا في أن يرى ربه إلا من وراء حجاب، وعلى مقدار حجابه المسدول عليه في هذه الحياة الدنيا يسدل عليه الحجاب يوم القيامة وبعد الموت، لأنه لا درجة هناك مستأنفة، فالحياة الدنيا هي أس السعادة وأس الشقاء، وهنالك يشتاق العاقل إلى أن يسمع:

المقام الثاني من الفصل الثاني

فقال صديقي: أريد أن تذكر لي بالمشاهدة معنى «اللطيف» و«النور» و«الهادي»، فإني رأيت في شرح الغزالي في معنى اللطيف أنه هو العالم بدقائق المصالح وغوامضها، وما دقّ منها وما لطف، ثم يسلك في إيصالها إلى المستحق سبيل الرفق دون العنف، فإذا اجتمع الرفق في الفعل واللطف في العلم تم معنى اللطف. ولا يتصور كمال ذلك في العلم والفعل إلا لله تعالى. فأما إحاطته بالدقائق والخفايا، فلا يمكن تفصيل ذلك بل الخفي مكشوف في علمه كالجلي من غير فرق، وأما رفقه بالأفعال ولطفه فيها فلا يدخل أيضاً تحت الحصر، إذ لا يعرف اللطف في الفعل إلا من عرف تفاصيل أفعاله، وعرف دقائق الرفق فيها، وبقدر اتساع المعرفة فيها تتسع المعرفة بمعنى اسم اللطيف، وشرح ذلك يستدعي طويلاً، ثم لا يتصور أن يفي بعشر عشره مجلدات كبيرة، وإنّما يمكن التنبيه على بعض جمله، فمن لطفه خلقه الجنين في بطن الأم في ظلمات ثلاث وحفظه فيها وتغذيته بواسطة السرة إلى أن ينفصل فيستقل بالتناول بالفم، ثم إلهامه إياه عند الانفصال التقام الثدي وامتصاصه ولو في ظلام الليل من غير تعليم ومشاهدة، بل فلق البيضة عن الفرخ وقد ألهمه التقاط الحب في الحال، ثم تأخير خلق السن عن أول الخلقة إلى وقت الحاجة للاستغناء في الاغتذاء باللبن عن السن، ثم إنباته السن بعد ذلك عند الحاجة إلى طحن الطعام، ثم تقسيم الأسنان إلى عريضة للطحن، وإلى أنياب للكسر، وإلى ثنايا حادة الطرف للقطع، ثم استعمال اللسان الذي الغرض الأظهر منه النطق في رد الطعام إلى المطحن كالمجرفة، ولو ذكر لطفه في تيسير لقمة يتناولها العبد من غير كلفة يتجشمها، وقد تعاون على إصلاحها خلق لا يحصى عددهم من مصلح الأرض وزارعها، وساقيها، وحاصدها، ومنقيها وطاحنها وعاجنها وخابزها، إلى غير ذلك؛ لكان لا يستوفي شرحه، وعلى الجملة فهو من حيث دبر الأمور حكم، ومن حيث أوجدها جواد، ومن حيث رتبها مصور، ومن حيث وضع كل شيء في موضعه عدل، ومن حيث لم يترك فيها دقائق وجوه الرفق لطيف، ولن يعرف حقيقة هذه الأسامي من لم يعرف حقيقة هذه الأفعال، ومن لطفه بعباده أنه أعطاهم فوق الكفاية وكلفهم دون الطاقة، ومن

لطفه أنه يسر لهم الوصول إلى سعادة الأبد بسعي خفيف في مدة قصيرة، وهي العمر، فإنه لا نسبة لها بالإضافة إلى الأبد، ومن لطفه إخراج اللبن الصافي من بين الفرث والدم، وإخراج الجواهر النفيسة من الأحجار الصلبة، وإخراج العسل من النحل، والإبريسم من الدود، والدر من الصدف، والأعجب من ذلك كله خلقه الإنسان من النطفة القذرة، وجعله مستودعاً لمعرفته، وحاملاً لأمانته، ومشاهداً لملكوت سماواته، وهذا أيضاً رفق لا يمكن إحصاؤه.

تنبيه: حظ العبد من هذا الوصف الرفق بعباد الله تعالى والتلطف بهم في الدعوة إلى الله والهداية إلى سعادة الآخرة من غير ازدراء وعنف، ومن غير خصام وتعصب، وأحسن وجوه اللطف فيه الجذب إلى قبول الحق بالشمائل والسيرة المرضية والأعمال الصالحة فإنها أوقع وألطف من الألفاظ المزينة. اهـ.

وقال في معنى «النور» و«الهادي» ما نصه: النور هو الظاهر الذي به كل ظهور، فإن الظاهر في نفسه المظهر لغيره يسمى نوراً، ومهما قوبل الوجود بالعدم كان الظهور لا محالة للوجود، ولا ظلام أظلم من العدم، فالبريء عن ظلمة العدم، بل عن إمكان العدم، والمخرج كل الأشياء من ظلمة العدم إلى ظهور الوجود؛ جدير بأن يسمى نوراً، والوجود نور فائض على الأشياء كلها من نور ذاته، فهو نور السماوات والأرض، وكما أنه لا ذرة من نور الشمس إلا وهي دالة على وجود الشمس المنورة؛ فلا ذرة من موجودات السماوات والأرض وما بينهما إلا وهي بجواز وجودها دالة على وجوب وجود موجدها، وما ذكرناه في معنى الظاهر يفهمك معنى النور ويغنيك عن التعسفات المذكورة في معناه.

«الهادي»: هو الذي هدى خواص عباده أولاً إلى معرفة ذاته حتى استشهدوا بها على معرفة مخلوقاته، وهدى عوام عباده إلى مخلوقاته حتى استشهدوا بها على ذاته، وهدى كل مخلوق إلى ما لا بد منه في قضاء حاجاته، فهدى الطفل إلى التقام الثدي عند انفصاله، والفرخ إلى التقاط الحب وقت خروجه، والنحل إلى بناء بيته على شكل التسديس لكونه أوفق الأشكال لبدنه، وأحواها وأبعدها عن أن يتخللها فرج ضائعة وشرح ذلك مما يطول، وعنه عبر قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[طه: ٥٠]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[الأعلى: ٣]، والهداة من العباد الأنبياء والعلماء الذي أرشد الخلق إلى السعادة الأخروية، وهدوهم إلى صراط الله المستقيم بل الله الهادي لهم على ألسنتهم، وهم مسخرون تحت قدرته وتدبيره. اهـ.

هذا ما قاله الإمام الغزالي، وأنا أريد أن أشاهد هذه الأمور عياناً، أي: أشاهد هدايته لمخلوقاته بالصور المشاهدة، وكيف كان لطفه بهم مشاهدة أيضاً. فقلت: يا صاح، إن هذا التفسير مفعم بهذه العجائب فارجع إلى سورة «البقرة» في الطبعة الثانية، ففيها عجائب كثيرة مثل تدرجه في خلقه طبقاً عن طبق، فتراه هناك مصوراً بالتصوير الشمسي عند آية الطير وإبراهيم، والعزير وحماره، وهكذا في سور كثيرة. فقال: نعم، ولكني أريد الآن أمراً آخر، وهو التلطف في هداية الناس في الأرض، وكيف يتوصلون إلى أعاظم الأمور بأصاغرها؟ فقلت: ذلك هو علم الهندسة والحساب والجبر والفلك والطبيعة، فمن درس هذه العلوم أدرك ذلك اللطف والهداية والنور، فإذا كان ذا بصيرة فإنه يعرف أنه

قد ارتقى في الهندسة من الخط والزاوية والمثلث والمربع إلى الكرات والمكعبات ودراسة الكواكب في السماوات، ذلك مدون في كتب جميع الأمم، غاية الأمر أن أكثر هذا النوع الإنساني يدرسون ويفهمون ولكن لا يعقلون أن هذا لطف بهم وهداية، بل يعيشون ويموتون وكأنهم لا يدرسون ولا يعلمون.

فقال: نعم، هذا حسن، ولكن الأحسن منه أن تريني مثالاً واحداً كما وعدت في أول المقال.

فقلت: الآن أحدثك حديثاً جميلاً، ولكن هذا الحديث سأحدثك به إن شاء الله في سورة «الملك» عند آية: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾[الآية: ٥] الخ، فارتقب ذلك هناك، إن هذه العلوم السماوية والأضواء كلها المرتبطات بأسماء الله، وهل الأسماء إلا دالة على الصفات، وهذه الآثار دالات على الصفات، وهكذا ستشاهد عجائب النبات والأزهار في سورة «النبأ» في المجلد الخامس والعشرين من هذا التفسير.

هذا هو نهاية الكلام على قوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾.

وبهذا تم تفسير سورة «الحشر»، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الممتحنة
هي مدنية
آياتها ١٣، نزلت بعد «الأحزاب»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) ۞ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ

عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾ ﴾

هذه السورة فيها مسألتان:

الأولى: ألا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء فيفشون إليهم أسرار المسلمين.

الثانية: مسألة المؤمنات المهاجرات وامتحانهن ونحو ذلك.

مقدمة

قال المفسرون: إن سارة التي كانت مغنية ونائحة بمكة أتت المدينة تشكو الحاجة، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بني عبد المطلب أن يعطوها ما تحتاج إليه، فأعطوها نفقة وكسوة وحملوها، فجاء لها حاطب بن أبي بلتعة، وكتب معها كتاباً إلى أهل مكة، وأعطاها عشرة دنانير وكساها، وهذا نصه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدكم فخذوا حذركم، فأخبره جبريل، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم علياً وعماراً وعمر وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد، وكانوا فرساناً، وقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى أهل مكة فخذوه منها وخلوها، فإن أبت فاضربوا عنقها، فأدركوها فجحدت وحلفت، فهموا بالرجوع، فقال علي: والله ما كذبنا، ولا كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسل سيفه، وقال لها: اخرجي الكتاب أو تضعي رأسك، فأخرجته من عقاص شعرها، فاستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطباً، وقال: ما حملك عليه؟ فقال: يا رسول الله، ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ نصحتك، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكني كنت امرأ ملصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسها، وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهاليهم وأموالهم غيري، فخشيت على أهلي فأردت أن أتخذ عندهم يداً، وقد علمت أن الله ينزل عليهم بأسه، وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً، فصدقه وقبل عذره، فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال صلى الله عليه وسلم: وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت

لكم، ففاضت عينا عمر رضي الله عنه، فنزل: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ تفضون إليهم المودة بالمكاتبة، و«الباء» زائدة، أو تلقون إليهم أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم بسبب مودتكم لهم ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ ﴾ الجملة حالية ﴿ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ﴾ من مكة ﴿ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ أي: لأن آمنتم، أي: يفعلون ذلك لأجل إيمانكم بالله الخ، ﴿ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ﴾ فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء، وأبدل من قوله: ﴿ تُلْقُونَ ﴾ قوله تعالى: ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ﴾ أي: منكم ﴿ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ ﴾ أي: من يفعل الاتخاذ منكم ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أخطأه ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ ﴾ يظفروا بكم ﴿ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً ﴾ ولا ينفعكم إلقاء المودة إليهم ﴿ وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ ﴾ ما يسوؤكم فيقتلون ويشتمون ﴿ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي: وتمنوا كفركم، أي: ارتدادكم فتكونون سواء، والمقصود أن الاختلاف في العقائد يجعل التناصح معدوماً، فلا تناصحوهم لأنهم لا يرحمونكم إذا ظفروا بكم، ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ﴾ أي: قراباتكم وذريتكم الذين توالون المشركين لأجلهم ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ يفرق بينكم من شدة الهول ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فيجازيكم عليه.

وإلى هنا تم الأمر في اتخاذ الأعداء أولياء. فلم يبق إلا ما يقوي ذلك بالاقتداء بالأنبياء السابقين كما هي طريقة القرآن. فلذلك قال: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ قدوة. وهي اسم لما يؤتسى به ﴿ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ ﴾ كظريف وظرفاء، ﴿ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ أي: بدينكم أو بمعبودكم ﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ فإذا تبرأ إبراهيم وأصحابه من قومهم فليتأس حاطب والمؤمنون بهم، فلكم أن تأسوا بإبراهيم في جميع أموره إلا في الاستغفار لأبيه المشرك فلا تأسوا به، فإن إبراهيم كان قد قال لأبيه: ﴿ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾، فلما تبين له إقامته على الكفر تبرأ منه، وهذا قوله تعالى: ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ وهذه الجملة ليست مقصودة بالاستثناء إنّما المقصود به قوله لأبيه. ثم أمر الله المؤمنين أن يقولوا تتميماً للوصية السابقة قبل الاستثناء: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ بأن تسلطهم علينا فيفتنون بعذاب لا نتحمله، أو: فيظنوا أنهم على الحق، أو: لا تعذبنا بأيديهم، ولا بعذاب من عندك، فيقولوا: لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم ذلك.

وملخص ذلك أن الفتنة إما عذاب المؤمنين، وإما ما يترتب عليه من ظن الكافرين أنهم على الحق لنصرتهم عليهم ﴿ وَٱغْفِرْ لَنَا ﴾ ما فرط منا من مكاتبة الكافرين ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ومن هذه صفته فهو حقيق أن يجير كل من يتوكل عليه، ويجيب داعيه، ثم أكد ما تقدم من التأسي فقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ اقتداء حسن، ثم أبدل من «لكم» ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ أي: يعرض الإيمان ويوالي الكفار ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ أي:

الغني عن خلقه المحمود المستحق الحمد من جميع خلقه. ثم إن هذه الآيات حملت المسلمين أن يظهروا براءتهم من أقربائهم، وعداوتهم لهم. ولما كان ذلك شديداً عليهم أردفه بوعد قد تم فيما بعد، فقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على ذلك ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لما فرط من موالاتهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالتوفيق في المستقبل، وقد فعل الله ذلك ويسر فتح مكة وأظفرهم الله عليهم، فأسلم قومهم وتم بينهم التحاب، و« عسى » من الله وعد، على عادات الملوك حيث يقولون: عسى أو لعل، والمحتاج لا يشك في تمام ذلك، ومن تمام ذلك الوعد أنهم خالطوهم، وناكحوهم، وتزوج النبي صلى الله عليه وسلم أم حبيبة بنت أبي سفيان، ولان لهم أبو سفيان، ثم أسلم أخيراً.

ثم أخذ الله سبحانه يبين من نهى المؤمنين عن موالاتهم، ومن لم ينههم عنها. فمن ذلك أن خزاعة صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحداً، فرخص الله في برهم. ومن ذلك أن أسماء بنت أبي بكر قدمت أمها إلى المدينة بهدايا وهي مشركة؛ فقالت أسماء: لا أقبل منك هدية ولا تدخلي بيتي حتى أستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأذن لها، وفي هذين وأمثالهما قال الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ أي: لا ينهاكم الله عن بر الذين لم يقاتلوكم في الدين الخ، ﴿وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ وتعدلوا فيهم بالإحسان إليهم والبر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ كمشركي مكة. فإنهم قسمان: قسم سعى في إخراجهم من مكة، وقسم ساعدهم على ذلك وأعانهم، ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنهم وضعوا الموالاة في غير أهلها.

وهنا أخذ يذكر القسم الثاني من السورة الذي ابتدئ بمسألة المؤمنات المهاجرات. وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صالح أهل مكة بالحديبية اشترط سهيل بن عمرو ـ كما تقدم في سورة « الفتح » ـ أنه لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا وخليت بيننا وبينه، فلم يأته أحد من الرجال إلا رده، وأولهم أبو جندل بن سهيل المذكور وهم جميعاً مسلمون، ثم جاءت مؤمنات مهاجرات منهن سبيعة بنت الحارث الأسلمية وهي مسلمة، فأقبل زوجها مسافر المخزومي طالباً لها، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ فاختبروهن بما يغلب على ظنكم، وانظروا هل توافق قلوبهن ألسنتهن، أم هن منافقات؟ فكان صلى الله عليه وسلم يستحلف المرأة أنها ما خرجت من بغض زوج، ولا رغبة عن أرض إلى أرض، ولا لحدث أحدثته، ولا التماس دنيا. وما خرجت إلا رغبة في الإسلام، وحباً لله ورسوله. فإذا حلفت على ذلك لم يردها، فاستحلف صلى الله عليه وسلم سبيعة فحلفت فلم يردها، وأعطى زوجها مهرها وما أنفق عليها، فتزوجها عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ أي: المطلع على ما في قلوبهن وإنما أنتم تكتفون بالظواهر ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ أي: إن ظننتموهن ظناً غالباً بالحلف وظهور الأمارات ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: إلى أزواجهن في الكفر، وبين سببه في قوله: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟﴾ ما دفعوا من مهر إليهن ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ

أن ﴿ تَنكِحُوهُنَّ ﴾ نفى عنهم الجناح في تزوج هؤلاء المهاجرات ﴿ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ مهورهن ﴿ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾ العصمة: ما يعتصم به من عقد وسبب، والكافرة مفردة الكوافر هي التي بقيت في دار الحرب، أو التي لحقت بدار الحرب مرتدة فلا يكن بينكم وبينهن عصمة، ولا علاقة زوجية، فمن كانت له امرأة كافرة بمكة فلا تعد من نسائه، لأن اختلاف الدارين قطع العصمة بينهما كما قاله ابن عباس. ﴿ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ ﴾ من مهور أزواجكم اللاحقات بالكفار ممن تزوجهن منهم ﴿ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ﴾ من مهور نسائهم المهاجرات ممن تزوجهن منكم ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ﴾ أي: جميع ما ذكر في هذه حكم الله. ثم استأنف فقال: ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ يشرع ما تقتضيه الحكمة، وليس في إبقاء النساء نقض للعهد، لأنه روي عن علي أن سهيلاً قال: لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته، أي: بخلاف المرأة، فرد المهر مندوباً لا واجباً. وقيل: إن رد النساء واجب كالرجال، إذن يكون رد المهر المذكور واجباً. وهل الآية منسوخة أو هي غير منسوخة؟ فلا نرد المال على الأول ونرده على الثاني إذا شرطنا ذلك مع الكفار، رأيان. ولما نزلت الآية المتقدمة أبى المشركون أن يؤدوا مهر الكوافر، فقال تعالى: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ ﴾ سبقكم وانفلت منكم ﴿ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ ﴾ أي: أحد من أزواجكم ﴿ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ ﴾ أي: ظهرتم وكانت العاقبة لكم على الكفار بأن أصبتم الغنيمة منهم ﴿ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ﴾ فأعطوا المسلمين الذين ارتدت زوجاتهم بدار الحرب مهور زوجاتهم من هذه الغنيمة ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾. ثم بين مبايعة النساء فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾ الجملة حال ﴿ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ ﴾ وهو وأد البنات ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ ذلك أن المرأة كانت تلتقط المولود فتقول لزوجها: هو ولدي منك، فالبهتان مجاز عن الولد إذ تلصقه بزوجها كذباً، وذلك أن بطنها التي تحمل الولد فيه بين اليدين والفرج الذي هو محل الولادة بين الرجلين، وقد بايعه صلى الله عليه وسلم نحو ٤٥٧ امرأة، ولم يصافح امرأة منهن قط، وممن بايعه هند، فلما سمعت هذه الجملة من الآية قالت: إن البهتان لقبيح، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق، ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ أي: في حسنة تأمرهن بها. ومن كلام هند له صلى الله عليه وسلم لما قال: ﴿ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾؛ والله إنك لتأخذ علينا أمراً ما رأيناك أخذته على الرجال! وكان قد بايع الرجال يومئذ على الإسلام والجهاد فقط، ولما قال: ﴿ وَلَا يَسْرِقْنَ ﴾؛ قالت هند: إن أبا سفيان رجل شحيح وإني أصبت من ماله هنات فلا أدري أيحل أم لا؟ فقال أبو سفيان: ما أصبت من شيء فيما مضى فهو حلال، فضحك صلى الله عليه وسلم وعرفها وقال لها: وإنك لهند بنت عقبة؟ قالت: نعم. فاعف عما سلف عفا الله عنك، ولما قال: ﴿ وَلَا يَزْنِينَ ﴾ قالت هند: أوتزني الحرة؟ ولما قال: ﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ ﴾؛ قالت هند: ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً، فأنتم وهم أعلم، وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر، فضحك عمر حتى استلقى وتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، والباقي تقدم، وجواب الشرط قوله: ﴿ فَبَايِعْهُنَّ ﴾ على هذا ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ﴾ عما مضى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لما سلف ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بالتوفيق في المستقبل، وهذه

البيعة كانت بعد فتح مكة بعد أن فرغ من بيعة الرجال، وقد كان صلى الله عليه وسلم على الصفا وعمر قاعد أسفل منه يبايعهن عنه بأمره، ويبلغهن عنه، وكانت هند متقنعة متنكرة خوفاً من النبي صلى الله عليه وسلم أن يعرفها لما صنعت بحمزة. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ وهم اليهود، إذ كان بعض الفقراء من المسلمين يوالونهم ليصيبوا من ثمارهم ﴿ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأَخِرَةِ ﴾ أي: من حظهم فيها، لعلمهم بأنهم خالفوا ما في التوراة التي فيها وصف النبي صلى الله عليه وسلم، فعاندوه وقاوموه، فهم يائسون من هذا الحظ كيأس الكفار من رجوع من ماتوا ودفنوا في القبور منهم، وهذا قوله: ﴿ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾. انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها، والحمد لله رب العالمين.

خاتمة تفسير هذه السورة

اعلم أن هذه السورة مناسبة لما قبلها من حيث إن السورة المتقدمة فيها ذم المنافقين الذين حرضوا اليهود على القتال، وذم اليهود الذين يظنون جميعاً وقلوبهم متفرقة، ووصفهم بعدم العقل، وذم الذي يتبع الشيطان في وسوسته وخداعه.

فأما هذه السورة فإنها تعليم للمسلمين، ينهاهم عن مولاة الأعداء لئلا يكونوا جميعاً وقلوبهم شتى، ولئلا يوصفوا بعدم العقل، وإذا فعلوا ذلك ينطبق عليهم: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَـٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ ﴾[الحشر: ١٦] فجاءت هذه السورة بعد المتقدمة إيقاظاً للمسلمين أن يكونوا يداً واحدة، وألا يطلعوا العدو على أسرارهم، فإذا فعلوا ذلك انطبقت عليهم الأمثال المضروبة في الكفار في السورة السابقة.

علم الله أن المسلمين سيصابون بهذا الداء، فحذرهم عاقبة سوء فعلهم، وكرره في مواضع كثيرة، وهذا الداء قد استفحل في المسلمين اليوم، وغلبوا على أمرهم. أما الفرنجة فإنهم متحدون لما بينهم من الاشتراك في اقتسام أمم الإسلام وظلمهم.

حكاية مصرية

أخبرني رجل من الصالحين، تركي الأصل، ذكر لي أن ابنه كان ببلاد فرنسا بصحبة أحد أبناء الأمراء لتربيته هناك، قال: وبينما هو يوماً جالس في جماعة من علية القوم، إذ قدم لهم أحدهم طباقاً «التبغ» ليشربه، فقال: لا أدخن اليوم فإني صائم، فقال له رئيس إحدى الكليات: عجباً لك! أتبقى على هذه العقائد العتيقة بعد ما تنورت وعظم شأنك، وارتقى عقلك، وكان بين الجالسين فيلسوف من علماء الهنود البوذيين، فلما أرادوا الانصراف قال ذلك البوذي للشاب التركي المصري: إذا كان الغد فقابلني في مكان كذا، فلما قابله توجه به إلى كنيسة تقام فيها الصلوات، وفيها رئيس تلك الكلية يصلي، فقال له: انظر ماذا ترى؟ قال: أرى رئيس الكلية يصلي، قال: لهذا طلبتك، إن هؤلاء يريدون أن يرجعونا عن أدياننا حتى يصطادونا بسهولة فلنحذرهم فإنهم لنا مهلكون مخادعون. اهـ.

وأقول: لقد قرأت في جرائدنا المصرية اليوم أن كثيراً من علماء فرنسا، ومدرسي الكليات، وعلماء الأدب والحكمة قد أرسلوا خطاباً إلى العسكر المحاربين ببلاد مراكش، يحضونهم على

مواصلة القتال لاستعباد المسلمين هناك، فهؤلاء من الذين حذرنا الله منهم، ووجب على المسلمين أن يفهموا أهل أوروبا فإنهم يريدون هلاك المسلمين وابتلاعهم.

لطائف هذه السورة:

الأولى: في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾[الممتحنة: ١].

الثانية: في قوله تعالى: ﴿ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ﴾[الممتحنة: ١٠].

اللطيفة الأولى

إن آثار هذه الآية اليوم ظاهرة في مصر والشام والهند، وأظهر حركات اليقظة بادية اليوم في بلاد الهند، فقد جاء في جرائدنا المصرية يوم ٢ فبراير سنة ١٩٣٢م ما ملخصه أن الكتلة الوطنية هناك قائمة بحركة العصيان المدني، أي: إنهم لا يريدون أن يشتروا شيئاً من تجار الإنجليز، والإنجليز يذيقونهم العذاب الشديد، ولكن هؤلاء لا يبالون بما يصيبهم حفظاً لحريتهم، وحباً لبلادهم، وقد زاد الإنجليز عليهم الظلم، فأمروا بالأخذ بمجرد الشبهة بدون تحقيق.

وبالجملة فإن المقالة قد ختمت بهذه العبارة: وهذا السلاح الاقتصادي الوحيد هو الذي يشجع الكثيرين على الاعتقاد أن أشد الحكومات إرهاباً وسطوة لا بد وأن تحني رأسها في النهاية أمام الحركة الوطنية الهندية، حتى إن الذين يعتقدون بأن مذهب غاندي خشن وقديم، ويرجع إلى عدة أجيال إزاء التقدم العصري؛ أصبحوا الآن من الساخطين على أساليب الحكومة الحاضرة. وهذا أشبه بقبس من قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾[الممتحنة: ١]. وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى:

﴿ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ﴾[الممتحنة: ١٠]

حضر صديقي العالم الذي اعتاد مباحثتي في هذا التفسير، فقال: لقد تقدم في سورة «الحجرات عند الآية ٣»: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[الآية: ٣] أني سألتك في أمر امتحان النساء والرجال، وقلت لك ما معناه: إن الله عز وجل شرع الامتحان، وامتحن القلوب كما في سورة «الحجرات»، وأمرنا أن نمتحن المؤمنات كما في هذه السورة، فالامتحان إذن مشروع في الجملة، ولقد ذكرت أنت قبل صفات الرجل الكامل وما شابه ذلك. فحفزني ذلك أن أسألك في هذا الموضوع، فهل ما يشاع من أن الحكومات تريد بحث جسم الرجل وجسم المرأة، أهما قويان، وهل بهما عاهة أو مرض، وهل هناك عارض عرض لهما يجعل ذريتهما ضعيفة كداء الزهري وغيره؟ ولكنك أحلتني على هذه السورة، وإني أسألك فيها. فقلت: أتذكر ذلك، وهاهو ذا الجواب:

اعلم أن الله عز وجل أعطى جميع الناس والحيوان في الأرض قوة يحكمون بها، فحكم الحيوان ظاهري بالغريزة، والمقصود من وجود الأرواح في هذه الأرض كمالها، ولا كمال إلا بالعقول ولا عقول كاملة إلا في أجسام قوية، ولا منفعة لعقول وأجسام قويين إلا مع حسن الأخلاق التي بها كمال المعاشرة.

وإذا كان الرجل لا يكمل إلا بقوة بدنه، ورجاحة عقله، وهكذا المرأة؛ فوجب أن ينظر في أمر الزواج نظراً محدوداً بحيث تكون الأخلاق والأجسام والعقول صالحة للمشاركة في الحياة، وهذه يستحيل أن يحددها القانون.

وقد جاء في شريعتنا في مذهب الشافعي أن الجنون والجذام والبرص كلهن مبيحات فسخ العقد وافتراق الزوجين، والتفصيل في الفقه، وليس هذا محله. إذن أيها الصديق شريعتنا المطهرة لم تذر هذا الباب أيضاً، فالجنون مرض في العقل، والجذام مرض في الجسم، ولا جرم أن الأخلاق يضعفها ضعف الجسم، كما يضعفها أيضاً ضعف العقل.

وعليه أقول: إن هذا المقام لا يعوزه كثير عناء، فعلى العقلاء بعدنا أن يبحثوا هذا الموضوع، وأن يفكروا في أقوال الأئمة ويلخصوها، ويرجعوا لأصل الدين ومقاصده، وليبنوا أحكامهم الاجتهادية على ذلك الأصل وعلى ما استنتجوه منه، ولتكن الأحكام على مقتضى ما يصل إليه نظرهم، وما يفتح الله به عليهم، فليس لي الآن أن أحكم بما لم أشاهد من أحوال ستكون في المستقبل، فلكل مقام مقال، والله جعل ديننا يسراً، ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾[البقرة: ١٨٥]، فديننا يسر، واليسر والعسر تعرفه العقول في كل زمان بحسبه، مع حفظ أصل الدين، والمحافظة على أساسه وقوانينه، ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾[الأحزاب: ٤]. فقال: حسن هذا ولكني أريد ضرب مثل يقرب لي هذا المقال. فقلت:

اعلم أن الله عز وجل أودع في الإنسان وفي الحيوان كما قدمت لك قوة بها يحكم على ما يراه، أهو موافق أم مباين. والحكم بالغرائز لا يعوزه نصب ولا بحث عميق، فالحشرات ترى النار فتسرع إليها حثيثاً، فتقع فيها فتموت، وهي إنّما قصدت الضوء ولم تقصد الاحتراق، فهي حفظت شيئاً وغابت عنها أشياء.

وما من رجل أو امرأة إلا وهو يفرق بين من يحب ومن لا يحب ممن يريد أن يصاحبه أو يعاشره. فالرجل يرى المرأة فيعجبه جمالها فيتزوجها، وأصل الوضع الإلهي أن حسن الشكل وصباحة الوجه واعتدال القامة؛ كل ذلك منشؤه الصحة، ومتى كانت المرأة صحيحة الجسم والولد كذلك كان النسل على مقتضاهما، فإذا رأينا الشاب يهوى شابة لبهجة جمالها، فهما لم يطلبا إلا قضاء شهوتهما المبنية على بهجة الظواهر، والحكمة الأصلية بقاء النسل المخبوء تحت تلك المظاهر البراقة المهيجة المنعشة، يريد الله بقاء النسل بهذه المظاهر، ويريد الإنسان بها التمتع.

هاهنا تقابل المقصدان: المقصد الإلهي، والمقصد الإنساني الحيواني.

الله يريد بالزواج أو أي اقتران الولد، وهو الذي سلط الشهوة المنبعثة بسبب نتائج الصحة على الحيوان والإنسان.

هاهنا تقابل المقصدان ورجعا إلى نقطة واحدة، صانع يريد أن تكون صنعته في الولد متقنة، وذو شهوة يريد أن يكون المشتهى مقبولاً، فقبول الصورة للتمتع، وقبولها لجودة الذرية اتحدا وبهما نال الحيوان شهوته، وأجاد الله صنعته، هذا أصل الصنع الإلهي في كل حيوان ومنه الإنسان.

الله أكبر، حصل اقتران وتزاوج واختلاط على أي سبيل كان وبأي وسيلة، ولكن ليس ذلك بكاف لنوع الإنسان، لأن أحواله غير أحوال الحيوان، فإن أحواله مختبطة مختلطة مشتتة متشعبة، لا تجزيه نظرة ولا تكفيه لحظة، وإذا كنا نراه لم يكتف في تعاطي الطعام والشراب بمجرد لذته وحسن ظواهره، بل رأيناه يجد في البحث ويقاسي الأمرين في الدقة، حتى إنه في أيامنا هذه أخذت أوضاع الطعام والشراب تتغير وصار ما كان خيراً بالأمس شراً اليوم، وما كان مقبولاً أصبح مرذولاً.

الله أكبر، ألم يصبح الخبز المنخول الذي تصنع منه الفطائر وأنواع الرقاق وأمثالها مرذولاً مبغضاً مكروهاً يحدث الإمساك والمرض. إذن لذة الطعام ليست بدالة على جودته. أليس الخبز الذي فيه نخالته بحيث لا ينخل هو الذي أصبح المعول عليه الآن في الصحة. وبهذه النخالة وما معها مما يسميه الناس «السن» في بلادنا المصرية يصبح الخبز نافعاً في الصحة، لأن ما يرميه الناس هو الذي فيه قوة الأبدان وصحتها، ويتبع ذلك قوة العقل، ومتى نخل الدقيق كان الخبز المصنوع منه أقل تغذية، وهو يوجب الإمساك، والعكس بالعكس.

وإذا كان طبخ الطعام أصبح اليوم في كشف الطب الحديث من مسببات الأمراض، وكذلك السكر، بل الأطعمة الطازجة التي لم تدخل النار في إنضاجها كالخضر والفاكهة هي النافعة في الصحة على شرط النظافة.

أقول: إذا كان الأمر كذلك في الطعام وقد تغير الرأي الآن فيه، ومعلوم أن البدوي الغر الجاهل في البادية أسعد وأصح بدناً من المتعلم المترف المنعم، والعالم الجليل، والفيلسوف العظيم، والملك الكبير، فكل هؤلاء يأكلون متبعين عادات أسلافهم، يتغالون في التفنن في المأكل والمشرب، ويتبع ذلك ضعف أبدانهم، وسقم أجسامهم، وموت إحساسهم، ثم موتهم الأدبي، ثم الطبيعي، ويتبع الجيل الجيل، والملك الملك، والعالم العالم، وهم يرون أهل البدو في سعادة لأنهم يقللون البذخ في طعامهم وشرابهم، فأما هم فإنهم لا يذكرون ولا يعقلون، ويعيشون ويموتون وهم ساهون سامدون لا هون، فجاء العلم الآن وقال: أيها النائمون، استيقظوا أنتم غافلون، هذه اللذة معناها أنكم تمرضون وتموتون في عناء.

أقول: إذا كان الأمر كذلك في الطعام والشراب أفلا يكون كذلك في اقتران الرجل بالمرأة؟ فنقول: إذا كانت لذة الطعام لا يكتفى بها في جودته، فأحر بنا ألا نحكم بظواهر الجمال في صلاحية المرأة للحياة الزوجية، وإذا كان الطبيب لا يكتفي في معرفة المرض بما يسمعه من وصف مريضه، ولا بما يسمعه بواسطة آلة السمع التي يسلطها على دقات قلبه، ولا بما يراه من لون بوله، ولا بجس نبضه، بل نراه يسلط الأشعة على بعض أعضائه لتخترق الأشعة جلده، وتتغلغل في جسمه، فتظهر لنا ما خفي عنا، وحينئذ يحكم على حال المريض ويصف الدواء.

فحقيق بنا ألا ندع باباً من أبواب البحث إلا ولجناه، ولا طريقاً من طرق التدقيق إلا سلكناه، فليبحث الرجل، ولتبحث المرأة، ولينظرا في أمرهما، أفي أحدهما مرض معد؟ أو ضعف قوة عقلية أو جسمية؟ وهل ذريتهما إذا حصلت تكون ضارة بالمجتمع لما فيها من المرض المعدي.

وإذا لم تكن ضارة من هذه الجهة هل تكون على الأمة لضعف أجسامها، أو لضعف عقولها؟ وهل يكون ضرها أكثر من نفعها، أم بالعكس؟ وكل ما كان ضره أكثر من نفعه يجب الاحتراس من بقائه، لأننا نرى الحكمة الإلهية، والميزان المنصوب في السماء والأرض ألا موجود إلا على هذه الشريطة نفعها أكثر من ضرها.

هذا هو المثل الذي ضربته لك أيها الأخ الذكي، وعلى العلماء بعدنا البحث والتنقيب بكل ما أوتوا من علم، وما نالوا من حكمة، والله هو الولي الحميد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

فاكتفى صاحبي بذلك وقال: الحمد لله رب العالمين. انتهت اللطيفة الثانية، وبها تم تفسير سورة «الممتحنة».



تفسير سورة الصف
هي مدنية
آياتها ١٤، نزلت بعد التغابن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَـٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

وهذه السورة فيها لوم وتعنيف على مخالفة الفعل والقول، فإنهم وعدوا الصدق في القتال فولوا يوم أحد، وفيها ذكر ما يحبه الله من القتال، وفيها ذكر موسى وعيسى عليهما السلام.

تفسير بعض الألفاظ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ تفسيره معلوم. ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ إذ قلتم لو علمنا أحب الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا، فأنزل الله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾ فوليتم يوم أحد. ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ المقت: أشد البغض. ﴿ صَفًّا ﴾ مصطفين ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ في تراصهم من غير فرجة، والرص: اتصال بعض البناء ببعض واستحكامه ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ ﴾ أي: واذكر إذ قال الخ، ﴿ لِمَ تُؤْذُونَنِي ﴾ بالعصيان والقذف بما ليس في ﴿ وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ أي: بسبب ما جئتكم به من المعجزات، ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا ﴾ عن الحق ﴿ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ صرفها عن قبول الحق والميل إلى الصواب ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ هداية توصلهم إلى معرفة الحق. ﴿ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا ﴾ حالان. ﴿ اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ يريد محمداً صلى الله عليه وسلم. يقول عيسى: إن ديني مصدق بالكتب الإلهية السابقة التي أشهرها التوراة، وبآخر الرسل وهو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ﴾ أي: لا أحد ممن يدعى إلى الإسلام فيضع موضع إجابته الافتراء على الله بتكذيب رسوله صلى الله عليه وسلم، ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ ﴾ أي: أن يطفئوا، و«اللام» مزيدة للتأكيد، ونور الله دينه أو كتابه أو حجته ﴿ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ بطعنهم ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ ﴾ مبلغ غايته بنشره وإعلائه ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ إرغاماً لهم. ﴿ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ ﴾ بالقرآن ﴿ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ الملة الحنيفية ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ ليعليه على جميع الأديان ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ لأنهم لا يحبون إلا الإشراك، وهو فيه التوحيد المحض. وقوله: ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ مستأنف لبيان التجارة المنجية من عذاب أليم. وذلك أمران: إيمان مكمل للنفس، وجهاد مكمل للغير. ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ أي: ما ذكر من الإيمان والجهاد. ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي: إن كنتم من أهل العلم، فإن هؤلاء يعلمون أن الإنسان عليه أمران: تكميل نفسه وإكمال غيره. ثم قال: إن تؤمنوا وتجاهدوا ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾. ثم قال: ولكم إلى هذه النعمة المذكورة نعمة أخرى عاجلة محبوبة، وهذا قوله: ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ﴾ ثم أبدل من «أخرى» قوله: ﴿ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ عاجل، أي: تنصرون على قريش وتفتح لكم مكة وما بعدها من البلدان وفي قوله: «تحبونها» شيء من التوبيخ على محبة العاجلة ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ معطوف على «تؤمنون» أي: كأنه يقول: آمنوا وجاهدوا أيها المؤمنون، وبشرهم أيها النبي بما وعدتهم عاجلاً وآجلاً، ﴿ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ أي: من جندي متوجهاً إلى نصرة الله، ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ﴾ أي: الذين ينصرون الله والحواريون أصفياء محبون، وهم أول من آمن به، وكانوا اثني عشرة رجلاً، وحواري الرجل: صفيه

من الحور، وهو البياض الخالص. ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ ﴾ بالحجة أو بالحرب بعد رفع عيسى عليه السلام ﴿ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾ أي: فصاروا غالبين. انتهى تفسير بعض الألفاظ.

إيضاح

كأن الله يقول: كيف تعدون أيها المسلمون وتخلفون، وتعاهدون وتنقضون؟ فما أشد المقت والغضب والعقاب على من اتصف بهذه الخلة الشنعاء، والطريقة السوءى، فليكن فعل المؤمن مصدقاً لقوله. وهذا القول يشير إلى ما حصل للمسلمين اليوم من بوار التجارات، وضياع الأوقات، وذهاب المجد. وبيانه أن المسلم يستبيح إخلاف الوعد إلا قليلاً من الصادقين، وكذلك الكذب والحلف. والفرنجة بين ظهرانينا قد أصبحت التجارة في أيديهم بأغلى الأثمان لأنهم غالباً يحفظون الوعد، ويتظاهرون بأنهم صادقون مخلصون وقلما يخلفون.

فأما المسلمون، أي: الجهلة منهم، فالحلف ذائع شائع، والكذب وإخلاف الوعد كل ذلك مباح في نظرهم، لذلك تنصرف الناس عنهم ويتوجهون إلى محال الفرنجة التي يقولون فيها: إن الثمن محدد، مع أنهم يعلونه أضعافاً مضاعفة، ولكن صدق القول وعدم إخلاف الوعد هما الخلتان اللتان اتصف بهما الفرنجة بيننا، مع نظافة محالهم وحسن اللقاء والبشاشة. وأهم هذه الأوصاف صدق الوعد الذي من خالفه وقع في أشد الغضب، وهو مقت الله، وأي مقت أشد مما نحن فيه الآن؟ أصبحنا لا يأمن بعضنا بعضاً إلا قليلاً. فبارت التجارة، وقلت الأمانة. هذا من المقت الذي حل بأمة الإسلام اليوم.

يطلب الله منا أن تطابق أفعالنا أقوالنا، وأن نكون صفاً واحداً في قتال العدو. ومقتضى ذلك أننا نكون صفاً واحداً في أمور الحياة كلها، فلا جهاد إلا مع نظام الأحوال الداخلية، وجميع مرافق الحياة. فالجندي في الحرب محتاج للطرق الحديدية، وما قبلها من زراعة وتجارة وصناعة وأمن ومدارس، وهذا كله لا يكون إلا بحكومة منظمة تحفظ البلاد. وهناك يكون الاتحاد، والاتحاد هو الذي عليه نظام هذا العالم. فهذا هو سر قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا ﴾[الصف: ٤] ثم أتبع ذلك بغرضين:

الغرض الأول: أن يوقع اليأس في قلوب الكافرين من محاولتهم إضعاف الإسلام، وأن الله سيظهره، وأن يسلي النبي صلى الله عليه وسلم على كفر من كفر.

الغرض الثاني: تحريض المسلمين على كمال أنفسهم، وتكميل غيرهم ووعدهم بالنصر. فقال في الغرض الأول ما يفيد أن موسى أرسل لقومه فزاغوا عناداً فختم الله على قلوبهم، لأن الأعمال الظاهرة من الأقوال والأفعال لها آثار تقع في القلب، فتكسبه نوراً تارة وظلمة أخرى، وهؤلاء زيغهم عن الحق، وعنادهم أكسب قلوبهم ظلمة فختم عليها.

وهكذا عيس عليه السلام جاء مصدقاً بالتوراة مبشراً بمحمد صلى الله عليه وسلم فكفر به قومه، فليكن لك يا محمد أسوة بمن سبق من الأنبياء، فقد صبروا على إيذاء قومهم وتكذيبهم. ثم قال: وإن الله قضى أن من قام بالحق فهو منصور. فهل يتصور هؤلاء أن يمنع الهداية عن عباده، إن الله

حكم أن يرفع منار الحق، ويهدم بنيان الباطل، إذ لا يبقى إلا الأصلح للوجود. فليس يؤخر الله رقي الإنسان لأجل طائفة تكره الفضائل.

والغرض الثاني كأن الله يقول فيه: أيها المسلمون، الإيمان بالله والجهاد هما الخلتان اللتان بهما تفوزون في الدارين، إذ لا فوز في الدنيا ولا في الآخرة إلا بعلم وعمل، والإيمان أفضل ما في العلم، والجهاد أفضل ما في العمل، فلتكن فيكم الخصلتان أضمن لكم ثلاث خلال: غفران الذنوب، ودخول الجنة، والنصر المصحوب بالفتح قريباً، ولتقتدوا بحواريي عيسى إذ قالوا: ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ [الصف: ١٤]، ونصرناهم على أعدائهم فأصبحوا ظاهرين عليهم، ولا جرم أن النصارى ظاهرون على اليهود إلى الآن، وإلى يوم القيامة، هكذا ستكونون أيها المسلمون ظاهرين على أمم العالم قاطبة، هذا معنى هذه السورة.

أقول: ولكن في هذا الزمان لا ظهور للمسلمين إلا قليلاً، ذلك لأنهم لم يقوموا بالصدق والجهاد، والجهاد لا يتم إلا بنظام تام في الدولة كما تفعل الأمم المحيطة بنا. ثم لتعلم أيها الذكي أنني موقن أن هذا التفسير سيكون من دلائل الرقي الإسلامي المنتظر قريباً، وأن الله سيؤيد الدين بنشره، وأنه سيقرؤه الأذكياء من المسلمين في حياتنا وبعد موتنا، وستكون لهم آثار حسنة

إن وعد الله حق، وقد وعد المجاهدين بالنصر، والجهاد يبتدئ من تعليم الصبيان في المكاتب، إلى المزارع والحقول، إلى التجارة، إلى إنشاء الطرق والتلغراف «البرق»، إلى صنع الطيارات والمدافع إلى علم السياسة والعمران والاقتصاد، كل ذلك من الجهاد، وتمامه غلبة العدو وحفظ البلاد، وقد تضمن هذا التفسير ذلك كله، وحض عليه، فلتكن مجاهداً بما سمعت، ولتحرض المسلمين على الأخذ بأسباب العمران والرقي، فهذا أوائل أسباب الجهاد، بل لا جهاد إلا بعلم، فإذا لم يكن علم فلا جهاد، كما هو حاصل في الإسلام اليوم.

جهلوا جميع العلوم التي بها الحياة فناموا فأخذتهم الفرنجة، فأول كل شيء في الجهاد اليوم هو العلم، هو بث الفكرة، إن العالم اليوم هو المجاهد الأكبر، هو الذي يحيي ما اندرس من المجد، فإذا كانت هذه حال العلم أفلا أقول لك بحق: إن الله سيذيع هذا التفسير وينشره، وينشر نظيره من أرباب الآراء الثاقبة في مصر والهند وجميع بلاد الإسلام، ويقرؤه ويقرؤها الأذكياء من المسلمين، ويخرجون الناس من الظلمات إلى النور، نعم. هذا سيتم حقاً كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ ﴾[الصف: ٨]، وكما قال: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[الصف: ٩].

أقول ولا أخشى في الحق لومة لائم: إن ظهور الإسلام سيكون في الأزمان المقبلة، وسيظهر فضله، ويعلو شأنه.

أيها الذكي، كن عبداً لربك مخلصاً له، واقصد بالإسلام منفعة الجنس البشري كله والمسلمين خاصة، وتعرف هذا من سابق هذا التفسير، ثم إن قوله تعالى: ﴿ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾[الصف: ٦] قد تقدم الكلام عليه في سورة «البقرة» و«آل عمران» وغيرهما نقلاً عن إنجيل برنابا، فارجع إليه هناك إن شئت. وإلى هنا تم الكلام على سورة «الصف»، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الجمعة
آياتها ١١ ،نزلت بعد الصف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝١١ ﴾

هذه السورة مناسبة لما قبلها تمام المناسبة، إن في السورة السابقة الأمر للمؤمنين بالجهاد وأن يكونوا صفاً كأنهم بنيان مرصوص، وفيها توبيخهم على أنهم وعدوا أن يقدموا في الجهاد أنفسهم وأموالهم فولوا الأدبار يوم أحد، فأمر الله المؤمنين في هذه السورة بالسعي إلى ذكر الله وصلاة الجمعة ليكونوا صفوفاً منظمة فيها كصفوف الحرب، وعنف اليهود ووبخهم على أنهم حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار، وليس ذلك خاصاً باليهود، بل كل أمة تركت مقاصد دينها، ولم تعمل فهي كالحمير، فذكرها هنا ليذكر المسلمين كيف يقولون ما لا يفعلون، فإذا أصبح ذلك خلقاً فيهم؛ والعياذ

بالله ؛ أصبحوا مثل اليهود يحملون الكتب ولا ينتفعون بها ، فلم يواجه الله المسلمين بذلك بل وكلها إلى الفطن والعقول الذكية ، وأيضاً ذكر في السورة السابقة التجارة الأخروية الرابحة بالجهاد ، وهنا ذكر التجارة التي هي دنيوية ، وهذه السورة مبدوءة بما يفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل للأميين ولمن بعدهم إلى يوم القيامة ، ويلي ذلك ذم اليهود على عدم عملهم بكتابهم ، ويليه وجوب السعي لنداء الجمعة وتوبيخ من لم يسارع إليها . ولنشرع في تفسير السورة فنقول :

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ فكل شيء في السماوات والأرض إذا نظرت إليه دلك على وحدانية خالقه وعلى تنزيهه ، وجميع الأشياء مسخرة له مقهورة ، فالتسبيح إما دلالة للعقلاء ، وإما حصول الآثار في الأشياء المسخرة لله ، ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ ﴾ هم العرب ، والأمي هو الذي يكون على ما خلق عليه كأنه منسوب إلى أمه ، ﴿ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ مع أنه هو نفسه أمي مثلهم ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ يطهرهم من دنس الشرك ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي : القرآن ﴿ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ السنة ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل إرسال محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ ﴾ أي : من المؤمنين ، وهم المؤمنون إلى يوم القيامة من جميع الأمم ، ومنهم الفرس .

روي عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : « كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ نزلت سورة « الجمعة » فتلاها ، فلما بلغ : ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾ ؛ قال له رجل : يا رسول الله ، من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا؟ فلم يكلمه حتى سأله ثلاثاً ، قال : وسلمان الفارسي فينا ، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على سلمان وقال : والذي نفسي بيده لو كان الإيمان بالثريا لتناوله رجال من هؤلاء » أخرجاه في الصحيحين . وقوله : ﴿ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾ أي : لم يلحقوا بهم بعد وسيلحقون ، ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ في تمكينه من هذا الأمر الخارق للعادة ، ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ في اختياره وتعليمه ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ ﴾ أي : ذلك الفضل الذي امتاز به على أقرانه فضل الله ﴿ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ تفضلاً وعطية ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ الذي يحتقر في جانبه نعيم الدنيا والآخرة ، فإذا كان محمد قد أرسلته إليكم أيها الأميون وإلى من يأتي بعدكم ؛ فإني آمرهم أن يعملوا بالكتاب ولا يكونوا كاليهود الذين لم يعملوا بكتابهم ، وهو قوله : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ﴾ أي : علموها وكلفوا العمل بها ﴿ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ لم يعملوا بها ولم ينتفعوا ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ أي : كتباً من العلم يتعب في حملها ولا ينتفع بها ، وقوله : ﴿ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ صفة لا حال ، لأن الحمار لم يقصد أن يكون معيناً ، ﴿ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وهم اليهود ، والمخصوص بالذم محذوف . ثم إن شأن من لم يعمل بالكتاب الذي أنزل إليه أن يكون غافلاً جاهلاً محباً للحياة الدنيا تاركاً الآخرة ، فأعقبه بما يدل على ذلك بأوضح سبيل كأنه يقول : أيها الناس ، أنتم كالحمير ، فلا عقل ولا تفكير ولا هدى ولا كتاب منير ، ولو كنتم مهديين وللحق عارفين لفرحتم

بالموت وتمنيتم لقاء الله، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه، فتشوا في صدوركم، وانظروا ما نقش في قلوبكم، وسلوا ضمائركم، ألستم للموت كارهين؟ وللقاء الله مبغضين؟ وللحياة محبين؟ ولو كانت الأعمال مرضية، والنفوس مضيئة قوية، مشرقة بنور ربها؛ لأعرضت عن الدنيا إعراضاً، وفرحت بلقاء الله، وتمنت الموت، والموت باب يدخله لله المحبون، ويلجه بسرور وفرح الصالحون، ولكنكم لا تحبون الموت لما ران على قلوبكم من الخبائث، وما ختم عليها، وهذا قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾ تهودوا ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ كانوا يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه، أي: إن كان قولكم حقاً وأنتم على ثقة منه فتمنوا على الله أن يميتكم وينقلكم سريعاً لتحظوا بكرامته، وتفرحوا بإسعاده، والتمتع بالنظر إلى وجهه الكريم، ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بسبب ما قدموا من الكفر والمعاصي، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيجازيهم. ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ أي: لا ينفعكم الفرار منه، فما الإنسان في الدنيا إلا كما قال طرفة بن العبد:

لَعَمْرُكَ إِنَّ المَوتَ مَا أَخْطَأَ الفَتَى ... لَكَالطِّوَلِ المُرخَى وَثِنْيَاهُ باليَدِ

مَتَى ما يَشَــأْ يَوْماً يَقُدْهُ لِحَتْفِـهِ ... ومَنْ يَكُ فِي حَتْفِ المَنِيَّةِ يَنْقَدِ

وقوله: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم عليه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ أي: إذا أذن لها عند جلوس الإمام على المنبر للخطبة ﴿مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ أي: في يوم الجمعة، وسمي بذلك لاجتماع الناس فيه للصلاة، وكانت العرب تسميه العروبة، ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فامضوا إليه مسرعين قصداً، والسعي دون العدو، والذكر: الخطبة، أو: الصلاة، ﴿وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ واتركوا المعاملة ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: السعي إلى ذكر الله ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من المعاملة في ذلك الوقت، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ مصالح أنفسكم، أو من أهل العلم. ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ أديت وفرغ منها ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ كعيادة المريض، وحضور الجنازة، وزيارة الإخوان في الله، وطلب العلم، والتصرف للتجارة، وهذا الأخير هو المباح، وما سواه مندوب أو واجب.

وعن عراك بن مالك أنه كان إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد، وقال: اللهم أجبت دعوتك، وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين.

وقوله: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ واذكروه في مجامع أحوالكم، ولا تخصوا ذكره بالصلاة، بل اذكروه قياماً وقعوداً ومضطجعين، والطاعة أيضاً من أنواع الذكر، ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

روي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطب للجمعة، فمرت عير تحمل الطعام من دقيق وبرّ وزيت وغيرها، قدم بها دحية بن خليفة الكلبي من الشام بالتجارة، وكان إذا قدم لم تبق عاتق بالمدينة إلا أتته، ثم يضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدومه، فيخرج إليه الناس ليبتاعوا منه، فخرج الناس إليه إلا اثني عشر، فنزلت: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾ أي: إذا رأوا تجارة تفرقوا إليها، أو لهواً تفرقوا إليه، واللهو هنا: الطبل المذكور، ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ على المنبر ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾

من الثواب ﴿ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ إذ لا يفوتهم رزق الله بترك البيع، فهو خير الرازقين. انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها، والحمد لله رب العالمين.

في هذه السورة لطيفتان:

(١) في قوله تعالى: ﴿ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

(٢) في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾

اعلم أن هذه السورة تبيان حقيقة الولاية وشرح أصولها، وأحوال الأمة الإسلامية، وبيانه أن الله ابتدأ السورة بأن الأمة الأمية أرسل الله لها رسولاً أمياً ليتلو عليهم الكتاب ويعلمهم، ثم أردف ذلك بذم اليهود على أنهم أعطوا الكتاب فلم يعملوا به فأصبحوا كالحمير، ولا داعي لذلك في كتابنا المقدس إلا إذا كان لتهذيبنا ورقينا وإسعادنا، إن القرآن ذكر للعالمين، وليس مجرد ذم اليهود بدون فائدة لنا، وإنّما ذمهم بأنهم حمير تلميحاً لنا إذا خالفنا، وتعريضاً بالأمم الإسلامية النائمة اليوم الذين ناموا عن العلم والحكمة، وللأمة الإسلامية مراتب ثلاث:

الأولى: أنها حين أنزل عليها القرآن كانت بدوية فكانت تلقن الكتاب تلقيناً.

الثانية: أنها بعد اتساع الملك أصبحت دارسة للعلوم ملمة بالمعارف الواسعة.

الثالثة: أن يصطفي الله منها أناساً يكونون واقفين على أسرار هذا الوجود، محبين لربهم عاشقين له، مولعين بالآخرة، متمنين أن يكونوا معه ناظرين إلى وجهه الكريم بما قدموا من صالح الأعمال.

فأول المراتب رمز لها بأول السورة، وهو قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[الجمعة: ٢].

والثاني رمز له بذم اليهود على عدم العمل بالكتاب، فإذن هو يمدح العالمين بالكتاب العاملين به، ومعرفة الكتاب تستلزم علوم شيء.

والثالثة رمز لها بقوله لليهود: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[الجمعة: ٦].

واعلم أن هذا هو السر المصون، والجوهر المكنون والنور المبين والحسن والبهاء، والإشراق الإلهي الذي أرسله الله للأمة الإسلامية تعليماً لهم وتفهيماً.

علم الله أن المسلمين سيقعون في هذا الدور الذي أصبحنا فيه، فأخذ يعلمنا اليوم ما جهلناه، ويدرس لنا ما أغفلناه، ويذكرنا ما نسيناه، يذم اليهود ويقول: إنكم أيها اليهود كالحمير، لماذا؟ لأنكم أعطيتم كتاباً فلم تعلموا ما فيه، وإن علمتم لم تعملوا.

أيها الذكي قل لي، أليس هذا هو الذي وقعنا فيه الآن؟ أليست هذه حالنا؟ أصبحت الأمم كلها في الشرق والغرب متعلمين، وأمم المسيحية تلاميذ آبائنا هم العلماء في سائر العلوم، ونحن أقل الأمم علماً، وأخسهم منها حظاً.

يا عجباً كل العجب! أمة يأتي نبيها بلا كتابة ولا قراءة ويقول الله: ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾[الجمعة: ٢]، ويقول في آية أخرى: ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾[القلم: ١]، وفي أخرى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[العلق: ١-٥].

يقول الله: ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[العلق: ٥]، لعلمه أن كتاب الله يستلزم قراءة جميع العلوم واستيعابها، أمة هذا شأنها تصبح أقل الأمم علماً وأكثرها جهلاً، أمة ينزل القرآن عليها ويحفظه أبناؤها عن ظهر قلب ويكتفون بذلك في أكثر البلاد الإسلامية، وهم عن العلم معزولون، وعن طريق الرشاد ناكبون، وفي ميدان الحرب والسياسة مخذولون، ألا ساء ما يصنع الجاهلون، يكتفون بما دون الأئمة رحمهم الله من علم الفقه، ويظنون أنه لا شيء وراءه، كذبوا والله، القرآن بحاله لم يغير منه شيء، ولم ينسخ، وهو باق، فليدرس القرآن وليفهم. لما وقع المسلمون في هذا الداء الوبيل قروناً وقروناً أصبحوا عبرة للأمم، ومثلاً في الجهالة والضعف، ولكن بعد ما بينا في هذا التفسير وهكذا كثيراً من علماء الإسلام شرقاً وغرباً ستكون أمة لم ينجب الدهر مثلها، وما مثل الأمم الإسلامية المستقبلة إلا كمثل زرع وضع في أرض خصبة لم تضعف بتكرار الزراعة فيها، ثم سقيت وسمدت، فإن زرعها يكون أسرع نباتاً، وأغزر ثمراً، وأعظم نفعاً، ذلك مستقبل المسلمين، فإنهم سيجيئون عقب أمم نامت نوماً عميقاً، والعقول بحالها مهيئة مستعدة للعلم والعمل فينبغون ويرشدون، والله هو الولي الحميد.

الكلام على الولاية

علم الله أن المسلمين في القرون المتأخرة سيكثر فيهم الكلام في الولاية والأولياء، فأنزل هذه الآية بشكل لا يكدر صفو المسلمين، فلم يقل: أيها المسلمون، إذا أنتم كرهتم الموت فلستم خواص لله، لم يقل ذلك وترك الأمر للعقول تفكر فيه، بل خاطب اليهود وقال لهم: إن كنتم خواص الله حقاً فما لكم لا تحبون الموت بقلوبكم. كلا. أنتم لستم خواص لله، بل أنتم كعامة الناس تفرون من الموت والموت ملاقيكم.

هذا ظاهر القول، ولكن حقيقة تعليم المسلمين، فهو من حيث الظاهر ذم لليهود من جهة وتكذيب، ومن جهة أخرى تعليم للمسلمين ليعرفهم من هم أولياء الله.

من هو الولي

اعلم أن النوع الإنساني وكل أنواع الحيوان يكرهون الموت بالطبع كراهة تامة، إن في الموت قطع اللذات وفراق الأحباب، والإنسان بعد الموت جيفة قذرة، يأكله الدود، وتعافه النفس، فالموت أكبر المصائب في أرضنا، لذلك فر منه الإنسان والحيوان، وهذا الفرار نعمة من الله عليهم، إن العالم الذي نحن فيه أحيط بالجهالة العمياء من جميع جهاته، وبعض الجهالة نافع، فإذا سلط الله على الحيوان وعلى الإنسان الجهل بمصيره بعد الموت؛ فذلك ليحافظ الحي على حياته، إذ لو علم أن هناك حياة أخرى في عالم ألطف من هذا لسارع إلى الخروج من هذه الحياة، مع أن وجود الإنسان في الأرض

دروس لا بد منها حتى يهنأ له المقام هناك، فحياتنا إذن نعمة، وجهلنا بالموت نعمة، وإنّما كان الجهل بالموت نعمة لأننا لا نعرف المصالح لضعف قوانا العاقلة، ولو كملت عقولنا لعرفنا مصالحنا، وأن الحياة في الأرض دروس نحافظ عليها، ولو كان هناك عالم أجلّ من هذا ونبقى في سجن الأرض حتى يأتي الوقت الذي فيه نفارقها، ونحن مزودون بالقوى والأخلاق التي تساعدنا على الرقي هناك، ولكن علم الله أننا لا نقدر الإحاطة بهذه العلوم، وأننا لأقل مرض أو حزن أو ألم نغادر الأرض ونتركها لعلمنا أننا أحياء في عالم آخر ولو في أدنى درجات الحياة، لذلك ترى الإنسان والحيوان كل منهما مجبول على كراهة الموت وحب هذه الحياة، فلا فرق بين المسلم واليهودي والمجوسي والحيوان في هذه الحياة. ولما كانت حياتنا في الدنيا للدراسة والعلم للارتقاء هنا، وكان ترك الناس بلا مذكر يحملهم على الغفلة؛ ذكروا تارة بالأنبياء، وأخرى بالحكماء، وآونة بعلماء الأرواح، فيقولون لهم: إن لكم حياة بعد الموت فجدوا للوصول إليها، وهؤلاء إذا سمعوا هذا القول يعملون كل على قدر جهده وطاقته مع كراهة الموت التي غرست في القلوب، فترى المسلمين يصلون ويصومون، كذا جميع الأمم تعبد على طريقها، ولكنهم يكرهون الموت لأنه لا يقين عندهم بأن هناك حياة بعد الموت. إذا فهمت هذا فلنبحث في معنى الولي.

اعلم أن كل مسلم في الأرض أو تابع لنبي لم ينسخ دينه، فهو ولي الله، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[البقرة: ٢٥٧]، والولي من تولاه الله برعايته وتولى هو الله بطاعته، فكل مؤمن في الأرض فهو ولي، وليس المقام في الولاية العامة، إنّما نحن الآن في مقام الولاية الخاصة، كما قال تعالى: ﴿ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[الجمعة: ٦]، وهنا يكون الكلام فنقول:

قد علمت نظرية الموت وأنها مبغضة عند جميع الناس، ولكن في كل جيل وفي كل أمة نبغ أناس سارعوا إلى العلم والعمل والدراسة والنظر والفكر، واطلعوا على أعاجيب الخليقة، وأسرار الطبيعة، وأدركوا أن هناك جمالاً وبهجة وحكمة وعلماً، وأن هذه العوالم تدار بيد لم نرها، وبحكمة فوق متناولنا، فيشتاقون شوقاً حقيقياً، بل يهيمون هياماً، ويفرطون في العشق، أي: عشق تلك الإدارة التي أدارت هذا العالم، وهؤلاء يحبون النوع البشري حباً جماً فيفيضون الخير عليه، ويرسلون من قلوبهم أشعة العرفان إلى أقاصيه وأدانيه، ويرون أنهم خلفاء الله في أرضه، وأنهم بما استكملت نفوسهم من علم؛ وبما تحلت جوارحهم من عمل؛ جديرون أن يكونوا آباء للنوع الإنساني، فهم إذن خلفاء الأنبياء والقائمون مقامهم، وهؤلاء يبعثهم الله آناً فآناً يوقظون النائمين، وينصحون المستيقظين، وإذا حرصوا على الحياة يحرصون عليها للغاية المذكورة، والأعمال المشكورة، وفي الوقت نفسه يقول الواحد منهم: ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[يوسف: ١٠١]، يقولها لا كما تقال الآن، بل يكون هذا القول خارجاً من النفس بل هو حالها وإن لم ينطق به، فترى الرجل منهم يعيش ليكمل نفسه ويكمل غيره، فإذا علم أنه قد أتم ما عليه، وأنه لم يبق عنده كمال إلا وقد أخذه عنه تابعوه

فإنه إذ ذاك يحب الموت لعلمه أن الحياة لم يبق لها قيمة، وأن روحه قد أصبحت ملائمة لذلك العالم العلوي مناسبة له، فتأنف إذ ذاك من البقاء هنا، وهذه الطائفة القليلة في أرضنا إذا جاءها الموت كانت مستريحة مطمئنة منشرحة الصدر، وإذ ذاك تموت موتاً يسرها.

هذا هو الولي كما تقدم في قوله تعالى: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، لأن روحي تناسب تلك الأرواح الشريفة وترتاح لمناجاتها، هذا هو الولي الخاص، وهذه الطائفة هي التي قال الله فيها: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]. وقد قلنا في هذا التفسير مراراً أن الأمم الإسلامية سيذيع فيها التعليم وترتقي وتأخذ حظها في الأمم، وما مثل الأولياء في المسلمين في العصر الحاضر بالنسبة للأولياء في الأجيال المقبلة إلا كمثل جهل المسلمين اليوم بالنسبة لرقي الأمم الإسلامية المستقبلة، فالأذكياء في أمة أشبه بالأمة، وكذلك الحكام، فهذا ولي الله الخاص الذي امتاز عن الناس حوله من مسلمين وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦].

هذا هو الولي أوضحه القرآن، فأما ذلك الذي يفرح بكثرة الأتباع للشهوة أو بتقبيل اليد أو نحو ذلك فإنّما هو رجل ابتعد عن ولاية الله واقترب من ولاية الشيطان، فإن القرب من الله يستدعي احتقار الحياة الدنيا، وقد قلنا إن هذا لا يكون إلا لمن ذكرناه.

ثم اعلم أيها الذكي أن عذاب النوع الإنساني في الدنيا والآخرة إنّما يكون في الجهل، فكل عذاب ناشئ من الجهل، والعلم هو الذي يمنع العذاب، ومن عذاب الدنيا أن الموت موكل بنا ونحن له كارهون، فالنظام العام لا يتغير، ونحن للنظام العام كارهون، والكمال يقضي أن تكون العقول تحب ما يقتضيه النظام العام، ولا سبيل إلى ذلك في أرضنا كما قدمنا إلا بصرف النفس إلى الكمال العلمي والكمال الخلقي، فلا تذر حجراً ولا شجراً إلا فكرت فيه، ولا تدع علماً إلا اطلعت عليه بقدر الإمكان، وابحث عن الأسباب والنتائج.

وفي هذا التفسير ما يغني اللبيب، وفكر في كل شيء عام وخاص، وخذ من كل شيء عبرة، واجعل هذا ديدنك، وأحب منفعة الناس بقلبك وبعملك، لأن الناس أشبه بنفس واحدة قد تفرقت إلى نفوس كثيرة، وليكن هذا ديدنك، فإنك إذا فعلت ذلك وواظبت عليه تجد الله أمامك في كل أمر، وتجده يعينك ولا يتركك ويأخذ بيدك، ولا تزال تتقرب إليه وهو يلحظك حتى تعرف الحقائق التي ذكر في هذا التفسير بعضها، وإذن تصبح نفسك موافقة للنظام العام، فلا ترى في الموت إلا خروجاً من سجن إلى حرية، فإن لم تجد في نفسك هذا اليوم فستجده غداً، ومن جد وجد، فاحرص الحرص كله أن تكون نافعاً للناس بعلم أو بعمل أو بهما، وأن تكون عاشقاً للحكمة التي نقشها الله بيده في هذا الوجود، وأبرزها في كل موجود، وإذن تكون ولي الله حقاً، فلا تخاف ولا تحزن، وكيف تحزن على ما خلفت؛ وأنت موقن أن الله يحفظه، أو تخاف من أمر في المستقبل، وأنت عرفت الحقائق، والله هو الولي الحميد.

انتهى الكلام على اللطيفة الأولى.

اللطيفة الثانية:في قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ ﴾

لألخص لك أيها الذكي هنا ما جاء في الأخبار وأقوال الفقهاء:

(١) مسلم: « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها ».

(٢) البخاري ومسلم: « فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو يصلي يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه، وأشار بيده يقللها ».

(٣) البخاري ومسلم: « من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح في الساعة الأولى فكأنّما قرب بدنه، ومن راح في الساعة الثانية فكأنّما قرب بقرة، وذكر في الثالثة الكبش الأقرن. وفي الرابعة الدجاجة، وفي الخامسة البيضة، فإذا أحرم الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر ».

(٤) مسلم: « من توضأ فأحسن الوضوء، ثم أتى الجمعة واستمع وأنصت، غفر له ما بين الجمعة والجمعة ».

(٥) البخاري: « لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من الطهور، ويدهن من دهنه، ويمس من طيب بيته، ثم يخرج فلم يفرق بين اثنين، ثم يصلي ما كتب له، ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بين الجمعة إلى الجمعة الأخرى ».

(٦) مسلم: قال صلى الله عليه وسلم لقوم يتخلفون عن الجمعة: « هممت أن آمر رجلاً أن يصلي بالناس ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم ».

(٧) الفقهاء: تجب على كل مسلم حر بالغ عاقل ذكر مقيم إذا لم يكن له عذر في تركها، ولا جمعة على صبي ولا مجنون، ولا على النساء، ولا العبيد.

(٨) الفقهاء: يقول أبو حنيفة: لا جمعة على أهل السواد سواء أكانت قريتهم قريبة أم بعيدة. وقال الشافعي: يلزمهم إذا سمعوا نداء مؤذن جهوري الصوت، وحدد الزهري ذلك بستة أميال، وربيعة بأربعة أميال، ومالك والليث بثلاثة أميال.

(٩) التخلف عنها لعذر جائز إذا كان هناك طين ودحض وزلق أو نحو ذلك. (أ) كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهده صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر، فلما كان عثمان وكثر الناس زاد النداء الثاني على الزوراء، وهو موضع عند سوق المدينة، قريب من المسجد، ويقال: إنه مرتفع كالمنارة. (ب) السعي إلى ذكر الله بالقلب والخشوع، وقد نهوا أن يأتوا إلى الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار، وفي حديث البخاري ومسلم: « إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوقار ولا تسرعوا، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا ».

(١٠) الفقهاء: لا تنعقد بأقل من أربعين رجلاً عند الشافعي وأحمد وإسحاق، ابن عمر شرط أن يكون في الأربعين وال، والشافعي لم يشترط هذا الشرط، علي بن أبي طالب شرط أن تكون الجمعة في مصر جامع، وأبو حنيفة على هذا الرأي.

(أ) تعقد عند أبي حنيفة بأربعة، والوالي شرط عنده.

(ب) الأوزاعي وأبو يوسف قالا تنعقد بثلاثة بشرط أن يكون الوالي فيهم.

(جـ) الحسن: تنعقد باثنين كسائر الصلوات.

(د) ربيعة: تنعقد باثني عشر رجلاً.

(هـ) لا تنعقد إلا في موضع واحد من البلد، وهو قول الشافعي ومالك وأبو يوسف.

(و) وقال أحمد: تصح بموضعين إذا كثر الناس وضاق الجامع. ورد في البخاري ومسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال: «إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة انصت والإمام يخطب فقد لغوت».

هذا هو نهاية الكلام على اللطيفة الثانية في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾.

وبهذا تم تفسير سورة «الجمعة» يوم الجمعة ١٩ من ذي الحجة الحرام سنة ١٣٤٣ هجرية الموافق ١ يوليو سنة ١٩٢٥م.

تفسير سورة المنافقون

هي مدنية

آياتها ١١، نزلت بعد الحج

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾

في هذه السورة مسألتان: وصف المنافقين، والحض على الإنفاق قبل الموت.

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ عبد الله بن أبي وأصحابه. ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ﴾ كلام مستأنف ليس من كلام المنافقين ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أي: في قولهم: ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ

ٱللَّهِ﴾ لأنهم أضمروا خلاف ما أظهروا، وكل من أخبر بشيء وهو يعتقد خلافه فهو كاذب، فالكذب هنا مخالفة اللسان للجنان ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ ستراً يستترون به من القتل، وقد كانوا يحلفون بالله إنهم لمنكم ويقولون: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾، ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: منعوا الناس عن الإيمان والجهاد في السر، ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة للحال المذكورة من النفاق والكذب الخ، ﴿بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ أي: بسبب أنهم آمنوا ظاهراً ثم كفروا سراً، فتمرنوا على الكفر وصار التلون سجية لهم ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ختم عليها واستحكم الكفر فيها ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ حقيقة الإيمان ولا يعرفون صحته.

ثم وصف هيئاتهم الظاهرة والباطنة، فهم في الظاهر ضخام الأجسام صباحها، ومنطقهم عذب، ولكلامهم عذوبة وحلاوة، وهم في الباطن كأنهم خشبات نخر جوفها، فهي في الظاهر ضخمة حسنة، وفي الباطن فارغة مجوفة، فلذلك تراهم جبناء، حتى إذا سمعوا منادياً ينادي، أو انفلتت دابة، أو نشدت ضالة، ظنوا أنهم هم المقصودون، وأن أمرهم افتضح، فهم سيهانون، لأن المريب يكاد يقول خذوني، والسارق يكاد إذا رأى القيد أن يقول ضعوني، فخذ حذرك منهم فالله كافيك أمرهم ولاعنهم وهذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ الخشب جمع خشباء، وهي الخشبة التي نخر جوفها، شبهوا بها في حسن المنظر، وقبح المخبر، فهم كأشباح بلا أرواح، أو أجسام بلا أحلام، ومعنى «مسندة» أي: إلى الحائط فليست بأشجار مثمرة ينتفع بثمرها وغيره في المستقبل ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ﴾ واقعة ﴿عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ لأنهم متهمون، وقوله: ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ دعاء عليهم، كأنه سبحانه يطلب من ذاته أن يلعنهم ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يصرفون عن الحق ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ﴾ أي: أمالوها وأعرضوا بوجوههم رغبة عن الاستغفار، وقوله: ﴿يَصُدُّونَ﴾ أي: يعرضون عما دعوا إليه ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الإيمان.

روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين لقي بني المصطلق على المريسيع وهو ماء لهم وهزمهم وقتلهم ازدحم على الماء رجلان: رجل يقال له «جهجاه» وهو أجير عمر، ورجل يقال له «سنان الجهني» وهو حليف عبد الله بن أبي واقتتلا، فصرخ جهجاه وقال: يا للمهاجرين، وسنان قال: يا للأنصار، فأعان جهجاهاً رجل من المهاجرين ولطم سناناً، فقال عبد الله للمهاجر: ما صحبنا محمداً إلا لنلطم، والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال: «سمن كلبك يأكلك»، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، يريد بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال لقومه: لو أمسكتم عن هذا وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق يا رسول الله. قال: إذن ترعد أنف كثيرة بيثرب. قال: فإن كرهت أن يقتله مهاجر فأمر به أنصارياً. قال: فكيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ ثم قال صلى الله عليه وسلم لعبد الله: أنت صاحب الكلام الذي بلغني. قال: والله الذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك، وإن زيداً ـ يريد زيد

ابن أرقم المبلغ ـ لكاذب، فنزلت هذه الآيات، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن أرقم: يا غلام، إن الله صدقك وكذب المنافقين، فلما بان كذب عبد الله قيل له: قد نزلت فيك آي شداد، فاذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر لك، فلوى رأسه وقال: أمرتموني أن أؤمن فآمنت، وأمرتموني أن أزكي فزكيت، وما بقي إلا أن أسجد لمحمد، ولم يلبث إلا أياماً حتى اشتكى ومات، وقوله: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ ﴾ أي: سواء عليك الاستغفار وعدمه ﴿ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ﴾ لرسوخهم في الكفر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ الخارجين الذين لا يمكن إصلاحهم ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ ﴾ للأنصار ﴿ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ ﴾ يريد فقراء المهاجرين ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ فهو الذي بيده الرزق والقسم ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ﴾ ذلك لجهلهم ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ أي: ولله الغلبة ولمن أعزه من رسوله والمؤمنين، وهذا القول قد تقدم شرحه في ذكر السبب، ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ لفرط جهلهم، ثم قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ نهي للمؤمنين أن تشغلهم الأموال وتدبيرها عن ذكر الله بالقلب واللسان في الصلاة والعبادات وفي سائر الأوقات كما شغلت المنافقين ﴿ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ﴾ اللهو بها ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ وأي خسر أعظم ممن باع حقيراً فانياً بعظيم باق، ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم ﴾ أي: بعض أموالكم ﴿ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ ﴾ أي: دلائله ﴿ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ ﴾ هلا ﴿ أَخَّرۡتَنِيٓ ﴾ أمهلتني ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ ﴾ أمد غير بعيد ﴿ فَأَصَّدَّقَ ﴾ فأتصدق ﴿ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ بتدارك ما فات ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا ﴾ ولم يمهلها ﴿ إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ ﴾ آخر عمرها ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ فمجاز عليه.

انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها، والحمد لله رب العالمين.

إيضاح

اعلم أن سورة «الجمعة» إنّما دعت إلى فهم كتاب الله وحوز العلم والحكمة، وألا يكون المؤمنون كاليهود الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها، واتضح فيها صفة الولي، وأنه هو الذي سارع إلى الخيرات، ولم يبال بالموت بل يتمناه، ثم ذكر الصلاة، وذكر الله في كل حين لإنماء المحبة الإلهية في النفس حتى تحب لقاء الله، فلما فرغ منها أتى بهذه السورة التي أماطت اللثام عن الصبر على إيذاء المنافقين، وعداوة الأصحاب المخادعين، وبيانه أن الإنسان في هذه الدنيا يقوم بما قسم له من الأعمال، وكلما كان أكثر نفعاً وأبعد أثراً كانت العداوة له أعظم خطراً، وحساده أشد ضرراً، وترى الزوج يسعى على زوجته، والوالد يكسب لأبنائه، والأستاذ يجدّ لارتقاء تلاميذه وينصحهم، ومع ذلك كم من زوجة كانت هي الداء العضال لزوجها، وكم من ولد كان حسرة ونقمة على والديه، وكم من تلميذ كان حرباً عواناً على أستاذه، فأنزل الله في القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ ﴾[التغابن: ١٤]، وقال: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ ﴾[التغابن: ١٥]، وأنزل سورة «التحريم» الآتية قريباً، وذكر فيها إيذاء الزوجات لأزواجهن، وأنزل هذه السورة بعد سورة

« الجمعة »، كل ذلك ليعلم الصبر على المصائب، والحق أن في أكثر الناس استعداداً لأعمال الشريعة، ولكن من يجوز الامتحان ويصبر عليه قليل. ألا ترى أن كثيراً من الناس يسعى في الأعمال النافعة؟ حتى إذا صدمته صدمة؛ أو أصابته نكبة؛ أو آذاه من أحسنوا إليه؛ أو واجهوه بالازدراء والسخرية والتهكم؛ فإنه ينصرف عن نفعهم، ويقلع عن نصحهم، ويرجع لعقر بيته مدحوراً، ذلك لأنه لا قدرة له على السير في الامتحان، وليس من رجال هذا الميدان، ولا هو من طالبي الجميلات الحسان، فيرجع القهقرى، ويترك الورى، كأنه لا يسمع ولا يرى، خائباً وهو كليل، كأن الله بهذه السورة يقول: هاهو ذا نبيي أمددته بالقرآن، وجعلت الناس يلتفون حوله ويعظمونه، فليس منكم من يعظمه الناس ويجلونه مثله، فالمعلمون منكم والمدرسون لا ينالون من تعظيم تلاميذهم ما ناله، ولا يؤثرون في قلوبهم ما آثره، ثم إنه آذاه المنافقون من أصحابه، وأوحى الله إليه بما أسروا في أنفسهم، وما أظهروا بألسنتهم، ومع ذلك لم تهن عزيمته، ولم تضعف همته، بل دام على النصح والإرشاد، وهذا من خلة الصبر والعزيمة، فصاحب العزيمة لا يثنيه عن عزيمته الجيوش الجرارة، ولا السيوف البتارة، ولا الأصدقاء الخائنون، ولا الأبناء العاصون، ولا الزوجات الماكرات، فالعزيمة والهمة يخضع لها الجبارون، ويذل لها المتكبرون، ولا يقف في طريقها أعظم الصعاب، ولا عيب من عاب.

يستعظم المعلم أنفة من تلقى علمه، أفلا يذكر هذا المعلم أن خير الخلق قد آذاه من أسلم على يديه، ثم ظهر نفاقه وثبت بالقرآن، والنبي صلى الله عليه وسلم صابر على من آذوه، ماض في عمله، مطيع لربه، والله هو الولي الحميد.

فتكون إذن سورة « الجمعة » للعلم والعمل، و« المنافقون » للصبر وقوة الأمل. ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾[العصر: ١-٣]، فلأوصينك بالحق فقم به في هذه الأمة التي خفضها الجهل، وأزرى بها الكسل، وسترى من تلاميذك وبعض أسرتك من يناوئونك إما سراً وإما جهراً، فلتسر في طريقك.

واعلم أن الرجل إذا سافر وشاكته شوكة فإنه لا يضيع الزمن في الكلام عليها ولا في الشكوى منها، بل يتبع الركب ولا يتوقف فيضيع الزمن لأجل الشوكة وكيف دخلت، ويأخذ في سببها، فإن ذلك كله ضياع لمصالحه، فهكذا هنا هؤلاء المنافقون الذين يحيطون بالعامل الصادق من كل جانب لا ينبغي أن يصدوك عن عملك: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾[الحجر: ٩٤-٩٥]. انتهى تفسير سورة « المنافقون »، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة التغابن

هي مدنية

آياتها ١٨، نزلت بعد التحريم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦) زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلْنَا وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٩) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (١٠) مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ (١٢) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١٣) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٦) إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١٨) ﴾

مقدمة

هذه السورة مع ما قبلها تتحدان في أمر، وهو الصبر على القرناء، فسورة «المنافقون» فيها صبر النبي صلى الله عليه وسلم على نفاق من حوله، جيء بها لتكون ذكرى للعلماء، أو للحكام، أنهم إذا رأوا منافقين من إخوانهم وتلاميذهم ورعاياهم فلا يقعدن ذلك بهممهم عن الجد والتشمير في خدمة المجموع، وسورة «التغابن» ذكر فيها أن من الأزواج والأولاد أعداء، فيكون الملخص من هذين أن لا ييئس الإنسان بما يقاسي من الأصحاب والتلاميذ والرعية والزوجة والولد.

وملخص ذلك أن الإنسان في الدنيا وحده، فلا يطمعن فيها أن يكون واثقاً كل الثقة بأحد، فإذا كانت سورة «الجمعة» للعلم والعمل؛ فسورتا «المنافقون» و«التغابن» للصبر، فإذن ديننا يحرض على الأعمال القلبية وهي عنده بالمقام الأول، فبغير الصبر لا علم ولا عمل، ثم إن السورتين اشتركتا أيضاً في الإنفاق والحث عليه في آخرهما. ولنشرع في التفسير اللفظي فنقول:

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ التسبيح بالدلالة على تنزيه الصانع وكماله، وبأن هذه المخلوقات مسخرة منقادة، فالانقياد تسبيح، والدلالة تسبيح، وقوله: ﴿ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ﴾ فهو يتصرف تصرف اختصاص فلا حمد إلا له، لأنه مصدر الخيرات، ومفيض البركات ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ يفعل ما يشاء، ولا جرم أن عدم تناهي القدرة على الأشياء مما يوجب جلال الملك، واتساع نطاق الحمد، ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ فإذا متم وبعثتم رجعتم إليه بصفاتكم التي متم عليها.

وفي حديث مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم». اهـ.

وإنما كان ذلك لأن كل مخلوق تابع لاستعداده المستمد من النظام العام، وهذا الاستعداد مخلوق فيه للتربية كما يربى النبات والحيوان، ولذا أعقبه بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي: عالم وبصير بكفركم وإيمانكم اللذين هما من عملكم، وبما كان سبباً لهما من استعدادكم، وبما يكون نتيجة لهما من جزائكم، ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ بالحكمة البالغة، ولقد ظهر أثر تلك الحكمة في تصويركم، فكنتم مختلفين في الصور كما اختلفتم في العقائد، فإذا كان في صوركم السوداء والبيضاء والتي بينهما؛ فهكذا في عقائدكم الكفر والإيمان والعصيان، فالكفر كالسواد، والإيمان كالبياض، والوسط بينهما كالصفرة والحمرة في أهل الصين وأهل أمريكا الأصليين، فإذا كانت هذه حالكم في صوركم التي اقتضاها النظام ولم يكن هناك تناقض بل النظام محكم، ولم يقل أحد من الحكماء ولا الفلاسفة إن السواد خطأ، أو البياض خطأ، أو الصفرة أو الحمرة النحاسية، هكذا سيكون في العالم الروحي نظام ستفقهونه بعد الموت إذا انكشف عنكم الغطاء، فإنكم سترون أن كفر الكافر من حسن نظامنا، كما كان إيمان المؤمن من حسن نظامنا، فإذا كان الحنظل في الأرض والبطيخ والعقرب

والجراد والذئب والغزال والسم والغذاء والنار والماء، كل ذلك من مقومات هذا الوجود، أو من حسن نظامه، هكذا ستعرفون في عالم الأرواح أن اختلاف العقائد لمصالح كمصالح اختلاف الأغذية والأدوية والمهلكات في هذه الحياة. وسترون أن الأنبياء والعلماء والحكماء أشبه بالزراع يزرعون المزارع لمصالح الإنسان، وأن العقائد الزائغة كالحشائش التي يتعمد الفلاح اقتلاعها من الأرض بفأسه، هذه المعاني بعض ما يفهم من قوله: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾، فليجدّ المرء منكم أن يكون ممن تأهلوا للقاء الله بقلوب صافية عاقلة، وليحذر أن تكون صورته القلبية مشوهة فلا يصلح للقاء الله كما لا يصلح المشوهو الوجوه للقاء الملوك، ولا لأنس الأصحاب، ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ فلا تخفى عليه خافية، قد استوى في علمه ظواهر الأمور وبواطنها. ثم خاطب أهل مكة قائلاً: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ﴾ كقوم نوح وهود وصالح ﴿ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ أي: ضرر كفرهم في الدنيا وهو ما لحقهم من العذاب، وهكذا الأمم العاصية التي كسلت وتركت ما يجب عليها من أمة الإسلام في القرون الآخرة ذاقت وبال أمرها في الدنيا، فأصبحوا عبرة الأمم ومضرب الأمثال بالجهل والذل، فهؤلاء يصلحون للاعتبار بهم، فهم قد وقعوا في عذاب الاختلال واحتلال أوروبا لغفلتهم وجهلهم، فهؤلاء يصلحون لأن يعتبر بهم المسلمون الحاليون والذين يأتون بعدهم، بل الاعتبار بهم أقرب، لأنهم ذاقوا وبال أمرهم، وفي التعبير بقوله: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ﴾ فتح باب للاعتبار بالتاريخ، لا فرق بين قوم نوح وقوم من أمم الإسلام كأهل الأندلس الذين أذاقتهم أوروبا كأس الذل، وأخرجتهم من ديارهم كما أخرج المسلمون اليهود من جزيرة العرب، بمثل هؤلاء فليعتبر المسلمون. وقوله: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي: في الآخرة، وهكذا المسلمون المقصرون في فروض الكفايات، وهي جميع العلوم والصناعات، سيعذبون بعد الموت عذاب التقصير لا عذاب الكفر لأنهم مؤمنون.

واعلم أن كثيراً من أهل العلم اليوم في بلاد الإسلام غافلون نائمون، فقد بلغني أن أحدهم اطلع على ما كتب في سورة «البقرة» من قولي: إن علم الأجنة يحرم تركه على المسلمين، فظن ذلك الغافل أن هذا القول شيء اخترعته، ففرح بذلك وقال: إن هذا ليس في الدين، وقد وهم، لأن هذا ليس واجباً عينياً بل هو فرض كفاية، وهكذا جميع العلوم والصناعات والأمة كلها تعذب بترك فرض الكفاية، لأنه نقص لاحق بالأمة كلها، ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور من الوبال والعذاب ﴿ بِأَنَّهُ ﴾ بسبب أن الشأن ﴿ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ بالمعجزات ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ أي: أنكروا أن يكون الرسل بشراً، فهم لا ينكرون أن يكون معبودهم حجراً، وينكرون أن يكون رسول المعبود إنساناً، كأن الرسول يجب أن يكون أشرف من المرسل الذي أرسله ﴿ فَكَفَرُوا ﴾ أي: جحدوا وأنكروا ﴿ وَتَوَلَّوا ﴾ أعرضوا ﴿ وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ ﴾ عن إيمانهم وعبادتهم ﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ ﴾ عن خلقه ﴿ حَمِيدٌ ﴾ في أفعاله.

هذا تمام الكلام في كفرهم وتكذيبهم الأنبياء، ثم أتبعه بذكر إنكار البعث فقال: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ ﴾ يا محمد لهم ﴿ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ هذا قسم ليؤكد به الجواب ﴿ ثُمَّ

لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ بالمحاسبة والمجازاة ﴿ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أي : أمر البعث والحساب يوم القيامة ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴾ وهو القرآن ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فمجاز عليه، وقوله : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ﴾ متعلق بـ « تنبؤن »، ويوم الجمع هو يوم القيامة، إذ يجمع الله فيه الأولين والآخرين، وأهل السماوات وأهل الأرضين، ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ﴾ مستعار من تغابن القوم في التجارة، وهو أن يغبن بعضهم بعضاً، كأن يبيع أحدهم الشيء بأقل من قيمته. فهذا غبن للبائع، أو يشتريه بأكثر من قيمته، فهذا غبن للمشتري، وأي غبن أعظم من أن قوماً ينعمون وقوماً يعذبون، وأن قوماً مغبونين في الدنيا أصبحوا في الآخرة غابنين لمن غبنوهم في الدنيا وظلموهم. إن الكفار غبنوا في شرائهم، لأنهم اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة. فأما المؤمنون فقد ربحت تجارتهم، ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا ﴾ أي : عملاً صالحاً ﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ وهذا هو التغابن. فالمؤمن الذي عمل الصالحات في الجنة، والكافر في النار، وهذا هو ملخص التغابن.

وهاهنا يرد السؤال فيقال : ولمَ هذا؟ وكيف خلقتهم ونوعتهم؟ هلا جعلتهم جميعاً سعداء، مع أنك قادر على كل شيء؟ وكيف تعذب وأنت أرحم الراحمين؟ إن العقل هنا لا يستطيع الإجابة على هذا. ومما يؤيد هذا السؤال ويقويه أنه يقول : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي : بقضاء الله وقدره وإرادته، ولا جواب على هذا السؤال إلا ما جاء في أول السورة : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [التغابن : ٣]، وقد تضمن الاختلاف في الصور، فالاختلاف هنا كالاختلاف هناك. ومن الحكماء وأرباب البصائر من يعرفون سر هذا الاختلاف، وأن وجود الحنظل والبطيخ، والبقة والفيل، والحر والبرد، والمر والحلو، مشابهات تمام المشابهة لما في العقول من كفر وإيمان، وخير وشر، وجهل وعلم، وأن النظام في الحالين واحد، ولكنهم لا يريدون أن يذكروا الحقائق التي عرفوها، لأن جمهور النوع الإنساني غير كفء لفهم هذه الحقائق فلذلك يكتمونها، وهكذا أنت أيها الذكي إذا كنت ممن عرفوا الحقائق، فأنت مضطر أن تكتمها عن الناس في هذا الموضوع وحده، لأن عقولهم لا تتحمله، وهذا المقام فيه مقال واسع في سورة « الأعراف » عند قوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الآية : ١٥٦]، فارجع إليه إن شئت.

هذا في معنى الآية من حيث العلم، أما مغزاها من حيث العمل فإن سورة « المنافقون » المتقدمة وأنهم كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وما يأتي في هذه السورة بعد هذه الآية من إيذاء الأزواج والأولاد للبعولة والآباء؛ فإن الله يبين لنا أن هذه المصائب مقدرة، فإذا عاب المنافقون نبيهم وأنكروا نعمته؛ وإذا أنكر التلاميذ نعمة أساتذتهم؛ والأبناء نعمة آبائهم؛ فلا يحزن النبي ولا الأساتذة ولا الآباء، وكيف يحزنون على شيء قدر عليهم قبل خلقهم؟ كما لا ينبغي أن يحزن الناس على الاختلاف في الكفر والإيمان والجنة والنار، لأن ذلك الاختلاف من جملة النظام الذي وجد عليه العالم، وليس معنى هذا أن الإنسان لا يعمل ولا يجدّ في هداية الكافرين، ونصح العاصين، وتأنيب

المنافقين، وإرشاد وتأديب النساء والبنين، كلا، إنّما ذلك القول ليستروح بـه النـاس بعـد أن يكونـوا قـد عملـوا مـا يجـب عليـهم وأتمـوه، فإمـا إذا لـم يتمـوا مـا يجـب عليـهم مـن هدايـة أو تـهذيـب لأنفسـهم ولغيرهم؛ وسعي في الكسب والعمل لهم ولغيرهم؛ فإنهم معذبون بـهذا عذاباً شـديداً، ويكـون ذلـك وفق القضاء.

وملخص هذا أن الإنسان يتم ما يجب عليه له ولغيره، ثم بعد ذلك لا يبالي بما يأتي بـه القضـاء وهذا هو التوكل. ولما كان هذا تمام السعادة في الدنيا والآخـرة بحيث يكون الإنسان مجداً في عملـه، والقيام بأمره، والسعي لتمام الأمور، مريحاً نفسه من عناء الهم والغم، لعلمه أنه قد فعل كل ما يجـب عليه، وأن ما فوق ذلك ليس في طاقته، فمهما كان من خير أو شر بعد ذلك فلن يهوله أمره، ولن يحزن عليه، لذلك أعقبه بقوله: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ يوفقه لليقين، وهذا هو عين اليقين، وأي نعمـة أعظم من هذه النعمة، جد في عمل، واستراحة من غم وحزن، واطمئنان نفس، ووثوق بفضل، وعلـم بأنه لم يقصر، ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ والقلوب من جملة الأشياء فهو مطلـع عليـها ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ فلا بـأس عليـه ﴿ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ لأن وظيفتـه التبليغ، وقد بلغ، فماذا عليه بعد ذلك؟ هل يكلف بما فـوق طاقتـه؟ إذن هـو لا يحـزن بعـد ذلـك، وقـد هدى الله قلبه، وعرف أن للقضاء والقدر أثراً تاماً في البرية.

هكذا كل امرئ في الأرض فليفعل ما يجب عليه، وليس عليه غير ذلـك. ولـهذا أشـار بقولـه: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي: فليفعلوا غاية جهدهم، ثم ليكلـوا إلـى الله نتائج أعمالهم، ولا يحزنوا على ما يصيبهم، إذ ليس في طاقتهم رده. وإنّما الحزن يكون على التقصير. ونموذج التوكل مسألة التبليغ، فقد بلغ النبي صلى الله عليه وسلم وليس عليه بأس إذا لم يؤمنـوا. نعـم إذا أمر بقتالهم وهو قادر وقصر فإنه يؤاخذ على ذلك. لأن في القتال ضـرراً قليـلاً لطائفـة مـن النـاس، فيدخلون في الإيمان ثم يأتي بعدهم ما لا نهاية له من الأمم إلى يوم القيامة، فيدخلـون في الدين طوعـاً ولا كرهاً.

ثم أعقبه بمسألة تصيب الناس في داخل منازلهم، وهي مما ينبغي التوكل فيه بعد التأديب الشديد والقيام بالنظام على أتم وجـه، فقـال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾ أي: إن من الأزواج أزواجاً يعادين بعولتهن ويخاصمنهم، ومن الأولاد أولاداً يعادون آباءهم ويعقونهم. وهكذا الأزواج والأولاد يكونون سبب جبنكم عن القتال ويخلكم بالمال وجهلكم، لأنهم يشغلونكم بجلب المال لهم، كما اتفق لعوف بـن مـالك الأشـجعي، وكـان ذا أهـل وولـد، فـإذا أراد أن يغزو بكوا عليه ورققوه وقالوا: إلى من تدعنا؟ فيرق عليهم فيقيم.

وأيضاً كـان رجـالاً آخـرون مـن أهـل مكـة أرادوا أن يـأتوا النبـي صلـى الله عليـه وسـلم، فـأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى الناس قد فقهوا في الدين، فهموا أن يعاقبوهم، فنزل قوله تعـالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾، ﴿ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ ولا تأمنوا غوائلهم ﴿ وَإِن تَعْفُوا۟ ﴾ عن

ذنوبهم بترك المعاقبة ﴿ وَتَصْفَحُواْ ﴾ بالإعراض وترك التثريب عليها ﴿ وَتَغْفِرُواْ ﴾ بإخفائها وتمهيد معذرتهم فيها ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يعاملكم بمثل ما عملتم ويتفضل عليكم، وهذا العمل هو الذي فعله النبي صلى الله عليه وسلم مع المنافقين وعفا عنهم وحذرهم. فالإنسان إذن في منزله أشبه بقائد الجيش في حومة الوغى لا ينفك عن مهاجمة عدوه وصيانة عسكره، فهو دائماً في حذر. ثم أتى بالنتيجة وأبان أننا اليوم سائرون لله في هذه الحياة، وليس هؤلاء الأولاد ولا النساء ولا الأصحاب هم المقصودون، بل المقصود الأعظم الوصول إلى الله، ولو كان المقصود هؤلاء لكانوا نعمة لا نقمة فيهم، ونعيماً لا عذاباً، ولكن الله جعل السم في دسمهم، والعذاب في نعيمهم، والشقاء مخبوءاً في الاسترواح لهم، ليكون ذلك دليلاً أن هؤلاء ليسوا نهاية الأعمال إنّما هم ممن ابتلينا بهم في طريق سفرنا الطويل الشاق.

والنتيجة أننا نكون في دار لا يكون الخير فيها مشوباً بالشر، وهذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ اختبار لكم ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ لمن آثر محبة الله وطاعته، إذن فليكن المقصد الأعظم نهاية الأمر لا الوقوف في أثناء السفر.

ولما كانت هذه الأمور فيها اختلاط على النفس واختباط فلا يدري الإنسان ماذا يعمل؛ وجب عليه صيانة أهله وولده، ووجب عليه جهاد عدو البلاد والنزال معه للحرب، فلا يدري ماذا يصنع إن حارب العدو ترك أهله، وإن بقي مع أهله دخل العدو البلاد، وهكذا يعيش الإنسان بين المتناقضات وهو في حيرة، والفؤاد معذب بين الأمور العامة والخاصة، لذلك أعقبه بما يفيد أن الإنسان يفكر فيما فيه المصلحة بقدر طاقته، وهذا قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ أي: ابذلوا في تقواه جهدكم وطاقتكم ﴿ وَٱسْمَعُواْ ﴾ مواعظه ﴿ وَأَطِيعُواْ ﴾ أوامره ﴿ وَأَنفِقُواْ ﴾ في وجوه الخير لوجهه، وائتوا ﴿ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ﴾ أو وأنفقوا إنفاقاً خيراً ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ ﴾ الذي استوجبته الفتنة بالأموال والأولاد ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أي: هم الفائزون. ﴿ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ ﴾ بصرف المال فيما أمرتم به ﴿ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ مقروناً بالإخلاص وطيب القلب غير مكترثين بما تسمعون من أولادكم وأزواجكم ﴿ يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ ﴾ عشراً وسبعمائة أو أكثر ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ببركة الإنفاق ﴿ وَٱللَّهُ شَكُورٌ ﴾ يعطي الجزيل بالقليل ﴿ حَلِيمٌ ﴾ لا يعاجل بالعقوبة ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ ما غاب وما شوهد ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ تام القدرة والعلم. انتهى تفسير سورة «التغابن»، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الطلاق

هي مدنية

آياتها ١٢، نزلت بعد الإنسان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾

مقدمة

هذه السورة فيها معاملة الزوجات حال بقائهن في العصمة وحال مفارقتهن من الإمساك بالمعروف، ومن الطلاق والعدة، ومن الإنفاق في مدتها، فناسب أن تذكر بعد سورة « التغابن » التي ذكر فيها الصبر والعفو عن الأزواج والأولاد الذين هم فتنة. فهاهنا أبان أن هؤلاء الذين فتنتهم بهم من تقدرون على مفارقتهم، فلتكن المفارقة بالمعروف كما يكون الإمساك بالمعروف. أما الأولاد والأصحاب الذين لا مفر من صحبتهم كالأبناء العاقين، وكالمنافقين أزمان النبوة، فليس لهؤلاء حال يتبرأ منهم الإنسان إلا حال الكفر، فإذن تكون البراءة، أما فيما عدا ذلك فلتكن النصيحة والتأديب تارة والعفو والصفح أخرى.

ثم يتخلل تلك الأحكام الشرعية في هذه السورة ذكر التوكل وإرجاع الأمور إلى الله كما في سورة « التغابن ». إذن هذه السورة كالمتممة للتي قبلها والموضحة لبعض ما أجمل فيها.

ولما طال الكلام في هذه السور على علوم المعاملة، وهذا يجعل الإنسان إذا استغرق فيه ناسياً ذكر ربه؛ ختم السورة بأن الله خلق سبع سماوات وسبع أرضين، وأنزل قضاءه وأمره بينهن بنظام حسن، ليعلمنا علم مبدعاته، ويرقي نفوسنا ببدائع حكمه، وعظيم آياته، هذا ملخص هذه السورة إجمالاً.

ملخص الأحكام في هذه السورة

(١) إن المطلقة عدتها ثلاثة قروء وهي الأطهار، أو الحيضات، رأيان.

(٢) ولا تخرج من البيت حتى تنقضي عدتها إلا في أحوال خاصة.

(٣) فإذا شارفت العدة أن تنقضي فللرجل الخيار إما أن يراجعها وإما أن يفارقها بالمعروف.

(٤) وإذا راجعها أو فارقها فليشهد على ذلك ذوي عدل.

(٥) المرأة التي يئست من المحيض، والتي لم تحض عدة كل منهما ثلاثة أشهر.

(٦) الحامل عدتها بوضع الحمل، وينفق على الحامل حتى تضع حملها وتخرج من العدة.

(٧) فإذا أرضعت المرأة فلها أجر الإرضاع.

(٨) الإنفاق من المعسر ومن الموسر كل بقدره. اهـ.

التفسير اللفظي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ قل لأمتك ﴿ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ أي: لزمان عدتهن وهو الطهر لأنها تحصل في العدة عقب الطلاق فلا يطول عليها زمان العدة، وقد كان ابن عمر طلق امرأته وهي حائض، فذكر ذلك عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتغيظ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: مره فليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض ثم تطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها قبل أن يمسها، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء. وفي رواية لمسلم أنه قال: «مره فليراجعها ثم ليطلقها طاهراً أو حاملاً». ﴿ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ ﴾ واضبطوها وأكملوها ثلاث أقراء كوامل لا نقصان فيها، وإنّما خوطب الأزواج لغفلة النساء، ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ ﴾ في تطويل العدة والإضرار بهن، و﴿ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ ﴾ أي: من مساكنهن التي يسكنها قبل العدة، وهي بيوت الأزواج فتكون السكنى إذن واجبة، فلا يخرجهن البعولة غضباً عليهن وكراهة لمساكنتهن، أو لحاجة لهم إلى المساكن، وألا يأذنوا لهن في الخروج إذا طلبن ذلك، إذ لا أثر لإذنهم في دفع الخطر، ﴿ وَلَا يَخۡرُجۡنَ ﴾ بأنفسهن إن أردن ذلك ﴿ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ ﴾ كالبذاءة على أهل زوجها فيحل إخراجها لسوء خلقها، وكخروجها قبل انقضاء عدتها ﴿ وَتِلۡكَ ﴾ الأحكام المذكورة ﴿ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ ﴾ بأن عرضها للعقاب ﴿ لَا تَدۡرِي ﴾ أيها المطلق ﴿ لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ﴾ فربما حصلت لك الرغبة في المطلقة فراجعتها، وفي الحديث: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق». وقال صلى الله عليه وسلم: «أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس به حرام عليها رائحة الجنة» أخرجه أبو داود والترمذي. ﴿ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ شارفن آخر العدة ﴿ فَأَمۡسِكُوهُنَّ ﴾ فراجعوهن ﴿ بِمَعۡرُوفٍ ﴾ بحسن عشرة وإنفاق مناسب ﴿ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ ﴾ أي: اتركوهن حتى تنقضي عدتهن فتبين منكم ﴿ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ ﴾ على الرجعة وعلى الفراق، وهذا مندوب كالإشهاد على التبايع، وعن الشافعي أنه واجب في الرجعة، ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ﴾ أيها الشهود عند الاقتضاء ﴿ ذَٰلِكُمۡ ﴾ أي: جميع ما في الآية ﴿ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ﴾ فإنه الذي ينتفع به. ولما كان هذا المقام فيه الكلام على الطلاق والعدة وعدم الإخراج من المسكن وتعدي حدود الله وإقامة الشهادة وما يناسب ذلك من القضايا والمشاكل الكثيرة التي تنغص العيش وتورث الألم؛ أنزل الله فيه هذه الآية: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ ﴾ فإذا لم يطلق الرجل امرأته في الحيض فتطول مدة عدتها ولم يخرجها من مسكنها ولم يتعد حدود الله ولم يكتم الشاهد شهادته، ولم يعص الله المؤمن على وجه العموم في سائر أحواله، فإن الله يخرجه من الغموم والوقوع في المضايق ويفرج عنه ويعطيه الخلاص ويرزقه من جهة لا تخطر بباله، وبالاختصار من اتقى الله جعل له مخرجاً ومخلصاً من غموم الدنيا والآخرة، ومن غمرات الموت، ومن شدائد يوم القيامة. قال صلى الله عليه وسلم: «إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ ﴾، فما زال يقرؤها ويعيدها».

وروي أن عوف بن مالك أسر المشركون ابناً له، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أسر ابني، وشكا إليه الفاقة. فقال: ما أمسى عند آل محمد إلا مد، فاتق الله واصبر، وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فعاد إلى بيته وقال لامرأته: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني وإياك أن نستكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فقالت: نعم ما أمرنا به. فجعلا يقولان ذلك، فبينا هو في بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل تغفل عنها العدو فاستاقها، فنزلت. وقوله: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ أي: ومن يكل إليه أمره فهو كافيه في الدارين ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ﴾ أي: يبلغ ما يريد لا يفوته مراد ولا يعجزه مطلوب ﴿ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ تقديراً وتوقيتاً، وهذا بيان لوجوب التوكل على الله وتفويض الأمر إليه، لأنه إذا علم أن الرزق وغيره لها أوقات ومقادير محدودة لم يحزن على ما فاته منها.

دفع وهم

ثم اعلم أيها الذكي أن كثيراً من الناس يقرؤون أمثال هذه الآيات ولا يفهمون المقصود منها، فربما ترك الإنسان الحزم في أمر والتفكير فيه والسعي في طلبه فيفوته، فيقول: إني توكلت على الله، وهذا توكل لا قيمة له، بل التوكل أن تعمل كل ما يمكنك عمله، وتكل ما عداه إلى الله. وكم من مسلم يسمع حديث عوف بن مالك ويظن أن هذا هو التوكل، ولم يدر أن هذا قد انقطعت به الأسباب، فلم يبق له إلا الالتجاء إلى رب الأرباب. أما من عنده قدرة وعقل فعليه أن يسخرهما في عمله مجداً، ولا يترك فرجة ولا خللاً في نظامه، ويكل أمر النتيجة لربه. فأما من ليست لديه حيلة فليس له إلا الرجوع بالقلب إلى الله. فإذن التوكل للقادر علم وعمل وتوجه بالقلب إلى الله، فأما العاجز فليس له إلا الالتجاء بالقلب، هذا تحقيق المقام، فأكثر المسلمين يأخذ الأمور من وجه واحد وينسى ما عداه، وهذا هو الذي قعد بالهمم، وأمات الأمم، فرجعت القهقرى. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ ﴾ لكبرهن ﴿ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ ﴾ أي: أشكل عليكم حكمهن وجهلتم كيف تكون عدتهن ﴿ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ ﴾ أي: فهذا حكمهن، وقيل: إن ارتبتم في دم البالغات مبلغ اليأس أهو دم حيض أو استحاضة فعدتهن ثلاثة أشهر، وإذا كانت هذه عدة المرتاب بها فغيرها أولى بذلك، وقد قدر العلماء سن اليأس بستين سنة، أو بخمسة وخمسين سنة، ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ﴾ وهن الصغيرات فعدتهن ثلاثة أشهر، فأما الشابة التي كانت تحيض فارتفع حيضها قبل بلوغ سن الآيسات فهذه تنتظر سن اليأس ثم تعتد بثلاثة أشهر، إلا أن يعاودها الدم فتعتد بثلاثة أقراء، وهذا مذهب أكثر العلماء. وقال عمر رضي الله عنه: تتربص تسعة أشهر فإن لم تحض تعتد بثلاثة أشهر. وهذا قول مالك وما قبله قول الشافعي وعطاء وعثمان وغيرهم. وقال الحسن: تتربص سنة فإن لم تحض تعتد بثلاثة أشهر، وهذا كله في الطلاق. وأما المتوفى عنها زوجها فعدتها أربعة أشهر وعشر سواء أكانت ممن تحيض أو لا تحيض. وأما الحامل فعدتها بوضع الحمل سواء أطلقها زوجها أو مات عنها، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ مطلقات كن أو متوفى عنهن أزواجهن ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ في أحكامه فيراعي حقوقها ﴿ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ يسهل عليه أمره ويوفقه

للخير ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي: ما ذكر من الأحكام ﴿ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ في أحكامه فيراعي حقوقه ﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ بالمضاعفة ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم ﴾ أي: بعض مكان سكناً لكم ﴿ مِّن وُجْدِكُمْ ﴾ أي: من سعتكم وطاقتكم، فالموسر يوسع عليها في المسكن والنفقة، والفقير يفعل على قدر طاقته، ﴿ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ ﴾ لا تؤذوهن ﴿ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ ﴾ فيخرجن من العدة، وهذه الآية أوجبت النفقة للحامل مدة الحمل، والرجعية حكمها أن لها النفقة والسكنى على الزوج ما دامت في العدة، لأنها في حكم الزوجة، فلتبق في البيت المملوك له والمؤجر، وإلا فلها أجرة السكن، وأما البائن بالطلقات الثلاث، أو بالخلع أو باللعان، فلها السكنى حاملاً وغير حامل، وقيل: لا سكنى لها إلا إذا كانت حاملاً، وهل لها نفقة؟ قيل لا نفقة لها إلا أن تكون حاملاً، وهو قول الحسن وابن عباس والشافعي وأحمد، وقيل: تجب في كل حال، وهو قول ابن مسعود والنخعي والثوري وأصحاب الرأي، فإذن أصحاب الرأي يجعلون السكنى والنفقة عامتين في الجميع. ثم قال تعالى: ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ ﴾ بعد انقطاع علقة النكاح ﴿ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ ﴾ على الإرضاع، ﴿ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ ﴾ أي: ليقبل بعضكم من بعض إذا أمره بالمعروف، أو ليتراض الأب والأم على أجر مسمى، فهو أمر للزوجين معاً أن يأتوا بالمعروف وما هو الأحسن، ولا يقصدوا الضرر، وعلى ذلك لا يقصر الرجل في حق المرأة ونفقتها، ولا المرأة في حق الولد ورضاعه، ﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ ﴾ في حق الولد وأجرة الرضاع فلم يعط الرجل الأم الأجرة، ولم ترض الأم بإرضاعه فليس له إكراهها على الإرضاع، إذن فليستأجر للصبي مرضعاً غير أمه، وهذا قوله تعالى: ﴿ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴾ أي: امرأة أخرى ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ ﴾ فلينفق كل من الموسر والمعسر ما بلغه وسعه ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ ﴾ فإن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وهذا القول تطييب لقلب المعسرين الذين وعدهم باليسر فقال: ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ عاجلاً أو آجلاً، وهذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ ﴾؛ تفتح باباً واسعاً لمباحث العلوم والصناعات المذكورة في سورة «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ ﴾[الآية: ٢٨٦]، فإذا رأيت القضاة يحكمون على زيد بمائة قرش في الشهر للمرأة، وعلى خالد بألفي قرش على حسب طاقتهما، هكذا يجب على زيد من العلوم أو الصناعات ما يطيقه، وعلى خالد بأكثر أو بأقل، وكما خلق الله في الأمة الأغنياء والفقراء، هكذا خلق فيها قدراً وطاقات مختلفات في العلوم والصناعات، فليمتحن التلاميذ في العلوم التي يجب أن يعمم تعليمها، وليجعل كل تلميذ في العلم الخاص به وينبغ فيه.

ولما كان هذا المعنى المذكور في: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ ﴾ ينتقل من الفرد إلى الجماعة ومن مسألة الإنفاق على النساء إلى سائر فروع الحياة، وكانت الأمة التي تهمل القدر والاستعداد كبعض المسلمين اليوم آيلة للخراب، لأنها أهملت ما خلقه الله لها من العقول النيرة المخبوءة في أجسام أبناء الفقراء وأبناء الأغنياء فلم تستخرج تلك المواهب ولم تستقص القوى والقدر التي خبأها الله في أبنائها، فضاعت سياستها، وبارت أرضها، وقلت حاصلاتها، وضاع الفكر فيها، وأصبحت طعمة

لغيرها من الأمم ككثير من أمم الشرق الآن، لما كان الأمر كذلك أعقب ما تقدم سبحانه بقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي: أهل قرية ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ أي: أعرضت عنه إعراض العاتي المعاند، فأهملت شؤون أرضها وطبقاتها وجبالها ومعادنها وحاصلاتها وقوى الشبان فيها ﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ أثبتنا ذنوبهم جميعها في صحف الحفظة ﴿وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ منكراً في الدنيا بالذل والاستعباد مثلاً ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي: عقوبة كفرها ومعاصيها ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ لا ربح فيه أصلاً ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ يوم القيامة ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يا ذوي العقول. ثم نعتهم فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ هو القرآن، وأرسل إليكم ﴿رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ صفة لـ «رسول»، ويصح أن يكون «رسولاً» مبدلاً من «ذكر» كأن «الرسول» نفس «الذكر» مبالغة ﴿لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: ليخرج من علم سبحانه وقدر أنه يؤمن، ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ في هذا القول تعظيم لما رزقوا من الثواب، ثم إن هذه السورة مرجع أحكام شرعية ومناهج دينية، وأدلة فقهية، وفتاوى إسلامية، وضعت لإقامة العدل ونهج الصراط السوي، وذلك العدل على نهج العدل الذي في السماوات والأرض الجاري بين المشرقين والمغربين، وما أهل الأرض ولا أحكامهم ولا شرائعهم ولا دياناتهم إلا لمحة من نور العدل العام، وقبسة من إشراقه، وقبضة من نوره، وزهرة من شجرته، فلئن قضى القضاة على كراسي الحكم بين العباد، وأعطوا زيداً ما يجب على عمرو، وقالوا للحامل: عدتك وضع الحمل، وللتي تحيض: عدتك ثلاثة قروء، فكم بين السماوات والأرض من قضاء في هذا الفضاء الصامت لفظاً الناطق معنى، فكم في حكم بيننا نرى أثره ولا نسمع النطق بحكمه نرى الشمس محكوماً عليها أن تطلع من مواضع في الشرق وتغرب في أماكن في الغرب لا تجاوزها في دقائق وثوان، لا تنفك عنها بحسب النظر الظاهري، وإن كانت الأرض هي الجارية ولكن الحكم لا يتغير، ونرى الرياح قد حكم عليها والسحب مأمورة والأنهار جارية بالحكم المحتم عليها، والمزارع يحكم عليها أن تكون في زمن خاص، فليس للقطن أن ينبت في البلاد الباردة، ولا أن يثمر في زمن الشتاء، ولا للنخل أن ينبت في البلاد الباردة، ولا أن يثمر إلا بعد عدد من السنين، وقضى على المزارع أن تكون قصيرات الأعمار، فيزرع القمح والذرة والشعير والعدس والفول وتحصد كلها بعد أشهر معدودات، ولا تنمو إلا في فصول خاصة، كل ذلك حكم لمصلحة الناس، فلو أن تلك المزارع لا تثمر إلا بعد سنين كالنخل لضاق الناس ذرعاً في الحياة، ولقل سكان الكرة الأرضية. هذه أحكام حكم الله بها ونتائجها سعادة الناس وراحتهم، كما أن حكم القاضي بنفقة الحامل على المذاهب كلها وبنفقة غيرها على بعض المذاهب لمنفعة المطلقة، فانظر أي الحكمين أكثر منفعة، أحكم لمصلحة أشخاص مخصوصين متنازعين، أم حكم لسعادة هؤلاء المتنازعين وغيرهم من كل أهل دين ونحلة؟ بل كل حيوان ونبات على الأرض، لذلك أعقب ما تقدم سبحانه بقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي: وخلق مثلهن في العدد من الأرض، وهذا العدد ليس يقتضي الحصر، فإذا

قلت : عندي جوادان ، تركب عليها أنت وأخوك ؛ فليس يمنع أن يكون عندك ألف جواد وجواد ، هكذا هنا فقد قال علماء الفلك كما تقدم : إن أقل عدد ممكن من الأرضين الدائرة حول الشموس العظيمة التي نسميها نجوماً لا يقل عن ثلاثمائة مليون أرض ، هذا فيما عرفه الناس ، وهذا القول من هؤلاء ظني ، فلم يدّع أحد أنه رأى أو قطع بشيء من ذلك ، اللهم إلا علماء الأرواح ؛ فإنهم لما سألوها قالت : عندنا كواكب آهلة بالسكان لا يحصى عددها ، وفيها سكان أنتم بالنسبة لهم كالنمل بالنسبة للإنسان . هذا معنى ما قالوا ، ارجع لما نقلته لك عن الأستاذ « غاليلي » لما أحضرت روحه وسألوها ، وإياك أن تقول : إني أجزم بهذا القول ، بل أقول لكم : فكروا وادرسوا فالعلم علمكم والدين دينكم ، ولا يجوز أن تختص أوروبا بالبحث ونحن سنترك لكم الأرض وغضي منها ونهاجر إلى الله متى جاء الأجل .

وقوله : ﴿ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ أي : يجري أمر الله وقضاؤه بينهن ، وينفذ حكمه فيهن ، ﴿ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ فالله خلق السماوات والأرض وهن يتنزل الأمر بينهن لندرس هذه العوالم ونعقلها ، فنعلم عموم القدرة والعلم فيهما ، ولا يتم ذلك إلا إذا كانت دراستنا لتلك العوالم كدراسة الفقهاء لعلم الفقه ، إن الفقيه لا قدرة له على إصدار الأحكام ، والقاضي ليس بقادر أن يصدر حكماً ، والمفتي لا يستخرج الأحكام من الدين إلا بعد دراسة تامة ، هكذا لا يعرف سعة علم الله وقدرته ، ولا يفرح بنظام السماوات إلا من أضاع العمر في مباحث العلوم الفلكية والطبيعية ، وقد تضمن هذا التفسير حظاً عظيماً من تلك المباحث .

انتهى تفسير سورة « الطلاق » ، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة التحريم

هي مدنية

آياتها ١٢، نزلت بعد الحجرات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (١) قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ (٢) وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ (٣) إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا (٥) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ (٦) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (٧) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (٨) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ (٩) ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (١١) وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ (١٢) ﴾

هذه السورة قسمان:

القسم الأول: في نساء النبي صلى الله عليه وسلم، وحلف النبي صلى الله عليه وسلم ألا يشرب العسل إرضاء لبعضهن، وفي اطلاع الله على ما أفشين من سر أمرهن بكتمه وما يتبع ذلك، من أول السورة إلى قوله: ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[الآية: ٩].

القسم الثاني: ضرب مثل لذلك بامرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام، من قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴾[الآية: ١٠] إلى آخر السورة.

مقدمة في مناسبة هذه السورة لما قبلها

سورة «الطلاق» كلها في حسن المعاشرة مع النساء والقيام بحقوقهن. وهذه السورة فيما حصل منهن مع النبي صلى الله عليه وسلم تعليماً لأمته، وأن يحذروا أمر النساء، وأن يعاملوهن بالسياسة اللطيفة كما عاملهن صلى الله عليه وسلم بذلك وينصحوهن نصحاً مؤثراً.

أسباب نزول هذه الآيات ما جاء في البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحلواء والعسل، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه، وكان يمكث عند زينب بنت جحش، فيشرب عندها عسلاً، فتواطأت أنا وحفصة أن أيتنا دخل النبي صلى الله عليه وسلم عليها فلتقل له إني أجد منك ريح مغافير أكلت مغافير، فدخل على إحداهما فقالت له ذلك، فقال: بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود». والمغافير: صمغ حلو له رائحة كريهة ينضجه شجر يقال له العرفط يكون بالحجاز.

وقد كانت عائشة وحفصة متصافيتين متظاهرتين على سائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، ويقال إن التي دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم وحرم على نفسه العسل أمامها هي حفصة، فأخبرت عائشة بذلك، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم استكتمها الخبر كما استكتمها ما أسرها به من الحديث الذي يسرها ويسر عائشة، إذ قال لها: لا تخبري أحداً، وذلك الحديث أنه قال: «إن أباك وأبا عائشة يكونان خليفتين على أمتي من بعدي»، فصار السر لها بأمرين: بتحريم العسل الذي كان يبقيه عند زينب بنت جحش، وبأمر الخلافة. اهـ.

هذا ملخص ما جاء في الأحاديث، وفي الروايات تناقض يسير، ولكني استخلصت الزبد المتفق مع سير الآية.

وهناك روايات أخرى مثل كون التي شرب عندها العسل هي حفصة، ومثل كون التحريم إنّما كان لمارية القبطية لا للعسل، لأن مارية القبطية كان صلى الله عليه وسلم دخل معها في بيت حفصة، فغضبت حفصة لذلك، فأرضاها بما تقدم.

فلندع ذلك الاختلاف ولنسر في التفسير على وجه واحد، لأن قصة مارية لم تأت من طريق صحيح، وكون المتظاهرتين حفصة وعائشة هو من حديث لابن عباس المروي في الصحيحين، ولنشرع الآن في تفسير السورة، فنقول ومن الله التوفيق:

التفسير اللفظي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ﴾ من شرب العسل ﴿ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ﴾ أي: حال كونك تبتغي، ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ ﴾ لك تحريم ما أحل لك ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ رحمك حيث لم يؤاخذك ﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ﴾ أي: قدر الله لكم ما تحللون به أيمانكم، وهي الكفارة المذكورة في سورة «المائدة». فيقال: إن النبي صلى الله عليه وسلم لما قالت له حفصة: أكلت مغافير؛ وقال لها كما قال لعائشة: سقتني زينب شربة عسل؛ قالت: جرست نحله العرفط، أي: أكلته فصار منه العسل، حينئذ حلف ألا يشربه، فعوتب على ذلك، أو شرع الله لكم الاستثناء في أيمانكم، يقال: حلل فلان في يمينه، إذا استثنى فيها، وذلك أن يقول: إن شاء الله، عقيبها حتى لا يحنث، ويقال: إن تحريم الحلال يمين عند بعض الأئمة، فسواء أكان صلى الله عليه وسلم حلف فعلاً فكفّر، أو مجرد تحريم الحلال يمين فيكفّر عنه، فالأمر ظاهر، لأن الكفارة مشروعة، وما بعدها أخذ به بعض الأئمة، والاستثناء في اليمين مشروع وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ﴾ متولي أمركم ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بما يصلحكم ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ المتقن في أفعاله وأحكامه.

﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ ﴾ وهي حفصة ﴿ حَدِيثًا ﴾ تحريم العسل، ومسألة الخلافة المذكورتين ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ ﴾ فلما أخبرت حفصة عائشة رضي الله عنهما بالحديث ﴿ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ وأطلع النبي صلى الله عليه وسلم على إفشائه الذي يحزن قلب زينب إذا علمته، إذ ينكسر قلبها لما ترى من أن إحدى أزواجه صلى الله عليه وسلم قدرت أن تحتال حتى حلف ألا يشرب العسل في بيتها، وذلك نكاية لها وألم عظيم، وفي إفشاء أمر الخلافة خلل في سياسة الأمة وتفريق لجامعتها، إذ يحصل التنافر والشقاق قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم على الخلافة كما حصل بعد وفاته، وفي هذا تعجيل لما لا تحمد عقباه، وجواب «لما» قوله: ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ ﴾ أي: عرف صلى الله عليه وسلم حفصة بعض ما أفشت من السر ﴿ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ﴾ أي: عن إعلام بعض، كأن يذكر لها إفشاء مسألة تحريم العسل ويترك مسألة الخلافة لئلا تهلع وتحزن على إفشائه أشد من الحزن على إفشاء مسألة العسل أو العكس ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ أي: العليم بما تكنه الضمائر وبخفيات الأمور، ثم خاطب حفصة وعائشة فقال: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فقد وجد منكما ما يوجب التوبة، وهو ميل قلوبكما عن الواجب من امتحان حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم بحب ما يحبه وكراهة ما يكرهه، وهذا قوله: ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ ﴾ أي: وإن تظاهرا عليه بما يسوؤه ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فهؤلاء جميعاً ينصرونه ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ متظاهرون، أو فوج مظاهر له، وإنما ذلك كله لعظم أمر إفشاء السر، لا سيما في مسألة السياسة، فإنه ربما أزال دولة بتمامها بالثورات والفتن ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ ﴾ منقادات مصدقات ﴿ قَٰنِتَٰتٍ ﴾ مواظبات على الطاعات ﴿ تَٰٓئِبَٰتٍ ﴾ عن الذنوب ﴿ عَٰبِدَٰتٍ ﴾ متعبدات ﴿ سَٰٓئِحَٰتٍ ﴾ صائمات، إذ الصائم يسيح

في النهار بلا زاد، ﴿ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ﴾ أي: عذارى جمع بكر، يقال: إنه صلى الله عليه وسلم غضب من إفشاء سره وجازى حفصة بأن طلقها فجاءه جبريل وأمره بمراجعتها، وقيل: لا بل همّ بطلاقها، فقال له جبريل: لا تطلقها فإنها صوامة قوامة، وإنها من نسائك في الجنة.

ولما كان هذا القول خاصاً بأمر النبي صلى الله عليه وسلم وأزواجه أردفه بخطاب عام فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ بترك المعاصي وفعل الطاعات ﴿ وَأَهۡلِيكُمۡ ﴾ بالنصح والتأديب ﴿ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ أي: ناراً تتقد بهما اتقاد غيرها بالحطب ﴿ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ ﴾ تلي أمرها وهم الزبانية ﴿ غِلَاظٞ شِدَادٞ ﴾ غلاظ الأقوال شداد الأفعال ﴿ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ ﴾ فيما مضى ﴿ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ فيما يستقبل، فليتق الله الناس، وليتركوا المعاصي، وليؤدبوا نساءهم، وينهوهن عما لا يحل، فرب امرأة أفشت سراً فأهلكت أمة بتمامها، وأوقدت فيها نار الفتنة، فحاذروا أن تعطوا سركم إليهن، فإذا كان الله عصمني أن يذيع سري وأطلعني عليه فليس يتفق لكم ذلك، فليكتم المرء سره لئلا تفسد امرأته عليه أمره، وتنغص عيشه، وتصبح حياة المرء في قلق ونغص، وهكذا لتكن المرأة صالحة، وإلا كانت الحياة لا تطاق بين الزوجين وتفوت على أهل المنزل المصالح المادية والمعنوية فيكون الفوت ثم الموت، فيجد الزوجان أنهما أضاعا حياتهما، فلا يكون لهما جزاء إلا جهنم، لأن الناقص في أخلاقه وأعماله ليس له إلا ذلك، ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾[الإسراء: ٧٢].

واعلم أن الحياة المنزلية هي أس الحياة العمرانية، ومن لم ينظم أهل بيته فهو عن تدبير أمر الدولة أعجز، فلم يستعن صلى الله عليه وسلم على امرأتين من نسائه بالله وجبريل والملائكة والمؤمنين إلا لما في أمر تدبير المنزل وحياته من الأهمية، ولم يذكر جهنم وزبانيتها إلا لما في ذلك من سر حياة الأمة فالأمة مركبة من أسرات، والأسرات إذا كانت حياتها على غير أساس فحياة المجموع كذلك، لأن الأمة ما هي إلا أفرادها، وهي فرد مكرر، والفرد إذا كانت سياسته في الداخل غير منتظمة فقد ضاعت دولته، هذا هو السر في ذكر الله والملائكة، وذكر جهنم ونارها وحجارتها.

أمر الله المسلمين أن يقوا أنفسهم وأهليهم ناراً، فنار يوم القيامة مما جنيناه في الدنيا، وهو في هذا المقام تنغيص العيش، وضياع أمر الأسرة، والشقاق والنزاع المتوالي، وفي قوله: ﴿ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ ﴾[التحريم: ٦] إشارة إلى أن الأسرة إذا كانت مفككة الأوصال غير مجتمعة الرأي؛ لا تطيع المرأة زوجها ولا الولد أباه؛ كانت سائرة على نهج يخالف نظام الله الذي نظم السماوات والأرض وجعلهما مرتبطتين، وجعل ملائكته طوع أمره، ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ ﴾[الطلاق: ١] وذلك هو الموجب لجهنم. إن نار جهنم في هذا المقام لم تخرج عن كونها نتيجة المنافرات والمشاجرات والأكدار والتنغيص المحرقات للقلوب في الدنيا، فإذا مات الناس دخلوا في جنس ما كانوا فيه في الدنيا، فهل جزاء السيئات إلا السيئات؟ قوم كانوا في نزاع دائم وقلوبهم لم تعرف في الدنيا إلا المشاجرات والشتائم، فأين يذهبون إلا للمدارس التي استعدوا لها في الدنيا، وهي مدارس نارية محرقة، فقد أحرقت القلوب في الحياة بتنغيصهم، فأحرقت الأجساد والقلوب معاً بعد الموت جزاء وفاقاً، ليكون

ذلك طهارة لهم إن كانوا مؤمنين، فأما الذين كفروا فيقال لهم: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ ﴾ وذلك حين يعاينون النار ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فإن أعمالكم السيئة ألزمتكم العذاب، فإن الجهالة والعناد وإنكار الحق قد وضعت على قلوبكم حجاباً في الدنيا، فلما متم حجبتم عن الجمال المطلق كما يعذب المؤمنون بفعل المعاصي كترك تأديب زوجاتهم، وكفساد نظام الأسرات المترتب على ذلك، ولذلك قال تعالى لهم: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ بالغة، أو ذات نصح تنصح صاحبها بترك العود إلى الذنب.

والتوبة النصوح تجمعها ستة أشياء:

(١) على الماضي من الذنوب الندامة.

(٢) وللفرائض الإعادة.

(٣) ورد المظالم.

(٤) واستحلال الخصوم.

(٥) وأن تعزم على ألا تعود.

(٦) وأن تربي نفسك في طاعة الله كما ربيتها في معصيته.

ثم قال تعالى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ وفي ذكر «عسى» إطماع جرياً على عادة الملوك، وقوله: ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ متعلق بـ «يدخلكم»، وفيه تعريض بأن المناوئين لهم يخزون حال كونهم ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ ﴾ على الصراط ﴿ يَقُولُونَ ﴾ إذا أطفئ نور المنافقين الذين ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة: ١٧]؛ ﴿ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ولا جرم أن الأنوار على مقتضى الأعمال فيسألون إتمامها ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ ﴾ بالسيف ﴿ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ﴾ بالحجة والزجر والوعيد ﴿ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ واشدد على الفريقين بالقول والفعل ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ ﴾ مصير المنافقين والكافرين ﴿ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ جهنم. ولما كانت هذه السورة مسوقة لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم؛ وأعقب ذلك أن أمر المؤمنين أن ينصحوا زوجاتهم ويؤدبوا أنفسهم وهددهم بالنار ثم أتى بنصائح عامة؛ أعقبه بما يفيد أن الرجل ليس عليه إلا ما أمر به، والمرأة ليس عليها إلا ما أمرت به، فإذا خالفت المرأة الرجل بعد نصحها وأذنبت؛ وكان الرجل فاسقاً والمرأة صالحة؛ فلا ذنب إلا على المذنب وليس على الآخر من سبيل، وبين ذلك بمثلين: مثل للمرأة الفاسقة التي صلح زوجها ومثل للمرأة الصالحة التي كفر زوجها، فكل عليه وزره، ولا يحمل من إثم صاحبه شيئاً ما دام قائماً بما عليه خير قيام، فقال تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ﴾ بيّن الله صفة ﴿ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا ﴾ أي: لم يدفعا عنهما ﴿ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ فهاتان المرأتان لما خانتا الرسولين أدخلتا النار ولم ينفعهما صلتهما بالنبيين، بل ذاقتا وبال أمرهما.

هكذا هؤلاء الكفار يعاقبون على معاداتهم للمؤمنين بلا محاباة، ولا ينفعهم ما بينهم وبين المؤمنين من النسب والمصاهرة، ولو كان الذي يتصل به الكافر نبياً، كما لم ينفع المرأتين لما خانتا الرسولين أنهما زوجتاهما فعذبتا على خيانتهما وإفشائهما أسرارهما، فدخلت المرأتان النار مع سائر الداخلين، إذ لا فرق بين الشريف والصعلوك في العقوبة، فهي لا تترك أزواج الأنبياء كما لا تذر أزواج العصاة والعصاة جميعاً، ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾ وهي آسية بنت مزاحم، فقد آمنت لما غلب موسى عليه السلام السحرة، فلما علم فرعون بإيمانها عذبها فصرف الله العذاب عنها، شبه حال المؤمنين في أن اتصالهم بالكافرين لا يضرهم بحال آسية، فهي مرضية عند الله، مع أنها متصلة بمن ادعى الألوهية، اذكر ﴿ إِذْ قَالَتْ ﴾ وهي تعذب ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ قريباً من رحمتك، أو في أعلى درجات المقربين ﴿ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ ﴾ من نفسه الخبيثة وعمله السيئ ﴿ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ من القبط التابعين له في الظلم، ثم عطف على امرأة فرعون قوله: ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ﴾ التي لا زوج لها فليتسل بها الأرامل، ففضل الله يسع المتزوجات واللاتي لا أزواج لهن، ثم وصف مريم فقال: ﴿ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ حفظت فرجها من الرجل ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ ﴾ في فرجها ﴿ مِن رُّوحِنَا ﴾ من روح خلقناه بلا توسط أصل ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا ﴾ بالشرائع التي شرعها الله لعباده بكلماته المنزلة على أنبيائه ﴿ وَكُتُبِهِۦ ﴾ الكتب المنزلة على الأنبياء، ﴿ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ المطيعين، وهم رهطها وعشيرتها، لأنهم كانوا أهل بيت وصلاح. انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها، والحمد لله رب العالمين.

خاتمة لتفسير هذه السورة

وازن أيها الذكي بين أول السورة وآخرها تجد المعنى متسقاً، فإذا تظاهر على النبي صلى الله عليه وسلم امرأتان فهاهما تان امرأتان: امرأة نوح وامرأة لوط، تظاهرتا على عبدين صالحين وهما زوجاهما، فماذا حلّ بهما؟ أدخلتا النار، ولم ينفعهما اتصالهما بالنبيين، وهذا المثل وما بعده لم يجعلا للزوجات فحسب، بل عمم الأمر لكل امرأة عاصية أو كافرة اتصلت بمؤمن، ولكل امرأة صالحة أو رجل صالح اتصل بكافر، فهو في معنى: ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ [الممتحنة: ٣]. وبهذا تم الكلام على سورة «التحريم»، والحمد لله رب العالمين. كتب يوم الأحد ٢٣ ذي الحجة سنة ١٣٤٣ هجرية، الموافق ١٤ يوليو سنة ١٩٢٥م.

تفسير سورة الملك
هي مكية
آياتها ٣٠، نزلت بعد الطور

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١) ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ (٢) ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ (٥) وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٦) إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ (١٠) فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ (١١) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ (١٤) هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ (١٥) ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ (١٩) أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ

ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾ ﴾

هذه السورة تشتمل على وصف السماوات، وأن نظام هذا العالم لا عوج فيه ولا اختلاف، وعلى وصف عذاب الكافرين في الدنيا والآخرة، وتخلل ذلك تذكير الإنسان بخلقه ورزقه وما أشبه ذلك.

إن الكلام على هذه السورة ينحصر في ثلاثة أقسام:

القسم الأول: في تفسير البسملة، أي ما ذكر فيها من الرحمتين مع جميع الرحمات العشرين اللواتي في البسامل التي في السور العشر التابعات لها إلى سورة «المرسلات».

القسم الثاني: في التفسير اللفظي للسورة كلها.

القسم الثالث: في اللطائف.

القسم الأول: في الكلام على الرحمتين المذكورتين في البسملة هنا مع جميع الرحمات في السور العشر التي بعدها

لما كانت الرحمتان المذكورتان في البسملة هنا في سورة «الملك» تقدم الكلام عليهما في أول سورة «المجادلة» وجب أن نحصر الكلام الآن في الرحمات العشرين المذكورات في السور العشر التي تليها من أول سورة «القلم» إلى سورة «المرسلات» فنقول:

إن الرحمات في هذه السورة موجهات إلى تخلية الأمم من الرذائل وتحليتها بالفضائل، ألا ترى أن العذاب الشديد والإنذار للناس في هذه السور يقصد به الإقلاع عن الآراء الشريرة، والأعمال الخبيثة، فلذلك تجد هذه السورة مشحونة بالكلام على إهلاك الأمم في الحياة الدنيا، وعلى عذاب الآخرة، فهاهنا وجهت الرحمات إلى الإنذار وبه يتخلى الناس عن رذائلهم، فلا تحلية بالفضائل إلا بعد التخلية من الرذائل، فأما التحلية بالفضائل فذلك ما جاء في غضون هذه السور من أخلاق نوح وصبره على قومه سنين وسنين، وما أبدع في الدعوة من شرح العوالم العلوية والسفلية، فهذه فضائل في الأنبياء تحلوا بها، وهكذا نبينا صلى الله عليه وسلم الذي نودي مرة بصفة المدثر في ثيابه والمزمل، فهذه نفوس كاملة تحلت بصفات الجمال وناجت ربها في دياجي الظلمات، وعرفت أخبار الأرواح الناقصة المسميات بالجن تريد تكميلها كما عرفت النفوس الكاملة في ذاتها اللاتي هي ملقيات ذكراً، فهذه النفوس الكاملة القائمة بذلك ذكرت في مقابلة الناقصة المتردية في هاوية الهلاك، وهؤلاء الكاملون

يدعون الناقصين ليلحقوا بهم في الكمال، وهناك نفوس متوسطة، وهي النفوس اللوامة، ولكن لها فضلها في الجهاد، وهناك نفوس أخرى كملت أخلاقها فقيل لها: ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾[الإنسان: ٧]، وهناك نفوس مفارقة للمادة، وهي التي عبر عنها بالملقيات ذكراً للإعذار والإنذار، فهذه مجامع ما في هذه السور من الرحمات، إن الإنذار بالإهلاك والتدمير والعذاب الأليم رحمة ليتخلى الإنسان بذلك عن الرذائل خوفاً من نتائجها، وهكذا معرفة أخلاق النفوس الكاملة ـ المتوجهة لربها في ظلمات الليالي، وهي تدعوه وتناجيه وتسهر على إسعاد غيرها ـ تدعو حثيثاً إلى الاقتداء بها، فتتوجه لخالقها، وتدعوه ليساعدها في ارتقائها وفي انتشال غيرها من أوحال المادة ورذائل الأخلاق.

هذه مجمل الرحمات في هذه السور إلى آخر سورة «المرسلات»، فلنبدأ في تفصيلها سورة سورة، فنقول ومن الله التوفيق:

الرحمات في سورة القلم

أقسم الله فيها بالقلم دلالة على شريف منزلته، وعظيم قدره، إن رحمة الله بالأقلام وفن الكتابة ونشر الصحف واتساع نطاق المعارف رحمة عامة تضاهي في عمومها إشراق الكواكب والشموس وإضاءتها الأرجاء، وإذا أقسم الله بالقلم فقد أقسم بالشمس وبالقمر وبالنجم، ولكن نعمة القلم أعلى منزلة وأشرف وأكمل. ألا ترى رعاك الله أن العلم وحده الذي يرفع الأرواح إلى العلى، بالعلم الهداية ورقي النفس إلى الكمال، وبدون العلم الذي لا قيام له إلا بدولة القلم والإنشاء لا كمال لهذه النفوس، تلك النفوس التي أنزلت إلى الأرض وعاشت بالأضواء المشرقة من الشمس والقمر والكواكب، فالكواكب السماوية المشرقات على الأرض كأنهن أظارير بين النفوس الإنسانية تربية أولية، ولكن نفوس الأنبياء والأقلام التي تكتب ما يقولون، والأقاويل الحسنة هي المكملات لهذه النفوس، فالكواكب والأقمار والنجوم مقدمات، والأنبياء والعلماء نهايات. جلّ الله وجلّ العلم، سيأتي القسم بالشمس، وتقدم القسم بالنجم والقمر، والقسم بالقلم جاء في الوسط بينهما، إن أمة الإسلام وإن كانت ضعيفة القوة؛ فهي هي الأمة التي كانت سبباً في انتشار التعليم بين الأمم كلها في أوروبا وفي الشرق الأقصى، العلم قد ملأ الأقطار، ولكنه في القرون الماضية قد تخطى أمة الإسلام، وأحاط بها من الشرق والغرب، كأنه يقال لهم: أيتها الأمم الإسلامية، أقسم ربكم بالقلم، وبالقلم علمتم الأمم، وبالقلم تعلمت الأمم، إن هذه الأمة اليوم أخذت تتعلم وستقود الأمم إلى الفلاح، لأنها أمة وسط، وهم شهداء على الناس، ولن يكونوا شهداء على الناس بحق وصدق إلا بتعميم العلم الذي أقسم الله بالقلم الذي يسطره.

إن رحمة الله عز وجل قد ظهرت نتائجها التي لا حصر لها في نشر العلم في العالم كله بالقلم بعد الرسالة المحمدية التي كانت سبباً في بث هذه الروح في الأمم، وأي رحمة أعظم من هذه، وهي التي لا رحمة توازيها في كوكب ولا شمس ولا قمر، وقد ظهرت على يديه صلى الله عليه وسلم، والأجر سيكون على مقدار ذلك الانتشار، فإن نعيم الإنسان على مقدار آثاره بين الأمم، وهل يكون

الفضل منتشراً لامرئ إلا على مقدار ما لـه من الفضائل رحمة عامة بالعرفان ناجمة من الاتصاف بأخلاق حسان، فهل صاحب هذه الفضائل والعوارف ينسب لـه الجنون؟ كلا. بل إنه جاء ليكمل النفوس الناقصة اللاتي لا تعرف إلا المداهنة ورذائل الأخلاق، ولذلك أمر بالصبر على تكذيب المكذبين، وحكم عليه ألا يقف في الفضائل دون الغايات، فإذا رأى نبياً من الأنبياء كيونس عليه السلام الذي لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم، فاجتباه ربه فجعله من الصالحين، فإنه يصدع بما أمر ويصبر لحكم ربه، ولا يكون كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم. إذن رحمة الله تعالى تجلت واضحة لرسوله صلى الله عليه وسلم في أخلاقه وعوارفه، فهو صبور كما أمره الله. ومن الرحمات في هذه السورة تبيان نتائج البخل الحاصل من أصحاب الجنة، وكيف كان هذا الشح سبباً في إبادتها وإهلاكها، وكيف كانت التوبة عليهم نعمة، وفيها بيان الفرق بين المتقين والمجرمين. اهـ.

الرحمات في سورة الحاقة

إن سورة « الحاقة » أشبه بتفصيل لما أجمل في سورة « القلم »، فالرحمات فيها مفصلة لبعض ما أجمل في تلك، ففي سورة « القلم » جعل الناس فريقين: فريق مجرمون، وفريق مسلمون، ولكل جزاؤه، وفيها أصحاب الجنة وأشحاؤها الذين لا يراعون الأخوة العامة، وإنّما يريدون اتباع شح نفوسهم، فهؤلاء ذاقوا عذاب الدنيا بإبادة أشجارها وأثمارها، ولهذه المناسبة ذكر عذاب الآخرة وأنه أكبر، فهاهنا جاء ذكر العذابين، فثمود وعاد وفرعون وقوم نوح هلكوا، وسيهلك العالم كله يوم القيامة، فهاهنا تفصيل أتم للهلاك، ففي سورة « القلم » هلكت جنة بشح أهلها، وهاهنا ذكر هلاك أمم بل زوال الأرض وما عليها، وتبع هذا ذكر ما سيلاقيه الفريقان من عيشة راضية، وعيشة ليس فيها طعام إلا من غسلين، كل هذا من الرحمات الواسعة، فذكر العذاب في الدارين يوجه النفوس إلى الأعمال الشريفة التي تؤدي إلى النعيم.

الرحمات في سورة المعارج

ويقرب من ذلك وصف أوسع في سورة « المعارج »، أفلا تعجب معي كيف أبان سبب ذلك كله. الله أكبر، إن الجنة والنار خلقتا لأجل هذه النفوس، هذه النفوس المسكينة المخلوقة في أرضنا المحبوسة فيها قد جعلت بهيئة محزنة، كيف لا وهي التي إذا مسها الشر جزعت، وإذا مسها الخير منعت هذا هو السر الأكبر في هذا الإنسان، الإنسان في عمومه أشبه بالطفل يبكي لأدنى شيء، وإذا أعطي المال بخل به كأنه يظن أنه مخلوق وحده والناس مسخرون جميعاً له، وقد عمي عن هذا الجمال الرائع في السماوات والأرض والأنهار، والجمال الذي به ينتفع البار والفاجر، جهل هذا الإنسان المسكين أنه يشترك مع جميع نوع الإنسان في المنافع، فإذا لم يفكر إلا في نفسه، فهذا هو المبدأ الأول لإذلاله وشقائه، فأصحاب الجنة بادت أشجارهم فيها، لأنهم لم يفكروا في غيرهم من الناس. فهذا أشبه بذكر السبب الذي به عوقبوا بذلك، لأنهم منعوا الخير عن الناس.

وبعبارة أخرى: إن الإنسان خلق ليعلم، ومن أجل الأعمال اتجاه النفس للمنفعة العامة عموم الأنوار وعموم المنافع القلمية العلمية بين الأمم، ومن أجل الرحمات في هذه السورة تلك الصفات

الشريفة التي بها يصقل الإنسان نفسه فتضيء وتشرق بعد إظلامها بحب النفس، وبعبارة أخرى أيضاً: إن النفس في أول أمرها تميل إلى أن تختص بكل نعمة ولا تفكر في غيرها كما قدمنا، وعليها وحدها بإغاثة الله أن تصقل بصقال الكمال فتصير مهذبة، وذلك بالعبادات وإنفاق المال في وجوهه، فتكون للإنسان في حياته وجهات ثلاثة: وجهة إلى نفسه يكملها، ووجهة إلى ربه ليعبده، ووجهة إلى الناس فيكون نافعاً لهم، فأما تكميل نفسه فذلك بالأخلاق الفاضلة كحفظ الأمانة، والصدق في الوعد والعهد وإليه الإشارة بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾[المؤمنون: ٨].

وأما توجهه إلى ربه فذلك بنحو الصلوات، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾[المعارج: ٢٢-٢٣]. وأما وجهته إلى الناس، فذلك أنه يمد يد المساعدة لهم، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾[المعارج: ٢٤-٢٥].

إذن أعظم أسرار هذه السورة أنها كشفت القناع عن سر الأسرار، وهو هذه النفس، وأبانت أنها ناقصة، ولن يخرجها من هذا النقص إلا تهذيبها باجتهاد الإنسان وجده هو بنفسه والمثابرة على الصبر على الأعمال الشريفة وعن الشهوات، وذلك تفصيل لما أجمل في آخر سورة «القلم» من قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾[القلم: ٤٨]، والحياة لا كمال فيها إلا بالصبر، ومن الصبر ما أسبغ عليه صلى الله عليه وسلم إذ كان الذين كفروا عن يمين وشمال يؤذونه فصبر ففاز، هكذا كل امرئ في الدنيا لا سعادة له ولا فوز له إلا بالصبر على تحمل المشاق في أمر تهذيب نفسه وتكميل غيره، هذا من أسرار تسمية هذه السورة بالمعارج، إذ لا عروج ولا صعود إلا باستخراج ما كمن في النفوس من الكمال والجمال، ولن يتم ذلك إلا بصفائها من الأدران والأخلاق الناقصة، فهي إنّما تعرج من حال نقصها المعبر عنه بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾[المعارج: ١٩] إلى كمالها بالآداب التي شرحناها هنا، وهي مأخوذة من آيات السورة.

الرحمات في سورة نوح

ويتلو ذلك في وضوح الرحمة إنذار نوح عليه السلام لقومه، وكيف هلكوا بعد أن أنذرهم فلم يسمعوا، ولكن في هذه السورة اتضح جمال النفوس وبهاؤها، ففي التي قبلها شرح الله كيف يكون معراج النفس من خستها، وفي هذه السورة أبان كيف تلبس تاج العرفان.

وكمال الإنسان كمالان: كمال علمي، وكمال أدبي، فالكمال الأدبي تقدم في السورة قبلها، إذ يصف قوماً بأنهم ينفقون من أموالهم، وبأنهم حافظون فروجهم الخ.

وهاهنا ذكر الكمال العلمي بطريق شيق، إذ ذكر خلق السماوات وإنارة القمر فيها، وإشراق الشمس، وذكر النبات بعد أن ذكر التوبة والاستغفار، فهو لم يطل القول في الكمال الأدبي لأنه تقدم في السورة قبلها.

ولكنه فصل القول تفصيلاً في الكمال العلمي الذي لا تمام له ولا كمال إلا باستيفاء الكمال الأدبي أولاً، ولذلك عوقب القوم أشد عقاب، هلاك في الدنيا وعذاب في الآخرة، لماذا ذلك؟ لأنهم أعطوا علماً جماً فأعرضوا عنه.

الرحمات في سورة الجن

طال القول في هذه السور في الكفر والإيمان والمعاصي والطاعات والنعيم والعقاب يفصل بعضه بعضاً، ويتبع بعضه بعضاً.

ولكن بقيت هناك نقطة لا بد من تفصيلها وهي قوله تعالى: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾[الملك: ٣]، فالعالم متشابه. فهذه الأرض التي تسكنها ظهر اليوم أن العناصر فيها هي أنفسها من عناصر الشمس، واستبان أيضاً بالكشف الحديث أن أشعة المعادن في الأرض مثلاً كأشعة العناصر في الشمس.

فهذه العوالم من هذه الجهة لا تفاوت فيها، وإذا كان ذلك كذلك في العالم المادي فهكذا يرى العالم الروحي، فإذا كان في عالم الإنسان وهو العالم العاقل المنظور فيه مسلمون وفيه مجرمون هكذا في عالم الجن العاقل الذي لا نراه مسلمون ومجرمون. فإذا كان هناك تشابه بين عناصر الأرض والشمس في العالم المادي؛ فهكذا هناك تشابه بين عالم الجن وعالم الإنسان باعتبار أن الجميع من العالم الذي يحس ويعقل، وهذه الدرجات المختلفات في نوع الإنسان يرى نظيرها في عالم الجن الذي لا نراه، وهذا كله طبعاً سمعي لا دخل للعقل فيه، ولذلك جاء في هذه السورة بطريق الوحي، فكأن السور السابقة على هذه السورة كانت أقرب إلى عالم الشهادة، وهذه السورة صارت أقرب إلى عالم الغيب الذي جاء به الوحي.

ولما وصلت الحال إلى ذلك العالم الغائب عنا وجاء فيه ذكر الوحي ناسب أن يشرح كيف كان بدء ذلك الوحي، فأتى بسورتي:

المزمل والمدثر

وفيهما صفتان عامتان: صفة الإشراق في النفس، وصفة هداية النفوس الأخرى. فأما إشراق النفس فلن يكون إلا بالتهجد وقيام الليل، لأن الروح لا تقوى على تحمل المشاق إلا بإشراقها، والقيام بالليل معين لها على ذلك، لأن الإنسان إذ ذاك يخاطب ربه كأنه يراه، وهذه ترفع النفس عن هذا العالم المادي، فإذا كملت بذلك رفعت إلى درجة أعلى، وذلك بأنها تفيض النور على غيرها، وأول الأمرين واضح في سورة «المزمل»، وثانيهما واضح في سورة «المدثر»، ففي أولاهما تكميل النفس، وفي ثانيتهما تكميلها لغيرها، والثاني مرتب على الأول، ولذلك جاء بعده:

الرحمات في سورتي القيامة والإنسان

ولما كانت النفس الكاملة في نفسها تكمل غيرها ـ والكمال على قسمين: كمال مبدئي، وكمال نهائي، فالكمال المبدئي أن تصير النفس لوامة تجاهد للكمال، والكمال النهائي أن تكون النفس كاملة وإن لم تصل لدرجة من علمها ـ جيء بسورة «القيامة» أولاً وفيها ذكر النفس اللوامة، وأتبعت بسورة «الإنسان» وفيها ذكر النفس الكاملة التي وإن كانت مخلوقة من أمشاج وابتليت بأنواع من المحن فإنها فازت ونجت، وصارت من الأبرار، وشربت من كأس كان مزاجها كافوراً، وصارت نفساً مطمئنة تعطي لا لجزاء ولا لشكور.

الرحمات في سورة المرسلات

وهذه النفوس المتقدمة نهاية سعادتها أن تكون في حبور تتلقى الأمر والنهي عن الله نفسه في العالم الثاني كما يتلقى الملائكة الكرام المذكورون في أول سورة « المرسلات » عند آية : ﴿ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴾ [المرسلات : ٥] ، ويتخلل ذلك الإنذار والتبشير ، وذكر العذاب والنعيم .

هذا مجمل الرحمات في هذه السور العشر من سورة « القلم » إلى سورة « المرسلات » ، وإنّما فعلنا ذلك هنا مخافة التطويل ، لأن الرحمة تقدم الكلام عليها كثيراً في هذا التفسير ، والرحمة لا حد لها ولا حجر عليها . ولنشرع الآن في تفسير السورة ، فنقول ومن الله التوفيق :

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ فله الأمر والنهي والسلطان ، فيعز من يشاء ويذل من يشاء ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ من الممكنات ، ومن ذلك الإنعام والانتقام ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾ قدرهما ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ ليعاملكم معاملة المختبرين أيها المكلفون ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أصوبه وأخلصه ، وأحسن عقلاً ، وأورع عن محارم الله ، وأسرع في طاعته ، ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الغالب المنتقم ممن عصاه ﴿ ٱلْغَفُورُ ﴾ لمن تاب إليه ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ طبقاً على طبق بعضها فوق بعض ، يقال : طابقت النعل ، إذا خصفتها طبقاً على طبق ، فهو من باب الوصف بالمصدر ، والكلام على السماوات وتحقيقها وكونها سبعاً قد سبق في سورة « البقرة » فلا نعيده . ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ وقرئ : من « تفوت » ، كالتعهد والتعاهد ، وهو الاختلاف وعدم التناسب ، فإن كلًا من المتفاوتين فات عنه بعض ما في الآخر ، والجملة صفة ثانية لـ « سبع » ، ووضع فيها « خلق الرحمن » موضع الضمير للإشعار بأنه يخلق ذلك بقدرته الباهرة رحمة وتفضلاً ، وأن الرحمة عامة في هذه العوالم ، ﴿ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ الفطور : الشقوق ، والمقصود منها الخلل ، من : فطره ، إذا شقه ، فكأن المختل في نظامه مشقوق متباعد كل شق منه عن الآخر ، ﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ رجعتين أخريين في ارتياد الخلل ، أي : ارجع البصر مراراً كثيراً ، كما في لبيك وسعديك إن أرجعت البصر تطلب أن ترى ذلك الخلل ﴿ يَنقَلِبْ ﴾ ينصرف ﴿ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا ﴾ صاغراً ذليلاً مبعداً لم ير ما يهوى من الخلل كأنه طرد عنه طرداً ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ كليل منقطع لم يدرك ما طلب من أن يرى خللاً في النظام ، ثم أعقبه بذكر بعض ما يرى من النظام المشاهد وجماله لتكون زينته وحسنه دليلاً على جمال ما وراءه من حسن النظام والإتقان والإحكام فقال : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا ﴾ القربى من الأرض ، وهي التي يراها الناس ﴿ بِمَصَٰبِيحَ ﴾ كواكب مضيئة بالليل ، فكما زين الناس منازلهم ومساجدهم بمصابيح ، وهي السرج التي يوقدونها فيها ، هكذا زين الله سماواته بمصابيح ، ولكن لا نسبة بينها وبين مصابيحكم ، والتعبير بـ « مصابيح » لينبه الناس إلى المقايسة والموازنة بين السرج والكواكب التي سماها بأسماء السرج في البيوت ، ليلاحظوا الفرق بين النظامين نظام منازلنا ونظام السماوات العام ، فإذا كان الناس ينظمون منازلهم وينتهي نظامها بالسرج ؛ هكذا نظم الله

السماوات وزينها بالكواكب، والنسبة بين نظامنا ونظامه كالنسبة بين سرجنا في البيوت وبين الكواكب فليس رجع البصر كرتين يجعله ينقلب مقطوعاً عن أن يرى خللاً في النظام فحسب، بل الأمر أعظم، إن النظام يفوق جماله الحصر، وأي نسبة بين سرج الناس وسرج الله، فأرضنا بالنسبة لبعض الكواكب لا قدر لها فضلاً عن جبالها وعن السرج في البيوت، فكأن قوله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ انتقال من الكلام عن اليأس من رؤية الخلل إلى القول بأن النظام لا حد لنهايته، فهو ترق في الوصف، يقول أولاً: إن النظام لا خلل فيه، ثم يقول: بل الأمر أعظم من ذلك، وضرب مثلاً بالسراج وبالكواكب كل هذه المعاني تؤخذ من التعبير بلفظ «مصابيح»، ولعمري من هذا تشم بلاغة القرآن، وبهذا فلتعرف عبر بالمصابيح مشيراً إلى عدم تناهي الحسن ودقة النظام، وليس عند نوع الإنسان من قوة يدرك بها علو النظام وغاية الإتقان أكثر من التعبير بـ «مصابيح»، وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾ إتمام للكلام على النظام، يقول: إن النظام المتناهي في الحسن لا يتم إلا بجمع الأضداد بحيث لا يكون أحد الضدين بدون الآخر، فهذه المصابيح التي زينا بها السماء لا تقف عند الزينة، بل بأضواء الكواكب والشموس يكون ما في الأرض من رزق وحياة وموت تبعاً للناموس الذي سنناه، والقدر الذي أمضيناه، فيكون في العالم الإنساني وعالم الأرواح التي فارقت أجسادها نفوس تتقاذفها الأهواء في عالم المادة، وتصطهر بأنواع الذنوب والشهوات في الدنيا، وتقتحم ما نهينا عنه بحيث تفتنها الشهوات وتجذبها اللذات التي نجمت من العناصر المتفاعلة بسبب الأضواء المشعة النازلة من عالم الكواكب المشرقة في السماء التي هي زينتها، فهي كما كانت زينة السماء؛ وأسباباً لرزق ذوي الصلاح والأنبياء والعلماء والحكماء؛ هكذا هي سبب لتكون الأرزاق المهيجة لشهوات شياطين الإنس وشياطين الجن، وهذا العالم قد اختلط فيه الضر بالنفع بحسب ما يظهر، وخلق كل على حسب ما استعد له، فالنفوس التي هي مستعدة للفضائل والنفوس الشريرة كلاهما استمد من هذه المادة المسخرة المقهورة بالقدرة التي أضاءت الكواكب فأشرقت عليها وبها تكونت صور الحيوانات والنباتات، فإذن النجوم صارت سبباً لعذاب النفوس الخبيثة بما سببت لها بأمر الله غذاءها وشهواتها، ومن ذلك أن المنجمين تكون لهم فيها رجوم وظنون، فهم أيضاً من شياطين الإنس، فالعصاة شياطين، والمنجمون شياطين، والمعاندون الجاحدون شياطين، كل هؤلاء استمدوا شيطنتهم من مظاهر الطبيعة المصورة بواسطة الحرارة والضوء من الكواكب، وهذا معنى قوله: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾ أي: في الآخرة، فمن كان محترق القلب باللذات في الدنيا وانجذب إلى الشهوات وقالت له نفسه هل من مزيد منها، وغفل عن جمال هذه العوالم، ولم يعرف من هذه العوالم إلا شهواته، أما عقله فإنه قد حجب عن الجمال والكمال، فهذا هو الذي هيئ له عذاب السعير على مثال ما عود نفسه في الدنيا.

إن الجمال في العالم الذي لا حد له المندمج في ذكر مصابيح لا تعرفه النفوس المحجوبة. إن السماء قد أضاءت على البر والفاجر، فالفجار حصرت نفوسهم في شهواتهم فلم ينظروا إلى السماء فوقهم نظر فكر وعقل، وكأنه قيل: ارجع البصر يا محمد هل ترى من اختلاف في طراز هذا العالم، بل ليس لهذا النظام نهاية في الحسن، ولكن ليس يعقل هذا إلا نفوس شريفة لم تنحصر في شهواتها،

بل كان لها إدراك يفوق غيرها من الناس، فأما الشياطين وهي النفوس الناقصة فليس لها حظ من الحياة إلا ما به قوام الجسم، وكما أن أنوار الشمس فيها حرارة وضوء، وبالحرارة تكون الحياة، وبالضوء تكون الهداية، هكذا النفوس الناقصة لم تأخذ من آثار الكواكب والشموس إلا ما به الحياة الناجمة من آثار الحرارة، أما هداية العاقلة التي ترسمها الأضواء للأبصار وتتلقاها البصائر بالبحث والتنقيب؛ فهؤلاء الشياطين مبعدون عنها، وهؤلاء هم الذين أعددنا لهم عذاب السعير في الآخرة، لأنا نضع كل شيء في موضعه، فندخلهم فيما يشاكل حالهم في الدنيا وهم كانوا محبوسين في نيران الغضب، ونيران الحرص، ونيران البخل، ونيران الحقد، ونيران الطمع وهكذا، فهذه النيران كلها تطلع على القلوب بعد الموت ويوم القيامة، ثم تصير ناراً مشاهدة يراها كل امرئ ملازمة، ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾[الفرقان: ٦٥].

ولما كان الكفار من شياطين الإنسان أو تلاميذهم الذين يصغون لوسوستهم أعقبه بقوله: ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٦ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا ﴾ صوتاً كصوت الحمير ﴿ وَهِيَ تَفُورُ ﴾ تغلي بهم غليان المرجل بما فيه ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ تتفرق غضباً عليهم، وهذا من باب الاستعارة التمثيلية يمثل شدة اشتعالها بهم ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ ﴾ جماعة من الكفرة ﴿ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ يخوفكم هذا العذاب، وهذا سؤال توبيخ ﴿ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ والمعنى أفرطنا في التكذيب ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ ﴾ كلام الرسل فنتقبله اعتماداً على ما لاح من معجزاتهم ﴿ أَوْ نَعْقِلُ ﴾ فنتفكر في حكمه ومعانيه مستبصرين حتى نوقن بعقولنا ﴿ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ في عدادهم ﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ ﴾ حين لا ينفعهم، والاعتراف إقرار عن معرفة ﴿ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ أي: بعداً، أي: أبعدهم الله من رحمته. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ ﴾ يخافون عذابه حال كونه غائباً عنهم لم يعاينوه بعد، أو حال كونهم هم غائبين عنه ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم ﴿ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ فلا نسبة بينه وبين لذات الدنيا.

ثم أخذ يشرح عموم علم الله بالغيب والشهادة لمناسبة قوله: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾[الآية: ١٢] ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي: بالضمائر قبل أن يعبر عنها سراً أو جهراً ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ ألا يعلم السر والجهر من أوجد الأشياء على مقتضى علمه وحكمته، وكيف يخلقها وهو لا يعلمها؟ ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ ﴾ باستخراج ما في الصدور ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ بما فيها من السر والوسوسة، فهو حقيق إذن أن يخشى بالغيب. فكأن هذه الآيات لتبيان أن خشية الله بالغيب واجبة، ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا ﴾ لينة سهلة ليسهل لكم السلوك فيها ولا يمتنع المشي فيها لحزونتها وغلظها، وخلق فيها أنواع المعادن والحجارة والطين وسائر المواد التي تصلح للأنواع المختلفة من الصناعات والأعمال، فمن طين خاص للأواني إلى حجارة مختلفة للبناء، إلى جبال طلقة للهواء وأخرى مكسوة بالأشجار، إلى أرض صالحة للزرع، إلى أخرى لا تصلح ولكن تستخرج منها المعادن إلى صحاري واسعة وفيافي قاحلة كالتي بين مصر وطرابلس، يقل فيها الماء لتصعب سكناها لتكون

فاصلة بين الممالك، ليقل تحرش بعضها ببعض، ولينظف فيها الهواء من العفونات ويلطف ويكون بمثابة مرشح الماء ليصلح للشرب إلى جهات ثلجية في القطبين تبقى مئات الألوف أو عشراتها لتستريح من الأعمال النباتية والحيوانية، حتى إذا جاء أجلها أديرت الأرض دورة بحادث فجائي، فصار القطب خط استواء وبالعكس، ويبتدئ دور العمل، والدليل على ذلك أن جهة القطبين قد وجد بالقرب منها فيلة عظيمة مطمورة في باطن الأرض، مما دل على أن هذه الجهات كانت خط استواء فانقلبت فجأة إلى قطبين، فالأرض مذللة لنا وفيها ما لا يحصى من المنافع، فلذلك أعقبه بقوله: ﴿ فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ في جوانبها مشياً عقلياً ومشياً عملياً، فالعقلي بالاستدلال والبحث في منافعها، والعملي باستخراج ما فيها من المنافع والمعادن ﴿ وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ والتمسوا من نعم الله ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ المرجع، فيسألكم هل شكرتم نعمه؟ هل قبلتموها وانتفعتم بها حتى تؤدوا شكره؟.

ولما ذكر نعمه أخذ يحذر من عقوبته فقال: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴾ أي: أأمنتم الله الذي هو في السماوات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم، أي: أأمنتم خسفه بكم الأرض كما خسف بقارون، فإذا هي تضطرب، أي: تحرك الأرض عند الخسف بكم حتى يقلبكم إلى أسفل وتعلو الأرض عليكم وتمور فوقكم وتجيء وتذهب، ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ أي: ريحاً ذات حجارة صغار كما فعل بقوم لوط، ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ كيف إنذاري إذا شاهدتم المنذر به ولكن لا ينفعكم العلم حينئذ، وكيف يأمنون من في السماء أن يصب عليهم العذاب من فوقهم ومن تحتهم، وقد ذلل لهم الأرض وزين لهم السماء بمصابيح، فإذا لم يشكروا النعمة بالبحث فيهما والانتفاع والتفكر فهو حري أن يقلب النعمة نقمة، فإذا زين السماء وذلل الأرض فهو قادر أن يجعل المزين والمذلل للتعذيب لا للإنعام إذا لم يكن للنعمة موضع، وكيف يأمنون ذلك وقد حصل لمن قبلهم من الأمم، ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي: إنكاري عليهم بإنزال العذاب تارة من تحتهم وتارة من فوقهم. إن الله كما ذلل الأرض وزين السماوات لم يذر ما بينهما بلا نظام ورحمة، ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ ﴾ في الهواء ﴿ صَـٰٓفَّـٰتٍ ﴾ باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها ﴿ وَيَقْبِضْنَ ﴾ أي: ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن وقتاً بعد وقت للاستظهار بذلك القبض على التحريك، والمعنى: ويصففن ويقبضن، وذلك أن الطير في أكثر الأوقات يكون صافاً أجنحته، ثم هو يقبضها، فالبسط هو الأصل، والقبض يكون آناً فآناً، ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ ﴾ في الجو حال القبض والبسط وهن أجسام كثيفة من طبعها أن تقع على الأرض بالجاذبية ﴿ إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُ ﴾ الذي خلقهن على شكل خاص أدهش علماء العصر الحاضر حينما شرعوا في فن الطيران، فأدركوا بعض تلك الحكم التي قاومت طبع الجاذبية وجعلت الهواء مسرحاً للطير كما تسرح الأنعام في البرية. إن هذه الخلقة دقيقة الصنع، حتى إن الطائر في خلقه مختصر من الأنعام فوق الأرض فلكل عضو كثيف في الأنعام عضة يقابله في الطير غاية في الخفة أو الصغر أو اللطف، فكيف ترى الجناحين قد خف حملهما وقد كسيا بالريش الخفيف المكون من أنابيب مجوفة وشعرات حريرية، وجعل لها المنقار مدبباً كي لا تصادم الهواء في طيرانها فيعيق جريها، بخلاف ذوات الأربع فإن

وجوهها عريضة وأرجلها المقدمة القائمة مقام الجناحين ثقيلة منتهية بما تعتمد عليه عند سيرها في الأرض من حافر أو خف أو ظلف، لذلك أعقبه بقوله: ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ أي: يعلم كيف يخلق الغرائب ويدبر العجائب، وإذا كانت هذه بعض العجائب التي أبرزناها والحكم التي أظهرناها فهل أمنتم أن ندبر بحكمتنا عذاباً نصبه عليكم صباً، فنحن نغير النظم بحكمتنا، فقد أبدعنا الطيور في الجو فقويت على مغلبة ثقلها فلم تسقط على الأرض، هكذا نحن نقدر أن نغير حالكم ونهلككم بقدرتنا وحكمتنا، فمن ذا الذي ينصركم منا؟ ألكم جنود يمنعونكم من عذابنا وقد رأيتم سطوتنا وبطشنا؟ ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴾ لا معتمد لهم، وعبر بلفظ «الرحمن» في مقام العذاب إشعاراً بأنه برحمته أبقى الناس في الأرض مع ظلمهم وجهالتهم، لأن رحمته وسعت كل شيء، وسعت البار والفاجر، والطير في السماء، والأنعام على الأرض، ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ﴾ أم من يشار إليه، ويقال: هذا الذي يرزقكم إن منع المطر عنكم أو أوقف الهواء فلم تجر الرياح، أو جعل ماء البحر غوراً، ومحصل ذلك أنكم لا جند لكم ينصرونكم إن عذبكم، ولا رازق يرزقكم إن حرمكم. فلما لم يتعظوا أضرب عن ذلك وقال: ﴿ بَل لَّجُّوا ﴾ تمادوا ﴿ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ في عناد وشراد عن الحق ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ يقال: كببته فأكب، أي: أمن يمشي وهو يتعثر كل ساعة ويخر على وجهه لوعوث طريقه واختلاف أجزائه أهدى يمشي قوياً سالماً من العثار على طريق مستوي الأجزاء والجهة، فالمكب على وجهه مثل المشرك، والذي على صراط مستقيم مثل الموحد، وهذا المكب على وجهه هو الذي يحشر على وجهه في النار يوم القيامة، ومن يمشي سوياً الآن بالتوحيد هو الذي يحشر على قدميه إلى الجنة.

ولما ذكر فيما تقدم زينة السماء وتذليل الأرض وإمساك الطير في الهواء أخذ يذكر ما هو أقرب إلينا وهو خلق أنفسنا، فقال: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ لتسمعوا المواعظ ولتنظروا صنائعه فتبتهجوا بزينة السماء بالكواكب وتسخير الأرض وتذليلها، وتعقلوا كيف أمسك الطير في جو السماء، ﴿ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ لتفكروا فيما ذكر وتستفيدوا فوائد مادية وأخرى عقلية ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ باستعمالها. ثم لخص هذا كله فقال: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فقوله: ﴿ ذَرَأَكُمْ ﴾ أي: خلقكم، يشمل السمع والبصر والعقل ومنافع الأعضاء، وقوله: ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يشمل جميع المنافع المذكورة من تذليلها وتسهيلها وإشراق الكواكب عليها الخ، وما فوقها من طيور في الجو. وقوله: ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أي: للحساب، هل شكرتم هذه النعم؟ هل فكرتم فيها؟ هل عقلتم ذلك؟.

ولما أتم الكلام على النعم والحساب عليها أخذ يذكر المنكرين لتلك النتيجة الغائبة عنا وهي الحشر والعقاب، فقال: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾ أي: الحشر وما يتقدمه من الخسف في الدنيا وإرسال الحاصب ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أيها النبي والمؤمنون ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي: علم وقته ﴿ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أبين لكم الشرائع ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ ﴾ أي: العذاب الموعود ﴿ زُلْفَةً ﴾ أي: حال

كونه قريباً منهم ﴿ سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي: ساءت رؤية الوعد وجوههم بأن علتها الكآبة والمساءة، وغشيتها القترة والسواد ﴿ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴾ أي: وقال الزبانية: هذا الذي كنتم تسألون تعجيله وتقولون ائتنا بما تعدنا استهزاء، فقوله: ﴿ تَدَّعُونَ ﴾ على هذا من: الدعاء، لا من الدعوى، فهو على وزن تفتعلون، ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ ﴾ أماتني ﴿ وَمَن مَّعِيَ ﴾ من المؤمنين ﴿ أَوۡ رَحِمَنَا ﴾ بتأخير آجالنا ﴿ فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ وهذا القول لمشركي مكة الذين كانوا يتمنون هلاكه صلى الله عليه وسلم ومن معه، يقول: إن هلكنا أو رحمنا فلا مجير لكم من العذاب، وقد فسرها ابن عباس بما يأتي:

﴿ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ ﴾ أي: فعذبني ﴿ أَوۡ رَحِمَنَا ﴾ أي: فغفر لنا، فنحن مع إيماننا خائفون في أن يهلكنا بذنوبنا، لأن حكمه نافذ فينا، فمن يجيركم أو يمنعكم من عذاب أليم وأنتم كافرون؟. اهـ.

ثم قال: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ منا ومنكم ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا ﴾ غائراً في الأرض بحيث لا تناله الدلاء ﴿ فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ ﴾ جار أو ظاهر سهل المأخذ، أي: أخبروني إن صار ماؤكم ذاهباً في الأرض فمن يأتيكم بماء ظاهر تراه العيون؟ إذن لا بد أن يقولوا: هو الله تعالى، حينئذ يقال لهم: فلمَ تجعلون معه من لا يقدر على شيء أصلاً شريكاً له في العبادة. انتهى تفسير السورة اللفظي، والحمد لله رب العالمين.

لطائف هذه السورة:

(١) في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ ﴾[الملك: ٢].

(٢) وفي قوله: ﴿ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾[الملك: ٥] الخ.

(٣) وفي قوله: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ ﴾[الملك: ١٩].

(٤) وفي قوله: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ ﴾[الملك:٢٣] الخ.

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ ﴾

لننظر الآن لمَ قدم الموت على الحياة، وكيف يبتدئ السورة بما يفيد أن خيره عام شامل، ثم يبتدئ بذكر الموت مع أن الموت عدم، والعدم ليس خيراً، لا كثيراً ولا قليلاً؟ فنجيب على ذلك فنقول:

إن النظر السطحي في هذه الأرض التي نسكنها والجهل هما اللذان جعلا أهلها معذبين، فالجهل سبب العذاب في الدنيا بالذلة، وسبب العذاب في الآخرة بجهنم وبأنواع الذل والإهانات، ومن الجهل عدم فهم نعمة الموت، إن الموت مزرعة الحياة وحقلها، ولولا الموت لم تكن الحياة، فتقديم الموت أشبه بتقديم السبب على المسبب والأصل في الفرع، وإيضاحه أن نقول:

إن الحيوان والنبات هما اللذان يعتريهما الموت والحياة، وقد وضع الله في طبيعة أكثر النبات وأكثر الحيوان كثرة الذرية كثرة مفرطة جداً، وتلك الكثرة الطبيعية لحكمة، وهي أنها تكون ضماناً لبقاء الأنواع على الأرض، فلولا هذه الكثرة المفرطة لانقرض كثير منها ولم يعوض بمثله في الأرض، فلو تركت تلك الذرية المتعاقبة حيناً من الدهر لامتلأ وجه الأرض بالحيوان فلم تعد الأرض تصلح لحيوان جديد، فموت هذه المخلوقات وسرعة فنائها هي النعمة العظمى لأنها تخلي وجه الأرض لما

بعدها، فالموت أشبه بالتخلية، والحياة أشبه بالتحلية، وهذا هو السر في تقديم الموت، ولأضرب لك مثالاً لذلك فأقول:

(١) إذا نظرت إلى مقدار ما في النخل من لقاح، وما في الذرة مما ينتشر في الهواء أو يقع على الأرض تجده لو صادف صلاحاً وأثمر كله لم تسعه الأرض.

(٢) كلنا نرى السمك وما في باطنه من المقادير الكبيرة من البيض الصغير الدقيق جداً وهو عدد غزير كثير يسمى «البطروخ»، يأكله الناس ويباع في الأسواق، فلو أن هذا البيض كله صار سمكاً لأصبح البحر الملح قطعة جامدة.

(٣) نرى أن في البيوت من أنواع الحشرات كالبق والبراغيث وأمثالها ما لو تركت ولم يهلكها الناس ولم يسلط عليها البرد فيهلكها وغيرها من الحشرات كالجراد وغيره؛ لأصبحت الأرض كلها مغلفة بطبقة منها فامتنعت الحياة عليها.

(٤) ذكر العلامة «وولاس» عشباً ينتج من البذر كل سنة ثلاثة أرباع مليون بذرة، وقدر أنه لو عاش هذا النسل ثلاث سنين فقط وأعقبت كل بذرة في هذه المدة ما بقي مكان في الأرض غير مغطى بها، وقال: لو أن كل نبات أنتج حبتين اثنتين في السنة واستمر النسل على الإنتاج لبلغ عدد الإنتاج في السنة الحادية والعشرين ١,٠٤٨,٥٧٦.

(٥) إن بعض الحيوانات الدقيقة المسماة «ميكروبات» إذا استمرت على التوالد مدة خمسة أيام بدون انقطاع لملأ المحيط كله بنسله إلى عمق ميل.

(٦) وميكروب الوباء «الكوليرا» الذي يتضاعف كل عشرين دقيقة لو مضى عليه يوم واحد وهو يسير بهذا المعدل بلا عائق لبلغ وزنه ٧٣٦٦ طناً وبلغ عدده رقم ٥ وإلى يمينه ٢١ صفراً.

(٧) والفيل معلوم أنه أبطأ الحيوان ولادة، فإن الفيلة لا تلد إلا مرة واحدة كل عشرين سنة، وقد حسب أحد العلماء أنه إذا استمر التناسل بدون عائق لبلغ نسل الزوجين بعد ٧٥٠ سنة ١٩ مليون فيل.

(٨) الجراد كثيراً ما يهجم على القرى والمزارع وهو كالسحاب فيأكل ما أمامه، ومتى لم يجد ما يأكله أكل بعضه بعضاً.

(٩) السمك الذي يشرب الناس زيته لتقوية الجسم، تبيض في العام الواحد الواحدة من أناثيه مليوني بيضة، فلو أصبحت كل هذه البيضات المستخرجة من سمكة واحدة في سنة واحدة سمكاً لصار البحر كتلة جامدة.

(١٠) بعض المحار في البحار تبيض الواحدة ستين مليوناً من البيض، وهذا النسل لو بقي كله ما بين عام وعامين لزاد على الكرة الأرضية.

(١١) الذباب الذي ينغص عيش الإنسان إذا تكاثر أمامه تبيض الأنثى منه خمس أو ست مرات، وفي كل مرة تبيض من ١٢٠ بيضة إلى ١٥٠ بيضة، فلو عاشت كلها لم يعش شيء على الأرض معها. هذا قلّ من كلّ من سرعة تكاثر الحيوان والنبات، فلولا الموت لم تكن حياة، هذا هو السر في تقديم الموت على الحياة.

(١٢) ربما كان حيوان يعيش على آخر، فإذا انقرض ذلك الآخر مات الحيوان، مثال ذلك الثعابين تعيش في بعض البلاد على الجرذان، وبموت الجرذان وانقراضها تموت الثعابين وتنقرض من تلك الجهة، فإذا كثرت القطط أكلت الجرذان وبفنائها تفنى الثعابين، إذن تكون حياة القطط هلاكاً لنوعين: الجرذان والثعابين، وذلك في بعض البلاد، وهذه رحمة عظمى.

(١٣) جراثيم المرض المسمى «الملاريا» إنّما تعيش في جسم الناموس، فإذا أزيل الناموس زال معه ذلك الحيوان المهلك.

(١٤) لولا حياة البقر ما ابتلي الإنسان بالدودة الوحيدة، إنها تعيش أولاً في لحم البقر، ثم تنتقل إلى جسم الإنسان وتعيش في أمعائه، فلو لم يكن بقر لم تكن دودة وحيدة.

بهذا وأمثاله من الحكمة التي أشرقت بها الأرض وأضاء نورها نعرف نعمة الله في الموت، ونعرف السر في تقديم الموت على الحياة في هذه السورة.

يا سبحان الله، ظهر أن الموت نعمة على الأحياء، هو أصل الحياة لمن في الأرض لغير الميت، ولكن هل هو نعمة للميت؟ نعم هو نعمة كبرى لسببين: الأول: أن ينتقل من هذه الأرض الضيقة التي ضاقت صدورها وضاقت هي بمن فيها فكثر الموت. الثاني: أن يدخل في عالم أوسع منها، فهذا من سر تقديم الموت على الحياة.

البلاغة في القرآن

انظر أيها الذكي لكلمتين في هذه السورة: «الموت» في أولها، ولفظ «مصابيح» في وسطها، وكيف اختير اللفظان فيها، انظر كيف كان تقديم الموت على الحياة نظر فيه لعلم الطبيعة والتاريخ الطبيعي، وكيف كان اختيار لفظ «المصابيح» لذلك الجمال وللموازنة بين نظامنا في بيوتنا ونظام العالم كله كما تقدم، وليكون مذكراً بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾[النور: ٣٥]، فمثل هناك لنظام الله في العالم بنظام مصباحنا حتى نعقل كيف نظم على مقدار عقولنا.

وهنا يشير إلى أن نوازن ما بين الدقة هناك والضعف هنا، فنرى ما لا يتناهى من المحاسن في ذلك النظام، مثل هذه المعاني لا يدركها ولا يعقلها من قصروا بلاغة القرآن على أساليب الكلام، وقد بينا بعضه في سور كثيرة ووازنا بينه وبين كلام العرب، فأين الثريا وأين الثرى، من أين للبليغ اللفظي أن يستعرض علوم الحيوان والنبات لأجل تقديم لفظة على أخرى؟ من أين له أن يستعرض نظام الكوكب ونظام البيوت لأجل لفظة جاءت مجازاً، فالحق والحق قلت: إن هذا القرآن يطلب جميع العلوم، فليدرس المسلمون علوم الطبيعة، وعلوم الفلك، وعلوم هذه الدنيا كلها، وإلا فلا رقي لهم ولا قرآن لهم إلا ما تحفظه الأطفال ويعربه النحويون ويستدل به الفقهاء في أحكام القضاء، ثم يحرمون من كل نعيم في الحياة بعد ذلك في الدنيا والآخرة، ولقد نصحت وأفرغت جهدي، وسيتولى الله الأمة برعايته، ويحيطها بكرامته، ويحرسها بكلاءته. انتهى الكلام على اللطيفة الأولى، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾

لقد كتبنا فيها في سورة متقدمة، وفي هذه السورة، قال الله في سورة «الصافات»: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ ﴾ وهنا قال فيها: ﴿ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ٥]. فهاهنا أمران: طرد عن الاستماع، وعذاب في الآخرة. إن كل ما في القرآن من عذاب في الآخرة يتقدمه عذاب في الدنيا، فهذه الشياطين في الدنيا محجوبون عن الاستماع، وفي الآخرة لهم جهنم، وإن أردت أن تفهم نتائج هذه المعاني بنفسك فانظر في أمتك التي أنت فيها، وتأمل الناس حولك فاجلس في مجلس عام وخاطبهم بجمال النجوم وبهجة هذا العالم، فإنك ستجد قليلاً منهم يفرحون، والباقي لا يبالون، فهؤلاء الذين لا يحبون هذه المباحث هم تلاميذ الشياطين الذين هم عن السمع معزولون، تلك الشياطين عزلت عن السمع لما في العالم الأعلى، وهؤلاء نظراؤهم عزلوا عن معرفة بهجة العلوم، وهي من بهجة العالم الأعلى، فأولئك عن السمع معزولون، كلاهما غير مستعد لهذه الأمور العجيبة، ثم تأمل أيضاً في الناس حولك تجد الجهال منهم قد تلوح منهم التفاتة إلى العلماء، فيحزنون على جهلهم، وقلة علمهم، وحرمانهم من التمتع بالمباحث العلمية الشريفة، فهذا مبدأ العذاب في الدنيا، وسيكون بعد الموت ويوم القيامة أشد، فينتقل من العذاب النفسي ويرتقي إلى الجسمي، فهذا أثر من آثار هذه الآيات تراها في الدنيا وأنت حي ترزق. انتهى الكلام على اللطيفة الثانية، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾

والكلام عليها في مقامين:

المقام الأول: في علم الطيران الحديث ومناسبته لطيران الطير.

المقام الثاني: في بنية الطيور، وأن أجسامها مختصرة من أجسام ذوات الأربع.

المقام الأول

إن قارئ هذه الآية يمر عليها مر الكرام، يقرأ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾ [الملك: ١٩] وقد خرج منها خاوي الوفاض، بادي الأنفاض، يمر عليها كما يمر الطير في الهواء، ولكن مسألة طيران الطير ليست سهلة المتناول، إنها أمرها عجب، ولقد مرت العصور والدهور والناس يقصون في حكاياتهم ويتخيلون أنه لو كان لهم أجنحة كأجنحة الطير لطاروا إلى أحبابهم، وسعدوا كما سعد الطير في طيرانه في الهواء، ألا ترى أن هذا مذكور في قصة حسن الصائغ البصري، وفي آداب اليونان ما يشير إلى ذلك الخيال، ولما أفاق الإنسان من سباته العميق أخذ يفكر عسى أن يكون هذا الخيال يوماً ما حقيقة، وعسى أن يتاح له أن يطير كما يطير الطير، ظن الناس أن الإنسان ليس عليه ألا يجعل له ريشاً كريش الطائر بحيث تكون نسبته إلى جسمه كنسبة ريش الطائر إلى جسمه، وتكون أجنحته أيضاً على تلك النسبة، فكر الناس في ذلك وقاموا بهذه التجربة، وأذكر لك منهم:

(١) رجلاً إيطالياً في بلاط الملك جيمس الرابع الاسكتلندي في بدء القرن السادس عشر.
(٢) وبعد ذلك بنحو قرن قام راهب ألماني بالتجربة أيضاً.
(٣) وحاول مركيز فرنسي عاش في أواسط القرن الثامن عشر أن يطير بالأجنحة.
(٤) وعباس بن فرناس صاحب صحاح الجوهري.

فهؤلاء الأربعة نموذج لمن حاولوا الطيران قبل هذا القرن الذي نحن فيه فأخفقوا جميعاً، وأما الأول فإنه لما حاول الطيران لعبور بحر المانش، وقد استعد بجناحين عظيمين مصنوعين من ريش طيور مختلفة، وثب عن برج قصر «سترلنغ»، فهوى إلى الحضيض فكسر عظمه ورض جسمه ومات، والثاني سقط فمات كذلك، والثالث وهو المركيز حاول أن يقطع نهر الرين، فعمل تجارب، فبدا له أن يقلع عن العمل فنجا، والرابع أراد أن يطير فسقط فمات كما هو معروف، هذه أول خطوة.

الخطوة الثانية: في هذه الخطوة رأى الإنسان أن طيران الطير ليس بقوة الأجنحة فحسب، وإنّما هناك أمر آخر، فليس يكفي الإنسان أن يلبس ريشاً على النسبة المتقدمة ليطير. كلا. والذي عرف ذلك رجل يسمى «بورلي» سنة ١٧١٣م، فدرس حركات الطيور، وقدر قوة عضلاتها الصدرية، فتبين له عجز الإنسان أن يضارع الطير بهذه الوسيلة، كما ثبت بالاختبار أن الإنسان فشل في هذه التجربة، فيئس الناس من الطيران.

الخطوة الثالثة: عمل المناطيد: في هذه الخطوة وقد يئس الناس من الطيران كالطير رجعوا إلى مسألة السفينة في البحر. إن السفن إنّما تسير في البحر لأنها مصنوعة بطريقة خاصة بحيث يكون حجمها أكبر من حجم الماء الذي يماثلها وزناً، فلو أن حجمها كان أقل من حجم الماء المذكور لغرقت هكذا هنا صنعوا المناطيد من مواد خفيفة تكون أخف من الهواء، كما أن السفينة أخف من الماء، كما نرى الريش يطير، وكما نرى طيارات الأطفال في الأعياد، وكان اختراع المنطاد سنة ١٧٨٢م، فلم يكن غير ثلاث سنين حتى قطع بحر المانش من «دوفر» إلى «كاليه» في المنطاد سنة ١٧٨٥م، والذي قام به «جان بيار بلانشاد» وهو معدود من أكابر الذين جادوا بأنفسهم، وهو معروف عند جميع المشتغلين بهذا الفن، ومعنى هذا أن الإنسان لا يمكنه أن يطير لأن جسمه أثقل من الهواء، فالمنطاد شيء وطيران الإنسان في الجو شيء آخر، وبقي الناس في حيص بيص من أجل طيران الإنسان كما يطير الطير. الطير يطير وجسمه أثقل فلمَ لا يطير الإنسان؟ وقد عرفنا أن الأجنحة لا تكفي فأين السر إذن؟وهنا جاءت:

الخطوة الرابعة: وابتداؤها سنة ١٨٩١م، إذ قام «ليليانتال» وراقب الطيور في حركاتها عشرين سنة، وبنى عدة على شكل طيارة منبسطة الأجنحة، ووضع آلة للموازنة في طيارته، وقوة محركة لإطالة مدة الطيران، وقال: إني درست من هذه الطيور أن سر الطيران يتم للإنسان إذا تسنت له قوة رافعة كافية لأن تدفعه بالسرعة الواجبة للارتفاع عن الأرض، وحينئذ يمكنه أن يحوم في الفضاء كما يشاء، ولكنه مع نجاحه المبدئي أيضاً سقط فمات سنة ١٨٩٦م.

ومما كشفه أيضاً أن الأجنحة المحدودة فيها قوة للرفع تزيد عنها في الأجنحة المنبسطة، ولكن كان هناك شابان أمريكيان في تلك الآونة هما الأخوان «ويلبور» و«أورفيل رايت» يشتغلان سراً في

بلدهما « دايتن أوهايو » في درس علم الطيران وإجراء الامتحانات الصغيرة الابتدائية من المركبات الهوائية، وقد كان محركهما إلى ذلك نجاح « ليليانتال » في الامتحانات التي قام بها بما اصطنع من الطيارات المنبسطة الأجنحة والمسيرة بالقوة، لكنهما لم يعمدا إلى بنيان مركبة كبيرة قبل سنة ١٩٠٠، ومنذ ذلك العهد أخذا يمتحنانها ويحسنان فيها ويضيفان إليها حتى كانت سنة ١٩٠٥م، فطار أحدهما في الهواء مسافة أربعة وعشرين ميلاً في مدة ثمانية وثلاثين دقيقة فوق حقل بالقرب من بلدهما، فكان الأخوان أول من وفق إلى النجاح في اكتشاف سر مبدأ الطيران وفتح مملكة الهواء لمساعي الإنسان.

وفي سنة ١٩٠٧م أعلنت حكومة الولايات المتحدة رغبتها في الحصول على طيارة من أوصافها أن تكون أجزاؤها سهلة التركيب والتفكيك تسهيلاً لنقلها في مدة لا تتجاوز الساعة الواحدة، ومعدة لحمل رجلين يبلغ وزنهما على الأقل ٣٥٠ باونداً، وتقطع مسافة أربعين ميلاً، فجواباً على هذا الإعلان قدم الأخوان إحدى طياراتهما للامتحان، وفي سنة ١٩٠٨ جاء « أورفيل رايت » بالطيارة إلى واشنطن، وفي خلال الامتحانات الابتدائية غير الرسمية طار طيراناً مدهشاً استمر فيه ساعة و٢٥ دقيقة و٢٠ ثانية، ثم أراد القيام بالامتحان الرسمي، فعين الملازم في الجيش « سلفردج » للركوب معه، فحلقت الطيارة في الفضاء، وكانت في بدء الطيران عند رغائب المراقبين، ولكن الرقاص الخشبي انكسر من سرعة دورانه فسقطت الطيارة، وقتل الملازم « سلفردج »، أما « أورفيل » فأصيب بجراح ورضوض بليغة حالت دون إجراء الامتحانات في تلك السنة، ولكن في السنة التالية امتحنت طيارة « رايت » مرة أخرى فأتمت شروط الحكومة التي قبلتها واشترتها ودفعت لمخترعيها الأخوين جائزة مالية قدرها ٢٥ ألف دولار.

أما فرنسا فكان تقدم الطيران سريعاً وعجيباً، لأنه لم يكن أحد قبل بدء سنة ١٩٠٨ قد طار أكثر من ثمانمائة واثنين وأربعين ذراعاً، ولكن لم تنقض تلك السنة حتى كان الطيار الفرنسوي « فارنهام » قد تمكن من الطيران مسافة ٢٥ ميلاً ونصف ميل، وحتى كان « ويلبرت رايت » الأمريكي في أواخر تلك السنة قد طار مدة ساعة و٤٥ دقيقة و٢٢ ثانية وقطع ٦١ ميلاً.

سنة ١٩٠٩م ينزل ذكرها في التاريخ بأنها فاتحة العهد الجديد في فن الطيران، لأن ما تم فيها من الأعمال العجيبة يدل على سرعة تقدم هذا الفن إلى درجة تفوق حد التصديق، ففي الولايات المتحدة طار « كان كورتس » مدة ٦٧ دقيقة ونصف دقيقة، وطار « أورفيل رايت » في « فورت ماير » مدة ساعة و٢١ دقيقة يحمل معه راكباً، وقد قطع مسافة ٥٠ ميلاً، وفي فرنسا ربح « كورتس » الجائزة في السباق الذي جرى في « ريمس »، وقام « بليريو » بطيره التاريخي المشهور، إذ قطع لأول مرة بحر المانش من فرنسا إلى إنجلترا مجتازاً مسافة ٣١ ميلاً في مدة ٣٧ دقيقة، وقام « فارنهام » بطير عجيب استمر فيه ٤ ساعات و١٧ دقيقة و٣٥ ثانية قاطعاً مسافة ١٣٧ ميلاً، وطار كل من « أورفيل رايت » و« الاتام » و« بولهان » فحلق إلى أعلى من ألف وخمسمائة قدم، وطار « بولهان » من لندن إلى مانشستر، وطار « لورتس » من البنى إلى نيويورك، وطار « هملتون » من نيويورك إلى فيلاديلفيا، وطار القبطان « رولز الإنجليزي » من إنجلترا إلى فرنسا، ثم عاد دون توقف، فقطع بحر المانش ذهاباً

وإياباً في مطير واحد، وما زال فن الطيران في ذلك العهد بين تجربة واختبار واصطلاحات وتحسينات وإضافات هامة حتى قام الكونت « زابلين » الألماني المشهور الذي نظر إلى هذا الفن نظرة باحث، فأنشأ في بلده المعامل الكبيرة، وكانت فاتحة أعماله الجليلة اجتياز الأوقيانوس الأتلنتيكي في الهواء، وبعدها ابتدأ ببناية المناطيد الهوائية التي تنقل الركاب، جاعلاً لها أوقاتاً محددة للسفر على نحو ما هو الأمر مع البواخر والقطرات الحديدية، فما فكر فيه الكونت « زابلين » الألماني من عشرات السنين يفكر فيه الآن دول الحلفاء ويقومون بتنفيذه، كان فن الطيران في عهد طفوليته يوم استلم زمامه الألمان، وهذا ما وجه له الأنظار والأفكار بمزيد الاهتمام، ولا سيما من حيث استخدامه في الحرب للاستكشاف والدفاع والهجوم براً وبحراً، ولقد كان للمركبات الهوائية « الأيروبلين » أو بساط الريح شأن يذكر في الحرب العالمية الماضية، من سرعة قضاء المهمات، أو من حيث قيام رجل أو اثنين في مركبة هوائية بما لا يقدر على القيام به غير كوكبة من الفرسان.

وتستخدم الطيارات في تدمير الأساطيل وتشتيت الجيوش وتخريب الحصون برمي القذائف الانفجارية من علو لا ينالها فيه رصاص البنادق وكرات المدافع.

هاأنا ذا لخصت لك علم الطيران، فمن أجنحة أهلكت الطائرين، ومن يأس قعد بالطائر، إلى منطاد يطير بخفته، إلى طيارات تطير كما يطير الطير، أجسامها ثقيلة ولها محركات وقوات موازنة وترتفع بقوة ثم تحوم إلى أساطيل في الهواء تحمل الجيوش والمدافع، وأنواع التجارات المختلفات، حتى يخلو وجه الأرض من الطرق الحديدية. لعلك تقول: إنك قرأت موضوعاً فكتبته لمناسبة الآية، وأي علاقة للآية بهذا التاريخ الطويل العريض؟ أقول لك: إن الآية بهذا القول يظهر سرها، أليس من العجب أن « ليليانتال » أخذ يدرس الطيور في طيرانها عشرين سنة! لمَ هذا كله؟ ولمَ كان الطيارون في أول أمرهم إذا طاروا بالأجنحة يموتون؟ ولمَ لجؤوا إلى ألا يطير إلا المناطيد، ونكصوا على أعقابهم فلم يجسروا على طيران الإنسان؟ ثم ما هذا الجهد والجد والعناء كله؟ ثم لم يوفق الناس إلا في أيامنا هذه للطيران، ومعنى هذا كله أن قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾[الملك: ١٩] لا تعرف بعض حقائقه إلا بهذا العلم، أي أن طيران الطائر ليس أمراً سهلاً كما يتصوره الناس، فما هو إلا أن يزود بأجنحة ويطير. كلا. فقد سقط الناس وماتوا لما ظنوا ذلك، وإذا قلنا: إن السفينة تجري فوق البحر؛ فالطير ليس على هذا النظام، بل الطير جسمه أثقل من الهواء، أما السفينة فجسمها أخف من الماء الذي على مقدار حجمها، ولذلك تزيح من ماء البحر على مقدار وزنها.

ولم يعرف الإنسان سر الطيران حتى قطع شوطاً بعيداً، فقوله: ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ [الملك: ١٩] ليس مما يدرك بسهولة، بل يدرك بهذا العلم، أي: إن هذا العلم هو الذي نعرف منه مقدار الصنائع والدقائق والحكم التي أودعها الطائر حتى طار، إن كل شيء في نظر الجاهل سهل، وفي نظر العالم يحتاج إلى أبحاث. يا ليت شعري: من كان يظن من أمم الأرض قبل هذا القرن أن طيران الطائر فيه هذه الحكم والأسرار.

بهذا نفهم في هذا العصر وحده معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾[الملك: ١٩]، هذا العصر هو الذي فيه يظهر سر القرآن وسر الوجود، فإذا كان العالم يظهر سره الآن؛ فالقرآن يظهر سره الآن، لأن هذا فعله وهذا قوله وهما متلازمان، فليقرأ هذا المسلمون وليعلموا: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ۝ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾[البروج: ٢١-٢٢]. وبهذا انتهى الكلام على المقام الأول، والحمد لله رب العالمين.

المقام الثاني: في بنية الطيور
وأن أجسامها مختصرة من أجسام ذوات الأربع

اعلم أن الأصناف الأربعة من الحيوان البري وهي: الأنعام، والبهائم، والسباع، والوحوش؛ أكمل بنية وأتم نظاماً من الطيور والجوارح، وكأن هذين قد جعلا مختصرين من الأربعة الأول، ولو أنك نظرت إلى الطير صافات في جو السماء لخيل لك أنها صورة مصغرة من البقر والجاموس إذا كنت من الناظرين في علم الطبيعة بعقولهم لا مقتصرين على حواسهم، فإذا رأيت أبا قردان وهو يأكل الدود في الأرض المصرية والجاموس يرعى في مرعاه لرأيت للجاموس أسناناً وآذاناً ظاهرة ومعدة وكرشاً ومثانة وخرزات ظهر، وجلداً ثخيناً وشعراً كما كان للغنم صوف وللإبل وبر، وهو ينزو ويلد ويرضع أولاده ويربيها، أما أبو قردان مثلاً وسائر الطيور فإنها مختصرة من الحيوان البري، فليس للطير أسنان ولا آذان بينة ولا معدة ولا كرش ولا مثانة، ولا خرزات ظهر ولا جلد ثخين على أبدانها ولا شعر ولا صوف ولا وبر، وهذا جدول ذلك:

في حيوان البر (المبدل منه)	في الطير (البدل)
الأسنان	المنقار
المعدة	الحويصلة
الكرش	القانصة
الجلد الثخين وما عليه	الريش
الحمل والولادة والإرضاع	البيض وتربية الفراخ
رأس عريضة	مناقير مدببة ورؤوس صغيرة

ثم إن الريش جعل لباساً لها ودثاراً يقيها الحر والبرد، وهو غطاء ووطاء ووقاية من الآفات العارضة، وهو فوق ذلك يعينها على النهوض والطيران، أما المناقير والرؤوس الصغيرة فإنها لو لم تكن كذلك بل كانت كالبهائم؛ لعاقها ذلك عن سرعة الطيران، لأنها تصادم الهواء فيعوقها عن سرعة الطيران. انتهى الكلام على اللطيفة الثالثة، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى:
﴿هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾

يقول الله: إنه أنشأنا، وإنه خلق لنا السمع والأبصار، ثم يقول: إن شكرنا قليل، ويا ليت شعري، أي شكر لمن يخلق في هذا العالم ثم يغادره وهو غافل عما فيه، هذه مسألة الطيران يراها أمراً

سهلاً في بادئ النظر، ثم يتضح في آخر الأمر أنها احتاجت إلى أعمار وعصور حتى عرفها الإنسان، وكم في الدنيا عندنا من مجهول، إن أسماعنا وأبصارنا وعقولنا نحن مسؤولون عنها يوم القيامة، ومسؤولون عنها في الدنيا، أما سؤال الدنيا فواضح، إننا لما أهملنا التفكير فيما حولنا حرمنا منافعه، والآخرة أدهى وأمر.

إن المسلمين اليوم مهملون مواهبهم وعقولهم وأسماعهم وأبصارهم، أفلا نخجل حينما نرى أن علم الطير وطيرانه في الجو لم يقم به إلا قوم ليسوا مسلمين حتى اضطررنا أن ننقل أبحاثهم ونجعلها تفسيراً للقرآن.

إن المسلمين لا تظهر مواهبهم التي أودعت فيهم إلا إذا عمموا التعليم للذكور والإناث تعميماً تاماً، ثم اصطفوا منهم طوائف للتعليم العالي، وقامت مدارسهم بكل ما يطلبه المجتمع من تجارة وحدادة وحياكة وكهرباء وما شابه ذلك، بحيث تكون المدارس كلها كأنها مملكة لا تحتاج إلى إبرة من الخارج ولا آلة، فهم الذين يصنعون الآلات والأدوات، وهم الذين يحرثون ويزرعون ويطبخون ويخدمون وينظفون الأواني، وبالجملة يفعلون كل شيء، ولا يفوتهم علم من العلوم الطبيعية والرياضية وغيرها إلا خصص له منهم طائفة. انظر هذا المقام في سورة «آل عمران» عند الكلام على قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾[الآية: ٢٣].

ذلك كله فرض كفاية بإجماع أئمة الدين، وفرض الكفاية إذا أهمل أثم المسلمون جميعاً، فالمسلمون آثمون اليوم، والعذاب واقع الآن في الدنيا بتسلط الفرنجة، وفي الآخرة بعذاب أليم، قال تعالى: ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾[طه: ١٢٧]. انتهى الكلام على اللطيفة الرابعة، والحمد لله رب العالمين.

وإذا فرغنا من الكلام على هذه اللطائف الأربع فلنشرع الآن في ذكر اللطائف العامة التي لم يكن لها وجود عند التأليف، والتي لم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السور للطبع.

اللطائف العامة في هذه السورة

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ﴾.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥ ﴾.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ۝١٩ ﴾.

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى:

﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ﴾

اعلم أن هذه الآية فيها من العلوم المنتشرة اليوم عجيبتان تعدان معجزتين في القرآن، وبيانه أنك إذا نظرت في المادة وفي ألوانها لا تجد أبداً فيها شقوقاً وفطوراً، فإذا رجعنا البصر ألف مرة إلى الألوان

وإلى الأجسام كالحجر والشجر فإننا لا نرى فطوراً، فاعجب ثم اعجب من العلم اليوم في أمر المادة وفي أمر الألوان.

أما المادة فقد تقدم الكلام عليها في مواطن كثيرة، ومن أهمها ما جاء في سورة «النور» عند آية: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]، فإن هي إلا ذرات كهربائية سالبة جاريات حول أخرى موجبة، وعدد حركاتها في الثانية نحو ٦ آلاف مليون مليون مرة، فنراها حجراً وشجراً وجبلاً وجملاً وسحاباً وكتاباً وذئاباً ورحاباً، وبين كل ذرة من ذرات الحجارة والشجر وغيرها فروج وفطور بحيث لو كان على كل ذرة منها سكان تناسبها لم يكن لأحدهم أن ينظر الذرة التي تليها إلا بمنظار معظم.

وبعبارة أخرى: إن الفروج بين كل ذرة من ذرات المادة والأخرى كالمسافة التي بين الأرض وبين النجوم والشمس والقمر، إذن مع كون المادة عبارة عن حركات ضوئية نرى ذراتها غير متصلة، إذن كلها فطور وشقوق، ولكن لشدة الإحكام والإتقان وعدم التفاوت لا نرى شقوقاً تخيفنا وتزعجنا ولا فطوراً، فالمادة مع أنها مفعمة بالفطور بل هي أولها وآخرها فطور تكاد تكون فراغاً كالذي بين السماء والأرض ومع ذلك ترى لا فطور فيها، إذن عالم المادة عجيب، فطور ولا فطور، كما أن أرضنا دائرة غير دائرة، نحن نراها ساكنة ولكنها دائرة لا تهدأ، وذلك لشدة الإحكام والإتقان، وازدياد الأمان لمن عليها.

الفطور في الألوان

وكما قلنا في المادة نقول في ألوانها، ألوانها سبعة: البنفسجية، والنيلية، والزرقة، والخضرة، والصفرة، والبرتقالية، والحمرة، ولم نر في لون فطوراً وشقوقاً، فهذا لون الزرقة الذي يراه الإنسان في السماء فلننظره فهو أحد الألوان السبعة، فإذا نظرناه ولم نجد في المادة التي قام بها شقوقاً لأنها محكمة مع كونها ذات فروج عظيمة جداً وهوات واسعة كما تقدم.

فهكذا نفس الزرقة لا تجد فيها لوناً يداخلها ويقاطعها، وهذا بحسب الظاهر وما نراه بالعين، ولكن الحقيقة أن في كل لون من الألوان السابقة خطوطاً سوداء مقاطعة كشفها وأبرزها في الرسم العلماء، فكل معدن من المعادن له ضوء خاص، وهذا الضوء تقاطعه خطوط سود، وهذه الخطوط السود تختلف في ضوء كل معدن عن الخطوط السود في ضوء كل معدن سواه، وبهذا الاختلاف في الخطوط السود؛ أي: الفطور والشقوق اللونية؛ قدر الناس أن يعرفوا ما في الكواكب والشموس من المعادن المختلفات بخطوطها السود في أضوائها، وبهذه الطريقة عرفوا أن عناصر الأرض من عناصر الشمس.

فهاتان معجزتان قرآنيتان ظهرتا في الكشف الحديث، وعسى أن نزيد المقام تبياناً في سورة «النبأ» عند آية: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [الآية: ١٢].

وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الأولى في قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣]. كتب قبيل الفجر يوم الأربعاء ١٤ ديسمبر سنة ١٩٣٢م، ١٦ شعبان سنة ١٣٥١ هجرية.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾

مسامرة بيني وبين صديقي العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير

حضر اليوم ٣١ مايو سنة ١٩٣٢م وأخذ يحادثني قائلاً: لقد ذكرت في سورة « الذاريات » مجمل الكلام على ضوء الشمس، وكيف عرف الناس منه عجائب وعجائب، ووعدت أنك تشرح المقام كله في هذه السورة، ووعدت أيضاً بذلك في آخر سورة « الحشر »، كما أنك وعدت أن تشرح عجائب النبات وبدائعه بأوضح مما تقدم في التفسير في سورة « النبأ »، فأرجو أن تفي بما وعدت الآن.

فقلت: حباً وكرامة، ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾[الإسراء: ٣٤]، هاأنا ذا أحدثك حديثاً جميلاً، انظر هداك الله إلى ضوء الشمس يأتي من نافذة في مصراع الباب ويدخل في حجرتك، فأما الجاهل فإنه لا يرى في هذا النور سراً ولا علماً وإنّما هو أمر عادي، ولكن أهل العلم يقولون:

أولاً: إن هذا النور بدخوله في الحجرة المظلمة قد أعطانا علمين: العلم الأول: أنه يسير على خط مستقيم، والعلم الثاني: أن هذا النور الذي يسير على خط مستقيم في الحجرة تصحبه حرارة. فهذان علمان: علم أدركناه بحاسة البصر، وعلم أدركناه بحاسة اللمس، فالأول هو الخط المستقيم، والثاني هي الحرارة.

ثانياً: إن هذا النور يدهشنا أمره ونعجب من سره، ذلك أن النور الداخل في الحجرة المستقيم الخط الحار الملمس نراه يحمل صور الأبنية والأماكن والأشجار التي مر بها ولكنه يعكسها فيكون الأعلى أدنى وبالعكس، وذلك بسبب سيره على الخطوط المستقيمة كما ستراه واضحاً قريباً.

ثالثاً: إن هذا النور السائر المستقيم الخط الملازم للحرارة الذي يقلب وضع الصور فيجعل عاليها سافلها سريع السير جداً، فهو يسير في الثانية الواحدة ١٥٧ و ١٨٥ ميلاً في الثانية، ويدور حول الأرض في سبع ثانية واحدة.

رابعاً: إن هذا النور إذا أخذنا مرآة صغيرة وتلقيناه بها فإنا نراه أخذ ينعكس على الحائط في الحجرة، وتكون هناك زاويتان: إحداهما زاوية السقوط، والأخرى زاوية الانعكاس، وهذا مشاهد في الأماكن التي فيها ماء وقد سقط ضوء عليه من النوافذ فإن الضوء ينعكس على الحائط الآخر المقابل لما سقط منه الضوء، وكلما اضطرب الماء اضطربت صورة الضوء المنعكسة على ذلك الحائط، هكذا هذه المرآة كلما حركناها تحرك الضوء المنعكس عنها تبعاً لها، فهذا هو المسمى عند علماء الطبيعة انعكاس الضوء.

خامساً: وبما تقدم يفهم الناس أولاً: لماذا يرون صورهم في المرآة كأن المسافة التي بين صورهم وبين المرآة مماثلة للمسافة التي بينهم وبين تلك المرآة. ثانياً: لماذا تكون أيمانهم في الصورة جهة الشمال ولماذا تكون شمائلهم جهة اليمين في الصورة.

سادساً: يرون أن الماء كالمرآة سواء بسواء، فهو يعكس الضوء كما تعكسه المرآة كما قدمناه.

سابعاً: إذا وصلوا إلى هذه النقطة، أي: مسألة الماء يرون أمراً عجباً! يرون أن الصور في الماء يحصل لها انكسار، إذ معلوم أن النور يمشي على خط مستقيم ولكنه في الماء ينكسر ولا يستقيم. فقال

صاحبي : الانكسار ليس جمالاً . فقلت : ستعلم علم اليقين أن هذا الانكسار هو الجمال كله ، فلولا انكسار الضوء الآتي من الشمس السائر في الجو الملاقي للهواء الجوي وما فيه من الذرات والهباء ، تلك اللاتي تجعله يجري على غير استقامة فينتشر في الكرة الأرضية ، ويكون عند الناس شفق وفجر وصبح ؛ أقول : لولا ذلك الانكسار لم يكن صبح ولا شفق ولا جمال في المناطق الباردة ، فالانكسار هنا اعتدال . اقرأ هذا المقام في أول سورة « الزمر » فهناك ترى العجب العجاب ، وترى علم الطبيعة وعلم الفلك متآخيين ومتصاحبين ومتحابين ومتعانقين ، وذلك كله موضح بالصور الشمسية هناك .

فقال : حسن . فقلت :

ثامناً : إن العقلاء متى وصلوا إلى هذا المقام أخذوا يبحثون في الزجاج ، كما بحثوا في الماء من حيث انكسار الضوء ، فهو ينكسر في الزجاج كما انكسر في الماء ، وهناك يستخرجون قاعدتين : القاعدة الأولى : أن الماء ينكسر إلى جهة من الجهتين عند مروره من جسم لطيف إلى كثيف وينكسر إلى الجهة الأخرى إذا مر من كثيف إلى لطيف .

تاسعاً : وهنالك يدخلون في علم العدسات ، وكل ما تقدم مقدمة له ، وذلك بأن ينظروا أولاً في أنواع الزجاج المذكور ، ذلك أن الزجاج طوع أيدي الناس وليس كالماء ، فهم يقدرون أن يجعلوا الزجاجة محدبة الوجهين فتكون منتفخة من الناحيتين ، ويقدرون أن يجعلوها مقعرة الوجهين ، فتكون من وسطها كالخصر النحيل ، وقد وجدوا لها في الحال الأولى خاصة تخالف الحال الثانية ، ولكن الماء ليس كذلك ، بل هو جسم لا يقدر الإنسان أن يحكمه كما قدمناه ، فالعدسات المحدبة الوجهين تكبر الأجسام وقد تقربها ، والمقعرة الوجهين تصغر الأجسام وتبعدها ، وهناك يدخل الناس في باب العمل بهذا العلم والانتفاع به ، فيجعلون هذه الزجاجات مقويات لأبصارهم ، مقربات للصور تارة ، مبعدات لها أخرى على حسب الأبصار طولاً وقصراً .

عاشراً : وهنالك يركبون الزجاجات المكبرة بعضها مع بعض بهيئة مخصوصة ، فيكون المنظار المعظم والآلة المكبرة التي قد تكبر الجسم عشرين ألف مرة في زماننا هذا .

فقال صاحبي : حسن والله ما تقول ، إذن الناس انتقلوا من ضوء داخل من نافذة في حجرة مظلمة إلى انعكاسه على الحائط وانقلاب صوره ، وهكذا تدرجوا في العلم من انعكاس الضوء إلى انكساره ، وإلى تكبيره للصور وتصغيره وقربها وبعدها ، إلى مساعدة العلماء في الأرض بتقوية أبصارهم بالزجاجات البصرية ، إلى تكبير الجسم ٢٠ ألف مرة لازدياد العلم واليقين .

الله أكبر ، هذا أحسن جداً ، ولكن هذه الهداية واللطف اللذان تضمنتهما أسماء الله الحسنى كاسمه اللطيف ، واسمه النور ، واسمه الهادي التي كلامنا فيها ؛ لا يتم ذلك فيها إلا بالمشاهدة التي عليها بنيت سؤالي ، فأريد أن أشاهد ذلك عياناً وإن كنت تصورته بذهني كما تصورت كلام الإمام الغزالي رحمه الله تعالى بعقلي .

فقلت : هذا المقام لخصه الأستاذ « بول برت » الأستاذ بالسربون بفرنسا ، ووزير وزارة المعارف الفرنسية الذي ترجمته من الفرنسية إلى الإنجليزية زوجته « جوسيفيا كليتون » الإنجليزية الاسكتلندية

وهاك ترجمته من صفحة ١٦٤ من ذلك الكتاب المسمى « العلوم الطبيعية » إلى صفحة ١٧٦، فقد جاء فيه تحت العنوان التالي ما نصه :

أشعة الضوء

أخذ الأستاذ « بول برت » يخاطب تلميذه في الفصل قائلاً :

(س) جورج، من أين جاءت الحرارة؟ .

(جـ) من النار يا سيدي .

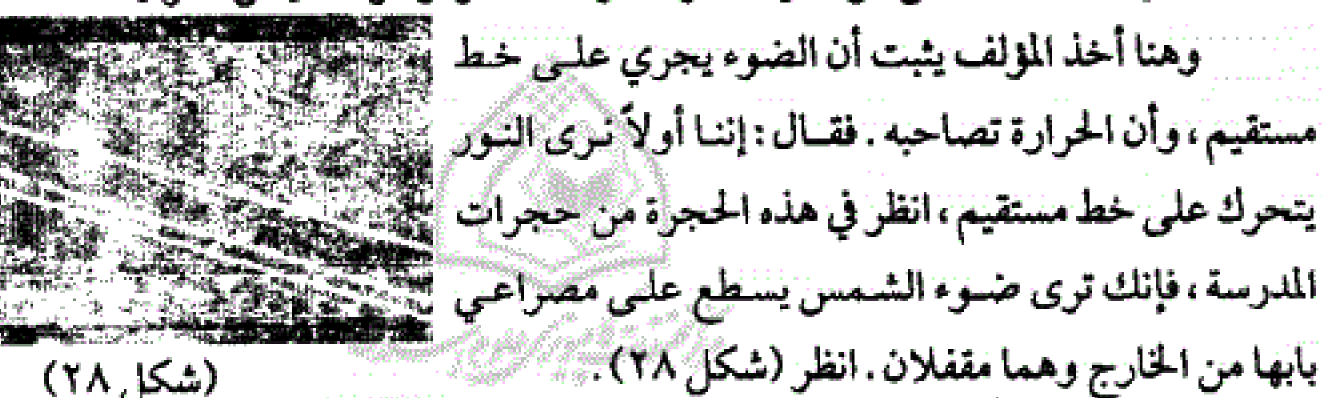
(س) نعم . ولعل هذه النار خارج حجرة الفصل الذي ندرس فيه .

(جـ) آه . أمن خارج الحجرة . كلا . بل هي من الشمس .

(س) حسن جداً، ولكن أترى النار والشمس ليس لهما إلا الحرارة وحدها؟ .

(جـ) كلا . إنهما يعطيان أيضاً نوراً .

(س) حقاً هذا، وإذا كانت الحرارة مصاحبة للنور فإننا إذا نظرنا إلى النور نعرف بواسطة رؤيته أن هناك حرارة، وهذا أسهل من معرفة الحرارة بواسطة الترمومتر « مقياس الحرارة » .



(شكل ٢٨)

وهنا أخذ المؤلف يثبت أن الضوء يجري على خط مستقيم، وأن الحرارة تصاحبه . فقال : إننا أولاً نرى النور يتحرك على خط مستقيم، انظر في هذه الحجرة من حجرات المدرسة، فإنك ترى ضوء الشمس يسطع على مصراعي بابها من الخارج وهما مقفلان . انظر (شكل ٢٨) .

ولكن لما كان في هذين المصراعين ثقوب رأينا الأشعة دخلت منها على استقامة في الحجرة مخترقة ما لا حصر له من الذرات الصغيرة الترابية الرائعة في جو الحجرة .

ثم قال للتلميذ : ضع يدك في خط من هذه الخطوط الضوئية، إنك ستحس بحاسة اللمس بالحرارة، ثم قال : لا جرم أن هذا برهان آخر على أن الحرارة مصاحبة للنور .

الحجرة المظلمة

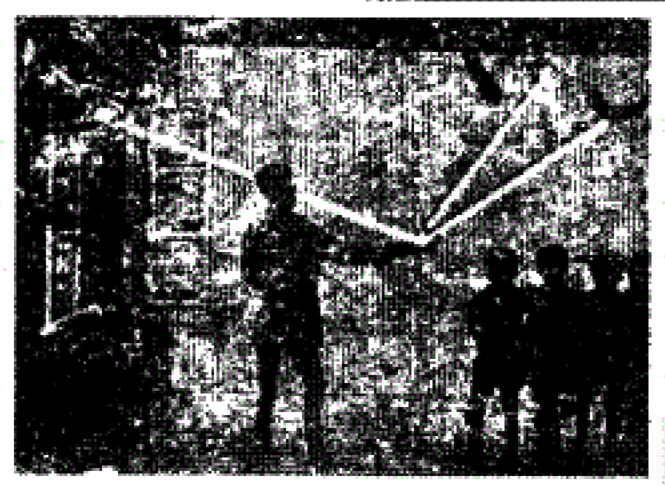
ثم قال الأستاذ : إن هذه المسألة تدعوني أن أريك أمراً عجيباً غريباً يا بول، اذهب إلى الحجرة المظلمة وضع قطعة ورق مقوى أبيض حرف (س) . انظر (شكل ٢٩ في الصفحة التالية) . تحت خطوط الشعاع الشمسية (أ د) و(ب ج) وهكذا تلك الخطوط اللامعات من خلال مصراعي الباب .

ألا تعجب معي من ذلك، فهذه المناظر وإن كانت واضحة متميزة مفصلة على اللوحة، فدونك هذه البركة التي بجانب منزل « جيمس »، وهذه الطريق المرتفعة وفيها العربة، نراها منقلبة، وهذا عجب عجاب! قد جعلت أعاليها أسافلها وأسافلها أعاليها، ولكن تعليل ذلك أمر سهل، فإنك ترى أطراف شجرة الحور عند حرف (أ) مثلاً قد جرت الأشعة الشمسية منها على خط مستقيم كما تقدم، ولكن بعض تلك الأشعة فقط أمكنها أن تدخل من ذلك الثقب حتى وصلت إلى لوحة الورق المقوى عند حرف (د) .

ثم إن بعض أشعة أخرى من تلك الأشعة اللامعة الحاملة لصورة جذع «شجرة الحور» المذكورة أمكنها أيضاً أن تخترق الثقب وتدخل الحجرة، وهي جارية على خط مستقيم فتصل إلى (ج). انظر (شكل ٢٩).

(شكل ٢٩ ـ الصور الخارجة ظهرت واضحة مفصلة على لوحة الورق المقوى حرف (س) ولكن جعل عاليها سافلها).

وكما أمكن ذلك عند الحرفين (د) و(ج) يمكن أيضاً فيما بينهما، وبسبب ذلك ترى أن شجرة الحور عاليها سافلها، ومثل ما قلناه في ذلك نقول بكل وضوح في جميع مناظر النقط الأرضية، فتكون الأعالي أسافل وبالعكس يجري النور على خطوط مستقيمة متقاطعة فتكون صور مقلوبة، ثم شرع المؤلف يذكر سرعة ضوء الشمس، وهذا تقدم، وأخذ يشرح بعد ذلك انعكاس الضوء فرسم هذين الشكلين:



(شكل ٣١ ـ هناك علاقة بين اتجاه الشعاع الضوئي الواصل للزجاجة والشعاع الضوئي المنعكس عنها الواصل تارة إلى حرف (أ) وتارة إلى حرف (ب) بحسب اتجاه الشعاع الواصل إلى الزجاجة أولاً).



(شكل ٣٠ ـ شعاع الشمس يرى منعكساً على الحائط عند حرف (أ) بواسطة الزجاجة العاكسة الضوء).

وهاهنا أخذ يوضح ذلك فقال: فهاأنت ذا ترى على حائط حجرة المدرسة جزءاً من الشعاع الشمسي قد ظهر عند نقطة (أ)، فمتى حركنا المرآة تحرك ذلك الشعاع مثل حركتها في اتجاهها. إن هذه النقطة الشعاعية صورها ضوء الشمس ثم سقطت على المرآة، ومن المرآة أخذت تظهر ثانياً، وهذا يسمى انعكاس الضوء.

ثم أخذ المؤلف يشرح هذا الموضوع فقال: لندخل الحجرة المظلمة (شكل ٣١ المتقدم) ثم لنضع المرآة في وسط ضوء الشمس الذي يخترق النافذة (ر) التي في مصراع الباب مخترقاً ظلام الحجرة، ومتى وصل إلى المرآة أخذ ينعكس عنها مرتداً إلى الحائط الآخر جارياً في الهواء المفعم بالذرات الهبائية الترابية، واصلاً (أ) إذا أنا أمسكت بالمرآة على هيئة استقامة، فإذا أنا أملت المرآة فإن نقطة الشعاع تصل إلى حرف (ب) في الشكل المذكور، وعلى هذا تكون هناك علاقة تامة بين اتجاه الشعاع الساقط على المرآة واتجاه الشعاع المنعكس عنها.

(شكل ٣٢ ـ المرآة التي انطبعت فيها الصورة)

وهانحن أولاء الآن شارعون في معرفة قيمة هذه العلاقة شيئاً فشيئاً، فنقول: فهذه توضح لنا كيف كانت المرآة مظهرة لنا صورنا إذا نحن وقفنا أمامها، وكيف ترينا تلك المرآة أن صورنا تبعد عن المرآة خلفها بمقدار البعد الذي بين أجسامنا وبين تلك المرآة، ولذلك نرى المتوحشين إذا نظروا وجوههم في المرآة لا يزالون يبحثون وراءها عن ذلك الذي يرونه ماثلاً أمامهم من خلفها، وكيف نرى الصورة في الناحية المخالفة لناحية أجسامنا، وأيضاً نرى الناحية اليمنى من أجسامنا مصورة في الناحية اليسرى والعكس بالعكس.

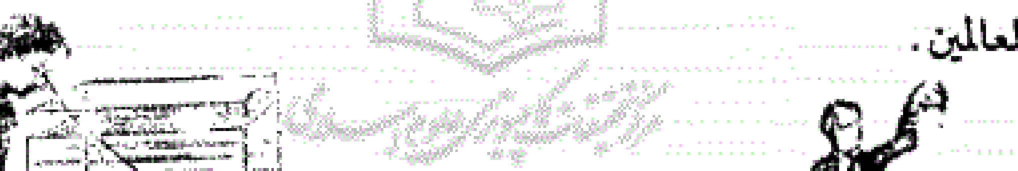
قال: ولما كان هذا البحث يعوزه بعض المذكرات الهندسية ليتجلى واضحاً وجب تأجيله حتى تعرف تلك المذكرات، ثم نشرع بعد ذلك في هذا البحث.

وهنا أخذ يشرح المرآة فقال: هذه المرآة التي استعملتها منذ دقائق لم تكن إلا من زجاج مطلي بالقصدير، وبعض المرايات تصنع من المعادن بعد أن تصقل صقلاً جيداً، وهكذا كل سطح مصقول لامع يمكننا استعماله مرآة، فهاك (شكل ٣٤) وهو الآتي:

فهاهي ذه الزجاجة المملوءة ماء (شكل ٣٣)، انظر فهاأنا ذا أرفعها قليلاً إلى مسافة أرفع من عيني حتى يمكنها أن تنظر سطح الماء من أسفل الزجاجة، إن هذا السطح قد ظهر لي كأنه فضة مصقولة صقلاً جيداً، انظر إليها أنت نفسك، فهاأنت ذا ترى جميع الصور التي حولها قد عكست عليها واضحة ظاهرة كما تتضح وتظهر على وجه المرآة الحقيقية سواء بسواء. هذا تمام المقال في هذا الموضوع والحمد لله رب العالمين.



(شكل ٣٣ ـ سطح الماء قد انعكست فيه الصور وظهرت كما ظهرت في وجه المرآة سواء بسواء)

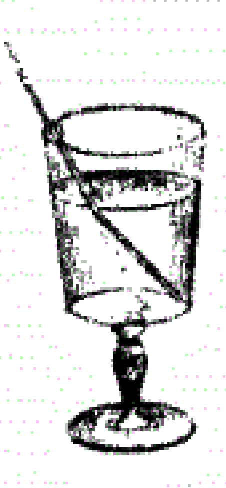


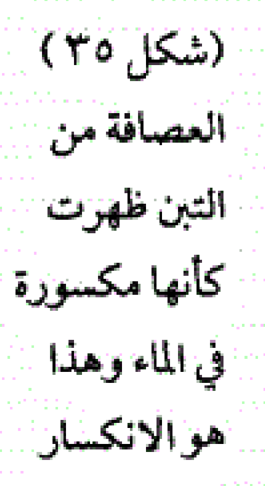
(شكل ٣٤ ـ إن الشعاع اللامع هاهو ذا أخذ ينكسر حينما دخل الماء وهو الذي أظهر أن قطعة النقد «بنى» قد ظهرت عند حرف (أ) في الماء وهذا المنكسر جاء بدل النقطة الحقيقية التي كان عنها هذا الانكسار)

ثم أخذ يشرح انكسار الضوء فقال: فلنذر الكلام في موضوع انعكاس الضوء، ولنبتدئ المقال في انكساره فنقول:

انكسار الضوء

إن لفظ انكسار الضوء قد وضع للحقيقة التي تراه منطبقاً عليها، فانظر رعاك الله هذه الزجاجة المملوءة ماء (شكل ٣٥)، هاأنا ذا وضعت فيها عصافة من التبن، والعصافة قد ظهرت لأعيننا وهي مكسورة في الماء، وهكذا نراها تزداد اقتراباً من الوضع الأفقي كلما أوغلت في دخولها في الماء، هاأنت ذا تعلم



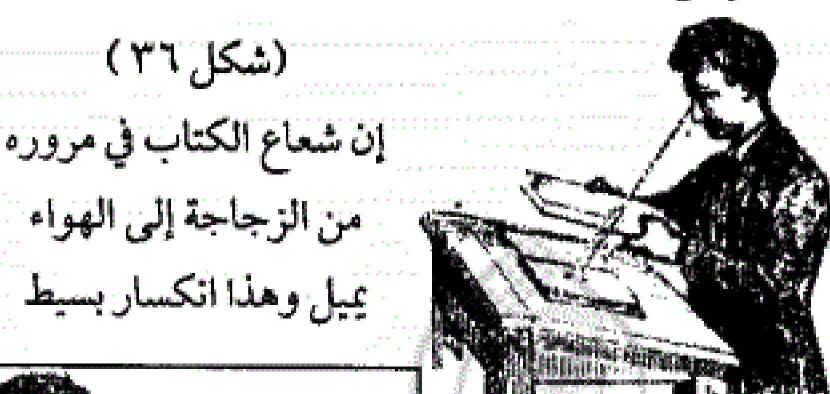


(شكل ٣٥) العصافة من التبن ظهرت كأنها مكسورة في الماء وهذا هو الانكسار

علم اليقين أن العصافة ليس بها انكسار، هذا لا شك فيه، ولكنك لن تقدر أن تمنع مخيلتك من تصورها مكسورة. وهناك تجربة أخرى تثبت نفس النتيجة التي قدمناها في (شكل ٣٤) هنا.

ثم أخذ يصف الصندوق في هذا الشكل فقال: هذا صندوق من القصدير، وقد وضعت فيه قطعة «بنى» من النقود في قاعه. وهاأنا ذا أضع الماء في الصندوق، تعال هنا يا جيمس وقف بحيث تقدر أن تنظر الحافة البعيدة من البنى، هاأنا ذا أصب الماء في الصندوق قليلاً قليلاً مع الاحتراس حتى أتجنب أن يتحرك البنى من مكانه، فقل لي يا جيمس ما الذي تراه؟ فأجاب: هاأنا ذا أرى قطعة النقد ترتفع وتتحرك رويداً رويداً نحو نقطة (أ). فقال الأستاذ: نعم ذلك حاصل بسبب أن الشعاع الضوئي اللامع من قطعة النقد أخذ ينكسر كما انكسر من العصافة المتقدمة قريباً، هذا هو المسمى «انكسار الضوء»، وهاهنا قاعدة مطردة، وهي أن الشعاع متى مرّ من وسط لطيف إلى وسط كثيف فإنه يميل إلى جهة من جهتيه كما رأيت فيما تقدم، وإذا مرّ من وسط كثيف إلى وسط لطيف مال إلى الجهة الأخرى.

واعلم أن الزجاج المسطح يفعل في الضوء ما يفعله الماء من حيث الانكسار. هاأنا ذا أضع قطعة من الزجاج سميكة مسطحة. انظر (شكل ٣٦).



(شكل ٣٦)
إن شعاع الكتاب في مروره من الزجاجة إلى الهواء يميل وهذا انكسار بسيط

ويمكنك أن ترى الشعاع الضوئي يميل كما مالت العصافة فيما تقدم، فإذا أنا وضعت تلك القطعة من الزجاج على بعد مسافة كبعدها من الكتاب، انظر (شكل ٣٧)، فإن ميل الشعاع في هذا الحال ينكسر انكسارين: الانكسار الأول يكون حينما يسير الشعاع من الكتاب في الهواء إلى القطعة الزجاجية، ويتخللها. الثاني حينما يخرج الشعاع من قطعة الزجاج إلى الهواء ثانياً.



(شكل٣٧ – الشعاع حينما فارق الكتاب مال في مروره أولاً من الهواء إلى الزجاجة. ثانياً من الزجاجة إلى الهواء فهذا انعكس مرتين)

العدسات «البلوريات»

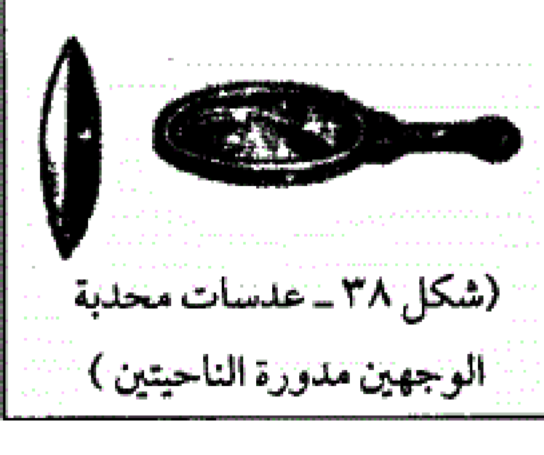
وهنا أخذ يشرح أحوال الزجاج الذي ليس مسطحاً، بل هو إما محدب وإما مقعر، والمحدب والمقعر أمرهما عجب فلكل منهما عمل خاص في الصور الواردة عليه، فهذا مكبر وهذا مصغر، وبيانه أننا إذا وضعنا قطعة من الزجاج غير مسطحة بل هي محدبة الوجهين فإن ميل الضوء عنها يكون أتم وأكمل.

(س) يا بول، بماذا تسمي هذا القطعة الزجاجية التي في شكل ٣٨ المعنونة بحرف (أ) التي هي محدبة الوجهين؟.

(ج) فأجاب قائلاً : أسميها زجاجة معظمة للصورة .

(س) نعم ، هو كذلك ، ولكن علماء الطبيعة يسمونها « عدسة » أو « بلورية » ، إن اسمها العادي « الزجاجة المكبرة » يدل على حقيقتها ، لأنها تكبر الأشياء الصغيرة .

خذ هذه في يدك وانظر إلى حروف المطبعة الدقيقة في هذا الكتاب . (انظر شكل ٣٨) .



(شكل ٣٨ ـ عدسات محدبة الوجهين مدورة الناحيتين)

ثم قال له : حسن ، ما الذي جعلك متعجباً في دهش ؟ فأجابه التلميذ قائلاً : ولمَ لا أعجب سيدي إنني لم أر شيئاً البتة . فقال الأستاذ : انتظر رويداً ، لا تضع العدسة على عينك ، ولا تجعل أنفك على الكتاب ، بل انظر كما جرت به عادتك ، ولكن بواسطة الزجاجة المكبرة ، فاجعلها أولاً قريبة من الكتاب .

انظر (شكل ٣٩) . ارفعها قليلاً قليلاً إلى أعلى وأنت لا تزال تنظر بها ، فهاأنت ذا ترى الحروف أكبر شيئاً فشيئاً ، فاستمر في الرفع حتى تراها مفصلة ، ولكن إذا داومت على ذلك واستمررت في رفع الزجاجة المكبرة فإنك ترى الحروف تصغر شيئاً فشيئاً حتى لا تعود ترى البتة . إذن البعد المناسب يجب أن يعرف ، وكل ما كان أطول منه أو أقصر يجب أن توضع له عدسة ، وهذه العدسة التي معك الآن تكبر الأشياء بالضعف ، ويجب أن تجعل العدسة قريبة من الجسم المنظور بمقدار بوصة .



(شكل ٣٩)
زجاجتان محدبتا الوجهين مكبرتان

الزجاجة المركبة المعظمة « المكروسكوب »

أولاً : إذا وضعنا عدة عدسات معاً بهيئة خاصة فإنها ترينا الشيء أكبر مما هو عليه من حيث حجمه ١٠ مرات أو ١٢ مرة مثل حجمه الحقيقي ، وهذه تسمى الزجاجة المركبة المعظمة .

ثانياً : « المكروسكوب » يصنع من عدسات أكثر نظاماً في ترتيبها وأبدع إحكاماً في تركيبها . انظر (شكل ٤٠) .

(شكل ٤٠) المكروسكوب يعظم الصور أكبر

إن « المكروسكوب » فيه قوة عظيمة جداً على تكبير الصور ، فقد يعظم الحجم ١٠٠ مرة و ٢٠٠ مرة ، بل ألف مرة أكبر من الحجم الحقيقي .

ثم قال : إن ما أقوله في أمر « المكروسكوب » ربما لا يدهشك ، ولا يحدث عندك غرابة ، لأنك تقول في نفسك : وما قيمة تكبير الشيء عشرة أو مائة أو ألف ؟ إن الرجل المخرف الدجال ربما يقول لنا : أنا أكبر الشيء ألف ألف مرة ، فإذا كبرت بالمكروسكوب الجسم عشرات أو مئات فذلك ليس بمدهش لأنا سمعناه ، والجواب على ذلك أقول لك : إن طريقة البعد عند الدجال غير طريقتها هنا في المكروسكوب ، لأن طريقتنا

هنا أننا إذا قلنا إن المكروسكوب يكبر الشيء عشر مرات فمعناه أنه إذا كان طوله عشر البوصة يصبح ذلك الطول بواسطة المكروسكوب طول البوصة بتمامها ، وهذا ليس معناه أنه أكبر عشر مرات فحسب . كلا . بل إننا إذا قلنا إن هذا الجسم كبر طوله عشر مرات فمعناه أنه كما كبر في طوله كبر في عرضه كبر في عمقه ، ويضرب ١٠ في ١٠ في ١٠ يصير ألف ، فقول الدجال : إني أكبره مليون مرة ، ليس أمر أكثر من أنه زاد طوله فجعله ١٠٠ ، ومتى زاد طوله مائة كان عرضه كذلك وعمقه ، فهذا هو المليون بعينه ، إذن تعبيرنا نحن أقرب إلى عدم ضجيج الجهلاء ودهشتهم ، وتعبيره أدنى إلى ضجيجهم ودهشتهم .

لا أمر أعجب ولا منظر أدهش وأدعى إلى سرور نفسك وبهجتها من أن تشهد بنفسك أيها القارئ الكريم بالزجاجة المكبرة عجائب المخلوقات أمامك ، أنا لا أقدر أن أعبر لك عما يخالج نفسك من الدهشة والغرابة والبهجة والاستحسان والروعة عند امتحانك حشرة ، أو زهرة ، أو أي شيء حولك ، أو نفس جلدك وثوبك وغيرها ، بماذا تدرس هذه العجائب كلها؟ بزجاجة مكبرة ثمنها شلنان اثنان لا غير .

هل في الوقت سعة لتفصيل ما تظهره هذه الآلة البديعة من العجائب التي تدهش اللب وتحير العقل وتبعث على الحيرة والعجب ! آلاف من الأحياء الصغيرة السابحات في قطرة ماء في مستنقع وملايين كثيرة من الأجسام الصغيرة الحمراء في قطرة من الدم ، أنا لا أجد وقتاً للتوسع والتفصيل ، فذلك ليس في الإمكان .

التلسكوب ، أو «سبيكلاس» الآلة المقربة

وهناك نوع من المكروسكوب يكبر الأجسام باعتبار قربها . ومعنى هذا أن هذه الأجسام البعيدة صغرها البعد ، فهذا التلسكوب متى كبرها ظهرت قريبة ، فهذا تكبير للبعيد فيصير في النظر قريباً ، فهذه مكبرة تكبيراً يظهر أثره في اقتراب الأجسام . انظر (شكل ٤١) .



(شكل ٤١)
تلسكوب يكبر الجسم من حيث المسافة وينتج ذلك أن الجسم يصير قريباً .

وهذا التلسكوب بواسطة وضع عدسات مختلفات بهيئة أخرى ونظام خاص ، فهذه كما تسمى سبيكلاس تسمى تلسكوب (شكل ٤١) ، بمساعدة هذه الآلة نقدر أن ندرس النجوم ، وننظر فيها عجائب مفصلة تفصيلاً بديعاً لا ترى بالعين المجردة .

زجاجة العين أو المنظار

وهناك نوع آخر من الزجاجات المكبرات للأحجام معلوم للعموم ، وهو المنظار المعتاد ، وهو عبارة عن قطعة من الزجاج صغيرة بيضاوية الشكل يضعها أمام عينيه من اعترى نظره ضعيف .

قال المؤلف لتلاميذه : وهاأنا ذا ملزم أن أضع هذا المنظار على عيني لأني كبير السن ، فهاأنت ذا ترى أن هاتين عدستان بسيطتان مكبرتان ولكن قليلاً ، فخذهما في يدك واستعملهما كما كنت تستعمل

الزجاجة المكبرة قليلاً، وانظر هل يمكنك أن تقرأ بهما؟ فأجاب هنري وقد حرك رأسه قائلاً: آه، هاأنا ذا أرى، لماذا؟ أنا لست الوحيد في المدرسة الذي يحتاج إلى منظار يضعه على عينيه. إن جيمس وإن كان شاباً يعوزه منظار على عينيه، فلما وضعها هنري على عينيه وجدها على هيئة خلاف ما تقدمه، فحصلت للتلاميذ حيرة لأن هذا المنظار مبعد لا مقرب كالأول.

فقال الأستاذ: أنا أشرح الموضوع لكم تمام الشرح: يجب أن تعلموا أن هناك عدسات أخرى غير المحدبة وهي المقعرة. انظر (شكل ٤٢).

(شكل٤٢ ـ عدستان مقعرتان من الجانبين معاً، فهذه بدل أن تجعل الحجم كبيراً تريه للأعين صغيراً، وبدل أن تجعله قريباً تجعله بعيداً)

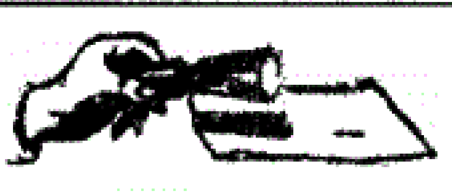
تعال هنا يا جيمس بجانبي، وأحضر معك منظاريك ولكن لا تضعهما على عينيك، وأنا كذلك لا ألبسهما ثم تعال هنا يا هنري، يا من عيناه قويتان سليمتان، لا قصر فيهما ولا طول، تعال معنا أيضاً، فلتقرأ نحن الثلاثة في كتبنا ذات الحروف المتحدة من حيث مطبعتها، أما أنا فإني ملزم أن أجعل الكتاب بعيداً عن عيني جداً على طول ذراعي حتى أقدر أن أتبين حروف الكتاب، لأن نظري طويل، فأما جيمس فإنه على العكس مني ملزم أن يجعل الحروف بجانب عينيه، لأن نظره قصير، وأما أنت يا هنري فإن نظرك معتدل، لذلك تضع الكتاب في المسافة المعتدلة التي تبعد نحو ثمان بوصات عن عينيك. انظر (شكل ٤٣). فلنضع مناظرنا على أعيننا أنا وجيمس، الآن صار النظر تاماً، نحن الثلاثة قد وضعنا كتبنا في مسافة واحدة. انظر (شكل ٤٤).



(شكل ٤٣ ـ هنري سليم النظر وأنا طويل النظر وجيمس قصير النظر)

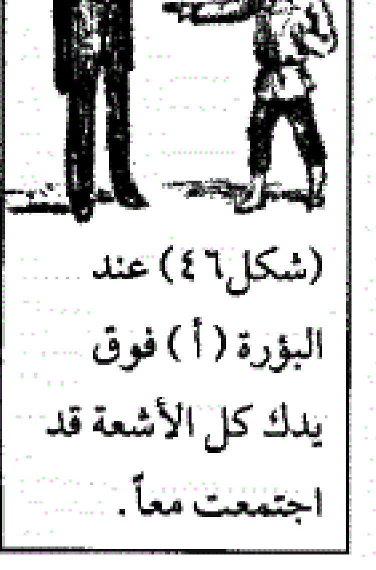
(شكل ٤٤ ـ نحن لبسنا مناظيرنا أنا وجيمس ونظرنا المنحرف قد اعتدل الآن كنظر هنري)

ثم قال الأستاذ: إن سبب هذه العجائب سأوضحه عند قراءة علم التشريح. والآن نريد أن ندع الكلام على العدسات المصغرة، ولنجعل كلامنا خاصاً بالعدسات المكبرة، إننا إلى الآن لم نستعملها إلا في أمر واحد وهو أن نضعها بين أعيننا وبين الأشياء التي نريد أن نبصرها، ولكنا الآن نريد أن نستعملها استعمالاً آخر وهو «بؤرة العدسة»، انظر الآن هذه العدسة قد وضعتها في ضوء الشمس. انظر (شكل ٤٥).



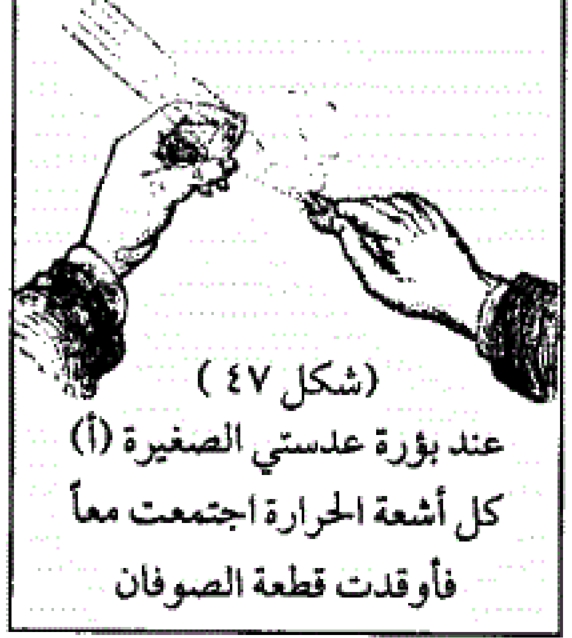
(شكل ٤٥)
إن جميع الأشعة الضوئية قد اجتمعت عند النقطة (أ) المسماة بؤرة

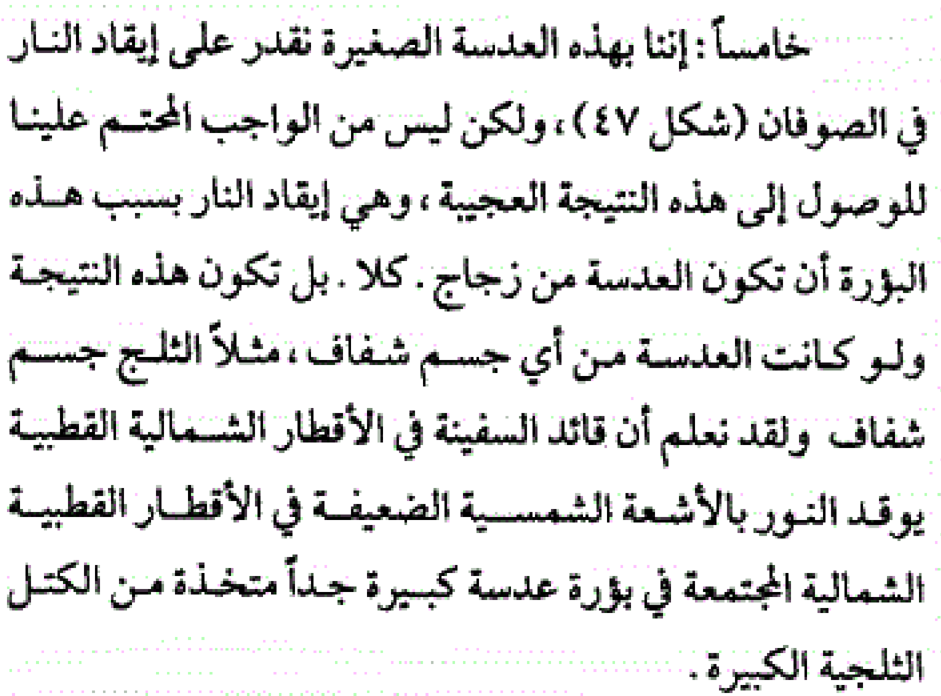
ثم قال: انظر هذه المرة ما يأتي: هاأنا وضعت العدسة في ضوء الشمس (شكل ٤٥)، وقد وضعت وراءه قطعة من الورق، وهذه الورقة أخذت أوجه نحوها بالتدريج العدسة، فهاأنت ذا أولاً: ترى أن بقعة بيضاء حرف (أ) حاصلة في الورقة في بعد خاص، ظاهرة على الورقة أمامك، وهذه البقعة يأخذ شكلها في الصغر شيئاً فشيئاً كلما اقتربت منها العدسة شيئاً فشيئاً أيضاً، ولا تزال تصغر حتى تصير نقطة صغيرة في مقدارها، ولكنها في أثناء تدرجها في الصغر تتدرج أيضاً في ازدياد لمعانها وضيائها ولا عجب في ذلك، لأن ألوان ضوء الشمس كلها التي سقطت على العدسة قد اجتمعت معاً في هذه النقطة. ثانياً: هذه النقطة نسميها «بؤرة العدسة» في الاصطلاح، ومعناها في اللغة العربية حفرة النار. ثالثاً: إذا أردنا أن نستعمل هذه العدسة زجاجة مكبرة وجب علينا إذ ذاك أن نضع الجسم المراد تكبيره بين العدسة وبين بؤرتها، إياك أن تنسى ذلك.


(شكل٤٦) عند البؤرة (أ) فوق يدك كل الأشعة قد اجتمعت معاً.

ثم قال الأستاذ: تعال هنا يا جيمس وضع يدك فوق قطعة الورق (شكل ٤٦) انظر تجد أن بؤرة العدسة تضيء على يدك، ولكن لماذا أراك تسحب يدك فترجعها إلى الوراء؟ فأجاب لأني أحس بأن النقطة شديدة الحرارة.

رابعاً: فأجاب الأستاذ: حسن جداً، إن هذا يدلك على أن الحرارة دائماً تصاحب النور، وأن البؤرة الجامعة للألوان هي عينها أيضاً جامعة للإشراق والإضاءة، فهي مجمع الألوان والإشراق، كلما كانت العدسة أوسع وأكبر كانت كميات النور التي تجمعها من الشمس في مركز النور وهي البؤرة أعظم، وكانت تلك البؤرة أكثر إشراقاً وأشد حرارة على مقدار ما جمعت من الأنوار.


(شكل ٤٧)
عند بؤرة عدستي الصغيرة (أ)
كل أشعة الحرارة اجتمعت معاً
فأوقدت قطعة الصوفان

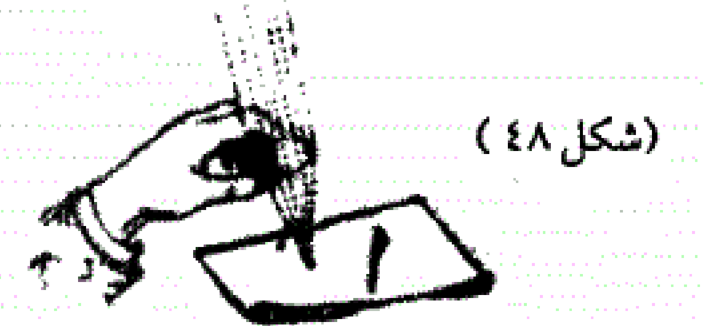


خامساً: إننا بهذه العدسة الصغيرة نقدر على إيقاد النار في الصوفان (شكل ٤٧)، ولكن ليس من الواجب المحتم علينا للوصول إلى هذه النتيجة العجيبة، وهي إيقاد النار بسبب هذه البؤرة أن تكون العدسة من زجاج. كلا. بل تكون هذه النتيجة ولو كانت العدسة من أي جسم شفاف، مثلاً الثلج جسم شفاف ولقد نعلم أن قائد السفينة في الأقطار الشمالية القطبية يوقد النور بالأشعة الشمسية الضعيفة في الأقطار القطبية الشمالية المجتمعة في بؤرة عدسة كبيرة جداً متخذة من الكتل الثلجية الكبيرة.

الله أكبر، فكم يتعجب سكان تلك الأقطار، وهم الأكسيمو من ذلك المنظر البديع، ولكم يدهش البحارة التابعون لقائد السفينة من ذلك المنظر البديع الذي أبرزه العلم فأخرج الحرارة من البرودة وكأن الضد نشأ من ضده، ذلك أمر عجيب.

الألوان

هانحن الآن نريد أن نبحث في تجاريب خاصة بأمر أكثر عجباً، وأجمل منظراً، وأشد بهجة في القلوب مظهر تحليل النور وتفرق أشعته، والكلام على ألوان الشمس السبعة، هاهي ذه قطعة بلور ذات ستة وجوه. انظر (شكل ٤٨).



(شكل ٤٨) القطعة الزجاجية حللت النور الشمسي إلى سبعة ألوان: البنفسجي والنيلي والأزرق والأخضر والأصفر والبرتقالي والأحمر، واجتماع هذه السبعة يسمى: سبكترام.

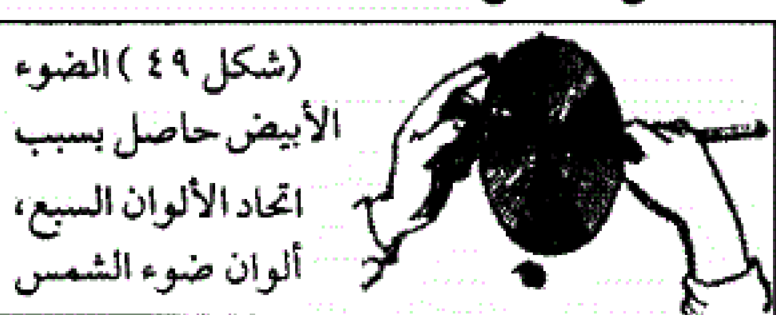
فهاهي ذه أنا أديرها في ضوء الشمس فوق هذه الورقة، فهانحن أولاء نرى أنها في وضع خاص تحدث فوق الورقة نقطة ذات ألوان كثيرة، فإذا نظرنا بعناية إلى هذه النقطة وتأملناها نجد أن مركزها يشتمل على لونين، وهما أصفر وأخضر، وعلى أحد الناحيتين الحمرة، وعلى الناحية الأخرى الزرقة والبنفسجية، ولا جرم أنكم قد لاحظتم قوس قزح، ومعلوم أن الألوان المجتمعة فيه سبع، فإذا ابتدأنا بالبنفسجي الذي هو أسفل الألوان التي في قوس قزح؛ قلنا هكذا: البنفسجي، النيلي، الأزرق، الأخضر، الأصفر، البرتقالي، الأحمر.

هذا بحسب الظاهر، ولكن في الحقيقة أن هناك أنواعاً من الطيف كثيرة يختلط بعضها ببعض ممتزجات متحدات من الأحمر إلى البنفسجي بحيث لا يقدر الإنسان أن يميز أولها من آخرها، ولا مبدأها من منتهاها. وعلى ذلك تكون دراسة ألوان ضوء الشمس تختص بهذه الألوان السبع المجتمعة في صورة قوس قزح المعروف. وهي التي أظهرتها لنا الزجاجة البلورية المسدسة الأوجه التي بها عرفنا كيف يتفرق النور وينتشر فيصير ألواناً مختلفة.

إن ما تقدم به نعلم أن الألوان كلها مجتمعة في ضوء الشمس وإن كانت بحسب الظاهر بياض لا لون لها.

تركيب ضوء الشمس الأبيض

لنبرهن الآن بتجربة بسيطة على ما تقدم فنقول: هاهي ذه قطعة من الورق المقوى مدورة، إني لونتها بسبعة الألوان الظاهرة في قوس قزح. (شكل ٤٩).



(شكل ٤٩) الضوء الأبيض حاصل بسبب اتحاد الألوان السبع، ألوان ضوء الشمس

إن الورق المقوى المتقدم في مركزه فتحة صغيرة، وفيها قد أقمت عوداً، وعلى ذلك هاأنا ذا أديرها بسرعة على هذا العود كأنها تدور حول محور، هاأنتم أولاء ترون الألوان قد اختفت اختفاءً تاماً بعد الدوران وكانت ظاهرة قبله، وأصبحت هذه الورقة المقواة بيضاء تسر الناظرين.

على أنه ليس من الضروري أن أرسم الورقة بسبعة الألوان حتى تظهر بيضاء عند دورانها السريع، إنه ليجزئني في ذلك أن أرسم الثلاثة الألوان الرئيسية، وهي الأحمر والأصفر والأزرق،

وسبب ذلك أن بقية الألوان مشتقات من هذه الثلاث، وهي البرتقالي والأخضر والبنفسجي. المؤلف لم يذكر السابع، وهو النيلي.

ثم شرع بين ذلك فقال: إن هذه الثلاثة تحصل باتحاد اثنين من هذه الثلاث، وبيانه أننا ننظر في قطعة أخرى من الورق المقوى ونلون نصفها بالحمرة والنصف الآخر بالزرقة ونفعل فيها ما فعلناه بسابقتها، فلما فعل ذلك ظهر اللون البنفسجي، ثم إنه لون قطعة أخرى نصفها بالحمرة ونصفها الآخر بالصفرة، فأدارها بسرعة فظهر اللون البرتقالي، ثم إن لوني الصفرة والزرقة أنتجا الخضرة.

ما معنى ألوان المادة المشاهدة

ما الذي نعني بقولنا هذا: الورق المقوى أو غيره أبيض أو ذاك أخضر أو أحمر أو أسود؟

الجواب: إن معنى أن الورق المقوى أبيض، أو أي شيء آخر أبيض أنه قد نشر وأذاع كل ما وصل إليه من الألوان السبعة ولم يمتص منها شيئاً، والأزرق والأحمر قد امتص كل منهما ما وصل إليه من الأشعة ولم يمتص الأول الزرقة، ولا الثاني الحمرة، أما الأسود فإنه قد امتص جميع الأشعة فلم يبق منها شيئاً ينكسر عنه وينتشر انتشاراً. فسأل أحد التلاميذ المؤلف قائلاً: ما سبب هذا؟فأجاب: أنا الساعة لست على استعداد للإجابة، فلتقنعوا مؤقتاً بهذه المعرفة.

وعلى هذه الطريقة يكون قولنا: إن الماء أبيض، وإن الخمرة حمراء، وإن الحبر أسود؛ معناه أن الماء أجاز لجميع الألوان السبعة أن تقاطعه وتمر في طريقها به، ولم يحبس لونها منها، ولم يمر لون من الألوان السبعة في الخمر إلا لون الحمرة، والبقية قد امتصها ذلك السائل، أما الحبر فقد امتص جميع الألوان ولم يسمح بمرور واحد منها به، ذلك هو المعنى الذي يفهم من هذه الصفات اللونية، إن التلون يحصل بإحدى حالين إما بانتشار الضوء، وإما بمروره بجسم شفاف، فمثال الأول ما تقدم من انتشار الضوء بواسطة الورق المقوى الملون، ومثال الثاني أن نضع بين أعيننا وبين الضوء أجساماً غازية، أو أجساماً سائلة، أو أجساماً صلبة شفافة كالزجاج.

ومن أندر ما عرف من صفات الأجسام وعجائبها أن الجسم الواحد يكون له لونان باعتبارين مختلفين، أي: بانتشار الضوء عنه، أو بمروره منه بهيئة جسم شفاف، ثم أتى بورقة شفافة رقيقة جداً من الذهب وقال: انظروا هذه، فهي صفراء متى انتشر الضوء عنها، أي: إن لونها نفس لون الذهب المعروف، ولكن إذا نظرناها في حال وضعها بين أعيننا وبين الشمس فإنها تظهر لنا خضراء، ومثل هذه الحال في المواد قليل جداً. اهـ.

ملخص ما تقدم

فقال صاحبي: ما ملخص هذا؟ فقلت: ملخصه أن هذا العقل الإنساني يستنتج أعاظم الأشياء من أصاغرها، فإنه لما رأى الضوء دخل حجرته على خط مستقيم ومعه الحرارة؛ استخرج منه أمرين: ملازمة الحرارة للضوء، وذلك بحاسة اللمس، وكون جريه على خط مستقيم بحاسة البصر. ثم أخذ يستنتج ما فوق ذلك مثل: إن الأجسام ترسم على الأجسام القابلات للضوء على هيئة مقلوبة، وإن الضوء إذا وقع على جسم شفاف كالماء فإنه ينعكس عنه وتكون هناك زاويتان: زاوية للسقوط وزاوية

للانعكاس، ومن وضع في يده مرآة وانعكس عنها النور كان ذلك المنعكس تابعاً لحركة المرآة، ثم انتقل العقل الإنساني من هذه المبادئ إلى ما هو أشرف منها، فنظر في أمر الصور المرسومة في المرآة، فوجد أن المسافة التي بين الإنسان وبين المرآة مساوية للمسافة المقدرة بين نفس المرآة وبين الصورة التي يخيل له أنها وراء المرآة، وهذه راجعة إلى المسألة المشابهة لها هنا، ثم رأى أن يمينه أصبح في الصورة يساراً وبالعكس، فوجد هذه المسألة راجعة إلى أن الصور ترسم مقلوبة كما تقدم قبل ذلك.

هنالك أخذ يوازن ما بين الماء والزجاج، فوجدهما يقبلان الصور لأنهما شفافان، ثم أخذ الإنسان يبحث في انكسار الضوء كما عرف انعكاسه، وهو في حال الانكسار تعتريه أحوال، مثل أن الجسم في بعض أحواله يكون حجمه أكبر مما هو عليه إذا غمره بالماء، فبدا لهذا الإنسان النشط أن يتخذ العدسات، فجعل منها ما هو مكبر للأجسام الصغيرة، ومنها ما هو مقرب لمسافتها، فكانت العدسات المحدبة الوجهين مكبرات للأجسام، وبوضع عدد منها بهيئة منتظمة أمكنه أن يكبر الحشرات بالآلات المعظمة «مكرسكوب»، وبوضع آخر منتظم أمكنه أن يقرب مناظر الأشياء البعيدة «تلسكوب».

ثم انتقل من هذا إلى أمر طبي، فاستعمل العدسات على العيون الإنسانية، فإن كانت مقعرة نفعت طويل النظر، وإن كانت محدبة ـ وظيفتها تصغير الأجسام ـ نفعت قصير النظر. وهاهنا أخذ الإنسان ينظر في الألوان فوجد أن قوس قزح في السماء شرح له ضوء الشمس شرحاً وافياً، فدهش إذ رأى سبعة ألوان واضحات أمامه، مبتدئة من الأسفل إلى الأعلى على هذا النمط: بنفسجي نيلي أزرق أخضر أصفر برتقالي أحمر، فالأحمر أعلى في قوس قزح، والبنفسجي أقرب إلى الأرض.

وهنالك خطر لهذا الإنسان أن ينظر جسماً شفافاً عسى أن يرى هذا المنظر، فماذا فعل؟ أخذ صمامه من البلور، ذلك الجسم الجميل المستخرج من الرمل مع أجسام أخرى مثل البوتاسا أو الصودا فرأى هذه الألوان واضحة خلفه، فكان الأزرق والبنفسجي من جهة، والأحمر من جهة أخرى، والأصفر والأخضر في الوسط.

سبحانك اللهم، زوقت السحاب وجملته بقوس قزح، وجعلته للناس درساً جميلاً ليبتهجوا بالمناظر الجميلة، عجب! هذه حدائق وجنات، الأزهار في الحدائق ذوات ألوان كألوان الطيف. وهذه البلورة المضلعة تصنع نفس هذه الألوان البديعة التي تكاد تكون مجردة عن المادة.

اللهم إنك لا يحجبك عن الإبداع أمر ما، فهذا السحاب في السماء خلقته لإصلاح حال كل حي على الأرض، ولكن في أثناء ذلك لم تدع التزويق والإبداع وتحسين أشكال السحاب.

فقال صاحبي: هل ما ترجمته من هذا المقال أحدث أثراً غير ما ذكرته الآن في نفسك. فقلت: لقد تقدم ذكر الآلة المكبرة للأجسام، فشاقني ذلك أن أقابل الأستاذ شوقي بك بكير الذي هو أعظم عالم طبيعي في مصر، وهو يسكن حلوان، وأراني «المكروسكوب» الذي عنده، وأطلعني على رجل الذبابة التي كبرها أربعة آلاف مرة، وذلك في يوم «شم النسيم» سنة ١٩٣٢م، ثم وضع حجراً صغيراً لا يؤبه به استخرجه من جهة تسمى «الحوف»، وهو واد يمتد في وسط الجبل الشرقي بالبلاد المصرية، وما كاد يضع هذا الحجر تحت الآلة حتى ظهرت أنواع من القواقع مختلفات الأشكال، مما دل على أن

هذه الأحجار، وهذه الصخور وهذه الجبال قد خلقت في البحر ثم اعترتها أحوال عظيمة غيرت نظام الأرض وأوضاعها، فظهرت تلك الجبال على ظهر الأرض كما هو الرأي: السائد عند علماء هذا الزمان. ومما قاله إذ ذاك: إن في وادي الحوف المذكور نباتات تخرج بالفطرة تنفع للمداواة، فإذا زرعناها فقدت خواصها، وهذا عجب يدل على أن العناية الإلهية رتبت نظام العوالم لثمرات خاصة وأكثر الناس لا يعلمون.

هنالك أراني أمراً عجباً! فقال: انظر، فنظرت إذا فوق سقف منزله سلكان مصنوعان من النحاس، دقيقاً صنعهما، موضوعان بهيئة هندسية، بحيث يميل السلك الأول عن خط الشمال إلى الغرب عشرين درجة، ويميل الثاني عن الأول نحو ٦٠ درجة، وهذان السلكان يجتمعان في زاوية عند الحائط، وقد اتصل بهما سلك نزل إلى أسفل المنزل واتصل بالآلة «الراديو».

فهذان السلكان فوق سقف المنزل يتلقيان ما يأتي به الجو من الأصوات التي في الجهات الأوروبية وغيرها المحصورة بين هذين السلكين، فكل موج من الأمواج الواقعة بينهما يلتقطهما هذان السلكان ويتلقاه عنهما السلك النازل إلى الآلة في الدور الأسفل من المنزل، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾[المؤمنون: ١٤].

سلوك من النحاس تكون فوق السقف توضع بهيئة خاصة، تعطي قوة سحرية بأن تسلب من الجو حركات الأصوات الجارية في الأثير فتحيلها إلى صوت كالذي صدر هناك في باريس أو لندن أو برلين أو فيينا، إن هذا الأمر عجيب! فقال صاحبي: هذا من أعجب العجب! فكفى هذا في الاستطراد فهل من رجوع إلى المبحث الذي كنا فيه وهو ضياء الشمس؟ فقلت: نعم.

ضوء الشمس كما يفيد الهداية يفيد الحياة

أيها الصديق، تقدم كلامنا في أن ضوء الشمس منه صنع الناس الأعاجيب، في الهداية به اهتدوا إلى غرائب وغرائب تقدم وصف بعضها في هذا المقام.

رباه، خلقت الشمس وأرسلت منها ضوءاً لأرضنا برحمتك ونعمتك، وجعلت لها نظاماً تاماً في سيرها، فنظمنا أعمالنا بنظام سيرها، ثم نوعنا في الانتفاع بذلك النور البديع.

ثم إننا نظرنا نظراً آخر فألفينا هذا النور ليس قاصراً على هدايتنا، كلا. بل هو مفيد لنفس حياتنا فهو حياة كما هو هداية، إن النور يسطع على الورق في الأشجار والحشائش وسائر النبات، فيمتزج بالعصارات الجاريات في تلك النباتات، فيكون التفاعل والامتزاج، فيتم نمو النبات ـ تقدم هذا واضحاً في سورة «يس» مشروحاً مصوراً بالتصوير الشمسي عند الآية ٣٦: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا﴾، وكيف كان النور مساعداً على تغذية النبات وجلبه من الهواء مواد الكربون السائحة فيه فيقوى النبات ويعيش، وبه تكون حياة الحيوان والإنسان.

فقال صاحبي: ما أجمل هذا القول، فهلا أفضت فيه كما أفضت في هداية النور. فقلت: أيها الصديق أنت تعلم أن هذا تقدم في سور كثيرة مستوفى موضحاً، ولكن إن شاء الله تعالى سأبحث بحثاً مفصلاً في سورة «النبأ» وأذكر هناك إن شاء الله تعالى عجائب أبهج مما تقدم عند آية: ﴿لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ

حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾[الآيتان: ١٥-١٦]، وهناك إن شاء الله تعالى ترى بهجة الأشجار والشجرات والنجوم، أي: النبات الذي لا ساق له وكيف تنوع الشجر في هيئة أغصانه وأوراقه، وكيف تكون الأزهار وهي مصورات قد تبدت أنواع كأسها وتويجها، وأعضاء ذكورها، وأعضاء إناثها بحيث ترى واضحة في الشكل، وكيف كان من الذكور والإناث ما جاء في زهرة واحدة كالقطن، ومنها ما جاء في زهرتين في نبات واحد كالذرة، ومنها ما جاء في نباتين وهما إما من جهة واحدة فيحصل اللقح فالثمر كالنخل، لأن اللقاح قد يحصل بالهواء، أو بفعل الإنسان، وإما أن يكون الذكر في قارة والأنثى في أخرى كما في الصفصاف، فكل صفصاف أوروبا إناث، وكل صفصاف آسيا ذكور، لذلك لم ير الناس لهذا النوع ثمراً البتة، وهناك ترى عجائب الأزهار، وكيف حار العلماء فلم يهتدوا لتنظيم أنواع النبات إلا بواسطة أزهارها، وما عدا ذلك لم يجدوا له قيمة، وهناك ترى كيف كان ما له فلقة واحدة كالقمح وكالنخل يخالف تركيبه ما له فلقتان كالفول والبطيخ، وكيف كانت العلاقة بين الثمرات والحبوب وبين نظام أجزاء النبات محكمة كما ستراه هناك إن شاء الله تعالى.

وبهذا انتهى الكلام على اللطيفة الثانية في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥]، والحمد لله رب العالمين. كتب يوم الخميس ٥ صفر سنة ١٣٥١هـ، ٩ يونيو سنة ١٩٣٢م قبيل الظهر.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ﴾

سألني العلامة صديقي الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير، فقال: ما السر في ذكر: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾[الملك: ١٩]؛ بعد ذكر أن الطير صافات في جو السماء، وأن الله هو الممسك لها. ثم ما عجائب الطيور وما تعريفها وما أقسامها؟ إنني أرجو أن تذكر لي هنا مجملاً من ذلك ليعلم المسلمون في أقطار الأرض أنهم مقصرون في هذه الآية، وأنهم عليهم أن يفهموا هذه الآية، وأنهم عليهم أن يفهموا هذه العجائب، فلن يشكروا النعمة حتى يعرفوها، والمعرفة أساس السعادة في الحياتين. فقلت: لقد ذكرت في هذا التفسير مقالات كثيرة على الطيور وعلى غيرها. فقال: ولكن المجمل في هذا المقام لا بد منه مع بيان صور أهم الطيور ومنافعها بقدر الإمكان، فقلت: أمامي الآن كتاب الأستاذ «بول بيرت» الوزير الفرنسي الذي ترجمته زوجته الإنجليزية «جوسفينا كلايتون» مدام بول بيرت الاسكوتلاندية وفيه المختصر المطلوب وصور الطيور. لا بد قبل الشروع في مختصر الكلام على الطيور أن أقدم مقدمة في مجمل علم الحيوان فأقول:

أقسام الحيوان أربعة

القسم الأول: الحيوانات الفقرية

وهي تشمل: الإنسان، وذوات الأربع، والطيور، والزواحف والسمك. فهذه الخمس هي أقسام الحيوان الذي اشتمل على هيكل عظمي وفقرات ودم، فالإنسان والبهائم من الخيل، والبغال والحمير، والأنعام من الإبل، والبقر والغنم، والسباع كالذئب، والكلب، والطيور الجارحة وغير

الجارحة، والزواحف كالحيات، والعقارب، والسمك في البحر، وهو معروف، كل هذه لها عظام ودم، ولكل نوع من هذه أصناف كثيرة.

القسم الثاني: الحيوانات الحلقية

أي: التي تركب جسمها من حلقات مجتمعات منضمات يكون منها جسم هذا الحيوان، وهذا القسم أنواع وهي: الحشرات، والعناكب، وذوات الأرجل الكثيرة، و الحيوانات القشرية، والدود.

أما الحشرات فهي ما كان لها ستة أرجل، ولها إما جناحان كالذباب، وإما أربعة أجنحة كأبي دقيق الذي يعيش في بلادنا المصرية ويكون منه الدود الذي يفسد شجر القطن، وهذا سلبنا قطننا، فلذلك يدرسه الناس الآن في مصر بعض الدراسة، وهناك حشرات أخرى لها أربعة أجنحة تسمى باللسان الإفرنجي « دراكوفلاي ».

أما العناكب ـ جمع عنكبوت ـ فهي ما لها ثمانية أرجل ضعف ما لذوات الأربع. وأما ذوات الأرجل الكثيرة فهي ما قد تصل أرجلها إلى عشرين زوجاً من كل ناحية عشرين رجلاً، ويقال لها في بلادنا المصرية « أم أربعة وأربعين ».

وأما الحيوانات القشرية فهي تشمل قراض الخشب وحيواناً يسمى « كرايفش » باللسان الإفرنجي، وهو مركب من حلقات مدمجة قوية، وأما الدود فهو يشمل دود الأرض والعلق، وهذان رؤوسهما متصلة بجسمهما، وليس لهما أرجل، وليس جلدهما صلباً قشرياً كجلد كرايفش.

القسم الثالث

الحيوانات الهلامية التي جسمها أشبه بالفالوذج الذي هو نوع من الأطعمة، ومن هذا حيوان يسمى « القوقعة »، وهذا الحيوان جسمه يكون من هذا الهلام، وقد أعطي وقاية من المحار تقيه العاديات والمهلكات، وهي معدة كمنزل تسكن فيه، ومن حيوان يسمى باللسان الإفرنجي « ميوزل » وجسمه محفوظ بين صدفتين من المحار، فهذا القسم وهو القسم الثالث من أقسام الحيوان لا عظم له، فليس من ذوات الفقرات، ولا حلقات له، فليس من ذوات الحلقات، فهو إذن حيوان هلامي.

القسم الرابع: الحيوانات الشعاعية

وهذه منها ما هو على شواطئ البحار المسمى « سمك النجم »، ومنها ما هو في البحار يعيش كهيئة مستعمرات مكونة من تلك الحيوانات الصغيرة، ومن اجتماعها تتكون أجسام صخرية، وقد تتكون منها جزائر، فترى هذين النوعين يختصان بأمرين: الأول أن لهما فماً مركزياً يشاهد في الوسط الثاني أن الحيوانات حول ذلك الفم ترجع إلى حلقات ضوئية تحيط بذلك الفم أو المدخل. ثم إن مشاهدة صورتها تدخل في النفس عجباً! فإن سمك النجم تراه على هيئة بهجة ذات خمسة فروع تحيط بمركزها، وتلك الفروع كأنها أصابع الإنسان، وذلك الوسط كالكف، وكل أصبع من هذه الأصابع محلى بأهداب تغطيه، وفي أصول تلك الأهداب تشاهد نقطاً مضيئة كأنها مصابيح لامعة على طول تلك الأصابع. وهناك أيضاً الحيوان المسمى باللسان الإفرنجي « بوليبا » فإنك ترى الفم المتقدم أو المدخل ليس متسعاً كما في سمك النجم، بل تراه نقطة صغيرة تحيط بها حيوانات لا حصر لها

مجتمعة بهيئة ثمان ورقات جميلات ذات شعاع جميل، وكل هذا تراه موضحاً بالصور الفوتوغرافية في سورة الحج عند آية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ﴾[الآية: ٧٣] الخ، فراجعه هناك إن شئت. اهـ.

وقد جاء في الكتاب الإنجليزي المذكور في صفحة ٤٤ وما بعدها ما ترجمته: إن الطيور لها منقار وريش وجناحان ورجلان. فالمنقار يمكن رؤيته في رأس هذا الطائر الذي أحضرته لأجل الدرس ـ هذا كلام المؤلف الفرنسي ـ ثم وصف هذا المنقار فقال: إنه حجاب عظمي يكون غلافاً وغطاء للفكين، أما الريش فإنه في حال كمال نموه يشتمل على ما يأتي:

(١) أولاً: أنبوبة بها ينبت الريش في جلد الطائر.

(٢) ويلي هذه الأنبوبة ساق تحمل فوق كل واحد من جانبيها «دوارة تدل على جهة الريح»، وهذه الدوارات أيضاً تحمل دوارات أصغر منها، وهؤلاء أيضاً قد يحملن ـ كما في الإوز ـ دوارات هوائية أقل من الحاملات لها، وكل هذه الدوارات ملتصقة ببعضها بإحكام ومنسوجة نسجاً بديعاً منتظماً.

وليس كل ريش تام النظام على هذا المنوال، وإنّما وصفنا هذا لما تم نماؤه كما قدمنا. أما الأجنحة فإنها عادة قوية متينة، بها يقدر الطائر أن يطير في الهواء، وبعض الأجنحة ترى قصيرة جداً مثل أجنحة النعامة بها تقدر أن ترتفع عن الأرض، وبعض الأجنحة يستعملها الطائر استعمال السمك لزعانفه، وبمساعدتها تعوم تحت الماء. إن كل طائر يبيض، ومعظم الطير يبني عشاً. إن البيض مركب أولاً من قشرة حجرية تحوي في داخلها مادة بيضاء، وفي داخل هذه المادة مادة أخرى صفراء.

ثم يقول المؤلف: إنه أرى التلاميذ بيضتين: إحداهما نيئة والأخرى منضجة بالنار، فلما فتح الأولى أمام الطلبة فما كان تحت القشر أسرع إلى الانحدار في الطبق. ثم قال: انظروا ألستم ترون في وسط المادة الصفراء مادة صغيرة بيضاء، هذا هو الجنين الذي يخلق في البيضة ومنها يخرج فروج صغير إذا حافظنا عليه مدة كافية لينمو في البيضة تحت حضن الدجاجة. ثم قال: هاأنا ذا أنتزع قشر البيضة المنضجة بالنار، وهاأنا ذا أقسمها بهدوء تام ومحافظة عليها حتى تميزوا موضع المادة البيضاء وموضع المادة الأخرى الصفراء.

كيف تصير البيضة طائراً صغيراً؟

إن البيض متى حفظ في مكان دافئ في مدة طويلة معينة من الزمان؛ فإن الجرثومة البيضاء التي تلمع وسط المادة الصفراء التي هي أصل الفروج تنقلب بالتدريج طائراً صغيراً، ينمو في سجنه، وفي أثناء نموه يمتص ما حوله من المادة الصفراء والبيضاء حتى يصير كبيراً يملأ داخل القشرة، وحينئذ يكسرها هو بمنقاره، هنالك يخرج أعمى لا حراك له مثل هذه الحمامة الصغيرة، انظر (شكل ٥٠). أو كمثل ما يخرج من البيضة، وهو نشيط الحركة خفيف عالم كيف يلتقط من الأرض ما يقوته من الطعام، وكيف يجري على الأرض، وذلك كهذا الفروج (شكل ٥١).



(شكل ٥٠) حمامة خرجت من بيضتها وهي عمياء ولا تقدر على الحركة

(شكل ٥١) فروج خارج من بيضة الدجاجة قادر على السعي

ومن صغار الطير ما يخرج وقد استعد لما هو فوق ذلك، فلا يكتفي بالجري في الأرض، بل يعوم في البحر أو النهر، وذلك كالإوز والبط. وهاهنا أخذ المؤلف يشرح حضن البيض بالطريق الصناعية بحيث يقوم الإنسان بهذه العملية بدل الأم، وأبان صور الصندوق الذي يقوم مقام الأم في حفظ حياة الجنين، ودوام الحرارة المماثلة للحرارة الطبيعية للأم في عشها المناسب لحال نوع الطير هيئة ومقداراً.

الطيور على قسمين: طيور مهاجرة وطيور غير مهاجرة

ثم أخذ المؤلف يقول: لست أقتصر معكم في الطير على ما تقدم، بل أقول لكم: إن من الطير ما له هجرة كل عام في أوقات محددة تحديداً تاماً، مثال ذلك الخطاف والسمانى، وهو السلوى والبلبل، فهذه طيور تعيش في البلاد الحارة في زمن الشتاء، فإذا أقبل فصل الصيف هاجرت إلى بلادنا ـ يريد المؤلف بلاد أوروبا ـ فتعيش على الحشرات المخلوقات فيها، وتبني أعشاشها، وتحضن بيضها، وتربي صغارها، ومتى أقبل فصل الشتاء وقلت الحشرات قفلن راجعات إلى أقطارهن الحارة في أفريقيا، وبذلك أبد الآبدين ودهر الداهرين.

وهنالك طيور أخرى مهاجرة بهيئة مخالفة للسابقة كالإوز والبط الوحشيين، فإن هذه تعيش في الأقطار الشمالية الباردة، فإذا اشتد عليها البرد شتاء أقبلت تسعى إلى بلادنا ـ يريد أوروبا ـ وهاهنا أخذ يشرح أنواع الطيور وهي:

(١) الجارحة.

(٢) الطيور المقلدة للإنسان كالقرود ذوات المناظر الجميلة، والأصوات البديعة.

(٣) والحمام.

(٤) والطيور الدجاجية.

(٥) والطيور الخائضة.

(٦) والنعام.

(٧) والطيور المنسوجة الأرجل.

(٨) وأنواع العصفور الدوري. وهاك تفصيلها:

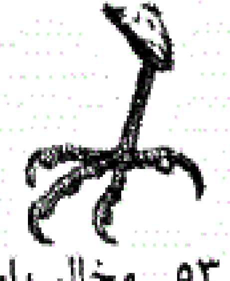
النوع الأول: الطيور الجارحة: إن من الطيور ما تعيش على لحم الحيوان الحي من طيور أخرى ومن ذوات الأربع ومن الزواحف، فلذلك سميت طيوراً جارحة، ولذلك نراها قد وهبت سلاحاً حاداً قوياً به تحدث تمزيق فرائسها.

(أ) ألا ترى إلى هذا المنقار الحاد المصنوع كهيئة الشص والخطاف والكلاب. انظر (شكل ٥٢).

(ب) وإلى هذا المخلب الطويل المعد لاختراق أجسام الفرائس والقبض عليها. انظر (شكل ٥٣).



(شكل ٥٢ ـ منقار الطيور الجارحة الحاد المقوس)



(شكل ٥٣ ـ مخالب الجوارح)

(ج) وإلى الجناح الطويل المحدد . إنهن يطرن سراعاً بخفة ، ومن أمثلة ذلك أن صقراً من النوع المسمى بالإفرنجية « فلكون » فر من غابة بلدة في وسط فرنسا تسمى « فونتينبل » عثر عليه في اليوم الثاني بجزيرة مالطة .

الجوارح على قسمين

إن الطيور الجارحة تنقسم إلى قسمين : جارحة ليلية وجارحة نهارية .

فمن الثانية النسر (شكل ٥٤) ، وهو يعيش على لحوم الحيوانات الميتة ، وبعض هذا النوع عظيم الحجم يعيش في أوروبا . إن النسور لها منفعة عظيمة جداً في الأقطار الحارة ، لأنها تنظف الجو من الرمم التي إذا بقيت أفسدت الهواء ، وأماتت الأحياء . ومن طيور هذا النوع الحدأة الكبيرة التي تعيش في شمال أمريكا (شكل ٥٥) ، وهي حدأة كبيرة الحجم فقد يصل مقياسها إذا مدت جناحيها من طرف إلى طرف ١٢ قدماً ، ومنها نسر جبال الألب (شكل ٥٦) ، وهذا أيضاً كبير الحجم كسابقه ، وهو ذو لحية ، ومنها الصقر (شكل ٥٧) ، وهذا أقوى أجنحة وأحد مخاليب من النسر ، وهذه تعيش على لحم الحيوان الحي ، ومنها الباز وهو نوع من الصقور (شكل ٥٨) ، وهو أشد قوة على مقتضى حجم جسمه وأكثر جرأة ، وهذا النوع قديماً كان الناس في بلادنا ـ يريد بلاد أوروبا كالإنجليز ـ يربونه ، ولا يزال أهل الجزائر يصيدون به إلى الآن ، وهكذا في بلاد الشرق ، ومن ذلك نوع آخر من الصقور (شكل ٥٩) ، وهاك صورها بالترتيب :


(شكل ٥٤ ـ النسر)


(شكل ٥٥ ـ حدأة شمال أمريكا)


(شكل ٥٦ ـ نسر الألب)


(شكل ٥٧ ـ الصقر)


(شكل ٥٨ ـ الباز)


(شكل ٥٩ ـ صقر آخر)

ونوع آخر من الصقور أيضاً (شكل ٦٠) ، ومنه نوع يسمى صقر العصفور الدوري (شكل ٦١) ومنه الحدأة (شكل ٦٢) ، وهاك صورهن :


(شكل ٦٠ ـ صقر آخر أيضاً)


(شكل ٦١ ـ صقر العصفور الدوري)


(شكل ٦٢ ـ حدأة)

هذا هو نهاية الكلام على الطيور الجارحة النهارية .



(شكل ٦٣)
البومة العادية

ولنشرع في الكلام على الطيور الجارحة الليلية، فنقول ومن الله التوفيق:

(١) هي طيور لها ريش زغبي به تقدر أن تطير فلا يسمع لطيرانها صوت.

(٢) ولها آذان مفتحة واسعة جداً.

(٣) وعينان مدورة متجهة إلى الأمام. وهاك صور بعضها:



(شكل ٦٤ ـ بومة الهري)



(شكل ٦٥ ـ بومة الصقر)



(شكل ٦٦ ـ أصغر البوم حجماً كالطائر الأسود)

إن هذه الجوارح الليلية لا تذر فأراً، ولا حيواناً ضاراً إلا أهلكته، لأجل ذلك يحافظ عليها الناس لتساعدهم في إبادة المهلكات، ومن الناس من يجهلون فائدتها فيتلاعبون بها، ويسمرونها في أبواب بيوت مواشيهم حماقة وهم لا يعقلون، وبهذا تم الكلام على الطيور الجارحة بقسميها، والحمد لله رب العالمين.



(شكل ٦٧ ـ الببغاء)

النوع الثاني: الطيور المقلدة للإنسان كالقرود: وهي فصيلة الببغاء: والببغاء له منقار غليظ ولسان لحمي به يقدر على تقليد الإنسان في النطق، واثنتان من أصابع رجليه متجهتان إلى الأمام، واثنتان إلى الخلف، وبذلك يسهل له الاستمساك بالأغصان والتسلق عليها، وعجيب ذكائه وفهمه جعله يسمى « قرد ذوات الريش » كالقرد، وهذا النوع يسكن الأقطار الحارة، وبهجة ألوانه وبديع صوته الظريف يسحران قلوب سكان الأقطار الاستوائية في الدنيا الجديدة والقديمة ويستهويان أفئدتهم وهم يطربون.

النوع الثالث: الحمام: وهو ظاهر فلا حاجة بنا إلى الكلام عليه.

النوع الرابع: الطيور الدجاجية: وتسمى بالفرنجية « كليناسن » و« كالينا » باللاتينية معناها الدجاجة، ومن هذا النوع ما يسمى « بيزنت » (شكل ٦٨)، والطاووس (شكل ٦٩)، والديك الرومي (شكل ٧٠). وهذه الطيور الدجاجية تشبه الدجاج في أنها تأكل الحبوب، وهاك صورها:



(شكل ٦٨ ـ بيزنت)



(شكل ٦٩ ـ طاووس)



(شكل ٧٠ ـ ديك رومي)

النوع الخامس: الطيور الخائضة: سميت بذلك لأنها ذات أرجل طويلة عارية، وأكثرها تعيش في المستنقعات، وتخوض في الوحل والماء، وقد منحت رقاباً طويلة، ومناقيرها كذلك فضلاً عن أرجلها الطويلة، بها تقدر أن تقتنص الحيوانات الصغيرة التي عليها مدار حياتها، وهاك منها البجع (شكل ٧١) وما يسمى بالفرنجية «هيرون» (شكل٧٢)، والكركي (شكل٧٣)، وطير الماء (شكل٧٤). وهاك صورها:


(شكل ٧١ ـ البجع)


(شكل ٧٢ ـ هيرون)


(شكل ٧٣ ـ الكركي)


(شكل ٧٤ ـ طير الماء)

النوع السادس النعام: وهذا النوع حجمه كبير وأجنحته وإن كانت قصيرة جداً تساعده على أن يجري بسرعة عظيمة، إن هذا النوع يسكن بلاد أفريقيا، وله أصبعان فقط، ويبلغ ارتفاعه أكثر من سبعة أقدام، وترى في (شكل ٧٥) الآتي نعامة أفريقيا وارتفاعها ٧ أقدام، وفي (شكل ٧٦) نعامة أمريكا المسماة «رهيا»، وهي أصغر، ولها ثلاث أصابع، وفي (شكل ٧٧) نعامة أستراليا وبورنيو المسماة «كسوري».


(شكل ٧٥)
نعامة أفريقيا وارتفاعها سبعة أقدام

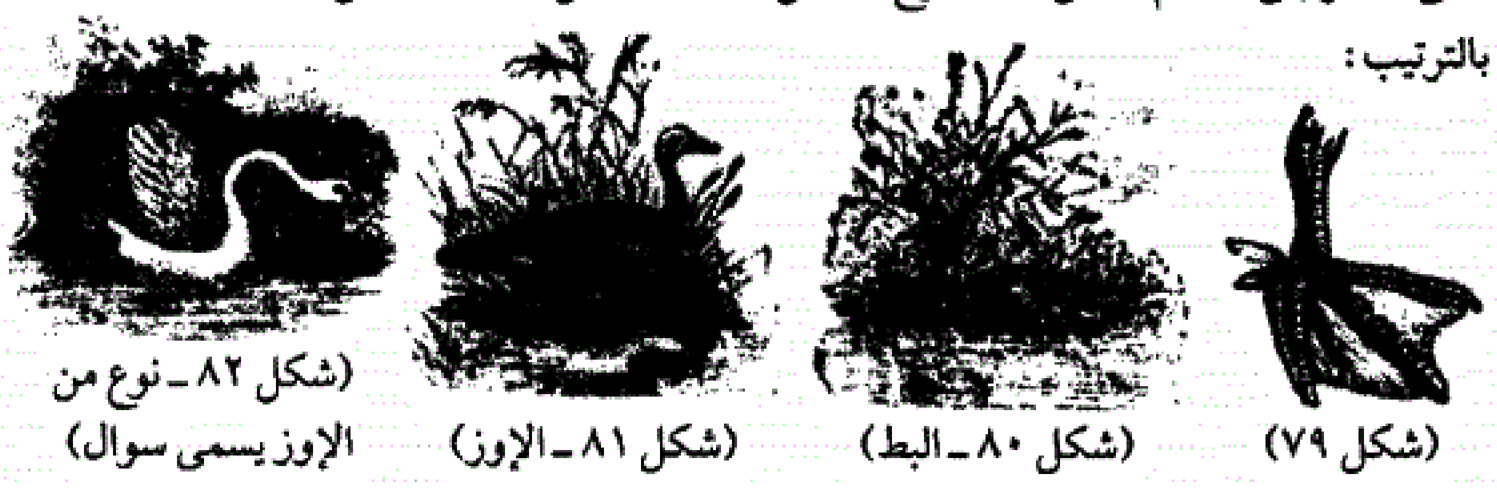

(شكل ٧٦)
نعامة أمريكا المسماة رهيا
وهي أصغر لها ثلاثة أصابع


(شكل ٧٧)
نعامة أستراليا وبورنيو
المسماة كسوري

وهذا النوع كبير الحجم ولكنه يتضاءل أمام ما كشفه الكاشفون من نوعه في «مداغشقر» و«زيلندة الجديدة» مما لم يبق له وجود الآن من هذا النوع، وإنّما عثر الناس على بعض عظام وبيض له، وكل بيضة تعادل ست بيضات من الكسوري الحي الآن، أو تعادل مائة وخمسين بيضة من بيض الدجاج، وهاك صورتها التي عثروا عليها. انظر (شكل ٧٨).


(شكل ٧٨) هيكل طير كبير من الجزيرة الجديدة لم يبق لها وجود الآن ارتفاعها ١٠ أقدام

النوع السابع: الطيور المنسوجة الأرجل: وهذا النوع ترى أصابعه متحدة مع بعضها بنوع من الجلد أو النسيج لتقدر به على العوم بسهولة. انظر (شكل ٧٩). وهذا يساعد الطير على أن يعوم بسهولة ويخترق الماء بدون أقل مقاومة، إن هذا الطائر إذا دفع برجليه إلى خلف فإن ذلك يساعده على السير إلى الأمام، ومن هذا النوع (شكل ٨٠) و(شكل ٨١) و(شكل ٨٢)، وهاك صورها بالترتيب:



(شكل ٧٩) (شكل ٨٠ ـ البط) (شكل ٨١ ـ الإوز) (شكل ٨٢ ـ نوع من الإوز يسمى سوال)

وهذه الثلاثة تتحد في أنها منسوجة الكف كما قدمنا فتحسن العوم والطيران، ولكن مشيها ضعيف جداً، ولهن مناقير عريضة مسلحة بنوع نصل حاد يقوم بما تقوم به الأسنان الابتدائية. ومن هذا النوع أيضاً طائر الماء (شكل ٨٣ الآتي)، وطائر يسمى بالإفرنجية «البتروس» (شكل ٨٤)، وآخر يسمى بالإفرنجية أيضاً «بلكان» (شكل ٨٥)، ومنها الأشر النهم (شكل ٨٦). وبهذا تم الكلام على النوع السابع من الطيور، والحمد لله رب العالمين.



(شكل ٨٣ ـ طائر الماء)



(شكل ٨٤ ـ البتروس)



(شكل ٨٥ ـ بلكان)



(شكل ٨٦ ـ الأشر النهم)

النوع الثامن من الطيور والعصفور الدوري: فهذا النوع لا هو من الطيور الجارحة، ولا من المنسوجة الأرجل ولا غيرها، وهذا النوع يشمل كثيراً من الطيور الصغيرة، وبعضها له أصبعان متجهان إلى الأمام وآخران متجهان إلى الخلف، بها يسهل للطائر أن يتسلق على سوق الأشجار، ومن هذا النوع «قراض الخشب» (شكل ٨٧) الذي يضر بظلمه وعسفه أشجار غاباتنا ـ يريد إنكلترا ـ ضرراً بليغاً، وهو إنّما يبحث في الثقوب التي صنعتها الحشرات من قبله، وترى في (شكل ٨٨) صور الغراب، وهو معروف، وهاك صورهن:



(شكل ٨٧ قراض الخشب



(شكل ٨٨ ـ غراب)

وبعض هذا النوع يشبه بعض الشبه الطيور الجارحة، وبعضه ذو منقار لطيف به يقتنص الحشرات مثل البلبل، ومثل الطير الأسود، ومثل الطير المستأنس بأمريكا، وهو جميل وصغير جداً

حتى إن أصغره لا يكون أكبر من ذكر النحل، وبعضه له منقار واسع يأكل به الناموس، والخطاف يفعل ذلك، ومنه ما له منقار غليظ قصير به يأكل كل نوع من أنواع الحب و ذلك كالقنبرة وخطاف المنازل، ومنه نوع آخر يستعمل منقاره القوي كما يستعمل الناس الفأس فيقلب به الأرض ليستخرج بعض الجثث الميتة فيها فيأكلها، ومن ذلك أيضاً الغراب المتقدم في (شكل ٨٨) وهو معروف.

يقول مؤلف الكتاب الذي ترجمت منه هذه القطعة: إن في بلادنا نحو ٢٠٠ مائتي صنف من هذا النوع. وهذا آخر ما ترجمته في هذا المقام من الكتاب المذكور، والحمد لله رب العالمين.

تبصرة في هذه الطيور

أيها المسلمون، يقول الله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾[الملك: ١٩]، ثم يختم الآية بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴾[الملك: ١٩].

الله أكبر، الله أكبر، جلّ الله، جلّ الله، قد قدمنا في سورة « ق » أن « ا ل م » التي ابتدأت بها سورة « البقرة » هي مفتاح خزائن العلوم كلها، وقدمنا بعض هذا في سورة « البقرة » عند طبع الجزء الثاني عند آية الطير وإبراهيم وما حولها، وفي سورة «آل عمران».

ولشد ما اتضح لي اليوم وأيقنته حقاً وصدقاً أن « ا ل م » جعلت مفاتيح للعلوم ومهاميز يساق بها المسلمون إلى السعادة في الدنيا والآخرة. وأقول بأعلى صوتي: أيها المسلمون، هذا السر قد ظهر الآن، يقول المسلم: ما معنى هذه الحروف؟ فيصل في البحث إلى ما قلناه في سورة « البقرة »، ظهر سر « ا ل م » في العفة وفي بدائع الكيمياء، فاقرأه هناك. وظهر في سورة «آل عمران» في عدم اتكال المسلمين على غيرهم من الأولياء والصالحين، بل عليهم الجد. وهاهنا يوبخنا الله على جهلنا بعلوم الطير التي نام عنها المسلمون وعرفه أهل أوروبا وأهل الشرق الأقصى.

رباه إليك المشتكى. رباه، نام المسلمون. رباه، ناموا وناموا. اللهم أيقظهم إنك سميع الدعاء، وأنا موقن بسماع الدعاء، سبحان الله! أليس من عجائب هذه الطيور أن منها النسر الذي ينظف الأقطار الاستوائية من رمم الحيوان، ولولاه لم يعش هناك إنسان ولا حيوان، أوَليس منها البوم التي تأكل أمثال الفيران المهلكات لزرع الإنسان بأكله ونفس الإنسان بالعدوى كما قدمناه في هذا التفسير عن كبار الأطباء في هذا العصر، أفليس من هذه الطيور كما قدمنا المهاجرات من الأقطار الحارة إلى الأقطار الباردة فتأكل الحشرات حياة لها وسعادة لنوع الإنسان، ألسنا نرى أن الطيور مقسمة على الأقطار، وعلى الليل والنهار، وعلى الهواء وعلى الأشجار، وعلى الشواطئ والمستنقعات، وعلى البحار، لتكون من المنظمات المساعدات على نظام هذه العوالم العجيبات.

هذا معنى قوله تعالى: ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴾[الملك: ١٩]، فهاهي ذه الرحمة، رحمة نفس الطائر مثلاً بأكله الحشرات، ورحمة الحيوان والإنسان ببقاء الزرع لموت المهلكات من تلك الحشرات.

هذا بعض السر في اختصاص المقام بالاسم « الرحمن » وبالاسم « البصير ». وإلى هنا تم الكلام على سورة « الملك »، والحمد لله رب العالمين. كتب صباح يوم الأربعاء ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣٢م.

تفسير سورة القلم
هي مكية
إلا من آية ١٧ إلى آية ٣٣، ومن آية ٤٨ إلى آية ٥٠ فمدنية
آياتها ٥٢، نزلت بعد العلق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ

عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

هذه السورة أربعة مقاصد:

(١) حسن الأخلاق النبوية، من أول السورة إلى قوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾.

(٢) سوء أخلاق بعض الكفار وجزاؤهم، من قوله: ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾ إلى: ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾.

(٣) ضرب مثل لهم بأصحاب الجنة البخلاء، من قوله: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

(٤) تقريع للمجرمين، وأمر بالصبر لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لئلا يكون كصاحب الحوت، من قوله: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ ﴾ إلى آخر السورة.

المقصد الأول: حسن الأخلاق النبوية

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ نٓ ﴾ النون: الدواة، قال الشاعر:

إذا ما الشوق برح بي إليهم ألقت النون بالدمع السجام

ويطلق على الحوت، وفي بعض الحيتان مادة تصلح للكتابة، ﴿ وَٱلْقَلَمِ ﴾ وهو كل ما يخط به ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ وما يكتبون، أي: والذي يكتب به من الكتب، ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ أقسم الله بالدواة وبالقلم، وبكل ما يكتب من كتب الخير، إنك يا محمد ما أنت مجنوناً حال كونك منعماً عليك بالنبوة وحصافة الرأي، وكيف تكون مجنوناً والكتب والأقلام والمداد قد استعدت للعمل في الشرق والغرب بما ينزل عليك من الوحي؟ أهذا هو الجنون، إن الله أنعم عليك بنعمة العلم والنبوة، وقد أعد الأمم للتلقي عنك فلست بمجنون، وأي شهادة أعظم من نتائج الأعمال، فهي

الشواهد النواطق، وإدخالها بطريق القسم أبلغ في الشهادة من قول المتنبي:

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

قال المؤلف الإنجليزي «كارليل» في كتابه المسمى «البطولة والأبطال» حينما تكلم على صاحب شريعتنا صلى الله عليه وسلم في نحو سنة ١٢٠٠ هجرية ما ملخصه: إن البنّاء الذي لا يحسن البناء لا يدوم بناؤه طويلاً، وكلما دام البناء دل على صدق البنّاء ـ بتشديد النون ـ في صناعته، والنبي محمد صلى الله عليه وسلم أخرج أمة إلى الوجود فدامت هذه الأمة ألفاً ومائتي سنة، إن البناء الدعي لا يدوم بناؤه عشرات السنين فضلاً عن المئات والألوف، ولو كان محمد صلى الله عليه وسلم غير نبي وبناؤه على غير أساس لم يدم هذه الأزمان كلها. ثم أخذ يكذب الأوروبيين في دعواهم أنه غير نبي، وأنه اخترعها لحاجة في النفس، وشنع غاية التشنيع. اهـ.

أقسم الله بالدواة وبالقلم وبالكتب عالماً أن هذا الدين يبقى، وأنه ستتحرك به الأقلام وتسطر الكتب وتخط، وكل ما اتصف بذلك لا يكون باطلاً، إذ الباطل لا ثبات له، والحق هو الباقي.

أقسم بهذه الثلاثة مستدلًا بتحققها في الزمان المقبل بعد القسم وهو عالم بذلك على صدق الرسالة، لأن الزبد وهو ما يعلو وجه الماء عند سقي الأرض يذهب ويرمى به ولا بقاء له، والماء الذي تحته هو الذي يبقى في الأرض ويسقي الزرع، فكل باطل ذاهب، وكل حق باق، فبقاء هذا الدين بكتابة الأقلام وتسطير الكتب دليل على أن محمداً صلى الله عليه وسلم غير مجنون.

أقسم الله بهذه الثلاثة فتحاً لباب التعليم العام بالقلم والكتابة، إن هذا الدين لم ينزل لأجل ألف وثلاثمائة وثلاث وأربعين سنة. كلا. ثم كلا.

لم ينزل القرآن لأجل جيلنا والأجيال قبله فقط، إن الله جعل أمتنا الحالية ومن قبلها مقدمات لأمم ستأتي بعدنا، وتكون أرقى منا علماً وأخلاقاً ونظاماً ومدنية، فهؤلاء حينما يقرؤون هذه الآية يفكرون فيها ويقولون: إن الله لا يقسم إلا بأمر عظيم، فإذا أقسم بالشمس والقمر والليل والفجر ونحو ذلك؛ فإنّما هو لعظمة الخلق وجمال الصنع، أما الدواة والقلم والكتب فما عظمة صنع الله فيها؟ أكالشمس هي، أم كالقمر والكواكب؟ إن الله لم يقسم بها إلا ليعلمنا ويذكرنا بأعمالنا نحن، فكما خلق وصور وزوق في سماواته وأرضه فليكن لنا في الكتب والأقلام أعمال نرقي بها نفوسنا ومدننا وأحوالنا الاجتماعية، فلنعمم التعليم.

إن الله أقسم بالكتب والأقلام هنا، وأقسم بالرق المنشور في سورة «الطور» ليذكر المسلمين لا سيما في هذه العصور أن يكون التعليم عاماً حتى يكون الرق منشوراً، والأقلام متحركة، والكتب مسطورة عامة، ذلك من مضمون هذا القسم فضلاً عن نفي الجنون المصرح به في الآية رداً على قول الكفار: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر: ٦].

وكأنه يقال: كيف تسمونه بالجنون وقد استعدت الكتب أن تنشر باسمه والأقلام أن تخط وتشرح ما يقول؟ وسيكون هناك أمم وأمم تتعاقب بعده ولها نظام عظيم، ويكون القلم والكتاب في كل مكان.

أقسم الله بهذه الثلاثة ليذكر المسلمين اليوم قائلاً: هاأنا ذا أقسمت بالقلم والكتاب، ولم تكن أمة من أمم الفرس والروم والصين حين نزول الوحي تعمم التعليم، ولم يعم التعليم في أوروبا وأمريكا إلا بعد اصطدام الشرق والغرب في الحروب الصليبية، إن اصطدامها ولد هذه الحركة القلمية، وأول ظهورها في الغرب، وهاهي ذه امتدت إلى الشرق، وستأخذون حظكم منها موفوراً، إن تعميم التعليم وعصر الكتب والورق لم يكن إلا بعد نزول القرآن بل بفضل القرآن، لا سيما بعد التحارب والتصادم، وكأنّما الشرق والغرب كانا زندين قدحتهما العناية الربانية فتولدت بينهما شرارة، تلك الشرارة هي العلم، وأول من أثرت فيه هو الغرب، إن الغرب قد طغى على الشرق، فتحرك لقتله، فرجع الغرب بخفي حنين، ولكنه حمل بين جنبيه العلم والنور، فرقى الأمم في بضع مئات السنين، ذلك كله سر القرآن.

الله أقسم بهذه الثلاثة علماً منه بتحققها وانتشارها في كل بيت في الأمم بعد أزمان النبوة، فهو رمز وإشارة إلى ما حصل في العالم الآن.

وستكون أمة الإسلام لها القدح المعلى، وكما كان نبيها آخر الأنبياء فهاهي ذه الآن ستكون آخر الأمم تعميماً للتعليم، وكما كان شرعها ناسخاً للشرائع هكذا سكون تعليمها العام بشكل ينسخ الأشكال الحاضرة الآن في أمريكا وأوروبا، وسيكون في نظام تعليمنا ما يدهش الشرق والغرب، ونكون رحمة للعالمين، لأننا سندخل فيه أننا خير الأمم، وأننا رحمة للعالمين، وأن جيوشنا تكون أقوى الجيوش، لا لنهدم بل لنصلح الأمم الظالمة، ولا نبتغي وراء ذلك مأرباً، وسيكون في هذه الأمة مجتهدون يأخذون الأحكام من القرآن، وينظرون بعقولهم نظراً ثاقباً، وسيكون تعليم جميع العلوم السماوية والأرضية للمستعدين مشوباً بذكر خالقه وحبه، وإذن تكون العلوم كلها مرتبطة بالصانع.

هذا هو الذي سيكون ميزة أمة الإسلام، وهذا المهيع يحدث فيه حكماء نابغين لا نظير لهم يقودون أمتهم والأمم الأخرى إلى سبيل الفلاح، ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[التوبة: ٣٣]، وسيكون عصر المسلمين المستقبل عصر سلام مع الأمم، وعصر علم، وعصر حكمة، ولذلك أعقبه بقوله: ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أي: لثواباً على احتمال ما يقولون والصبر عليه غير مقطوع، فكون الأجر غير ممنون فيه رمز إلى عدم انقطاع هذه الأمم التي تتعاقب فيزداد الأجر بازدياد الأمم ودوامها، وقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ هو المذكور في قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[الأعراف: ١٩٩]، وذلك بالتساهل مع الناس فيأخذ بظواهرهم ولا يدقق على البواطن، وذلك بالتسامح والتغافل لا الغفلة، وهذا معنى العفو، والباقيان مفهومان.

قالت عائشة رضي الله عنها: «كان خلقه القرآن». ألست تقرأ القرآن: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون: ١]، وإذا رجعت إلى ما في سورة «المنافقون» وقد ظهر نفاق عبد الله بن أبي ونزل به الوحي وإنه لم يقتله؛ أدركت مكارم أخلاقه صلى الله عليه وسلم وحلمه وصبره. انتهى الكلام على المقصد الأول من السورة، والحمد لله رب العالمين.

المقصد الثاني: سوء أخلاق بعض الكفار وجزاؤهم

قال تعالى: ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴾ أي: بأيكم الجنون، فالمفتون كالمعقول والمجلود كلها مصادر، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ وهؤلاء هم المجانين على الحقيقة، ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ الفائزين بكمال العقل، ثم أمره أن يصمم على معاصاتهم، إذ قالوا: نعبد الله مدة وآلهتنا مدة أخرى، فقال: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ وهم مشركو مكة، ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ ﴾ أي: ودوا لو تلين لهم وتوافقهم بترك الطعن في آلهتهم، أو توافقهم في شركهم أحياناً، ﴿ فَيُدْهِنُونَ ﴾ فهم تمنوا أن تترك بعض ما أنت عليه مما لا يرضونه مصانعة لهم ومداهنة، فيفعلوا مثل ذلك ويتركوا بعض ما لا ترضى به فتلين لهم ويلينون لك فلا تطعهم، ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ ﴾ كثير الحلف في الحق والباطل ﴿ مَّهِينٍ ﴾ حقير الرأي، من: المهانة، وهي الحقارة، ﴿ هَمَّازٍ ﴾ عياب ﴿ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ نقال للحديث على وجه السعاية، ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ يمنع الناس عن الخير كالإنفاق والإيمان والعمل الصالح، ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ متجاوز الحد في الظلم ﴿ أَثِيمٍ ﴾ كثير الآثام ﴿ عُتُلٍّ ﴾ جاف غليظ، يقال: عتله، إذا قاده بعنف وغلظة، ﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ أي: مع ما وصفناه به من الصفات المذمومة ﴿ زَنِيمٍ ﴾ وهو الدعي الملصق في القوم وليس منهم، فهو دعي قريش وليس منهم، وهذا وصف الوليد بن المغيرة، وقد ادعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة من مولده ويقال: الزنيم هو الذي له زنمة كزنمة الشاة، وكانت له زنمة يعرف بها، ويعرف أيضاً بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها، وهذه معان ثلاثة ذكرها المفسرون: فهو ملصق في قريش، وله زنمة ظاهرة، وأيضاً يعرف بالشر، فربما كانت هذه الثلاثة كلها أو بعضها فيه، ولقد وصف بعشرة أوصاف هي سيئات الأخلاق في مقابلة عظمة خلقه صلى الله عليه وسلم. ثم أخذ يقرعه على غروره فقال: ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ أي: كذب بآياتنا وهو القرآن لأجل كونه ذا مال وبنين، وكان ماله تسعة آلاف مثقال من فضة، وبنوه عشرة، وإنّما قدرنا فعل «كذب» لأنه دل عليه بقوله: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ﴾ أحاديث ﴿ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ في كذبهم ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾ على أنفه مهانة له وعلماً يعرف به، وتلك السمة هي المهانة والإذلال، كما تقول: جدع أنفه، ورغم أنفه، وكفى بسوء سمعته في الدنيا بهذه الآيات وفي الآخرة بالفضيحة والعذاب مهانة، أو هي سمة ظاهرة على الأنف بدون مجاز، فيقال: إن أنفه أصيب بجراحة يوم بدر فبقي أثرها سمة له، وإذن يكون ذلك من علامات النبوة. انتهى المقصد الثاني من السورة، والحمد لله رب العالمين.

المقصد الثالث

ضرب مثل لأهل مكة ولكل ذي جهالة من أهل الأرض وحرص وطمع

وقصة أصحاب الجنة أنهم قوم من أهل الصلاة كانت لأبيهم جنة بقرية يقال لها «ضروان»، وكانت على فرسخين من صنعاء، وكان يأخذ منها قوت سنة ويتصدق بالباقي على الفقراء، فلما مات قال بنوه: إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر ونحن أولو عيال، فحلفوا ليقطعنها وهم داخلون في الصباح خيفة من المساكين، ولم يستثنوا حصة المساكين فأحرقها الله، وهذه هي القصة:

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ ﴾ أي: بلونا أهل مكة بالقحط ﴿ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ التي ذكرناها الآن ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا ﴾ ليقطعنها ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ داخلين في الصباح ﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ ولا يخرجون حصة المساكين كما كان يفعل أبوهم ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا ﴾ على الجنة ﴿ طَآئِفٌ ﴾ بلاء طائف ﴿ مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي: من عذاب ربك، ولا يكون الطائف إلا ليلاً ﴿ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾ كالبستان الذي صرم قطع ثماره بحيث لم يبق منه شيء ﴿ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ ﴾ أي: بأن اخرجوا إليه غدوة ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴾ قاطعين له ﴿ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴾ يتسارون فيما بينهم لئلا يسمع المساكين، يقولون: ﴿ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴾ أي: لا تمكنوه من الدخول، فـ « أن » مفسرة، ﴿ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴾ أي: وغدوا على جد في المنع قادرين عند أنفسهم، ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا ﴾ أول ما رأوها وهي محترقة بالطائف الرباني؛ ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴾ طريق جنتنا فأين الطريق إليها؟ ثم تأملوا فعرفوا أنها جنتهم وأنها احترقت، فقالوا مضربين عما تقدم: ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ حرمنا خيرها لجنايتنا على أنفسنا، ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ أي: أفضلهم في الرأي وفي السن: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ أي: هلا تذكرون الله وتتوبون إليه من خبث نيتكم؟ ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ بمنعنا المساكين، ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴾ يلوم بعضهم بعضاً ﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ ﴾ دعوا على أنفسهم بالويل ﴿ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴾ في منعنا حق الفقراء والمساكين ولم نشكر نعمة الله بالإنفاق منها ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ ﴾ ببركة التوبة والاعتراف بالذنب، وروي أنهم أبدلوا جنة خيراً منها، ﴿ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴾ راجون العفو طالبون الخير، ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ﴾ أي: مثل ذلك العذاب الذي ذكرناه من عذاب الدنيا نفعل بمن تعدى حدودنا وخالف أمرنا سواء أكان من أهل مكة مشركي العرب أو من غيرهم من أمم الإسلام وأمم أوروبا وبلاد الشرق. فهذه قاعدة عامة مطردة لا يفلت منها فرد ولا مجموع، ولقد أصبحت هذه القاعدة مشاهدة الأثر في زماننا، وقد كنا منذ سنين نظن معاشر المسلمين أن دول أوروبا التي ظلمت الشرق لا رادع لها ولا زاجر، وكنا نقول: أين وعد الله بإهلاك الظالمين؟ فحصلت وقائع غيرت وجه المسكونة، فماذا حصل؟ كانت دول أوروبا في بلاد الشرق لها في كل دولة منها امتياز واختصاص وتعاظم، فيكونون في البلاد ضيوفاً في حين أنهم ساداتها بقوانين يصدرونها، فيقتل الرجل منهم المسلم الوطني أو الشرقي الصيني والهندي ثم يفلت من العقاب، إذ لا يحاكم إلا في محاكم دولته، فلقد قلب الله الآية، والدهر قلب، فطردهم الترك من بلادهم، فلا اختصاص لهم في البلاد ولا امتياز، وهكذا دولة إيران، وفي أثناء كتابة هذا التفسير بل في أثناء تفسير هذه السورة قامت ضجة وثورة في بلاد الصين ضد أوروبا يطلبون ألا يسود عليهم الأجنبي في بلادهم، وقد أجابت الأمم إلى ذلك، ويعدون المعدات لإجابة الطلب كما أجابوا بلاد الترك من قبل.

ومن قبل هؤلاء فعل أهل اليابان ذلك، ولقد سلط الله دولة الروس « البلشفية »، فهؤلاء يساعدون كل من أراد أن يطرد هؤلاء الظالمين من بلاده، ولهم قواد عند الأمير عبد الكريم ببلاد مراكش للمساعدة على إخراج الظالمين.

كل ذلك مبدأ لما سيحصل في الأمم المستقبلة، فستكون حرة لا سلطان عليها لظلم أوروبا التي هرمت وشاخت، وستقوم دولة شابة في الشرق، وقد ابتدأت تتحرك اليوم وتحل محل هؤلاء الظالمين، كل ذلك داخل في معنى هذه الآية، فإن أصحاب الجنة استأثروا بالثمر وحرموا الفقراء، وهذه الدول ظنت أن الناس مخلوقون لخدمتهم فأرادوا استعبادهم فقلب الله الآية، وسيدور الفلك دورته ويتم الله نصر المظلومين الذي ابتدأ الآن وسيزيد ارتقاؤه في المستقبل القريب.

فهذه الأمم اليوم تذوق عذاب الخزي في هذه الحياة الدنيا بالفقر المدقع الذي استولى على بلادها، وبالبلشفية التي أصبحت كالسوس تنخر في عظامها، وقريباً يذهب ظلمها المتداعي إلى السقوط، ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ أعظم منه ﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ لاحترزوا عن الفعل الذي يؤدي إليه. انتهى الكلام على المقصد الثالث من السورة، والحمد لله رب العالمين.

المقصد الرابع: تقريع المجرمين

وأمر بالصبر لنبينا صلى الله عليه وسلم لئلا يكون كصاحب الحوت

قال تعالى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أي: جنات ليس فيها إلا التنعم الخالص، لا الجنات الدنيوية التي يشوبها العذاب بزوال ثمرها وخلو اليد منها. ثم أخذ يرد على من قال من الكفار: إن صح أننا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم يفضلونا بل نكون أحسن حالاً منهم، لأن من أحسن في الدنيا إلينا فهو محسن إلينا في الآخرة، فقال: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ ثم خاطبهم على طريق الالتفات فقال: ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ هذا الحكم المعوج وكيف تسوون بين العاصي والمطيع فضلاً عن أن تفضلوا العاصي على المطيع، ثم أخذ يقطع عليهم الحجة ويسد عليهم أبوابها فقال: هل تلقيتم كتاباً من السماء فقرأتم فيه أنكم تختارون ما تشاؤون بحيث تكونون وأنتم مجرمون كالمسلمين الصالحين! بل أعطيناكم عهوداً أكدناها بالأيمان المؤكدة، عاهدناكم عليها فاستوثقتم بها، فهي ثابتة إلى يوم القيامة، فأقسمنا لكم بها أنا حكمناكم وأعطيناكم ما تحكمون لأنفسكم، بل ألهم أناس يشاركونهم في هذا القول ويذهبون مذهبهم، مع أنه لا يسلم لهم بهذا القول أحد ولا يساعدهم، ولا كتاب لهم ينطق به، ولا عهد لهم عند الله، وإذا زعموا أن لهم أناساً يذهبون مذهبهم فليأتوا بهم يوم شدة الأمر وصعوبة الخطب، ويقال لهم اسجدوا وقت تلك الشدة، توبيخاً لهم على ترك السجود في الدنيا، وذلك إما في النزع أو بعد الموت، فلا يقدرون على السجود وأبصارهم خاشعة، والذلة محيطة بهم، مع أنهم كانوا يدعون إلى السجود في الدنيا وهم متمكنون منه. هذا هو قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴾.

فقوله: ﴿ تَدْرُسُونَ ﴾ أي: تقرؤون، و﴿ تَخَيَّرُونَ ﴾ أي: تختارون، و﴿ أَيْمَٰنٌ ﴾ أي: عهود، و﴿ بَٰلِغَةٌ ﴾ أي: متناهية في التوكيد، وقوله: ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي: ثابتة لكم علينا إلى يومها،

وقوله: ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴾ أي: أيهم بذلك الحكم قائم يدعيه ويصححه، وقوله: ﴿ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ متعلق بـ« يأتوا » أي: يوم يشتد الأمر ويصعب، فهو كناية عن الشدة، وقد كانوا إذا ابتلوا بشدة كشفوا عن الساق، وذلك كما تقول للأقطع البخيل: يده مغلولة، مع أنه لا يد له ولا غل، فهكذا هنا لا ساق ولا كشف، وقوله: ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ ﴾ أي: ذليلة، وقوله: ﴿ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ ﴾ أي: في الدنيا، وقوله: ﴿ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴾ أي: أصحاء. ثم إن قوله في أول هذه الآيات: ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ أصله « أن » بالفتح، لأنه مدروس لوقوع الدرس عليه، وإنّما كسرت لوجود « اللام » في خبرها.

ثم قال تعالى: ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَا أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾.

يقول الله سبحانه: خل يا محمد بيني وبين من يكذب بهذا القرآن، فإني عالم بما ينبغي أن يفعل به مطيق له فلا تشغل قلبك بشأنه، وتوكل عليّ في الانتقام منه، إنا سندنيهم من العذاب درجة درجة، ونستنزلهم إليه حتى نورطهم فيه، فنوالي النعمة عليهم ونرزقهم الصحة والعافية، فتزداد معاصيهم من الجهة التي لا يشعرون أنها استدراج، فكلما جددوا معصية جددنا لهم نعمة وأنسيناهم شكرها، وأنا أمهلهم فإن استدراجي لهم وكيدي قوي متين.

ثم كأنه يقول: يا محمد، ماذا ينقمون منك؟ أأنت تسألهم أجراً على تبليغ الرسالة فتثقل عليهم فامتنعوا؟ كلا، بل هل عندهم علم الغيب المكتوب في اللوح المحفوظ فهم يكتبون منه ما يحكمون به! فلا هذا ولا ذاك، إذن القوم معاندون، لم يبق إلا أن تصبر لحكم ربك فقد حكم بإمهالهم وتأخير نصرتك، فإنهم إن أمهلوا لم يهملوا، وأخذ يذكره بحادثة يونس عليه السلام، إذ غضب على قومه وفارقهم، ونزل إلى السفينة فابتلعه الحوت، ودعا ربه في بطنه فقال: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الأنبياء: ٨٧]، وهو مملوء غيظاً، وهذا هو قوله تعالى: ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ﴾ أي: كله إلي فإني أكفيكه، ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ سندنيهم ونقربهم من العذاب ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾ أمهلهم ﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ جعل الإحسان كيداً كما جعله استدراجاً لكونه في صورة الكيد ﴿ مَتِينٌ ﴾ شديد ﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ وهو إمهالهم ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾ وهو يونس عليه السلام ﴿ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ مملوء غيظاً، وقوله: ﴿ لَّوْلَا أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ أي: رحمة ﴿ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ ﴾ أي: لطرح بالفضاء من بطن الحوت ﴿ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ أي: مليم مطرود من الرحمة والكرامة ﴿ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ ﴾ وذلك بأن رد الوحي إليه ﴿ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

أي: الكاملين في الصلاح بأن عصمه فلم تبق له زلة، وهذه الآية نزلت لما هم أن يدعو على ثقيف، أو بأحد حين حلّ بالمسلمين ما حلّ فأراد أن يدعو على المنهزمين، ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ ﴾ أي: إنهم لشدة عداوتهم ينظرون إليك شزراً بحيث يكادون يزلون قدمك ويرمونك، يقال: نظر إلي نظراً يكاد يصرعني، أي: لو أمكنه أن يصرعني بنظره لفعله، أو يقال: إنهم يكادون يصيبونك بالعين، وذلك أن العين كانت في بني أسد فكان الرجل منهم يتجوع ثلاثة أيام فلا يمر به شيء فيقول فيه: لم أر كاليوم مثله إلا هلك، فطلب من بعض العيانين أن يقول في رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ذلك، فقال: لم أر كاليوم مثله رجلاً، فعصمه الله من ذلك، وفي الحديث: «العين حق وإن العين لتدخل الجمل القدر والرجل القبر». وعن الحسن: رمية العين هذه الآية.

وقوله: ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ ﴾ «إن» مخففة من الثقيلة، فهي للتأكيد و«اللام» واقعة في خبرها، وقوله: ﴿ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ ﴾ أي: حين سمعوا القرآن ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ حسداً على ما أوتيت من النبوة ﴿ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴾ إن محمداً لمجنون، حيرة في أمره وتنفيراً عنه ﴿ وَمَا هُوَ ﴾ أي: القرآن ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ إلا وعظ ﴿ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ للجن والإنس، أي: جننوه لأجل القرآن مع أنه ذكر عام لا يدركه ولا يتعاطاه إلا من كان أهلاً له. اهـ.

إيضاح

إن هذه الآيات متلاحقة متواصلة المعنى، فإن أصحاب الجنة ضربوا مثلاً لمن أعطوا نعمة فبخلوا بها عن الناس، وحرصوا عليها، فنزل بهم السوء وأحاط بهم، فزالت نعمتهم، وهكذا الاستدراج في النعم، فإن الإنسان يعطى النعمة ولا تزال تتوالى عليه وهو غافل ساه، فيظن أن الله أحبه، وأن هذا العز يدوم، فإذا نعمته زائلة وهمه حاضر، هكذا الحكم يشمل الأفراد ويشمل الأمم، الأفراد والأمم مشتركون في هذه القواعد.

واعلم أن هذه القضية مسلمة عند علماء الاجتماع، فما من دولة إلا ولها زمان ترتقي فيه، وتكون أشبه بالدابة ترعى في مرعاها سائمة هائمة آمنة مطمئنة، فلا تلبث أن تأكل ما يضرها فتمرض أو تموت، وما مثل الأمة في عنفوان عظمتها إلا كمثل ما وصفه علماء الطب الحديث في النمسا وألمانيا إذ قالوا: إن أكثر من نراهم أصحاء الأبدان، أقوياء الجسم، حمر الخدود، موردي الوجنات، لما في تغذيتهم من المواد الكثيرة الغذاء كاللحم والبيض واللبن، فهؤلاء لا يزالون هكذا حتى تتخطفهم المنون وهم لا يشعرون، وأما ذلك الذي نراه ضعيف الجسم كثير الأمراض فهذا الذي نسميه قوياً، لأن جسمه قدر أن يخرج منه الفضلات الباقيات في جسمه التي لو بقيت لأهلكته، أما الأول الذي يظن الناس أنه قوي ويحسدونه فإنه هو الضعيف في نظرنا، لأنه دائماً أو غالباً يموت فجأة وهو غافل، وما مثل جسد الأول وجسد الثاني إلا كمثل بيت لم تجعل له مصارف لما فيه من القاذورات، وبيت قد جعل له ذلك، فالثاني خير من الأول.

قالوا: وهذا هو السر في أنا نرى كثيراً من الضعفاء المهزولين يعمرون، وكثيراً من الأقوياء يموتون فجأة وهم في عنفوان الشباب.

إذا عرفت هذا فهمت أحوال الدول، فالأمم إذا استبحر عمرانها، وتكاثر نسلها، واستعمرت الأرض واستكثرت من الشهوات؛ جرها ذلك إلى البطنة وسوء الحال، فيقول غيرها من الأمم: ما أحسن حالهم! ويهابونهم، ولكنهم يكونون قد أشرفوا على الهرم وقاربوا الهلاك.

وهذه دول أوروبا الحالية أمرها على هذه الحال، أصبحوا وهم شرهون متنعمون لم يظهرهم إلا تفوقهم في الصناعة، ولكنهم مشرفون على حال الهرم وضياع المدنية، كما ذهبت دولة اليونان والرومان، وآباؤنا العرب القدماء، وهذه الحال طبيعية في الأمم. فأما الأمم التي هي في حال البداوة فإن أخلاقها وعقولها قابلة للرقي، ومتى جاء دورها ولمَّ شعثها، وسيقت لحرب الأمم العظيمة؛ أهلكتها وحلت محلها، فدولة الرومان أزالها أولئك المتوحشون من الأمم التي نزحت قديماً من آسيا، فأزالوا تلك الدولة وحلوا محلها، وذلك في نحو القرن الرابع والخامس بعد الميلاد، وهكذا دولتنا العربية زالت قديماً وحلت محلها أمم أخرى كالتتار والسلجوقيين وغيرهم، وأمم أوروبا لاحقة بهم قريباً، ألا ترى إلى بلاد مراكش في أيامنا الحاضرة كيف اتحدت دولتان عظيمتان على قتالهم، وتعدادهم رجالاً ونساءً نحو مليون كما يقال، وهم جهال، ومع ذلك دوّخوا الدولتين معاً، وفرنسا تستعين بأمم كثيرة من السنغال وتحارب إخواننا مع أنهم جزء قليل من بلاد مراكش، فهذه الأمم الإسلامية التي لم يقتل النعيم والبطنة هممها، ولم تدنس الشهوات عقولها؛ متى جاء وقتها وتسلمت مقاليد المدنية أزالت تلك الأمم من مراكزها، فأمم الشرق اليوم أشبه بذلك الرجل النحيف المريض، وأمم الغرب أشبه بذلك الرجل الضخم الجسم الأكل من المواد الكثيرة التغذية، فهذا هو الاستدراج والاستنزال، ثم يكون الهلاك.

أمر الله الصادقين في أعمالهم أن يصبروا لأن دولة الباطل زائلة، ودولة الحق غالبة، فهاهو ذا سبحانه يقول للقائمين بالحق: صبراً صبراً، لا يكن أحدكم مستعجلاً، فإن هؤلاء مستدرجون وفي العذاب واقعون.

فإذا قرأت هذا أيها المسلم فاعلم أن يوم الأمم الشرقية آت، وإياك أن تقول: لِمَ لم ينصرنا الله؟ وأذكرك بصاحب الحوت، فإن أمم الإسلام الحالية تحتاج إلى مدة تستكمل قوتها فيها، فاعمل لها فلك أجر الفاتحين، وإن لم يكن على يديك، وإن ركبت متن العجلة بؤت بالندامة، وندمت ندامة الكسعي، فاعمل لأمتك وانتظر النتيجة، وأذكرك أيضاً بأن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أخبر بفتح فارس والروم، وفتح القسطنطينية، وفارس لم تفتح في زمانه، والقسطنطينية فتحت بعده بنحو تسعة قرون، فاصبر لحكم ربك كما صبر ولا تكن كصاحب الحوت فتولي هارباً وتدخل كسر بيتك، وتقول: ما لي وللمسلمين. كلا. ثم كلا. فالله سائلك لا سيما بعد التبيان في هذا التفسير الذي أنا موقن أن حركة الشرق ستنهض في إبان ظهوره، وتشتد بقراءته وقراءة ما يماثله من كتب العلماء في البلاد الإسلامية.

وبهذا تم الكلام على سورة «القلم»، والحمد لله رب العالمين. كتب عصر يوم الخميس ١٦ يوليو سنة ١٩٢٥م.

تفسير سورة الحاقة

هي مكية

آياتها ٥٢ ،نزلت بعد سورة الملك

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾
فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ
سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾
فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾
فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾
لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾
وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ
ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ
﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ
ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ
عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾
وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾
يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾
ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ
إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا
تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾
وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ

ٱلْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٥٢) ﴾

هذه السورة مقصدان:

المقصد الأول: هلاك الأمم في الدنيا، من أول السورة إلى قوله: ﴿ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ (١٢) ﴾.

المقصد الثاني: في عذاب الآخرة مختوماً بإثبات النبوة ودحض مفترياتهم، من قوله: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ (١٣) ﴾ إلى آخر السورة.

المقصد الأول: هلاك الأمم في الدنيا

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَآقَّةُ ﴾ أي: القيامة، الساعة الواجبة الوقوع، الثابتة المجيء، التي هي آتية لا ريب فيها، يقال: حق الشيء يحق، أي: وجب، وهذه مبتدأ خبره هذه الجملة: ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ أي: أي شيء هي؟ ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ أي أي: شيء أعلمك ما هي؟ فلا علم لك بكنهها، فقد بلغت من الشدة والهول أنه لا يبلغها علم المخلوقين. ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴾ أي: الحاقة المذكورة التي تقرع قلوب الناس بالمخافة والأهوال، وتقرع الأجرام بالانفطار والانتشار فتكون هباء متفرقاً في كل مكان، ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ وهي الواقعة التي تجاوزت الحد في الشدة، وذلك بالصيحة أو الرجفة لأنهم كذبوا بالقارعة، ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ ﴾ شديدة الصوت في الهبوب لها صرصرة، أو الباردة، ﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ جاوزت الحد والمقدار ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ ﴾ سلطها عليهم، وهي جملة مستأنفة لبيان فعلها ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ حاسمات حسمت كل خير واستأصلته، وحسمتهم أي: قطعتهم بعذاب الاستئصال فلم تبق منهم أحداً، وهي جمع حاسم، وهذا من شؤمها ونحسها، وهي كانت أيام العجوز من صبيحة الأربعاء إلى غروب الأربعاء الآخر، وسميت عجوزاً لأنها عجز الشتاء، ﴿ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ ﴾ موتى جمع صريع ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ أصول نخل متآكلة الأجواف ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ أي: من بقاء، أو من نفس باقية ﴿ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ ﴾ ومن تقدمه ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ ﴾ أي: المنقلبات، وهي قرى قوم لوط انقلبت بهم ﴿ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴾ أي: بالخطأ، أو بالأفعال ذات الخطأ العظيم ﴿ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ لوطاً ﴿ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾ شديدة زائدة في الشدة بنسبة زيادتهم في القبح ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ ﴾ أي: ارتفع الماء وقت الطوفان ارتفاعاً جاوز الحد ﴿ حَمَلْنَٰكُمْ ﴾ أي: آباءكم ﴿ فِي ٱلْجَارِيَةِ ﴾ وهي سفينة نوح عليه السلام ﴿ لِنَجْعَلَهَا ﴾ أي: الفعلة ﴿ لَكُمْ تَذْكِرَةً ﴾ عبرة ﴿ وَتَعِيَهَآ ﴾ وتحفظها ﴿ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ حافظة لما تسمع منتفعة به. انتهى الكلام على المقصد الأول من السورة، والحمد لله رب العالمين.

المقصد الثاني: في عذاب الآخرة واختتامه بإثبات النبوة

فهو لشرح أحوال القيامة بعد ذكر ما حلّ بالمكذبين بها في الحياة الدنيا وهلاكهم فيكون العذاب مذكوراً على الترتيب الطبيعي

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾ وهي النفخة الأولى ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ ﴾ أي: رفعت عن أماكنها ﴿ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أي: ضرب بعضها ببعض حتى تندق وترجع كثيباً مهيلاً ﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ أي: فحينئذ ﴿ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾ نزلت النازلة، وهي القيامة، وهذه الجملة جواب «إذا»، وقوله: ﴿ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ ﴾ أي: فتحت أبواباً ﴿ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ مسترخية ساقطة القوة ﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ﴾ على جوانبها، وهي جمع رجا بالقصر، وهذا تمثيل لخراب السماء بخراب البنيان في الأرض وانطلاق أهله إلى أطرافه وحوله، فكأن الملائكة وهم سكان السماوات لجؤوا إلى أطرافها بعد خرابها، ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ ﴾ فوق الملائكة الذين هم على الأرجاء ﴿ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ أي: ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم، وهم اليوم أربعة، وهذا من باب التمثيل لعظمة يوم القيامة بما نشاهد من أحوال الملوك يوم خروجهم على الناس للقضاء العام ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ ﴾ للمحاسبة تشبيهاً بعرض السلطان العسكر ليتعرف أحوالهم، ﴿ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ سريرة على الله تعالى، فإذن ليس العرض للاطلاع عليها، وإنّما المراد إفشاء الحال والمبالغة في العدل. ثم أخذ يفصل أحوال العرض فقال: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ﴾ أي: خذوا كتابي ﴿ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴾ و«هاء» اسم فعل، و«الميم» تلحق بها عند مخاطبة جمع الذكور، و«هاء» كتابيه للسكت، ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ أي: علمت أني معاين حسابي ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ ذات رضى يرضى بها صاحبها ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ مرتفعة المكان لأنها في السماء والدرجات والأبنية، والأشجار ﴿ قُطُوفُهَا ﴾ ثمارها ﴿ دَانِيَةٌ ﴾ قريبة من مريديها، ينالها القاعد والقائم والمتكئ، ويقال لهم: ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ ﴾ أكلاً وشرباً ﴿ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ ﴾ بما قدمتم من الأعمال الصالحة ﴿ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ الماضية من أيام الدنيا. ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ ﴾ حين يرى سوء العاقبة، وقبح عمله، وشناعة مرآه ﴿ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا ﴾ يا ليت الموتة التي متها ﴿ كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴾ القاطعة لأمري فلم أبعث بعدها ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴾ أي: لم ينفعني ما جمعته في الدنيا، والمفعول محذوف لم يغن عني شيئاً ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴾ تسلطي على الناس، وبقيت فقيراً ذليلاً، أو خلت عني حجتي التي كنت أحتج بها في الدنيا، فيقول الله لخزنة جهنم: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ أي: اجمعوا يديه إلى عنقه ﴿ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ أي: لا تدخلوه إلا النار العظمى ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا ﴾ طولها ﴿ سَبْعُونَ ذِرَاعًا ﴾ أي: طويلة ﴿ فَٱسْلُكُوهُ ﴾ فادخلوه فيها بحيث تلف على جسده فلا يقدر التحرك، ثم ذكر سببه فقال: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ أي: ولا يحث غيره على بذل طعامه، وعن بعضهم أنه كان يأمر أهله بتكثير المرقة لأجل المساكين ويقول: خلعنا نصف السلسلة بالإيمان فلا نخلع النصف الثاني بالإطعام، ﴿ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴾ أي: ليس له في الآخرة قريب ينفعه أو يشفع له ﴿ وَلَا

طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ أي: صديد ﴿ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾ أصحاب الخطايا، يقال: خطئ الرجل إذا تعمد الخطأ المضاد للصواب ﴿ فَلَا أُقْسِمُ ﴾ أي: فأقسم، و« لا » لفظ زائد ﴿ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ أي: بالمشاهدات والتي لم تشاهد، وهذا جمع كل شيء من المخلوقات، وشمل الخالق ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي: القرآن ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ ﴾ يبلغه عن الله ﴿ كَرِيمٍ ﴾ على الله، وهو محمد صلى الله عليه وسلم أو جبريل ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ كما يزعم بعضكم ﴿ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ أي: تصدقون تصديقاً قليلاً لما ظهر لكم صدقه ﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ﴾ كما يدعي آخرون منكم ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي: تذكرون تذكراً قليلاً، هو ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ نزله على لسان جبريل عليه السلام ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا ﴾ أي: اختلق علينا محمد ﴿ بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ أي: بيمينه ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ وهو عرق يخرج من القلب ويتصل بالرأس، وهو تصوير لإهلاكه بأفظع ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه، وهو أن يأخذ القاتل بيمينه ويضرب عنقه بالسيف، والمقصود أنه لو كذب علينا وتكلف الإخبار عنا لقتلناه إما قتلاً معنوياً وذلك بأن نهيئ له من يبطل حجته ويميت دعوته، أو نسلبه قوة البيان فلا يتكلم بهذا الكذب، وإما نميته، إذن ليس القصد من الأخذ باليمين وقطع الوتين إلا النتيجة، وهي ألا ينشر الأكاذيب، ولا جرم أن كل متكلف القول غير معبر عما امتلأ به فؤاده، ووعاه صدره، وجاشت به نفسه، بحيث يفيض المقول منه فيضاً، لا تمتد دعوته، ولا يسمع قوله، وهذه عادة الله في خلقه، فليس لامرئ متكلف من نصيب في قبول السامعين.

إن المؤلفين والخطباء والشعراء إذا لم يكن تأليفهم وخطاباتهم جائشة بها صدورهم فإن قولهم مرفوض والسامع يمله، وقارئ كتبهم لا يميل إليها، ولا يخامر قلبه حبها، وفي التنزيل: ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾[ص: ٨٦].

ثم قال تعالى: ﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ أيها الناس ﴿ عَنْهُ ﴾ عن قتل محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ حَاجِزِينَ ﴾ ولفظ « أحد » في معنى الجماعة، فلذلك وصف بالجمع، ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أي: القرآن ﴿ لَتَذْكِرَةٌ ﴾ لعظة ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ إذ غيرهم لا ينتفع به ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴾ فنجازيهم عليه ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ حينما يرون ثواب المؤمنين، ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾ الذي لا ريب فيه ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أي: نزه ربك العظيم واشكره إذ جعلك أهلاً لأن يوحى إليك، أو فسبح الله بذكر اسمه العظيم تنزيهاً له عن الرضى بالتقول، وشكراً إليك. انتهى التفسير اللفظي للمقصد الثاني من السورة، والحمد لله رب العالمين.

إيضاح

اعلم أن هذه السورة سيقت لتبيان هلاك الأمم الجاهلة في الدنيا بخرابها، وفي الآخرة بعذابها.

إن التكذيب بالقيامة الذي بني عليه هذان العذابان: عذاب الدنيا بخراب الدول؛ وعذاب الآخرة بجهنم؛ إنّما هو عنوان على الجهالة، فليس خراب تلك الأمم للتكذيب بالقيامة وحده، فقد جاء فيها أن منهم من طفف المكيال والميزان، ومنهم من ظلم عباد الله، ومنهم من استغنى بالذكران عن النسوان فإذن يرجع الأمر إلى الجهالة، فيصير الأمر هكذا: إن الأمم التي أقفلت عقول أبنائها وغفل رجالها

تعذب عذابين: عذاباً في الدنيا وعذاباً في الآخرة، وإذا ضرب الله مثلاً بعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون، فمثل هذه الأمم كل أمة غافلة جاهلة العواقب لم تتق ما يطرأ عليها من حوادث الدهر بإعداد المعدات وإحياء أرضها وعقول أبنائها، ومعرفة ما في هذه الدنيا من الصناعات والعلوم، وإذا كان جهل الآخرة التي هي غائبة عنا لم نشاهدها يوجب عذاب جهنم؛ فكيف إذن يكون جهل ما أحاط بالناس من مدمرات ومهلكات! إنه أحرى أن يوجب الخزي في الدارين.

وإيضاحه أن الآخرة أعد فيها عذاب جهنم ونعيم الجنة، فمن جهل هذه العاقبة دخل جهنم، ومعلوم أن الآخرة لم يعرفها الناس بعقولهم، وإنّما عرفوها بكلام أنبيائهم الصادقين المؤيدين بالمعجزات، فيقال: إذا كانت هذه حال الناس إذا كذبوا أمراً سمعياً لم يروه؛ فكيف تكون حالهم إذا رأوا الأمم حولهم قد استخرجت منافع ما في الأرض وملكت منها حظاً وافراً لغرضين: إحياء أممهم وإماتة غيرهم، فإذا هم أهملوا ما هو يقين عندهم، وهو أن تلك الأمم المحيطة بهم ستنقض عليهم وربما أفنتهم كما أفنى أهل أوروبا سكان أمريكا الأصليين، واستأصل الإنجليز سكان أستراليا الأصليين إلا قليلاً؛ فإن العذاب يلحقهم في الدنيا بانقضاض تلك الأمم عليهم، ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾[طه: ١٢٧].

ثم إن الإيمان بالآخرة لا نتيجة له إلا العلم والعمل في الدنيا، فأي أمة غفلت عما أحاط بها من العلوم في الأمم حولها، وما دبرت من كيد وذل للضعفاء، فإن هذه السورة تبين لها مقدار عذابها في الدنيا بذلها وفي الآخرة بجهنم. ولقد قلنا في هذا التفسير: إن المسلم إذا ظن أن العذاب خاص بأمم معلومة في الدنيا والآخرة؛ وأنه هو مبرأ منه؛ فليعلم أن هذا غرور اختلقه الوعاظ الكاذبون. انظر هذا الموضوع في سورة «آل عمران الآية ٢٤» عند قوله تعالى: ﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ وفي سورة «البقرة» عند مسألة الشفاعة.

إن سنة الله واحدة، ولن يغيرها لأجل مسلم جاهل مغتر في دينه. وأما تعلل المسلم بأنه غير مخلد في جهنم فليعلم أن العذاب الطويل لا يطاق، فالمسلم الذي يتكل هذا الاتكال يحرم من السعادة في الدنيا والآخرة، فإذا ذكر الله ثمود وعاداً، أو قوم لوط الخ؛ فلنا أن نذكر أيضاً خراب الأندلس التي كان يعمرها المسلمون واحتلال مصر بالإنجليز وبلاد شمال أفريقيا بقوم من الفرنجة، وهكذا العراق والشام، أليس هذا هو عذاب الدنيا، ألم يعذب الله المسلمين بجهلهم، نعم هم يؤمنون بالآخرة ولكنهم لا يؤمنون بالمحسوسات المشاهدة من ظلم الأمم، فلا يحافظون على بلادهم، ولا يكون ذلك إلا بالعلوم والمعارف.

أيها المسلمون، ألستم تعدون أن هذا من الله؟ أليس هذا تعجيلاً للعذاب؟ ألستم ترون أنكم بنومكم عن معرفة كمال الله وعظمته، والاطلاع على آثاره وحكمته، وبحرمانكم من خيرات ما خلق من البدائع والمنافع؛ قد استحققتم غضبه، لأنكم غير شاكرين، ولا متقبلين نعمه.

يا عجباً! أيظن المسلم أن الله يكتفي منه بأن يقول: آمنت؟ عجباً لأمة الإسلام! ألم يقرأ المسلمون: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾[العنكبوت: ٢] أي: وهم لا

يختبرون، فهذا هو الاختبار، اختبر عقولكم فوجدها غافلة، أحاط بها جمال الله في صنائعه، أحاط بها أمم الفرنجة بالمدافع والطيارات، أحاطت بها صناعات الفرنجة تدخل بلادهم فيشترونها بأغلى الأثمان فتفتقر البلاد فتصير ملكاً للأجانب، أليس هذا من الاختبار؟ ألم يقل الله على لسان قوم: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[الملك: ١٠] ألم يقل الله: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولٗا ﴾[الإسراء: ٣٦] ألم يذكر الله آيات كثيرة في الحض على النظر والتفكر في السماوات والأرض؟ غفل المسلمون فليستيقظوا، ماتوا فليتنبهوا، فقد جاء دورهم، أفلم يقرأ المسلمون: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٖ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾[الحاقة: ٣٠-٣٤].

أفلا يعلم المسلم أن الاقتصار على جمع المال وادخاره يحبس العقل فيظلم، وتصبح النفس مكبلة به لا انفكاك لها منه، فيعيش للمال ويموت متحسراً عليه، أي: يعيش ولا نظر له في حكمة، ولا علم، ولا دولة، ولا منفعة أمة من الأمم، لأنه حول وجهته إلى غرض واحد هو المال، ومن كان هذا شأنه فتكون جميع أحواله راجعة لهذا المعنى، حتى إن كثيراً من عشاقه يعتريهم الوسواس في آخر حياتهم، فيقول أحدهم: أين سفني البحرية؟ أين قصوري؟ أين كنوزي؟ أين أموالي؟.

وإذا مات لا يفارقه هذا الوسواس، ولا يغادره هذا الخناس، فهو كالمقيد بالسلاسل لا خلاص له منها لا انفكاك، فلا له في الدنيا علم ولا عمل، ولا فكر في أمته، وفي الآخرة يكون على منهجه لا يتعداه، فلا يزال في الجهالة العمياء.

حكاية

وهل لك أن أذكرك بحكاية البخيل الذي مات في مدينة «أنجوليم»، وقد رمز له بحرف «ل» وكان يسكن الطابق السفلي من داره، فلما مرض لم يعلم أحد بمرضه، فدخل رجال الحكومة فوجدوه شاخص البصر إلى كمية من النقود الذهبية الملقاة على مائدة أمامه، فأخرجوه إلى المستشفى فمات، حينئذ أحضره الجماعة الروحية بعد موته، أي: أحضروا روحه. فقال: إني لم أمت، وكان ذلك في ٢٥ أيلول سنة ١٨٦٣، ثم أحضروه مرة أخرى فقال: ماذا تريدون مني؟ الأحرى بكم أن تردوا لي مالي الذي سرقوه مني، ما أقبح عملهم! أنا الذي تعبت مدة حياتي كلها لأجمع قليلاً من النقود أستعين بها عند الحاجة، فسرقوها مني وأحلوا بي الدمار، أرجوكم سادتي أن تأخذوا بنصرتي، وتسعوا في رد ما أخذوه مني. فلما قيل له: أنت ميت ولا تحتاج للمال؛ قال: ما هذه الوقاحة، هل الجنيهات في نظركم لا تعد شيئاً، فلما ذكروه بأن الأجدر به أن يبحث عن كنزه في السماء، ردت الروح قائلة: ما أبلدكم دلوني على المكان الذي فيه كنزي، وكفوا عن المزاح، فقيل له: ألا تعرف الله؟ قال: ليس لي هذا الشرف، أريد استرجاع مالي. انتهى المقصود منه نقلاً عن كتابي «الأرواح» الذي ألفته في هذا الصدد.

أفليس هذا الغني الذي كان المال هو المقصود الأكبر من حياته قد كبله المال فصار في سلسلته التي كبلته فلا يقدر الانفصال عنها، أليس قوله تعالى: ﴿ فِي سِلْسِلَةٖ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾[الحاقة: ٣٢-٣٤]؛ يشير

لنحو هذه الحكاية وأمثالها مما في ذلك الكتاب وغيره مما امتلأت به بلاد أوروبا كلها، وبلاد الإسلام محرومة منه.

ألم يجعل الله وضعه في السلسلة الطويلة للجهل وللبخل بالمال، ولا جرم أن العقل متى كان غير منطلق من قيود الجهالة لا يعقل المنافع، فهذا الفرنسي الذي لم ير بعد الموت أمامه إلا المال، هو موضوع في سلسلة معنوية أعظم من السلسلة الحسية ألف مرة، إن المحسوس في سجن قد يعيش فيه عشرات السنين، ولكن الذي اعتراه عشق فملك قلبه وهو مطلق السراح في القضاء قد يموت، وقد يقتل نفسه، وكثير من العشاق ماتوا لأنهم حبست عقولهم في سورة واحدة لم ينالوها، وربما جعلت لهم سلاسل حسية وإن كانت أقل في التعذيب من السلاسل المعنوية.

إن عذاب الدنيا والآخرة بالسلاسل والضيق والاستعباد يكون بسببين: جهل بالعقول، وتقصير في الأعمال. وللأول الإشارة بقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾[الحاقة: ٣٣] وللثاني بقوله: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾[الحاقة: ٣٤].

إن للعقول لذة غير لذة المال: لذة العلم، لذة ارتقاء الأمة، لذة النصر على أعداء الأمة، لذة ارتقاء الصناعات، الخ. فما المال إلا آلة من آلات الحياة.

إيضاح السلسلة والعذاب بها

اعلم أن الناس عليهم واجبان: واجب للخالق، وواجب للمخلوق. فالواجب عليهم لخالقهم أن يعرفوه. وبعبارة أخرى: أن يدرسوا نظامه في العوالم كلها على قدر الإمكان، فالعالم بالدراسة، والجاهل بالعبادة، لأنها تذكر بهذا العالم في أثناء القراءة، فإن قراءة الصلوات فيها الكلام على العالمين وعلى الربوبية الخ. وفيها قراءة القرآن، ولا جرم أن القرآن مذكر لهذا العالم.

وأما الواجب للمخلوق، فهو المساعدة العامة والمعاشرة الجميلة، فلن يصل لله إلا بعلم وصولاً حقيقياً، أو بعبادة وصولاً ثانوياً إجمالياً، ولن تكون روحه في الحياة وبعد الممات فرحة بالأرواح الأخرى إلا إذا كانت تجلب لهم المساعدة، وتتخذ مودتهم شعاراً لها، فليعاشر الناس بالأخلاق الحسنة إن لم يكن بالمساعدة العامة لهم، فإذن الإنسان يحظى بربه وبخلقه بالعلم والعبادة أولاً وبالنفع العام والأخلاق ثانياً، فإن لم يوفق إلى أحدهما أو كليهما فإنه في سلسلة لا تراها العيون، ولكنها سلسلة أشد ضنكاً وتعذيباً من سلسلة الحديد. وهاك المثل المتقدم في حكاية البخيل الذي أحضروا روحه. ألم يقل بعد موته إنه محتاج لماله، ألم يقل إنه لا يعرف الله وليس له هذا الشرف، أليس هذا مصداق: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[الإسراء: ٧٢]، أليس هذا الرجل أعمى في الدنيا وأعمى في الآخرة، ألم يكن محروماً من معرفة الله كما أقر بنفسه، ومن معرفة الحياة بعد الموت، ومن محبة الناس، لأنه بخيل، أليس هذا هو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾[الحاقة: ٣٣-٣٤]، فضلاً عن أنه هو نفسه ملزم أن يواسيهم بماله، ولعلك تقول: أين السلسلة التي في رقبته؟ أقول لك: السلسلة هنا سلسلتان: حسية ومعنوية، أما السلسلة المعنوية فانظر.

(١) ألست ترى أن رجلاً ارتكبته الديون وهو شهير بالثروة فقام الدائنون عليه فحجزوا ما يملك، فبعض أمثال هذا ينتحرون، لماذا؟ لأنهم يفتضحون، فمم يتخلص هذا؟ يتخلص من سلسلة معنوية أشد من السلسلة الحسية.

(٢) ألم يقل الله تعالى على لسان مريم: ﴿ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴾ [مريم: ٢٣]، فإذن مريم تمنت الموت وفضلته على الحياة، ولماذا؟ لأنها وضعت في سلسلة العار التي لا تنفصل عنها.

(٣) العاشق الذي تقدم ذكره يقدم على الموت تخلصاً من السلسلة العشقية، التي ربطته ربطاً محكماً، وكم من امرئ اعتاد شرب الدخان، أو الخمر أو عادات أخر فلازمته، فلم تنفك عنه حتى أوردته الهلاك، وأمثلة هذا المقام كثيرة.

وأما السلسلة الحسية، فهاك وصفها، انظر ألست ترى أن القمر يدور حول الأرض، وهي تدور حول الشمس، وهي دائرة حول كوكب آخر، وهكذا سلسلة متناسقة إلى أن تصل إلى الشمس الكبرى في المجرة. فهذه شموس متصلات متناسقات كأنها أوراق شجرة كل جماعة في غصن، فهذه السلسلة المركبة من شموس وسيارات وأرضين باعتبار العلم الحديث متتالية متجاذبة متماسكة تماسك حلقة السلسلة، والإنسان من بني آدم حي على الأرض فوق حلقة من حلقات تلك السلسلة المحيطة بها كما وصفها المفسرون، إذ قالوا: إن السلسلة تلتف عليه وتحيط به، فالإنسان فوق هذه الأرض العائش فوق حلقة من السلسلة مربوط بها وهي محكمة عليه لا يقدر على فراق الأرض لأنه مجذوب إليها، وهو مع ذلك جاهل بما يحيط به، لم يخترق حجب الكون حتى يعرف فاعله، فلذلك أحكم عليه رباط السلسلة لأنه لا يدرس إلا ما يسد جوعته، وأما هذا الوجود فإنه عنه في غفلة، فلا يمكنه أن ينفذ منه ويخترق حجبه ليدرك بعقله ما وراءه، وكيف ينفذ فيعرف إلا بسلطان العلم وقوة النفس وأجنحة الهمة، فهو من هذه الوجهة محبوس لا قدرة له على معرفة ما وراء شهواته، فإذا مات بقي محبوساً كما هو، لأنه لم يتزود من الأرض معارف تعينه على السير هناك، ألا ترى قول البخيل المتقدم: أنا ليس لي شرف معرفة الله. فكأن الإنسان في الدنيا مربوط في سلسلة عظيمة جداً طولها آلاف الآلاف من الأميال، بل لا يعرف مقياسها، فإذن الواجب أمران: أولها: العالم بنظام ولو بطريق العبادة، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾[الحاقة: ٣٣]، فهذه العظمة لا تعرف إلا بدراسة هذا لكل امرئ بمقدار طاقتهم، وثانيهما: العمل، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴾[الحاقة: ٣٤]. ثم إن السلسلة حسية، وهي هذا الوجود إذا كان مجهولاً للإنسان فإنه يموت وهو محبوس الفكر عن الصعود إلى ما وراء الحس، وسلسلة معنوية وهي ما ركز في النفوس من التعلق بأمر مخصوص، فليس للإنسان من دواء إلا بالعلم بالفضائل الخلقية. انتهى تفسير سورة «الحاقة» يوم الجمعة ١٧ يوليو سنة ١٩٢٥م.

تفسير سورة المعارج

هي مكية

آياتها ٤٤، نزلت بعد سورة الحاقة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ (١) لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ (٢) مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ (٣) تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ (٤) فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا (٦) وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا (٧) يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ (٨) وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ (٩) وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا (١٠) يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۢ بِبَنِيهِ (١١) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ (١٣) وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤) كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥) نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ (١٦) تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ (١٧) وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ (١٨) ۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ (٢٢) ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ (٢٣) وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ (٢٤) لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ (٢٥) وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ (٢٦) وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ (٢٨) وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ (٣١) وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ (٣٢) وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ (٣٣) وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ (٣٥) فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ (٣٦) عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ (٣٧) أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ (٣٨) كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ (٣٩) فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ (٤٠) عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ (٤١) فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ (٤٣) خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ (٤٤) ﴾

هذه السورة ثلاثة مقاصد:

وهي أشبه بالتي قبلها، فلذلك ذكرت عقبها، فهي مبدوءة بوصف يوم القيامة وأهواله، والنار وعذابها، وذلك من أول السورة إلى قوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ وهذا هو مقصدها الأول.

ومقصدها الثاني في صفات الإنسان التي أوجبت له الجحيم، وغرائزه الفطرية التي أوجبتها، وكيف يجتهد لإزالة ذلك النقص حتى يرتقي إلى المعارج، ويخرج من عالم المادة، وذلك من قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾[المعارج: ١٩] إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

ثم المقصد الثالث فيه وعيد لأولئك الكافرين، من قوله: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾ إلى آخر السورة.

المقصد الأول: وصف يوم القيامة وأهواله والنار وعذابها

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ كان أهل مكة يقول بعضهم لبعض: إن محمداً يخوفنا بالعذاب، فمن أهل هذا العذاب؟ ولمن هو؟ وكان النضر بن الحارث خاصة ونحوه يقولون: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[الأنفال: ٣٢]، فنزلت هذه الآيات. يقول الله: دعا داع وطلب طالب، كالنضر بن الحارث، عذاباً واقعاً كائناً للكافرين، فـ «الباء» في «بعذاب» زائدة، ويجوز أن يكون كقولك: دعا بكذا، إذا استدعاه وطلبه، فلا تكون «الباء» زائدة.

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ أي: إن العذاب واقع بهم لا محالة فلماذا يطلبونه استهزاء؟ فسيكون في الدنيا بالقتل، وفي الآخرة بالنار، وقد قتل النضر بن الحارث يوم بدر، فليس لهذا القتل ولا لعذاب الآخرة دافع يدفعه عنهم، ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: يرده من جهته، وكيف يرد وقد تعلقت به إرادته؟ ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ أي: ذي المصاعد، وهي الدرجات التي يصعد فيها الكلم الطيب، وذي النعم التي تكون درجات متفاضلة، وهي تصل إلى الخلق على مراتب مختلفة، وذي المراتب التي جعلت حقوق الملائكة فيها، وذي السماوات التي هي درجات بعضها فوق بعض.

يقول الله: إن العذاب الذي طلبه السائلون واستبطؤوه واقع بهم لا محالة، وهو لم يفعل ذلك إلا الحكمة لأنه لم يفعل ذلك إلا لبعضهم في دركاتهم التي أهلوا لها باستعدادهم، وهو قد نظم العوالم كلها، فجعل منها مصاعد، ومنها دركات، فليكن هؤلاء في الدركات، وليكن المؤمنون والملائكة في الدرجات طبقاً عن طبق بنظام تام. ثم أخذ يستأنف مبيناً ارتفاع تلك الدرجات فقال: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قدم الملائكة لأنهم في عالم الأرواح، أي: العالم المبرأ من المادة، وأتبعهم بالروح أي: أرواح المؤمنين، فإنها تذهب صاعدة عند الموت إلى مصاعد صعدها الملائكة، يقتفون آثارهم على مقدار مراتبهم، فيصعد هذان الصنفان إلى عرش الله ومهبط أمره في يوم طويل مقداره خمسون ألف سنه من سني الدنيا، وليس ذكر الخمسين

ألف سنة، ولا ذكر ألف سنة للتحديد بالمدة، بل المقصود أن مقام القدس الإلهي بعيد المدى عن مقام العباد، فهم في المادة مغموسون، وفي أوحالها مغمورون، وهناك عوالم ألطف وألطف، درجات بعضها فوق بعض، وكل عالم ألطف مما قبله، وكلما لطف العالم العلوي كان أشد قرباً، وهكذا، ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[النجم: ٤٢]. وتلك الدرجات المتتاليات لا حصر لها، فعبر عن هذا كله بخمسين ألف سنة، وإلا فهي بعيدة المدى، والملائكة درجات بعضها فوق بعض، وهكذا أرواح المؤمنين وكل منهم يعرج إلى الدرجات العلى.

كأنه عز وجل يقول: إن هؤلاء إذا عذبتهم فأنا لم أخلق الخلق إلا ليعبدون، فيرتقوا إلى درجات القرب ويصعدوا إلى مراتب الكمال، فأنا ذو المعارج، فإن عذبت أهل مكة فذلك لنقص في فطرهم، وإلا فأساس خلق العالم الارتقاء، أنا ذو المعارج ولست ذا الدركات، فالأرواح لا تزال ترتقي إلي طبقاً عن طبق في الحياة، وبعد الموت في البرزخ، وبعد دخول الجنة هم يتسابقون في الاستعلاء طبقاً عن طبق، فارتقاء دائم إلى أبد الآبدين، ودهر الداهرين، ولا ارتقاء إلا بالكشف العلمي، وعلمي لا نهاية له، وحكمتي لا غاية لها، فعبادي المخلصون لا يزالون يزدادون مني اقتراباً بالعلم في الدنيا وفي البرزخ وفي الجنة، بل أعلى درجات الجنة أن يكون الناس في عالم روحي خالص من المادة للاستغراق في العلم، ولا معنى للقرب مني إلا بالعلم، وشبهه العلماء بقرب الأستاذ من التلميذ، فكلما ازداد علماً ازداد من أستاذه قرباً، فهذا هو العروج الذي تعرجه الأرواح، وهذا العروج لا نهاية له، فليعد بخمسين ألف سنة، أو فليعد بأضعافها، فالمقصد المراتب العظيمة. قال تعالى: إذا سألوا استعجال العذاب على سبيل الاستهزاء والتكذيب بالوحي وكان هذا يورث ضجرك يا محمد؛ ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾ بلا جزع ولا شكوى، لأنه أمر محقق وكل آت قريب، ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ ﴾ أي: العذاب ﴿ بَعِيدًا ﴾ من الإمكان، أو من الوقوع ﴿ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾ أي: من الإمكان، أو من الوقوع، وقوله: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴾ أي: يقع يوم تكون السماء كدردي الزيت، أو كالفضة المذابة في تلونها، ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴾ أي: كالصوف المصبوغ ألواناً، فإن الجبال حمر وبيض وسود، فإذا بست وفرقت وطارت في الجو أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح، ﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ أي: لا يسأل قريب قريبه لشغله بشأن نفسه، ولا يكلمه لشدة هول ذلك اليوم حال كونهم ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ أي: يرى الأحماء الأحماء، والحميم فعيل يقع موقع الجمع، فلا يسأل حميم حميماً حال كونهم يشاهدونهم، وذلك لتشاغلهم، فلم يتمكنوا من التساؤل. ثم استأنف فقال: ﴿ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ ﴾ يتمنى المشرك ﴿ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ ﴾ أي: من عذاب يوم القيامة ﴿ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴾ أي: فلم يقف الأمر عند التشاغل عن سؤال الحميم حميمه، بل أصبح الوضع مقلوباً، فبعد أن كان في الدنيا يدافع عنه وربما تقدم للقتل محافظة على حميمه والدفاع عنه؛ صار في الآخرة يود أن يفتدي به، والصاحبة: الزوجة ﴿ وَفَصِيلَتِهِ ﴾ عشيرته ﴿ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴾ تضمه ويأوي إليها ﴿ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾ أي: يتمنى لو ملك هؤلاء جميعاً ثم يفتدي بهم جميعاً، ﴿ كَلَّآ ﴾ لا ينجيه من عذاب الله شيء ﴿ إِنَّهَا ﴾ الضمير مبهم يفسره ﴿ لَظَىٰ ﴾ اللهب الخالص، أو علم للنار، ﴿ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴾

أي: لأطراف الإنسان كاليدين والرجلين، أو جمع شواة، وهي جلدة الرأس تنزعها نزعاً فتفرقها ثم تعود إلى ما كانت عليه ﴿ تَدْعُواْ ﴾ تجذب وتحضر ﴿ مَنْ أَدْبَرَ ﴾ عن الحق ﴿ وَتَوَلَّىٰ ﴾ عن الطاعة ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴾ وجمع المال فجعله في وعاء وكنزه حرصاً وتأميلاً. وإلى هنا تم الكلام على المقصد الأول من السورة، والحمد لله رب العالمين.

المقصد الثاني: في غرائز الإنسان

ووجوب تهذيبها حتى تنجو من هذه النار التي هي في عالم المادة وكيف يكون الصعود من الأخلاق الموجبة للنار إلى تلك المعارج؟

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ الهلوع، فسره الله بما بعده كما قاله ابن عباس، ﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ فهو قليل الصبر، شديد الحرص، فهو عند مس المكروه سريع الجزع، وعند مس الخير سريع المنع والبخل، فهذا طبع الإنسان وقد أمر بمخالفته، فهو كفحل وقع في وحل وكلما تخلص من ورطة وقع في أخرى، فإن تخلص من ضر أتاه الخير وبالعكس فكأنّما الخير والشر سلسلة قد أحاطت به فلا ينجو منها، فهو لا يخلو من خير أو شر مدة حياته يتعاقبان عليه أمد الحياة، وهو موثق بهما وبتعاقبهما، فعند الشر يجزع، وعند الخير يمنع، فهذان الخلقان يتعاقبان عليه، فكيف الخلاص من تلك السلاسل إذن؟ لذلك أعقبه بالخلاص منها، وذلك بعشر خصال:

(١) الصلاة.

(٢) المداومة عليها في أوقاتها المعلومة.

(٣) والمحافظة عليها إذا ابتدؤوا فيها بحضور القلب، والخشوع، ومراعاة السنن والفرائض.

(٤) التصديق بيوم الجزاء فيحاسب المرء نفسه في الدنيا.

(٥) أن يعطوا من أموالهم الزكوات والصدقات لمن يسأل ولمن لا يسأل وهو فقير فيظنه الناس غنياً.

(٦) أن يراعوا العهود والمواثيق.

(٧) أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها.

(٨) وأن يحفظوا فروجهم عن الحرام.

(٩) أن يؤدوا الشهادات على وجهها.

(١٠) أن يكونوا مع هذا كله خائفين من عذاب ربهم.

فهذه الصفات العشرة هي التي تخلص الإنسان من تلك السلاسل التي قيدته بها طبائعه وغرائزه التي فطر عليها وعاداته، وكلها راجعة إلى شيئين: الحرص والجزع. ولقد لخصتها لك بترتيب غير ما تراه في الآية ليسهل عليك تعقله، فقوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ استثناء للمصلين الموصوفين بما ذكر من نوع الإنسان كله، كما أقسم بالعصر، أي: الدهر كله، ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾[العصر: ٢-٣] فالإنسان إذا ترك وشأنه في خسر، ولكنه إذا علم وهذب فهو خارج من الخسر، وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ لا

يشغلهم شاغل عن أدائها في أوقاتها ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ ﴾ الذي يسأل ﴿ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ وهو من لا يسأل فيحسب غنياً فيحرم ﴿ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ تصديقاً موجباً للثمرة المطلوبة، وهي أن يسخر نفسه وماله في طاعة الله ومنفعة الناس، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ خائفون على أنفسهم ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ أي: لا ينبغي لأحد أن يأمن عذاب الله، ولو أدى هذه الطاعات كلها وزاد عليها ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ ارجع إلى تفسير هذه الآيات في سورة «المؤمنون»، ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴾ يقومون بها عند الحكام ولا يكتمونها ولا يغيرونها، والشهادة أمانة خصت بالذكر بعد الأمانات لعظم شأنها فبها تكون الأحكام ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ فيقدمون الوضوء، وستر العورة، والمكان الطاهر، ويقصدون الجماعة أولاً، ثم يفرغون القلب عن الوسواس والالتفات إلى ما سوى الله تعالى مع الخشوع والخوف وإتمام الأركان على ما ينبغي، وأن لا يكون مرائياً، ولا قاصداً السمعة، ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ فيها بثواب الله تعالى. وإلى هنا تم الكلام على المقصد الثاني من السورة، والحمد لله رب العالمين.

المقصد الثالث: في وعيد الكافرين

قال تعالى: ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ ﴾ حولك ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ مسرعين مقبلين إليك، مادي أعناقهم، ومديمي النظر إليك، متطلعين نحوك. ذلك أن جماعة من الكفار كانوا يجتمعون حول النبي صلى الله عليه وسلم يستمعون كلامه، ويكذبونه، يقول الله تعالى: ما لهم ينظرون إليك وهم جالسون عندك ولا ينتفعون بما يسمعون منك، ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ عن يمينك وشمالك فرقاً شتى حلقاً حلقاً، والعزون جمع عزة، وأصلها العزة، أي: الجماعة، يقال: عزاه يعزوه، إذا نسبه، فكل فرقة تعتزي، أي: تنتسب إلى غير ما تعتزي إليه الأخرى، ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ بلا إيمان، وهذا رد لقولهم: لو صح ما يقوله محمد لكنا أكثر حظاً منهم في الآخرة كما نحن كذلك في الدنيا ﴿ كَلَّآ ﴾ ردع لهم عن هذا الطمع، ﴿ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ أي: كيف يطمعون أن يدخلوا عالم القدس والأرواح الطاهرة ونحن خلقناهم من النطفة التي نقرها في الأرحام وننقلهم حالاً بعد حال، ولا مناسبة بين هذه الحياة وبين الحال القدسية، فلا بد من الاستكمال بالعلم والعمل، ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ أي: نهلكهم ونأتي بخلق أفضل منهم، أو نعطي محمداً صلى الله عليه وسلم بدلكم من هو خير منكم، وقد تم ذلك بالأنصار بعد نكوص أهل مكة وكفرهم به، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ بمغلوبين إن أردنا أن نفعل ذلك ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ ﴾ في باطلهم ﴿ وَيَلْعَبُوا۟ ﴾ في دنياهم ﴿ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ ثم فسر ذلك فقال: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ ﴾ القبور ﴿ سِرَاعًا ﴾ مسرعين جمع سريع ﴿ كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ النصب كل شيء منصوب كالعلم والراية ونحوها، وكل منصوب للعبادة، ويوفضون: يسرعون، والنصب: كجنب وكقلب وكقطب، قراءات.

﴿ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٌۚ ﴾ أي: ذليلة أبصارهم يغشاهم هوان، ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ يعني يوم القيامة الذي كانوا يوعدون به في الدنيا. انتهى التفسير اللفظي للمقصد الثالث من السورة، والحمد لله رب العالمين.

لطائف هذه السورة:

(١) في قوله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۝٣ ﴾.

(٢) وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ۝٢١ ﴾.

(٣) وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ۝٣٩ ﴾ الخ.

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۝٣ ﴾

لما وصلت إلى هذا المقام حضر صديق لي من أهل العلم فقال: هل لك أن أقص عليك حكاية عن آبائنا الأولين تناسب هذا المقام؟ فقلت: إني لذلك وامق.

حكاية الشعبي وملك الروم

قال: قرأت في كتب الأولين أن عبد الملك بن مروان أرسل وفداً إلى ملك الروم وفيه الشعبي العالم المشهور، فلما دخل الشعبي على ملك الروم قال له: إنكم تقولون إن الله لا أول له، ولا شيء قبله، وتقولون إن الإنسان يأكل في الجنة ويشرب ولا يبول ولا يتغوط، وتقولون: إن نعيم الجنة لا ينفد، فهل تقدر أن تضرب لي أمثالاً مما نشاهده في الدنيا حتى يقرب ذلك من عقول الناس؟.

فقال الشعبي: إن الأعداد أولها الواحد، وما الأعداد إلا الواحد المكرر، فبتكرار الواحد حصلت الأعداد أزواجها وأفرادها، ولو عدمت الأعداد لم يعدم الواحد، ولكن لو عدم الواحد عدمت الأعداد أزواجها وأفرادها، والواحد المذكور لا شيء قبله، فهذا مثل يكفي لأمرين: أن الله لا شيء قبله، وأن الموجودات منه استمدت، وأيضاً تفنى الموجودات وهو الباقي.

أما كون الإنسان يأكل في الجنة ويشرب ولا يبول ولا يتغوط، فهذا له نظير في الدنيا وهو الجنين في بطن أمه، فإنه لو بال أو تغوط لأهلكها، لذلك جعل الله دم الأم ممتداً إليه من عرق متصل بالسرة يمتد في سائر أطراف الجسم، فلا بول ولا غائط له، والأم تقوم مقامه في هذا السبيل. وأما كون نعيم الجنة لا ينفد فإننا نشاهد السراج في الدنيا يقبس الناس منه ألف سراج ولا ينطفئ، هكذا نعيم الجنة.

فلما سمع ذلك ملك الروم، قال: عجبت للمسلمين كيف جهلوا فلم يجعلوك ملكاً عليهم، فلما رجع إلى عبد الملك وجد الخبر عنده بتمامه، فقال له عبد الملك: أتدري لمَ قال لك: كيف جهل المسلمون فلم يجعلوك ملكاً عليهم؟ قال: لا. قال: حسدني عليك أراد أن أقتلك، ولكن خاب فأله، وأعطاه مالاً جزيلاً.

فلما أتم صاحبي هذه الحكاية قال لي: هكذا هنا يذكر الله المعارج، ومعارج الآخرة ودرجاتها لم نرها، فهل تذكر لنا معارج في الدنيا حتى نقيس عليها معارج الآخرة، وتكون معارج الدنيا مضرب أمثال لمعارج الآخرة؟ فقلت: لأضرب لك سبعة أمثال:

المثال الأول : السلسلة الحيوانية والنباتية والمعدنية المذكورة في هذا التفسير في مواضع كثيرة، وقد وضحت في سورة «آل عمران» فارجع إليها، فإنك ترى هذه المعارج في الدنيا واضحة ظاهرة، لأنك ترى المعادن درجات بعضها فوق بعض، أدناه مما يلي التراب كالجص والزاج، وأعلاه مما يلي النبات كالذهب والياقوت، فكم فيها من معارج ومصاعد، ثم النبات تبتدئ فيه من خضراء الدمن، وهي تطلع أول النهار وتيبس في وقت الظهيرة، فهذا أدنى النبات، ويرتقي درجات إلى مرتبة النخل الذي أشبه الحيوان بأنه إذا قطعت رأسه مات، وبأن ذكره منفصل عن أنثاه، وهكذا يكون الحيوان، فأدناه ما كان أدنى إلى النبات مثل قوقعة تنبت على الصخور فيها دودة على شاطئ البحار، وليس لها من عالم الحيوان إلا الحس والحركة البسيطة، ولكنها مغروسة في مكانها لا تبرحه، وهي قد شاركت النبات في الحس كما هو موضح في محله، وهكذا يرتقي الحيوان طبقاً عن طبق إلى أن يصل إلى القرد فالإنسان كما عرفته مما تقدم في هذا التفسير، فهذه سلسلة أدناها الجص والزاج، وأعلاها الإنسان، ومن ذا يحصي مصاعد هذه السلسلة؛ وقد عد الحيوان بالملايين والنبات بمئات الآلاف، لا يحصيها أحد، ولا يقدر على ذلك، فهذا مثل لمصاعد الآخرة أعطاه الله للعلماء في الدنيا، أما الجهال فأعطاهم مثلاً يناسبهم، جعل الناس درجات، غنياً وفقيراً ليظهر لهم بعض تلك الدرجات بمقدار طاقتهم.

المثال الثاني : الجنين في بطن أمه ينتقل في أطوار كثيرة، فحين الخلقة الأولى لا يختلف عن كل حيوان، ثم يأخذ في التمايز والارتقاء طبقاً عن طبق، فيكون أولاً دودة حقيرة فحلزونة فسمكة ثم يكون كالدبابات وهكذا إلى أن يشابه القرود، ثم يكون إنساناً، كل هذه السلسلة ينتقل فيها وهو في بطن أمه، وقد تقدم هذا في سورة «آل عمران».

المثال الثالث : درجات الإنسان بعد الوضع : يخرج من بطن أمه وهو لا يعقل ولا يسمع ولا يبصر، ثم يسمع ويبصر ويعقل تدريجاً حتى يصل إلى إنسان يفيض النور والعلم على أهل الأرض كلها باختراع أو علم أو نبوة، أو يضيء قطعة منها كمملكة بالملك والسلطنة أو نحو ذلك، فهذه مصاعد لإنسان لا يحصى عددها في الحياة الدنيا، فهذه أمثلة ثلاث تريك المعارج في الدنيا.

المثال الرابع : ارتقاء أحوال الناس في المال، فمن صعلوك لا يملك قوته إلى مثر كبير يملك القناطير المقنطرة فيكون عنده مائة مليون.

المثال الخامس : الجمال، من الناس من هو مثل في القبح، ومنهم من هو مضرب الأمثال في الجمال وبينهما درجات لا تحصى.

المثال السادس : الموجودات الحادثة منها ما هي في غاية اللطف، وهي الأثير الذي فيه تكونت هذه المادة، ومنها ما هو غاية في الكثافة كالحديد والذهب والحجارة الصلبة، وبينهما درجات لا تحصى.

المثال السابع : درجات الإنسان الأخلاقية، إنه يرتقي مهما كان نوعه، كافراً أو مؤمناً، فاسقاً أو صالحاً، في أخلاقه ارتقاء طبيعياً، فبعد أن كان في مبدأ حياته لا يفكر إلا في شهوته الخاصة وهو طفل، فلما كبر وتزوج وولد أصبح مشغوفاً بأبنائه وبناته يسعى عليهم ويربيهم وينمي ثروتهم، فهذا هو الترقي في الخلق طبيعة، لأنه انتقل من تكميل نفسه الجسمي إلى تكميل غيره الذي نسميه ابناً أو بنتاً،

وهذا ارتقاء في معارج الكمال جاء للناس والحيوان بالطبيعة، ولكن الله لا يكتفي منا بذلك، يريد أن يعلمنا الاستقلال فيكون ارتقاؤنا بإرادتنا وعلمنا وإلا بقينا في عالم الكون والفساد الأعمى، والارتقاء بإرادتنا هو ما سيجيء في اللطيفة الثانية إن شاء الله تعالى.

واعلم أن هذه الدرجات والمعارج الحسية إنّما هي سياسات للنفس ومناظر، بدراستها ترتقي في معارجها المعنوية إلى ربها الذي هو حاضر عندها ليس غائباً، فبالبحث والعلم تنتقل النفس من حال إلى حال في درجات نفسية، حتى إذا وصلت لمنتهى لطاقتها عاينت ربها، وليس ذلك بمعارج حسية بل معنوية، وما ذكرناه أمثلة لها ومدارس.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾

إن هذه السورة كالموضحة للسورة قبلها، فإن قوله تعالى هناك: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة: ٣٣-٣٤] قد وضح هنا كما فسرناه هناك، وقلنا ما يفيد أن الإيمان يرجع للقوة العلمية، والحض على طعام المسكين يرجع للقوة العملية، وأن السلسلة هناك مبدؤها وسببها ما يوصف به الإنسان من الجهالة بهذه العوالم، فلا يدرس نظام هذه الشموس والكواكب المنتظمة التي أخذ بعضها ببعض وتجاذبت كأنها سلسلة واحدة، فمن لم يفك نفسه من هذه العوالم إما بدراستها أو بعبادة صادقة بحضور قلب حتى يخلص لربها، ومن لم يفك عقال نفسه مما أحيط به من اللذات والشهوات والعادات؛ فإنه لا محالة مقرون محبوس في سلسلة تلك الشهوات لا ينفك عنها، فإذا مات وجد نفسه على ما هي عليه، فالعوالم مجهولة، وقد أحيط بها، والشهوات لا زالت تجاذبه، فليخلص نفسه منها بالإحسان، وليتقرب إلى أبناء جنسه، ولينفعهم حتى يصعدوا معاً إلى معارج الكمال، هذا فحوى ما ذكر في السورة التي قبل هذه.

فأما مبدأ السلسلة المذكورة هناك التي أوضحها هنا؛ فإنه أوضحها بعد أن ذكر أن النار تنزع جلود الرؤوس أو الأيدي والأرجل؛ ذكر أن السبب في ذلك أن الإنسان مجبول على جبلات غليظة، فلا صبر على بلوى ولا شكر على نعمة، والشكر على النعمة يكون بأن يصرفها إلى مصارفها التي خلقت لها، وبين المخرج من ذلك بأمرين: أحدهما نفسي، وثانيهما عملي. أما النفسي فهو العلم المرموز له بالتصديق بيوم الدين، والخوف من الله، فهذان رمز بهما إلى كمال النفس بالعلم والحكمة، وأما العملي فهو الصلاة والمداومة عليها والمحافظة والزكاة، ومراعاة العهود والمواثيق، وأداء الشهادات على وجهها، وحفظ الفروج.

وملخص ما تقدم: ذكر سبب وقوع الإنسان في السلاسل بعد الموت، وذكر الخلاص من تلك السلاسل ولا خلاص منها في الآخرة إلا إذا خلص منها في الدنيا، فالعلم خلاص من الجهل الذي يجعل الإنسان حائراً في هذا الوجود، وأدنى العلم أن يواظب على العبادة حتى يرسخ في ذهنه أن وراء هذا العالم حالاً أخرى بالتكرار، ودفع الصدقات، وأداء الأمانات وما أشبهه مما تقدم، كل ذلك تخليص للنفس من الجزع ومن الحرص، فإعطاء المال مكروه عند النفس، وأداء الشهادة فيه إغضاب

للمشهود عليه وجلب عداوة، وأداء الأمانة قطع للطمع فيها، وكل هذا تقطيع لتلك السلسلة التي قيدتنا في هذه المادة. وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الثانية، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾

أي: وقد علموا أنهم خلقوا من نطفة قذرة، فأنى لهم الوصول إلى جانب القدس ما لم يقطعوا مفاوز، ويصعدوا مصاعد، وأنى لهم بالمصاعد والمراتب إلا بالعلم والعمل، ولو تأمل الناس درجات الحياة التي هم فيها؛ وأن الطفل إذا كان في أول حمله دودة فما مضى أربعون سنة حتى كان ذلك الطفل يدبر أمة بتمامها مثلاً؛ لأدركوا درجات الآخرة وعظمتها، فإن الروح إذ تخرج من الجسد ترتقي طبقاً عن طبق، فإذا كانت المادة التي نحن فيها ارتقت فيها الروح الإنسانية من نفس كنفس الدودة إلى نفس حكيم أو نبي أو ملك، فما بالك به وقد خرج من الجسم، فلنسمه هناك دودة في عالم الأرواح، وهذه الدودة ترتقي هناك ارتقاء يفوق الوصف إذا كانت معها المعدات التي بها تسير هناك، وإذا كان الارتقاء في الأرض محدوداً لأننا في عالم المادة؛ فالارتقاء هناك لا حد له يعرف، ولا آخر يوصف، لأنه هناك ارتقاء بالعلم، وعلم الله لا حد له، فالإنسان لا يزال يرتقي فيه إلى ما لا يتناهى من الزمن.

هذا هو تفسير هذه الآيات، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، فيعدون العدة بالعلم والعمل للسفر هناك، وإلا قعدت بهم الحال، وأوثقتهم السلاسل في العذاب، وبقوا في عالم المادة الكثيف.

فلما سمع صاحبي هذا البيان، قال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، إن هذا البيان يثلج الصدر وإني لا أزال أقول إنه ضرب أمثال، وضرب الأمثال ليس برهاناً، وإنما هو تقريب للأذهان، ويا ليت الناس يعرفون ذلك، وأن الأرواح فعلاً ترتقي في ذلك العلم، ولكن هذا الكلام الذي قلته أنت أشبه بكلام الصوفية الذين يقولونه بوجدانهم، والوجدان ليس بدليل، بل كثيراً ما يكون الوجدان كاذباً فلا دليل عليه، وغاية الأمر أنك حليته بالعلوم الطبيعية وبعلم الإنسان والنبات والحيوان والمعدن لأنك لكثرة دراستك وتأليفك في هذه العلوم أصبحت فيك ملكة تضرب بها الأمثال، فهل من مثال أقرب من هذا؟ قلت: نعم. أقص عليك مختصر ما قاله روح «غاليلي» المشهور حين أحضرتها الجمعية النفسية، فهذه تشم منها رائحة تعرفك هذه الدرجات الأخروية، وقد ذكرتها فيما مضى في هذا التفسير نقلتها من كتابي «الأرواح»، فلنذكر ملخص ما يناسب هنا، فذكر:

(١) كيف تكونت مادة العالم المشاهد، وذكر التجاذب والنظام ودوران الكواكب.

(٢) بين أن المجرة هي الأصل، ومنها اشتقت شموس، ومن الشموس شموس إلى شمسنا فأرضنا فقمرنا فأقمار زحل وحلقاته النيرة، والنجوم ذوات الأذناب التي هي أشبه بالمفتشين على الشموس.

(٣) ثم ذكر أن هناك ألوفاً من المجرات منتشرة في أقاصي العوالم، كل مجرة فيها ملايين من الشموس، وأبان أن شمسنا لها أخوات يدرن معها حول شمس أخرى، وهذه الأخرى لها أخوات يدرن جميعاً حول شمس أخرى، وهكذا إلى أن تنقطع الفكر، فهي كدواليب آلة واحدة. ثم قال: إن المجرات أشبه بالجزائر في بحر الأثير العظيم.

(٤) ووصف الفضاء والزمان فقال: إنه لا حد له، وكذب الفلاسفة الذين قالوا: إن هناك حداً له، وسخر منهم، وقال: إننا إذا جمعنا ألوفاً من ألوف من القرون والأحقاب لا يكون هذا العدد إلا نقطة زهيدة في الأبدية، وإذا مضى من حياتنا الروحية عدد من القرون يوازي قدر ما يكتب على طول خط الاستواء فإنه ينقضي هذا العدد الجسيم والنفس كأنها اليوم ولدت، وإذا أضفنا إلى العدد المذكور سلسلة أخرى من الأعداد ممتدة من الأرض إلى الشمس أو أكثر فإنه ينقضي هذا العدد الذي لا يدرك قياسه من القرون، والنفس لا تتقدم يوماً واحداً إلى الأبدية، فما أهمية عمر الإنسان على الأرض.

(٥) وذكر أن الملايين من الشموس المخلوقة في المجرة القريبة حولها سيارات كسيارات شمسنا وأن منها شموساً كنجم «سريوس» الذي يربو حجمه وجماله ألوفاً من المرات على حجم شمسنا ونورها، وقال: إن هناك نجوماً توائم تختلف وظائفها عن وظائف شمسنا، ففي السيارات المحيطة بتلك الشموس المثناة لا تعد السنون والأيام كما في أرضنا، وأحوال الحياة فيها يتعذر على الناس تصورها، ومن الشموس ما لا سيارات لها، إنّما أحوال سكانها خير الأحوال.

(٦) وقال أيضاً: إن البعد الشاسع بيننا وبين الأجرام القاصية لا يقطعه النور إلا في ألوف الألوف من السنين، وتصل أشعته إليكم اليوم مع أنها ربما انبعثت قبل خلق الأرض بأمد مديد. ثم قال: ففي هذه كما في غيرها تظهر حقارة الإنسان وعدم دنياه، إنّما سيأتي يوم فيه يبقى ذكر الأرض في ذهننا كظل بخاري بعد أن نكون قد تدرجنا أجيالاً لا عدد لها إلى العوالم العليا، وحين نتأمل في المستقبل عند بلوغنا هذا الحد لا نرى نصب أعيننا إلا تعاقباً سرمدياً من العوالم وأبدية ثابتة لا انقضاء لها. انتهى خاصة كلام روح «غاليلي».

فلما سمع ذلك صاحبي قال: يا عجباً! أهذا كلام الأرواح؟ لقد أصبحنا في زمان ظهرت فيه العجائب المدهشة، فقد كان الناس يتمنون لو يسمعون كلام الأموات ويسألونهم ماذا حصل لهم، فإن صح هذا كان من أعجب الأعاجيب وأبدع الحكم، وكان أقرب إلى تفسير لفظ المعارج، فهاهو ذا أظهر لنا أن العوالم درجات وأن منها ما لا نحلم بجماله كمالاً وبهاءً، وأن أرضنا الحقيرة في أثناء ارتقائنا بعد الدهور والعصور لا تكون إلا ظلًا في أذهاننا، وأن هناك حياة أرقى من حياتنا بما لا يتناهى كما كبرت شمسنا عن أرضنا، وكما كبرت شموس أخرى وفاقت شمسنا حجماً وبهاء آلافاً مؤلفة، فالجمال والعظم لا حد له ولا حصر في العوالم طبقة فوق طبقة، وجمال النظام في الحياة كذلك لا حد له ولا نهاية ظهرت المعارج في هذا المقام ظهوراً واضحاً. ثم قال صاحبي: ولعل هذه المعارج تكون لنا في حال البرزخ، أما يوم القيامة فإنا نحشر ونجتمع في صعيد واحد وهناك يكون أمر آخر. ثم قال: ويا ليت روح «غاليلي» روح مسلم حتى كنا نصدق ما جاءت به. فقلت له: الأرواح بعد الموت تطلع على مقدار استعدادها، والعلم مشترك بين الأمم. وإذا كنا نشك في قول الأرواح الفرنجية فهذه نعمة على أمم الإسلام ليزدادوا علماً بالبحث في العوالم ويحضروا الأرواح، وتكون لهم جمعيات علمية. وإذن يبحثون بأنفسهم، ويجدون في أعمالهم، ويعثرون على ما لم يعرفه الفرنجة. والله هو الولي الحميد.

وبهذا تم تفسير سورة «المعارج» وذلك في يوم السبت ١٨ يونيو سنة ١٩٢٥م، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة نوح
هي مكية
آياتها ٢٨، نزلت بعد سورة النحل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ۝٢١ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ۝٢٢ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝٢٣ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ۝٢٤ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ۝٢٥ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ۝٢٨﴾

مقاصد هذه السورة اثنان:

المقصد الأول: دعوة نوح عليه السلام لقومه، وذلك من أول السورة إلى قوله: ﴿ سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

المقصد الثاني: كفرهم وعقابهم في الدنيا والآخرة، وذلك من قوله تعالى: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ ﴾ إلى آخر السورة.

أما الدعوة ففيها ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: ترك الذنوب الإيجابية والذنوب السلبية بالاستغفار منها، فالذنوب الإيجابية كتعاطي الخمر والزنا والقتل، والذنوب السلبية كترك العلوم والصناعات، فإذا تركوا هذه الذنوب كلها أو جلّها أكثر الله لهم المال والبنين والبساتين والأنهار، وذلك من أول السورة إلى قوله: ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾.

المبحث الثاني: النظر في خلق السماوات والأرض والأنوار، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾.

المبحث الثالث: النظر في خلق الإنسان، وأنه يخلق من الأرض كما يخلق النبات، والنظر في أن الأرض مسخرة لنا نتصرف فيها كما نشاء، تصرفاً نتمكن به من كل ما نحتاج إليه في حياتنا، وذلك من قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

المقصد الأول: دعوة نوح لقومه

التفسير اللفظي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ ﴾ أي: بالإنذار ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ الطوفان وعذاب الآخرة ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي: أنذركم وأبين لكم ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ وحده ﴿ وَاتَّقُوهُ ﴾ بأن تفعلوا الطاعات وتتركوا المعاصي ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما آمركم به من العبادة والتقوى ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ أي: بعض ذنوبكم، وهي السابقة ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي: إلى منتهى آجالكم فلا يعاقبكم، ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

اعلم أن الأنبياء جاؤوا لإصلاح الأحوال في الدنيا والآخرة، فهم يريدون نظام الحياة ونظام الممات، ولما كان نظام الحياة يكون أرقى وأجمل فكلما استقامت الأمم وانتظم شملها كانت الأموال فيها أوفر إذا تم نظامها، والأعمار تكون أطول والصحة أتم والأنهار أجمل، والبساتين أكثر على مقتضى النظام الموضوع، فعلى مقدار النظام يكون الهناء والسعادة في الحياة، فمن فرط في صحته بأن أكثر من المآكل الضارة أو ترك الغذاء حتى هلك، ومن قلت مزارعهم وتجاراتهم فقل غذاؤهم قصرت أعمارهم على تلك النسبة، ولذلك كلما كثر الجدب في الأمم قل التناسل، وكلما عم الخصب كثر النسل، ولا ريب أن طول الأعمار وقصرها يرجع لأسباب أكثرها مجهولة للناس، والمعلوم منها المحافظة على الصحة، ووفرة الغذاء، والنظافة، وما أشبه ذلك، فأما ما لا يعلم فهو عند الله تعالى لا

يطلعنا عليه، فهاهنا رتب على التقوى والطاعة وأن تغفر ذنوبهم وأن تؤخر آجالهم، ومتى جاءت الآجال التي حددها الله لهم لا تؤخر لحظة، فالتقوى والطاعة يؤثران هذا الأثر، وهو طهارة الأرواح وبقاء الأشباح إلى أمد محدود، لأن التقوى منها حفظ الأمن والمسارعة إلى اكتساب الفضائل واستنتاج ما في باطن الأرض من المنافع، فالتقوى ترك الذنوب، وذلك يجعل في البلاد أمناً واسعاً، والطاعة تشمل جلب المنافع المادية، لأن الشكر على النعمة لا يتم إلا بمعرفتها وتقبلها من المنعم وصرفها في وجوهها، ومتى فعلوا ذلك طالت الأعمار إلى الأمد الذي يناسبها بعد انصراف الموانع بالتقوى والطاعات. وما مثل العمر إلا كمثل جواد يجري في ميدان واسع له نهاية، وهناك قصبة مركوزة في آخره علامة على نهاية الميدان، والناس يتسابقون في ذلك الميدان إلى تلك القصبة المغروسة فمنهم من يصادفه أثناء الجري فوق جواده الذي عبرنا به عن العمر من يقتله فيخر صريعاً في أول الميدان، ومنهم من يقتل بعد ذلك وهكذا، ولا يصل إلى آخر الميدان إلا من لم يصادفه في الطريق قاتل له، أو لم يسقط فيموت، هكذا الناس في الحياة يسيرون إلى النهايات، فإذا منعتهم الموانع هلكوا، وهذا مشاهد في الدنيا كالأمة المصرية، فإنها في القرن الماضي لم يكن فيها إلا مليونان أو يزيدون، فلما جاء الخديوي محمد علي نظم قناطرها وجسورها، فما تم مائة سنة ونيف حتى وصلت إلى ١٤ مليوناً، كل ذلك لحسن النظام وإقامة الترع والجسور والأمن في البلاد، فإذا جعل الله غفران الذنوب وطول الأعمار مرتبين على الطاعة فهو من هذا القبيل، لأن الطاعة فيها الأمن في البلاد، وعدم ترك المواهب الجسمية والنفسية والأرضية، وإياك أن تسمع ما يحتج به العامة والجهلاء وصغار العلماء أن العمر محدد، فتخصيص العمر منهم جهل فاضح، لأن التحديد ليس خاصاً بالعمر بل التحديد يشمل كل شيء في الوجود، بل حركات الكواكب والأقمار والشموس وأنفاس الإنسان فكلها مقدرة، فتخصيص التقدير بالعمر غلط وخطأ فاحش، فالله قدر كل شيء فكيف يخصصه الجهلاء بالأعمار، والله قدرها وقدر غيرها وكتبها عنده ولم نطلع عليها، وأمرنا بالسعي والطلب، فمن سعى كما أمره الله فإن هذا السعي وافق علم الله القديم فإنه ينال نتائج هذا السعي، فيطول عمره إلى الأمد المحدد، وتزول الموانع فلا يموت كما قدر هو في لوحه المحفوظ، وما مثل النصائح التي جاءت من الديانات والحكماء والعلماء في الأمم إلا كمثل طلع النخل وطلع الأشجار الأخرى، فإنه لا يتناوله إلا الإحصاء، والذي يصادف الزهرات الإناث جزء قليل جداً، وهذا الجزء القليل به ظهرت الثمرات وسعدت الحياة، هكذا نصائح العلماء والحكماء والديانات كثيرة جداً، ولكن الذي يعمل بها قليل، ومن عمل بها وافق عمله ما كتب له، و الذي لم يعمل عرف بعد ذلك أنه قد كتب له أنه لا يعمل فحرم الثمرات والمنافع التي تترتب على ذلك، فأما من اتكل على القضاء ولم يعمل فذلك هو الخاسر المجهول الذي حكم عليه بالمذلة والهوان.

ثم قال تعالى: ﴿ قَالَ ﴾ نوح ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي ﴾ إلى الإيمان ﴿ لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ أي: دائماً ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴾ عن الإيمان والطاعة ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ ﴾ إلى الإيمان والطاعة ﴿ لِتَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ بسببه ﴿ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ أي: سدوا مسامعهم ﴿ وَٱسْتَغْشَوْاْ

ثِيَابَهُمْ ﴾ تغطوا بها لئلا يروني كراهة النظر لي من فرط كراهة دعوتي ﴿ وَأَصَرُّوا ﴾ على كفرهم ﴿ وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ عن اتباعي ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ فكنت أعلن بأعلى صوتي، ثم كررت لهم الدعاء معلناً، فكنت أسر الرجل بعد الرجل أدعوه سراً لعبادتك وتوحيدك. ثم بين ما كان يقول فقال: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾ والاستغفار من الذنوب الإيجابية كالقتل، والسلبية كترك العلوم اللازمة لنظام المجموع التي هي فرض كفاية تكتفي بها الأمة عن غيرها، فتعرفون ما يناسب زمانكم من العلوم والصناعات، فإن تركتم ذلك أثمت الأمة كلها، وإن استغفرتم يغفر لكم ربكم ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ للتائبين ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ يرسل المطر عليكم متتابعاً، وإطلاق السماء على المطر جاء في قول الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم فحلوا حيثما نزل السماء

وقول الآخر:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ أي: يكثر أموالكم وأولادكم ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ ﴾ بساتين ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ وهذه هي نعم الدنيا التي يميل لها الإنسان، ومن هذا شرع الاستغفار في الاستسقاء. ويقال: إن الحسن شكا رجل إليه الجدب. فقال له: استغفر الله، وشكا آخر الفقر وقلة النسل، وآخر قلة ريع أرضه فأمر الجميع بالاستغفار، فسئل عن ذلك، فتلا هذه الآية، ولعل تكرار الاستغفار كما يمحو الذنوب يستمد المستغفر من ذكر الله فيه قوة تعينه على جلب المصالح ودفع المضار، والله أعلم، وقد بينت لك الحقيقة آنفاً.

وبعد أن أدبهم الأدب العملي من حيث تهذيب النفوس، ومكارم الأخلاق، وتحلية النفس بالأعمال الإنسانية والدينية التي أشار إليها الاستغفار؛ شرع يؤدبهم الأدب العلمي بدراسة علم التشريح والنفس والعوالم العلوية والسفلية فقال: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ أي: ما لكم لا تخافون لله عظمة، أو لا تعتقدون له عظمة فتخافوا عصيانه، فالرجاء إما بمعنى الخوف مجازاً، وإما بمعنى الاعتقاد للمناسبة بينهما، وكيف لا تخافون عظمته ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ أي: تارات وكرات، فكنتم نطفاً في الأرحام، ثم صرتم علقاً بعد أيام ثم مضغاً تحير الأفهام، والمضغ قد غيرت إلى عظام، وعلى العظام اللحم ﴿ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤].

واعلم أن الأطوار المذكورة قد وضحت في سور كثيرة كسورة «آل عمران» وسورة «المؤمنون» وغيرها في التفسير، وهذا هو النظر في الأنفس. ثم أتبعه بالنظر في العالم العلوي فالسفلي فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۝ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ فهي كالسراج تزيل ظلمة الليل، واعلم أن كون السماوات سبعاً طباقاً بعضها فوق بعض، والكلام على القمر والشمس قد مر الكلام عليه في سور كثيرة من هذا التفسير، ففي سورة «الفاتحة» الإجمال. وفي «البقرة» و«آل عمران» تفصيل، وهكذا سور كثيرة فارجع إليه. ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ﴾ إنباتاً فنبتم ﴿ نَبَاتًا ﴾ وذلك أنكم تنمون كما ينمو النبات وتلدون وتموتون ورؤوسكم المرفوعة إلى أعلى

كرأس النبات المغروسة في الطين، ويديكم وأرجلكم كأفرع النبات، والمطلع على عروقكم وتشعبها وجري الدم فيها وانتشارها في أطراف الجسم يراها مشابهة لما في الشجرة جذوراً وفروعاً وورقاً، فأنتم نبات مقلوب، وأنتم في أخلاقكم وأحوالكم مشابهون للنبات في اختلافه فمنكم الحلو والمر، والطيب والخبيث، واستعدادكم مختلف كاستعداد النبات، فلكل امرئ خاصة كما لكل نوع من النبات خاصة والعلوم والصناعات مقسمات على قواكم المختلفة كما قسمت المنافع من اللباس والطعام والفاكهة والدواء على أنواع النبات، وكما أن كل نوع من النبات إذا فقد ذهبت خاصته على الناس وتعطلت المنافع الناتجة منه؛ هكذا لكل جيل ولكل أمة ولكل فرد خاصة ومنفعة، فإذا عطلت فقد فاتت المنفعة على الأمة وعلى النوع الإنساني، وكان نقص الأمة وذلها على مقدار ضياع تلك المنفعة، فإذا لم يكن في الأرض نبات القطن، أو لم يكن فيها نبات الحنطة مثلاً اضطر الناس ألا يلبسوا إلا من جلود الأنعام وأصوافها، ورجعوا إلى العهد الأول فتأخروا في مدنيتهم وتقدمهم، وأيضاً رجعوا إلى أكل نبات الأرض والذرة وذهبت منافع القمح عليهم، وحصل في الناس بعض الضيق بفقد القمح، هكذا النوع الإنساني إذا عطلت طائفة منه فلم تقم بما وجب عليها وما يؤهلها له استعدادها نقص النوع الإنساني أو الأمة المقصرة، وضعف على مقدار ذلك النقص، مثال ذلك الأمة الإسلامية اليوم: إنها عطلت نصف مجموعها، وهن النساء، فلم يعلمن العلم، وقد علموا أن الناس كلهم يعلمون بناتهم وهكذا عطلوا الصناعات فلم يقوموا بها، أي: إن الرجال الذين خلقوا على استعداد أتم بفطرهم في المسلمين لصناعة البارود مثلاً ونسج الأقمشة وصهر المعادن قد عطلوا عن عملهم، لأنهم لم يروه ولم يعرض عليهم، لذلك أصبح نقص الأمة على مقدار النقص المذكور كما يتأخر النوع الإنساني بفقد القطن والحنطة، فهذا معنى قوله: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾[نوح: ١٧]، فقد جمع هذه المعاني، ولقد أجمع علماؤنا رحمهم الله أن العلوم والصناعات فرض كفاية، ومعنى هذا أن الأمة كلها تعاقب على التهاون بها وعدم إبرازها للوجود كعقاب النوع الإنساني بفقد القطن والقمح، ثم يوم القيامة يؤخر المجموع الإسلامي عند الله بقدر تأخره عن تلك الصناعات. والمسلمون اليوم آثمون بإجماع علمائنا، والإثم ظهر له أثر في الدنيا بتسلط الفرنجة علينا، وسيظهر أثره يوم القيامة على هذه النسبة، وإذا قال المسلم: لا، لا، أنا مسلم؛ فلتقل له: إنما أنت مغرور، ﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٤]، ارجع إلى هذا المعنى في سورة «آل عمران».

وأنت أيها الذكي القارئ لهذا التفسير فلتكن من القائمين بأمر من حولك من الأمة لأنك عرفت الحقيقة، وإياك أن تقصر، وإلا كان إثمك أشد من الذين لا يعلمون، وهذا أمر سيتم ويعلو أمر هذه الأمة علواً عظيماً، فقم واصدع بالأمر بما عرفت، وثق بأن الأمر سيكون وسترتقي هذه الأمم الإسلامية.

هذا هو المستفاد من قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ﴾ مقبورين كما يعيد النبات ﴿ وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ بالحشر. ثم أخذ يشرح النعم التي أعدها للإنسان في الأرض من سائر وجوه المنافع وأنها مهيأة للإنسان طائعة له مسخرة كتسخير البساط للرجل يتقلب

عليه كما يشاء، إشارة إلى ما قدمنا من أن عليه أن يظهر مواهبه، ولا ظهور للمواهب في القوى الإنسانية إلا بالتسلط على الأرض وخيراتها، فقال: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴾ تتقلبون فيها بخلاف النبات فإنه خاضع لما هو فيه قانع بما حوله من غذاء وهو مكتف به، أما أنتم فلستم كذلك، بل جعلت الأرض لكم ﴿ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ واسعة جمع فج: أي: لتتخذوا منها سبلاً فجاجاً، وإنّما اقتصر على اتخاذ السبل لأنه أظهر أنواع الاتخاذ، وإلا فالأرض جعلت لنا لمنافع لا تحصى، ولا يزال الناس يجدون في استخراجها اليوم وبعد اليوم.

وهذه الآيات أرتنا أن نوحاً عليه السلام يأمر قومه بعلوم الأنفس وعلوم الآفاق من المعدن والنبات والحيوان والإنسان والسماوات والشموس والأقمار، وجميع منافع الأرض.

ولعلك تقول: لماذا تذكر هذا القول عند كل مناسبة؟ أقول: لست أنا الذي قلت، وإنّما الله هو الذي قال، فلعلك تقول: الله ذكر الإجمال فما هذا التفصيل؟ أقول لك: لماذا يؤلف آباؤنا الأولون علماً برمته على آيات الميراث، ولماذا يؤلف آباؤنا كتباً مستقلة في الوقف مع أنه لم يرد إلا في الحديث، لماذا يجعلون للطهارة كتاباً يسمونه كتاب الطهارة وإنّما ذلك لأجل آيات محدودات، ولماذا يقولون كتاب الحج مع أن الحج ليس له إلا آيات محدودات، فلماذا تجيز تأليف كتب ملأت الشرق والغرب، ومذاهب متشعبة في علم الفقه المبني على مائة وخمسين آية ولا تجيز أن أكتب صفحات معدودات على ما يبلغ ٧٥٠ آية في القرآن.

اللهم إن أمتنا الإسلامية غفلت غفلة عظيمة، ونامت نوماً عميقاً، اللهم إني قد عملت جهدي وأديت الأمانة إلى أهلها، وأنت أعنتني على تأليف الكتاب، وأنت الذي نشرته، فلك الحمد. وإني أرجو منك أيها الذكي أن تبث الدعوى في هذه الأمة التي لا نصير لها ولا معين، ولم تجد من يوضح لها الأمر، ولو أن الأمة رأت من يعرفها الحقيقة لكانت أول أمة على سطح هذه الكرة، وسيكون هذا إن شاء الله تعالى. وهذا هو نهاية الكلام على المقصد الأول من السورة، والحمد لله رب العالمين.

المقصد الثاني

قال تعالى: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى ﴾ فيما أمرتهم به ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴾ أي: واتبعوا رؤساءهم الذين بطروا بأموالهم، واغتروا بأولادهم، فكان ذلك ازدياد لخسرانهم في الآخرة وهكذا الذي اتبعوهم خسراً مثلهم، وعطف على «من» قوله: ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ أي: كبيراً عظيماً جداً. فهم يحتالون في نبذ الدين بحيل عظيمة. ويحرشون الناس ويحرضونهم على مقاومة دعوة نوح وإيذائه ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ أي: عبادتها، ﴿ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ هذه الأسماء الخمسة كانت أعظم المعبودين عند قوم نوح، وقد كانوا قوماً صالحين في الأزمان بين آدم ونوح، فلما ماتوا كان أتباعهم يقتدون بهم ويأخذون بعدهم بأخذهم في العبادة. ثم زين لهم الشيطان أن يصوروا صورهم، ففعلوا ظانين أن هذا أنشط للعبادة وأشوق لها. ثم لما طال الزمن عبدوا نفس تلك الصور فهذا مبدأ عبادة الأوثان. وإن أردت المزيد فارجع إلى سورة «البقرة» تجد المقال مفصلاً فيها. فترى هناك كيف كانت عبادة الصابئين

موجهة أولاً للملائكة فالكواكب فالأصنام في الأرض. ويقال: إن الأصنام التي عبدها قوم نوح صارت تعبد عند العرب:

الصنم	القبيلة
ود	كلب بدومة الجندل
سواع	هذيل
يغوث	مراد وبني غطيف بالجرف عند سبأ
يعوق	همذان
نسر	حمير: آل ذي الكلاع

يقول ابن عباس: هذه أوثان دفنها الطوفان فاستخرجها العرب فعبدوها. وهناك أصنام أخرى هذا بيانها:

الصنم	القبيلة
اللات	ثقيف
العزى	سليم، وغطفان، وجشم
مناة	خزاعة، بقديد
إساف	لأهل مكة
نائلة	لأهل مكة
هبل	لأهل مكة

ثم قال تعالى: ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ﴾ أي: أضل الرؤساء، أو الأصنام ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴾ أي: إلا هلاكاً، وقد بينه تعالى فقال: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ ﴾ أي: من أجل خطيئاتهم، و«ما» زائدة ﴿ أُغْرِقُوا۟ ﴾ بالطوفان ﴿ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا ﴾ وهو عذاب القبر وعذاب الآخرة ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴾ وقد كانوا يظنون أن الآلهة أنصارهم، فخاب فألهم، وضل سعيهم ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ أي: أحداً، وهذه الكلمة تستعمل في النفي العام، ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ ولم يقل ذلك إلا بعد تجربتهم أجيالاً، ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ ﴾ منزلي أو مسجدي أو سفينتي ﴿ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴾ أي: هلاكاً. انتهى تفسير سورة «نوح»، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الجن

هي مكية

آياتها ٢٨، نزلت بعد سورة الأعراف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾

قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾

مقدمة في ملخص هذه السورة

ذكرت هذه السورة بعد سورة « نوح » لأن فيها تفصيلاً لإجمال ما سبق هناك. وذلك أن سورة « نوح » فيها ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾. فالتوبة والاستقامة ونظام الأمة يعقبه المال والبنون والجنات والأنهار، فربما ظن الناس أن الله إذا أعطى هذه النعم فقد رضي على الناس، فقيل في سورة « الجن »: كلا. ثم كلا. إنّما أموالكم وأولادكم وأنهاركم وبساتينكم فتنة، فلا فرق عندنا بين الخير والشر في الابتلاء، فنحن نبتلي بالشر ونبتلي بالخير، وهذا في قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾[الآية: ١٦-١٧]، فكأنه يقول، ليس الجنات والأنهار والأموال والبنون المذكورة في سورة « نوح » نعمة من غير قيد بل هي اختبار للناس وامتحان لهم، هذا ما يقال في المناسبة بين السورتين.

الكلام على تسمية السور

اعلم أن الله عز وجل سمى السور بأسماء تبعث على النظر وتوجب التفكير، فسمى بالأنعام وببعضها كالبقرة، وبالحيوانات الصغيرة وهي الحشرات كالنمل والنحل والعنكبوت، وبما هو ألطف من ذلك كالنور، كما سمى ببعض الأنبياء كيوسف ويونس وهود، وببعض الأخلاق كالتوبة، وببعض الكواكب العلوية كالشمس والقمر والنجم، وببعض الأوقات كالليل والفجر والضحى، وببعض المعادن كالحديد، وببعض الأماكن كالبلد والبروج، وببعض النبات كالتين، وبكل شيء مما نراه وما لا نراه، فهاهنا سمى بعالم غير هذه العوالم كلها، وهو عالم لا نراه وهم الجن، وهذا العالم لم يعرف في دين الإسلام إلا من طريق الوحي، وليس للعقل عليه من دليل، ولقد أصبح العالم المستتر عنا اليوم هو الشغل الشاغل لنوع الإنسان، وظهرت آيات الله الكبرى في الكرة الأرضية، وأصبح العلماء في أوروبا يجدون في مباحث هذه العوالم، راجع ما كتبناه في سورة « البقرة » واقرأ ما هنالك تجد الأمم كلها تدرس عالم الملائكة والجن، ويطلعون على غوامض هذه العوالم، ولقد نقلنا كثيراً في هذا التفسير من عجائب هذه العوالم، ولقد حدث الناس أرواح أصحابهم الذين ماتوا، واتصل العالم الإنساني بالعالم الجني، وبعالم الأرواح الطاهرة وهم الملائكة.

فإذا سمى الله سورة بهذا الاسم فمعناه أنه قد أعطى هذا العالم الخفي عنايته وسمى السورة باسمه، كما اعتنى بالحديد وهو نوع من المعادن فسمى باسمه، وهكذا توجهت عناية عزته وقدسه إلى النور وأنواع الحيوان والنبات والأوقات المختلفة، وبكل شيء نراه ولا نراه، لنجد في البحث عن المعادن كلها وعن حساب الزمان، ولا يكون هذا إلا بالعلوم الرياضية، ولنجد أيضاً في علم النبات

والحيوان. وبعبارة أخرى نلم بعلوم هذا العالم، وهكذا فلنجد في علم الأرواح كما جد فيه العالم الغربي.

اللهم إنك أنت الذي سميت هذه السور بهذه الأسماء، سميت لهم أسماء الأشياء المتنوعة على الأرض حيواناً ونباتاً، وفي باطنها من المعادن، وفي الجو كالرعد، وفي السماء كالشمس والقمر والنور، وكالأوقات المختلفة، ثم إنك تجاوزت عالمنا وسميت باسم عالم الجن، ذلك لتحثنا على البحث في علم الأرواح، فماذا جرى؟ نام المسلمون الذين أنزل عليهم الكتاب وحثهم على هذا، وقام بهذه الأعمال كلها الذين لا يؤمنون بهذا الدين، فيا ليت شعري، أمستيقظ المسلمون أم نيام؟ إن المسلمين اليوم وقبل اليوم بعد العصر الأول نيام. تالله ما نزل القرآن لمجرد التلاوة، نزل القرآن للعلم، فإذا بحث المسلم عن شروط الصلاة وأركانها وعن فروض الوضوء فما بحث إلا في مقدمات معرفة الله لا في معرفة الله، لأن الوضوء لأجل الصلاة، والصلاة لأجل حضور القلب، وحضور القلب لتذكر الله، وتذكر الله يعد القلب للعلم، فالعلم إذن هو الغاية، فكيف اجتهد المسلمون في المقدمات وغفلوا عن العلوم التي هي أشبه بالغايات، فعلم الفلك والنبات والمعدن والنور والظلام وعلم الأرواح هي العلوم المرقية للمجتمع، الهادية للفكر، المرقية للعقل، التي تجلو الأنظار، وتقيل العثار، وتنفع الأهل والجار، وتدفع العار، وتوقظ النوام، إن علم الجن وعلم الأرواح يورث اليقين بالله وباليوم الآخر، ويحدث في النفس أنساً وابتهاجاً وانشراحاً، وسروراً وإيقاناً، وراحة وطمأنينة.

سمى الله سورة باسم الجن ليوقظ المسلمين لتعلم علم الأرواح، وكأن الله ذكرها لإيقاظنا نحن في هذا الزمان، لاستكناه الحقائق، ومعرفة الدقائق، والوقوف على الرقائق، والإيقان بأن الموت إنّما هو انتقال من حال إلى حال، فلا تعظم على المرء سطوته، ولا تخيفه سكرته، ولا تزعجه نزعته، ولا تضيق به ساحته، بل يستقبله بقلب مملوء بالآمال، فارغ البال، فرح بفك العقال، ولعلك تقول كيف أدرس هذا العلم؟ وكيف أخاطب عالم الجن وعالم الملائكة؟ وأين هذا العلم؟.

أقول: قد ألفت فيه كتاباً سميته «كتاب الأرواح» وذكرت فيه ما جربه القوم في أوروبا، وكيف أحضروا الأرواح، وما الشروط، وما الواجب على الإنسان في ذلك، وما فوائد هذا العلم ومضاره.

وأنت إذا اطلعت عليه أمكنك استحضار أقاربك وأشياخك إذا راعيت الشروط وكنت صادق النية للعلم لا للمال، فإنك تجاب إلى طلبتك وتخاطبك الأرواح كما خاطبت الأوروبيون، كما نقلنا بعض العلوم التي ألقتها الأرواح عليهم، وسأذكر إن شاء الله تعالى ملخص منهج الكتاب في آخر تفسير هذه السورة لتعرف إلى أي حد وصل نوع الإنسان فيما قصر فيه المسلمون مما حثهم عليه كتاب ديننا المقدس، وكيف كان غير المسلم هو الذي بحث في مقتضى أسماء هذه السور، والمسلم هو الذي لم يعن بشيء منها، وهو النائم قديماً المستيقظ الآن، وسيزيد استيقاظنا بنشر لعلوم والآراء بين الأمم الإسلامية خصوصاً والشرقية عموماً.

ثم اعلم أن علماءنا رحمهم الله قد ذكروا أن الجن أجسام عاقلة خفية تغلب عليهم النارية. ومن قال منهم: إنهم أرواح مجردة، فهو لا ينافي ما تقدم، لأن الأرواح المجردة منها ماهو أقرب إلى

عالم المادة، وهم هؤلاء الجن، ومنهم من هو أقرب إلى عالم الروح، أي: إنه خلص من المادة، وهم المسمون ملائكة، ومنهم من قال: إنهم هم النفوس البشرية التي ماتت، وهذا لا ينافي القولين السابقين لأن النفوس البشرية من كان منهم أقرب إلى الشر وهو عالم المادة وذنوبه وشروره فهذا يسمى جناً، ومن كان منهم يقرب من عالم الأرواح المجردة تجريداً تاماً، فهو ملحق بالملائكة، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ﴾[النبأ: ٣٨].

فهاهنا عالمان خفيان: عالم أقرب إلى الجهالة، وهم الجن، وعالم أقرب إلى الكمال، وهم الملائكة ومن يقتربون منهم.

ثم إنه قد جاء في علم الأرواح أن الأرواح الجاهلة تحب التقرب من بني آدم وتستمع أحاديثهم وبيانه أن الأرواح التي فارقت أجسادها من بني آدم قسمان: قسم ارتقى في الدنيا، فهو إذا خلص من هذا العالم الأرضي استعد للتلقي من عالم الملائكة، لأن روحه قد استعدت بالمواهب التي نالتها في الدنيا للتلقي عن عالم أرقى من عالم الإنسان، وقسم مات جاهلاً لا يدري من هذا الوجود إلا ما يمس حاجته، فهذا لا يمكن أن يعقل عن الملأ الأعلى، فهذا يرجع إلى عالم الإنسان، لأنه أقرب إليه، ويفهم ويعقل ما يقال من الآدميين، لأنه لا يعرف غيرهم، فأما العوالم الأخرى فهي محجوبة عنه كما حجبنا نحن عن عالم الملائكة المحيطين بنا الآن، وهكذا حجبنا عن رؤية الله وهو معنا، وحجبنا أن نعرف أن هنا كهرباء قبل كشفها مع أنها في أجسامنا وتحيط بنا، هكذا تلك الأرواح التي ماتت ناقصة بسبب الكبرياء أو الطمع أو الشره، فإنها لا يمكنها أن تقابل الأرواح الكاملة للتلقي عنها فترجع إلى بني آدم وتتقرب منهم كما نرى الطفل يفهم من الطفل، ونرى المرأة الجاهلة لا تعقل إلا من جاهلة مثلها، فهكذا الأرواح الناقصة لما كانت محبوسة عن التعلم من العالم الذي هو أعلى منها اضطرت أن تسمع الكلام الذي يقال لأهل الأرض وتعاشرهم وتعقل كلامهم.

فإذا سمعت ابن عباس يقول: إن الشياطين حيل بينهم وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، وإنهم رجعوا إلى قومهم وقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب، وإن قومهم قالوا لهم: ما ذاك إلا من شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء؟ فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فرجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١-٢]، فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾[الجن: ١] الخ.

إذا سمعت هذا القول أو نحوه في البخاري ومسلم عن ابن عباس فاعلم أن هذا هو الذي أظهره علم الأرواح الحديث، لأن الأرواح الناقصة هي التي تأخذ من الإنسان لقربها من العالم الأرضي، وهي بطبعها ممنوعة عن عالم الملائكة، فلا يجوز لها ولا يتسنى أن تفهم عن العوالم العلوية إلا اختلاساً

كما نرى أهل الأرض ، فإن العامة يمنعون من حضور الدروس مع التلاميذ الذين استعدوا لدروس الهندسة والعلوم الأخرى ، والمنع تارة يكون بطبيعة العامة ، لأنهم لا يعرفون ما يقال فيتنحون ، وتارة بنظام المدارس وطرد من لم يكن من أهل الفن ، والعالم كله على وتيرة واحدة ونظام واحد ، فالأعمى في الدنيا الجاهل لا يناله حظ ما لم يستعد له ، إما بأنه هو يتركه ولا يقرب من المشتغلين به لأنه لا يفهمهم ، وإما أنهم هم يطردونه عن مجالسهم كأهل الأرض ، فهذا القانون عام في الأرض من أول خلق الإنسان عليها ، إذ لا يعطى الشيء إلا لمستحقه . فهذا هو طرد الشياطين عن استراق السمع وذكر الشهب وأنهم يحترقون بها إما حقيقة وإما ضرب مثل لما ذكرناه كما في أحوال أهل الأرض .

ولما أرسل صلى الله عليه وسلم وكان للأرواح الناقصة بعض الوجهة في الاستماع من بعض الملأ الأعلى ما قد ينتفعون به كالمواعظ التي يتلقونها اختلاساً ؛ منعوا من تلك الدروس فعلاً . وذلك لإيقاظهم إلى ما حصل في العالم الإنساني الذي هو أقرب إليه ، فيفهمون منه أكثر مما يفهمون عن الملأ الأعلى ، ونبينا صلى الله عليه وسلم وإن كان هو نفسه مع الملأ الأعلى ؛ تعاليمه يقولها لأهل الأرض ، وأهل الأرض يفهمونها ، فلذلك يفهمها من هم أقرب إليهم ، وهم الأرواح الناقصة . فهذا تفسير هذا المقام وإيضاحه بحسب ما ظهر من علم الأرواح .

وقد جاء في هذا العلم أن الأرواح بعد الموت تسير في الطريق التي سارتها في الحياة ، فإن كانت ناقصة لازمها النقص ، وإن كانت كاملة لازمها الكمال ، وهذه الناقصة قد تتجرد من بعض نقائصها بالنصائح التي تسمعها من الناس أو من عالم آخر إذا استعدت لذلك ، وهذا من أعجب العجب أن يأتي القرآن ويكون الكشف الحديث مطابقاً له ، سارياً على نهجه .

يا للعجب ! سورة « الجن » سورة لا تعرفها العقول ، وتبقى في أمة الإسلام ألفا وثلاثمائة سنة وعشرات السنين تتلقاها أمم عن أمم ، وأجيال عن أجيال ، ثم يأتي هذا العصر فتظهر الحقائق .

يا عجباً ! إن هذه من السمعيات ، وهي التي لا دليل عليها من العقل ، ثم إنها تبقى محفوظة مقروءة حتى يأتي وقتها وتظهر في أوروبا ، يظهر في أوروبا أن الأرواح الناقصة تسمع كلام الناس وتهتدي به ، وأنها لا تعرف ما فوق طاقتها فلا تهتدي بهدى الأرواح العالية ، فيكون العالم من أهل الأرض أو النبي قد ارتقى في العلم ، والأرواح الناقصة المجردة من الأجسام لم تبلغ مبلغ ذلك العالم أو ذلك النبي فتتعلم منه ، وتكون تلك الأرواح أشبه بالآباء الجهال إذ يسمعون من أبنائهم المتعلمين العلم ، وحال الأرواح الناقصة بعد الموت هي حالهم المشاهدة في الدنيا ، فإننا نرى الجهال لا يجلسون في مجلس العلماء إلا قليلاً ، في حال ما إذا تنزل العلماء لإصلاح حالهم ، وفيما عدا ذلك تجد مجالس التعليم في أماكن خاصة لا يسمعها سواهم ، ولا يظهر من العلم للعامة إلا شذرات قليلة جداً ، فهم في حياتنا الدنيا ممنوعون عن السمع ، وقد يشتد المنع إذا كان في سماعهم للعلم مفسدة ، كما نرى في كل دولة أسرار أعمالها الحربية ، وهم يكتمون ما يعلمون في مصالح الحكومة عن الشعب ، إلا إذا صار ذلك أمراً نافذاً فيظهرونه ، وكما نرى الأمم كلها شرقاً وغرباً لها خطط سياسية مكتوبة مكتومة بين أرباب الدولة ، ومن أفشى سراً لغيرهم حاكموه ، فهذا منع من السمع في الدنيا ، وبعد الموت له نظائر ،

إذن كل هذا لحفظ الدرجات ونظام المجموع، بل الملائكة أنفسهم درجات، ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾[الصافات: ١٦٤]، وتلك الدرجات هي المعارج، فالمنع من السمع لحفظ المعارج لأربابها.

فلنشرع الآن في تلخيص السورة، ثم تفسير الألفاظ، ثم نأتي بشذرات من علم الأرواح فنقول: إن الذي ذكر في معرض أقوال الجن ١٦ حكمة وهذا نصها:

(١) إنهم سمعوا كتاباً بديعاً، وهو القرآن يهدي إلى الصواب، فآمنوا وتركوا الشرك.

(٢) وأن الرب تعالت عظمته لم يتخذ زوجة ولا ولداً كما يقول كفار الجن والإنس.

(٣) وأن الجهال من الجن كانوا يقولون قولاً متجاوزاً الحد في البعد عن الصواب بالنسبة لله تعالى، إذ ينسبون له الصاحبة والولد.

(٤) وأنهم ما كانوا يظنون أن أحداً يكذب على الله بنسبة الصاحبة والولد إليه لاعتقادهم بصدق من يقولون هذا القول من الجن والإنس: وهذا هو عذرهم في اتباع هؤلاء الكاذبين الذين غشوهم.

(٥) وأن رجالاً من الإنس كانوا يستعيذون في القفر برجال من الجن، فزاد الجن الإنس ضلالاً باستعاذتهم بهم لظنهم أنهم يعيذونهم.

(٦) وأن الجن ظنوا كظنكم أيها الإنس أنه لن يبعث الله أحداً.

(٧) وأن الجن طلبوا خبر العالم العلوي المعبر عنه بالسماء فمنعوا.

(٨) وأن الجن كانوا يقعدون مقاعد خالية ليتمكنوا من السمع فمنعوا الآن برجم الشهب.

(٩) وأن الجن لا يدرون ماذا يحل بأهل الأرض أشر أم خير، لأن حراسة السماء ومنع السمع لا بد أن يكون لأمر هام. فإذا رأينا الحكومة شددت في تعطيل الجرائد ومنع بيعها في المملكة فذلك لا بد أن يكون لأمر هام في الدولة، إما لنفعها وإما لضرها، وقد كانت الحكومات القديمة والحديثة تجد في منع الناس عن الأخبار الخاصة بالدولة في الأمور الهامة فتراهم الآن يحكمون أحكاماً عرفية أثناء الاضطراب أو الحروب، ويمنعون الناس من التلفظ أو الكتابة في شيء من أسرار الدولة، أو أحوال الحرب العامة التي تضر بسير الحرب، أو بسير الأمة، وهذا أمر متعارف في دول الأرض، فهكذا دول الأرواح.

(١٠) وأن الجن منهم الأبرار ومنهم الفجار، فلهم مذاهب، وهم مختلفو الأحوال.

(١١) أن الجن علموا أنهم لن يفروا من أمر الله إن أراد بهم أمراً على هذه الأرض، وأنهم لن يقدروا على الهرب منه إذا طلبهم.

(١٢) وأنهم لما سمعوا الهدى آمنوا به، فالمؤمن لا ينقص ثواب عمله ولا يناله مكروه.

(١٣) وأنهم فريقان: مسلمون، وجائرون عادلون عن الحق، فالمسلم قصد طريق الحق وتوخاه، وأما الجائر فإنه يكون وقوداً للنار يوم القيامة.

(١٤) وأن الإنس والجن إذا استقاموا على الطريقة المثلى وسع الله عليهم رزقهم واختبرهم به، ومن أعرض عن ذكر ربه يدخله عذاباً شاقاً.

(١٥) وأن المساجد لله فعلى من يدخلها أن يخلص لله فيها ولا يشرك به أحداً كما كان المشركون يفعلون.

(١٦) وأنه لما قام النبي صلى الله عليه وسلم يعبد الله كاد الجن يكونون عليه متراكمين من ازدحامهم عليه تعجباً مما رأوا من عبادته وسمعوا من قراءته.

ولما انتهى إلى هذا المقام قال الله لنبيه: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾[الجن: ٢٠] ليبين الدعوة المذكورة في آخر أقوال الجن ومباحثهم، والمقول له صلى الله عليه وسلم أربعة مقاصد، وهي:

(١) أنه يدعو ربه ولا يشرك به أحداً.

(٢) وأنه لا يملك دفع الضر عن الناس، ولا يسوق إليهم رشداً، لأن الضار والنافع والمرشد والمقوي إنّما هو الله.

(٣) أنه لن يمنعه أحد من الله إن عصاه، ولن يجد ملجأ يلجأ إليه دون الله، وكيف يعصي الله، ومن يعصي الله يدخله نار جهنم مخلداً، ومتى جاء يوم عذابهم في الدنيا أو في الآخرة فسيعلمون أينا أضعف ناصراً وأقل عدداً أهم أم أنا.

(٤) أنه صلى الله عليه وسلم لا يدري متى يكون وقت تعذيبهم، أقريب هو أم بعيد، فالعلم لله وحده ولا يطلع على غيبه أحداً، وكما منعت الشياطين من استراق العلم الذي لا طاقة لها به؛ هكذا الملائكة درجات لكل منهم علم لا يتعداه، والأنبياء أيضاً لا ينالون من العلم إلا ما أوجبته المصلحة النبوية، فإذا علم الأنبياء بعض العلم بالغيب، فذلك يكون معجزة له، ثم يحرسه بالملائكة لتحفظ دعوته، وليقوموا بإلهام الناس حفظ الشريعة بعدهم ليتم إبلاغ الدعوة وسريانها في العالم الإنساني. هذا هو ملخص السورة إجمالاً.

ولنشرع الآن في التفسير اللفظي للسورة كلها فنقول ومن الله التوفيق:

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ﴾ أن الأمر والشأن ﴿ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ ﴾ النفر ما بين الثلاثة إلى العشرة ﴿ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ قد تقدم الكلام هنا عليهم ﴿ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا ﴾ كتاباً ﴿ عَجَبًا ﴾ بديعاً مبايناً لكلام الناس في نظمه ورقة معناه، والعجب مصدر بمعنى العجيب ﴿ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ ﴾ إلى الحق والصواب ﴿ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ﴾ بالقرآن ﴿ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ من خلقه ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ أي: تعالى رجال ربنا وعظمته. قال أنس: كان الرجل إذا قرأ «البقرة» و«آل عمران» جد فينا أي: عظم قدره، ﴿ مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ أي: تعالى عظمة عن أن يتخذ زوجة لأنها إنّما تكون للحاجة إليها، ولا ولداً للاستئناس به، ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا ﴾ جاهلنا ﴿ عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴾ كذباً وعدواناً ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ أي: كنا ظننا أن الإنس والجن صادقون في قولهم إن لله صاحبة وولداً، وأنهم لا يكذبون على الله في ذلك ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ فإن الرجل كان إذا أمسى بقفر قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه، فكانت هذه الاستعاذة تزيد الجن رهقاً، أي: تكبراً، وتزيد الإنس رهقاً، أي: ضلالاً،

وأصل الرهق في كلام العرب: الإثم وغشيان المحارم، ولا جرم أن الضلال أصل المحارم، والكبر والعتو من المحارم ﴿ وَأَنَّهُمْ ﴾ أي: الإنس ﴿ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ ﴾ أيها الجن ﴿ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴾ وهذا أيضاً من كلام الجن بعضهم لبعض ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ ﴾ أي: طلبنا خبرها ﴿ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا ﴾ أي: حراساً، وهو اسم جمع كالخدم ﴿ شَدِيدًا ﴾ قوياً ﴿ وَشُهُبًا ﴾ جمع شهاب، وهو المضيء المتولد من النار ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ﴾ أي: مقاعد خالية عن الحرس والشهب، أو صالحة للترصد والاستماع ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ أي: شهاباً راصداً له ولأجله يمنعه عن الاستماع بالرجم، ويصح أن يكون الرصد اسم جمع لراصد، أي: ذوي شهاب راصدين ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ بحراسة السماء ﴿ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ أي: لا ندري هل المقصود من المنع من الاستراق هو شر أريد بأهل الأرض أم أريد بهم الإصلاح. وقد تقدم إيضاحه في مقدمة تفسير السورة، وفي التعبير بـ « أريد » في باب الشر، وأراد بهم ربهم في باب الخير حسن أدب وتعليم الناس كيف يتأدبون في القول، فأسند الخير لله ولم يسند الشر إليه وإن كان كل من عند الله، ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ المؤمنون ﴿ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ أي: قوم دون ذلك ﴿ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾ ذوي طرائق متفرقة مختلفة، وقدداً جمع قدة، من: قد، إذا قطع، ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ ﴾ علمنا ﴿ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: لن نعجزه حال كوننا كائنين في الأرض أينما كنا فيها، ﴿ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴾ هاربين منها إلى السماء ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ القرآن ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ ﴾ أي: فهو لا يخاف ﴿ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ البخس: النقص، والرهق: الظلم أو المكروه الذي يغشى المظلوم، ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ ﴾ وهم الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، ﴿ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ﴾ الجائرون العادلون عن الحق، ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴾ أي: قصدوا طريق الحق ﴿ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ ﴾ في علم الله ﴿ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ وقوداً ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ أي: القاسطون ﴿ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ ﴾ أي: طريقة الإسلام ﴿ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ كثيراً، أي: لوسعنا عليهم الرزق، فإن الماء الغدق سبب سعة الرزق ﴿ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ ﴾ يدخله ﴿ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ شاقاً يعلو المعذب ويغلبه ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ ﴾ مختصة به ﴿ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ فلا تعبدوا فيها غيره، والمراد بالمساجد ما يعبد الله فيها، وبنيت لذلك فيدخل فيها الكنائس والبيع، ولما كانت الأرض كلها مسجداً للمسلمين فعليهم ألا يعبدوا فيها غيره، ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ يَدْعُوهُ ﴾ يعني يعبد الله ويقرأ القرآن، إذ كان يصلي الفجر ببطن نخلة ﴿ كَادُواْ ﴾ أي: الجن ﴿ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ أي: يركب بعضهم بعضاً من الازدحام عليه حرصاً على استماع القرآن ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ فليس ذلك ببدع يوجب تعجبكم وتحادكم على مقتي، وقد قالوا: قد جئت بأمر عظيم فارجع عنه فنحن نجيرك، فقال لهم صلى الله عليه وسلم: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾، ﴿ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ أي: لا أقدر على أن أدفع عنكم ضراً، ولا أن أسوق إليكم رشداً، فالله له الأمر، ﴿ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ ﴾ أي: لن يمنعني منه أحد إن عصيته ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ ملجأ ألجأ إليه، وحرزاً أحترز به، أو مدخلاً في

الأرض مثل السرب أدخل فيه ﴿ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ﴾ أي: أنا لن أجد ملجأ ألتجئ إليه إلا تبليغ رسالات الله، فأنا إن لم أبلغها عصيت ربي، وإن بلغتها نجوت من عذابه، فهو يقول: لا ملجأ إلي إلا تبليغ الرسالة، فهو الذي به أنجو من عذاب الله، فإن تركت التبليغ وقعت في الإثم المبين ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ في الأمر بالتوحيد ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۝٢٣ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ ﴾ في الدنيا كوقعة بدر وما بعدها أو في الآخرة ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ۝٢٤ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ ﴾ أي: ما أدري ﴿ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴾ غاية تطول مدتها، فإنهم كانوا يقولون: متى هذا الوعد، فكأنه يقول: هو كائن لا محالة ولكن لا أدري ما وقته ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ هو عالم الغيب ﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ أي: لا يطلع أحد على الغيب المختص به هو ﴿ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ لعلمه بعضه حتى يكون معجزة للنبوة ﴿ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾ يدخل من بين يدي المرتضى ومن خلفه حراساً من الملائكة يحرسونه من كيد الشياطين وتخاليطهم، ﴿لِّيَعْلَمَ﴾ النبي الموحى إليه ﴿ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ أن قد أبلغ جبريل والملائكة النازلون بالوحي، أو ليعلم الله أن قد أبلغ الأنبياء رسالات ربهم، أي: يظهر إبلاغ الرسالات محروسة من التغيير، ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ بما عند الرسل ﴿ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴾ أي: أحصى ما خلق وعرف ما خلق لم يفته شيء حتى مثاقيل الذر والخردل. انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها، والحمد لله رب العالمين.

أقوال الناس قديماً حديثاً في الجن، وبدائع العلم الحديث فيها

وهو معجز للقرآن ظهرت في هذا العصر كما قال تعالى:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[فصلت: ٥٣]

لقد أفضت الكلام في سور كثيرة على هذا الموضوع، فاقرأه في سورة «البقرة» وفي سورة «آل عمران» وفي سور كثيرة، ولقد ذكرت في سورة «آل عمران» نبذة من خطبة «السير أوليفر لودج» من أشهر علماء الطبيعة في هذا العصر ببلاد الإنجليز، إذ أكد على مجمع من كبار العلماء في اجتماع رسمي أنه حادث الأموات.

وأن هناك عقولاً أسمى من عقولنا في عالم الأرواح، وأنهم يهتمون بنا. وأن إخوانه من الجمعية الروحية الذين ماتوا كلمهم بعد موتهم، وبرهنوا له ببراهين قاطعة أنهم هم الذين يكلمونه، وقال: إن كل ما يقوله الأنبياء عن عالم الأرواح وعن الله فهو حق بلا تأويل. وقال إنه اشتغل بهذا الفن ٣٠ سنة فله الحق أن يحكم بما يقول. وكذلك نقلت عن إخوان الصفاء مما ذكرته في كتابي «الأرواح»، إذ قالوا في كتابهم المشهور: إن راوح الأحياء بعد الموت هم الموسوسون إن كانوا أشرار، وهم الملهمون الناس الخير إن كانوا أخيار. فارجع إليه هناك إن شئت، وهاك خلاصة مما ذكرته في كتاب الأرواح المذكور:

(١) قال شير محمد في المجلس السابع: لقد جمعت بين ما جاء به الدين الإسلامي والكشف الحديث، ذلك أن القوم يقولون: إن كل علم وكل خير وشر حاصلات في الأفئدة منشؤها الأرواح الفاضلة والناقصة، وهو عين قوله صلى الله عليه وسلم: «في القلب لمتان: لمة من الملك، ولمة من

الشيطان »، وهذا مصداق آية: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣]، والعجيب أن الفرنجة يكشفون هذا ولا يعلمون أنه مصداق دين الإسلام.

(٢) ليس على الأرض كامل، وظاهر الفضيلة والصلاح لا يدل على الكمال التام في الإنسان ولو كان كاملاً لـم يسجن في هـذه الأرض، وهـذا النقـص في الإنسـان بسبب الذنـوب القلبية التي لا يعرفها الناس مثل الحقد والطمع والحسد الخ.

(٣) ليس للإنسان من طريقة للتخلص من وسوسة الأرواح الشريرة إلا بالفضائل، فهي التي تطردها.

(٤) الأرواح الشريرة قد تتقرب من الإنسان لمقاصد رديئة، وربما تسمع بعض نصائح الإنسان عند استحضارها.

(٥) من الأرواح ما تستولي على جسد الإنسان، ويحاول الأطباء شفاء ظواهر ذلك الجنون في المارستان بلا طائل ولا فائدة إلا بالمعالجة الأدبية التي بها وحدها تخرج الروح من الجسم.

(٦) ليس في مقدور الناس طرد الأرواح من اقترابها من الناس، لأن ذلك يفيد فوائد كثيرة.

(٧) إن ما تقدم من أن الأرواح الناقصة تهتدي بكلام البشر يناسب ما جاء في هـذه السـورة من قول الـجن: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧ ﴾.

(٨) في الأرض أرواح أشبهت الجن في الجهل والشر، مثل ذلك الغني البخيل الذي مـات وأحضروا روحه وقال: هاتوا لي مالي، فيما تقدم في الكتاب، أي: كتاب الأرواح، ومثـل ذلك الروح الطائش الذي قال: أنا أسلي نفسي، الخ.

(٩) وهذا قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[الإسراء: ٧٢].

(١٠) ومن الناس من يصدق كل ما تلقي إليه الأرواح فتسد عليه المسالك، فلا يسمع النصائح من غيرها، فتغشه تلك الأرواح، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾[الجن: ٦].

(١١) قول الروح: لا تغتر بظاهرة الفضيلة فإنـها تستر كبراً وحقـداً الخ. وهـذا قولـه تعـالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[الأعراف: ١٤٦].

هذا ملخص هذا المقال، وعسى أن نوفق في المستقبل لإصدار الملحق لهذا التفسير فنستوفي هـذا المقام فيه، ومن قـرأ كتابنـا « الأرواح » كفـاه، والحمـد لله رب العـالمين. كتـب صباح يـوم الثلاثـاء ٢٠ رمضان سنة ١٣٥١ هجرية، ١٧ يناير سنة ١٩٣٣ م.

ويحسن أن ننقل لك أيها الذكي فهرست كتابنا « الأرواح » الذي ألفته، لأنـك تقـف فيـه علـى مجمل هذا العلم، ويظهر لك سر القرآن في آخر الزمان، فليس في طاقتي في هـذا التفسير أن أنقل أكثر من ذلك. إن ملخص فهرس كتاب الأرواح هو ما يأتي:

قراءة هذا الكتاب تدعو إلى اليقين، وتصفي النفس، وتذهب الحزن، أهم مذاهب الهنود في معرفة الله تعالى ثلاثة: قوم لا يفكرون إلا في معرفة النفس، وقوم يقولون للعالم إله، ولكنه مختص بتعليم الناس، وقوم يقولون إنه خالق ومنظم وعالم ومعلم، وهذا الأخير هو الذي في كتاب الفيدا، تبيان كلام الأمم في إثبات الأرواح وفي نفيها، بيان ثبوت الأرواح بالآيات القرآنية وبالأحاديث، قول قدماء الفلاسفة: إن أرواح الأموات هي الملهمة للأحياء، وهي الموسوسة لهم بأمر الله، عذاب القبر، من كلام الغزالي رحمه الله، وأن الأرواح بعد الموت لها ثلاثة أحوال: أسف على فائت، وعلى ذنب، وجزع من الجهل. إخوان الصفا جاء فيه أن الأرواح كالشياطين وكالملائكة، اعتراضات على المؤلف وأجوبة، استدلال المؤلف على استحضار الأرواح بآية: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾[النمل: ٨٢]، أسباب تحريك الموائد في استحضار الأرواح، إحضار زهور وفواكه على أيدي الأرواح في أوروبا، إحدى وعشرين سؤالاً وجهت إلى الأرواح في تحريك الموائد، فأجابت بأن المغناطيسية في الإنسان تساعد مغناطيسية الروح، وتقول: إن الأحياء جهال جداً، في الأرواح جهال كما في الأحياء، إقرار الروح بالعذاب، البخيل معذب، والظالم تعتريه حسرة، ومن الأرواح من طلبت المساعدة لتخلص من العذاب، آيات قرآنية مطابقة لذلك، روحان يتيمان ضايقا من ظلمهما، الأرواح تنتقم بالوسوسة، وتعطف على الباكين عليها، كاهن وسيدة نجوا من الخطر بسماع هاتف، مطابقة كلام الإمام الغزالي لما تقدم. ظهور أشباح، وسماع ألحان، ودق آلات طرب في ألمانيا وشهدها كثيرون. الروح المزعجة والحديث معها. آراء العلماء والأحاديث الموافقة لما تقدم، وصف الأرواح للسماوات، الجاهل في الدنيا جاهل بعد الموت، مطابقة القرآن لذلك، الوساطة الروحية المستعملة لأمور الدنيا ضارة ويكون فيها الكذب، وصف الأرواح لله عز وجل، روح غاليلي ووصفها لنظام السماوات، وصفها ينطبق على آية: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج: ٤]، تاريخ مناجاة الأرواح وطرق الاستحضار كالمائدة والفنجال واليد وهكذا ومجموعها ست، أرواح تكتب بلا أقلام، ظهور روح اسمها «كاتي» وقد أعطتهم قطعاً من ثوبها، آيات قرآنية مطابقة للشريعة الإسلامية، آداب من يحضرون الأرواح، التنويم المغناطيسي، براهين سقراط على بقاء النفس. وكيف نشأت الفكرة عند المؤلف وبراهين ابن مسكويه. طرق المقلدين في أمر الروح. كلام الروح في حب الإنسانية والفلسفة. محاورة «أوليفر لودج» مع ابنه الميت في حرب الألمان. هل تدخن الأرواح. وهل تشرب الخمر؟ الأرواح لها ثياب، فوائد الأنوار عند الأرواح، تعليم الأرواح لأهل الأرض وموافقته للقرآن، مناجاة الأرواح في أوروبا والإسلام، الصوفية يناجون الملائكة بالذكر وترك اللذات برأي «أودنج» يصف جهنم ومستقبل الأمم والدول وأوروبا ومصر والإسلام، الميت يدهش من علمه بالموت لا من الموت، أخلاق الميت أحاطت به بعد موته، ساعة السكينة، وصف الروح لجهنم كوصف القرآن. انتهى.

هذا هو ملخص فهرس كتاب الأرواح، وإن أردت المزيد فاقرأ كتباً تعد بمئات الألوف باللغات الإفرنجية، وتجد كتاب «على أطلال المادة» وكتاب «دائرة المعارف» كلاهما لصديقنا الأستاذ محمد

فريد وجدي، ففيهما غنية في هذا العلم، ولعلنا إن طالت الحياة نفصل القول تفصيلاً في ملحق نؤلفه بعد تمام طبع التفسير إن شاء الله تعالى. اهـ.

وقبل ختام هذه السورة يحسن بنا أن نذكر هنا ما جاء في إحدى المجلات المصرية، وهي مجلة «اللطائف المصورة» مناسباً لآية: ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾[الجن: ٢٨]، فقد جاء فيها تحت العنوان الآتي ما نصه:

لطيفة في قوله تعالى: ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾ ﴾

عدد سكان العالم

أحصي أخيراً عدد سكان الكرة الأرضية فبلغ مليارين من النفوس، أي: ألفي مليون، وقد كان في سنة ١٩١٠م ألف وستمائة مليون فقط، فبلغت الزيادة في عشرين سنة ٤٠٠ مليون نسمة، وعدد سكان العالم موزع كما يلي:

في آسيا ٩٠٠ مليون، وفي أوروبا ٥٠٠ مليون، وفي أمريكا ٢٢٠ مليوناً، وفي أفريقيا ١٥٠ مليوناً وفي أستراليا ٨ ملايين.

وأما عدد سكان ممالك أوروبا فهو كالآتي: روسيا أوروبا ١١٥ مليون، ألمانيا ٦٢ مليوناً ونصف وبريطانيا ٤٢,٧ مليوناً، إيطاليا ٤١ مليوناً، فرنسا ٣٩,٥ مليوناً، أسبانيا ٢١,٣ مليوناً، بولونيا ٢٠ مليوناً، رومانيا ١٧ مليوناً، تشكوسلوفاكيا ١٣,٦ مليوناً، المجر ٨ ملايين، بلجيكا ٧,٨ ملايين، هولندا ٧,٦ ملايين، النمسا ٦,٥ ملايين، أسوج ٦ ملايين، اليونان ٦ ملايين، البرتغال ٥,٤ ملايين، بلغاريا ٤,٥ ملايين، أرلندا ٤,٢ ملايين، أستونيا ٤,١ ملايين، سويسرا ٣,٩ ملايين، فانلاندا ٣,٥ ملايين، نروج ٢,٧ مليون، ليتوانيا ٢,١ مليون، تركيا أوروبا ٢ مليون، ألبانيا ثلاثة أرباع المليون، دوقية لوكسمبرج ٢٦٠ ألفاً. انتهى ما جاء في المجلة المذكورة.

وبهذا تم تفسير سورة «الجن»، والحمد لله رب العالمين. كتب عصر يوم الأحد ١٩ يوليو سنة ١٩٢٥م، ٢٨ ذي الحجة سنة ١٣٤٣ هجرية.

تفسير سورة المزمل
هي مكية
إلا قوله تعالى:

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ ﴾ [الآية: ٢٠] **إلى آخر السورة، فمدنية**

آياتها ٢٠، نزلت بعد سورة القلم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾

ملخص الأحكام في هذه السورة

(١) أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أن يقوم من الليل ثلثه، أو نصفه، أو ثلثيه، فهو مخير بين هذه الثلاثة.

(٢) وهو في ذلك يقرأ القرآن بتؤدة حرفاً حرفاً، يقف على العالمين، وعلى الرحيم، وعلى الدين فيقطع القراءة آية آية.

(٣) وأن يذكر ربه ليلاً ونهاراً بالتسبيح والتهليل والتمجيد والصلاة والقراءة ودراسة العلم.

(٤) وأن يجرد نفسه إليه عما سواه.

(٥) وأن يتخذه وكيلاً يكل إليه أموره متى فعل ما يجب عليه فيها.

(٦) وأن يصبر على ما يقولون فيه وفي ربه، من أنه ساحر، أو شاعر، وفي أن ربه له صاحبة وولد.

(٧) وأن يهجرهم هجراً جميلاً، وذلك بالمجانبة والمداراة وعدم المكافأة.

(٨) وأن يكل أمرهم إلى الله، فهو يكافئهم ويكفله.

(٩) وأن يتمهل زماناً قليلاً فسيرى عاقبته وعاقبتهم.

فهذه الأمور التسعة طلبت من النبي صلى الله عليه وسلم ومن أتباعه، ولما شق ذلك عليهم، فقد كان الرجل يصلي الليل كله مخافة ألا يصيب ما أمر الله به من القيام. قال الله: إنه يعلم أنه صلى الله عليه وسلم يقوم أقل من ثلثي الليل تارة، ونصفه تارة أخرى، وثلثه مرة، وهكذا أصحابه، وإحصاء الليل شاق عليهم فلا يقدرون على ضبطه، ولا معرفة ساعاته، فانتفخت أقدامهم من طول القيام، نسخ ذلك وأمرهم بما تيسر من صلاة الليل، ثم نسخ ذلك اليسير أيضاً من صلاة الليل بالصلوات الخمس، لأن المسلمين منهم المريض، ومنهم المسافر للتجارة، ومنهم المسافر للقتال في سبيل الله، فهؤلاء لا يتيسر لهم القيام مع هذه الأعمال. فالصلاة المفروضة كافية للأمة مع إيتاء الزكاة وإدامة استغفار الله في مجامع أحوالهم، لأن الإنسان لا يخلو من تفريط.

هذا ملخص أحكام السورة، وناسخها ومنسوخها، ولنشرع الآن في تفسير الألفاظ للسورة كلها، فنقول ومن الله التوفيق:

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾ بفتح الميم وكسرها، وقرئ «المتزمل»، أي: المتلفف في ثيابه، وهو النبي صلى الله عليه وسلم و ذلك لأنه كان نائماً مرتعداً مما دهشه من بدء الوحي، إذ رجع إلى خديجة يرجف فؤاده، فخوطب بهذا القول تهييجاً له، وقد كان متلففاً في قطيفة، والمتزمل كما يطلق على هذا المعنى يطلق على من تحمل الحمل، أي: الذي تحمل أعباء النبوة، فهذا المعنى يؤخذ من باب الكناية تعريضاً، فهو قول: يا أيها المتلفف بثيابه معرضاً بأنه يحمل عبئاً عظيماً فليقم لحمل عبئه ﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ ﴾ أي: قم إلى الصلاة وداوم عليها فيه ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِّصْفَهُۥٓ ﴾ أي: إلا نصفه، فالنصف بدل من قليلاً ولا جرم أن النصف قليل بالنسبة للكل ﴿ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴾ أي: انقص من النصف ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾

أي: إلى الثلثين، فيكون التخيير بين الثلث والنصف والثلثين، وبقي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه على هذه الحال يصلون بالليل اثني عشر شهراً، ثم خفف عنهم كما تقدم إيضاحه، فصار المفروض ما تيسر من الصلاة بالليل، ثم نسخ بالصلوات الخمس، وصار قيام الليل سنة إلى يوم القيامة، وبقي وجوبه في حق النبي صلى الله عليه وسلم، ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ أي: بينه بياناً، واقرأه على تؤدة، وتبين حروفه بحيث يتمكن السامع من عده مع الوقوف على كل آية كما تقدم، وذلك ليتمكن المصلي من حضور القلب، والتأمل والفكر في حقائق الآيات ومعانيها، فيستشعر العظمة والجلال بقلبه متى ذكر الله والرجاء والخوف عند الوعد والوعيد، والاعتبار بالقصص والأمثال، فنتيجة الترتيل حضور القلب، فأما من يقرأ سوراً كثيرة في ركعة بحيث يكون هذًا كهذّ الشعر، الهذ: سرعة القطع، أي: بسرعة وعجلة، فذلك لا صلاة له، ولقد قام النبي صلى الله عليه وسلم بآية من القرآن، وهي: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[المائدة: ١١٨]، ولقد أخبر صلى الله عليه وسلم بأنه سيأتي قوم يقرؤون القرآن يقيمونه كما يقام السهم، يتعجلونه ولا يتأجلونه، لا يجاوز تراقيهم، وهي جمع ترقوة، وهو العظم الذي بين نقرة النحر والعاتق، ويقول ابن مسعود: قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة. ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ أي: سننزل عليك القرآن، وفيه الأمور الشاقة من الأوامر والنواهي عليك وعلى أتباعك، وكما أنها تثقل عليكم في العمل فهي في نفسها راجحة للوزن، ليست من سفاسف الأمور وخفافها، فهو كلام رصين وهو أيضاً ثقيل في الوحي، فقد جاء في حديث البخاري ومسلم أن الوحي كان يأتيه صلى الله عليه وسلم أحياناً في مثل صلصلة الجرس، وهذا أشده عليه فيفصم عنه وقد وعى ما قال، وأحياناً يتمثل له الملك رجلاً فيكلمه فيعي ما يقول، وكان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقاً، ومعنى ينفصم: يفارق، ومعنى يتفصد عرقاً: يجري عرقه كما يجري الدم من الفاصد، فملخص ثقل القرآن في أربعة أشياء: في التكاليف، وفي رجحان نفس القرآن من حيث المتانة والبلاغة والمعنى، وفي الشدة على المنافقين لما ينالهم من الغم به، وفي ثقل الوحي وشدته عند نزوله، فهو راجح للوزن، ثقيل الوحي، ثقيل التكليف، ثقيل على المنافقين يغيظهم، ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ ﴾ أي: قيام الليل ﴿ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا ﴾ قرئ «وطاء» كغطاء، و«وطأ» كقلب، أي: أشد موافقة ومواطأة، لأن القلب واللسان والسمع والبصر تكون بالليل أكثر مواطأة منها بالنهار على الأول، وأوطأ للقيام وأسهل على المصلي للعبادة والخلوة برب العباد، فإن الليل أفرغ للقلب من النهار، ولا يعرض له في الليل حوائج وموانع مثل النهار، وأمنع من الشيطان، وأبعد من الرياء، وذلك على الثاني وهما متقاربان، وقوله: ﴿ وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ وأثبت قراءة لأن القلب إذ ذاك حاضر، والأصوات هادئة، وأبين قولاً، ثم إن الناشئة مصدر نشأ، إذا قام ونهض، كالعافية، ويجوز أن يقال النفس الناشئة: التي تنهض من مضجعها للعبادة، ﴿ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ تقلباً في مهماتك واشتغالاً بها، فعليك بالتهجد، فإن مناجاة الرب يعوزها الفراغ والتخلي، ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ ﴾ ودم على ذكره ليلاً ونهاراً بالتسبيح والتهليل والتحميد والصلاة وقراءة القرآن، ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ انقطع إليه بالعبادة، وجرد

إليه نفسك عما سواه، هو ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ لأن اختصاصه بالألوهية يوجب أن توكل الأمور إليه ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ فيك وفي ربك مما تقدم ذكره، ﴿ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ بالمداراة والمجانبة وعدم المكافأة ﴿ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ دعني وإياهم وكل أمرهم إلي، فأنا لست في حاجة إليك في مكافأتهم ومجازاتهم ﴿ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ ﴾ أرباب التنعم، وهم صناديد قريش، ﴿ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾ إمهالاً أو زماناً قليلاً ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا ﴾ هذا علة لما قبله، جمع نكل: قيوداً ثقيلة ﴿ وَجَحِيمًا ﴾ ناراً محرقة ﴿ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ ﴾ غير سائغ في الحلق لا ينزل ولا يخرج، وهو الزقوم وغيره ﴿ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ وجيعاً ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ ﴾ يتزلزلان ويتحركان. وهو يوم القيامة ﴿ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ الكثيب: الرمل المجتمع. يقال: كثبت الشيء فهو كثيب، أي: مكتوب. والمهيل: هو الذي إذا أخذت منه شيئاً تبعك، أي: منثوراً ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ ﴾ يا أهل مكة ﴿ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ ﴾ يشهد عليكم يوم القيامة بالتكذيب والكفر ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ وهو موسى عليه السلام ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ ﴾ المتقدم ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ ثقيلاً ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾ أي: فكيف تتقون في الآخرة عذاب يوم يجعل الولدان شيباً إن كفرتم في الدنيا، فهو يجعل الولدان شيباً من شدة هوله. وهذا تمثيل لشدة ذلك اليوم. فإن الهموم تضعف القوى وتسرع بالشيب. ثم وصف اليوم بالشدة أيضاً فقال: ﴿ ٱلسَّمَآءُ ﴾ على عظمتها وشدة إحكامها تنفطر به وتنشق فكيف يكون غيرها من الخلائق، وقوله: ﴿ مُنفَطِرٌۢ ﴾ إنما ذكر على تأويل السماء بالسقف فهو منشق ﴿ بِهِۦ ﴾ أي: بيوم القيامة، أي: إنها تنفطر بسبب شدة ذلك اليوم وهوله، ﴿ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴾ أي: وعد الله كائناً، ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ ﴾ الآيات المشتملة على الوعيد ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ موعظة ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ أي: فمن شاء اتعظ بها واتخذ سبيلاً إلى الله بالتقوى والخشية. ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ ﴾ أي: أقل منه أو أكثر من النصف ﴿ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾ أي: تقوم أنت وطائفة من المؤمنين ﴿ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ إذ لا يعلم مقادير ساعاتهما على الحقيقة إلا هو، ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ ﴾ أي: لن تحصوا تقدير الأوقات، ولن تستطيعوا ضبط الساعات، ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ بالترخيص بترك القيام وعفا عنكم ورفع المشقة عنكم، ﴿ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ أي: فصلوا ما تيسر عليكم من صلاة الليل، فصار التهجد على أي وجه كان واجباً غير مقيد بنصف ولا غيره، ثم نسخ بالصلوات الخمس. ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ ﴾ أي: أنه سيكون ﴿ مِنكُم مَّرْضَىٰ ﴾ فلا يقدرون على القيام بالليل، ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يسافرون حال كونهم ﴿ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ من رزقه بالتجارة أو طلب العلم، ﴿ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ فلا فرق في الإسلام بين الجهاد في قتال العدو والجهاد في التجارة لنفع المسلمين وطلب العلم. قال ابن مسعود رضي الله عنه: أيما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن الإسلام صابراً محتسباً فباعه بسعر يومه كان عند الله من الشهداء، ثم قرأ عبد الله قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾. ﴿ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ بمعنى صلوا، وأعاده للتكرير

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ المفروضة، كأنه يقول: صلوا وداوموا على الصلاة وقوموها، فلا تكون قلوبكم غافلة، ولا أفعالكم خارجة عن النظام المطلوب لها، ﴿ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ الواجبة ﴿ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ بالنفقات الأخرى في سبيل الخيرات، لأن ذلك باق لكم عند الله، ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي: تجدوا ثوابه، وقوله: ﴿ هُوَ خَيْرًا ﴾ مفعول ثان لـ « تجدوه »، وهو ضمير الفصل، ﴿ وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ من الذي تؤخرونه إلى الوصية عند الموت، ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ﴾ في جميع أحوالكم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يستر على أهل الذنوب والتقصير. انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها، والحمد لله رب العالمين.

في هذه السورة لطيفتان:

(١) في قوله تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾[الآية: ٤].

(٢) في قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾[الآية: ٢٠] الخ.

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾[الآية: ٤] مع قوله تعالى: ﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾[الآية: ٢٠]

فهاهنا أمران: قراءة القرآن، وترتيله، أما قراءة القرآن فقد فسر بها قوله تعالى: ﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾[المزمل: ٢٠] أي: من القرآن، وذلك بدراسته وتحصيل حفظه، وألا يعرض للنسيان، فيقرأ القرآن عشر آيات في اليوم والليلة، أو عشرين فيهما، أو أربعين، أو خمسين، أو مائة، أو مائتي آية، أو خمسمائة آية، وقد ورد في كل ذلك أحاديث، والمقصود أن الإنسان لا يغفل عن قراءته ولو عشر آيات في اليوم والليلة، أما إذا زاد كثيراً فليس بمحمود.

ألا ترى إلى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما في الصحيحين قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ألم أخبر أنك تصوم الدهر وتقرأ القرآن كل ليلة. قلت: بلى يا رسول الله، ولم أرد بذلك إلا الخير. قال: فصم صوم داود، وكان أعبد الناس، واقرأ القرآن في كل شهر مرة، قال: قلت: يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك، قال: فاقرأه في كل عشر، قال: قلت: يا رسول الله، إني أطيق أفضل من ذلك، قال: فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك ».

فقد نهاه صلى الله عليه وسلم أن يتجاوز سبع القرآن كل ليلة، فأنزله بذلك إلى سبع ما كان يقرأ في كل يوم وليلة، والقصد من هذا النهي أن يرتله ويقف على معناه.

ولقد ورد في الخمسين آية وما قبلها من الأربعين والعشرين والعشرة أن صاحبها لا يكون من الغافلين، وورد في المائة أنه يكون من القانتين، وفي المائتين أن القرآن لا يحاجه، وفي الخمسمائة أنه يكون له قنطار من الأجر، وهذه الأحاديث وإن لم تكن في الصحاح فإنها تدلنا على ما كان عليه آباؤنا في الصدر الأول، أما حديث عبد الله بن عمرو بن العاص فهو في الصحيحين.

الكلام على ترتيل القرآن

وأما ترتيله فقد مر بيانه، وملخصه:

(١) أنها تكون مداً.

(٢) وأن يقرأ: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، يمد بـ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾، ويمد بـ ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾، ويمد بـ ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾.

(٣) وتكون القراءة مفسرة حرفاً حرفاً.

(٤) ويقول: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ويقف.

(٥) ويقول: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ثم يقف، ويقول: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ثم يقف. ومعنى هذا أنه يقطع قراءته آية آية. ويروى أنه صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة كان يقرأ على ناقته سورة «الفتح» فرجع في قراءته.

هذا ملخص ما جاء في أحاديث البخاري والنسائي والترمذي ومسلم، وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى في قوله تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾[المزمل: ٤]، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى:

﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾

هاأنا ذا نقلت لك كلام ابن مسعود في تفسير هذه الآية: أن التاجر الصالح يكون كالمجاهد، وأقول لك الآن ما قاله ابن عمر: ما خلق الله موتة أموتها بعد القتل في سبيل الله أحب إلي من أن أموت بين شعبتي جبل أضرب في الأرض أبتغي من فضل الله.

فهذا عبد الله بن مسعود، وهذا كلام ابن عمر كلاهما يفسر الآية بهذا، فقد سويا بين السفر لطلب الرزق وبين الجهاد، وأن الموت في كل منهما شهادة، وإذا كنا نسمع الأئمة رضي الله عنهم يستدلون بقوله تعالى: ﴿ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[الحشر: ٢] على ربع الأحكام الفقهية، وهو القياس، لأن أصول الفقه ترجع إلى الأربعة: الكتاب والسنة والإجماع والقياس، فإذا كان ربع علم الفقه يرجع إلى القياس المبني على هذه الآية؛ فكيف يكون الأمر بالآية التي نحن فيها وهي قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[المزمل: ٢٠].

يا ليت شعري، ماذا يكون في هذه الآية للمسلمين الذين هم ثلاثمائة وستون مليوناً؟ هؤلاء المسلمون الذين أخنى عليهم الدهر، لماذا؟ لأن تعاليمهم ناقصة بتراء، إن علماء الإسلام قد دفنت منهم هذه الآية دفناً، ومعنى هذا أنهم واروها عن العيون ودفنوها بين دفتي المصحف، أي: لم يظهروها للأمة الإسلامية مشروحة كما شرحت الصلاة والزكاة.

أيها المسلمون، عجبت لكم! كيف تكون الصلاة؟ وكيف تكون الزكاة؟ فوالله لا صلاة ولا زكاة ولا حج ولا علم ولا عمل إذا لم يكن عند الأمة ثروة، إذن تكون الثروة والقوة مقدمتان على الزكاة وعلى الحج، ومن أين يزكي الناس إلا إذا كان عندهم مال، ومن أين يحجون إذا لم يكن عندهم مال؟ بل كيف يصلون إذا كانوا جياعاً لا مال عندهم، بل كيف يصلون ويصومون ويحجون إذا لم تكن بلادهم آمنة مطمئنة، ولا تكون البلاد آمنة مطمئنة من لصوصها في الداخل، ومن أعدائها في الخارج، إلا إذا كانت الدولة ذات مدافع وطيارات وجيوش جرارة، وكيف يتم ذلك إلا بمال ونظام وحكومة؟.

يا أمة الإسلام، أليس ذلك كله قبل الزكاة. أي: إن وجود المال مقدم على وجود الزكاة والحج والجهاد في سبيل الله. يا أمة الإسلام، ألم يقل الفقهاء: إن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب؟ وقد استنتجوا من هذه القاعدة فروعاً كثيرة، منها أن الإنسان إذا غسل يديه إلى المرفقين يجب عليه أن يغسل وراء المرفقين جزءاً من باب ما لا يتم الواجب به فهو واجب، بل هم قالوا أيضاً قولاً إجمالياً: إن العلوم والصناعات كلها واجبة على الأمة وجوباً كفائياً. فليخصص لكل علم وكل صناعة طائفة من الأمة يكون استعدادهم أقبل لذلك من غيرهم، لقد راعى الله ذلك وأراده فذكر الضرب في الأرض والابتغاء من فضله قبل أن يذكر الجهاد، فكأنه جعل إكمال الأمور المعاشية مقدماً على الجهاد، فهو إذن كالطهارة لا تصح الصلاة إلا بها، فإذا قال الفقهاء: إنه يجب على المصلي أن يقدم الطهارة لتصح الصلاة؛ فليقل علماء الإسلام الآن بأعلى صوت: ليقدم علوم الصناعة والسياسة والتجارة واستخراج المعادن، وعلوم طبقات الأرض، وعلوم نظام دول أوروبا، وعلوم نظام المدارس، وعلوم نظام الطيران في الجو وعلوم السفن في البحر، وعلوم الرياح، وعلوم الكهرباء، وعلوم المغناطيس، وعلوم الغواصات وعلوم الغازات الخانقة، وعلوم الكواكب الثابتة، وعلوم الكواكب السيارة، وعلوم النبات، وعلوم الحيوان، وعلوم الطب، وعلوم البيطرة، إلى غير ذلك.

ليقل علماء الإسلام: فلتقدم هذه العلوم وهذه الصناعات على المدافعة عن الأوطان التي هي بعض أنواع الجهاد، إذ لا تمكن المدافعة عن البلاد اليوم إلا بهذه العلوم وبهذه الصناعات، وإذا كان الجهاد واجباً فهذه مقدماته، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وإنّما الفرق بين هذه العلوم وبين الوضوء للصلاة، أن الوضوء يجب على الفرد، وأن هذه العلوم تجب على المجموع. إن المسلمين ناموا عن الواجب الكفائي الذي يعم الأمة كلها غفلة وجهالة، أوَما علموا أن فرض الكفاية إذا فات ماتت الأمة، أما فرض العين فإنه إذا فات لم يستضر به إلا الذي أهمل فيه، ففرض الكفاية عظيم جداً جليل ثمرته جليلة، والثواب عليه لا حد له، وضياع البلاد والعباد مرتب على إهماله، ولذلك نرى أن أمتنا الإسلامية لما جهلت هذا الفرض تخطفتها أمم أوروبا.

أمة الإسلام التي نراها اليوم ساكتة وأمم أوروبا تتفق معاً لقتل أهل مراكش الذين يحاربون مع الأمير عبد الكريم، حتى إن أمريكا أرسلت طيارات لمساعدة فرنسا وأسبانيا ضده، وأنا أكتب هذه السطور، وأمم الإسلام لضعفها وقلة الحكماء فيها لا تبدي حراكاً لجهلها وخوفها من أوروبا، ولأن أغلب بلاد الإسلام في أيدي الفرنجة، ألا قاتل الله الجهالة.

فيا الله، كيف غفل العلماء قديماً؟ أستغفر الله، إنهم ما غفلوا، إن ما قلته مستمد من كلامهم، ولكن أقول: أهملوا، أهملوا، أهملوا، أي: أهمل الأمر صغارهم، أما حكماؤهم فقد وضحوه ولم يصل لعامة المسلمين. ترك العلماء ملوك الإسلام يجيشون الجيوش ويقهرون الأعداء بقوة السياسة والسيف، ولم يساعدهم العلماء بما يقوي أركان دولهم، كان يجب أن يبثوا في الشعب ما ذكر في بطن الكتب أن ذلك كله جهاد، كان يجب أن ينتشر في البلاد، كان يجب أن تؤلف له كتب كما ألف للصلاة والزكاة والبيوع والفرائض.

فيا ليت شعري من أين يكون بيوع أو مواريث أو قضايا وعبادات إذا لم تكن البلاد فيها كل ما تحتاج إليه؟ فكيف أطلنا نحن المسلمين في الثمرات ولم نطل في الشجرات، والثمرات هي الشرائع والأحكام والعبادات كالهبة والميراث والصلاة والزكاة، ولم نطل في الأصول أي: في الأشياء نفسها المخلوقة كالنبات والحيوان والمعادن والزراعة والتجارة والسياسة والعلوم الحديثة والقديمة، لم نطل في هذه مع أنه لا دين ولا شرع إلا بعد توافر تلك الأسباب كما جعلت الطهارة قبل الصلاة، فمن لم يتوضأ فلا صلاة له، هكذا في الأمم إذا لم يكن لديها ما تحتاج إليه بمناسبة زمانها فلا شريعة لها ولا جهاد ولا عبادات ولا بيوع، لأن مرافقها تصبح بيد غيرها، وتكون محبوسة في يد دولة أجنبية تذلها وتفعل بها ما فعل الإنسان في الحيوان من ذبح وحمل عليه وإذلال.

علم الله أن أمة الإسلام ستنسى هذه الواجبات بغفلة صغار العلماء، وعلم أننا سنصبح في يد أوروبا فأنزل هذه الآيات لنتفطن لها ونقرأها ونفهم معناها، فقدم الضرب في الأرض والابتغاء من فضل الله على الجهاد من باب تقديم المقدمات على النتائج، وتقديم الوضوء على الصلاة. وقد أخذ الشافعي رضي الله عنه في الوضوء بحديث: «ابدأوا بما بدأ الله به»، ولذلك أوجب غسل الوجه قبل غسل اليدين، وهكذا ما بعدهما مراعاة لهذا الحديث، وإذا كانت مسألة الوضوء التي لا تخرب دولة إذا قدم الوجه على اليدين أو بالعكس قد تحرى لها الأئمة إلى هذا الحد وقدموا ما قدمه الله؛ أفلا يكون ما يقال هناك يقال هنا، وهو أن نظام الأمة يجب العناية به حتى يتسنى لنا الجهاد، إذ لا جهاد إلا بما يقيم أمر البلاد من تجارة وصناعة وزراعة وإصلاح طرق وكهرباء وبخار وقطرات حديدية وهكذا مما لا يمكن حصره الآن من العلوم.

ولعلك تقول: هناك أمور واجبة وهنا أمر مباح، تقول: إن هذا هو الخطأ في الفهم، هذا المباح الذي ذكرته قد أقررت بأنه فرض كفاية فأصبح واجباً على الأمة، فلا بد من أن الحكومات الإسلامية تخصص لكل طائفة من الأمة أعمالاً مما تجب في الوقت الذي هي فيه، ولعلك تذكر ما نقلته عن مدارس أمريكا في سورة «آل عمران»، وأنهم يعلمون في المدارس من الصناعات التي تبلغ نحو سبعة آلاف صنعة نحو مائتي صنعة لتلاميذ المدارس، وأن الصناعات عامة هناك، وأن الصانع هناك يعتبر كالمهندس وكالطبيب وكالقاضي وما أشبه ذلك.

لعمرك إن هذا هو الحق، وإن هذا هو ديننا، ديننا الذي يقال فيه: ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾[المزمل: ٢٠] العلم، يبتغون من فضل الله الصناعة، المعدن من الأرض، طبقات الأرض، سياسة الأمم، علوم الجو، علوم السفن، وهكذا مما أسلفناه، كل هذه داخلة في قوله تعالى: ﴿ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾[المزمل: ٢٠]، وجعل الذين يقاتلون في سبيل الله فريقاً، وهذا الفريق أخره، وإنّما أخره لأجلنا نحن الآن لأجل أن أقول في هذا التفسير لكم: اقرؤوا كلام ابن مسعود، واقرؤوا كلام عمرو بن العاص، وانظروا أليس المعنى عندهما هو ما قررناه؟ ولأجل أن أقول: قد قدم الله هذه العلوم والصناعات على الجهاد كما قدم الوضوء على الصلاة ليعلم المسلم أنه إن حفر في طبقات الأرض لاستخراج المعادن فهو في سبيل الله، وإن تاجر فهو مجاهد في سبيل الله، وإن قرأ علم

البيطرة فهو مجاهد في سبيل الله، وإن قرأ علم النبات فهو مجاهد في سبيل الله، وإن قرأ علم الحيوان فهو يجاهد في سبيل الله، وإن قرأ علم السياسة فهو يجاهد في سبيل الله، وإن قرأ علم الطيارات فهو يجاهد في سبيل الله، وإن قرأ علم الغواصات فهو يجاهد في سبيل الله، وإن قرأ علم الفلك فهو يجاهد في سبيل الله، بل هو مقدم على من يقاتل الأعداء، لأنه لا يتم قتال العدو إلا بهذه العلوم، ومن أصلح الطرق الحديدية وأتى عليها بالقطرات فهو يجاهد في سبيل الله، وهكذا، فيا ليت شعري لِمَ لا نؤلف كتباً لهذا كثيرة؟ انتهى.

قاعدة عامة لحياة الأمم

اعلم أن الله عز وجل لما خلقنا في الأرض أعطانا مواهب، وهي الأعضاء والحواس والعقول، وأعطانا منحاً خارجة، وهي الأرض وما أقلت والسماء، وما أظلت، وأوجب علينا أن نستعمل النعمتين: نعمة أنفسنا، ونعمة الآفاق، فيجب علينا أن نقوي الأعضاء كاليدين والرجلين وسائر الأعضاء بالتمرين والحركات العضلية والمشي، أو الأعمال في الصناعات، وأن نبحث فيما حولنا، وفي الأرض والسماء، لنستخرج ما كمن فيهما من المواهب الطبيعية والفلكية، وهكذا لنقوي حاسة السمع والبصر فينا، وهكذا قوة الخيال والذاكرة والمفكرة والحافظة والواهمة، وقوة اليد بالكتابة والصناعات، فإذن يجب علينا تقوية الأعضاء الخارجة والحواس الظاهرة والحواس الباطنة بالطرق العلمية المذكورة في محالها. كل ذلك مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [المزمل: ٢٠].

العبادة والأعمال الأخرى

هذه سورة «المزمل» ابتدئت بالعبادة والصلاة بالليل، وكان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يصلون نصف الليل، أو أكثر أو أقل. متى كان ذلك؟ كان ذلك قبل أن يستفحل أمر الإسلام، وتقوم الدولة على أساس متين، فلما اتسع نطاق المسلمين هاجر قوم إلى الحبشة، وآخرون إلى المدينة، واتسع نطاق التجارة، فلما حصل ذلك؛ وسع الله لهم نطاق العمل، فبعد أن كان صلاته في جوف الليل تستغرق ثلثيه أو نصفه أصبح القوم فرقاً شتى: ففرقة شغلها أمر التجارة، وفرقة شغلها أمر الجهاد، وهكذا، لذلك وسع الله أمر الطاعة وجعلها شاملة كاملة، وأفاد الناس أن هذه الأعمال هي من طاعة الله، بل أقول إن الأمر فوق ذلك، فإنا إذا وجدنا إنساناً يصلح لعلوم الزراعة، أو لنفس الزراعة، أو لأي عمل من الأعمال، ووجدناه اشتغل بالعبادة أو الصوم؛ وجب قهره والضغط عليه وعقابه ليتخذ له عملاً لسعادة نفسه وأمته، فمن قدر على علم أو صناعة نافعة للعموم فهذا أفضل، فإن عجز فليعمل عملاً نافعاً في تجارة، أو إغاثة الملهوف، أو نحو ذلك، فإن عجز عن هذا كله فليلتزم العبادات ليلاً ونهاراً.

فإن الصحابة لما لم يتسع نطاق أعمالهم كلفوا بالعبادات الشاقة، فلما كثرت عليهم الأعمال وقويت شوكتهم عملوا وعد ذلك من الجهاد، ولو كان الانهماك في العبادة أفضل لأمر الله بذلك، ولكن الله صرف الناس عن المشاق في صلاة الليل إلى المشاق في التجارة عند الاقتضاء، فذلك هو

أفضل من صلوات النوافل، فلا فرق بين علم وعلم، ولا بين صناعة وصناعة، كل ذلك حقاً أفضل من العبادة كما قال علماؤنا، وكما نص عليه الإمام الغزالي في «بداية الهداية».

فعلى حكام المسلمين أن يقهروا رجال الصوفية جميعاً على الأعمال، وأن يستخرجوا أناساً يصلحون للأعمال من التكايا ليعلموا أو ليتعلموا صناعات أو علوماً نافعة للأمة، وحرام أن يترك المسلمون سبهللاً بدون ضابط ولا قانون.

جلّ الله، يقول الله في أول السورة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[المزمل: ١-٢]، أخرجه وأخرج أصحابه من فراشهم إلى الصلاة، ثم أخرجهم من الصلاة، أي: من الإكثار منها، إلى الجهاد العام الذي يشمل كل علم وكل صناعة، كأنه تعالى بهذه الإشارة يقول: إذا كان نبيكم وهو مزمل في ثيابه وهو أكثركم طاعة قد أمرناه بالقيام؛ فهكذا أنتم وأنتم أقل منه طاعة، لنخرجكم إلى العبادات وإلى الأعمال وأن تكونوا كالمرسلين. النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن كاسلاً قط، بل كان مستمراً في طاعة ربه على دين الخليل، وقد نزل له الوحي، ولما ارتجف فؤاده وزملوه في ثيابه أمره أن يقوم الليل، فمن باب أولى أمته الذين هم مقصرون في جميع أعمالهم، حثهم الله على العمل وعلى العبادات، وكأنه يقول: إذا كان النبي قد زمل في ثيابه لحظة قد أمرته بالعمل؛ فكيف بكم وأنتم لا تعملون وكل الأمم حولكم عاملة؟ فأنتم كأنكم مزملون في ثيابكم أبداً، فقوموا للعبادة وقوموا لغيرها من علم وصناعة.

ومن عجب أنه لم يقرن الجهاد وابتغاء الفضل من الأرض والعبادة كلها معاً في سورة واحدة إلا هذه، ولم يظهر في سورة فضل الضرب في الأرض مثل ما ظهر في هذه السورة، فكأن لفظ «المزمل» يشير إلى أن كل ما يوجب الانقطاع عن العمل العام والعمل الخاص يجب أن يتخلص منه، فكأن هذه السورة نزلت لحث الأمة على الأعمال كلها، بل إن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل لنا وقص الكلام علينا لإرشادنا، فإن هذا القرآن إنّما هو لنا نحن الأحياء ننتفع به. إن نزول هذه السورة بهذا الترتيب عجيب يوجب عليهم القيام بالليل ثم ينسخ الوجوب عليهم ويبقيه على النبي صلى الله عليه وسلم ويوجههم إلى الأعمال العامة، لماذا هذا كله؟ ولماذا يقص علينا؟ لا بد أن يكون المقصد أن ننظر نحن الآن، فكلما اتسعت أعمال الأمة شمرنا عن ساعد الجد وفتحنا أبواباً لأعمال جديدة ولا نقف عند حد، والله فتح لنا الباب فقال: انظروا هاأنا ذا شغلتهم أولاً بالعبادة ثم فرقتهم فرقاً للعبادة وللعلم وللجهاد وللتجارة، فهكذا أنتم افعلوا ما فعلته أنا مع الصحابة، فإن لم يكن إلا العبادة فبها، وإن كانت لكم دولة وأمة واتسع نطاق الأعمال فلا تدعوها وترجعوا للمساجد، بل انتشروا في الأرض وابتغوا من فضلي، وأما صلاة الليل فهي نافلة لكم، فافعلوا منها ما تقدرون عليه، وإياكم أن تشغلكم عما يهمكم من أمور الحياة الدنيا.

لقد تدهورت الأمة الإسلامية اليوم بالنسبة لقراءة القرآن، وخالفت ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح وما أمر الله به في القرآن، أليس من المحزن أن المسلمين اليوم في مصر وما يماثلها يحفظون القرآن ويقرؤونه صباحاً ومساء يهذونه هذاً، أي: يسرعون فيه إسراعاً، مع أن

القرآن جاء لنتفكر فيه، وانظر كيف يأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقرأ في شهر، ولما أطال ابن عمر القول عليه قال: لا تزد عن سبعة أيام، أي: إن ذلك أقل ما يمكن الفهم فيه.

إن الأمة الإسلامية منيت ورزئت بطائفة من المحدثين أيام العصر الأول اخترعوا أحاديث ودونوها، وزعموا أنهم بها يتقربون لله تعالى، وذكروا فيها فضائل وصفات وثواباً لمن قرأ سورة كذا، فظن الناس أن هذا حق فدرجوا عليه وقرؤوا القرآن وهذوه هذاً، أي: أسرعوا في قراءته، وهذا واضح في كتاب «الإتقان في علوم القرآن»، فأصبحت الأمة اليوم فريقين: فريق لا يهتم بهذا الدين ولا بالقرآن، وفريق يقرأ القرآن ولا يتدبره، ويقرؤه قوم في رمضان مسرعين، ويقرؤون القرآن في كل ثلاثة أيام.

أليس هذا من الجهالة العمياء؟ قوم يحفظون القرآن ولا يعقلون، وقوم لا يؤمنون بهذا الدين، وهم أكثر من درسوا العلوم بأوروبا، فالقراء والعباد قلوبهم في غطاء وهم عنوان الإسلام، فالناظر إليهم يقول: هؤلاء عنوان الدين، وما هم بعنوان الدين، وإنّما هم جهال الدين.

مزية الإسلام في مستقبل الزمان

مزية الإسلام أنه سيعمل بهذه السورة وتفرق الأعمال على مجموع الأمة كما ظهر في سورة «البقرة» ووضح هناك فاقرأه، وأن تكون جميع العلوم منظوراً فيها جهة الحياة الدنيا وجهة خالقها، فتكون كل حرفة وكل علم مشوقة إلى خالق هذا العالم على نحو ما بينا في هذا التفسير، فيكون رجال الدين من هذه الأمة ملمين بأكثر العلوم إجمالاً، وعليه يبعثون في كل علم همم أربابه إلى استكناه حقائقه مع التشويق لمبدعه من طريق هذا العلم والصناعة التي يكون المرء قائماً بها، والمتصفح لهذا التفسير يقدر أن يفعل ذلك في كل علم وكل صناعة، فإن فيه من كل فن طرفاً مطبقاً على الدين مذكوراً فيه الجهة الإلهية المعشقة للمقام الأقدس، وهذه المزية توجب النبوغ في العلوم، وتكون هذه الأمة أرقى الأمم وأعلاها علوماً وصناعات.

غرور المسلمين اليوم

كم من مسلم سمع حديثاً مروياً في فضل الحج، أو في فضل الصلاة، أو في فضل قراءة القرآن، أو في فضل الصدقة، أو في فضل عيادة المريض، فهيأ له عقله، وسولت له نفسه، ودله شيخه أن الانقطاع إلى تلك الطاعة والإكثار منها أفضل، وحينئذ يصبح ذلك المسلم مغروراً.

إن المغرورين من المسلمين قد أوضحناهم في سورة «آل عمران» عند قوله تعالى: ﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾[الآية: ٢٤]، فقد لخصنا ما قاله الإمام الغزالي هناك، واستبان في ذلك المقام أن المسلمين اليوم مغترون، وهذا الغرور ورثناه عن القرون المتأخرة، إذ أصبح المسلمون لا مرشدين لهم، فتركوا وشأنهم يتخبطون في دياجير الجهالة، واستنام كل فريق في طاعة من الطاعات، فكل واحد من صالحي الأمة أصبح مشغولاً بعمل من الأعمال الصالحة كقراءة الأوراد التي وضعها الشيوخ، وكالحج، وكقراءة القرآن، ويكثرون من ذلك، ويتركون الأمة لا يفكرون فيها، ولا في صناعاتها، ولا في علومها، ولا فيما يحفظ كيانها.

كل ذلك ابتلاء من الله للأمة، وسيقيض من قراء هذا التفسير، ومن غيرهم من يفهمون الأمة أن العلوم كلها، والصناعات عبادات وجهاد، وأن قوله تعالى: ﴿ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ بعد قوله: ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[المزمل: ٢٠]؛ يشمل كل علم، وكل صناعة، وأن اختيار لفظ ﴿ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ وعدم ذكر لفظ التجارة التي كانت أهم أغراض الصحابة في الأعمال الدنيوية قد نظر فيه من جانب القدس الأعلى إلى ما نحن فيه الآن، ففضل الله أعم من هذه العلوم والصناعات وكل ما يحتاج إليه في هذه الحياة الدنيا.

انظر ما تقدم في سورة «آل عمران»، فهناك تفصيل المغرورين كما ذكرت لك، وتفصيل ما يجب على الأمة من تعميم العلوم الخ. وكيف يتحد أبناء العرب من مراكش إلى العراق، وكيف كانوا متفرقين بالجهالة.

فكم من امرئ قرأ الأحاديث الموضوعة، أو الضعيفة المروية في فضل عمل من الأعمال، وفوت على نفسه وعلى أمته مزايا نفسه وما انطوت عليه من شمائل شريفة، ومزايا منيفة، وعلوم لطيفة، وصناعات دقيقة، وجهل أن هذه المذكورات من أجل ما يبتغي دين الإسلام.

نام العلماء ولم يذيعوا أمثال ما نقله السيوطي رحمه الله في كتاب الإتقان عن قوم من المحدثين وكيف كثر في القرون الأولى وذاع وملأ الأصقاع، تلك الأحاديث الواردة في فضل السور القرآنية وقراءتها، وكيف كان أحد التابعين يدهش حينما يسمع تلك الروايات، فركب ناقته وسافر أياماً وأياماً وقابل الراوي الذي روى الحديث، فدله على من تلقاه عنه، فسافر إليه عشرات الأيام، كل ذلك وهو يضرب في الأرض يبتغي إحقاق الحق وإبطال الباطل، حتى وصل إلى من أذاع هذا الحديث، فوجده رجلاً زاهداً صالحاً، فقال له: كيف تقول إنك رويت كذا عن فلان وأنا لم أرو عنه؟ فقال ذلك الصالح: إنني أنا الذي زورت هذه الأحاديث لوجه الله تعالى، فقال: وكيف ذلك؟ قال: لأني وجدت المسلمين قد أكبوا على علم الفقه الذي أذاعه أبو حنيفة النعمان، فخفت أن يترك المسلمون القرآن إذا اشتغلوا بعلم أبي حنيفة، فقلت هذه الأحاديث ورويتها وأذعتها ليحفظ القرآن، فأكثر المسلمين اليوم مسحورون بأمثال تلك الأحاديث وهم تاركون لشؤون دينهم. ثم إن القرآن يقرأ لمجرد التلاوة لا للفهم وهذه من الطامات الكبرى.

إن الله خلقنا في الأرض ورزقنا مواهب بدنية، ونعماً أرضية، ومنحاً سماوية، وقال: يا عبادي هذه نعمي فاشكروها، وهذه آياتي فابتغوها، وهذه أرضي فاضربوا فيها، وزينوا أنفسكم بالعلوم والصناعات واستخرجوا كنوزي، فإني وعزتي وجلالي ما خلقتها باطلاً، ولا أودعتها أرضكم لتكون عبثاً عليها بلا عائدة، فلمَ خلقت فيكم الأسماع والأبصار، ولمَ علمتكم سبل الاستبصار، ولمَ زودتكم بنعمة العقل، ودقة السمع، وبهجة البصر، وأعطيتكم أقوى سلاح من الأعضاء الظاهرة والجوارح القوية، ومكنتكم في الأرض تمكيناً وسلطتكم عليها تسليطاً، وقلت لكم: هاهي ذه أرضي فاعمروها، وهذه حواسكم وجوارحكم فلا تهملوها وأنزلت عليكم في كتابكم: وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضلي فيها.

ويقول للمسلمين: لا عقولكم اتبعتموها، ولا آياتي فهمتموها، ولا نعمي قبلتموها، ولا حواسكم توليتموها، ولا جوارحكم مرنتموها، فهل أعطل نعمي لأجل جهلكم أو أبقي أرضي بلا زرع لغفلتكم؟ كلا. فأنا الحكيم العليم، فإن توليتم عن إصلاح حواسكم وجوارحكم وعمارة أرضكم؛ بطشت بكم وسلمتها لغيركم جزاءً وفاقاً، الأرض أرضي، والناس عبادي، وأنا عالم من هو الذي يصلح لاستخراج ثمراتها والقيام بأمرها، فهذا هو الذي أسلمه قيادها.

أيها المسلمون، كنتم قديماً أولى من غيركم فسلمتكم قياد أرضي، والآن وجدت تعاليمكم مشوهة، وعلومكم منحرفة، ودروسكم مظلمة، فسلبتكموها وأعطيتها لغيركم، وهاهو ذا آن الأوان لظهور ما لم يظهر من كوامن غرائزكم وبواطن أرضكم، ومزايا نفوسكم، وإشراق علومكم، ولذلك بدت طلائع العلم والحكمة في بلاد الإسلام، وظهر أرباب العقول اليوم في بلاد العرب والترك والفرس وسيزداد الأمر وتأخذ الأمم الإسلامية مكانتها، ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[الحديد: ١٧].

انتهى تفسير سورة «المزمل» صباح يوم الثلاثاء ٢١ يوليو سنة ١٩٢٥م، وهو التاسع والعشرون من شهر ذي الحجة الحرام من سنة ١٣٤٣ هجرية، والحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة المدثر

هي مكية

آياتها ٥٦، نزلت بعد سورة المزمل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ (٧) فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ (٨) فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (٣١) كَلَّا وَٱلْقَمَرِ (٣٢) وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ (٣٩) فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ (٤٠) عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ (٤٢) قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ (٤٧)

فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾

مقاصد هذه السورة:

أولاً: ست أوامر للنبي صلى الله عليه وسلم وهي: (١) الإنذار. (٢) وتكبير الله. (٣) وتطهير الثياب. (٤) وهجر ما يؤدي إلى العذاب. (٥) ولا تمن على أصحابك بما تعلمهم من أمر الدين وتبلغهم من أمر الوحي كالمستكثر بذلك عليهم. ولا على الفقراء بما تعطيهم استكثاراً منك لتلك العطايا، فتعليمك وعطاياك يجب أن تكون موجهة لجناب الحق مع الإخلاص وعدم المنة على المتعلمين. ولا على الفقراء، فإن الخلق عباده وأنت جعلت أباً لهم، هذا في أمر أصحابك وأتباعك. (٦) فأما الكفار بك والمؤذون لك فاصبر على أذاهم، فمتى فعلت ذلك كنت شاكراً صابراً.

ثانياً: تبيان العقاب المنزل على من خالف الدين وعاند الرسول، دلالة على أن صبره صلى الله عليه وسلم عليهم عاقبته النصر في الدنيا والآخرة وخذلان المعاندين. وذكر من هؤلاء أوصاف الوليد ابن المغيرة وأنه أعطي مالاً وفيراً وعشرة بنين ورياسة ووجاهة، فعاقبه الله بعد نزول هذه السورة، فنقصت أحواله كلها في الدنيا، ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ﴾[فصلت:١٦]، وذكر كيف استهزأ برسول الله صلى الله عليه وسلم وأدبر واستكبر وذم القرآن وجعله سحراً، وأنذر على ذلك بسقر.

ثم وصفها بأنها عليها تسعة عشر صفاً من الملائكة، إلى آخر ما سيأتي من عظيم أمرها. وذكر أن كل نفس مرهونة بعملها، وأن أهم أعمال أهل النار ترك الأعمال وتعطيل القوى. فلا عقولهم يفكرون بها إذ يعرضون عن التذكرة كالحمير المستنفرة الفارة من الأسد، ولا جوارحهم يستخدمونها في الأعمال كالصلاة وغيرها، ولا أموالهم يشكرون الله عليها فيعطون منها الفقراء. هذا ملخص السورة إجمالاً، والحمد لله رب العالمين.

المقصد الأول

المدثر: هو لابس الدثار، فإنه تأذى من قريش فتغطى بثوبه مفكراً وكان نائماً متدثراً فنزلت. وفي البخاري ومسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: جاورت بحراء شهراً، فلما قضيت جواري هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، وقال مثل ذلك في الشمال والخلف وجهة الرأس، ثم قال: فأتيت خديجة فقلت: دثروني، فدثروني وصبوا علي ماءً بارداً، فنزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ ﴾[المدثر:١-٥].

وفي رواية قال ما يفيد أنه رأى الملك الذي جاء بحراء قاعداً على عرش في الهواء، فأخذته رجفة شديدة، الخ.

مقدمة لتفسير هذه السورة وصلتها بما قبلها

اعلم أن سورة « المزمل » ذكرت بعد سورة « الجن » لأن السورتين مشتركتان في أن كلًّا منهما تفيد الاتصال مع العالم الروحي ، فسورة « الجن » لإعلام الناس أن الجن لهم اتصال بعالم الإنس ، وأنهم سمعوا القرآن فآمنوا به ، وسورة « المزمل » تشير إلى أن عالم الملائكة يتنزل على الأنبياء ، والأنبياء عنه يبلغون ، فيكون ذكر سورة « المزمل » كذكر السبب وراء المسبب ، لأن عالم الجن يسمع من النبي صلى الله عليه وسلم ، والنبي صلى الله عليه وسلم يتلقى عن عالم الملائكة ، فهو أسمع الجن ما يسمعه من الملائكة ، وأن الإنسان الحي قد يكون واسطة بين عالمين روحانيين ، فإن هؤلاء الجن الذين سمعوا منه صلى الله عليه وسلم ما كان ليتسنى لهم أن يسمعوا من جبريل ولا أمثاله من الملائكة ، وأنى لهم ذلك وهم عن السمع معزولون ، وإنّما يسمعون بالواسطة ، وهذا على حد قول الشاعر :

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا   على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع   إذا كان من تهواه ليس بذي ود

فالمتجاوران المتنافيان المتضادان لا يجتمعان ولا يتفاهمان ، والمتباعدان المتحدان مشرباً يقتربان ويتناجيان . وروي : إن لله ملائكة يسوقون الأشكال إلى أشكالها . وهذا القرآن بين ظهرانينا فيه الكلام على الجن وعلى الملائكة ، ولكن لما كان المسلمون غير مستعدين لهذه العلوم في الأزمان المتأخرة نقل الله العلم إلى بلاد الغرب وبحثوا فيه هم ، وأتوا بمئات من الغرائب التي نطق بها كتابنا وذكرنا بعضها ، وسيظهر كل ما في القرآن من سر ، وما سبب ذلك إلا الاستعداد ، فلما كانت الأمم الإسلامية قبل اليوم غير أهل لهذه العلوم صرفها الله إلى غيرهم وإن كان القرآن بين ظهرانيهم يقرؤونه صباحاً ومساء ، فيكون القرآن مع المسلمين كالملائكة مع الجن ، فهما في عالم واحد روحاني ، فلما لم يأتلفا كلم الملائكة من تأهل للعلم من الناس وهو النبي صلى الله عليه وسلم ، والنبي صلى الله عليه وسلم علم الجن وإن لم يعلم به إلا من الوحي كما تقدم ، فالمسلمون كالجن ، والقرآن كالملائكة ، فلما لم يفهموه ولم يفكروا فيما اشتمل عليه جعل علومه تظهر على يد أمم أخرى ، وسيعرف أبناؤنا علوم الأمم ويتمون البحث .

هذه هي المناسبة بين سورة « المزمل » وسورة « الجن » ، وسورة « المزمل » فيها بعث الهمم على العبادات وقيام الليل لاستخراج ما كمن في النفوس من المواهب ، فإن العبادات والذكر وهجر النوم والتوجه لله تبعث في النفوس وجداناً لا تبعثه العلوم ، ولم يقم في الأرض قائم بعمل إلا إذا تحرك إليه وجدانه ، إن أهل الأرض جميعاً لا يقومون لتأسيس دولة ، أو إقامة عمل بموقظ يوقظهم ، وهذا الموقظ المحرك للهمم لا قدرة له على بعث تلك الهمم لما يريد إلا إذا انبعثت همته أولاً .

هذه قاعدة مطردة ، أما الخطيب ، أو الواعظ أو المؤلف الذين خلت نفوسهم من الوجدان ومن الحب لما يقولون ؛ فإن السامعين والقارئين لما يقولون وما يكتبون لا يحسون بوجدان في نفوسهم . إن هناك صلة بين القائل والسامع والكاتب والقارئ ، فعلى مقدار تأثير الكاتبين والقائلين تكون الآثار في نفوس السامعين قلة وكثرة ، هذا أمر لا مرد له ، فكل ذي وجدان مؤثر أثراً ما . وهذا الأثر بقاؤه في

الأمم يكون على مقدار القائمين بـه مـن حيث وجدانهم وآثارهم . ففي سـورة « المزمـل » أمـر بقيام الليل . وبقي الوجوب في حقه ونسخ في حق الأمة ، وبقي الندب . فصلاة الليل نافلة . وبذلك فتـح باب للأمة فليتهجد من يشاء كما تهجد النبي صلى الله عليه وسـلـم . وليعلـم كـل مطيـع ومتهجد أنـه بهذه الطاعة تنساق إليه طلائع الفهم ومقدمات العلم ، وإذن يدخل في باب الحمد ، وقد قدمنـا في « الفاتحة » وغيرها أن الحمد لا يتم إلا بالعلم . فالتهجد إذن مفتاح لانشراح الصـدر وقبـول العلـم . فـإذا تـهجدت أيها الذكي فسترى في قلبك آثار الانشراح لا سيما إذا استحضرت معاني القراءة وتوجهت بقلبـك إلى الله وخاطبته كأنك تراه . ومتى انفتح لك باب الفهم وأحببت العلم فهاهو ذا باب الحمد ، فإنـه لا حمد إلا على معلوم . والنعمة التي لا تعلم كيف نحمد عليها؟ فمقام الحمد يستلزم معرفة مـا في السماوات وما في الأرض . إذن فادرس ما أمكنك من عالم السماوات والأرض . وقـد أودعنـا جواهـر علومـها في هذا التفسير ، وهذا من مبادئ مقام الحمد .

فإذا أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتهجد بالليل ؛ فذلـك لتعليمنـا أن نوجـه قلوبنـا بذلـك إلى الله وبه يفتح مغلق الفهم . وهذا ما تقتضيـه سـورة « المزمـل » . وأمـا سـورة « المدثـر » فـهي الإنـذار والتعليم . فبسورة « المزمل » انفتح باب الفهم للمصلين ، فإذا انفتح ذلك البـاب تعلمـوا مـع الوجـدان ، وإذن يصلحـون لإرشـاد غيرهم ، وذلـك هـو أول سـورة « المزمـل » ، فـهذا الـترتيب في السـور جعـل مقصوداً لتعليمنا ، وإلا فلماذا تكون سورة « الجن فالمزمل فالمدثر »؟ .

ذكر الأوامر الستة التي أمر بها الرسول صلى الله عليه وسلم وهي جعلت تعليماً لنا

اعلم أن من يتصدى لتعليم الناس يجب عليه أولاً أن يكون موقناً بمـا يقـول كمـا شـرحناه . بـل يكون من وجدانه ، وأعظم شيء في الدعوة النبوية أن يكون القائم بها موقناً أن ربه منزه عن كل مـا هـو من صفات الحوادث لا يبلغ وصفه الواصفون ، وأنه أجلّ مـن أن تعـرف غايـة كمالاتـه ، فإنـه إذا اعتقـد ذلك لا جرم سار في دعوته غـير هيـاب ولا وجـل ، لأنـه يعلـم أنـه ينشـر دعـوة لأعظـم موجـود ، وهـو المفيض الوجود على كل موجود ، فيصبح ويمسي وهو مسرور الفؤاد فرح بمـا يلقـى إليـه صـابر منشـرح الصدر متوكل عليه ، لأنه موقن أنه مطلع عليه فلا يخاف مـن النـاس ، وإذا تذكـر المـوت فـرح بـه ، لأنـه يعلم أنه اصطفي لذلك الأمر مـن بـين النـاس ، هـذه المعـاني يشـير لـها قولـه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ﴾ ، والداعي الناس إلى ربه الكبير لا يتم له ذلك إلا إذا كان متخلقاً بأخلاقـه فإذا كان الله منزهاً بكبريائه عن سمات الحوادث ، أفلا يكون القائم بأمره منزهاً عن النقـائص الإنسـانية وكيف تكون المناسبة هناك ما لم يكن قد تحلى المرء بالصفات الجميلة وتخلـى عـن الصفـات الناقصـة ، فعبر عن ذلك كله بقوله : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ﴾ .

اعلم أن هذه الجملة يعرف نظيرها عند العرب بطهارة النفس كالصدق والوفاء ، يقولون : فـلان طاهر الثياب ، إذا كان صادقاً وفياً ، وإذا كـان غـادراً يقولـون : هـو دنـس الثـوب ، ولا تـزال هـذه المعاني تستعمل إلى الآن في بلادنا المصرية ، يقولون : فلان طاهر الذيل ، يريدون أنه لا يلامس امرأة أجنبية .

وهذا القول من باب الكناية، والكناية لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلي، والكناية أحد الأقسام الثلاثة في علم البيان وهن: التشبيه، والمجاز، والكناية، وهذه كثيرة في القرآن، فإذا سمعت قول الخنساء:

طويل النجاد رفيع العما د كثير الرماد إذا ما شتا

فاعلم أنها تريد طويل القامة شريف بين قومه كريم، هذه هي المعاني المقصودة لها، أما كون علاقة السيف طويلة، أو أن عماد البيت مرتفع، أو أن رماد وقوده الذي يطبخ به الطعام كثير، فليست هذه المعاني التي هي موجودة فعلاً أو غير موجودة مقصودة لذاتها، فربما وجدت وربما لم توجد. وإذا وجدت فليست هي المقصود، وأيضاً قولها لما خطبها دريد بن الصمة:

معاذ الله يرضعني حبركي قصير الشبر من جشم بن بكر

تقول: أنا لا أتزوجه لأنه قصير من قبيلة غير مرضية عندي، ولكن لم تنطق بهذا القول بل قالت: أنا لا أرضع ولداً قصيراً بهذه الصفة، فكنت بإرضاع من هذه صفته عن زواج والده، فإذا منعت الرضاع فقد منعت الزواج، ولا جرم أن الكناية أبلغ من الحقيقة، فإذا لم تكن البلاغة في كتاب الله فأين تكون؟ فإذا سمع العربي قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[المدثر: ٤]؛ خطر بباله طهارة النفس وشرفها وبعدها عن كل ريبة، فتكون طهارة النفس بالصفات الجميلة، والأخلاق الفاضلة وبعدها عن الغل والحقد والحسد والمكر والخبث وكراهة الناس، كل هذه هي الصفات المقصودة، وذكر طهارة الثياب كذكر طول النجاد، فإن من طال نجاد سيفه فهو طويل لا محالة.

واعلم أن هذه الملازمة، أي: بين طهارة الثياب وطهارة القلوب، التي جعلت كالملازمة بين طول النجاد وطول القامة؛ قد ظهرت اليوم بأظهر معانيها، وقد ذكرناها في سورة «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[البقرة: ٢٢٢]، فهناك نقلت عن علماء أوروبا المشتغلين بأصول القوانين أن أكثر الناس قذراً في جسمه وثيابه أكثرهم ذنوباً، وأطهرهم بدناً وثياباً أبعدهم عن الذنوب، وبنوا على ذلك أنهم أمروا المسجونين بكثرة الاستحمام ونظافة الثياب فحسنت بذلك الأخلاق، وخرج المسجونون أقرب إلى الأخلاق الفاضلة منهم إلى الرذائل، هذا هو قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[المدثر: ٤]، فكلما كان الإنسان أطهر ثوباً وبدناً كان أقرب إلى طهارة النفس، ولذلك كثرت الطهارة في ديننا وأثنى عليها الأستاذ «بنتام» في كتابه «أصول الشرائع» وقال: إن كثرة الطهارة في دين الإسلام مما يدعو معتنقيه إلى رقي الأخلاق والفضيلة إذا قاموا بأوامره في النظافة خير قيام.

فإذا عرف الداعي إلى الله ربه واستعد لذلك بطهارة الأخلاق والظواهر من ثوب وبدن؛ فإنه يستعد إلى ترك ما يخل بأخلاقه الظاهرة والباطنة فينجو من العذاب، وهو قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ فالرجز: العذاب، أي: فاترك أسباب العذاب يوم القيامة، بل سوء الأخلاق هي العذاب في الدنيا والآخرة، اقرأ ما ذكرته في سورة «البقرة» عن الفيلسوف اليوناني المسمى قابس الذي شرح أخلاق الناس ومواهبهم وجعل أكثر حياة الناس عذاباً، وأصحاب الأخلاق الفاضلة هم المنعمون في هذه

الدنيا، فإذا يكون لفظ «الرجز» يشمل عذاب الدنيا والآخرة، ففي الدنيا يحس الإنسان بمقت الناس وضيق صدره إذا ساءت أخلاقه، وينقلب ذلك بعد الموت إلى عذاب آخر شديد.

هذا معنى قوله: ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾[المدثر: ٥] فكأن هجر الرجز من تمام طهارة النفس أو من لوازمها، ومتى طهرت النفس وسلم الإنسان من الآثام؛ هنالك تكون نفسه قد استعدت للإفاضة على الناس وهم يقبلون على الداعي، وحينئذ لا يكون أمام الداعي إلا عقبتان:

إحداهما الغرور والفخر والعظمة، فيقول: أنا مفيض المعروف عليكم أيها الناس، أنا أعظم قدراً، ويحصل له الغرور العظيم.

والعقبة الثانية أن له أعداء وهؤلاء يؤذونه ويتربصون به الدوائر، ويتعقبونه ولا يرحمونه، ويذمونه في كل مكان، ويتألبون عليه ليلاً ونهاراً، وذلك هو المثبط لأكبر الدعاة، فإنهم حينما يرون العقبات أمامهم يكرون راجعين ويقولون: ما لنا ولقوم لا يسمعون قولنا، فلندخل في كسر بيتنا، ولنبتعد عن الناس، فإنهم لا يفهمون ولا يعرفون قدر النعم، ولا يشكرون المنعمين، فلهاتين العقبتين قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ أي: فلا تمن على أصحابك بما علمتهم ويلغتهم من الوحي حال كونك مستكثراً ذلك عليهم، وقد قرئ «تستكثر» بالسكون على الإبدال من «تمنن»، ولوجه ربك ولأمره فاستعمل الصبر على أذى من خالفك، وملخصه ألا يمن على تابعيه ولا يجزع من أذى مخالفيه، فهو أولاً ذكر بالعلم، ثم العمل، ثم التبليغ، وهذه الصفات إن لم تتوفر في الداعي لا تتم دعوته.

واعلم أيها الذكي أن الذي أضر بأمتنا الإسلامية إنما هو الجهل بمقاصد القرآن، فإنهم إذا سمعوا هذه الأوصاف ظنوا أن ذلك لا يعنيهم، وفاتهم أنهم أتباع النبي صلى الله عليه وسلم، فليس يبلغ المسلم من سامعيه ما يريد إلا إذا كان متحققاً بالعلم الذي يلقيه وقد كملت نفسه، فإن نفوس الناس لها إحساس وشعور تدرك به ما في قلب القائل، وتحس بأثره إن كان كاملاً، وتحس بالإعراض إن كان ناقصاً.

ثم إنك بعد التحقق من هذا الكتاب ستجد في نفسك أثراً ما وحباً لنفع الأمة، فسيقف في طريقك العقبتان اللتان ذكرتا تعليماً لك أنت، فتقول في نفسك: ما لي أنفع الناس وهم لا يقومون بما يجب عليهم نحوي؟ وقد علمت أن الشمس والقمر والكواكب لا ينفعها الناس، وأن الله خلق الناس بفضله، وأنت قد أعددت نفسك أن تكون خليفة قائماً بالأمر، فلتتخلق بأخلاق الله تابعاً نبيك صلى الله عليه وسلم، فتعطيهم العلم وتواسيهم بالمال إن قدرت، ولا تطلب جزاء ولا شكوراً، وتصبر على أذية أعدائك.

وإياك أن يكون الذم والاحتقار والعدوات مانعاً لك عن الجد في عملك والمضي فيه، فلتلزم الصبر، فإن لم تصبر دلّ ذلك على ضعف في قوتك النفسية فاحذر، ولتعلم أن ما في هذا القرآن من الوعد بالنصر لنبينا صلى الله عليه وسلم هو نفسه وعد لك بالنصر في هذه الحياة وما بعدها. اهـ.

لقد ذكرت لك أن سورة « الجن » أتى بعدها بسورة « المزمل » ثم « المدثر » لأن الجن ليس عندهم استعداد لتلقي العلوم عن عالم الملائكة، وأنهم لا يليقون لذلك العالم وإن كانوا معهم في عالم الأرواح، وأن المناسبة هي التي توجب العلم، وأزيد الآن أن الحيوانات الذرية « المكروب » والكهرباء ومنافع البخار كانت حاضرة معنا، ولكن كان استعدادنا لمعرفتها غير حاضر عندنا، فالمعلوم حاضر ولكن الاستعداد لعلمه غير موجود فمنعنا عنه، فليس منعنا عن الكهرباء لبعد المسافة بيننا وبينها، ولا الحيوانات الذرية الضارة والنافعة في داخل أجسامنا وخارجها لبعدها عنا، بل هي موجودة فعلاً في داخل أجسامنا تعد بآلاف الآلاف وفي طعامنا وفي شرابنا، ولكن الذي منعنا هو جهلنا وفقد الطرق الموصلة للمعرفة.

أفلا يحق لنا أن نقول بعد هذه المقدمات التي صارت معلومة إن بعد السعادة عن النوع الإنساني في حياته الدنيا وشقاءه فيها ليس ذلك لبعد السعادة عنه ولكن لجهله بالطرق الموصلة لها، لقد صدق سقراط إذ يقول: إن الناس ما أشقاهم إلا جهلهم فلو كان عندنا من العلم ما يكفينا لكنا في الحياة الدنيا سعداء.

أقول: ولكنا نتعلم القليل لنطير به إلى عالم نرتقي فيه هناك بذلك القليل، ألا يمكننا الآن أن نفهم ما جاء في سورة « المجادلة »: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ﴾[الآية: ٧]، وأيضاً قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾[الأنعام: ٣]، فليس بعد الله عنا بالمكان، إذ ليس بجسم حتى نسافر إليه، ولا بعض الأمكنة يختص به دون الآخر، بل هو موجود لا يختص به مكان ولا زمان، وما منعنا من النظر إلى ذاته إلا أننا في عالم لا يسمح بذلك، فبعد المكانة وشدة الحجاب هي التي منعتنا أن نراه لا بعد المكان، وليس ارتقاؤنا في الأحقاب التالية سفر في العوالم بل السفر بالهمة، وقطع العقبات النفسية، وكشف الحجب، ولطف النفوس، وكلما لطفت النفوس اليوم عرفت بعض المعرفة أدق الحيوانات وبعض الأرواح معرفة قليلة، هكذا تترقى بعض النفوس على طول الزمان فتصل بخفة نفوسها وإشراق ذواتها إلى النظر لوجه الله، وهذا في حياة مجهولة لا نتخيلها الآن إلا بما ضربنا من الأمثال، كان الناس يكذبون بكل حي غير ما عرفناه من الحيوان، ويكذبون بالملك والجان فأصبحوا يحدثونهما، فهكذا هناك ملائكة علويون لا يمكن لأهل الأرض مخاطبتهم، وهكذا الله من فوقهم.

إن نفوسنا وإن كانت محبوسة في هذه الأجسام نراها لا تطيق الحبس، فهي تبحث في السماوات والأرض، وبينما هي مفكرة في الأرض إذا هي في السماء، إن نفوسنا قبسة من إشراق النور الإلهي، ولذلك لم تجد لها سروراً في العالم المادي.

ثم قال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴾ أي: نفخ في الصور، وهو القرن الذي ينفخ فيه الملك، مأخوذ من البقر بمعنى التصويت، وأصله القرع الذي هو سبب الصوت. يقول الله: ولربك يا محمد فاصبر على أذاهم، فإن بين يديهم يوماً عسيراً فيذوقون عاقبة كفرهم وأذاهم، وتنال فيه جزاءك الحسن

ونعيمك المقيم، فجواب «إذا» محذوف كما ذكرنا دلّ عليه قوله: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾، وأكده بقوله: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ وإذا كان كل عسر ينقلب في آخر الأمر إلى يسر، فهؤلاء يومهم عسر لا يسر معه ولا بعده، كأن الله يقول: فإذا نقر في الناقور عسر الأمر عليهم، و«يومئذ» متعلق بالخبر.

ثم أخذ يذكر أوصاف الوليد بن المغيرة، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قام في المسجد يصلي والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته، وهو يقرأ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[غافر: ١-٣] فلما فطن النبي صلى الله عليه وسلم إلى استماعه أعاد القراءة، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بني مخزوم فقال: والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلى عليه. ثم انصرف إلى منزله، فقالت قريش: صبأ والله الوليد ولتصبون قريش كلهم. فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه. فانطلق حتى جلس إلى جنب الوليد حزيناً، فقال له الوليد: ما لي أراك حزيناً يا ابن أخي؟ فقال: وما يمنعني أن أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك على كبر سنك ويزعمون أنك زينت كلام محمد، وأنك تدخل على ابن أبي كبشة وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهم، فغضب الوليد وقال: ألم تعلم قريش أني من أكثرهم مالاً وولداً، وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام حتى يكون لهم فضل طعام! ثم أتى مجلس قومه مع أبي جهل فقال لهم: تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق قط؟قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه قط تكهن؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه ينطق بشعر قط؟قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب؟قالوا: اللهم لا. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى الأمين قبل النبوة لصدقه، ثم قال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟ فهو ساحر، وما يقوله سحر يؤثر، فهذا هو ما سيأتي من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ﴾[المدثر: ١٨] أي: في أمر محمد والقرآن، ﴿وَقَدَّرَ﴾[المدثر: ١٨] في نفسه ماذا يمكنه أن يقول في محمد وفي القرآن.

هذا وقد كان الوليد يسمى الوحيد، لأنه وحيد في قومه، فماله كثير جداً، فيه الزرع والضرع والتجارة، يقال: إنه كان ألف ألف درهم، وقيل: تسعة آلاف مثقال فضة، وكان له بين مكة والطائف إبل وخيل ونعم وغنم وعبيد وجوار، وكان له بستان بالطائف لا تنقطع ثماره شتاء وصيفاً، وكان أبناؤه عشرة يشهدون المحافل والمجامع، أسلم منهم ثلاثة وهم خالد وهشام وعمارة، ثم إن الوليد قد بسط الله له الرزق وطال عمره مع الجاه العريض والرياسة في قومه، وكان من أكابر قريش. ويسمى «ريحانة قريش» فهو ريحانة وهو وحيد. فإذا عرفت هذا أمكنك فهم الآيات الآتية:

قال تعالى: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ أي: ذرني معه فإني أكفيكه، وكيف لا أكفيكه وقد كفر بنعمتي؟ألم أخلقه وحيداً في قومه حتى نعتوه بذلك؟ ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ مبسوطاً كثيراً أو ممدوداً بالنماء، ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ حضوراً معه بمكة يتمتع بلقائهم لا يحتاجون إلى سفر لطلب

المعاش استغناء بنعمته وخدمه وعبيده يقومون مقامهم في ذلك، ﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ﴾ بسطت له في العيش وطول العمر بسطاً مع الجاه العريض والرياسة في قومه، ﴿ ثُمَّ يَطۡمَعُ ﴾ يرجو ﴿ أَنۡ أَزِيدَ ﴾ أي: أزيده مالاً وولداً وتمهيداً ﴿ كَلَّآۖ ﴾ لا أفعل ولا أزيد، فأخذ ماله في النزول بعد ذلك حتى هلك، ثم علل ذلك فقال: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ﴾ معانداً فلا يؤمن ببعث، ولا يوحد الله تعالى، ﴿ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ﴾ سأغشيه عقبة شاقة المصعد، وهذا مجاز يراد به شدة الأمر عليه، حتى جاء في الحديث: «إنه جبل من النار يصعد فيه سبعين خريفاً ثم يهوي»، ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ تعليل للوعيد، يقول الله: إذا أنا لم أزد ماله ونعمته فذلك لأنه معاند لآياتنا، وإذا جشمته العذاب يوم القيامة فذلك لأنه كفر فيم تخيل طعناً في القرآن وقدر في نفسه ما يقول فيه، ﴿ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴾ أي: لعن كيف قدر، وهو على طريق التعجيب والإنكار والتوبيخ، ﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴾ تكرير للمبالغة، ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ في أمر القرآن ﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾ قطب وجهه مما لم يجد فيه طعناً ولم يدر ما يقول، ﴿ ثُمَّ أَدۡبَرَ ﴾ عن الحق ﴿ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴾ عن اتباعه ﴿ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ﴾ يدرس ويتعلم ﴿ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴾ تأكيد للجملة قبلها، ﴿ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ﴾ هذه مبدلة من قوله: ﴿ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ﴾، ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴾ تفخيم لشأنها حال كونها ﴿ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴾ البشر جمع بشرة، وهي ظاهر الجلد، فهي تسود الجلود وتحرقها، ﴿ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴾ صنفاً من الملائكة، أو صفاً، وإنما جعلوا تسعة عشر لأن الحواس الظاهرة خمس، والباطنة خمس، وهي: الحس المشترك، والخيال، والمفكرة، والواهمة، والذاكرة، فهذه خمس تضم لما قبلها تكون عشرة، ويضاف إليها اثنان: الغضب والشهوة، فهذه ١٢، ويضاف إليها سبعة طبيعية في الإنسان وفي الحيوان، وهي: الجاذبة والهاضمة والماسكة والدافعة والغاذية والنامية والمصورة، فهذه سبع في النبات والحيوان، والاثنا عشر قبلها في الحيوان والإنسان، فهذه التسعة عشر نوعاً من الصفات الحيوانية جمعت في الإنسان، فكان عذابه على مقدار ما فرط على هذه المنح. ﴿ وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ ﴾ فليسوا من جنس المعذبين حتى يرقوا إليهم ويرحموهم. ولما سمع أبو جهل هذه الآية قال لقريش: أيعجز كل عشر منكم أن يبطشوا برجل منهم؟ فنزلت هذه الآية: ﴿ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي: وما جعلنا عددهم إلا العدد الذي اقتضى فتنتهم، وهو التسعة عشر، فهم قد افتتنوا به واستقلوه واستهزؤوا به واستبعدوه وقالوا: كيف يتولى هذا العدد القليل تعذيب الثقلين؟ ﴿ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ أي: ليكتسبوا اليقين بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصدق القرآن، إذ يرون هذا العدد في كتابهم، ﴿ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا ﴾ بالإيمان وتصديق أهل الكتاب ﴿ وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ في ذلك، وهذا تأكيد للاستيقان وزيادة الإيمان، ﴿ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ ﴾ شك ونفاق حينما يكونون في المدينة فيما بعد الهجرة التي لم تكن معلومة لهم عند نزول هذه السورة، ﴿ وَٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ الجازمون بالتكذيب، ﴿ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ ﴾ أي: أي شيء أراد بهذا العدد المستغرب استغراب المثل، أو هو نفسه مضروب مثل لشدة استبعاده عندهم، ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ ﴾ أي: مثل ذلك المذكور من الإضلال والهدى يضل الكافرين ويهدي المؤمنين

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ ﴾ أي: جموع خلقه على ما هم عليه في الحقيقة إلا هو، وكيف يقف أحد على حصر الممكنات ومعرفة مستقرها ومستودعها وخواصها؟ انظر ما ذكر في أول سورة «الملك» في أنواع الحيوان وتكاثره، فما يعلم هذه كلها ﴿ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ ﴾ أي: وما هذه السورة المشتملة على سقر وعدة الخزنة ﴿ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ إلا تذكرة لهم، ﴿ كَلَّا ﴾ ردع لمن أنكرها ﴿ وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾ ولى ذاهباً ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴾ أي: أضاء وتبين. وجواب القسم قوله: ﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴾ يعني: إن جهنم البلايا الكبر والأمور العظام، ﴿ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴾ أي: كبرت سقر حال كونها منذرة للبشر. ثم قال: ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ ﴾ إلى الخير ﴿ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ عنه، فقد علمتم سقر وعذابها وملائكتها، فمن تقدم إلى الخير أطلقناه، ومن تأخر عن الخير سلكناه فيها ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ مرهونة عند الله، أو مرتهنة في النار بكسبها ومأخوذة بعلمها، وهذه الكلمة ليست وصفاً بل هي مصدر كالشكيمة جعلت بمعنى اسم المفعول، ولو كانت وصفاً لقيل رهين، لأن فعيلاً بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر وغيره. ﴿ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾ فإنهم فكوا رقابهم من الرهن بما أحسنوا من أعمالهم، وهكذا الأطفال، إذ لا تكليف عليهم ومثلهم الملائكة حال كونهم ﴿ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي: يسألون غيرهم عن حالهم، فيقول المسؤولون عن المجرمين للسائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين من السؤال والجواب، وهذا صورة ما جرى. قلنا لهم: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾ أي: أي شيء أدخلكم فيها؟ ﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾ الصلاة الواجبة ﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴾ ما يجب إعطاؤه ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾ أي: نشرع في الباطل مع الشارعين فيه ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ الموت ومقدماته ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ لو شفعوا لهم جميعاً ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ أي: معرضين عن التذكير، أي: عن القرآن وما في معناه ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴾ بالكسر، أي: نافرة، وبالفتح منفرة مذعورة، فهم مثلها في إعراضهم ونفورهم عن استماع الذكر، ﴿ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ أي: أسد ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنَشَّرَةً ﴾ قراطيس تنشر وتقرأ، إذ كانوا يقولون: لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من السماء ﴿ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا ﴾ ردع لهم ﴿ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴾ أي: إنه عظة عظيمة ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ أي: اتعظ به فيعود عليه نفعه، ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أي: إلا أن يشاء الله لهم الذكر فيتذكروا ويتعظوا، ﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ ﴾ حقيق بأن يتقى ﴿ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ حقيق بأن يغفر للمتقين من عباده. انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها، والحمد لله رب العالمين.

لطيفة في قوله تعالى:

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ ﴾

إن في ذكر إدبار الليل وإسفار الصبح ما يشير إلى أن الناس في الحياة الدنيا كأنهم في ظلمة، فإذا جاء يوم القيامة ظهرت الحقائق كما يظهر الصبح إذا أدبر الليل، إن الحياة في الدنيا والآخرة وتناسقها

ترتقي من حال مظلمة إلى حال ظاهرة واضحة، فنحن اليوم في حالك الحياة، وكلما اقتربنا من الحقائق كان ذلك نوراً لنا، فإذا وصلنا إلى الحقائق وصولاً تاماً في عالم غير عالمنا فهناك السعادة، فالعلم بالحقائق هو نهاية السعادة، والجهالة نهاية الشقاء، بل قال «سقراط»: إن الناس معذبون في الأرض بجهالتهم ولو عرفوا الحقائق كلها كما هي ما شقوا.

فكأن ذكر الظلام فالضياء بعد ذكر القيامة وحديثها يشير إلى ذلك، وهذا في الموفقين كما هو معلوم، وقول المصلي: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» يشير إلى حال السلامة التامة، ولا سلامة إلا بمعرفة الحقائق معرفة تامة، إن ظواهر الدنيا كلها ظلمات وأحزان، ولكن بواطن هذا العالم جمال وسعادة، فلقد ضرب بين السعداء والأشقياء بسور من الجهل له باب باطنه فيه الرحمة متى عرفت الحقائق، وظاهره من قبله العذاب باقتحامها.

ثم إن جنود ربك أعظمهم في عالم السماوات، وهذا من أسباب ذكر الليل وإدباره، والصبح وإسفاره، فلأذكر لك الآن الجنود السماوية، ثم أتبعها بالجنود الحيوانية، والجنود النباتية، لتطلع على صفوف من جنود، وأنواع من عجائب جيوشه البديعة المنظمة، وإنّما نبدأ بالجنود السماوية تبركاً بالآية ولتظهر العظمة في جمال النجوم فنقول:

عدد النجوم

إن النجوم التي ترى بالعين المجردة محصورة وهي نحو ٣٠٠٠ فقط، والمنظار المقرب يرينا نحو ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠، فأما اللوحة الراسمة «الفوتوغرافية»؛ فإنها إذا طال تعرضها للنور ترينا ملايين الملايين، فإنها ترسم في الساعة الواحدة ٣٦٠٠ ضعف ما ترسمه في الثانية الواحدة، وبهذه الطريقة كشف الفلكيون ما يعجز العين المجردة والمنظار المقرب.

أبعاد النجوم التي هي من جنود الله وأحجامها

الشعرى اليمانية: هي أثقل من الشمس جرماً عشرين مرة، وأضوأ منها خمسين مرة، وأبعد منها ألف ألف بعدها عنا ويجري بسرعة ألف ميل في الدقيقة.

بنات نعش: واحدة منهن أضوأ من الشمس أربعمائة مرة، والثانية أضوأ منها ٤٨٠، والثالثة أضوأ منها ألف مرة، وسهيل أضوأ من الشمس ألفين مرة وخمسمائة مرة.

السماك الرامح: هو أضوأ من الشمس ثمانية آلاف مرة، وهي أسرع النجوم سيراً، وأشدها تألقاً، وأكبرها حجماً، فسرعته ثلاثمائة ميل في الثانية الواحدة، ونوره ثمانية آلاف ضعف نور الشمس وحجمه ثمانون ضعفاً من حجمها، ونوره يصل لنا في مائتي سنة، مع العلم بأن نور الشمس يصل إلينا من بعد ٩٢,٥٠٠,٠٠٠ ميل في ثمان دقائق وثمان ثوان.

الثريا: تبعد عنا ألف وخمسمائة بليون من الأميال، ولست أطيل في ذكر هذه الأقدار والأبعاد وأذكرك بما كتبته في سورة «آل عمران» نقلاً عن الأكاديمية الفرنسية، وبما كتبته في سورة «البقرة» في أوائلها من حيث تعداد النجوم وأضواؤها، فراجعه هناك إن شئت.

جنود الحيوان

ذكر حيوان البحر

إن في البحار أنواعاً عظيمة من الحيوان:

الأخطبوط: منه ما يعيش في مياه «نيوفوندلاند» وهذا يبلغ طوله نحو ستين قدماً من طرف إلى طرف، وبعض الحيتان يبلغ طولها سبعين قدماً، ومن الحيتان وهو المسمى «الكاشالوت» ما يطوف المحيط عرضاً وطولاً، وله أنياب محددة يسطو بها على ضعاف الحيوانات البحرية، وإذا أصيب أي إصابة فتك فتكاً ذريعاً، فقد حدث مرة أن حوتاً من هذا النوع هاجم مركباً أمريكياً ولم يزل به حتى حطمه وأنزله في دركات المياه.

حوت يسمى الروكال: هذا الحوت يطول إلى ١٢٠ قدماً.

حوت يسمى سيبالد: يبلغ طول هذا النوع من ٨٠ إلى ٩٠ قدماً.

أما الحيوانات الصغيرة في البحر فقد ذكر «سكورسبي» أن الحيوان المسمى «قريص البحر» ربما يملأ أميالاً كثيرة من البحر، والميل الواحد المكعب يشمل من هذا الحيوان ٢٣,٨٨٨,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠. إن كثيراً من النوتية اجتازوا أميالاً وأميالاً في البحر فوجدوا ماءها ملوناً بتلك الحيوانات الدقيقة، فكم يكون عدد الحيوانات في تلك الأميال الكثيرة؟ ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾[المدثر: ٣١].

الحشرات على وجه الأرض

إن الحشرات كثيرة، وقد عد العلماء من أنواع الخنافس نحو ٨٠,٠٠٠، وأنواع الحشرات المعروفة الآن نحو ٢٠٠,٠٠٠، وهم يتوقعون أن يكشفوا من أنواعها ألف ألف.

ولأكتف من الحيوانات وجنودها بما ذكرناه استدلالاً بما ذكر على ما لم يذكر، ولو أننا فتحنا باب الحيوانات الذرية التي في أجسامنا كالكرات الحمراء والكرات البيضاء التي تحارب كل منها الحيوانات الداخلة عليها كحيوانات الوباء والجدري الخ.

لو أننا فتحنا هذا الباب لوجدنا ما لا يخطر بالبال من أعداد لا نستطيع حصرها، فالإنسان قد ملئ جسمه منها لتحافظ عليه وتقاتل ما لا حصر له من أمثالها الهاجمات عليه لإمراضه أو لقتله مما أصبح اليوم معلوماً مشهوراً فلا نطيل به. اقرأ هذا المقام في سورة «الفتح» عند تفسير مثل هذه الآية.

النبات وكثرته

ونكتفي من عالم النبات بأدق ما فيه، وهو الطلع، فإنك إذا عددت حبات اللقاح في زهرة «الفادنيا» وهو عود الصليب؛ وجدتها تحتوي على ٣,٠٠٠,٠٠٠ أو ٤,٠٠٠,٠٠٠ من حبات اللقاح، وهذا العدد في زهرة واحدة، فماذا يكون في شجرة واحدة؟ ثم في بستان واحد؟ ثم في الكرة الأرضية كلها؟.

لا بد أنك تقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾[المدثر: ٣١]، إذن لا عجب إذا رأيت فوق بعض الغابات غيماً عظيماً سائراً في الجو وما هو بماء ولا بتراب وإنما هو تلك

الحبات المتطايرة من الأزهار اجتمعت في الجو وسارت في طرق مختلفة باختلاف الأنواع التي طارت منها، وسارت إلى الزهرات في الأقطار البعيدة لتلقحها من غير قصد، و الذي يصيب الزهرات من ذلك السحاب الطلعي قليل جداً ولكنه كاف في نماء الثمرات في أنحاء الكرة الأرضية، فأما باقي ذلك الغيم الكثيف فإنه يتبدد وينتشر بلا فائدة معروفة للإنسان، وإنّما جعل هذا كله في الطبيعة ليكون ضماناً لحفظ الأنواع النباتية، ولولا ذلك لانعدمت هذه الأنواع من الأرض، وليس يمكن أن يجاب السائل عن هذه الأعداد بغير جواب القرآن: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾[المدثر: ٣١].

انتهى تفسير سورة «المدثر» يوم الأربعاء ٢٢ يوليو سنة ١٩٢٥، غرة المحرم الحرام سنة ١٣٤٤ والحمد لله رب العالمين.

ولقد كنت كتبت مقالة مطولة تحت عنوان هذه الآية: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾[المدثر: ٣١] بتاريخ ٢٢ يناير سنة ١٩٢٧م، ولما كان المقام لا يسعها أرجأنا درجها للملحق الذي وعدنا بنشره بعد تمام التفسير إن شاء الله وطالت الحياة. اهـ.



تفسير سورة القيامة
هي مكية
آياتها ٤٠، نزلت بعد سورة القارعة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ٦ فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ٧ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ٩ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ١٢ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ١٣ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ١٤ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ١٥ لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ١٩ كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ٢١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ٢٤ تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ ٢٥ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ٢٦ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ٢٨ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ٣٠ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ٣٣ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ٣٤ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ٣٥ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ٣٦ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ٣٨ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣٩ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ٤٠ ﴾

هذه السورة كلها في وصف يوم القيامة، وقد بدئت بالاستدلال بعجائب خلق الإنسان وتسوية عظامه، وختمت بمثل ذلك، وبقيتها في الحساب وأهوال القيامة.

التفسير اللفظي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ يقول الله: أقسم بيوم القيامة، وأقسم بالنفس التي تلوم نفسها أبداً وإن اجتهدت في الطاعة، أو جنس النفوس، فإن كل نفس يوم

القيامة سواء أكانت بارة أم فاجرة تلوم نفسها، إن عملت خيراً قالت: كيف لم أزدد، وإن عملت شراً قالت: يا ليتني كنت تركته، كما أفاده حديث مروي في ذلك.

أقسم الله بالقيامة وبتلك النفس على بعثنا، أي: لتبعثن، فقد أقسم بعظمة القيامة، والنفس الطماحة إلى الرقي، الجانحة إلى العلو، التي لا ترضى بمرتبة إلا طلبت سواها، ولا بحالة إلا أحبت ما تلاها، ورامت ما فوقها، وهذا القسم كأنه استدلال على القيامة، يقول: إن ما في النفوس من حب الرقي وعدم الوقوف عند حد محدود في هذه الحياة وفي كل حياة؛ دليل على أن هناك حالاً أخرى ينال فيها الإنسان ما كان يرغبه.

إن طبع الإنسان يدل على القيامة، إن طموح الناس للمعالي وجشعهم وحرصهم وازديادهم في المال والعلم وعدم الوقوف على حال واحدة؛ دليل على أن هناك حالاً أخرى.

إن النفوس الإنسانية مشغوفة بالاستطلاع، مجبولة على حب البحث، مفطورة على حب الغلبة والقهر، وذلك لتستطيع أن تملك أكثر مما ملكت، وتحوز أكثر مما حازت، وتعلم أكثر مما علمت، إنها لا تكتفي بعلم أو بمال، وما رأينا ملكاً يحكم أمة إلا طمع أن يأخذ غيرها، ولا غنياً ورث مالاً وزاد عليه إلا طمع فيما سواه، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب، فهل خلقت هذه الشهوات والرغبات فينا عبثاً؟ كلا. ثم كلا. إن ذلك لم يكن إلا لسر سيتضح بعد الموت ويوم القيامة، إن لم يكن للإنسان مثل تلك الغاية فالحياة باطلة، وكل نظام في الأرض خسران مبين، لم نجد قوة كامنة فينا وفي الحيوان إلا لغاية.

فيا ليت شعري ما غاية هذه الأطماع والحروب والتفاني في العلوم، والتملك والقهر، وبناء السفن، واختراع الأسلحة، وما هذا الجشع، وما هذا الهلع، أكل هذا لحياة قصيرة لا تساوي كل هذا العناء؟ يجيبك القرآن قائلاً: أنا أقسم بالنفس التواقة إلى المعالي التي لا تقف عند حد، ومعنى هذا أن تلك القوة أودعت في نفوسنا، لأنها خلقت لتكون في عالم يطلع على كل شيء ولا يحزن على شيء وهو عالم الأرواح في أعلى الجنان، فما دام لم يصل إلى ذلك العالم فإنه يظن أنه خلق لهذه المادة وتملكها لعدم علمه بالحقائق فيتخبط في الحياة، إذن هذا القسم ذكر للاستدلال، فطموح النفوس إلى العلا برهان على أنها ستكون في عالم آخر تنال فيه بغيتها، فإذا أقسم الله بمخلوقاته على حكمته وعلو شأنه وعظمته استدلالاً على ذلك.

فهكذا هنا يقسم بالنفس اللوامة استدلالاً على أنها واصلة يوماً ما إلى عالم أكمل من هذا العالم لتنال فيه ما تطلبه. إن في إلهام النحل جمع العسل، وفي عدم إلهام الجراد والزنابير الجمع والادخار، وأن الأول يعيش في الشتاء، والآخرين لا يحتاجان فيه، دليلاً عجيباً لحكمة هذا القسم فتفطن.

إن هذا القسم وأمثاله لم يطرق آذان العرب، أولئك الذين لا يقسمون إلا بأشياء معهودة فيما بينهم، لا يتجاوزونها فيقسمون بالأب وبالعمر وبالكعبة، ولكنهم لا يقسمون بهذه الأقسام العجيبة التي فيها دلائل على ما يقصد في جوابها، وفيها فتح باب للبراهين والحكمة والعلم. ثم إن «لا» التي ذكرت قبل القسمين زائدة للتأكيد، واردة في كلام العرب، ألا ترى إلى قول امرئ القيس:

لا وأبيـك العــامـــري لا يـدعـي القـوم أني أفـر

وقول غيره:

تذكرت ليلى فاعترتني صبابة وكاد ضمير القلب لا يتقطع

أقسم الله بالقيامة وبالنفس اللوامة التواقة للمعالي أننا سنبعث، ثم أردفه باستنكار استبعاد ذلك، إذ روي أن عدي بن أبي ربيعة سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمر القيامة، فأخبره به فقال: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك، أن يجمع الله هذه العظام، فقال: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ ﴾ أي: جنسه، والمراد به المنكر للبعث المذكور وغيره، ﴿ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴾ بعد تفرقها ورجوعها رفاتاً ﴿ بَلَىٰ ﴾ أي: نجمعها حال كوننا ﴿ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾ أي: نسوي سلامياته على صغرها ودقتها ونؤلف بينها حتى تستوي البنان، فمن يقدر على جمع العظام الصغار فهو لا محالة على غيرها من الكبار أقدر.

واعلم أن عظام أصابع اليدين ثلاثون، وعظام أصابع الرجلين ٢٨ فيكون مجموعهما ٥٨، وهذه عظام دقيقة وضعت لمنافع، لولاها ما تمت تلك المنافع، كالقبض والبسط واستعمال اليدين في الجذب والدفع وغيرهما مما لا يحصى، فلولا دقة هذه العظام وحسن تركيبها ما انتظمت الأعمال المترتبة على اليدين، وجميع العظام في الإنسان ٢٤٨ عضواً، وهاك بيانها:

١٢٦

٦ عظام الرأس.
٤ عظام الزوج.
١٤ عظام اللحى الأعلى.
١٦ عظام الأسنان العليا.
١ العظم الشبيه بالوتد.
٢ عظام اللحى الأسفل.
١٦ الأسنان السفلى.
٢٤ فقار الصلب.
٣ عظام العجز.
٣ عظام العصعص.
٢٤ عظام الأضلاع.
٧ عظام القص.
٢ الكتفان.
٢ رأسا الكتفين.
٢ عضدان.

١٢٢

٢ الزندان الأعليان.
٢ الزندان الأسفلان.
١٦ عظام رسغي الكفين.
٨ عظام مشط الكفين.
٣٠ عظام أصابع اليدين.
٢ عظام الوركين.
٢ عظام الفخذين.
٢ عظام الركبتين.
٤ قصب الساق.
٢ الكعبان.
٢ العقبان.
٢ العظام الزورقية.
٨ عظام رسغي القدمين.
١٠ عظام مشطي القدمين.
٢٨ عظام أصابع الرجلين.
٢ عظم العانة.

المجموع ٢٤٨

وأنت ترى أن أصابع اليدين وحدهما فإنهما ٣٠ فإذا أضيف الرسغان ١٦ ومشطا الكفين ٨ كان المجموع ٥٤، فيكون لكل يد ٢٧ وحدها من الرسغ إلى أطراف الأصابع، وهذا العدد هو عين عدد الجمجمة ٦ مضافاً إليها عدد الأسنان ٣٢ والفكين ١٦.

أيها الذكي، ما أحسن العلم والحكمة، انظر تجد عظام الإنسان مجموعة، وكيف هندمت على هذا النظام لفوائد نافعة في الحياة، انظر كيف ركب الرسغان في اليدين من ١٦ عظماً، ومشطا الكفين من ٨، ثم ركب مشطا كفي الرجلين ورسغاهما من أعظُم متعددة لشدة الحاجة إلى العمل والحركة، أما جمجمة الرأس فمن ستة أعظُم لا غير، إن أصابع اليدين والرجلين تبلغ عظامهما ٥٨ عظماً، وجمجمة الرأس لا تزيد عن ستة، ذلك لأن الجمجمة لمجرد الوقاية، أما الأصابع فهي للعمل، فلذلك صنعت بدقة وإحكام، وانظر إلى الفقرات كيف تعددت ولمَ لم تجعل عظمة واحدة، لأنها لو كانت كذلك لعاقت الحركات، ولامتنعت البركات، ولم يعش بالسعادة والخير الإنسان، فجعلت الفقرات متتاليات ليمكنه الحركة والسكون، ويكون ذلك سهلاً عليه أينما كان، فلولا الفقرات وتفصيلها لم يقدر على الانحناء للأعمال والحركات المختلفة، بل يكون منتصباً كالخشبة، أو كالعمود، ثم عطف على قوله: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ قوله: ﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴾، وهذا إضراب عما قبله، يقول: إن الإنسان يريد أن يدوم فجوره فيما يستقبل من الزمان، لا ينزع عن فجوره، ولا يتخلى عن شروره، ولذلك ترى الكافر من نوع الإنسان ﴿ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أي: متى يكون يوم القيامة؟ وهذا استبعاد واستهزاء، ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴾ تحير فزعاً عند رؤية أهوال القيامة، ﴿ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴾ ذهب ضوؤه ﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ جمعهما وصف واحد وهو ذهاب الضوء، ﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴾ أي: المهرب، وهذا ظاهر في أحوال القيامة، ونظيره في الدنيا ما يخص المرء في نفسه فيحار بصره فزعاً، ويذهب ضوء البصر عند الموت ويموت فيجتمع العقل الذي هو شبيه بالقمر مع الأرواح العليا التي كان يستمد منها الشبيهة بالشمس، فيصير معنى العبارة: فإذا قامت القيامة يقول الإنسان يومئذ أين المفر، وهذا كناية عن ساعة الموت، وقد بينت لك فيما تقدم أن هذه الكناية ملئ بها القرآن، فإذا ذكر يوم القيامة فقد وري بحال الموت، والحق أن الإنسان في حال موته تقوم قيامته الخاصة به، فمتى فزع هو ذهب بصره واجتمع هو بالملأ الأعلى، فهذا كل ما يخصه من أحوال الآخرة القريبة، أما يوم القيامة فهو نتائج لما يلقاه في البرزخ، فيكون ظاهر اللفظ للعموم، والكناية يفقهها الخواص، ﴿ كَلَّا ﴾ ردع عن طلب المفر ﴿ لَا وَزَرَ ﴾ لا ملجأ ولا حرز ولا جبل، وقد كانوا إذا فزعوا يلجؤون إلى الجبال، فقيل لهم: لا جبل لكم يومئذ تتحصنون فيه، ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴾ مستقر الخلق ﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ بما قدم من عمله وبما أخر منه لم يعمله. ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴾ أي: بل الإنسان على نفسه شاهد، فتكون «الهاء» للمبالغة، فالإنسان حجة بينة على أعمال نفسه، لأنه يشاهدها، ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ ولو جاء بكل ما يمكن أن يعتذر به، جمع معذار وهو العذر، فذنوب الإنسان إذن ملازمة له لا تفارقه لأنها أخلاق ملازمة له، لاصقة به، تابعة له في حله وترحاله، ناهيك بما ترى من العادات التي تأخذ بالألباب، ولا تذر أربابها، ككثرة الكلام

وشرب الخمر والدخان وما أشبه ذلك، فهذه الأخلاق تؤذي صاحبها وتقوم حجة بينة على نقصه، فيقذف به في المهاوي البعيدة. ﴿ لَا تُحَرِّكْ ﴾ يا محمد ﴿ بِهِ ﴾ بالقرآن ﴿ لِسَانَكَ ﴾ قبل أن يتم وحيه ﴿ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ لتأخذه على عجلة مخافة أن ينفلت منك ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ في صدرك ﴿ وَقُرْءَانَهُ ﴾ وإثبات قراءته في لسانك، فالقرآن: القراءة، ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَهُ ﴾ أي: قرأه عليك جبريل، فجعل قراءة جبريل قراءته، ﴿ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴾ أي: قراءته عليك، ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ إذا أشكل عليك شيء من معانيه فنحن نبينه لك، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أشكل عليه شيء سأل جبريل عن معانيه، لأنه حريص على العلم، فقيل له: نحن نبينه لك، وقوله تعالى: ﴿ كَلَّا ﴾ ردع للرسول صلى الله عليه وسلم عن العجلة، وللكفار عن إنكار البعث، يقول الله: أنتم أيها الكفار تريدون العاجلة، وأنت أيها النبي تعجل عند تلقي الوحي، ﴿ بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴾ أي: أنتم يا بني آدم تعجلون في كل شيء لأنكم خلقتم من عجل وطبعتم عليه، ومثال ذلك أنكم تحبون العاجلة الدنيا وشهواتها ﴿ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ الدار الآخرة ونعيمها فلا تعملون لها. ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ حسنة مسرورة بالنعيم، مسفرة مضيئة بيض، يعلوها نور وبهاء، مشرقة بالنعيم، ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ أي: تنظر إلى ربها عياناً بلا حجاب فتكون نضرة، وهي تنظر إلى الخالق، ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ شديدة العبوس كالحة متغيرة مسودة قد أظلمت أنوارها وعظمت آثار النعمة والسرور منها لما أدركها من اليأس، ﴿ تَظُنُّ ﴾ يستيقن ﴿ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ أي: داهية عظيمة تكسر فقار الظهر وتقصمه، وأشد أنواع الفاقرة أن يحجب الإنسان عن رؤية الله، ﴿ كَلَّا ﴾ ردع عن إيثار الدنيا ﴿ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴾ أي: إذا بلغت النفس أعالي الصدر، وهي جمع ترقوة، وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق، وهذا كناية عن إشراف النفس على الموت. قال دريد بن الصمة:

ورب عظيمة دافعت عنها وقد بلغت نفوسهم التراقي

وقوله: ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ أي: وقال من حضره: هل من طبيب يرقيه ويداويه مما نزل به، ويخلصه من ذلك برقيته ودوائه؟ ﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴾ أي: وظن المحتضر أن الذي نزل به فراق الدنيا ومحابها، ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴾ أي: والتوت ساقه بساقه فلا يقدر على تحريكها، وهذا يكنى به عن التفاف شدة فراق الدنيا بشدة خوف الآخرة، ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾ أي: سوقه إلى الله تعالى وحكمه، ﴿ فَلَا صَدَّقَ ﴾ بالرسول والقرآن، أو: لا صدق ماله، أي: زكاه، ﴿ وَلَا صَلَّىٰ ﴾ ما فرض عليه، الضمير في «صدق» و«صلى» للإنسان، ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ عن الطاعة، ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴾ يتبختر افتخاراً بذلك. ومن: المط، فإنك ترى المتبختر يمد خطاه. إذن أصله: يتمطط، ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾ أي: ويل لك مرة بعد مرة، أي: أولاك الله ما تكرهه. و«اللام» مزيدة فيكون الفاعل مضمراً والمفعول الثاني محذوف، ﴿ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾ أي: يتكرر عليه ذلك مرة بعد أخرى، ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ أي: أيحسب الكافر أن يترك مهملاً لا يؤمر ولا ينهى، ولا يبعث ولا يجازى، وكيف يهمل؟ ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴾ أي: يراق في الرحم ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً ﴾ أي: صار المني قطعة دم جامد، ﴿ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ فخلق الله منه بشراً سوياً، ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ﴾

من الإنسان ﴿ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ أي: الصنفين ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: أليس الفعال لهذه الأشياء بقادر على إعادتها. انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها، والحمد لله رب العالمين.

لطيفة ذات شعبتين

الأولى: في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾.

الثانية: في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾.

فلنبدأ الكلام على الشعبة الأولى، وهي النظر إلى وجه الله، ونبدأ بما ورد في الصحيح، فنقول ومن الله التوفيق:

جاء في رواية البخاري ومسلم عن جرير بن عبد الله قال: «كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر، وقال: إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، أي: لا ينضم بعضكم إلى بعض ولا تزدحمون وقت النظر إليه، فإن استطعتم ألا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا».

وفي حديث رواه مسلم، قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: هل تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا، ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ وقال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى».

ويروى عن أبي رزين العقيلي، قال: «قلت: يا رسول الله، أكلنا يرى ربه مخلياً به يوم القيامة؟ قال: نعم. قلت: وما آية ذلك في خلقه؟ قال: يا أبا رزين أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر مخلياً به؟ قلت: بلى. قال: فالله أعظم، إنّما هو ـ أي: القمر ـ خلق من خلق الله، فالله أجلّ وأعظم».

هذا ما أردت ذكره من الأحاديث في هذا المقام، هاأنت اطلعت على كلام النبوة، وأنه صلى الله عليه وسلم أخبر في الصحيح أن الناس بعد أن ينالوا جزاءهم في الجنة ينقلهم إلى مرتبة أعلى ومقام أجلى، وهي أن يكشف لهم الحجاب فيرونه.

هذا هو الذي ورد في الصحيح، ومعنى هذا أن السعادة قسمان: حسية، وعقلية. والحسية هي الجنة ونعيمها. والعقلية النظر إلى وجه الله، وقد فضل الله النظر إليه عن الجنة وجعلها أفضل منها.

واعلم أن هذا القول ليس يعقله جميع الناس، وإنّما يعقله الخواص، وهاأنا ذا أبين هذا المقام بعض التبيان، فأقول:

اعلم أن نفوس بني آدم متفاوتة في هذه الأرض، فمنهم من لا يحب ربه إلا لأجل اللذات الحسية، وليس له منها إلا هذا الحظ، فإذا قابل ربه فليس يحب لقاءه لذاته بل للفوائد المترتبة عليه، وبيانه أن الخدم والعبيد وأصحاب النفوس الضعيفة لا يحبون المخدومين ولا السادة ولا العظماء إلا لجلب منفعة أو لدفع مضرة، فأما المحبة المبنية على الإخاء والإخلاص وتناسب الأرواح وتمازجها واتفاقها فلا، وكيف يحب الذليل العزيز والنفسان مفترقتان؟ وكيف يكون الحب إلا بالاتحاد، فاتحاد

الأنفس في الصفات والأخلاق والعادات هو الموجب للحب، وعدم الاتحاد هو الموجب للتفرق، وحب العبد لله لن يكون قط إلا إذا كانت صلة، وأين الصلة بين الخالق والمخلوق؟ فلا سبيل للصلة بين الذاتين، ولكن هناك أمر واحد هو العلم.

قد يحب الإنسان ربه لأنه آتاه بلذات يشتهيها، فإذا ذهبت تلك اللذات فأين ذهب الحب، وإذا مات وقد حرم أهله وماله وتمتع به أعداؤه فأين يكون الحب إذن؟ لا يبقى إلا أمر واحد هو العلم، العلم هو مبدأ الحب الحقيقي، وكلما ازداد العبد علماً ازداد من خالقه قرباً، وقرب العبد من الله بالعلم بما في هذا العالم من الجمال والحكمة، وهذا أمر لا يدرك إلا بكثرة الممارسة والنظر والفكر، فهذا الحب يكون باقياً ما بقي العلم، فالمغرمون بالعلم في الدنيا هم الفرحون بالنظر إلى وجهه يوم القيامة، أي: بانكشاف الحقائق لنفوسهم ومعرفة ربهم معرفة أرقى من معرفة البصر، إن البصر لا يرى إلا ظواهر الأجسام، والعلم يدرك الظواهر والبواطن، وكل يوم القيامة يعرف من الله على مقدار علمه في الدنيا، ويرى العابدون ربهم رؤية أقل من رؤية العلماء بما لا يتناهى.

ألا فليعجب المسلمون كيف كانت رؤية الله الواردة في الصحيح أجلّ من الجنة، وكيف كانت على مقدار العلم في الدنيا، ولا معنى للعلم في هذا المقام إلى العلم بصفات الله، وذلك بدراسة الآثار، أي: بدراسة العلوم الطبيعة والفلك، وكل ما ظهر من العلوم في الأرض.

عجباً عجباً! هل يعلم المسلمون ذلك؟ هل يعلم أنهم بالعلم في الدنيا ينظرون ربهم في الآخرة؟ هل يعلم المسلمون أن قراءة العلوم الطبيعية والفلكية من الوجهة الإلهية ترقيهم عند ربهم يوم القيامة كما أن قراءتها من الوجهة الدنيوية ترقيهم في الدنيا، إذن المسلمون اليوم نائمون عما يقربهم من ربهم وعما يرقيهم في دنياهم. إذن رقي دولهم في الدنيا ونبوغهم في علوم الكائنات هو نفسه يفتح لهم باب النصر والسعادة في الدنيا، ونفس هذا الحب هو الباب للرؤية، فإذن المسلمون اليوم لاهون عن أمرين: عن رؤية ربهم يوم القيامة، وعن الرقي في الدنيا، أليس هذا من العجب! جهالة في الدنيا واحتجاب عن الله، ورقي في الدنيا ورؤية الله، أحدهما بالجهل، والثاني بالعلم، هل يعلم المسلمون ذلك؟.

إياك أيها الذكي أن تشك في قولي إن الرؤية في الآخرة راجعة للعلم فقد قررها العلماء، لا ترى الله بعينيك هاتين، هاتان العينان ترى بهما الحيوان والإنسان والجماد وامرأتك وأولادك، فأما العلم فإنه يريك المتقدمين والمتأخرين، ويريك علوم الهندسة والحساب، فأنت توقن أن زوايا المثلث تساوي قائمتين بعقلك لا بعينيك، فهناك رؤية أجلّ من رؤية العين، فهذا مثل ضربته لك لتعلم أن الله يرى بعين أخرى غير هذه العين، بل هي أرقى منها، ومقدمة تلك العين العلوم في الدنيا، وأنت اليوم تعرف نفسك، فإن رأيت أنك مغرم بعجائب الدنيا وحكمها وبهجتها ولذاتها؛ ورأيت في قلبك غراماً بالصانع؛ وكلما زدت علماً بالعالم الذي نحن فيه زاد قلبك حنيناً إلى من صنع هذه الصنعة؛ فاعلم أن هذا مبدأ لأسباب الرؤية، فكلما ازددت علماً ازددت حباً وغراماً وعشقاً. وهكذا بتوالي العلوم يتوالى الحب وتسمو نفسك، وترى أنك في عالم غريب عن ذلك الجمال، وتتمنى لو تكون في خلوة مؤتنساً بهذا الجمال، فاعلم أنك أنت الذي ستلاقي ربك ملاقاة أفضل من ملاقاة العابد الذي أحبه بالوجدان

وحده وهو خال من العلم، فرؤية القمر في الحديث ضرب مثل لما ذكرناه، فإذا تحققت بالعلم على الوجه الذي ذكرته لك رأيت في نفسك عجباً! رأيت حبك للناس يزداد، وترى في نفسك ميلاً لرقيهم، ثم هم يقبلون عليك، أتدري لماذا؟ لأنك أهل للعلم وللتعليم لما بينك وبين الله من صلة وهي العلم، فيمدك وتمد الناس، وإذا أكثرت من الذكر اللفظي والقلبي زاد تلك العلاقة.

وهنا نذكر الشعبة الثانية:

الشعبة الثانية وفيها مقامان:

المقام الأول: في قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾.

المقام الثاني: في قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ ﴾[القيامة: ٣٩].

المقام الأول:

يصف الله تعالى حال الإنسان عند الاحتضار بصفات:

(١) أن تبلغ الروح التراقي صاعدة من الجسم إلى العالم الروحي.

(٢) ويقول من حول المحتضر: من ذا الذي يرقيه، ومن المرض يشفيه؟ وفي ذكر ﴿ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ ﴾ من البلاغة ما يعجز كل لبيب، ويقف دونها كل منطيق، و ذلك أن حول المحتضر جماعتين: أهله الباكون، و الملائكة الموكلون، فبينما أهله يقولون: نرقيه ـ من الرقية ـ ليشفى من مرضه؛ يقول الملائكة بعضهم لبعض: من يرقي روحه إذا خرجت؟ فيصعد بها ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب، فهي إما للتورية، وإما للكناية، فهذه الكلمة لا يحل غيرها محلها، وهذه بلاغة تعجز أكابر الفصحاء، فإنه لوحظ فيها عمل الملائكة وأعمال الإنسان، وهذا كقول الشاعر:

خاط لي عمرو قباء ليت عينيه سواء

وعمرو كان أعور فلا يدري أيريد أن يكون أعمى أو يكون صحيح العينين، فهكذا هنا لا يدري أهو من رقية الشفاء، أو من الترقية التي تتبع الموت، والحقيقة أن ملاحظة المعنيين في هذا المقام من أدقّ التعبير، وأعجب الأساليب، وأبدع الأحكام، فكأن الله يقول: إن الميت يندبه أهله، ويبكيه خاله وعمه ويطلبون الطبيب لإنقاذه من الموت، والملائكة إذ ذاك يتشاورون في أمر هلاكه، وفوت أملاكه، ولا يزال الأولون يطببون والآخرون يقبضون حتى تزهق روحه إلى ذي العزة والجلال.

(٣) وظن المريض أن هذا هو الفراق.

(٤) والتفت الساق بالساق.

(٥) فهناك تصعد الروح إلى ربها.

(٦) ويحاسب على النقير والقطمير وحبة البر، وحبة الشعير، وهنا قرّع الإنسان على جهله بما يأتي: إنه كان نطفة، ثم علقة فقدر الله خلقه، ثم سواه، وهذا المقام يشمل جملة علوم: التشريح،

وعلم الأجنة، وعلم النبات، وعلم الحيوان، وعلم الطب، وعلم السياسة والاجتماع، وعلم الأخلاق وعلم التربية، وعلم المنطق أيضاً، وسيجيء في المقام الثاني علم إصلاح العالم الإنساني الآن.

ذكرت لك سابقاً أن النظر لوجه الله في الآخرة لن يكون إلا للعاشقين هنا، ولا عشق إلا بعلم، ولا علم في هذا المقام إلا بهذه العوالم الجميلة المحيطة بنا، وقلت أيضاً: إن العلوم التي بها نرقي أممنا هي أنفسها التي بها نحب ربنا ونراه، وقلت: إن المسلمين عن هذا القول معرضون.

أقول: كنا نود أن نوضح هذا المقام بنبذة من علم التشريح لم يسبق ذكرها في هذا التفسير من كتابي «الفلسفة» الذي ألفته للطبقة المتعلمة في البلاد المصرية وغيرها، وهي تشمل: وصف القدماء للدماغ والغشاءين الرقيق والغليظ، وكذلك ما فيه من التقاسيم، والرئة، والقلب، وكيف يتفرع الدم منه إلى كل جزء من أجزاء الجسم، وهكذا الطحال والكبد، ليوازن الأذكياء بين وصف القدماء ووصف علماء العصر الحاضر الذي تقدم كثيراً في هذا التفسير مشروحاً موضحاً بالصور الشمسية لا سيما في أمثال سورة «فاطر»، ولكن اخترت أن أرجئه لفرصة أخرى في ملحق التفسير إن شاء الله تعالى وطالت الحياة، والله هو الولي الحميد.

وهذا التشريح في حد ذاته غير مقصود، وإنّما يقصد لجملة علوم:

(١) العلم الأول: علم الطب، إن الطبيب يعتمد كل الاعتماد على علم التشريح الدقيق المستوفى، فهو يبحث ويعرف كل عضو في الجسد ومستقره، فيعرف الرئة والقلب والطحال والكبد والمعدة والأمعاء الدقاق والغلاظ، ويدرك العلاقة بين الأعضاء، وبالجملة يكون الطبيب أعلم الناس بأعضاء الجسم وجميع ما يشتمل عليه.

(٢) العلم الثاني: علم الأجنة المسمى «بيولوجي» ولست أقول إن علم التشريح يكون سبيلاً لهذا العلم، وإنّما علم الأجنة بالنسبة لعلم التشريح أشبه بعلم اللغة لعلم الصرف، فعلم الأجنة يبين سير الجنين في النمو في بطن أمه والدرجات التي مرّ عليها أثناء الحمل فيه، وأما علم التشريح فقد عرفته.

(٣) العلم الثالث: علم النبات، وليس المقصود أن علم النبات نتيجة لعلم التشريح، بل هناك اشتراك في بعض خواصه، وهاك بيانها: إن النبات يتغذى وينمو ويلد ويموت، وإيضاحه أنك ترى الإنسان يزدرد الطعام فتلقاه القوة الجاذبة، فتمسكه في المعدة الماسكة لئلا ينحدر قبل الهضم، فتدفعه قوة أخرى وهي الدافعة، ثم تتلقى الخالص النقي منه قوة أخرى وهي الغاذية، ثم أخرى وهي النامية، ثم يلد المثل فتكون القوة المصورة، فهذه سبع قوى: الجاذبة، الماسكة، الهاضمة، الدافعة، الغاذية، النامية، المصورة. فهذه القوى السبع في الإنسان، وفي الحيوان، وفي النبات. فبهذا لما درسنا التشريح درسنا معه قوى النبات وقوى الحيوان الذي اشترك معه في تلك القوى السبع.

(٤) العلم الرابع: علم الحيوان، وقد علمت أن القوى السبع المذكورة عرفناها في الحيوان مع الإنسان، وهناك قوى أخرى خاصة بالحيوان والإنسان ولا تكون في النبات، وهي الحس والحركة، والحس عبارة عن خمس حواس، والحركة إما عن شهوة، أو غضب، أو للجلب والدفع، فإذا درسنا حس الإنسان وحركته فقد درسنا معه الوصفين في الحيوان.

(٥) العلم الخامس : من العلوم المناسبة للتشريح علم النفس ، ولقد بينت منه ملخصاً في هذا التفسير ، والنفس يفصل فيها القوة الشهوية ، والقوة الغضبية ، والقوة العاقلة ، ويبين خصائص تلك القوى وأحوالها .

(٦) العلم السادس : علم التربية وهو « البيداجوجيا » ، وهو الفن الذي يعلم به التلميذ بأسهل الطرق ، وهذا الفن له ارتباط بعلم النفس ، وعلم النفس مرتبط بالتشريح .

(٧) العلم السابع : علم السياسة ، وذلك أن العلامة الفارابي ألف كتاباً يسمى « آراء أهل المدينة الفاضلة » وهذا الكتاب مبني كله على علم التشريح ، فإنك تراه شرح الرأس ، وفقار الظهر ، وأعصاب الحس ، وأعصاب الحركة ، وقال : إن النخاع الشوكي متصل بالدماغ ، والأوامر تصدر من الدماغ محل الفكر إلى النخاع الشوكي ، والنخاع الشوكي موصل إلى الأعصاب المحيطة بالفقرات ، فتلتقط أعصاب الحس الأخبار وتوصلها إلى الأعضاء العاملة ، فتتحرك بأعصاب الحركة بعد انتقال الأوامر من أعصاب الحس ، وجعل الجسم كله ما بين خادم ومخدوم كالفم والمعدة والأمعاء والكبد والحالبين والمثانة ، فكل واحد من هؤلاء خادم لما بعده ، وهكذا إلى آخرها ، فكما أن المنافع موزعة على الأعضاء هكذا أعمال المدينة توزع على الأشخاص ، كل بحسبه ، فلا توضع المعدة محل الرأس في التفكير ، هكذا نظيرها في نوع الإنسان ، وعلى ذلك يوضع كل واحد في مركزه ، والرئيس في مركزه ، وإن لم يوجد رئيس مستوفي الشروط فليكن جمع فيه هذه الشروط ، وقال : إن الأمة كلها يجب أن تكون على هذا الوضع ، والأمم على سطح الأرض يجب أن يكونوا هكذا كأنهم جسم واحد ، وحينئذ تكون أرضنا كرة فاضلة ، هذا ملخص الكتاب الذي بني على التشريح .

(٨) العلم الثامن : علم ما وراء الطبيعة ، هاأنت ذا عرفت أن علم التشريح أحاط به علوم سبعة من علم الأجنة إلى علم النبات والحيوان والنفس الخ . وليس في علم من هذه الثمانية ، وهي التشريح وما اتصل به شيء من معرفة الله ، ولذلك تجد عالم النبات ، أو الحيوان ، أو النفس ، أو الأجنة ، أو عالم الاجتماع ، أو عالم البيداجوجيا ، أو عالم الطب ، كل هؤلاء ، وكذا عالم التشريح يعيشون ويموتون ولا يدرون ربهم ولا اليوم الآخر ، هذه هي الحقيقة واضحة جلية .

إن التشريح وما معه من العلوم السبعة يتعلمها الناس في الشرق والغرب ولا تدلهم على خالق ولا بعث ، وأكثر الذين تعلموا هذه العلوم يكفرون بالديانات ، فإذن ما معنى قوله تعالى : ﴿ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾[القيامة : ٣٨-٣٩] ، وقوله في أول السورة : ﴿ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴾[القيامة : ٤] ؟ الجواب على ذلك أن هذا علم يدرس بنفسه كالعلوم الأخرى ، وهو علم ما وراء الطبيعة ، أي : العلم الذي لا يختص بفن ، بل ينظر للعلوم كلها كأنها شجرة واحدة لها جذع وأغصان متفرعات عنه ، ويصبح العالم عند عالم هذا الفن كأنه شجرة واحدة مفرعة إلى فروع ، وكأنّما هو جسم واحد له أعضاء متضامة ، فهؤلاء هم الذين يدرسون نظام الكون كله ، ويستخدمون جميع العلوم في علمهم ، فمعنى كونه وراء الطبيعة أنه لا يختص بعلم الرياضيات ولا بعلم الطبيعيات ، بل هو علم عام يبحث في العلوم جميعها وتقسيمها ، ويستدل على العالم الذي

لم نره وفي الله وفي النبوات وما أشبه ذلك، ومنه مبدأ العلوم، وهذا العلم هو طريق القرآن، فصاحب هذا الفن ينظر من وجهة خاصة، فليس ينظر من حيث سير الجنين في نموه، ولا من حيث القوى الحيوانية، أو النباتية، أو المرض والصحة، وإنّما ينظر من حيث حسن الصنعة والإتقان والإبداع، فما أصحاب العلوم السابقة إلا كأصحاب الحقول يزرعونها ولا يعقلون ما زرعوا من علم النبات، هكذا هؤلاء يعرفون علومهم ولكن لا يعنيهم حسن النظام والإتقان والاستدلال على الخالق، ثم حبه، ثم الغرام، ثم النظر إلى وجهه، فحينئذ قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴾[القيامة: ٤]؛ وقوله: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾[القيامة: ٣٧-٣٩]؛ لا يدل على المقصود في هذا المقام إلا إذا نظر له من حيث الإتقان وإبداع الصنع، ثم إنك تعلم أن العلوم السبعة المذكورة ضرورية للأمة، وإلا كانت ذات نقص مشين، فهذه العلوم كلها واجبة على الأمة لتحيا، ولتحفظ ثروتها وقوتها، وتصح أجسام أهلها، ولكن ليس معنى هذا أنهم يعرفون الله بها، بل إنّما يعرف الله بالنظر الخاص من وجهة الصنعة والصانع، فعلمت إذن أن العلوم المذكورة كلها مطلوبة، لأنها واجبة فرض كفاية، ومع ذلك لا بد من النظر لها من حيث الوجهة الإلهية حتى تدل على الصانع الحكيم وعلى قدرته.

ضرب مثل بالقصر

واعلم أن الناس في الدنيا أشبه بجماعة يسكنون قصراً بديعاً، فأكثر السكان مشغولون بلذاتهم وأحزانهم وأفراحهم، وقليل منهم من فكر في بنائه، وحسن نظامه، والإعجاب بالعالم الذي أبدعه، والنظام الذي أخرجه، والثروة التي أنتجته، والغرام بمن بناه وحبه، ثم الاقتداء به والشوق إلى لقائه، هكذا أهل الأرض يسكنونها ويقرؤون علومها ليعيشوا بها، ومن العلوم التشريح المذكور في هذه الآية وما اتصل به من علم الأجنة والنبات والحيوان والطب وعلم النفس وعلم التربية وعلم السياسة، ثم علم الأخلاق لأن له اتصالاً تاماً بعلم النفس، ثم علم المنطق، يقرأ الناس هذه العلوم ليعيشوا بها، ولكن هناك علم ما وراء الطبيعة وهو الباحث على النظام العام كما شرحناه فليس يتقنه إلا القليل، وهؤلاء عليهم قوام النوع الإنساني واجتماع كلمته، والأنبياء أوحي إليهم ما يؤيد هذا العلم ويتبعهم الحكماء.

فهل عرفت ما قلته لك: إن معرفة الله وارتقاء المدنية يرجعان لهذه العوالم المشاهدة، فهي من حيث إنها متقنة توصلنا لصانعها، ومن حيث إنها تنفعنا توصلنا لحياتنا الدنيا، فهي للعقول مرقية، ولله موصلة، وللحياة متممة. انتهى الكلام على المقام الأول، والحمد لله رب العالمين.

المقام الثاني: في قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ ﴾

لعلك في المقام الأول هالك ما ترى من علوم متعددة قد اقتضاها قوله تعالى: ﴿ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ وكيف كان علم البحث في النظام غير العلوم العشرة الأخرى، وأنه لا يلزم من علم الطب أن يعرف الإنسان الخالق ما لم يدرس الدراسة المطلوبة، فلئن عجبت من كثرة العلوم فلتعجبن ألف مرة كيف يكون قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ قد تضمن علماً هو معجزة آخر الزمان،

وهو حكمة القرآن، فانظر وتأمل في الذكور والإناث على سطح الكرة الأرضية، لقد ثبت يقيناً أنك إذا حسبت الصنفين في مواليد الأمم شرقاً وغرباً أمةً أمة، وقريةً قرية، وبلدةً بلدة، ومجموع الأمم؛ وجدت الصنفين متكافئين عداً، فعدد الذكور كعدد الإناث تقريباً، وهذا التقريب للعوارض التي تحل بالأمم أحياناً، ولما تحققت هذه النظرية فعلاً ألفت كتاباً مبنياً عليها وعلى حسن النظام في العالم سميته «أين الإنسان»، فأين الإنسان سر هذه الآية وأمثالها كقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[الذاريات: ٤٩].

هذا الكتاب لما ألفته أرسلته إلى بعض جرائد أوروبا ومجلاتها، وساعدني على ذلك سيدة من علماء بلاد الروسيا، فقد عرضته في مجتمع علمي ببلاد اليونان، وممن أخذه الأستاذ «ستنلانة الطلياني» ولخص الكتاب تلخيصاً، وقرظه في مجلته، وترجمها المرحوم مصطفى بك رياض من التليانية إلى العربية، والكتاب ألفته قبل الحرب الكبرى بأربع سنين، وقد كنت أقول في نفسي: إن أوروبا تريد ظلم بلاد الإسلام، فلأؤلفن كتاباً يكون حجة عليها في الأجيال المقبلة، وليكون تذكرة للشبان المسلمين بعدنا، وملخصه يرجع إلى أن نظام هذه الدنيا والأمم والحكومات يجب أن يكون تابعاً للنظام الإلهي فإنا نجده جعل الذكور والإناث متساويين عداً، مما يدل أن هناك عناية بكل مخلوق، وهكذا نجد العقول متفاوتة، والأرض مختلفة البقاع والخواص، ولا بد أن يكون هناك تناسب بين العقول والإدراكات والخواص الإنسانية وبين هذه الأرض وما عليها، فليغير نظام الأرض والدول، ولتكن أمم أرقى من هذه.

ولما كان شرح الكتاب هنا يطول اختصرت القول، وقد نقلت لك ما كتبه الأستاذ ستنلانة المذكور المترجم إلى العربية فيما تقدم في هذا التفسير عند آية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[الآية: ١٣] في سورة «الحجرات»، فقد أثبت هناك أن هذه الآية تحض المسلمين على أن يكون لهم وجهة تتجه إلى جمع العالم كله في هيئة تعارف عام، فاقرأه هناك.

(١) لتطلع على آراء الأوروبيين وفلاسفتهم في النهضة التي نريدها للمسلمين.

(٢) ولتعلم أن الإسلام يشير إلى مدنية أرقى من مدنية المسلمين اليوم وقبل اليوم، ومدنية أوروبا الآن.

(٣) وليكون ذلك داعياً أمم الإسلام أن يأخذوا بمقاليد العلم والحكمة ويتخذوا لهم أسلوباً لترقية النوع الإنساني.

(٤) ولتعلم أن كتاب «أين الإنسان» من أجل معجزات القرآن في هذا الزمان.

(٥) وليعلم المسلمون أن ديننا إلى الآن لم تظهر كوامنه، وأن عجائبه لا تظهر إلا بحكماء وعلماء ومفكرين.

(٦) وليكون ملخص الكتاب الذي ذكرته مشوقاً لك ومشجعاً على سلوك سبل العلم والتفكير. اهـ.

تذكرة في قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ ﴾

كتب يوم الثلاثاء ١٣ شوال سنة ١٣٥١ هجرية

اعلم أن مسألة تسوية البنان من أبدع ما جاء به الذكر الحكيم، ومن أعجب المعجزات القرآنية، لقد قدمت في المجلد التاسع عشر من هذا الكتاب في تفسير سورة «فصلت» تفصيل الكلام على آية: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾، وهناك تقرأ تاريخ بصمات الأصابع، وأنه تاريخ حديث النشأة ابتدأ ابتداءً حقيقياً في أيام حياتنا نحن سكان الأرض الآن، أي: في أواخر القرن التاسع عشر المسيحي، ودخل الآن في دور التنفيذ الفعلي في الشرق والغرب، وذلك مبني على أن كل امرئ في هذه الأرض لا تشابه خطوط أصابعه خطوط أصابع غيره، وبذلك قامت هذه حجة على السارقين والقاتلين في أوروبا والشرق الأقصى والشرق الأدنى، ومنها بلادنا المصرية، فالقضاة في المحاكم الأهلية يعولون على بصمات الأصابع، وهناك ترى رسوم أنواع الأكف بالتصوير الشمسي، وأن خطوط الأصابع مهما تنوعت تنحصر في أربعة أقسام، وكل قسم تكون له أشكال لا نهاية لها.

الله أكبر، إذن ذكر البنان في القرآن لحكمة لم يظهر أثرها في الحياة الدنيا ظهوراً واضحاً إلا في زماننا، وترى في سورة «يس» أيضاً هيئة الشرطة في اليابان، كيف عثروا على الشاب الذي قتل معشوقته بطريق بصمات أصابعه.

إن رحمة الله تجلت في القرآن، وفي الآفاق معجزات ومعجزات، إذن لا عجب فيما أخبرني به صديقي محمود بك سالم الذي عاش أكثر حياته بأوروبا لا سيما فرنسا، فقد قال في مجمع عظيم مصري وهو يخطب: إن عالماً ألمانياً منذ بضع عشرات السنين اعتنق الإسلام فقيل له: لماذا؟ قال: لآية: ﴿ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴾[القيامة: ٤]. فإن الكشف عن أمر بصمات الأنامل لم تعرفه أوروبا فضلاً عن العرب إلا في زماننا هذا، إذن هو كلام الله لا كلام البشر. وبهذا تم الكلام على سورة «القيامة»، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الإنسان

هي مدنية

آياتها ٣١، نزلت بعد سورة الرحمن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۟ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾

نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾ ﴾

تشتمل هذه السورة على ثلاثة مقاصد:

الأول: كيف خلق الله الإنسان، تتميماً لما ذكر في آخر سورة «القيامة»، وذلك من أول السورة إلى قوله: ﴿ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾.

الثاني: في جزاء الشاكرين والكافرين، ووصف الجنة والنار، وذلك من قوله: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

الثالث: أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر، وذكر الله، والتهجد بالليل، وذلك من قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ إلى آخر السورة. ولنشرع في تفسير السورة فنقول:

المقصد الأول: كيف خلق الله الإنسان

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ ﴾ أي: قد مضى عليه ﴿ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ ﴾ طائفة محدودة من الزمان الممتد الذي لا حد له، حال كونه ﴿ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ أي: لا يذكر ولا يعرف، ولا يدرى ما اسمه، وما المراد منه، وإنّما كان يسمى بأسماء مختلفة، فأما آدم أبو البشر فإنه بقي أربعين سنة طيناً، وأربعين سنة حمأ مسنوناً وأربعين سنة صلصالاً كالفخار، فتم خلقه في مائة وعشرين سنة كما يقال في الآثار، وهذه السنين ربما تكون رمزاً إلى أزمان طويلة مجهولة لنا، وأما بنو آدم فإنهم يسمون قبل خلقهم بهيئة الإنسانية نطفاً في الأصلاب، ثم علقاً، ثم مضغاً في الأرحام، ففي تلك الأيام لم يذكروا بشيء، ثم أتبعه بذكر تاريخ العناصر الداخلة في الإنسان قبل تكونه في الأصلاب والأرحام، فقال: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ أي: أخلاط، حال كوننا ﴿ نَّبْتَلِيهِ ﴾ أي: مريدين اختباره ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ ليتمكن من مشاهدة الدلائل، واستماع الآيات، والتعقل والتفكر، ذلك أننا خلقناه من النطفة، وهي تكون في الرجل وتكون في المرأة، فهاتان النطفتان باتحادهما يتكون الجنين ومن أين هاتان النطفتان؟ هاتان النطفتان مخلوقتان من عناصر مختلفة، وتلك العناصر آتية من النبات والحيوان الداخلين في طعام الآباء والأمهات، ومن الماء الذي يشربونه، والأملاح التي يتعاطونها، وجميع المواد التي دخلت في أصول التغذية من الطعام والشراب عشرة، وهي: الأوكسوجين، والأودروجين، والكربون، والآزوت، والكبريت، والفوسفور، والبوتاسيوم، والمغنيسيوم، والكالسيوم، والحديد.

فهذه هي العشرة التي تدخل في كل نبات، ومن باب أولى في كل حيوان لأنها طعامه، وفي كل إنسان. فالنطفة إذن مكونة من هذه الأمشاج العشرة، فهي أخلاط كونت ومزجت وصارت دماً فنطفة

فعلقة الخ. فجعل لها السمع والبصر والعقل، وهذه من عالم أشرف من عالم المادة الميتة التي هي في أسفل درجات النقص والكمال، إنّما نزل إليها من عالم أرقى منها، وهو العالم الإلهي الروحي، فإما أن ترجع إلى حب المادة والاستكانة لهذه المشاهدات، وإما أن تجد وتتفكر فترجع إلى عالم الكمال والجمال بالعلم والعمل، وهذا هو قوله تعالى: ﴿ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ أي: نعامله معاملة المختبرين، أيميل لأصله الأرضي من الأمشاج ليكون حيوانياً نباتياً معدنياً شهوانياً، أم يكون إلهياً معتبراً بالسمع والبصر والعقل التي من طباع أرقى من طباع المادة التي تكون فيها، فإذن الإنسان مكون من عالمين: عالم فاعل وعالم منفعل، فالعالم الفاعل عالم الروح وهي إلهي، والعالم المنفعل عالم المادة، وهي الأمشاج، فإذا حكم النفس وقهرها بحيث يتجاوز عن أخلاق المادة وعن الشهوات فقد صفت نفسه، وسمت إلى عالم أعلى، وإن صفت ومالت إلى المادة فإنها ترجع إلى أخلاقها وتدخل في جهنمها وعذابها في الدنيا بالحيرة والشكوك، وتشابه أخلاط المادة عليها وذهولها من تتبعها، ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾[طه: ١٢٧]، ولذلك أعقبه بالمقصد الثاني.

المقصد الثاني: في جزاء الشاكرين والكافرين، ووصف الجنة والنار

قال تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ ﴾ فأعطيناه السمع والبصر والفؤاد، وأنرنا له المحجة، ونصبنا له الدلائل في الأنفس والآفاق، ليبتعد عن أصله الأرضي إلى سببه السماوي، فهناك حواس وعقل له في نفسه، ويقابلها مخلوقات أرضية وسماوية تكون مسرحاً لفكره، ومغنماً لعقله، فنحن إذن هديناه السبيل حال كونه ﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ فبعض الناس شاكر بالاهتداء وبعضهم كفور بسبب الإعراض عنه. ثم شرع يبين حال الفريقين فقال: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ ﴾ ليقادوا بها ﴿ وَأَغْلَٰلًا ﴾ بها يقيدون ﴿ وَسَعِيرًا ﴾ بها يحرقون. ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ ﴾ جمع بر، كأرباب جمع رب، ﴿ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ ﴾ الكأس: الزجاجة فيها الخمر، أو يراد بها نفس الخمر مجازاً، ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ أي: كان ما تمزج به كافوراً لبرودته وعذوبته وطيب عرفه، ولا جرم أن ما في الدنيا ليس فيه مما في الجنة إلا الاسم، فإذا قال المفسرون إنها اسم لعين في الجنة ماؤها في بياض الكافور ورائحته وبرده؛ فقد قالوا ما يؤخذ من اللفظ، وإلا ففي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وإنّما أخذوه من قوله تعالى: ﴿ عَيْنًا ﴾ لأنها بدل من «كافوراً»، ومعلوم أن الكافور لا لذة فيه وشرابه مضر، فإذن يرجع المعنى إلى الأوصاف المذكورة من البرودة والرائحة الخ. ﴿ يَشْرَبُ بِهَا ﴾ أي: يشرب منها ﴿ عِبَادُ ٱللَّهِ ﴾ أي: أولياؤه، ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ يقودونها إلى منازلهم وقصورهم حيث شاؤوا سهلاً لا يمتنع عليهم، فهؤلاء يشربون منها على طريق مزجها بالخمر.

ولما كان هذا النعيم له أسباب في الدنيا أعقبه بقوله: ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ ﴾ بما أوجبوا على أنفسهم ولا جرم أنه من أوفى بما أوجبه على نفسه فهو على الوفاء بما أوجبه الله عليه أوفى، ﴿ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾ أي: شدائده منتشرة، يقال: استطار الفجر، انتشر وظهر، ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ أي: مع الاشتهاء والحاجة إليه، أو على حب الله، ﴿ مِسْكِينًا ﴾ فقيراً عاجزاً ﴿ وَيَتِيمًا ﴾ صغيراً لا أب له ﴿ وَأَسِيرًا ﴾ مأسوراً من أسارى الكفار، فقد كان صلى الله عليه وسلم يؤتى له بالأسير

فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول أحسن إليه، فهؤلاء يطعمون الطعام حال كونهم يقولون في أنفسهم: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ فلا نمن عليكم، أو نتوقع المكافأة فإنها تنقص الأجر، وقد كانت عائشة رضي الله عنها تبعث الصدقة إلى أهل بيت من البيوت ثم تسأل المبعوث فإن ذكر دعاء دعت لهم بمثله ليبق ثواب الصدقة لها خالصة عند الله، فنحن نطعمكم حال كوننا ﴿ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ أي: شكراً ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا ﴾ فلذلك أحسنا إليكم ولم نطلب المكافأة منكم ﴿ يَوْمًا ﴾ عذاب يوم ﴿ عَبُوسًا ﴾ تعبس فيه الوجوه ﴿ قَمْطَرِيرًا ﴾ شديد العبوس، يقال: اقمطرت الناقة، إذا رفعت ذنبها وجمعت قطريها، ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ ﴾ لأنهم خافوا وتحفظوا ﴿ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ بدل عبوس الفجار وحزنهم، ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا ﴾ على أداء الواجبات، واجتناب المحرمات، والإيثار على أنفسهم بالأموال ﴿ جَنَّةً ﴾ بستاناً يأكلون منه ﴿ وَحَرِيرًا ﴾ يلبسونه حال كونهم ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ﴾ جمع أريكة، وهو السرير في الحجلة، والحجلة هي الناموسية المعروفة، ولا يسمى السرير أريكة إلا داخلها، ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾ أي: لا يؤذيهم حر الشمس ولا برد الزمهرير كما كان يؤذيهم في الدنيا، والزمهرير أشد البرد. فهواء الجنة معتدل، فلا هو حار محم، ولا بارد يؤذي، ويقال في لغة طيئ: الزمهرير: القمر، قال راجزهم:

وليلة ظلامها قد اعتكر قطعتها والزمهرير ما زهر

فيكون المعنى على هذا أن جو الجنة مضيء بذاته لا يحتاج فيه إلى شمس ولا إلى قمر، وإذا كان الأمر كذلك دلّ هذا على أن الأحوال هناك مخالفة كل المخالفة لعالم أرضنا، فلا البستان، ولا الحرير، ولا السرير، ولا الأريكة، كالذي نشاهده في الدنيا، بل هي مخالفة كل المخالفة كما قاله ابن عباس. قال تعالى: ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا ﴾ أي: قريبة منهم ظلال أشجارها، أي: وجنة أخرى دانية عليهم ظلالها، ويصح أن تكون حالاً أخرى، أي: حال كونهم متكئين وغير رائين ودانية ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ أي: سخرت للقائم والقاعد والمتكئ، أي: تدنو ظلالها عليهم في حال تذليل قطوفها عليهم، ويصح أن نقول ودانية عليهم ظلالها ومذللة الخ. والقطوف، الثمار، جمع قطف، ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ ﴾ أي: يدير عليهم خدمهم كؤوس الشراب، والآنية جمع إناء وهو كأس الشراب ﴿ وَأَكْوَابٍ ﴾ أي: من فضة، جمع كوب وهو إبريق لا عروة له ﴿ كَانَتْ قَوَارِيرَا ۝١٥ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ ﴾ أي: تكونت جامعة بين صفاء الزجاجة وشفيفها وبياض الفضة ولينها، يعني أن آنية أهل الجنة من فضة بيضاء في صفاء الزجاج فيرى ما في باطنها من ظاهرها، وقوارير كل قوم تشاكل أرضهم وأرض الجنة أشبه بالفضة، ولا جرم أن قوارير الدنيا من الرمل وبعض العناصر وقوارير الجنة من الفضة ولكنها تكون أصفى منها. وقرئ «قوارير من فضة» بالرفع أي: هي قوارير، وهو على النصب بدل، ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ أي: إن السقاة والخدم الذين يطوفون عليهم قدروها لهم على قدر كفايتهم لا تزيد ولا تنقص، فهي على قدر ري شاربها، فهي ألذ لهم وأخف عليهم لا تغيض ولا تفيض ﴿ وَيُسْقَوْنَ ﴾ أي: الأبرار ﴿ فِيهَا ﴾ في الجنة ﴿ كَأْسًا ﴾ خمراً ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا ﴾ بدل من «زنجبيلاً» ﴿ فِيهَا ﴾ في الجنة ﴿ تُسَمَّىٰ ﴾ تلك العين ﴿ سَلْسَبِيلًا ﴾ ففي تلك العين طعم

الزنجبيل، ولا جرم أن العرب تستلذه وتستطيبه، وسميت زنجبيلاً لذلك، وسلسبيلاً لسلاسة انحدارها في الحلق وسهولة مساغها وعذوبتها وطيبها، وإنّما جعل العرب الزنجبيل في شرابهم لأنه يحصل فيه ضرب من اللذع. قال الأعشى:

كأن القرنفل والزنجبيل باتا بفيها وأرياً منشورا

الأري: العسل، والمنثور: المستخرج من بيوت النحل.

وقال المسيب بن علس:

فكأن طعم الزنجبيل به إذ ذقته وسلافة الخمر

فذلك وصف الله به شراب أهل الجنة، وشراب أهل الجنة على برد الكافور وطعم الزنجبيل وريح المسك، ولا جرم أن هذا كله ما هو إلا أسماء لما في الدنيا وهناك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت فالمعاني غير ما نعهده، والألفاظ لمجرد تخيل شيء نراه كما حققه ابن عباس. ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ دائمون ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ من صفاء ألوانهم، وانبثاثهم في مجالسهم وانعكاس شعاع بعضهم إلى بعض، واللؤلؤ المنثور أزين في النظر من المنظوم ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ ﴾ أي: في الجنة، أي: إذا رأيت ببصرك ونظرت به ﴿ رَأَيْتَ نَعِيمًا ﴾ لا يوصف عظمه ﴿ وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ فأدناهم منزلة من ينظر في ملكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه، هذا ملك غير العارفين، أما ملك العارفين فليس يحد بمئات الألوف بسير الضوء لا بسير الناس، فبان العلوم والمعارف إذا انتقشت في نفس العارف واطلع على تلك العوالم التي ذكرناها في هذا التفسير في سور مختلفة ورأى أن نظامها متناسق؛ أصبح ينظر إليها نظر الفرح بما ملك، وتصبح هذه كلها جنة له وسروراً لا يفارقه، فالعلم جنة العارفين. ﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ ﴾ أي: يطوف عليهم ولدان حال كون المطوف عليهم، عاليهم ثياب سندس، وهو رقيق الديباج ﴿ خُضْرٌ ﴾ جمع أخضر ﴿ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ غليظ ﴿ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ أي: وقد حلوا أساور من فضة. قال ابن المسيب: لا أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة: واحدة من فضة، وأخرى من ذهب، وأخرى من لؤلؤ، وهذا يجمع بين ما هنا وما في سور أخرى، ﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ وهذا الشراب غير ما تقدم وأرقى منه، فشراب الله غير شراب السقاة في الجنة، فشراب السقاة بآنية الفضة والأكواب والكأس التي مزاجها زنجبيل، وهذه يطاف عليهم بها، أما الشراب الطهور فالذي يسقيه لهم ربهم، ووصف بالطهور لحكمة سأذكرها في أواخر تفسير هذه السورة إن شاء الله تعالى، ثم يقال لأهل الجنة: ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ مجازى عليه غير مضيع، وشكر الله لعباده أن يرضى منهم بالقليل، ويعطيهم الجزيل من الخيرات.

انتهى المقصد الثاني.

المقصد الثالث: أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر، وذكر الله، والتهجد بالليل

قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ﴾ يا محمد ﴿ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴾ متفرقاً آية بعد آية، ولم ننزله جملة واحدة لحكمة بالغة تقتضي تخصيص كل شيء بوقت معين، فليثبت قلبك ولينشرح صدرك

﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ بتأخير نصرك على كفار مكة وغيره ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ أي : لا تطع كل واحد من مرتكب الإثم ومن متجاوز الحد في الكفر ، فـ « أو » بمعنى الواو ، فإذا قال لك الآثم وهو عتبة : اترك الصلاة وأنا أزوجك ابنتي وأسوقها إليك بغير مهر ؛ وإذا قال الكفور وهو الوليد بن المغيرة : أنا أعطيك من المال حتى ترضى إذا رجعت عن هذا الأمر فلا تطع واحد منهما ولا غيرهما ؛ فقد أعددنا لك نصراً في الدنيا وجنة في الآخرة قد عرفت وصفها ، فلتستعد للنعيم المقيم بالصبر أولاً ، وداوم على ذكر ربك لا سيما وقت صلاة الفجر ووقت الظهر والعصر ، وهذا قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ فهو إما بمعنى الدوام ، وإما بمعنى الوقتين المذكورين ، ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ ﴾ أي : وبعض الليل فصل له تعالى كصلاة المغرب والعشاء ، ﴿ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ أي : وتهجد له طائفة من الليل طويلة ، فأما هؤلاء فإنهم غافلون عن هذه المعالي ، ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ ﴾ أمامهم ﴿ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ شديداً ، فالثقيل يكون باهظاً للحامل ، فلذلك أمرناك بصلاة المغرب والعشاء وصلاة التهجد الطويلة لتكون في مأمن من هذا اليوم الثقيل ، وكيف يغفلون عنا و﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾ وأحكمنا ربط مفاصلهم بالأعصاب ، فالأسر : الأوصال قد شدت بعضها إلى بعض بالأعصاب وامتدت فيها العروق واتصلت وشدت عليها فكيف نتركهم سدى بعد هذا الإحكام والعناية في الخلق ، ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ فإن عادتنا أن نزيل ما لا يصلح للرقي من خلقنا ، فنهلك هؤلاء ونبدل أمثالهم فنجعلهم مكانهم يكونون أطوع منهم ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ ﴾ السورة ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ كسائر القرآن ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ تقرب إليه بالطاعة ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أي : وما تشاؤون ذلك إلا وقت أن يشاء الله مشيئتكم ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا ﴾ بما استعد له كل أحد ﴿ حَكِيمًا ﴾ لا يشاء إلا على مقتضى الحكمة والنظام والعدل ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ﴾ فيهديه ويوفقه للطاعة على حسب استعداده ، ﴿ وَٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الذين لم يستعدوا للهداية ﴿ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴾ .

انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة :

(١) في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ .

(٢) في قوله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ .

(٣) في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ ﴾ .

(٤) في قوله تعالى : ﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾ .

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى:

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾

يقول الله : إن الإنسان مخلوق من نطفة ، والنطفة مكونة من أمشاج ، وما الأمشاج في الإنسان إلا الأوكسوجين ، والأودروجين ، والكربون ، والآزوت والكبريت ، والفوسفور ، والبوتاسيوم ، والمغنيسيوم ، والكلسيوم ، والحديد .

فهذه هي الأمشاج والأخلاط التي كون منها الإنسان، والإنسان يتولد فيه النطفة، والنطفة يتكون منها إنسان جديد، فهذا الإنسان مبدؤه من الحديد والفوسفور والكبريت الخ.

الإنسان مركب من مواد بعضها محرق، فالفسفور سريع الاشتعال متى عرض للهواء، والبوتاسيوم جسم أبيض فضي لماع كشمع العسل يصهر على درجة ٥ , ٩٢ ويتطاير على درجة دون الاحمرار، ولون بخاره أخضر جميل، ومتى لامس الهواء تغير لونه، ومتى ألقيت قطعة من البوتاسيوم في الماء فإنك ترى كرات البوتاسيوم تحمر بسبب شدة ارتفاع الحرارة الناتجة عن التفاعل، ويلتهب الأدروجين المتصاعد، وتدور كرات البوتاسيوم بعضها على بعض سابحة على بعد من سطح الماء، ثم بعد زمن تحول إلى بوتاسا وتسقط على الماء فيتكون بخار الماء، وتحصل فرقعة بسبب التفاعل. والبوتاسيوم داخل في تركيب ملح البارود، والبارود يدخل في تركيبه ملح البارود المذكور والكبريت والفحم، ومعلوم أن الفسفور داخل في تركيب العظام، حتى إن الأنوار التي تشاهد من وقت لآخر فوق المقابر إنّما نشأت من ملامسة الفوسفور للهواء الجوي فتحصل إضاءة.

فهذه أربعة عناصر من عشرة كلها نارية، وثلاثة منها لتركيب البارود، ثم الحديد يظهر أثره في الكرات الدموية، فلولا الحديد لم يكن فيها لون الحمرة.

انظر أيها الذكي إلى صنع الإنسان، انظر إلى عناصر يدخلها هذه المواد الجهنمية المحرقة، ألا ترى أن تفاعلها مع بقية العناصر لطف حدتها، ما هو السر الذي أوجب أن تكون هذه المتناقضات ذات حس وحركة وعقل، فوسفور وبارود مع مواد أخرى تصبح عاقلة مفكرة حكيمة.

جسم الإنسان ذو مادة مشتعلة، لذلك نراه يحب القتال، نراه يستعمل بعض عناصر جسمه لإهلاك غيره، يصنع البارود من الفحم وأخويه ويقذف به على أبناء جنسه، خلق الإنسان من صلصال، والصلصال هو الفخار، والفخار طين أحميت عليه النار والإنسان دخلت في تركيبه المواد النارية. الإنسان ذو روح غير ساكنة كثيرة الحركة كثيرة الوثوب لا تفتأ تتقلب، فبينما هي تفكر في الخير إذا هي انتقلت إلى الشر، وإذا فكرت في مكان شرقي انتقلت إلى نظيره في الغرب من غير زمان، وإذا فكرت في الماء الشفاف الجميل تذكرت نجوم السماء بلا زمن، فنفوسنا لا حد لها تقطع الفيافي والأبعاد الطويلة بلا زمان. هذه قدرة هائلة لذلك وضعت في قطعة من المادة محترقة، وكيف تعيش الروح ذات الحركات البعيدة والتنقلات المدهشة إلا في مكان يناسبها، لا بد من المناسبة بين المكان والسكان، فالكبريت والفسفور والبوتاسيوم، كل هذه أجسام وثابة طيارة جعلت فيها النفس الطيارة الوثابة، ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص: ٦٨].

حكم نسجت بيد حكمت ثم انتسجت بالمنتسج

لذلك نرى الأجسام الحيوانية والإنسانية سريعة الدوران تموت بلا بطء وتنحل سريعاً في أزمان مختلفة، هذا هو السبب في قراءة الحكمة ونزول الديانات تنبيهاً للناس أن حياتهم لا تدوم، وكيف تدوم والجسم مركب من عناصر سريعة الانفصال، قليلة الثبات، متقلبة، فالجسم ذائب، والروح بحركتها السريعة ترجع إلى عالمها اللطيف، انتهى الكلام على اللطيفة الأولى، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى:

﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾

هذه الآية ترجع إلى الإحسان وإذابة المهجة في خدمة النوع الإنساني، إن الآية مدح في السخاء بحيث يكون الإنسان نعمة على الفقراء من أمته والضعفاء، وعلى من هو أجنبي عنه، بل هو من أعدائه، فالمسكين واليتيم قد يكونان من أمته، فأما الأسير فإنه من قوم أعداء حاربوهم فأسروا فريقاً منهم، فهؤلاء الأسرى حمد الله الإحسان إليهم، فملخص الآية أن الإنسان يجب أن يكون نوراً ونافعاً لبني وطنه وغيرهم، فإن جميع الناس عباد الله وأقربهم إليه ألطفهم بعباده، وكلما زاد الإنسان رأفة بهم زاد من الله قرباً.

هذا هو الصراط المستقيم، فليكن الإنسان على سنن الله وصراطه المستقيم، ألا ترى أنه أرسل الشمس والقمر والنجوم. فأضاءت على البر والفاجر، والخبيث والطيب، والصحيح والمريض، فكلما عمّ نفع الإنسان كان إلى ربه أقرب، ويشاهد ذلك في الإلهامات التي تتوالى عليه، وفي المساعدات الدائمة، فلتكن فيك خصلتان: حب العلم مع حب الله، وحب الناس، ففكر فيهما وتخلق بهما والله يكون معك، فهذا هو المقصود من الآية.

أما ذكر السبب وتعيينه في نزول الآية كأن يروى أنها نزلت في رجل يسمى أبا الدحداح من الأنصار صام يوماً، فلما كان وقت الإفطار جاء مسكين ويتيم وأسير، فأطعمهم ثلاثة أرغفة، وبقي له لأهله رغيف واحد؛ أو كان يروى أنها نزلت في سيدنا علي رضي الله عنه، إذ نذر هو وفاطمة رضي الله عنهما وفضة جاريتهما أن يصوموا ثلاثة أيام إن برئ الحسن والحسين، فلما برئا واستقرض علي رضي الله عنه صاعاً وخبز خمسة أقراص، فوضعوها بين أيديهم ليفطروا، فلما جاء مسكين أعطوه ولم يأكلوا، وفي الليلة الثانية وقف يتيم فأعطوه ولم يأكلوا، وفي الليلة الثالثة أسير؛ فسواء كان السبب هذا أو ذاك أو غيرهما فلا تضيع زمانك في تحقيق الحوادث، واشتغل بما هو أهم لك، وهو مقصود الآية أن تكون عوناً لجميع الناس في وطنك وغير وطنك.

وإن من شرائط العلو العطف في البؤس على العدو

فأما العامة فإنهم لا حظ لهم إلا أن يتسلوا بتلك الحكايات ويتفكهوا بها، ويرون أنهم لا قبل لهم بشيء من هذا، فأما العالم فإنه يعتبر بذلك، ويفكر في إسعاد نفسه ورقيه بأشرف الأخلاق وأجلّ الأعمال. انتهى الكلام على اللطيفة الثانية، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى:

﴿ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ ﴾

إن تلك النضرة والسرور هما اللذان يؤخذان من قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، فهذه النضرة والجمال في الوجوه سببهما النظر لوجه الله، والنظر لوجه الله يرجع إلى العلم والحكمة، فعلى مقدار العلم بالصنعة يكون القرب من الصانع، وهنا يمكن إيضاح هذا المقام في اللطيفة الآتية:

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى:

﴿ وَسَقَنٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾

هنا يقف القارئ وقفة ليعرف أين محل الطهور من الشراب؟ وأي: مناسبة للشراب حتى يوصف بالطهور، إن الطهارة ليست من صفات الشراب التي تجعله لذيذاً في الطعم، بل يقال: ماء فرات، أو شراب لذيذ، أو شراب ممزوج بالزنجبيل، وما أشبه ذلك مما تقدم في هذه السورة ونحوها، فليس الطهور من الصفات التي بها تكون اللذة، وإنّما يحسن هذا الوصف للماء الذي نتطهر به من الحدث والنجس فيقال طهور، نعم إن الماء الطهور قد يكون صالحاً للشرب، لكن ليس وصف الطهارة هو الذي جعله كذلك، بل العذوبة وكونه بارداً وما أشبه ذلك من كونه خالياً من المواد الضارة للإنسان وأن تكون جراثيمه قد ذهبت منه، وأن يكون مروقاً مصفى، إذن فلنبحث عن السبب في ذكر الطهور، وإلا كان هذا مما لا يناسب البلاغة والفصاحة، وإذا كان القرآن أفصح كلام وأبلغه فلماذا يكون هذا التعبير؟ فنجيب على ذلك بما يأتي:

اعلم أن الوصف بالطهارة إنّما جاء هنا ليوجه العقول إلى المقصود من الجنة ومن النعيم فيها، وليدلنا على المقصد الذي ترمي إليه تربية الإنسان في هذه الدنيا.

إن أحوال الجنة التي ذكرت في هذه السورة وغيرها لا تعدوا أمرين اثنين لا ثالث لهما: لذة جسمية، ولذة روحية، فاللذة الجسمية واضحة في هذه السورة، فترى البساتين والولدان والخمر الممزوجة والأرائك والجو المعتدل والحرارة والضوء الجميل البهج بلا شمس ولا قمر والظلال والقطوف الدانية والنعيم والملك الكبير والثياب من سندس أخضر وحرير غليظ، والتحلي بالأساور الفضية والذهبية واللؤلؤية، والنساء الجميلات، والحور البديعات المقصورات في الخيام التي لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان.

هذه مجامع النعم الجسمية، أما النعم الروحية فهي طهارة نفوسهم من عالم المادة وخلوصها من الطبيعة، وارتقائها إلى عالم القدس والأرواح وقربها من العالم الإلهي البديع، وكلما كانت أبعد عن المادة كانت أقرب إلى الله وأكثر اطلاعاً على بهجة العوالم ونظام الخليقة العام، فإذا كانت اللذات الجسمية تحضر بأيدي الخدم، ويطوف بها عليهم ولدان ويحظون بالحور؛ فاللذات العقلية ينالونها من ربهم مباشرة، فلذلك قيل: ﴿ وَسَقَنٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾[الإنسان: ٢١]، وهل يسقي الله إلا ما كان أقرب إلى الكرامة والعالم الروحي العالي، فإسناد السقي إلى الله راجع إلى أن الشراب ليس جسمياً، فالولدان يطوفون بالأكواب والأباريق ويسقون الخمر، والله لا يسقي الخمر ولا يعطي شرابه في أكواب وأباريق ولكن شراب الله العلوم والحكمة.

وهاهنا يفهم ذكر الطهور، فالطهارة هنا الخلوص من المادة بجميع أنواعها، وهذه أعلى اللذات في الجنة، وإياك أن يهجس في قلبك أن المفسرين الذين أشاروا إلى هذا كانوا مخدوعين، أو أنهم قالوه لمجرد التقليد، إياك أن يهجس في نفسك هذا وأمثاله، وإنّما يخطر هذا في بال الذين هم محجوبون لم يتعلموا تعليماً كاملاً.

اللذات الحسية واللذات العقلية في الحياة الدنيا

اعلم أن الناس في هذه الدنيا يتمتعون باللذتين الحسية والعقلية وهم لا يشعرون، وأن وصفي اللذات المذكورين في هذه السورة قد وجدت مقدماتهما في الدنيا، ولأضرب لك مثلين:

المثل الأول: انظر إلى الرجال والنساء في الكرة الأرضية، إنهم في أول حياتهم لا ينظرون من الحياة إلا إلى شهواتهم الجسمية، فالرجل يريد المرأة والمرأة تريد الرجل للشهوة البدنية، ويأكلون ويشربون ويستلذون لقضاء مآرب الأنفس وحدها، فإذا انقضى الدور الأول من الحياة؛ جاء دور آخر، فرأينا الرجل والمرأة أخذا يتركان تلك اللذات ووجدناهما منكبين على طفل أو طفلة، فأخذا يقبلانه معاً، فبعد أن كانت القبل محصورة بينهما أصبحت منصبة على الطفل وعلى الطفلة، وكلما ازدادا كبراً ازدادا زهداً في أنفسهما وحرصاً على أبنائهما، فلا يزالان يتعدان عن المادة لأنفسهما ويقتربان من التخلي عنها لأبنائهما، حتى إذا قرب الرحيل ودعا العالم وفرحا بأن لهما خلفاً يقوم مقامهما.

الرجل والمرأة عاشا في أول الحياة باللذة الجسمية، وفي آخرها باللذة العقلية، فهذا انتقال طبيعي من حال جسمية إلى حال عقلية، ألا ترى أن الرجل يفدي ولده بماله إذا وقع في خطر، مع أن كثيراً من الأبناء لا يرجى منهم نفع لآبائهم، فإن طبيعة الحياة الحيوانية المحافظة على النسل بدون مقابل، فأما المنافع المادية التي قد تكون من الأبناء فهي أشبه بالظل للشجر يأتي غير مقصود لذاته، انتهى المثل الأول.

المثل الثاني: من المعلوم أن ما يفعل بالطبيعة عاماً للناس يجوز فعل مثله بالإرادة، وما كان بالإرادة أرقى مما كان بالطبيعة، نرى الناس جميعاً يحرصون على أولادهم ويفدونهم بمالهم، ويقدمون لهم كل ما يملكون لتعليمهم، بل إننا نرى فوق ذلك أن الأبناء في الأمم التي ارتقت يبذل آباؤهم عليهم كثيراً من أموالهم ليكونوا قادة الشعوب ورؤساء في الحكومات، وقليل من هؤلاء المتعلمين الذين لهم رواتب باهظة في الحكومات من يفضل عن مصرفهم شيء لآبائهم، فإن مناصبهم ومظاهرهم تحتم عليهم أن يصرفوا كل ما يأتيهم ولا يبقى شيء إلا لمن كان مقتراً أو كان مرتشياً، ولا يبقى غالباً للأمهات وللآباء شيء، ومن غير الغالب نجد منهم المواسين المكرمين للأبوين، فهذا كله جاء من قبيل الفطرة لعموم سائر الناس.

فأما ما يأتي بالإرادة فهو الحكمة والعلم وخلوص القلب لهما، وهاأنا ذا أبينه لك فأقول: اعلم أننا نرى الناس في الشرق والغرب ينقادون للممتازين بالحكمة والعلم، أو الزهد في الدنيا والصلاح، وهذه غريزة في النوع الإنساني وفطرة فيه شائعة بحيث تجدها في كل أمة، فالعامة من كل أمة، والخاصة يحترمون الأنبياء، والعامة وحدهم يخضعون للوعاظ، والخاصة يحبون الحكماء، فترى القسيس عند النصارى والحاخام عند اليهود، والشيخ عند المسلمين، كل هؤلاء معظمون عند العامة الذين حولهم، لأنهم في نظرهم قد حملوا شريعة نبيهم، وقد يكون في هؤلاء من لم يحمل تلك الشريعة حقاً، ولكن الغريزة قد تخطئ في الأشخاص ولكنها لا تخطئ من حيث العموم، كما أن غريزة الطعام في الإنسان

صادقة لحفظ الحياة، ولكنها قد تقع في أكل ما يضر بصحتها، فذلك لا يمنع كونها صادقة، هي صادقة من حيث نظامها، والخطأ في الجزئيات لا ينافي الصدق في الكليات.

وترى الناس يعظمون الذي يعتقدون أنه حائز صفة العلم ويقدسونه، وكلما ازداد علماً ازداد في نظرهم محبة ورغبة، وهكذا يحبون الشجعان الذين ذكرت لهم تواريخهم والمحسنين، أتدري لماذا هذا كله؟ لأن العلم شيء خارج عن المادة، والشجاع أقدم على هلاك نفسه لمنفعة غيره، والمحسن حرم نفسه وأعطى غيره. وبعبارة أخرى: إن الناس يعظمون من تخلص من المادة وسلطانها بالزهد، أو ببذل المال واشتهر بذلك، أو ببذل النفس، وهذا أقل الكمال، ويعظمون من تحلى بالعلم، لأن العلم كمال للروح، والناس ميالون بفطرهم لكل ما هو من عالم الأرواح، الناس ينقادون للأنبياء ويحبونهم لأنهم اتصفوا بالأمرين:

الزهد في المال، والتحلية بالعلم، وبعض الحكماء يقلدهم في ذلك، وليس يعقل أن يبرع الإنسان في علم ما لم يحبه، فالمحبة أساس النجاح في العلم.

كثير من الناس من نبذوا المال والأهل وعكفوا على العلم غراماً، وهم ينالون لذة لا يعرفها الناس، وإلا لم يتمكنوا من التبريز فيه، إذا رأينا في الناس من أضاع ثروته لأجل امرأة غير حسنة السمعة ورفت من وظيفته، وخرج من كل ما يملك، فيقال له: أنت عاقل فلماذا رضيت بضياع شرفك وصيتك وعظمة آبائك وثقة الناس بك؟ أكل هذا لأجل امرأة؟ فيجيب: هاتوا لي قلباً غير هذا القلب، أنا أعلم هذا كله ولكن لا أملك نفسي.

هذا النوع من الناس موجود في كل أمة، ووجد في بلادنا المصرية، كل ذلك للذة وليس يعرفها إلا الذي هو متلبس بها.

إذا كان هذا في باب اللذات الحسية فهكذا وجد في النوع الإنساني في كل أمة من حصلت لهم هذه اللذة في باب العلم والحكمة، فعكفوا عليها ولم يبالوا بضياع المال والثروة ولا يريدون إلا الحكمة، وكما أن الذي عكف على المرأة ينال من الذم والاحتقار ما لا حصر له؛ يكون الذي عكف على لذة العلم قد نال ما لا حصر له من المدح والثناء والإعظام، فهو في نفسه في لذة، والناس حوله يمدحونه ويثنون عليه.

عجب! لماذا كلاهما في لذته! فكيف ذكر الناس الأول وذموه، وأحبوا الثاني وعظموه ومدحوه! الجواب على ذلك: أن الأول شرب اللذات من المخلوق، والثاني شربها من الخالق، الشراب الأول ليس طهوراً، والشراب الثاني طهور طهر النفس من رجس المادة، ورجع الروح إلى عالمها المحبوب، فشراب الأولين غير طهور، وشراب الآخرين طهور.

فيا ليت شعري أيرضى ذلك الذي أحب العلم في هذه الحياة الدنيا أن يعكف بعد الحياة الدنيا على غير العلم، كلا، والله فإذا كان الله سقاه شراب العلم الذي طهره من المادة وأدرانها فإنه بعد الموت لا يشرب إلا من شراب ربه ويزيد فيه ما يشاء، وهذا قوله: ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ ﴾[التحريم: ٨]، فالنور الذي رآه في الدنيا يراه يوم القيامة، وهل نور أجلّ من العلم؟.

إن الشراب الطهور هو العلم، وأما بقية أوصاف الجنة وأحوالها فإنها تكون لمن لم يعشقوا العلم في الحياة الدنيا، ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾[الإسراء: ٧٢].

إن في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، إن من يفهم أحوال هذه الدنيا وهو فيها يموت أعمى، ولا يمكن لامرئ أن يعقل ما في هذه السورة إلا إذا فكر في أحوال أهل الأرض، وبغير العلم والفكر لا يصل الإنسان لسعادة في الدنيا ولا في الآخرة. اهـ.

هذا هو نهاية الكلام على سورة «الدهر».

وقد كتب ذلك يوم الجمعة الثالث من شهر المحرم الحرام سنة ١٣٤٤ هجرية، الموافق ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٥م.

والحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة المرسلات
هي مكية

إلا آية: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾، فمدنية

آياتها ٥٠، نزلت بعد سورة الهمزة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلْمُرْسَلَـٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَـٰصِفَـٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّـٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَـٰرِقَـٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَـٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَـٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَـٰمِخَـٰتٍ وَأَسْقَيْنَـٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَـٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَـٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

هذه السور المتلاحقة متشابهة المقاصد، ففي هذه السورة وصف المكذبين وعذابهم، والمتقين ونعيمهم، ويتخلل ذلك وصف خلق الإنسان، والأرض والجبال، وعموم القدرة، وعظمة الخالق جلّ وعلا.

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴾ قد علمت ما جاء في سورة «الدهر» وكيف جاء في أواخرها: ﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [الإنسان: ٢١]، وعرفت هناك أن هذا الشراب يطهر شاربه عن الميل إلى اللذات الحسية والركون إلى ما سوى الحق، فيجرد لمطالعة جماله ملتذاً بلقائه، باقياً ببقائه، وعلمت أن هذا منتهى درجات الصديقين، فهاهنا ابتدأ الله السورة بقوله: ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴾ الخ، أقسم الله بطوائف من الملائكة ومن الأرواح التي نزلت إلى عالم الأجسام في أرضنا، ومنهم الأنبياء والحكماء وأكابر العلماء.

أقسم الله بهذه الأرواح المرسلات عرفاً، أي: لأجل الإحسان والمعروف، فأما الملائكة فإنها تلقي الوحي إلى الأنبياء، والإلهام إلى العلماء والصالحين، وأما النفوس الإنسانية فإنها تعلم غيرها، فكل هؤلاء أرسلوا لأجل الإحسان والمعروف للناس بالأمر والنهي، وهم يعصفون ما سوى الحق فيبعدونه كما تبعد العواصف التراب والتبن والهباء، وينشرون آثارهم في الأمم وفي النفوس الحية ويفرقون بين الحق والباطل، فيلقون ذكراً، أما الملائكة فلهداية الناس، وأما الأنبياء فللتبليغ وتكميل النفوس، وأما الأرواح الكاملة فإنها تتهذب ولا تذكر إلا الله في القلب واللسان، فالملائكة والأرواح المرسلة إلى أجسامها في الأرض هي المقسم بها، لأنها إما سقاها ربها شراباً طهوراً، وإما لا تزال في طريق الوصول لهذا السقي، وليس يكمل في نفسه أو يكمل غيره إلا أمثال هذه النفوس من الملائكة والأنبياء والأرواح المستعدة للكمال، وإنّما حملنا المرسلات على هؤلاء لأن إلقاء الذكر لا يكون إلا من عاقل، أما الرياح فليست تلقي الذكر إلا على حسب التأويل فاخترنا الأول، وقوله: ﴿ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾ أي: للإعذار والإنذار من الله، وجواب القسم قوله: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ ﴾ من أمر الساعة ومجيئها ﴿ لَوَٰقِعٌ ﴾ أي: لكائن نازل لا محالة. فإن قيل: متى يكون؟ يجاب بقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ محقت وذهب نورها ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴾ فتحت فكانت أبواباً ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ كالحب ينسف بالمنسف ﴿ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴾ عين لها وقتها الذي يحضرون فيه للشهادة على الأمم بحصوله، فإنهم لا يتعين لهم قبله، وجواب الشرط معلوم مما قبله، أي: وقع الفصل، ويقال: ﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴾ أي: أخرت وأمهلت، فهذا استفهام بمعنى التهويل والتعجيب، كأنه قيل: أي يوم هذا الذي أجّل اجتماع الرسل إليه؟ إنه ليوم عظيم، ثم بين ذلك اليوم فقال: ﴿ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴾ وهو الذي يفصل فيه بين الخلائق، فهذا هو اليوم الذي أجّل اجتماع الرسل له، ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴾ تعجيب ثالث وتعظيم لأمره. ثم أبان المقصود من هذا التهويل وصرح بالمراد فقال: ﴿ وَيْلٌ ﴾ أي: ثبات الهلاك ودوامه ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ ظرف أو صفة ﴿ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بذلك اليوم، وهذا خبر، ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ

ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ الأمم الخالية المكذبة ﴿ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴾ جملة مستأنفة: أي: ثم نفعل بأمثالهم من الآخرين ما فعلنا بالأولين لأنهم كذبوا مثل تكذيبهم؛ وهذا وعيد لأهل مكة، ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي: مثل ذلك الفعل الشنيع ﴿ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ بكل من أجرم ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بما أوعدنا، ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ حقير، وهو النطفة المشروح الكلام عليها في سورة «الإنسان» وفي سورة «القيامة»، ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ مقر يتمكن فيه، وهو الرحم حال كونه مؤخراً ﴿ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ أي: إلى مقدار من الوقت معلوم قد علمه الله وهو تسعة أشهر فأكثر أو أقل ﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ أي: فقدرنا ذلك تقديراً، وفي قراءة بالتشديد، ﴿ فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴾ أي: فنعم المقدرون له نحن، ويجوز أن يكون الفعل واسم الفاعل معاً من القدرة ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بنعمة الفطرة وحكمة الخلق وحسن التقدير ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴾ أي: كافتة، أي: جامعة ضامة، يقال: كفت الشيء، إذا ضمه وجمعه، فهو مصدر وصف به، وقوله: ﴿ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴾ مفعولان لـ «كفاتاً»، أي: جامعة أمواتاً في بطنها وأحياء على ظهرها، ولذلك تسمى الأرض، إما لأنها تضم الناس كأنها أم تضم أولادها، ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ ﴾ جبالاً ثوابت متصلة بالطبقة الصوانية التي هي أبعد طبقات الأرض عن سطحها، وتلك الطبقة تضم في جوفها كرة النار المشتعلة العظيمة التي هي باطن الأرض، وظاهرها هذه القشرة التي نحن عليها، وهي طبقات أعلاها هي التي نحن عليها، وأدناها الصوانية، والجبال ممتدة إلى هذه الصوانية ثابتة عليها، ولولا الطبقة الصوانية التي امتدت منها الجبال لهوت القشرة ومن عليها في النار التي في باطنها التي هي البحر المسجور المذكور في سورة «الطور» كما تقدم، فهذه الجبال رست في أبعد الأعماق، وشمخت إلى أعالي الجو، فهي طوال ذاهبة علواً كما ذهبت سفلاً، وهذه الجبال مخازن للمياه التي تنزل من السحب فتنشر بها في باطنها وتحفظ في طبقاتها ثم تخرج للأنهار الجاريات تستمد بمائها، والثلج يدوم فوقها أمداً طويلاً، ويتنزل في باطن الجبل شيئاً فشيئاً ليجري من العيون الجاريات، تسقي الناس والأنعام والزرع تدريجاً على طول السنة، وهكذا تكون تلك الجبال كأنها مسنيات تحفظ الرياح والسحاب الجاريات بين تلك الجبال الممتدات إلى بعد عظيم في اليابسة، فتخرج السحاب من فوق البحار وتمتد إلى مسافات طويلة لأن الجبال تحفظ الرياح والسحاب من الذهاب يميناً أو يساراً، بل تبقى إلى أن تصل إلى ما بعد من اليابسة، فتسقي الزرع، وتدر الضرع، وهذا هو قوله تعالى: ﴿ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴾ إما بالسحاب الذي حفظته الجبال بارتفاعها، وإما بالعيون النابعات منها التي يمدها الثلج الذي يذوب شيئاً فشيئاً فوق ظهرها متنزلاً إلى بطنها، ساعياً إلى عيونها الجاريات، ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بأمثال هذه النعم، فهؤلاء المكذبون يقال لهم: ﴿ انطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ من العذاب ﴿ انطَلِقُوٓا۟ ﴾ كرر للتوكيد ﴿ إِلَىٰ ظِلٍّ ﴾ أي: إلى ظل دخان جهنم ﴿ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴾ يتشعب لشدة عظمته، لأننا نرى الدخان العظيم يتشعب ويتفرق كما تتفرق الذوائب، وفي التعبير بالثلاث إما للإشارة إلى أن عالم المادة فيه الطول والعرض والعمق والمادة محل حبس الأنفس، أو إلى الحس والخيال والوهم، فهذه الثلاثة هي التي تسبب العذاب للإنسان، ثم وصف الظل بقوله: ﴿ لَّا ظَلِيلٍ ﴾ وهذا تهكم بهم، أي: لا مظل ﴿ وَلَا

﴿ يُغْنِي ﴾ أي: وغير مغن لهم ﴿ مِنَ ٱللَّهَبِ ﴾ أي: من حر اللهب، أي: غير دافع شيئاً منه، ﴿ إِنَّهَا ﴾ أي: النار ﴿ تَرْمِي بِشَرَرٍ ﴾ وهو ما يتطاير من النار ﴿ كَٱلْقَصْرِ ﴾ أي: كل شرارة كالقصر في عظمها، ويقال: هو الغليظ من الشجر، الواحدة قصرة، ﴿ كَأَنَّهُۥ ﴾ يعني الشرر ﴿ جِمَٰلَتٌ ﴾ جمع الجمال ﴿ صُفْرٌ ﴾ جمع أصفر، أي: لون ذلك الشرر أصفر.

فائدة: سئل ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴾[المرسلات: ٣٢]، فقال: هي الخشب العظام المقطعة، وكنا نعمد إلى الخشبة فنقطعها ثلاثة أذرع وفوق ذلك ودونه وندخرها للشتاء، وكنا نسميها: القصر. ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بهذا اليوم ﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴾ بين المحق والمبطل والمحسن والمسيء ﴿ جَمَعْنَٰكُمْ ﴾ يا مكذبي محمد ﴿ وَ ﴾ المكذبين ﴿ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ هذا بيان وتقرير للفصل ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ أي: فإن كان لكم حيلة في دفع العذاب فاحتالوا علي بتخليص أنفسكم من العذاب، يقال: كدت فلاناً، إذا احتلت عليه، ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بالبعث. ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ ﴾ جمع ظل ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ جارية في الجنة ﴿ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ لذيذة مشتهاة، فهم مستقرون في ظلال حال كونهم مقولاً لهم: ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا ﴾ خالص اللذة لا يشوبه تنغيص ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فأحسنوا تجزوا بهذا ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بالجنة، فإن لهم العذاب المخلد. ثم خاطب المكذبين مهدداً لهم في الدنيا فقال: ﴿ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا ﴾ لأن متاع الدنيا قليل ﴿ إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴾ كافرون، فكل مجرم يأكل ويتمتع أياماً قلائل ثم يبقى في الهلاك الدائم ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بالنعم ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ ﴾ أطيعوا واخضعوا، أو صلوا، أو اركعوا في الصلاة ﴿ لَا يَرْكَعُونَ ﴾ لا يمتثلون، ولقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثقيفاً بالصلاة، فقالوا: لا نحبي، أي: لا نركع، فإنها مسبة، ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ بالأمر والنهي ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ ﴾ بعد القرآن ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ إذا لم يؤمنوا به، وهو معجز بذاته مشتمل على الحجج الصحيحة. انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها، والحمد لله رب العالمين.

لطائف هذه السورة:

اللطيفة الأولى في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ﴾.

اللطيفة الثانية في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾.

اللطيفة الثالثة في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ ﴾.

اللطيفة الأولى في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

ذكر الله إهلاك الأمم السابقة بتقصيرهم في الإيمان، وذكر أنه يفعل مع الآخرين ما فعله بالأولين، فإذا قصرت أمة في الإيمان بالله وأهلكها فيما مضى فهو هكذا يفعل بالتي تكذب فيما بعد فيهلكها، والعبرة في هذا أنه يجب على المسلمين أن يتبصروا ويتذكروا ويقيسوا الأشباه بأشباهها، فما فعل بالأولين يفعل بالآخرين، فلتنظر أمة الإسلام ما حل ببلاد الأندلس، فإن إكبابهم على الملاهي والتنعم والكسل والتقليد الأعمى أضاع بلادهم وأخذتها الفرنجة، كذلك يفعل الله بالمقصرين من أمم

الإسلام ، لأن الله جعل الأولين عبرة للآخرين ، دخل الفرنجة بلاد الجزائر وبلاد تونس ، وعرجوا على مصر وأخذوها ، كل هذا لأنه فعل بالآخرين كما فعل بالأولين ، فقد قصر أهل الأندلس فأزالهم الله ، فلما قصر بقية المسلمين ولم يعمموا التعليم ولم يفكروا فيه ولم ينهجوا نهج الأمم المفكرة أذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ، وسيزول هذا الخزي قريباً ، كل هذا يؤخذ من قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[المرسلات : ١٨] ولكن على طريق الاعتبار والقياس ، لا على طريق النص ، كما قال تعالى : ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[الحشر : ٢] ، وإذا قال الله : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾[المرسلات : ١٩] بآيات الله وأنبيائه ؛ فويل كذلك لمن لم يفهم ما هو حاصل بالأمم الإسلامية من الذل والقهر بسبب جهلها ، فالويل للمسلمين من حيث مجموعهم إذا داموا على ما هم عليه من حيث التقصير في العلوم والصناعات التي هي واجبة على مجموع الأمة وجوباً كفائياً ، فإذن المسلمون إذا لم يفكروا في ذلك يزيد عذاب الفرنجة عليهم ، فهم وإن لم يكونوا مكذبين فهم عاصون والعذاب يقع عليهم في الدنيا بذهاب دولهم ، وفي الآخرة بعذاب جهنم ، وهذا إجماع من علماء الإسلام ، لأنهم يعتقدون أن العذاب يقع على الأمة كلها في الدنيا والآخرة بترك فروض الكفايات ، وفروض الكفايات هي التي بها نظام الدول العام بحيث يشترك فيه الشعب كله بإخلاص . انتهى الكلام على اللطيفة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

الكلام في النطفة ، والجنين في الرحم ، ومدة الحمل ، وتقدير الله لذلك ، والنظام المتبع فيه ، كل ذلك يراد به معرفة الأجنة ، وعجائب الخلق ، والتفكر في ذلك ، وهذا يرجع لعلوم كثيرة قد شرحناها في سورة « القيامة » قريباً وتقدم في سور أخرى ، منها سورة « آل عمران » بطريق أوسع ، فراجعه هناك إن شئت .

اللطيفة الثالثة في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ ﴾

الأرض تسع الحي والميت ، وفيها الجبال الشامخات ، والماء الذي يسقي الزرع ويدر الضرع ، ذكر الأرض التي تقلنا وتحملنا ، وتضمنا في بطنها إذا متنا ، وفيها مخازن الماء ومسنياتها وما يمسكها لئلا تتشتت وتزول ، وذلك يوجب تيقظ الإنسان للأمور العامة ، فيدرس الأرض وطبقاتها ومن على ظهرها ، وجبالها وهواءها وسحابها ومطرها وعيونها وأنهارها ، والتفرج على عجائبها ، ثم أوعد المعرضين بالعذاب في جهنم ، وكما أن الناس إذا حلت الجيوش في بلادهم على جهلهم وظلمهم ونومهم وخرافاتهم لا ينطقون لانقطاع حججهم ؛ فيقول المستعمر لبلادهم افعلوا كذا فيفعلون ، ولا تقرؤوا من العلم إلا ما به تؤمرون ، ولا تفكروا إلا على قدر ما نحن مريدون ، وإياكم أن تنطقوا بالشكوى فإنكم تمزقون ، وبالمدافع تضربون ، وبالنار تحرقون ، وبالصواعق من الطيارات تهلكون ، أنتم مأمورون لا آمرون ، وسامعون لا متكلمون ، وعبيداً لنا مسخرون . لتخرسن ألسنة الأمم المغلوبة ، ولتكن الحرية مسلوبة ، والجماهير في أيدينا ألعوبة ، ونحن القاهرون وهم المقهورون ، فلا رقيب منه نخاف ، ولا من محنة الأيام وغوائلها نضطرب .

أقول: إذا كان هذا هو الحاصل الآن في بلاد الشرق حيث يفعل الأوروبيين معهم ذلك فما بالك بيوم القيامة، إذ تنقطع الحجة ويصبح المرء مقطوع الأمل من كل عمل، مسلوب اللب والمال والولد، مفقود الأصحاب والأهل، محروماً من كل سند وخل وولد، هنالك لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون.

حكاية: دخل «هولاكو» التتاري مدينة بغداد وأحضر الخليفة العباسي وهو غافل لا يدري، فلما أحضر بين يديه المائدة نظر فوجد فوقها أواني مملوءة جواهر في كل طبق نوع كالزمرد والياقوت والمرجان والذهب والزبرجد والماس، فقال له «هولاكو»: كل، فقال: هذا لا يؤكل، فقال «هولاكو»: أتدري من أين هذا؟ إنه من خزائنك أحضرته جنودي الآن، إنك قد أهملت الملك فلست تصلح له، والله سلبه منك، ثم قتله هو وابنه وذهبت الدولة. اهـ.

انظر كيف فعل الله بالأولين منا، فلما لم يعتبر المتأخرون فعل بهم ما فعل بالأولين، وتقصير المسلمين أنهم كانوا عن التفكر معرضين، وفي النزاع مجدين، وعن الاتحاد نائمين.

ذكر الله نقمه على الأولين والآخرين، وذكر نعمه بالخلق على الناس، ونعمه بالأرض وجبالها ومائها وذكر بعد ذلك الويل للمكذبين بذلك.

وإلى هنا تم الكلام على سورة «المرسلات»، والحمد لله رب العالمين.

كتب ليلة السبت ٤ من شهر محرم الحرام سنة ١٣٣٤ هجرية.

تم بحمد الله وتوفيقه

الجزء الرابع والعشرون من كتاب

الجواهر في تفسير القرآن الكريم

ويليه الجزء الخامس والعشرون

وأوله تفسير سورة «النبأ»



فهرس الجزء الرابع والعشرين

من كتاب

تفسير الجواهر